تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

المجلد الخامس

تحقيق وتعليق

الرحالة الفاروق — عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
السيد عبد العال السيد إبراهيم — محمد الشافعي الصادق العناني

مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية - دولة قطر

الطبعة الثانية
الدوحة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

طبعة جديدة
بصف وإخراج جديد

التنفيذ الطباعي
في مطابع دار الخير



للمراسلة: دمشق - سوريا - حلبوني - جادة الشيخ تاج
هاتف المكتب: ٠١١/٢٢٤٥٨٢٢ - تلفاكس: ٠١١/٢٢٢٢٦٩٤
هاتف المكتبة: ٠١١/٢٢٢٨٠٧٤ ص.ب: ١٣٤٩٢
E-mail: abualkhair@mail.sy
Website: www.Daralkhair.com

بيروت - لبنان - فردان - جنوب سيّار الدرك - بناء الشامي
هاتف: ٠١/٨١٠٥٧١ - تلفاكس: ٠١/٨٦٥٦٩٧
ص.ب: ١١٣/٥٦٣٠ - الرمز البريدي: ١١٠٣/٢٠٦٠



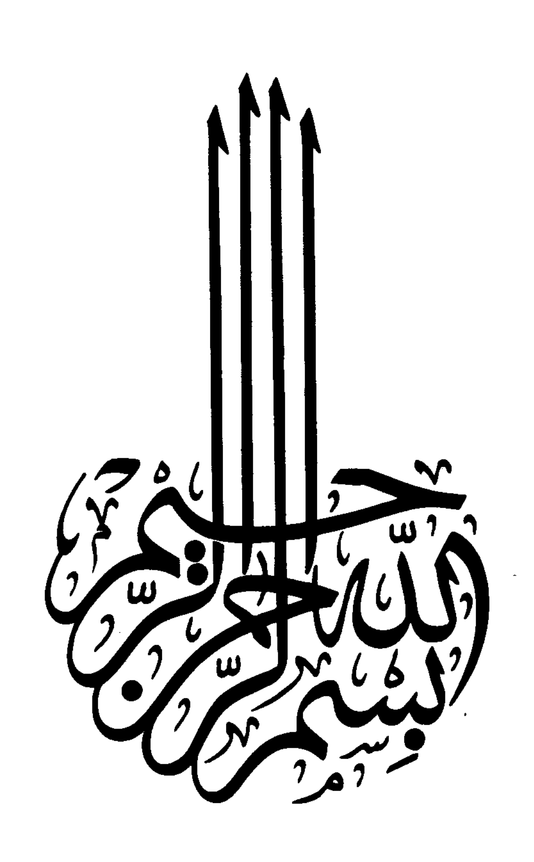
تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز




بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عزّ وجلّ:

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾.

قرأ جمهور الناس: [أصلواتُكَ] بالجمع، وقرأ ابن وثاب: (أَصَلاَتُكَ) بالإفراد، وكذلك قرأ في التوبة: ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ ﴾[١]، وفي (المؤمنون): [عَلَى صَلاتِهِم][٢]، كل ذلك بالإفراد. واختلف في معنى الصلاة هنا ـ فقالت فرقة: أرادوا الصلوات المعروفة، ورُوي أن شعيباً عليه السلام كان أكثر الأنبياءِ صلاة، وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. وقيل: أرادوا: قراءَتك، وقيل: أرادوا: أَمَسَاجدك؟ وقيل: أرادوا: أدَعَواتك؟.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأقرب هذه الأقوال الأول والرابع.

وجعلوا «الأمر» من فعل الصلوات على جهة التَّجوّز، وذلك أن كل من حصل في رتبة من خير أو شرّ ففي الأكثر تدعوه رتبة إلى التَّزَيّد من ذلك النوع، فمعنى هذا: أَلَمَّا كنت مصلياً تجاوزت إلى ذمّ شرعنا وحالنا؟ فكأن حاله من الصلاة جَسَّرَتْه على ذلك فقيل: أَمَرَتْهُ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾[٣].

قولهم: ﴿ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ نصٌّ في أنهم كانوا يعبدون غير الله تعالىٰ، وقرأ جمهور الناس: [نَفْعَلَ] و[نَشَاءُ] بنون الجماعة فيهما، وقرأ الضحاك بن قيس: [تَفْعَلَ] و[تَشَاءُ] بتاءِ المخاطبة فيهما، ورُويت عن أبي عبد الرحمن: [نَفْعَل] بالنون [مَا تَشاءُ] بالتاءِ، ورُويت عن ابن عباس رضي الله عنهما، فأما من قرأ بالنون فيهما فـ ﴿ أَنْ ﴾ الثانية عطف على ﴿ مَا ﴾ لا على ﴿ أَنْ ﴾ الأولى، لأن المعنى يصير: أصلواتك تأمرك

(١) من قوله تعالى في الآية (١٠٣) من سورة (التوبة) ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾.
(٢) من قوله تعالى في الآية (٩) من سورة (المؤمنون) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾.
(٣) من الآية (٤٥) من سورة العنكبوت.

أَن نفعل في أَموالنا ما نشاءُ؟ وهذا قلْب ما قصدوه، وأَما من قرأَ بالتاءِ فيهما فيصح عطف ﴿أَن﴾ الثانية على ﴿أَنْ﴾ الأُولى، قال بعض النحويين: ويصح عطفهاعلى ﴿مَا﴾ ويتم المعنى في الوجهين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويجيءُ ﴿نَتْرُكَ﴾ في الأَوّل بمعنى: نرفض، وفي الثاني بمعنى: نُقرّر، فيتعذر عندي هذا الوجه لما ذكرته من تنوع التَّرك على الحكم اللفظي، أَو على حذف مضاف، أَلا ترى أَن التَّرك في قراءَة من قرأَ بالنون في الفعلين إنما هو بمعنى الرفض غير متنوع، وأَما من قرأَ بالنون في ﴿نَفْعل﴾ والتاءُ في ﴿تَشَاءُ﴾ فـ ﴿أَنْ﴾ معطوفة على الأُولى، ولا يجوز أَن تنعطف على ﴿ما﴾ لأَن المعنى أَيضاً ينقلب فتدبره.

وظاهر فعلهم هذا الذي أَشاروا إِليه هو بخس الكيل والوزن الذي تقدم ذكره، ورُوي أَن الإِشارة هي إِلى قرضهم الدينار والدرهم وإِجراءِ ذلك مع الصحيح على جهة التدليس، قاله محمد بن كعب، وغيره. ورُوي عن سعيد بن المسيب أَنه قال: قطع الدنانير والدراهم من الفساد في الأَرض، فتأَول ذلك بهذا المعنى المتقدم، وتُؤُوِّل أَيضاً بمعنى أَنه تبديل السكك التي يقصد بها أَكل أَموال الناس.

واختلف في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ـ فقيل: إِنّما كانت أَلفاظهم: «إِنك لأَنت الجاهل السَّفيه» فكنى الله عن ذلك، وقيل: بل هذا لفظهم بعينه إِلا أَنهم قالوه على جهة الاستهزاءِ، قاله ابن جريج، وابن زيد، وقيل: المعنى: إِنك لأَنت الحليم الرشيد عند نفسك، وقيل: بل قالوه على جهة الحقيقة وأَنَّه اعتقادهم فيه، فكأَنهم فنَّدوه[1] أَي: أَنت حليم رشيد فلا ينبغي لك أَن تأْمرنا بهذه الأَوامر ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قريظة ـ حين قال لهم رسول الله ﷺ «يا إِخوة القردة»: «يا محمد ما علمناك جهولاً»[2].

---

(١) يقال: فَنَّد فلاناً وأَفْنَدَه: خَطَّأ رأيه، وفي التنزيل العزيز حكاية عن يعقوب: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، ويقال: فَنَّدَ رأيَه: أضعفه وأبطله.

(٢) لم نعثر على الحديث بهذا اللفظ، ولكن الذي رواه الإمام أحمد ينسب الكلام لعائشة رضي الله عنها، ولفظه عن أنس بن مالك أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السَّام عليكم، فقال النبي ﷺ: السَّام عليكم، فقالت عائشة: السَّام عليكم يا إخوان القردة والخنازير ولعنة الله وغضبه، فقال: يا عائشة=



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والشبه بين الأمرين إنما هو بالمناسبة بين كلام شعيب وتلطفه وبين ما بادر به محمد عليه الصلاة والسلام بني قريظة.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ الآية. هذه مراجعةٌ لفظية واسترسالٌ[1] حسن واستدعاءٌ رفيق، ولهذه الآية ونحوها من محاورة شعيب عليه السلام قال فيه رسول الله ﷺ: «ذاكَ خطيب الأنبياءِ». وجواب الشرط الذي في قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ محذوف، تقديره: أَأَضِلُّ كما ضللتم وأَترك تبليغ الرسالة؟ ونحو هذا مما يليق بهذه المحاجة. و﴿بَيِّنَةٖ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى: (بيان) أو بيِّن ودخلت الهاءُ للمبالغة كعَلاَّمة، ويحتمل أن تكون صفة لمحذوف فتكون الهاءُ هاءَ تأنيث[2].

وقوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ يريد: خالصاً من الفساد الذي أدخلتم أنتم في أَموالكم، ثم قال لهم: ولست أُريد أن أفعل الشيءَ الذي نَهيتكم عنه من نقص الكيل والوزن فأستأثر بالمال لنفسي، وما أُريد إلا إصلاح الجميع، و﴿أُنِيبُ﴾ معناه: أَرجع وأَتوب وأَستند[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ معناه: لا يكسبَنَّكم، يقال: جرَمه كذا وكذا وأَجْرمه إذا أكسبه،

= مه، فقالت: يا رسول الله أما سمعت ما قالوا؟ فقال: أوما سمعت ما ردَدْتُ عليهم؟ يا عائشة لم يدخل الرفق في شيءٍ إلا زانه ولم ينزع من شيءٍ إلا شانه.

(١) جاءت هذه العبارة في بعض النسخ: «هذه مراجعة لطيفة واستنزال حسن»، واختارها البحر المحيط في النقل عن ابن عطية.

(٢) ويكون التقدير: (أرأيتم إن كنت على محجَّةٍ بيِّنَةٍ).

(٣) من الاستناد بمعنى الاعتماد على الله واللجوء إليه.



كما يقال: كسب وأكسب بمعنى[1]، ومن ذلك قول الشاعر:

وَلَقَدْ طعنتَ أبا عُيَيْنَةَ طعْنَةً جرَمَت فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[2]

وقرأ الجمهور: ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بفتح الياء، وقرأ الأعمش، وابن وثاب: [يُجْرِمَنَّكُمْ] بضمها، و﴿شِقَاقِيٓ﴾ معناه: مُشَاقَّتي وعداوتي[3]، و﴿أَن﴾ مفعولة بـ ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾. وكانت قصة قوم لوط أقرب القصص عهداً بقصة قوم شعيب، وقد يحتمل أن يريد: وما منازل قوم لوط منكم ببعيد، فكأنه قال: وما قوم لوط منكم ببعيد في المسافة، ويتضمن هذا القولُ ضربَ المثل لهم بقوم لوط.

وقرأ الجمهور: ﴿مِّثْلُ﴾ بالرفع على أنه فاعل ﴿يُصِيبَكُم﴾، وقرأ مجاهد، والجحدري، وابن أبي إسحق: [مِثْلَ] بالنصب، وذلك على أحد وجهين: إما أن يكون [مِثل] فاعلاً وفتحة اللام فتحة بناءٍ لما أُضيف لغير متمكن، فإن [مِثْل] قد يجري مجرى الظروف في هذا الباب وإن لم يكن ظرفاً محضاً، وإما أن يقدر الفاعل محذوفاً يقتضيه المعنى، ويكون [مِثل] منْصوباً على النعت لمصدر محذوف تقديره: إصابة مثل.

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ الآية. تقدم القول في مثل هذا من ترتيب هذا الاستغفار قبل التوبة، و﴿وَدُودٌ﴾معناه أن أفعاله ولطفه بعباده لما كانت في غاية الإحسان إليهم كانت كفعل من يَتودّد ويود المصنوع له.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ﴾ الآية. ﴿نَفْقَهُ﴾ معناه: نفهم، وهذا نحو قول

---

(١) (جَرَم) في التعدية مثلُ (كَسَبَ)، يتعدَّى إلى واحد فتقول: جرم فلانٌ الذنبَ، وكسب زيدٌ المالَ، ويتعدّى إلى اثنين فتقول: جَرَمتُ زيداً الذنبَ، وكسَبْتُ زيداً المال، وبالألف يتعدّى إلى اثنين أيضاً، تقول: أجْرم زيدٌ عمراً الذنب، وأكسبْتُ زيداً المال.

(٢) هذا البيت قاله أسماءُ بن الضَّريبة، وفزارة تروى مرفوعة بمعنى حق لها الغضب، وتروى منصوبة والمعنى: جرمتهم الطعنة أن يغضبوا، والمشهور (طعنتُ) بتاء المتكلم، ولكن الصواب أنه يخاطب غيره فهي بالفتح. (راجع اللسان والتاج) هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في المائدة، وفي غيرها.

(٣) (شِقَاقي) في موضع رفع، و﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ في موضع نصب، والمعنى: لا تحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار، وهذا قول الحسن وقتادة، والشِّقاق بمعنى العداوة، لأن كل واحد في شِقّ، ومنه قول الأخطل:

ألا مَنْ مُبلِغٌ عَني رسولاً فَكَيْفَ وجَدْتُمُ طعْمَ الشِّقَاقِ؟

والمراد بالرسول هنا الرسالة، وهي ما ذكره في الشطر الثاني، أي: كيف وجدتم نتيجة العداوة؟.

قريش: ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ ﴾[١] ، ومعنى ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ : أي ما نفقه صحة قولك ، وأما فِقْهُهُم لفظَه ومعناه فمتحصل. وروي عن ابن جبير ، وشريك القاضي في قولهم: ﴿ ضَعِيفًا ﴾ أنه كان ضرير البصر أعمى ، وحكى الزهراوي أن حِمْيَر تقول للأعمى: ضعيف ، كما يقال له: ضرير ، وقيل: كان ناحل البدن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف ولا تقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه ، والظاهر من قولهم: ﴿ ضَعِيفًا ﴾ أنه ضعيف الانتصار والقدرة ، وأن رهطه الكفرة كانوا يراعون فيه.

والرَّهْط: جماعة الرجل[٢] ، ومنه الراهطاءُ لأن اليربوع يعتصم به كما يفعل الرجل برهطه[٣]. و﴿ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ قيل: معناه: بالحجارة ، وهو الظاهر ، قاله ابن زيد. وقيل: معناه: لرجمناك بالسَّب ، وبه فسّر الطبري ، وهذا أيضاً تستعمله العرب ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾[٤] ، وقولهم: ﴿ بِعَزِيزٍ ﴾ أي: بذي منعةٍ وعزَّة ومنزلة في نفوسنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ ﴾ الآية. «الظِّهْرِيّ»: الشيءُ الذي يكون وراءَ الظَّهر ، وقد يكون الشيءُ وراءَ الظهر بوجهين في الكلام: إمَّا بأن يُطرح ، كما تقول: جعلتَ كلامي وراءَ ظهرك ودَبْرَ أُذُنك ، ومنه قول الفرزدق:

تَميمُ بْنَ زيْدٍ لا تَكُونَنَّ حاجَتي ... بِظَهْرٍ فلا يعْيا عَلَيَّ جوابُها[٥]

---

(١) من الآية (٥) من سورة فصلت ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ الخ الآية.

(٢) في (اللسان): «رهْط الرجل: قومه وقبيلته ، والرهط عدد يجمع من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل: ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة ، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾. والجمع: أرْهُطٌ وأرهاطٌ وأراهط».

(٣) أول حفيرة يحتفرها اليربوع في جِحَرِهِ تسمى الرُّهَطَةُ والرُّهطاءُ والراهطاءُ ، وهي بين القاصعاء والنافقاءِ وفيها يخبىء أولاده.

(٤) من الآية (٤٦) من سورة مريم.

(٥) رواية اللسان: تميمُ بن قَيْس ، وقد قال: (وظَهَرَ بحاجة الرجل وظَهَّرها وأظهرها: جعلها بظَهْر واستخف بها ، أي جعلها وراءَ ظهره تهاوناً بها). وعَيَّ بالأمر: عجز عنه فهو عيٌّ والجمع: أَعْيَاءٌ ، أو هو عييٌّ والجمع: أَعْيِيَاءٌ ، والفرزدق يحذر تميمَ بن قيس ويطالبه بألا يهمل حاجته فهو ليس بعاجز عن الجواب عن إهماله وتهاونه.



وإمَّا بأَن يُسْند إليه ويُلْجأ، ومن هذا قول النبي ﷺ في دعائه: «وَأَلْجأْتُ ظهري إليك»[١]، فقال جمهور المتأَولين في معنى هذه الآية: إنه «واتخذتم الله ظهريا ـ أي غير مُراعى ـ وراءَ الظهر» على معنى الاطراح، ورجحه الطبري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهو عندي على حذف مضاف ولا بُدّ.

وقال بعضهم: الضمير في قوله: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ عائد على أَمر الله وشرعه، إذ يتضمنه الكلام، وقالت فرقة: المعنى: أَترون رهطي أَعز عليكم من الله وأَنتم تتخذون الله سند ظهوركم وعماد آمالكم؟.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فقول الجمهور على أَن كان كُفْر قوم شعيب جحداً بالله تعالىٰ وجهلاً به، وهذا القول الثاني على أَنهم كانوا يقرون بالخالق الرازق ويعتقدون الأَصنام وسائط ووسائل، ونحو هذا، وهاتان الفرقتان موجودتان في الكفرة، ومن اللفظة: الاستظهار بالبيِّنَة، وقد قال ابن زيد: الظِّهري: الفضل مثل الجمَّال يخرج معه بإِبِلٍ ظهاريّة يُعدها إن احتاج إليها وإلا فهي فضلة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا كله مما يُسْتَند إليه.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ خبر في ضمنه توعُّد، ومعناه: محيطٌ علمُهُ وقُدْرَتُهُ.

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٤٨٨) في كتاب الوضوء، وفي كتاب التوحيد، ورواه أبو داود في الأدب، والترمذي في الدعوات، والدارمي في الاستئذان، ولفظه كما رواه البخاري في التوحيد: عن البراءِ بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فلان، إذا أَويْت إلى فِراشك فقل: اللَّهم أسلمتُ نفسي إليك، ووجَّهت وجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيّك الذي أرسلت. فإنَّك إن مُتَّ في ليلتك مُتَّ على الفِطْرَة، وإن أصبحت أصبت أجراً».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ معناه: على حالاتكم، وهذا كما تقول: مكانة فلان في العلم فوق مكانة فلان، يستعار من البقاع إلى المعاني. وقرأ الحسن، وأبو عبد الرحمن، وعاصم: [مكاناتكم] بالجمع، والجمهور على الإفراد.

وقوله: ﴿ ٱعۡمَلُواْ ﴾ تهديد ووعيد، وهو نحو قوله: ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾[1]. وقوله: ﴿ مَن يَأۡتِيهِ ﴾ يجوز أن تكون ﴿ مَن ﴾ مفعولة بـ ﴿ تَعۡلَمُونَ ﴾، والثانية عطف عليها. قال الفراءُ: ويجوز أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

الأول أَحسن لأنها موصولة ولا توصل في الاستفهام، ويقضي بصلتها أن المعطوفة عليها موصولة لا محالة، والصحيح أن الوقف في قوله: ﴿ إِنِّي عَٰمِلٞۖ ﴾ ثم ابتداءُ الكلام بالوعيد، و﴿ مَن ﴾ معمولة لـ ﴿ تَعۡلَمُونَ ﴾ وهي موصولة. وقوله: ﴿ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ ﴾ كذلك تهديد أيضاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾ الآية. الأمر ها هنا يصح أن يكون مصدرَ أَمَرَ، ويصح أن يكون واحد الأمور، وقوله: ﴿ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا ﴾ إما أن يقصد الإخبار عن الرحمة التي لحقت شعيباً لنبوته وحُسْن عمله وعمل مُتَّبعيه، وإمَّا أن يقصد أن التنجية لم تكن إلا بمجرد رحمة لا بعمل من أعمالهم، وأَمَا ﴿ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ فهي صيحة جبريل عليه السلام، ورُوي أنه صاح بهم صيحة جثم لها كل واحد منهم في مكانه حيث سمعها ميتاً قد تقطعت حجب قلبه. والجُثُوم أصله في الطائر إذا ضرب بصدره إلى الأرض، ثم يستعمل في غيره إذا كان منه بِشَبَه.

---

(١) من الآية (٤٠) من سورة فصلت.

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ﴾ الآية. الضمير في قوله: ﴿ فِيهَآ ﴾ عائد على «الديار»، و﴿ يَغْنَوْا ﴾ معناه: يقيمون بنعمة وخفض عيش، ومنه المغانى، وهي المنازل المعمورة بالأهل، وقوله: ﴿ أَلَا ﴾ تنبيه لِلسَّامع، وقوله: ﴿ بُعْدًا ﴾ مصدرٌ دَعَا بِهِ، وهذاكما تقول: «سقيا لك، ورعيا لك، وسحقاً للكافر» ونحو هذا، وفارقت هذه قولهم: «سلام عليك»، لأن هذا كأنه إخبار عن شيءٍ قد وجب وتحصَّل، وتلك إنما هي دعاءٌ مُتَرَجَّي، ومعنى البعد في قراءَة من قرأ ﴿ بَعِدَتْ ﴾ بكسر العين: الهلاك، وهي قراءَة الجمهور، ومنه قول خِرْنِق بنت هَفَّان:

لا يَبْعِدنْ قَومِي الَّذِينَ هُمُ ... سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ[(١)]

ومنه قول مالك بن الريب:

يقولونَ لا تَبْعِدْ وهُمْ يَدْفِنُونَنِي ... وأَيْنَ مكَانُ الْبُعْدِ إلاَّ مَكَانِيَا؟[(٢)]

وأَما من قرأَ: [بَعُدَتْ] وهو السُّلَمي، وأَبو حيوة فهو من البُعْد الذي ضده القرب، ولا يُدعى به إلاَّ على مبغوض[(٣)].

---

(١) الخِرْنِق هي أُخت طرفة بن العبد لأمه وردة بنت عبد العُزّى، ومعنى الخِرْنق: الأرنب الصغير، وهذا البيت هو مطلع قصيدة ترثي بها زوجها بشر بن عمرو بن مِرْثد سيِّد بني أسد ومَن قُتل معه في يوم قُلاب. ولا يَبْعِدن: لا يَهْلِكن، وسُمُّ العداة: وصفٌ لهم بالشجاعة حتى أنهم يُهلكون عدوهم، وآفة الجزر: تصفهم بالكرم حيث يكثرون من ذبح الإبل للضيفان. تقول: حَمَى الله قومي من الهلاك فهم مثال الشجاعة على أعدائهم والكرم لضيوفهم.

(٢) هو مالك بن الريب المازني، وبيته هذا من قصيدة قالها يرثي بها نفسه حين أحسَّ بالموت يقترب منه وهو غريب بعيد عن أهله وبلاده، وهي من روائع الشعر العربي القديم صدقاً وتصويراً، يقول: إن قومي يتمنون لي السلامة والنجاة من الهلاك مع أنهم يُعدون لي قبري فهل هناك هلاك مثل هذا؟ ويمكن أن يفهم البعد على أنه بُعد المكان فقد كان بعيداً عن بلاده حين حانت وفاته.

(٣) قال النحاس: المعروف في اللغة أنه يقال: بعِد يَبْعَد بَعَداً وبُعْداً إذا هَلَك، وقال المهدوي: من ضَمَّ العين من [بَعُدت] فهي لغة تستعمل في الخير والشر، ومصدرها البُعْد، و(بَعِدت) تستعمل في الشَّرّ خاصة، فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللعنة، وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما في المعنى. نقل ذلك القرطبي، وفي (اللسان) «إن بعض العرب يقول: بَعِد، وبعضهم يقول: بَعُد مثل: سَحِقَ وسَحُقَ، ومن الناس من يقول: بَعُد في المكان، وبَعِد في الهلاك». وهذا ما اختاره ابن عطية رحمه الله.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾.

الآيات: العلامات، والسُّلْطان: البرهان والبيان في الحُجَّة، قيل: هو مشتق من السَّليط الذي يُسْتَضاءُ به[1]، وقيل: من أنه مسلط على كل جبار ومخاصم. والمَلأُ: الجمع من الرجال، والمعنى: أرسلناه إليهم ليؤمنوا بالله تعالىٰ فصدَّهم فرعون فاتبعوا أَمره ولم يؤمنوا وكفروا. ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ عن أَمر فرعون أنه ليس برشيد، أَي: ليس بمصيب في مذهبه ولا مفارق للسفاهة.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية. أَخبر الله تعالىٰ في هذه الآية عن فرعون أنه يأْتي يوم القيامة مع قومه المُغْرَقين معه وهو يَقْدُمُهُم إِلى النار، وأَوقع الفعل الماضي في ﴿فَأَوْرَدَهُمُ﴾ موقع المستقبل لوضوح الأَمر وارتفاع الإِشكال عنه، وَوَجْهُ الفصاحة من العرب في أَنها تضع أَحياناً الماضي موضع المستقبل أَنَّ الماضي أَدلُّ على وقوع الفعل وحصوله. و«الْوُرود» في هذه الآية هو وُرُود الدخول، وليس بُورود الإِشراف على الشيءِ والإِشفاءِ[2] لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾[3]، وقال ابن عباس: «في القرآن أَربعة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[4]، وقوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[5]، وهذه[6] في مريم، وفي الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[7]. قال: وهي كلها وُرُودُ دخول، ثم يُنجي الله

---

(١) السَّليطُ عند عامة العرب: الزَّيت، وعليه جاء قول امرئ القيس في وصف البرق:

يُضـيءُ سَنَـاهُ أَوْ مَصَـابيـحُ راهِـبٍ أَمـالَ السَّليـطَ بـالـذُّبَـالِ المُفتَّـلِ

(٢) مصدر أَشْفَى على الشيءِ: اقترب منه. (المعجم الوسيط).

(٣) من الآية (٢٣) من سورة القصص.

(٤) من الآية (٧١) من سورة مريم.

(٥) من الآية (٨٦) من سورة مريم.

(٦) الصواب: وهاتان لأن الآية التي قبلها في مريم هي الأخرى.

(٧) من الآية (٩٨) من سورة الأنبياء.

الَّذين اتَّقوا». و﴿ ٱلْمَوْرُودُ﴾ صفة لمكان ﴿ ٱلْوِرْدُ﴾ على أن التقدير: وبئس مكان الوِرْد الْمَوْرُود[١]. وقيل: ﴿ ٱلْمَوْرُودُ﴾ ابتداءٌ والخبر مقدم. والمعنى: المَوْرود بئس الوِرْدُ.

وقوله: ﴿ فِى هَـٰذِهِۦ﴾ يريد دار الدنيا، و«اللعنة»: إبعادهم بالغرق والاستئصال وقبيح الذكر غابر الدهر، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يُلعنون أيضاً بدخولهم جهنم، قال مجاهد: «فهما لعنتان، وذهب قوم إلى أن التقسيم هو أن لهم في الدنيا لعنة، ويوم القيامة بئس ما يُرفدون به، فهي لعنة واحدة أولا، وقبح إرفاد آخرا»[٢]. وقوله: ﴿ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: بئس العطاءُ المعطى لهم، والرِّفد في كلام العرب: العطية، وسُمِّي العذاب هنا رفْداً لأن هذا هو الذي حلَّ لهم محلَّ الرِّفْد، وهذا كما تقول: يا فلان لم يكن خيرك إلا أن تضربني، أي: لم يكن الذي حلَّ محلَّ الخير منك. والإِرْفَاد: المعونة، ومنه رفادة قريش، معونتهم لفقراءِ الحاج بالطعام الذي كانوا يطعمونه في الموسم[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية. ﴿ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ذكر العقوبات النازلة بالأُمم المذكورة، والأنباءُ: الأَخبار، و﴿ ٱلْقُرَىٰ﴾ يحتمل أن يراد بها القُرى التي ذكرت في الآيات المتقدمة خاصة، ويحتمل أن يريد القرى عامة، أي: هذه الأَنْباءُ المقصوصة عليك هي عوائد المدن إذا كفرت، فيدخل ـ على هذا التأويل ـ فيها المدن المعاصرة، ويجيءُ قوله: ﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ منها عامرٌ وداثر، وهذا

---

(١) جوّز ذلك أيضاً أبو البقاءِ، ومعنى ذلك أن المخصوص محذوف لفهم المعنى كما حذف في قوله تعالىٰ: ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، وهذا مبني على جواز وصف فاعل (نعم وبئس) وفيه خلاف، إذ ذهب ابن السراج والفارسي إلى أنه لا يجوز. وهناك تخريجات أخرى للآية تجدها في الكشاف للزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي وغيرهما.

(٢) عقَّب أبو حيان على كلام مجاهد هذا بقوله في (البحر المحيط)، و(وهذا لا يصح، لأن هذا التأويل يدل على أن ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ معمولٌ لـِ ﴿ وَبِئْسَ﴾، وبئس لا تتصرف فلا يتقدم معمولها عليها، ولو تأخر ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ صَحَّ كما قال الشاعر:

ولَنِعـمَ حَشْـو الـدِّرْعِ أنْـتَ إذَا ... دُعِيـت نَـزَالِ وَلـجَّ فـي الـذُّعـرِ

(٣) في كتب اللغة أن أصل الرِّفْد: العون، يقال منه: رَفَد فُلانٌ فُلاناً عند الأمير يَرْفده رِفْداً بكسر الراءِ، أما إذا فُتحت الراءُ فمعناه: السَّقْيُ في القَدَح العظيم، والرَّفْد: القدح الضخم، ومنه قول الأعشى:

رَفَـدِ هَـرَقْتُـهُ ذلِـكَ الْيَـوْ ... مَ وأَسْـرَى مِـنْ مَعْشَـرٍ أقْتَـالِ

كنَّى بالرِّفْد عن الموت، ومعنى أقتال: أصحاب تِرَاتٍ وهم أشد عنفاً في القتال وحرصاً على الإقدام فيه.



قول ابن عباس ، وعلى التأويل الأول ـ في أنها تلك القرى المخصوصة ـ يكون قوله: ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ بمعنى: قائم الجدران ومتهدم لا أثر له[١] ، وهذا قول قتادة وابن جريج ، والآية بجملتها متضمنة التخويف وضرب المثل للحاضرين من أهل مكة وغيرهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

المعنى: وما وضعنا عندهم من التعذيب ما لا يستحقونه ، لكنهم ظلموا أنفسهم بوضعهم الكفر موضع الإيمان ، والعبادة في جَنْبة الأصنام[٢] ، فما نفعتهم تلك الأصنام ، ولا دفعت عنهم حين جاءَ عذاب الله.

والتَّتبيب: الخُسران ، ومنه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[٣] ، ومنه قول جرير:

عَـرَارَةُ مِـنْ بَقِيَّـةِ قَـوْم لُـوطٍ ... أَلاَ تَبّـاً لمـا عَمِلُـوا تَبـابـا[٤]

أَي: خساراً، وصورة زيادة الأَصنام التَّتبيب إنما تُتصوَّر: إمَّا بأَنَّ تأْميلها والثقة بها والتعب في عبادتها ـ شغلت نفوسهم وصرفتها عن النظر في الشرع وعاقتها ، فلحق عن ذلك عَنَتٌ وخُسْران ، وإمَّا بأَن عذابهم على الكفر يُزاد عليه عذاب على مجرد عبادة الأَوثان.

---

(١) على التشبيه بالزرع ، بعضه قائم على سوقه ، وبعضه حصيد ، قال قتادة: جعل حصد الزرع كناية عن الفناءِ ، قال الشاعر:

والنَّـاسُ فـي قَسْـمِ المنِيَّـةِ بَيْنَهُـمْ ... كـالـزَّرْعِ منْـهُ قـائِـمٌ وحَصِيـدُ

(٢) الجَنْبُةُ والجَنَبَةُ مِنَ الشيءِ: جانبهُ وناحيتُه ، فقد جعلوا العبادة للأَصنام وفي ناحيتها.

(٣) من الآية (١) من سورة المَسَد.

(٤) البيت من قصيدة قالها جرير في هجاء الرّاعي النُّميري ، وهي في (النقائض) ـ طبع بيفان ص ٤٣٢ ـ وكذلك ذكرت في (منتهى الطلب) لابن ميمون ، و(الخزانة ١ ـ ٣٤) ، و«عَرارة» جاءَ محرفاً في الأصول «عرابة» ، وروي: «لما فعلوا» في الديوان ، و«لما صنعوا» في (التاج) و(اللسان) ، وعَرَارةُ النُّميريُّ هذا هو راوية الراعي النميري الذي قيلت فيه القصيدة كلها ، وعَرارةُ في الأصل اسم نبات.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ، الإشارة إلى ما ذكر من الأحداث في الأُمم ، وهذه آية وعيد تعم قُرى المؤمنين ، فإن ﴿ظَٰلِمَةٌ﴾ أعم من «كافرة» ، وقد يمهل الله تبارك وتعالىٰ بعض الكَفَرَة ، وأمَّا الظَّلَمة ـ في الغالب ـ فمُعَاجلون ، أما إنه يملي لبعضهم ، وفي الحديث ـ من رواية أَبي موسى ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يُمْلي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يُفلته» ، ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ الآية[1] .

وقرأ أَبو رجاءٍ العطاردي ، وعاصم الجحدري: [ربُّك إِذْ أخذ القرى][2] ، والجمهور الأَعظم: ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ ، وأَنحى الطبريّ على قراءَة عاصم هذه[3] ، وقرأ طلحة بن مصرف كذلك ، وهي قراءَة متمكنة المعنى ، ولكن قراءَة الجماعة تعطي بقاءَ الوعيد واستمراره في الزمان ، وهو الباب في وضع المستقبل موضع الماضي .

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ ، المعنى: إن في أمر هذه القُرى وما حلَّ بها لعبرة وعلامة اهتداءٍ لمن خاف أَمْر الآخرة ، وتوقع أَن يناله عذابها فنظر وتأَمل ، فإن نظره يؤديه إلى الإيمان بالله تعالىٰ ، ثم عظَّم الله أَمر يوم القيامة بوصفه بما تَلَبَّس بأَجنبي منه للسبب المتَّصل بينهما وبعود الضمير عليه ، و﴿ٱلنَّاسُ﴾ ـ على هذا ـ مفعول لم يُسَمَّ فاعله ، ويصح أَن يكون ﴿ٱلنَّاسُ﴾ رفعاً بالابتداءِ ، و﴿مَّجْمُوعٌ﴾ خبر مقدم[4] .

---

(١) رواه البخاري في التفسير ، ومسلم في البرّ ، والترمذي في التفسير ، وابن ماجه في الفتن ، ولفظه في البخاري عن أبي موسى كما رواه هنا ابن عطية .

(٢) اختلفت النسخ الأصلية في كتابة الآية طبقاً لهذه القراءة ، وقد صوبناها بالرجوع إلى تفسير الطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وكتب القراءات ، وهي: [وكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذْ أَخَذَ] على أن [أَخَذَ] فعل ماض ، و[رَبُّكَ] فاعل مرفوع ، و[إِذْ] بدلاً من [إذا] ، وقال القرطبي: وعن الجحدري أيضاً: [وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذْ] كقراءة الجماعة ولكن بـ [إِذْ] بدلاً من ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ﴾ .

(٣) قال الطبري: «وذلك قراءَة لا أستجيز القراءة بها لخلافها مصاحف المسلمين ، وما عليه قرأَةُ الأمصار» ، (راجع تفسير الطبري ١٢ ـ ١١٤). وإلى ذلك يشير ابن عطية بكلامه هنا .

(٤) قال أبو حيان تعقيباً على هذا الإعراب: «وهو بعيد لإفراد الضمير ﴿مَّجْمُوعٌ﴾» ، وقياسه ـ على إعرابه ـ (مجموعون). ومن اللطائف التي ذكرها الزمخشري ونقلها عنه أبو حيان تعليله لإيثار اسم المفعول على الفعل بقوله: لما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه لا بد أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له ، وأنه هو الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكُّون منه ، وفيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل .
ومعنى ﴿مَّشْهُودٌ﴾: مشهود فيه ، فاتسع في الجار والمجرور ووصل الفعل إلى الضمير إجراءً له مجرى المفعول به على السعة ، والمعنى: «يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد» ، ومنه قولهم: =

وهذه الآية خبر عن الحشر، و﴿مَّشْهُودٌ﴾ عام على الإطلاق يشهده الأولون والآخرون من الإنس والملائكة والجن والحيوان ـ في قول الجمهور ـ وفيه ـ أعني الحيوان الصامت ـ اختلاف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشاهد: محمد عليه الصلاة والسلام، والمشهود: يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ الآية. المعنى: وما نؤخر يوم القيامة عجزاً عن ذلك، ولكن القضاءَ السابق قد نفذ فيه بأَجل محدود لا يتقدم عنه ولا يتأخر. وقرأَ الجمهور: ﴿نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ بالنون، وقرأَ الأَعمش: [يُؤَخِّرُهُ] بالياءِ.

وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾[1] بحذف الياءِ من [يأتي] في الوصل والوقف، وقرأَ ابن كثير بإثباتها في الوصل والوقف، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، والكسائي بإثباتها في الوصل وحذفها في الوقف، ورويت أَيضاً كذلك عن ابن كثير، والياءُ ثابتة في مصحف أُبيّ بن كعب، وسقطت في إِمام عثمان، وفي مصحف ابن مسعود: [يوْمَ يأْتُون]، وقرأَ بها الأَعمش، ووجه حذفها في الوقف التشبيه بالفواصل، وإِثباتها في الوجهين هو الأَصل، ووجه حذفها في الوصل التخفيف، كما قالوا: «لا أُبالِ ولاَ أَدْرِ»، وأَنشد الطبريُّ:

كفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرْهَماً جوداً وأُخرى تُعطِ بالسَّيفِ الدَّمَا[2]

= «لفلانٍ مجلس مشهود وطعام محضور».

(١) المراد بإتيان اليوم أَهوالُه وشدائده إذ اليوم لا يكون وقتاً لإتيان اليوم. والظاهر أن الفاعل بـ ﴿يَأْتِ﴾ ضمير يعود على ما عاد عليه الضمير في قوله سبحانه: ﴿نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ وهو قوله قبل: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾، وأجاز الزمخشري أن يكون فاعل ﴿يَأْتِ﴾ ضميراً عائداً على الله تبارك وتعالىٰ، قال: كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾، ويعضد ذلك قراءة [يُؤَخِّرُهُ] بالياءِ.

(٢) كما لم ينسبه الطبري كذلك لم ينسبه صاحب اللسان، والشاهد في البيت حذف الياءِ من (تُعْطِ)، وهي لغة هذيل، قال الفراءُ في (معاني القرآن): «كل ياءٍ أو واوٍ تسكنان وما قبل الواو مضموم وما قبل ا لياء مكسور فإن العرب تحذفها وتجتزئ بالضمة من الواو وبالكسرة من الياء، أنشدني بعضهم: كفَّاك كفٌّ ـ البيت».

وما تُليقُ: ما تُمسك درهماً، يقال: ما يُليق بكفِّه درهمٌ بمعنى ما يحتبس، وما يُليقُ هو درهماً بمعنى: ما يحبسه، يمدحه بالشجاعة وبالكرم، وفي حذف الياءِ في هذا الموضع قال الزجاج: «والأجود في النحو إثبات الياءِ، والذي أراه اتِّباع المصحف وإجماع القرَّاءِ لأن القراءَة سُنَّة، وقد جاء مثله في كلام العرب».

وقوله: ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ يصح أَن تكون جملة في موضع الحال من الضمير الذي في ﴿ يَأْتِ ﴾ وهو العائد على قوله: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ ﴾ ، ولا يجوز أَن يعود على قوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ ، لأَن اليوم المضاف إِلى الفعل لا يكون فاعل ذلك الفعل ، إِذ المضاف متعرف بالمضاف إِليه ، والفعل متعرف بفاعله وليس في نفسه شيئاً مستقلاً دون الفاعل ، وقولهم: «سيِّد قومه ، ومولى أَخيه ، وواحد أُمه» مفارق لما لا يستقل ، فلذلك جازت الإِضافة فيها ، ويكون قوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ ـ على هذا ـ في موضع الرفع بالابتداءِ وخبره: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ، وفي الكلام ـ على هذا ـ عائد محذوف تقديره: «لا تكَلَّم نَفسٌ فيه إِلاَّ» ، ويصح أَن يكون قوله: ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ صفة لقوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ والخبر قوله: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ، ويصح أَن يكون قوله: ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ خبراً عن قوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾. وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ ﴾ يُرَادُ بِهِ اليوم الذي قبل ليلته ، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ يُراد به الحين والوقت لا النَّهَار بعينه ، فهو كما قال عثمان: «إِنِّي رأَيت أَلاَّ أَتزوج يومي هذا» ، وكما قال الصديق رضي الله عنه: «فَإِنَّ الأَمانة اليوم في الناس قليل»[1].

ومعنى قوله تعالىٰ: ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ : وصف المهابة يوم القيامة وذهول العقل وهول القيامة ، وما ورد في القرآن من ذكر كلام أَهل الموقف في التَّلاوم والتساؤُل والتجادل ، فإِمَّا أَن يكون بإِذن ، وإِما أَن تكون هذه هنا مختصة في تكلم شفاعة أَو إِقامة حجة[2].

وقوله: ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ عائد على الجميع الذي تضمنه قوله: ﴿ نَفْسٌ ﴾ إِذ هو اسم جنس يراد به الجميع.

---

(١) قال في (البحر المحيط): «وكلامه في إعراب ﴿ لَا تَكَلَّمُ ﴾ كأنه منقول من كلام الحوفي».

(٢) هذه قضية يثيرها كثيرون ممن يحبون الجدل ، يقولون: لم قال الله: ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ و﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ ، وقال في مواضع أخرى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ و﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ و﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾؟ وللجواب عن ذلك يقول العلماءُ: يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف متعددة ، ففي بعضها يجادلون وفي بعضها لا يتكلمون ، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم ، وهم عندما يتكلمون لا ينطقون بحجة تنفعهم وتجب لهم ، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ولوم بعضهم بعضاً ، ونحن نقول لمن يتكلم طويلاً بغير حجة ولا منطق: ما تكلمت بشيءٍ ، والمهم أنهم لا يتكلمون إلا بإذن الله سبحانه.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ شَقُواْ ﴾ ـ على بعض التأويلات في الاستثناء الذي في آخر الآية ـ يُرادُ به كلُّ من يعذب من كافر وعاصٍ، وعلى بعضها ـ كلُّ من يخلد، وذلك لا يكون إلا في الكفرة خاصة.

والزفير: صوت شديد خاص بالمحزون أو الموجع أو المعذب ونحوه، والشَّهيق كذلك، كما يفعل الباكي الذي يصيح خلال بكائه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الزفير: صوت حاد، والشهيق: صوت ثقيل، وقال أبو العالية: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق، وقيل: بالعكس، وقال قتادة: الزفير: أول صوت الحمار، والشهيق آخره[(١)]، فصياح أهل النار كذلك، وقيل: الزفير مأخوذ من الزَّفْر وهو الشِّدَّة، والشهيق من قولهم: جبل شاهق أي عالٍ، فهما ـ على هذا المعنى ـ واحد أو متقارب، والظاهر ما قال أبو العالية، فإن الزَّفرة هي التي يعظم معها الصدر والخوف، والشهقة هي الوقعة الأخيرة من الصوت المندفعة[(٢)] معها النَّفَسُ أحياناً، فقد يشهق المحتضر ويشهق المغشي عليه.

وأما قوله: ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ فقيل: معناه أن الله تبارك وتعالىٰ يبدل السموات والأرض يوم القيامة، ويجعل الأرض مكاناً لجهنم والسماءَ مكاناً للجنة، ويتأبد ذلك، فقَرنت الآية خلود هؤلاءِ ببقاءِ هذه، ويُروى عن ابن عباس أنه قال: «إن الله خلق السموات والأرض من نور العرش، ثم يردهما إلى هنالك في الآخرة، فلَهُما ثَمَّ بقاءٌ دائم». وقيل: معنى قوله: ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾: العبارةُ عن

---

(١) قال ذلك أيضاً الضحاك ومقاتل، وتعبيرهما: الزفير مثل أول نهيق الحمار، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته، قال العجاج:

حَشْـرَجَ فـي الْجَـوْفِ سَحِيـلا أوْ شَهَـقْ حَتَّـى يُقَـالَ نَـاهِـقٌ ومَـا نَهَـقْ

(٢) هكذا في جميع الأصول. وهو نعت سيء والصواب أن يقال: المندفع معها النَّفَسُ، إلا إذا تكلفنا وضبطنا الفاءَ بالسكون وأردنا النَّفْس.

التأْبيد: بما تعهده العرب ، وذلك أن من فصيح كلامها إِذا أَرادت أَن تخبر عن تأْبيد شيءٍ أَن تقول: «لا أَفعل كذا وكذا مدى الدهر ، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأَرض» ، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية ، فأَفهمهم الله تعالىٰ تخليد الكفرة بذلك وإِن كان قد أَخبر بزوال السموات والأَرض.

وأَما قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فقيل فيه: إِن ذلك على طريق الاستثناءِ الذي ندب الشرع إِلى استعماله في كل كلام ، فهو على نحو قوله تعالىٰ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[1] استثناءٌ في واجب ، وهذا الاستثناءُ في حكم الشرط ، كأَنه قال: «إِن شاء الله» ، فليس يحتاج إِلى أَن يوصف بمُتَّصل ولا بمنقطع ، ويؤيد هذا قوله تعالىٰ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ، وقيل: هو استثناءٌ من طول المدة ، وذلك على ما رُوي من أَن جهنم تخرب ويعدم أَهلها وتخفق أَبوابها[2] ، فهم ـ على هذا ـ يخلدون حتى يصير أَمرهم إِلى هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول مختل ، والذي رُوي ونُقل عن ابن مسعود وغيره إِنما هو الدرك الأَعلى المختص بعصاة المؤمنين ، هو الذي يُسمى جهنم ، وسُمي الكلُّ به تجوزاً.

وقيل: إِنما استثني ما يلطف الله تعالىٰ به للعصاة من المؤمنين في إِخراجهم بعد مدة من النار ، فيجيءُ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أَي: لقوم ما ، وهذا قول قتادة ، والضحاك ، وأَبي سنان ، وغيرهم ، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ عامّاً في الكفرة والعصاة كما قدمنا ، ويكون الاستثناءُ من ﴿خَٰلِدِينَ﴾[3]. وقيل: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواو ، فمعنى الآية: «ومَا شاءَ الله زائداً على ذلك» ، ونحو هذا قول الشاعر:

---

(١) من الآية (٢٧) من سورة الفتح.

(٢) المروي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: (ليَأْتِيَنَّ على جهنَّم يومٌ تصفق فيه أبوابها). راجع تعليق المؤلف على هذا فهو القول السليم.
وأقرب معاني (خَفَق) التي يمكن إيرادها هنا هو قولهم: خفق المكان: خَلا. رَوَى ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن مسعود: «لَيَأْتِيَنَّ عليها زمان تخفق أبوابها» ـ الدر المنثور.

(٣) يؤيد هذا ما قاله القرطبي: «وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحُمَمَة أُخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال: هؤلاء الجهنميون). والحُمَمَةُ واحدة الحمم وهو الرماد والفحم وكل ما احترق واسوَدّ من النار».

وكُــلُّ أخٍ مُفَــارِقُــهُ أَخُــوهُ   لَعَمْــرُ أَبِيــكَ إِلاَّ الْفَــرْقَــدَانِ[(١)]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا البيت يصح الاستشهاد به على معتقدنا في فناءِ الفرقدين وغيرهما من العالم، وأَما إن كان قائله من دَهْرِيّة العرب[(٢)] فلا حجة فيه، إذ يرى ذلك مؤبّداً فأجرى «إلاَّ» على بابها.

وقيل: ﴿إِلَّا﴾ في هذه الآية بمعنى «سوى»، والاستثناءُ منقطع، كما تقول: «لي عندك أَلْفا درهم، إلا الأَلف التي كنت أَسْلفتك»، بمعنى: سوى تلك، فكأَنه قال: خَالدين فيها ما دامت السموات والأَرض سوى ما شاءَ الله زائداً على ذلك»، ويؤيد هذا التأويل قوله بعْدُ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، وهذا قول الفراءِ، فإنه يقدر الاستثناءَ المنقطع بـ «سوى»، وسيبويه يقدره بـ «لكن»، وقيل: «سوى ما أَعدّه لهم من أَنواع العذاب مما لا يُعرف كالزمهرير ونحوه»، وقيل: استثناءُ من مدة السموات والأَرض، المدة التي فرطت لهم في الحياة الدنيا، وقيل: في البرزخ بين الدنيا والآخرة، وقيل: في المسافات التي بينهم في دخول النار، إذ دخولهم إنما هو زُمَراً بعدزُمَر، وقيل: الاستثناءُ من قوله: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾، كأَنه قال: «إلاَّ ما شاءَ ربُّك من تأخير قوم عن ذلك»، وهذا قول رواه أَبو نَضْرَةَ عن جابر أَو عن أَبي سعيد الخدري[(٣)]، ثم أَخبر مُنَبِّهاً على قدرة الله تبارك وتعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ [سَعِدُوا] بفتح السِّين، وهو فعل لا يتعدى، وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم ـ في

---

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب (سيبويه ١ ـ ٣٧١) ـ واللسان. وقيل: لحضرمي بن عامر (كما في المؤتلف والمختلف ١١٦) ـ وفي حاشية سيبويه: لسوار بن المضرب، والفَرْقَدَان: نجمان في السماء لا يغربان، وقيل: كوكبان قريبان من القطب، وقيل: كوكبان في بنات نعش الصغرى، يقال: لأبكينك الفرقَدَيْن: أي طول طلوعهما، ينصب على الظرف مثل بقية النجوم حيث يقال: لأبكينَّك الشمسَ والقَمَرَ، ويجوز أن تكون (إلا) في البيت بمعنى (غير)، قال سيبويه: كأنه قال: وكلُّ أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه، فهونعت لـ (كل). والبيت مذكور في الخزانة أيضاً (٢ ـ ٥٥).

(٢) الدَّهْري: الرجل الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة ويقول ببقاء الدَّهر.

(٣) ذكر ابن عطية عشرة أقوال في الاستثناءِ الوارد في هذه الآية، وقد ذكرها القرطبي أيضاً، ونقلها أبو حيان (البحر المحيط) عن ابن عطية، وللمفسرين أقوال أُخرى.



رواية حفص ـ: ﴿سُعِدُواْ﴾ بضم السِّين ، وهي شاذة ولا حجة في قولهم: «مسعود» لأنه «مفعول» من «أَسْعَدَ» على حذف الزيادة ، كما يقال: «محبوب» من «أَحبَّ» و«مجنون» من «أَجَنَّه الله» ، وقد قيل في مسعود: إِنما أَصله الوصف للمكان ، يقال: مكان مسعود فيه ، ثم نقل إِلى التسمية به ، وذكر أَن الفراءَ حكى أَن هذيلاً تقول: سَعَدَه الله ، بمعنى: أَسعده ، وبضم السِّين قرأَ ابن مسعود ، وطلحة بن مصرف ، وابن وثاب ، والأَعمش[١].

والأَقوال المترتبة في استثناءِ التي قبل هذه تترتب ها هنا إِلا تأْويل من قال: «هو استثناءُ المُدَّة التي تخرب فيها جهنم» فإِنه لا يترتب مثله في هذه الآية ، ويزيد هنا قول أَن يكون الاستثناءُ في المدة التي يقيمها العصاة في النَّار ، ولا يترتب أَيضاً تأْويل من قال في تلك: إِن الاستثناءَ هو من قوله تعالىٰ: ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾.

وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ نصب على المصدر[٢] ، والمجذوذ: المقطوع ، والجَذُّ: القطع[٣] ، وكذلك الجد ، وكذلك الحَزّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

لفظ الخطاب للنبي ﷺ ، والمعنى له ولأُمته ، ولم يقع لأحد شك فيقع عنه نهي ، ولكن من فصاحة القول في بيان ضلالة الكفرة إِخراجه في هذه العبارة ، أَي حالهم أَوضح من أَن يُمْتَرَى فيها ، والمِرْيَةُ: الشك ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إِشارة إِلى كفار العرب عبدة الأَصنام ، ثم قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ المعنى: إِنهم مقلدون

---

(١) قال أبو عمرو: «الدَّليل على أنه (سَعِدُوا) أن الأولى (شَقُوا) ولم يقل: (أُشقوا) ، وقال الثعلبي: «(سُعِدوا) بضم السين ، أي: رُزقوا السعادة» ، وقال سيبويه: «لا يقال: سُعِد فُلان كما لا يُقال: شُقِي فلانٌ لأنه مما لا يتعدى».

(٢) وَعطاءً هنا بمعنى إعطاء ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ فهو بمعنى: إنباتاً.

(٣) مأخوذ من قولهم: جَذّه يجذّه أي قَطَعَه ، قال النَّابغة يصف السيوف:

تَجُـدُّ السَّلُـوقِـيَّ المُضَـاعَـفَ نَسْجُـهُ ... وَتُـوقِـدُ بـالصُّفَـاحِ نـارَ الحُبَـاحِـبِ

لا برهان عندهم ولا حُجَّة ، وإنما عبادتهم تَشَبُّهاً منهم بِآبائِهم لا عن بصيرة ، وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ وعيد ، ومعناه: العقوبة التي تقتضيها أعمالهم[1] ، ويظهر من قوله: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أَن على الأولين كِفْلا من كُفْر الآخرين. وقرأ الجمهور: ﴿ لَمُوَفُّوهُمْ ﴾ بفتح الواو وشد الفاء ، وقرأ ابن محيصن [لَمُوْفوُهم] بسكون الواو وتخفيف الفاءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية. تسلية لمحمد ﷺ ، وذكر قصة موسى مثل له: أَي: لا يعظم عليك أَمْر من كذَّبَكَ فهذه هي سيرة الأُمم ، فقد جاءَ موسى بكتاب فاختلف الناسُ عليه.

وقوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ إِلى آخر الآية يحتمل أَن يريد به أُمَّة موسى ، ويحتمل أَن يريد به معاصري محمد ﷺ ، وأَن يعمهم اللفظ أِحسن عندي ، ويؤكد ذلك قوله: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا ﴾ ، و«الكلمة» ها هنا عبارة عن الحكم والقضاءِ ، ومعنى ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾: لَفُصل بين المؤمن والكافر بنعيم هذا وعذاب هذا. ووصْفُ الشَّكِّ بالمريب تقويةٌ لمعنى الشَّك.

وقرأَ الكسائي ، وأَبو عمرو: [وَإِنَّ كُلاً لَمَا] بتشديد النون وتخفيف الميم من [لَمَا] ، وقرأَ ابن كثير ، ونافع بتخفيفهما ، وقرأَ حمزة بتشديدهما ، وكذلك حفص عن عاصم ، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ بتخفيف [إِنْ] وتشديد الميم من [لمَّا] ، وقرأَ الزهري ، وسليمان بن أَرقم: [وإِنَّ كُلاً لَمّاً] بتشديد الميم وتنوينها ، وقرأَ الحسن بخلاف: [وإِنْ كُلُّ لَمَّا] بتخفيف [إِنْ] ورفع [كُلّ] وشد ﴿ لَّمَّا﴾ ، وكذلك قرأَ أَبان بن تغلب إِلاَّ أَنه خفف [لَمَا] ، وفي مصحف أُبيّ ، وابن مسعود: [وَإِنْ كُلٌّ إِلاَّ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ] ، وهي قراءَة الأَعمش ، قال أَبو حاتم: الذي في مصحف أُبَيّ: «وإِنْ مِنْ كُلٍّ إِلاَّ ليوفِّينَّهم أَعمالَهُم».

فأَما الأَول فَـ [إِنَّ] فيها على بابها ، و﴿ كُلًّا ﴾ اسمها ، وعرفها أَن تدخل على

---

(١) هذا قول ، وللعلماءِ في هذا النصيب ثلاثة أقوال ذكرها القرطبي: الأول: نصيبهم من الرزق ، قاله أبو العالية. والثاني: نصيبهم من العذاب ، قاله ابن زيد ، والثالث: ما وُعدوا به من خير أو شرّ. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وكما اختار ابن عطية ـ رحمه الله ـ هنا قول أبي زيد اختاره أيضاً الزمخشري.



خبرها لامٌ، وفي الكلام قسم تدخل لامه أيضاً على خبر «إنَّ»، فلما اجتمع لامان فصل بينهما بـ [ما]، هذا قول أَبي عليّ، والخبر في قوله: ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾[(١)]. وقال بعض النحاة: يصح أَن تكون [مَا] خبر [إنَّ]، وهي لمن يعقل لأَنه موضع جنس وصنف، فهي بمنزلة «مَنْ»، كأَنه قال: «وإِنَّ كُلا لخلْق لَيُوَفِّينهم»، ورجح الطبري هذاو اختاره[(٢)]، أَما إِنه يلزم القول أَن تكون [مَا] موصوفة إِذ هي نكرة، كما قالوا: مررت بما معجب لك»، وينفصل بأَن قوله: ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ يقوم معناه مقام الصفة، لأَن المعنى: «وإِنَّ كلا لخلْق مُوَفى عمله».

وأَما من خَفَّفَهَا ـ وهي القراءَة الثانية في ترتيبنا ـ فحكم [إِنْ] وهي مخففة حكمها مثقلة، وتلك لغة فصيحة، حكى سيبويه أَن الثقة أَخبره أَنه سمع بعض العرب يقول: «إِنْ عَمْراً لَمُنْطَلِقٌ»، وهو نحو قول الشاعر:

وَوَجْـــهٌ مُشْـــرِقُ النَّحْـــرِ   كَـــأَنْ ثَـــدْيَيْـــهِ حُقَّـــانِ[(٣)]

رواه أَبو زيد، ويكون القول في فصل [مَا] بين اللامين حسبما تقدم، ويدخلها القول الآخر من أَن تكون [مَا] خبر [إِنْ][(٤)].

وأَمَّا من شددها أَو خَفَّف [إِنْ] وشدَّد الميم[(٥)] ففي قراءَتيهما إِشكال، وذلك أَن بعض الناس قال: «إِنَّ ﴿ لَمَّا ﴾ بمعنى «إِلاَّ»، كما تقول: «سأَلتك لمَّا فعلْتَ كذا وكذا»

(١) قال الزجاج: لام ﴿ لَمَّا ﴾ هي لام [إنَّ]، و﴿ما﴾ زائدة مُؤكدة، و(إنَّ) تقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها لام، كقولك: (إن الله لغفور رحيم)، و(إنَّ في ذلك لذكرى)، ولام ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ هي التي يتلقى بها القسم، ولما اجتمعت اللامان فُصل بينهما بـ ﴿ما﴾، فهي زائدة مُؤكدة.

(٢) هذا قول الفراءِ، فهي كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾، والمعنى: وإنَّ كُلا لمَنْ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ.

(٣) البيت من شواهد الكتاب لسيبويه (١ ـ ٢٨١)، قال الأعلم في توجيهه: «الشاهد فيه تخفيف (كأنَّ) وحذف اسمها، والتقدير: كأنَّ ثدياه حقان، ويجوز: (كأن ثَدْيَيْه) على إعمال (كأنْ) مخففة، والهاءُ في (ثَدْيَيْه) عائدة على الوجه أو النحر، والمعنى: كأنْ ثَدْيَيْ صاحبه حُقّان».

(٤) والبصريون يُجَوّزون تخفيف (إنَّ) المشددة مع إعمالها، وقد استشهدوا لذلك بما قاله سيبويه وأبو زيد، وأنشدوا أيضاً قول ابن صريم اليَشْكُري:

وَيَـــوْمـــاً تُـــوَافِينَـــا بِـــوَجْـــهٍ مُقَسَّـــمٍ   كَـــأَنْ ظَبْيَـــةٌ تَعْطُـــو إِلـــى وارق السَّلَـــم

أراد: كأنها ظَبْيَةٌ، وزعم الفراءُ أن ﴿ كُلًّا ﴾ في قراءَة التخفيف منصوبة بقوله: ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾، وأنكر ذلك جميع النحويين.

(٥) أراد الميم في قوله تعالىٰ: ﴿ لَمَّا ﴾.



بمعنى: إلاّ فعَلْت[١]، قال أبو علي: وهذا ضعيف لأن ﴿لَمَّا﴾ هذه لا تفارق القسم. وقال بعض الناس: أصلها «لمنْ ما» فقلبت النون ميماً وأُدغمت في التي بعدها فبقي «لَمَمَّا» فحذفت الأُولى تخفيفاً لاجتماع الأمثلة، كما قرأ بعض القراءِ: ﴿والبَغْى يَعِظُكُمْ﴾[٢] بحذف الياءِ مع الياءِ، وكما قال الشاعر:

وَأَشْمَتَّ العداةَ بِنَا فأَضْحوْا ... لَدَيْ يَتَباشَرونَ بما لَقِينَا[٣]

قال أبو علي: وهذا ضعيف، وقد اجتمع في هذه السورة ميمات أكثر من هذه في قوله: ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[٤] ولم يدغم هناك فأحرى ألاّ يدغم هنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال بعض الناس: أصلها «لَمَنْ ما»، فـ «منْ» خبر ﴿وَإِنَّ﴾، و[ما] زائدة، وفي التأويل الذي قبله أصله: «لَمَنْ مَا»، فـ [ما] هي الخبر دخلت عليها «مِنْ» على حدّ دخولها في قول الشاعر:

وإِنَّا لَمِمَّا نَضْرِبُ الكَبْشَ ضَرْبَةً ... على رأسه تُلْقي اللِّسَانَ من الفَمِ[٥]

وقالت فرقة: ﴿لَمَّا﴾ أصلها «لَمًّا» منونةً، والمعنى: وإنْ كلا عاماً حصراً شديداً،

---

(١) قال القرطبي: «ومثله قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي إلا عليها، فمعنى الآية هنا: «ما كلُّ واحد منهم إلا لَيُوَفِّينهم»، وزيّف الزجاج هذا القول بأنه لا نفي هنا حتى تقدر «إلا»، ولا يقال: ذهب النَّاسُ لمَّا زيدٌ.

(٢) من الآية (٩٠) من سورة النحل، والاستشهاد بالآية على قراءة من قرأ (بتخفيف الياءِ مع الياءِ) كما قال الطبري في تفسيره، وجاءت العبارة هنا (بحذف الياءِ مع الياءِ). (راجع الهامش التالي).

(٣) البيت من شواهد الكسائي، وأنشده الفراءُ في (معاني القرآن)، وهو شاهد على التخفيف بحذف بعض الحروف المكررة في الكلمة، فَبَعْد أن تكلم على تخفيف ﴿لَمَّا﴾ قال: (ثم يخفف، كما قرأ بعض القراءِ: ﴿والبَغْى يَعِظُكُمْ﴾ بحذف الياء عند الياء، وأنشد الكسائي: وأشْمَتَّ العداة ـ البيت، ومعناه: لديْ يتَبَّاشرون، فحذف لاجتماع الياءِ)، فقد اجتمعت الياءان في (لَدَيَّ) مع الياء في (يتباشرون) وحذفت إحدى الياءات تخفيفاً بسبب اجتماع الأمثال.

(٤) من الآية (٤٨) من سورة هود.

(٥) البيت لأبي حيَّة النميري، وهو الهيثم بن الربيع (١٨٢ هـ) شاعر مجيد، وراجز فصيح من أهل البصرة، ومن مخضرمي الدولتين، والبيت من شواهد النحويين على دخول (من) على (ما) الكافة عن محل الجر، وهو في سيبويه (١ ـ ٤٧٧)، والخزانة (٤ ـ ٢٨٢)، ومغني اللبيب، هذا والمراد بالكبش زعيم القوم وسيدهم.



فهو مصدر: لَمَّ يَلُمّ، كما قال: ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾[1] ، أي: شديداً ، قلت: ولكنه ترك تنوينه وصرفه وبُنِيَ منه (فَعْلَى) كما فعل في [تَتْرَىَ] ، فقرئ: ﴿ تَتْرَا ﴾[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر ، حُكي عن الكسائي أنه قال: لا أعرف وجه التثقيل في [لَمّا]. قال أبو عليّ: وأما من قرأ [لَمّاً] بالتنوين وشدّ الميم فواضح الوجه كما بيَّنَّا.

وأَمّا من قرأ: [وَإِنْ كُلٌّ لَمَا] فهي المخففة من الثقيلة ، وحقُّها في أكثر لسان العرب ـ أن يرتفع ما بعدها ، و[لَمَا] هنا بمعنى: «إلاّ» ، كما قرأ جمهور القراءِ: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾[3] ، ومن قرأ: [إلاّ] مصرحةً فمعنى قراءَته واضح. وهذه الآية وعيد.

وقرأ الجمهور: ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ بياءٍ على ذكر الغائب ، وقرأ الأعرج: [تَعْمَلُونَ] بتاءٍ على مخاطبة الحاضر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

أَمْرُ النبي ﷺ بالاستقامة وهو عليها إنما هو أَمْرٌ بالدوام والثبات ، وهذا كما تأْمر إنساناً بالمشي والأكل ونحوه وهو متلبس به ، والخطاب بهذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام وأَصحابه الذين تابوا من الكفر ولسائر أُمته بالمعنى ، ورُوي أن بعض العلماءِ رأى النبي ﷺ في النوم فقال له: يا رسول الله بلغنا عنك أنك قلت: «شَيَّبَتْني هود

(١) من الآية (١٩) من سورة الفجر.

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (المؤمنون) ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ ، فقد قرأها بعض القراء [تَتْرَىً] بالتنوين ، كما قرأ من قرأ [لَمّاً] بالتنوين ، وقرأ بعض القراءِ (تَتْرَى) بغير تنوين ، كما قرأ من قرأ ﴿ لَّمَّا ﴾ بغير تنوين وقالوا: إن أصله من اللَّمِّ من قول الله تعالىٰ: ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ يعني: أكلا شديداً كما وضحه ابن عطية.

(٣) من الآية (٤) من سورة الطارق.



وأَخواتها»[١] ، فما الذي شيَّبك من هود؟ قال له: قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتأويل المشهور في قوله ﷺ: «شَيَّبَتْني هود وأَخواتها» أَنها إِشارة إِلى ما فيها ممَّا حلَّ بالأُمم السابقة ، فكأَن حذره على هذه الأُمَّة مثل ذلك شيَّبه عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿ أُمِرْتَ ﴾ مخاطبة تعظيم ، وقوله: ﴿ وَمَن ﴾ معطوف على الضمير في قوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ ﴾ ، وحَسُن ذلك دون أَن يؤكد لطول الكلام بقوله: ﴿ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ . و﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ معناه: ولا تتجاوزوا حدود الله تبارك وتعالىٰ ، والطغيان: تجاوز الحدّ ، ومنه قوله: ﴿ طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾[٢] ، وقوله في فرعون: ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[٣] ، وقيل في هذه: معناه: ولا تطغينَّكم النِّعم ، وهذا كالأَول. وقرأَ الجمهور: ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ بتاءٍ ، وقرأَ الحسن ، والأَعمش: [يعْمَلون] بياءٍ من تحت.

وقرأَ الجمهور: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ ﴾ بفتح الكاف ، وقرأَ طلحة بن مصرف ، وقتادة ، والأَشهب العقيلي ، وأَبو عمرو ، فيما رَوى عنه هارون ـ بضمها ، وهو لغة ، يقال: رَكِن يَرْكَن ورَكَن يَرْكُن[٤] ، ومعناه السكون إِلى الشيءِ والرِّضا به ، قال أَبو العالية:

---

(١) رُوِيَ هذا الحديث من طُرق مختلفة ، وبزيادات تختلف من رواية إلى أُخرى ، فقد رواه الطبراني في الكبير بلفظ (شَيَّبَتْني هود وأَخواتُها) عن عقبة بن عامر ، وعن أبي جحيفة ، ورمز له السيوطي بالصحة ، ورواه الطبراني أيضاً في الكبير عن سهل بن سعد بلفظ (شَيَّبَتْني هود وأخواتها الواقعة والحاقة وإذا الشمس كوِّرت) ، ورمز له السيوطي بأنه حسن ، ورواه الترمذي ، والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وانفرد الحاكم بروايته أيضاً عن أبي بكر رضي الله عنه ، ورواه ابن مردويه عن سعد بلفظ (شَيَّبَتْني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوِّرت) ، ورمز له السيوطي بأنه حسن ، ورواه ابن مردويه عن أبي بكر رضي الله عنه بلفظ (شَيَّبَتْني هود وأخواتها قبل المشيب) ، وقال السيوطي: حديث حسن ، ورواه ابن مردويه عن عمران بلفظ (شيَّبَتْني هود من المفصل) ، وقال السيوطي: حديث حسن ، وهناك روايات أُخرى لا تخرج عما ذكرناه.

(٢) من الآية (١١) من سورة الحاقة.

(٣) تكررت في الآيات (٢٤) و(٤٣) من سورة طه ، و(١٧) من سورة النازعات.

(٤) قال في (اللسان): «قرئ بفتح الكاف من ركِنَ يَرْكَن ، ولغة أُخرى ركَن يركُن وليست بفصيحة ، وأجاز أبو عمرو ، ركَن يركَن بفتح الكاف من الماضي وهو خلاف ما عليه الأبنية في السالم». و قال في (البحر المحيط): «وقرأ الجمهور ﴿تَرْكَنُوٓاْ﴾ بفتح الكاف والماضي (ركِن) بكسرها ، وهي لغة قريش ، وقال الأزهري: هي اللغة الفصحى ، وقرأ قتادة وغيرها [ترْكُنوا] بضم الكاف والماضي [ركَن] بفتحها. وهي لغة قيس وتميم ، وشذَّ (يَرْكَنَ) بفتح الكاف مضارع (ركَنَ) بفتحها».



الرّكون: الرضا ، قال ابن زيد: الرّكُون: الإِذعان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالركون يقع على قليل هذا المعنى وكثيره ، والنهي هنا يترتب من معنى الركون على المَيْل إِليهم بالشِّرك معهم إِلى أَقل الرُّتب من ترك التغيير عليهم مع القدرة ، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هنا هم الكفار ، وهو النَّصّ للمتأَولين ، ويدخل بالمعنى أَهل المعاصي.

وقرأ الجمهور: ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ ، وقرأَ يحيى بن وثاب ، وعلقمة ، والأَعمش ، وابن مصرف ، وحمزة ـ فيما روي عنه ـ: [فَتِمَسَّكُم] بكسر التاءِ ، وهي لغة في كسر العلامات الثلاث دون الياءِ التي للغائب ، وقد جاءَ في الياءِ «يِيجَل» و«يِيبَى» ، وعللت هذه بأَن الياءَ التي ولِيَت الأُولى ردَّتها إِلى الكسر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية. لم يختلف أَحد في أَن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ، واخْتُلف في «طَرَفَي النهارِ وزُلَف الليل» ـ فقيل: الطرف الأَول: الصبح ، والثاني: الظهر والعصر ، والزُّلَف: المغرب والعشاءُ ، قاله مجاهد ، ومحمد بن كعب القُرظي. ورُوي أَن النبي ﷺ قال في المغرب والعشاءِ: «هما زُلفتا الليل»[1]. وقيل: الطرف الأَول: الصبح ، والثاني: العصر ، قاله الحسن ، وقتادة ، والضحاك. والزُّلفُ: المغربُ والعشاءُ ، وليست الظهر في هذه الآية ـ على هذا القول ـ بل هي في غيرها. وقيل: الطرفان: الصبح والمغرب ، قاله ابن عباس ، والحسن أَيضاً ، والزُّلفُ: العشاءُ ، وليست الظهر والعصر في الآية ، وقيل: الطرفان: الظهر والعصر ، والزُّلف: المغربُ والعشاءُ والصبحُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَن هذا القائل راعى جهر القراءَة ، والأَول أحسنُ هذه الأَقوال عندي ، ورجح الطبريّ أَن الطرفين: الصبح والمغرب ، وأَنه الظاهر إِلاَّ أَن عموم الصلوات الخمس بالآية أَولى.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَزُلَفًا﴾ بفتح اللام ، وقرأَ طلحة بن مصرف ، وابن محيصن ،

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن الحسن. (فتح القدير ، والدر المنثور).

وعيسى ، وابن إسحق ، وأبو جعفر : [زُلُفاً] بضم اللام كأنه اسم مفرد ، وقرأ [زُلْفاً] بسكون اللام مجاهد ، وقرأ أيضاً: [زُلْفَى] على وزن «فُعْلَى» ، وهي قراءة ابن محيصن ، والزُّلَف : الساعات القريب بعضها من بعض ومنه قول العجاج :

ناجٍ طَواهُ الأَيْنُ مِمَّا وجَفَا
طَيَّ اللَّيالي زُلَفاً فَزُلَفَا
سَمَاوةَ الْهِلاَلِ حتَّى احْقَوْقَفَا[1]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ذهب جمهور المتأولين من صحابة وتابعين إلى أن ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ يراد بها الصلوات الخمس ، وإلى هذه الآية ذهب عثمان رضي الله عنه عند وضوئه على المقاعد[2] ، وهو تأويل مالك ، وقال مجاهد: الحسنات: قول الرجل: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلاَّ الله ، والله أكبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله إنما هو على جهة المثال في الحسنات ، ومن أجل أن الصلوات الخمس هي أعظم الأعمال. والذي يظهر أن لفظ الآية عام في الحسنات خاص في السيئات لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما اجْتُنِبَت الْكَبَائر». وروي أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار ، قيل: هو أبو الْيَسَر بن عمرو ، وقيل: اسمه عبَّاد ، خلا بامرأة فقبَّلها

---

(١) الأبيات الثلاثة من مشطور الرجز ، وهي في وصف جمَل ، والناجي: المسرع في السَّيْر لأنه ينجو بسرعته من الأخطار ، والأين: التَّعب والإعياءُ ، والوَجْف: سرعة السير ، أي: أصابه التعب من سرعة السير ، وزُلَفاً فزُلَفاً: قال في اللسان: منزلةً بعد منزلة ودرجة بعد درجة ، وسماوة الهلال: شخصه إذا ارتفع عن الأفق شيئاً ، ومعنى احقوقف: طال واعَوجّ ، وكل ما طال واعوجَّ فقد احقوقف كشخص الهلال وظهر البعير.

(٢) أسند ابن جرير الطبري إلى زهرة بن معبد قال: سمعت الحرث مولى عثمان بن عفان يقول: جلس عثمان بن عفان يوماً وجلسنا معه ، فجاءَ المؤذن ، فدعا عثمان بماءٍ في إناءٍ أظنه سيكون فيه قدرُ مُدّ ، فتوضأ ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ، ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلَّى صلاة الظهر غُفِر له ما كان بينه وبين صلاة الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر ، ثم صلَّى المغرب غُفر له ما بينه وبين صلاة العصر ، ثم صلَّى العشاءَ غُفِرَ له ما بينه وبين صلاة المغرب ، ثمَّ لعلَّه يبيت ليلة يتمرّغ ، ثم إنْ قام فتوضأ وصلَّى الصبح غُفر له ما بينها وبين صلاة العشاءِ ، وهنَّ الحسَنَات يُذهِبن السَّيِّئات) ، وفي رواية أخرى لابن جرير أيضاً: جلس عثمان يوماً على المقاعد.. فذكر مثله ، وهذا هو السبب في إشارة المؤلف إلى المقاعد.



وتلذَّذ بها فيما دون الجماع ، ثم جاءَ إلى عمر رضي الله عنه فشكا إليه ، فقال: قد ستر الله عليك فاستر على نفسك ، فقلق الرجل فجاءَ أَبا بكر رضي الله عنه فشكا إليه ، فقال له مثل مقالة عمر ، فقلق الرجل فجاءَ رسول الله ﷺ فصلى معه ثم أَخبره وقال: اقْضِ فيّ ما شئت ، فقال الرسول ﷺ: لعلَّها زوجة غاز في سبيل الله ، قال: نعم ، فوبَّخه رسول الله ﷺ وقال: ما أَدري ، فنزلت هذه الآية فدعاه رسول الله ﷺ فتلاها عليه ، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: يا رسول الله ، خاصة؟ قال: بل للناس عامة[١].

ورُوي أَن الآية كانت نزلت قبل ذلك واستعملها رسول الله ﷺ في ذلك الرجل ، ورُوي أَن عمر بن الخطاب قال ما حكي عن معاذ.

ورُوي أَن رسول الله ﷺ قال: «الجمعة إلى الجمعة ، والصلوات الخمس ، ورمضان إلى رمضان ـ كفَّارة لما بينهما إن اجْتُنِبَت الكبائر»[٢] ، فاختلف أَهل السُّنة في تأْويل هذا الشرط في قوله: «إن اجْتُنبت الكبائر» ـ فقال جمهورهم: هو شرط في معنى الوعد كله ، أَي: إن اجْتُنِبت الكبائر كانت العبادات المذكورة كفارة للذنوب ، فإن لم تُجتنب لم تكفر العبادات شيئاً من الصغائر ، وقالت فرقة: معنى قوله: «إن اجْتُنبت» أَي: هي التي لا تحطها العبادات ، فإنما شرط ذلك ليصح بشرطه عموم قوله: (ما بينهما) ، وإن لم تُجْتنب لم تحطها العبادات وحطت الصغائر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبهذا أَقول: وهو الذي يَقتضيه حديث خروج الخطايا مع قطر الماءِ

---

(١) أخرجه الترمذي وحسَّنه ، والبزار ، وابن جرير ، وابن مردويه عن أبي اليَسَر ، وفيه قال: (أتتني امرأة تبتاع تمراً ، فقلت: إن في البيت تمراً أطيب منه ، فدخلت معي البيت ، فأهويت إليها فقبّلتها ، فأتيت أبا بكر. . .) الحديث ، وفي البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذي ، وغيرهم أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة. . . إلخ ولم يذكر اسم الرجل ، وفي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي أجاب أبا اليَسَر بأنها عامة للمسلمين لأنه هو الذي قال للرسول ﷺ: ألي خاصة؟ فقال عمر: لا ، وضرب على صدره. والروايات كثيرة في هذا الحديث.

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ «الجمعة إلى الجمعة كفارة ما بينهما ما لم تُغْش الكبائر ، ورمز له السيوطي بالضعف في (الجامع الصغير) وأخرج البزّار عن أنس عن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتُنِبَت الكبائر» ، وأخرج الطبراني عن أبي أُمامة الباهلي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصلاة المكتوبة تكَفِّر ما قبلها إلى الصلاة الأخرى ، والجمعة تُكَفِّر ما قبلها إلى الجمعة الأخرى ، وشهر رمضان يكفِّر ما قبله إلى شهر رمضان ، والحج يكفِّر ما قبله إلى الحج» (الدر المنثور).



وغيره[١] ، وذلك كله بشرط التوبة من تلك الصغائر وعدم الإِصرار عليها ، وهذا نصُّ حُذَّاق الأُصوليِّين ، وعلى التأْويل الأَول تجيءُ هذه مخصوصة في مجتنبي الكبائر فقط .

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إِلى الصلوات ، ووصفها بـ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ ، أَي: هي سبب ذكر وموضع ذكرى ، ويحتمل أَن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إِلى الإِخبار بأَن الحسنات يذهبن السيئات ، فتكون هذه الذكرى تحضُّ على الحسنات ، ويحتمل أَن تكون الإِشارة إِلى جميع ما تقدم من الأَوامر والنواهي في هذه السورة ، وهو تفسير الطبري .

ثم أَمره تعالىٰ بالصبر[٢] .

وجاءَت هذه الآياتُ في نمط واحد: أَعلمه الله تعالىٰ أَنه يوفي جميع الخلائق أَعمالهم ، المسيءَ والمحسن ، ثم أَمره بالاستقامة والمؤمنين معه ، ثم أَمره بإِقامة الصلوات ووعد على ذلك ، ثم أَمره بالصبر على التبليغ والمكاره في ذات الله تبارك وتعالىٰ ، ثم وعد بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

﴿فَلَوْلَا﴾ هي التي للتحضيض ، لكن يقترن بها هنا معنى التفجع والتأَسف الذي ينبغي أَن يقع من البشر على هذه الأُمم التي لم تهتد ، وهذا نحو قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى

(١) رواه مسلم في الطهارة ، وكذلك هو في الموطأ في الطهارة ، ورواه الإمام أحمد (٢/ ٣٠٣) ، ولفظه فيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماءِ ، أو مع آخر قطرة الماءِ ، أو نحو هذا ، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطش بها مع الماءِ ، أَو مع آخر قطرة الماءِ حتى يخرج نقياً من الذنوب».

(٢) من اللطائف التي أشار إليها أبو حيان في هذه الآيات قوله: (انظر إلى الأمر والنهي في هذه الآيات ، فقد جاء الخطاب بالأمر موحداً في الظاهر وإن كان المأمور به من حيث المعنى عامّاً: «فاستقم» ، «أقم الصلاة» ، «واصبر» ، وجاء الخطاب في النهي موجهاً إلى غير الرسول ﷺ مخاطباً به أُمته: «ولا تركنوا» ، فحيث كان الأمر بأفعال الخير توجه الخطاب إليه ، وحيث كان النهي عن المحظورات عدل عن الخطاب عنه إلى غيره من أُمته ، وهذا من جليل الفصاحة).



﴿ٱلْعِبَادِۚ﴾(١) ، و﴿ٱلْقُرُونِ﴾ من قبلنا هم قوم نوح وعادٍ وثمود ومن تقدم ذكره ، والقرن من الناس: المقترنون في زمان طويل أكثره ـ فيما حدّ الناس ـ مائة سنة ، وقيل: ثمانون ، وقيل غير ذلك إلى ثلاثين سنة ، والأرجح الأول لقول النبي ﷺ: «أرأيتكم ليلتكم هذه فإن إلى رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»(٢) ، قال ابن عمر رضي الله عنهما: يريد أنها تخرم ذلك القرن ، و«البقية» هنا يراد بها النَّظَرُ والعقل والحزم والثبوت في الدين ، وإنما قيل «بقية» لأن الشرائعَ والدولَ ونحوَها قُوّتُها في أولها ثم لا تزال تضعف ، فمن ثبت في وقت الضعف فهو بقية الصدر الأول ، وقرأ فرقة: [بَقِية] بتخفيف الياءِ ، وهو ردّ فَعِيلَة إلى فَعِلة(٣) ، وقرأ أبو جعفر ، وشيبة: [بُقْية] بضم الياءِ وسكون القاف على وزن فُعْلة.

و«الفَسَادُ في الأرض» هو الكفر وما اقترن به من المعاصي ، وهذه الآية فيها تنبيه لأمة محمد ﷺ وحضٌّ على تغيير المنكر والنهي عن الفساد ، ثم استثنى الله تعالىٰ القوم الذين نجاهم مع أنبيائهم وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم ، و﴿قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناءِ ، وهو منقطع عند سيبويه ، والكلام عنده موجب ، وغيره يراه منفياً من حيث معناه أنه لم يكن فيهم أولو بَقِيّة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل ، وقرأ جعْفَر بن محمد: [وَأُتبِعَ] على بنائه للمفعول ، ورويت عن أبي عمرو(٤). و﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي: عاقبة ما نعموا به ـ على بناء الفعل للمفعول ـ ، والمُترف: المُنعَّم الذي شغله ترفه عن الحق حتى هلك ، ومنه قول الشاعر:

تُهْـدِي رُؤُوس المُتْـرَفِيـن الصُّـدَّاذْ ... إلَـى أَمِيـرِ الْمُـؤمِنِيـنَ المُمْتَـاذْ(٥)

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة يس.

(٢) الحديث رواه البخاري في باب السَّمَر في العلم عن عبد الله بن عمر ، قال: صلَّى بنا النبيُّ ﷺ العشاءَ في آخر حياته ، فلما سلَّم قام فقال: أرأيتكم.. إلخ.

(٣) قال في (البحر المحيط): «فهي اسم فاعل من بَقِيَ ، نحو شجِيت فهي شَجِيَّة».

(٤) ورويت أيضاً عن العلاءِ بن سيابة ، وهي بسكون التاءِ مبنية للمفعول على حذف مضاف لأنه مما يتعدى إلى مفعولين ، والتقدير: جزاءَ ما أُترفوا فيه ، قال ذلك أبو حيان في (البحر) ، ولعله نقله عن أبي الفتح حيث قال في المحتَسَبَ: «هو عندنا على حذف مضاف ، أي: اتبع الذين ظلموا جزاء ما أُترفوا فيه».

(٥) البيتان من مشطور الرجز ، وهما لرؤبة بن العجاج ، قاله في اللسان ، وأيضاً في التاج ، وهما في=

يريد: المسؤول، يقال: ماده إذا سأله.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِظُلْمٍ﴾ يحتمل أن يريد: بِظُلْم منه لهم ـ تعالى عن ذلك ـ، قال الطبري: ويحتمل أن يريد: بِشِرْكٍ منهم وهم مصلحون في أعمالهم وسيرهم، وعدل بعضهم في بعض، أي أنه لا بُدَّ من معصية تقترن بكفرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وإنما ذهب قائله إلى نحو ما قيل: «إن الله تعالىٰ يُمْهل الدول على الكفر ولا يُمْهلها على الظلم والجور». ولو عكس لكان ذلك متجهاً، أي: ما كان الله ليعذب أُمة بظلمهم في معاصيهم وهم مصلحون في الإيمان، والاحتمال الأول في ترتيبنا أصحُّ إن شاء الله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾.

المعنى: لجعلهم أُمَّةً واحدة مؤمنة ـ قاله قتادة ـ حتى لا يقع منهم كفر ولا تنزل بهم مُثلة، ولكنه عزَّ وجلَّ لم يشأ ذلك، فهم لا يزالون مختلفين في الأديان والآراءِ والمِلَل. هذا تأويل الجمهور. قال الحسن، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم: المرحومون المستثنون هم المؤمنون ليس عندهم اختلاف، وقالت فرقة: لا يزالون مختلفين في السعادة والشقاوة، وهذا قريب المعنى من الأول، إذ هي ثمرة الأديان والاختلاف فيها، ويكون الاختلاف ـ على هذا التأويل ـ يدخل فيه المؤمنون إذْ هم مخالفون للكفرة، وقال الحسن أيضاً: لا يزالون مختلفين في الغنى والفقر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول بعيد معناه من معنى الآية.

= الديوان، وذكرهما أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وقال أبو عبيدة بعدهما: الممتاد: من مادَ يميد، وفي اللسان: الممتاد: المطلوب منه العطاءُ، مفتعل (اسم مفعول)، ثم قال: أي المتفضل على الناس، وهو المستَعْطى المسؤول، وماد زيد عمرواً إذا أعطاه، والرواية في اللسان: تُهْدِي رُؤوسَ المُتْرفين الأنْدادْ، وكلمة «تهدي» كتبت في الأصول (تَجْبي).

ثم استثنى الله تعالىٰ من الضمير في ﴿يَزَالُونَ﴾ مَنْ رحمه من الناس بأَن هداه إِلى الإِيمان ووفقه له.

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ اختلف فيه المتأولون ـ فقالت فرقة: ولِشُهود اليوم المشهود ـ المتقدم ذكره ـ خلقهم، وقالت فرقة: [ذَلِكَ] إشارة إِلى قوله قبْلُ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أَي: لهذا خلقهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان المعْنيان وإن صحَّا فهذا العوْدُ المتباعد ليس بجيد، ورَوَى أَشهب عن مالك أَنه قال: [ذَلِكَ] إِشارة إِلى أَن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فجاءَت الإِشارة بـ[ذَلِكَ] إِلى الأَمرين معاً: الاختلاف والرحمة، وقد قاله ابن عباس واختاره الطبري، ويجيءُ عليه الضمير في ﴿خَلَقَهُمْ﴾ للصِّنفين، وقال مجاهد، وقتادة: [ذلك] عائد على الرحمة التي تضمنها قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أَي: ولِلرَّحمة خلق المرحومين، قال الحسن: [ذلك] إشارة إِلى الاختلاف الذي في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا بأَن يقال: كيف خلقهم للاختلاف؟ وهل معنى الاختلاف هو المقصود بِخَلْقهم؟ فالوجه في الانفصال أَن نقول: إِن قاعدة الشرع أَن الله عزَّ وجلَّ خلق خلقاً للسعادة وخلقاً للشقاوة، ثم يسَّر كُلاًّ لما خُلق له، وهذا نصٌّ في الحديث الصحيح(١)، وجعل بعد ذلك الاختلاف في الدين على الحق هو أَمارة الشقاوة، وبه

(١) نصُّ الحديث كما رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس، وعن عمران بن حصين: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق لَه»، وهو حديث صحيح، قال ذلك الإمام السيوطي في (الجامع الصغير). هذا وقد رواه البخاري في تفسير سورة (الليل) وفي أماكن أُخرى كثيرة، ومسلم في القدر، وابن ماجه في المقدمة، والترمذي في القدر، والإمام أحمد في أكثر من موضع من مسنده، واللفظ كما جاء في البخاري عن عليّ رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مَقعده من الجنة ومقعده من النار»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتَّكل؟ فقال: «اعملوا فكُلٌّ مُيَسَّر»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾.

تعلق العقاب، فيصح أَن يحمل قوله هنا[١]: «وللاختلاف خلقهم» أَي: لثمرة الاختلاف وما يكون عنه من الشقاوة.

ويصح أَن تجعل اللام في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ لام الصيرورة، أَي: وخلقهم ليصير أَمرهم إِلى ذلك وإِن لم يقصد بهم الاختلاف. ومعنى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢]، أَي: لآمُرُهم بالعبادة وأُوجبُها عليهم[٣]، فعبر عن ذلك بثمرة الأَمر ومقتضاه.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أَيْ نفذ قضاؤُه وحق أَمره، واللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لام قسم، إِذ «الكلمة» تتضمن القسم[٤]، والجِنُّ: جمع لا واحد له من لفظه، وهو من أَجَنَّ إِذا ستَر، والهاءُ في ﴿الْجِنَّةِ﴾ للمبالغة، وإِن كان الجِنُّ يقع على الواحد فـ ﴿الْجِنَّةِ﴾ جمعُه[٥].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَكُلًّا﴾ مفعول مقدم بـ ﴿نَّقُصُّ﴾[٦]، وقيل: هو منصوب على الحال، وقيل: على المصدر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان ضعيفان.

---

(١) أي قول الحسن رضي الله عنه، لأن الكلام في دفع اعتراض وَرَد على رأيه.

(٢) من الآية (٥٦) من سورة الذاريات.

(٣) يريد أن يقول: إنه لا تعارض بين كون اللام في قوله: (وَلِذَٰلِكَ) للصيرورة وبين قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، لأن هذه الآية يراد بها الأمر بالعبادة.

(٤) فهي كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ ثم قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾.

(٥) وهذا مما يكون فيه الواحد بغير هاءٍ والجمع بالهاءِ كقول بعض العرب: (كمْءٌ) للواحد و(كَمْأَة) للجمع. قاله في (البحر المحيط).

(٦) والتنوين في ﴿وَكُلًّا﴾ عوض عن المحذوف، إذ التقدير: وكلَّ نبأ نقصُّ عليك. و﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ في موضع الصفة لقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ إذ هي مضافة في التقدير إلى نكرة.



و﴿ مَا ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿ وَكُلًّا ﴾[(١)] ، و﴿ نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ أَي: نُؤنسك فيما تلقاه ، ونجعل لك الأُسوة فيمن تقدمك من الأنبياءِ ، وقوله: ﴿ فِى هَٰذِهِ ﴾ ، قال الحسن: هي إشارةٌ إلى دار الدنيا ، وقال ابن عباس: إلى السورة والآيات التي ذكر فيها قصص الأُمم. وهذا قول الجمهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ووجْه تخصيص هذه السورة بوصفها بـ ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ ـ والقرآن كله حَقٌّ ـ أَن ذلك يتضمن معنى الوعيد للكفرة والتنبيه للناظر أَي: جاءَك في هذه السورة الحق الذي أَصاب الأُمم الظالمة ، وهذا كما يقال عند الشدائد: «جاءَ الحقُّ» ، وإِن كان الحق يأْتي في غير شدَّة وغير ما وجْه ، ولا يستعمل في ذلك «جاءَ الحق» ، ثم وصف أَيضاً أَن ما تضمنته السورة هو موعظة وذكرى للمؤمنين ، فهذا يؤيد أَن لفظة ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ إنما تختص بما تضمنت من وعيد للكفرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآية. هذه آية وعيد ، أَي: اعملوا على حالاتكم التي أَنتم عليها من كفركم. وقرأَ الجمهور هنا: ﴿ مَكَانَتِكُمْ ﴾ واحدة دالة على جمع ، وأَلفاظ هذه الآية تصلح للموادعة ، وتصلح أَن تقال على جهة الوعيد المحض والحرب قائمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية. هذه آية تَعَظُّم وانفراد بمالا حظَّ لمخلوق فيه ، وهو علم الغيب ، وتَبْيين أَن الخير والشَّرَّ وجليل الأَشياءِ وحقيرها ـ مصروف إِلى أَحكام مالكه[(٢)] ، ثم أَمر النبي ﷺ بالعبادة والتوكل على الله تبارك وتعالىٰ ، وفيها زوالُ همِّه وصلاحُه ووصوله إلى رضوان الله.

وقرأَ السبعة غير نافع [يَرْجِعُ ٱلْأَمْرُ] على بناءِ الفعل للفاعل ، وقرأَ نافع: وحفص عن عاصم: ﴿ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ ﴾ على بنائه للمفعول ، ورواها ابن أَبي الزناد عن أَهل

---

(١) ويجوز أن تكون صلة كما هي في قوله تعالىٰ: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، كما يجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف ، أي: هو ما نُثَبِّت ، فتكون ﴿ مَّا ﴾ موصولة بمعنى (الذي) ، أو مصدرية.

(٢) قال أبو عليّ الفارسي: المعنى: «علم ما غاب في السموات والأرض» ، وأضاف الغيب إليهما توسُّعاً.



المدينة. وقرأ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاءِ من فوق نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم ، وهي قراءَة الأَعرج ، والحسن وأَبي جعفر ، وشيبة ، وعيسى بن عمرو ، وقتادة ، والجحدري ، واخْتُلف عن الحسن ، وعيسى. وقرأ الباقون: [يَعْمَلُونَ] بالياءِ على كناية الغائب.

تم بتوفيق من الله تبارك وتعالىٰ تفسير سورة هود

والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة يوسف عليه السلام

هذه السورة مكية[١] ، ويُرْوى أَن اليهود سأَلوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة بسبب ذلك ، ويُرْوى أَن اليهود أَمروا كفار مكة أَن يسأَلوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أَحلَّ بني إِسرائيل بمصر فنزلت السورة ، وقيل : سبب نزولها تسلية رسول الله ﷺ عما يفعله به قومه بما فعل إِخوة يوسف بيوسف ، وسورة يوسف لم يتكرر من معناه شيءٌ في القرآن كما تكررت قصص الأَنبياءِ[٢] ، ففيها حجة على من اعترض بأَن الفصاحة تمكنت بترداد القول ، وفي تلك القصص حجة على من قال في هذه : لو كررت لَفَتَرَتْ فصاحتها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ .

تقدم القول في فواتح السُّور ، و﴿ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ : القرآن ، ووصفه بـ ﴿ ٱلْمُبِينِ ﴾ ـ قيل : من جهة أَحكامه وحلاله وحرامه ، وقيل : من جهة مواعظه وهداه ونوره ، وقيل : من جهة بيان اللسان العربي وجودته إِذ فيه ستة أَحرف لم تجتمع في لسان[٣] ، ـ رُوِي هذا القول عن معاذ بن جبل ـ ويحتمل أَن يكون مُبيناً لنبوة محمد ﷺ بإِعجازه والصواب أَنه مبين بجميع هذه الوجوه ، والضمير في قوله : ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ للكتاب ، والإِنزال إِمَّا بمعنى

---

(١) في (البحر المحيط) : «وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات من أولها» ، وفي (القرطبي) : «وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها» . وعدد آيات هذه السورة مائة وإحدى عشرة آية ، ونزلت بعد سورة هود .

(٢) اللهم إلا ما أخبر به مؤمن آل فرعون في سورة غافر ، قاله أبو حيان في (البحر المحيط) .

(٣) هي : «الصَّاد والضَّاد والطَّاءُ والظَّاءُ والعين والحاء» . ولاحظ قوله : «لم تجتمع» فإنه هو المقصود .



الإثبات ، وإما أن تتصف به التلاوة والعبارة ، وقال الزجاج: الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يراد به خبرُ يوسف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يحتمل أن تتعلق بـ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ ، أي: أنزلناه لعلَّكم ، ويحتمل أن تتعلق بقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ ، أي: جعلناه عربياً لعلَّكم تعقلون إذ هو لسانكم ، و﴿قُرْءَٰنًا﴾ حال[1] ، و﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة له[2] ، وقيل: إن ﴿قُرْءَٰنًا﴾ بدلٌ من الضمير ، وهذا فيه نظر ، وقيل: ﴿قُرْءَٰنًا﴾ توطئة للحال ، و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال ، وهذا كما تقول: «مررت بزيد رجلاً صالحاً» .

وقوله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ الآية. روى ابن مسعود أَنَّ أَصحاب رسول الله ﷺ مَلُّو مَلَّة فقالوا: لو قصصتَ علينا يا رسول الله ، فنزلت هذه الاية ، ثم ملُّو مَلَّة أُخرى فقالوا: لو حدَّثتنا يا رسول الله ، فنزلت: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾[3] ،

---

(١) سُمِّي القرآن قرآناً لأنه يُقرأُ ، وهو اسم جنس يقع على القليل والكثير. وقال أبو عبيدة: سُمِّي قرآناً لأنه يجمع السُّور فيضمها.

(٢) ﴿عَرَبِيًّا﴾ منسوب إلى العرب ، والعَرب ، جيل من الناس ، واحده: عَرَبِيّ ، والعَرَب: اسم جنس ، وليس (الأعراب) جمعاً له ، بل (الأعراب) جمع أعْرابي ، والعَرَبُ والعُرْبُ واحد ، وعَرَبَة ناحية دار إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، قال الشاعر:

وعَـــرْبَــةُ أرضٌ مــا يُحِــلُّ حَــرَامَهَــا ... مِـنَ النَّـاسِ إلا اللَّـوْذَعِـيُّ الحُـلاحِـلُ

يعني النبي ﷺ ، وسكنت راءُ (عَرَبَة) في البيت لضرورة الشعر.

(٣) الحديث بهذا اللفظ أخرجه ابن جرير عن عون بن عبد الله ، إلا أنهم في المَلَّة الأولى قالوا: «لو حدثتنا. . .» ، وفي الثانية قالوا: «حدثنا فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص». (راجع تفسير الطبري ، وتفسير ابن كثير ، والدر المنثور) ، وأخرج ابن جرير ـ ونقله ابن كثير في تفسيره ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله ، أما ما رواه ابن مسعود فقد أخرجه ابن مردويه عنه من طريق عون بن عبد الله ، ولفظه «قالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا ، فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ ، (راجع الدر المنثور) وقوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ من الآية (٢٣) من سورة الزُّمَر.
وقد وصفت هذه السورة بأنها أحسن القصص لأسباب ذكرها العلماءُ: منها أن كل من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة ، وانظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز والملك والساقي مستعبر الرؤْيا ، ومنها انفراد السورة بما فيها من أخبار لم تتكرر في غيرها ، ومنها أنها عبَّرت عن حسن تجاوز يوسف عن أعمال إخوته وعفوه عنهم ، ومنها أنها ذكرت جملة من الفوائد التي تصلح الدنيا والدين كالتوحيد، =



و﴿ٱلْقَصَصِ﴾: الإخبار بما جرى من الأُمور، كأن الأنباءَ تَتَبَّع بالقول كما يُقَص الأَثر، وقوله: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: بِوَحْيِنَا، و﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ نعتٌ لـ﴿هَٰذَا﴾، ويجوز فيه البدل، وعطف البيان فيه ضعيف. و﴿وَإِن﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها لام التأكيد، هذا مذهب البصريين، ومذهب أهل الكوفة أن [إنْ] بمعنى [لها]، و(اللام) بمعنى (إلاَّ)، والضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ للقصص العام لما في جميع القرآن منه، و﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي عن معرفة هذا القصص. ومَنْ قال: إن الضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ عائد على ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ جعل ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ في معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[(١)]، أي: على طريق غير هذا الدين الذي بعثت به، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في ضلال الكفار ولا في غفلتهم، لأنه لم يشرك قط، وإنما كان مستهدياً ربَّه عزَّ وجلَّ وموحداً، والسائلُ عن الطريق المُتَحَيِّرُ يقع عليه ـ في اللغة ـ اسم ضالّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

العامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمر تقديره، اذكر إذ، ويجوز أن يعمل فيه ﴿نَقُصُّ﴾، كأن المعنى: نقُصّ عليك الحال إذْ[(٢)]، وحكى مكّيّ أن العامل فيه ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، وهذا ضعيف.

وقرأ طلحة بن مصرف: [يُؤْسَف] بالهمز وفتح السين، وفيه ست لغات: [يُوسُفَ] بضم الياءِ وسكون الواو وبفتح السّين وبضمها وبكسرها، وكذلك بالهمز. وقرأ الجمهور: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر التاءِ، حذفت الياءُ من (أَبي) وجعلت التاءُ بدلاً منها، قاله سيبويه. وقرأ ابن عامر وحده[(٣)]، وأَبو جعفر، والأَعرج: [يا أَبَتَ] بفتحها، وكان

= والفقه، والسير، والسياسة، والمعاشرة، وتعبير الرؤيا، وتدبير المعاش، وقيل: إن (أحسنَ) هنا بمعنى أعجب.

(١) من الآية (٧) من سورة الضحى.

(٢) وأجاز الزمخشري أن تكون ﴿إِذْ﴾ بدلاً من ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ على أنها بدل اشتمال، ورفض أبو حيان هذا، كما رفض قول ابن عطية إنها معمول لـ﴿نَقُصُّ﴾ وقال: «هذه التقديرات لا تَتَّجه حتى تُخلع ﴿إِذْ﴾ من دلالتها على الماضي وتُجَرّد للوقت المطلق الصالح للأزمان كلها على جهة البدلية».

(٣) يعني: وحده من السبعة، وإلا فقد قرأ بها أبو جعفر، والأعرج كما ذكر المؤلف رحمه الله.



ابن كثير ، وابن عامر يقفان بالهاءِ ، فأَما قراءَة ابن عامر بفتح التاءِ فلها وجهان: إمّا أن يكون «يا أَبتا» ثم حذفت الأَلف تخفيفاً وبقيت الفتحة دالة على الأَلف ، وإِمَّا أَن يكون جارياً مجرى قولهم: «يا طلحةَ أَقْبِلْ» ، رخَّموه ثم ردُّوا العلامة ولم يعتد بها بعدالترخيم ، وهذا كقولهم: «اجتمعت اليمامة» ، ثم قالوا: «اجتمعت أَهل اليمامة» فردوا لفظة الأَهل ولم يعتدوا بها .

وقرأَ أَبو جعفر ، والحسن ، وطلحة بن سليمان: ﴿أَحَدَعَشَرَ كَوْكَبًا﴾ بسكون العين لتوالي الحركات ، وليظهر أَن الاسمين قد جُعلا واحداً ، وقيل: إنه رأَى كواكب حقيقة والشمس والقمر فتأَولها يعقوب إِخوته وأَبويه ، وهذا قول الجمهور ، وقيل: الإِخوة والأَب والخالة ، لأَن أَمه كانت ميتة ، وقيل: إنما كان رأَى إِخوته وأَبويه فعبّر عنهم بالكواكب والشمس والقمر ، وهذا ضعيف ، ترجم به الطبري ثم أَدخل عن قتادة والضحاك وغيرهما كلاماً محتملاً أَن يكون كما ترجم وأَن يكون مثل قول الناس ، وقال المفسرون: القمر تأْويله: الأَب ، والشمس تأْويلها: الأُم ، فانتزع بعض الناس من تقديمها وجوب بِر الأُم وزيادته على برّ الأَب ، وحكى الطبري عن جابر بن عبد الله أَن يهودياً اسمه بستانة جاءَ إِلى رسول الله ﷺ فقال: أَخبرني عن أَسماءِ الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ، فسكت عنه رسول الله ﷺ ، ونزل جبريل عليه السلام فأَخبره بأَسمائها ، فدعا رسول الله ﷺ اليهوديّ ، فقال: هل أَنت مؤمن إِن أَخبرتك بذلك؟ قال: نعم ، قال: جَرِيَّان ، والطَّارق ، والذَّيَّال ، وذُو الكَتِفَين ، وقابِس ، ووثَّاب ، وعَمُودان ، والْفَيْلَق ، والمُصْبح ، والضَّروح ، وذو الْفَرْغ ، والضِّياءُ ، والنُّورُ[١] ، فقال اليهودي: أَي والله إِنها لأَسماؤُها[٢] .

---

(١) اختلفت النسخ الأصلية في كتابة هذه الأسماء ، وكذلك وقع اختلاف بين المفسرين في كتابتها ، وقد آثرنا اختيار الأسماء التي اتفق عليها أكثر المفسرين ، والاسم الأول جاء في بعض النسخ (حربان) بالراءِ والباءِ ، وفي (فتح القدير) جاءَ (خرثان) بالخاءِ والثاءِ ، وضبطه (الجمل) نقلاً عن (الشهاب) فقال: (جَرِيَّان) بفتح الجيم وكسر الراءِ المهملة وتشديد الياءِ التحتية ، أما (ذو الكتفين) فجاءَ في بعض التفاسير بالنون بدلاً من التاءِ ، و(عمودان) هو تثنية عمود ، و(الفَيْلَق) جاءَ بتقديم اللام على الياءِ (الفَيَلق) ، و(ذو الفرغ) بالغين المعجمة جاءَ في بعض النسخ بالعين المهملة ، وهكذا.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور ، والبزَّار ، وأبو يَعْلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والعقيلي ، وابن حبان في الضعفاء ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في «دلائل النبوة» عن جابر. (الدر المنثور).



وتكرر ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ لطول الكلام(١) ، وجَرْيُ ضمائر هذه الكواكب في هذه الآية مجرى ضمائر من يعقل إنما كان لمَّا وُصِفَت بأفعال هي خاصة بمن يعقل(٢).

ورُوي أن رؤْيا يوسف كانت ليلة القدر ليلة جمعة ، وأنها خرجت بعد أربعين سنة ، وقيل: بعد ثمانين سنة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾.

تقتضي هذه الآية أن يعقوب عليه السلام كان يُحِسُّ من بَنيه حسد يوسف وبغضته ، فنهاه عن قصص الرؤْيا عليهم خوف أن يشعل بذلك غِلَّ صدروهم ، فيعملوا الحيلة على هلاكه ، ومن هنا ومن فعلهم بيوسف ـ الذي يأتي ذكره ـ يظهر أنهم لم يكونوا أنبياءَ في ذلك الوقت. ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياءَ ، وهذا يردّه القطع بعصمة الأنبياءِ عن الحسد الدنياوي ، وعن عقوق الآباءِ ، وعن تعريض مؤمن للهلاك والتوافر في قتله. ثم أعلمه أن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين ، أي: هو يدخلهم في ذلك ويحضهم عليه.

وأمال الكسائي: ﴿رُءْيَاكَ﴾ والرؤْيا حيث وقعت ، ورُوي عنه أنَّهُ لم يُمِلْ ﴿رُءْيَاكَ﴾ في هذه السورة وأمال الرؤْيا حيث وقعت ، وقرأ [رُويَاكَ] بغير همز ـ وهي لغة أهل الحجاز ـ ولم يُمِلْها الباقون حيث وقعت. والرُّؤْيا مصدر كثر وقوعه على هذا المُتَخَيَّل في النوم حتى جرى مجرى الأسماءِ كما فعلوا في الدَّرّ في قولهم: «لله دَرُّك» فخرجا من حكم عمل المصادر، وكسَّروها رُؤًى بمنزلة ظُلَم، والمصادر في أكثر الأمر لاتُكَسّر(٣).

---

(١) قال الزمخشري: «ليس بتكرار ، إنما هو كلام مستأنف وقع جواباً لسؤال مقدر ، كأن يعقوب عليه السلام قال له: كيف رأيتها؟ سائلاً عن حال رؤيتها ، فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾. وقال الجمل مثل هذا الكلام أيضاً ، ثم عقَّب عليه بقوله: «وهذا أظهر لأنه متى دار الكلام بين الحمل على التأكيد أو التأسيس فحمله على التأسيس أولى».

(٢) والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته وإن كان خارجاً عن الأصل ، ومن هذا قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ ، وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(٣) الرؤيا: مصدر كالبُقْيا ، قال الزمخشري: «الرؤيا بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان في النوم دون=



وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ﴾ الآية، فـ ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ معناه: يختارك ويصطفيك، ومنه: جبيْتُ الماءَ في الحوض، ومنه: جباية المال. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[1]، وقال مجاهد، والسدي: هي عبارة الرؤْيا، وقال الحسن: هي عواقب الأُمور، قيل: هي عامة لذلك وغيره من المغيَّبات. وقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾ يريدالنبوة وما انضاف إِليها من سائر النعم، وقوله: ﴿ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يريد ـ في هذا الموضع ـ الأَولاد والقرابة التي هي من نسله، أَي يجعل فيهم النبوة، ويروى أَن ذلك إِنما علمه يعقوب من دعوة إِسحق له حين تشَبَّه له بعيصو، والقصة كاملة في كتاب النقاش لكني اختصرتها لأَنه لم ينبُل أَلفاظها[2]، وما أَظنه انتزعها إِلا من كتب بني إِسرائيل فإِنها قصة مشهورة عندهم، وباقي هذه الآية بيّن.

والنعمة على يوسف كانت تخليصَه من السجن وعصمتَه والمُلْكَ الذي نال، وعلى إِبراهيم هي اتخاذه خليلاً، وعلى إِسحق فديته بالذبح العظيم[3] مضافاً ذلك كله إِلى النبوة، و﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مناسبتان لهذا الوعد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾.

قرأَ الجمهور: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالجمع، وقرأَ ابن كثير وحده[4]: [آيَةٌ] بالإِفراد، وهي

= اليقظة، فُرّق بينهما بِحَرْفَي التأنيث كما قيل في القُرْبة والقُرْبى».

(١) يرى الزمخشري أن الأحاديث اسم جمع للحديث وليس بجمع أُحدوثة، وعارضه أبو حيان فقال: وليس باسم جمع كما ذكر، بل هو جمع تكسير لحديث على غير قياس، كما قالوا: أباطل وأباطيل، ولم يأت اسم جمع على هذا الوزن، وإذا كانوا يقولون في (عَبَادِيدَ) و(يَنَاذِيرَ) إنهما جمعا تكسير ولم يلفظ لهما بمفرد فكيف لا يكون (أحاديث) و(أباطيل) جمعي تكسير؟. (البحر المحيط ٥ ـ ٢٨١).

(٢) لم يحسن اختيار الألفاظ ولم يُحْكمها، يقال: هو يَنْبُل هذا الأمر بمعنى: يُحْكم معرفته، وهو يَنْبُل الرسم أو التمثيل بمعنى يحسنه ويجيد القيام به، وأتاه أمْرٌ لم يَنْبُل نبله بمعنى: لم يتخذ له عُدَّته. (المعجم الوسيط).

(٣) الثابت أن الذبيح هو إسماعيل، ونسبة الذبح وقصته إلى إسحق فرية يروج لها اليهود.

(٤) يريد: وحده من بين السبعة، وإلا فقد قرأ بها مجاهد، وشبل، وأهل مكة كما ذكر المؤلف.

قراءَة مجاهد، وشبل، وأَهل مكة. فالأُولى على معنى أَن كل حال من أَحواله آية آية فجمعها، والثانية على أَنه بجملته آية، وأَن تفصل بالمعنى. ووزن آية فَعَله أَو فَعْله أَو فاعلة على الخلاف فيه[١]، وذكر الزجاج أَن في غير مصحف عثمان «عِبْرَةٌ لِلسَّائِلِينَ»، قال أَبو حاتم: هو في مصحف أُبيّ بن كعب.

وقوله: ﴿لِلسَّآئِلِينَ﴾ يقتضي حضّاً مّا على تعلم هذه الأنباءِ، لأَنه إِنما المراد: «آية للناس»، فوصفهم بالسؤال إِذ كل واحد ينبغي أَن يسأَل عن مثل هذه القصص، إِذ هي مقر العبر والاتِّعاظ، ويصح أَيضاً أَن يصف الناس بالسؤال من حيث كان سبب نزول السورة سؤال سائل كما روي. وقولهم: ﴿وَأَخُوهُ﴾ يريدون به «بنيامين»، وهو أَصغر من يوسف، ويقال له: «يامين»، وقيل: كان شقيق يوسف وكانت أُمهما ماتت، ويدل على أَنهما شقيقان تخصيص الإِخوةَ لهما بـ «أَخُوهُ» وهي دلالة غير قاطعة، وكان حُبُّ يعقوب ليوسف عليه السلام وبنيامين لصغرهما وموت أُمهما، وهذا من «حُبُّ الصغير فطرةُ البشر»، وقد قيل لابنة الحسن: أَيُّ بنيك أَحب إِليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يُفيق.

وقولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أَي: نحن جماعة تضر وتنفع، وتحمي وتخذل[٢]، أَي: لنا كانت تنبغي المحبة والمراعاة. والعُصبة في اللغة: الجماعة، قيل: من عشرة إِلى خمسة عشر، وقيل: من عشرة إِلى أَربعين، وقال الزجاج: العشرة ونحوهم، وفي الزهراوي: الثلاثة: نفر، فإِذا زادوا فهم رهط إِلى التسعة، فإِذا زادوا فهم عُصبة، ولا يقال لأَقل من عشرة: عُصبة.

وقولهم: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَي: لفي اختلاف وخطإٍ في محبة يوسف وأَخيه، وهذا هو معنى الضلال، وإِنما يصغر قدره أَو يعظم بحسب الشيءِ الذي فيه يقع الائتلاف، و﴿مُّبِينٍ﴾ معناه: يظهر للمتأَمل، وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر،

---

(١) وزن آية عند سيبويه: (فَعَلَه) فهي «أَيَيَة»، ووزنها عند الفراءِ: (فَعْلَة)، فهي «أَيْيَة»، ووزنها عند الكسائي: (فاعِلَة)، فهي «آيِيَة».

(٢) كان عددهم أحد عشر رجلاً، وهم: روبيل ـ وهو أكبرهم، ويقال: روبين بالنون ـ وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، ويساخر، فهؤلاءِ ستة أُمهم لِيَا بنت لِيان، وهي بنت خال يعقوب، ووُلِدَ له مِن سُرِّيَّتَيْن أربعة هم: دان، ونفتالي، وجاد، وآشر، ثم توفيت (لِيَا) فتزوج يعقوب أُختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين. وأُم يعقوب اسمها (رِفْقا)، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين.



وحمزة: ﴿مُّبِينٍ ۝٨ اقْتُلُوا﴾ بكسر التنوين في الوصل لالتقاءِ ساكن التنوين والقاف، وقرأ نافع، وابن كثير، والكسائي: [مُبِينِنُ اقْتُلُوا] بكسر النون وضم التنوين إتباعاً لضمة التاءِ ومراعاةً لها.

وقوله: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ الآية. كانت هذه مقالة بعضهم: ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ﴾ معناه: أَبعدوه، ومنه قول عروة بن الورد:

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتِراً ... يُغَرِّرْ وَيَطْرَحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ[١]

والنَّوى الطَّروح: البعيدة، و﴿أَرْضًا﴾ مفعول ثان بإسقاط حرف الجر، لأَن «طَرَحَ» لا يتعدى إلى مفعولين إلا كذلك. وقالت فرقة: هو نصب على الظرف، وذلك خطأٌ لأَن الظرف ينبغي أَن يكون مبهماً، وهذه ليست كذلك، بل هي أَرض مقيدة بأَنها بعيدة أَو قاصية ونحو ذلك، فزال بذلك إبهاماً، ومعلوم أَن يوسف لم يخْل من الكون في أَرض فبيّن أَنها بعيدة غير التي هو فيها قريب من أَبيه[٢].

وقوله: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ استعارة[٣]، أَي: إذا فقد يوسف رجعت إليكم محبته، ونحو هذا قول العربي حين أَحبَّته أُمه لما قُتِلَ إخْوَتُهُ وكانت قَبْلُ لا تُحِبُّه: «الثُّكل أَرْأَمَها»[٤]، أَي عطفها عليه، والضمير في ﴿بَعْدِهِ﴾ عائد على «يوسف» أَو

---

(١) وروي: «من المال» بدلاً من «يُغرِّر»، ومُقْتر: مُقِلّ فقير، يقول: من كان مثلي فقيراً عليه أَن يطلب رزقه في كل مكان، وأن يلقي بنفسه في كل مَطْرح مهما كان بعيدا، وعروة من الشعراء الصعاليك، دفعه إلى ذلك اضطهاد أبيه له، وتفضيله أخاه الأكبر عليه، وقد احتقره قومه لهبوط منزلة أُمه في النسب عن منزلة أبيه فزاده ذلك بُعْداً عنهم وإقبالاً على الفروسية والصعلكة.

(٢) يقول الزمخشري: هي أرض منكورة مهجورة بعيدة عن العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الناس، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة.

(٣) ذُكر (الوجه) لتصوير معنى الإقبال عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيءِ أقبل بوجهه، وفي الألوسي أنها كناية عن خلوص المحبة.

(٤) نص المثل كما رواه الميداني، في (مجمع الأمثال): «ثُكْلٌ أَرْأَمَهَا وَلَداً». قاله بَيْهَس الملقب بنعامة لأمّه حين رجع إليها بعد إخوته الذين قتلوا، وكان بيهس رجلاً من فزارة، وكان سابع سبعة إخوة، فأغار عليهم ناسٌ من أشجع فقتلوا منهم سِتَّة وبقي بيْهس وهو أصغرهم، فقالوا: وما تريدون من قتل هذا؟ يحسب عليكم برجل، فلما رجع إلى أُمّه أخبرها الخبر، فقالت: فما جاءني بك من بين إخوتك؟ ثم رقَّت له، وعطفت عليه، فقال الناس: لقد أَحَبّت أم بَيْهَس بيهساً، فقال بَيْهَس: «ثُكْلٌ أرْأَمَها وَلَداً»، أي: عطفها على ولد، فذهبت مثلاً.



«قَتْلِهِ» أَو «طَرْحِه» ، و﴿صَٰلِحِينَ﴾ ، قال السدي ، ومقاتل بن سليمان: إنهم أَرادوا صلاح الحال عند أَبيهم ، وهذا يشبه أَن يكون قصدهم في تلك الحال ، ولم يكونوا حينئذ أَنبياءَ ، وقال الجمهور: ﴿صَٰلِحِينَ﴾ معناه بالتوبة ، وهذا هو الأَظهر من اللفظ ، وحالهم أَيضاً تُعطيه ، لأَنهم مؤمنون بنوا على عظيمة وعلَّلوا أَنفسهم بالتوبة ، والقائل منهم ، قيل: هو روبيل ـ أسنهم ـ ، قاله قتادة ، وابن إسحق. وقيل: يهوذا ـ أَحلمهم ـ ، وقيل: شمعون ـ أشجعهم ـ قاله مجاهد ، وهذا عطف منه على أَخيه لا محالة لما أَراد الله من إنفاذ قضائه ، و«الْغَيَابة»: ما غاب منك من الأَماكن أَو غيب عنك شيئاً آخر. وقرأَ الجمهور: ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ ، وقرأَ نافع وحده: [غَيَابَات ٱلْجُبِّ] ، وقرأَ الأَعرج: [غَيَّابَاتِ ٱلْجُبِّ] بشد الياءِ ، قال أَبو الفتح: «هو اسم جاءَ على (فَعَّالة) ، كان أَبو علي يلحقه بما ذكر سيبويه من الفيَّاد ونحوه[(١)] ، ووجدت أَنا من ذلك: التَّيَّار للموج ، والفَخَّار للخزف».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي شبه «غَيَّابة» بهذه الأَمثلة نظر لأَن «غَيَّابة» جارية على فعل[(٢)]. و قرأَ الحسن: [في غيْبَةِ ٱلْجُبِّ] على وزن (فَعْلة)[(٣)] ، وكذلك خطت في مصحف أُبي بن كعب ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر: وهو المنَخّل:

فــإِنْ أَنــا يَــومــاً غَيَّبَتْنــي غَيَــابَتــي فسِيروا بِسَيْرِي في ٱلْعَشَائِرِ والأَهْلِ[(٤)]

(١) الفَيَّاد: المتبختر ، (المعجم الوسيط) ، وفي (المحتَسَب) لأبي الفتح في نفس الموضع: «الفَيَّاد لذَكَر البوم» ، وفيه: «والحَمَّام ، والجَيَّار ـ السُّعال ـ والكَرَّار ـ كبش الراعي» ، ومن أمثلة ذلك أيضاً: الجَبَّار والكَلاَّءُ.

(٢) أي: مشتقة من فعل ، بخلاف التَّيَّار والفَخَّار فهما جامدان.

(٣) قال أبو الفتح في (المحتَسَب): «فيجوز أن يكون حدثاً: فَعْلَةً من غبت ، فيكون كقولنا: في ظُلْمَة الجُب ، ويجوز أن يكون موضعاً على فَعْلَة كالقِرْمة» ـ بفتح القاف وكسرها ـ وهي من سمات الإبل تكون فوق الأنف ـ والجِرْفَة ـ بفتح الجيم وكسرها أيضاً ، وهي كذلك من مسات الإبل تكون دون الأنف.

(٤) البيت للمنخل السعدي ، ويُرْوى: (في العشيرة) ، والغيابة هنا: القبر ، يقال: وقع في غيابة من الأرض ، أي في منهبط منها ، يقول: إذا أنا مت في يوم من الأيام ، وغيَّبَني القبر في جوفه فاتبعوا سُنَّتي وسيروا بسيرتي مع أهلي وعشيرتي.



و﴿ٱلْجُبِّ﴾: البئر التي لم تُطْوَ[1] لأنها جُبَّت من الأَرض فقط.

وقرأَ الجمهور: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ﴾ بالياءِ من تحت على لفظ [بَعْض]، وقرأَ الحسن البصري، ومجاهد، وقتادة، وأَبو رجاءٍ: [تلتقطه] بالتاءِ، وهذا من حيث أُضيف ﴿بَعْضُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ فاستفاد منها تأْنيث العلاقة، ومن هذا قول الشاعر:

أَرَى مـرَّ السِّنيـن أَخَـذْنَ مِنِّـي ... كمـا أَخَـذَالسِّـرَارُ مِـنَ الهِـلاَلِ[2]

ومنه قول الآخر:

إِذَا مـاتَ مِنْهُـمْ سَيِّـدٌ قـام سَيِّـدٌ ... فذَلَّتْ لَهُ أَهْلُ الْقُرى والْكَنَائِسُ[3]

وقول كعب:

. . . . ذلَّـتْ لِـوَقْعَتِهَـا جَميـعُ نَـزَارِ[4]

حين أَراد بـ«نزار» القبيلة، وأَمثلة هذا كثير. وروي أَن جماعة من الأَعراب التقطت يوسف عليه السلام. و[السيارَةُ] جمع سيَّار، وهو بناءٌ للمبالغة.

وقيل في هذا الجُبِّ: إنه بئر بيت المقدس، وقيل: غيره، وقيل: لم يكن حيث

---

(١) البئر المَطْوِيَّة هي التي بنيت بالحجارة ونحوها، أو عُرشت، والبئر التي لم تُطْوَ هي التي حفرت وتركت دون بناءٍ أو عرش.

(٢) السِّرَار بفتح السين وكسرها، الليلة التي يخفى فيها الهلالُ آخر الشهر، والشهد في (أَخَذْن) فقد أَنَّثها الشاعر بالنون مع أنها تعود على (مَرّ) وهو مذكر، وكان المفروض أن يقول: (أَخَذَ)، لكن لمّا أُضيف (مَرَّ) إلى (السِّنين) اكتسب منها التأْنيث.

(٣) هذا البيت من شواهد الكسائي، وقد أورده الفراءُ في (معاني القرآن)، وقال: «العرب إذا أضافت المذكر إلى المؤنث وهو فعل له أو بعض له قالوا فيه بالتذكير والتأنيث، وإنما جاز ذلك لأن الثاني يكفي من الأول، ألا ترى أنه لو قيل: (تلتقطه السيارة) لجاز، ولا يجوز أن يقال: «ضربتني غلام جاريتك) لأنه لو أَلقيت (غلام) لم تدخل الجارية على معناه؟». هذا ومثل البيتين قول الأعشى يخاطب يزيد بن مسهر الشَّيباني وكانت بينهما مهاجاة:

وتَشْـرَقُ بـالْقَـوْلِ الَّـذي قَـدْ أَذَعْتَـهُ ... كمـا شَـرِقَـتْ صَـدْرُ الْقَنَـاةِ مِـنَ الـدَّم

فقال: شرقت وهي منسوبة إلى(صدر). ومعنى البيت: يعود عليك مكروه ما أَذَعْتَه عَني من القَوْل وما نَسَبْته إلى من الفعل القبيح فلا تجد منه مخلصاً، والإنسان يشرق بالماء كما يغص بالطعام.

(٤) هذا عجز بيت من أبيات قالها يمدح الأنصار بعد أن عاتبوه على الغَضِّ من شأنهم في قصيدته المشهورة (بانت سعاد)، وهو بتمامه:

صَـدَمُـوا الكتيبَـةَ يَـوْمَ بَـدْرٍ صَـدْمَـةً ... ذَلَّـتْ لِـوَقْعَتِهَـا جَميـعُ نَـزَار

ويروى البيت: (زلَّتْ لوقعتها رقابُ نزارٍ)، وعلى هذا فلا شاهد فيه.



طرحوه ماءٌ ، ولكن أخرجه الله فيه حتى قصده الناس للاستقاءِ ، وقيل : بل كان فيه ماءٌ يغرق يوسف فنشز حجر من أسفل الجبّ حتى ثبت عليه يوسف ، وروي أنهم رموه بحبل في الجبل فتماسك بيديه حتى ربطوا يديه ونزعوا قميصه ورموه حينئذ ، وهمُّوا برضخه بالحجارة فمنعهم أخوهم المشير بطرحه من ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

الآية الأُولى تقتضي أن أباهم قد كان علم منهم إرادتهم الخبيثة في جهة يوسف ، وهذه تقتضي أنهم علموا منه بعلمه ذلك .

وقرأ الزهري ، وأبو جعفر : [لاَ تأمنَّا] بالإدغام دون إشمام ، ورواها الحلواني عن قالون[1] . وقرأ السبعة بالإشمام للضم ، وقرأ طلحة بن مصرف : [لاَ تَأْمَنَنَا] ، وقرأ ابن وثاب ، والأعمش : [لاَ تِيمَنَّا] بكسر تاءِ العلامة .

و﴿ غَدًا ﴾ ظرف ، أصله : «غَدْوٌ»[2] فلزم اليوم كله وبقي الغُدُوُّ والغُدْوَةُ اسمين لأول النَّهار ، وقال النَّضر بنُ شميل : ما بين الفجر إلى الإسْفار يقال فيه : غُدْوَةٌ وبُكْرَةٌ .

وقرأ أبو عمرو ، وأبو عامر : [نرتع ونلعب] بالنون فيهما وإسكان العيْن والباءِ ، و[نَرْتَعْ] ـ على هذا ـ من الرُّتوع وهي الإقامة في الخصب والمرعى في أكل وشرب ، ومنه قول الغضبان بن القبعثرى :

---

(١) أما الحلواني فاسمه أحمد بن يزيد ، وأما قالون فهو عيسى بن ميناء بن وردان بن عيسى المدني ، مولى الأنصار ، أبو موسى ، من أهل المدينة مولداً ووفاة ، وإليه انتهت الرياسة في زمانه في علوم العربية والقراءة بالحجاز ، وكان أصمّ يُقرأ عليه القرآن وهو ينظر إلى شفتي القارئ فيرد عليه اللحن والخطأ ، و(قالون) لقب دعاه به نافع القارئ لجودة قراءته ، ومعناه بلغة الروم: جيِّد. (النجوم الزاهرة ٢ ـ ٢٣٥ ، وغاية النهاية ١ ـ ٦١٥ ، والتاج ٩ ـ ٣١٣).

(٢) قال في (اللسان ـ غدا) : «وغَدٌ: أصله غَدْوٌ وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك ، فحذفت لامه بلا عِوَضٍ ، ولم يُسْتَعْمَل تاماً إلا في الشعر ، ويدخل فيه الألف واللام للتعريف».



«القَيْدُ والرَّتَعة وقلَّة التَّعْتَعة»(١) ، ومنه قول الشاعر:

. . . . وبَعْد عَطَائِكَ المائَةَ الرِّتَاعَا؟(٢)

ولعبهم هذا داخل في اللعب المباح كاللعب بالخيل والرمي ونحوه ، فلا وصم في ذلك عليهم ، وليس باللعب الذي هو ضد الحق وقرين اللهو ، وقيل لأَبي عمرو بن العلاءِ: كيف يقولون: «نلعب» وهم أَنبياءَ؟ قال: لم يكونوا حينئذ أَنبياءَ ، وقرأَ ابن كثير: [نَرْتَعِ ونَلْعَبْ] بالنون فيهما ، وبكسر العين وجزم الباءِ ، وقد رُوي عنه ، و[ويلْعَبْ] بالياءِ ، وهي قراءَة جعفر بن محمد ، و[نَرْتَع] ـ على هذا ـ من رعاية الإِبل ، وقال مجاهد: هي من المراعاة ، أَي: يراعي بعضنا بعضاً ويحرسه ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بإسناد ذلك كله إِلى يوسف وقرأَ نافع: [يَرْتعِ وَيَلْعَبْ] بالياءِ فيهما وكسر العين وجزم الباءِ ، فـ[يَرْتَع] ـ على هذا ـ من رعي الإِبل ، قال ابن زيد: المعنى: يتدرب في الرعي وحفظ المال ، ومن الارتعاءِ قول الأَعشىٰ:

تَـرْتَعِـي السَّفْـحَ فَـالْكَثِيـبَ فَـذَاقَـا ... رِ فَـروْضَ الْقَطَـا فَـذاتَ الـرِّئَـال(٣)

قال أَبو علي : وقراءَة ابن كثير: [نَرْتَع] بالنون ، و[يَلْعَب] بالياءِ منزعها حسن لإِسناد النظر في المال والرعاية إِليهم ، واللعب إِلى يوسف لصباه. وقرأَ العلاءُ بن

---

(١) في (اللسان ـ رتَع): «الرَّتْعُ: الرَّعي في الخصب ، ومنه حديث الغضبان الشيباني مع الحجاج أنه قال له: سمنت يا غضبان! فقال: الخَفْض والدَّعَة ، والقَيْد والرتَعَة ، وقِلَّة التَّعْتَعَة ، ومن يكن ضيف الأمير يسمن».

(٢) هذا عجز بيت لِلقُطَاميّ ، وهو من قصيدة يمدح بها الشاعر زُفَر بن الحارث الكلابيّ ، والبيت بتمامه:

أَكُفْـراً بعْـدَ ردّ المـوْتِ عَنِّـي ... وبَعْـدَ عَطَـائِـكَ المـائَـةَ الـرِّتـاعـا؟

قال البغدادي في الخزانة: البيت شاهد على أن العطاءَ هنا بمعنى الإعطاءِ ، ولهذا عمل عمله ، والمفعول الثاني محذوف ، أي: بعد إعطائك المائة الرتاع إيّايَ ، وأَورده شراح الألفية على أن العطاءَ اسم مصدر ، والرّتاع: الراعية ، والمعنى: أَأَخونك وأَكفر نعمتك وفضلك بعد أن أطلقتني ومننت عليّ وأعطيتني مائة من الإبل التي ترعى في الخصب؟.

(٣) البيت من قصيدة الأعشى التي قالها يمدح الأسود بن المنذر اللخمي ، ومطلعها:

مـا بُكَـاءُ الكَبِيـرِ بـالأطْـلالِ ... وسُـؤالـي فَهَـلْ تَـرُدُّ سُـؤَالـي؟

وكل ما في البيت أسماءٌ لمواضع مشهورة يُشير إليها ، والضمير في (ترتعي) يعود على امرأة اسمها (جُبَيْرَة) يشبهها بالبقرة التي ترعى في خصب ونماءِ.



سيَّابة: [يَرْتَع ويَلْعَبُ] برفع الباءِ على القطع[١]. وقرأ مجاهد، وقتادة: [نُرْتِع] بضم النون وكسر التاءِ، و[نَلْعبْ] بالنون والجزم. وقرأ ابن كثير ـ في بعض الروايات عنه ـ: [نَرْتَعِي] بإثبات الياءِ، وهي ضعيفة لا تجوز إلا في الشعر كما قال الشاعر:

أَلَـمْ يَـأْتِيـكَ وٱلأَنبـاءُ تَنْمِـي ... بِمَـا لاقَـتْ لَبـونُ بَنـي زِيَـادِ؟[٢]

وقرأ أبو رجاءٍ: [يُرْتِعْ] بضم الياءِ جزم العين، و[يَلْعَبْ] بالياءِ والجزم[٣].

وعَلَّلُوا طلبه والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسف لصباه من الرتوع واللعب والنشاط.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ الآية. قرأ عاصم، وابن كثير، والحسن، والأعرج، وعيسى، وأبو عمرو، وابن محيصن: ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ بفتح الياءِ وضم الزَّاي، قال أبو حاتم: وقرأ نافع بضم الياءِ وكسر الزَّاي والإدغام، ورواية ورش عن نافع بيانُ النونين مع ضم الياءِ وكسر الزاي في جميع القرآن، و﴿أَن﴾ الأُولى فاعلة، والثانية مفعولة بـ ﴿وَأَخَافُ﴾.

وقرأ الكسائي وحده [ٱلذِّيبُ] دون همز، وقرأ الباقون بالهمز وهو الأصل، ومنه جمعهم إياه على: «ذُؤْبان»، ومنه: تذاءَبت الريح والذئاب إذا أَتت من ها هنا وها هنا. وروى ورش عن نافع [الذِّيبُ] بغير همز، وقال نصر: سمعتُ أَبا عمرو لا يهمز، قال: وأَهل الحجاز يهمزون.

وإنما خاف يعقوب الذئب دون سواه وخصصه لأنه كان الحيوان العادي المنبث في

---

(١) قال أبو الفتح بن جني: «أما ﴿يَرْتَعْ﴾ فجزم لأنه جواب ﴿أَرْسِلْهُ﴾، و[ويلعبُ] مرفوع لأنه جعله استئنافاً، أي: هو ممن يلعبُ، كقولك: (زُرْني أُحْسِنُ إليك)، أي: أنا مِمَّن يُحْسن إليك».

(٢) هو من أبيات قالها قيس بن زهير تجدها مع قصتها في شرح الشواهد للسيوطي ٣ ـ ١، وتَنْمِي: تبلغ، واللَّبُون: جماعة الإبل ذات اللبن، والبيت في سيبويه ٢ ـ ٥٩، والخزانة ٣ ـ ٥٣٤، وسر صناعة الإعراب ٨٨، والنحويون يستشهدون به على زيادة (الباء) للضرورة في الشعر، وعلى وقوع الجملة المعترضة بين الفعل وفاعله لإفادة الكلام تقوية وتحسيناً، وتجد البيت في المغني لابن هشام في هذين الموضعين.

(٣) أي أن [نُرْتِعْ ونَلْعَبْ] مجزومان لأنهما جوابان، أحدهما معطوف على صاحبه، وهو على حذف المفعول، أي: يُرتع مطيَّته، قال ذلك ابن جني، وقال: وعلى ذكر حذف المفعول فما أعربه وأعذبه في الكلام، ألا ترى إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تذودان إبلهما، ولو نُطق المفعول لما كان في عذوبة حذفه ولا في عُلُوِّه.



القطر، ورُوي أَن يعقوب كان رأَى في منامه ذئباً يشتد على يوسف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي ضعيف لأَن يعقوب لو رأَى ذلك لكان وحياً، فإما أَن يخرج على وجهه وذلك لم يكن، وإما أَن يعرف يعقوب لمعرفته بالعبارة مثل هذا المرئي، فكان يتشكاه بعينه، اللَّهم إلاَّ أَن يكون قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ بمعنى: أَخاف أَن يصيبه مثل ما رأَيت من أَمر الذئب، وهذا بعيد، وكذلك يقول الربيع بن ضبع:

والـذِّئْـبُ أَخْشَـاهُ...... ....[1]

إنما خصَّصه لأَنه كان حيوان قطره العادي، ويحتمل أَن يخصصه يعقوب عليه السلام لصغر يوسف، أَي: أَخاف عليه هذا الحقير فما فوقه، وكذلك خصصه الربيع لحقارته وضعفه في الحيوان، وباقي الآية بيِّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ الآية. أَسند الطبري إلى السدي قال: ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة، فلما برزوا في البرية أَظهروا له العداوة، وجعل أَخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيماً، فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويقول: يا أَبتاه، يا يعقوب لو تعلم ما صَنَع بابنك بنو الإماءِ، فقال لهم يهوذا: أَلم تعطوني موثقاً أَلا تقتلوه؟ فانطلقوا به إلى الجُب، فجعلوا يدلونه فيتعلق بالشفير، فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه رُدُّوا عليّ قميصي أَتوارى به في الجُب، فقالوا: ادع الشمس والقمر والكواكب تُؤْنسك، فدلوه حتى إذا بلغ نصف الجُب أَلقوه إرادة أَن يموت، فكان في الجُب ماءٌ فسقط فيه ثم قام على صخرة يبكي، فنادوه فظنَّ أَنهم رحموه فأَجابهم: فأَرادوا أَن يرضخوه بصخرة فمنعهم يهوذا، وكان يأْتيه بالطعام.

وجواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف تقديره: فلما ذهبوا به وأَجمعوا أَجمعوا، هذا مذهب الخليل وسيبويه وهو نصٌّ لهما، ومن ذلك قول امرئ القيس:

---

(١) هذا جزءٌ من بيت، والشاعر هو الربيع بن ضبع الفزاري، وقال البيت يصور خشيته من الذئب حين كبر وبلغ من السن، والبيت بتمامه:

والـذِّئْـبُ أخْشَـاهُ إنْ مَـرَرْتُ بِـهِ ... وحْـدِي وأَخْشَـى الـرِّيـحَ والمَطَـرَا



فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وانْتَحى . . . . [١]

ومثل هذا قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾[٢] ، وقال بعض النحاة في مثل هذا: إن الواو زائدة ، وقوله مردود لأنه ليس في القرآن شيءٌ زائد لغير معنى[٣].

﴿وَأَجْمَعُوٓاْ﴾ معناه: عزموا واتفق رأيهم عليه ، ومنه قول النبي ﷺ في المسافر: «مَا لَمْ يُجْمِع مُكْثاً»[٤] ، وعلى أَن إجماع الواحد قد يتفرد بمعنى العزم والشروع ، ويُتَصَوَّر ذلك في إجماع إخوة يوسف وفي سائر الجماعات ، وقد يجيءُ إجماع الجماعة فيما لا عزم فيه ولا شروع ، ولا يُتصَوَّر ذلك في إجماع الواحد.

والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد على يوسف ، وقيل: على يعقوب ، والأَول أَصح وأَكثر ، ويحتمل أَن يكون الوحي حينئذ إِلى يوسف برسول ، ويحتمل أَن يكون بإِلهام أَو بنوم ، وكل ذلك قد قيل ، وقال الحسن: أَعطاه الله النبوة وهو في الجُب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد.

---

(١) هذا صدر بيت ، وهو بتمامه:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وانْتَحَى ... بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ

والساحة: الفناءُ ، والحيُّ: القبيلة وجمعه أحياءٌ ، وانْتَحَى: اعترض ، والخَبْتُ: أرض مطمئنة ، والحِقْفُ من الرمل: المعوج (ويروى: «رُكام» بدلاً من «حِقافِ») ، والعقنقل: المتداخل المتعقد ، (ويروى البيت أيضاً: ذي قِفَافٍ) وهي جمع قفّ وهو ما غلظ وارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا بعضه في بعض.

(٢) من الآية (١٠٣) من سورة الصافات.

(٣) هذا رأي أكثر الكوفيين ، وقد قالوا بزيادة الواو في البيت ، وفي آية (الصافات) ، أما البصريون فيقدرون الجواب محذوفاً ، وتقديره في آية يوسف: «فلما ذهبوا به و. . . . . عظمت فتنتهم» ، وقيل تقديره: «جعلوه فيها» ، ورجح أبو حيان هذا إذْ يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ﴾. قال بعض المفسرين: الجواب مثبت في الآية وليس محذوفاً ، وهو قولهم بعد ذلك: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾. وعلى رأي من يرى أن الجواب محذوف يكون التقدير في آية (الصافات): «فازا وظفرا بما أَحَبّا» ، وفي البيت: «هَصَرْتُ».

(٤) الحديث في (الموطأ) ، ولفظه فيه: «أُصَلِّي صلاةَ المسافر ما لم أُجْمِع مُكْثاً» ، ومن اللفظة أيضاً قوله ﷺ «لا يصوم إلا من أَجْمَع الصيام قبل الفجر» ، رواه النسائي ، والترمذي ، والدارمي ، وأبو داود ، ومالك في الموطأ ، وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «من أَجْمَع إقامةَ أربع ليالٍ وهو مسافر أتمَّ الصلاة» ، رواه مالك في الموطأ.



وقرأ الجمهور: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ بالتاءِ، وفي بعض مصاحف البصرة بالياءِ، وقرأ سلام بالنون، وهذا كله في العلامة التي تلي اللام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال ابن جريج: «وقتَ التَّنْبيه أَنك يوسف»[١]، وقال قتادة: «لا يشعرون بوحينا إليه».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيكون قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ـ على التأْويل الأَول ـ مما أُوحي إِليه، وعلى التأْويل الثاني ـ خبرٌ لمحمد ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قرأَت فرقة: ﴿عِشَآءً﴾، أَي: وقت العشاءِ. وقرأَ الحسن: [عُشىً] على مثال دُجىً، أَي جمع «عاشٍ»، قال أَبو الفتح: عُشَاةٌ كماشٍ ومشاةٌ، ولكن حذفت الهاءُ تخفيفاً كما حذفت من «مَأْلكة»، وقال عَدِيّ:

أَبْلِـغِ النُّعْمَـانَ عَنِّـي مَـأْلُكـاً ... أَنَّـهُ قـدْ طـالَ حَبْسـي وَانْتِظَـارِي[٢]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومعنى ذلك أَصابهم عشاً من البكاءِ أَو شبه العشا إِذ كذلك هي هيئة عين الباكي لأَنه يتعاشى، ومثَّل شريح في امرأَة بكت وهي مُبطلة ببكاءِ هؤلاءِ وقرأَ الآية، ورُوي أَن

---

(١) أي: لا يشعرون وقت تنبيهك لهم أنك يوسف، فكلمة (وقْت) ظرف للفعل (يشعرون)، ويكون هذا دليلاً على نبوته في ذلك الوقت.

(٢) البيت لعدي بن زيد بن حماد، وهو من أُسرة بني العباد الذين كتبوا لكسرى وسفروا بينه وبين العرب، وقد نشأ في بلاط النعمان، ثم أُعجب به كسرى أنوشروان فثبته في بلاطه، وبهذا كان عديّ أول من كتب بالعربية في ديوان الأكاسرة. وقد بلغ من المنزلة عند النعمان أنه تزوج من هند بنت النعمان، ثم وشى الحساد به عند النعمان فحبسه ـ وفي سجنه أرسل إليه القصائد، والبيت مطلع واحدة من قصائده هذه. والمألك: الرسالة، وفيه يذكر النعمان بأنه قضى مدة طويلة في سجنه، وأنه لا يزال في انتظار عفوه.

يعقوب لمَّا سمع بكاءَهم قال: ما بالكم؟ أَجَرَى في الغنم شيءٌ؟ قالوا: لا ، قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبنا نستبق. . فبكى وصاح وقال: أين قميصه؟ وسيأْتي قصص ذلك.

و﴿ نَسْتَبِقُ ﴾ معناه: على الأَقدام ، أَي: نجري غلاباً ، وقيل: بالرمي ، أَي: ننتضل ، وهو نوع من المسابقة ، قاله الزجَّاج.

وقولهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ ﴾ أَي: بمصدق ، ومعنى الكلام: أَي: لو كنا موصوفين بالصدق وقيل: المعنى: ولو كنت تعتقد ذلك فينا في جميع أَقوالنا قديماً لما صدقتنا في هذه النازلة خاصة لما لحقك فيها من الحزن ونالك من المشقة ولما تقدم من تُهْمَتك لنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ذكره الزجاج وغيره ، ويحتمل أَن يكون قولهم: ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ بمعنى: وإِن كنا صادقين ، قاله المبرد ، كأَنهم أَخبروا عن أَنفسهم أَنهم صادقون في هذه النازلة ، فهو تماد منهم في الكذب ، ويكون بمنزلة قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾[١]. بمعنى: وإِن كنا كارهين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا المثال عندي نظر ، وتخبط الرُّمَّاني في هذا الموضع وقال: «أَلزموا أَباهم عناداً» ونحو هذا مما لا يلزم لأَنهم لم يقولوا: وما أَنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين في معتقدك. بل قالوا: وما أَنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين فيما نعتقد نحن ، وأَما أَنت فقد غلب عليك سوءُ الظن بنا ، ولا يُنْكَر أَن يعتقد الأَنبياءُ عليهم الصلاة والسلام صدق الكاذب وكذب الصادق ما لم يُوحَ إِليهم ، فإِنما هم بشر ، كما قال ﷺ: «إِنما أَنا بشر ، وإِنكم تختصمون إِليَّ ، فلعل بعضكم أَن يكون أَلْحَنَ بحجته من بعض فأَقضي له على نحو ما أَسمع منه. . .» الحديث[٢] ، فهذا يقتضي أَنه جوّز على نفسه أَن يُصدِّق

---

(١) من الآية (٨٨) من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ، وفي الأحكام ، وفي الحيل ، وأخرجه مسلم والدارمي في الأقضية ، والترمذي في الأحكام ، والنسائي في القضاة ، وابن ماجه في الأحكام ، والموطأ في الأقضية ، والإمام أحمد في مسنده (٦ ـ ٢٩٠ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠) ، وبقيته كما جاءت في البخاري «فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذ فإنما أقطع له قطعة من النار» ، رواه البخاري عن أم سلمة.



الكاذب، وكذلك قد صدَّق عليه الصلاة والسلام عبد الله بن أُبَيّ حين حلف على مقالة زيد بن أَرقم وكذَّب زيداً، حتَّى نزل الوحي فظهر الحق[١]، فكلام إخوة يوسف إنما هو مغالطة ومحاجة لا إلزام عناد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ الآية. رُوي أَنهم أَخذوا سَخْلَة[٢] أَو جَدْياً فذبحوه ولطَّخوا به قميص يوسف، وقالوا ليعقوب: هذا قميصه، فأَخذه ولطَّخ به وجهه وبكى، ثم تأَمله فلم يَرَ خَرْقاً ولا أَثر ناب فاستدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان الذئب حليماً يأكل يوسف ولا يخرق قميصه؟ قصَّ هذا القصص ابن عباس وغيره، وأَجمعوا على أَنه استدل على كذبهم لصحة القميص، واستند الفقهاءُ إلى هذا في إعمال الأَمارات في مسائل كالقسامة وغيرها في قول مالك، إلى غير ذلك، قال الشعبيّ: كان في القميص ثلاث آيات: دلالتُه على كذبهم، وشهادتُه في قَدِّه، وردُّ بصر يعقوب به[٣]، ورُوي أَنهم ذهبوا فأَخذوا ذئباً فلطخوا فاه بالدم وساقوه وقالوا ليعقوب: هذا أَكل يوسف، فدعاه يعقوب فأَقعى وتكلم بتكذيبهم.

ووصْف الدم بـ ﴿كَذِبٍۚ﴾ إمَّا على معنى: بِدَم ذي كذبٍ، وإمَّا أَن يكون بمعنى: مكذوب عليه، كما قد جاءَ (المعقول) بدل (العقل) في قول الشاعر:

حتَّى إذا لَمْ يَتْرُكُوا لِعِظَامِهِ ... لَحْماً ولا لِفُؤَادِهِ مَعْقُولاً[٤]

---

(١) وردت قصة هذا الحديث في البخاري ومسلم عن زيد بن أرقم.

(٢) السَّخْلَةُ: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد، والجمع: سَخْلٌ، وسِخَالٌ، وسُخْلان. (المعجم الوسيط).

(٣) قال القرطبي: «وهذا مردودٌ؛ فإن القميص الذي جاءُوا عليه بالدم غير القميص الذي قُدَّ، وغير القميص الذي أتاه البشير به، وقد قيل: إن القميص الذي قُدَّ هو القميص الذي أُتي به فارتد بصيراً».
هذا وقد اختلف العلماءُ في إعراب ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾، فقال الزمخشري: محله النصب على الظرف كأنه قيل: وجاءُوا فوق قميصه بدم، كما تقول: «جاءَ عَلى جِمَالِهِ بأَحْمَالٍ»، وردّ أبو حيان ذلك بقوله: ولا يساعد المعنى على نصب ﴿عَلَىٰ﴾ على الظَّرف بمعنى فوق، لأن العامل فيه إذْ ذاك ﴿وَجَآءُو﴾ وليس الفوق ظرفاً لهم، بل يستحيل أن يكون ظرفاً لهم، وقال الحوفي: ﴿عَلَىٰ﴾ متعلق بـ ﴿وَجَآءُو﴾، وردّه أبو حيّان أيضاً، وقال أبو البقاءِ: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ في موضع نصب حالاً من ﴿بِدَمٍ﴾، لأن التقرير: جاءُوا بدمٍ كذب على قميصه، وعلّق على ذلك أبو حيان بقوله: والمعنى يرشد إليه وإن كان هناك خلاف في جواز تقديم الحال على المجرور بالحرف غير الزائد، ومن أجاز ذلك استدل عليه بشواهد كثيرة من لسان العرب.

(٤) البيت للراعي النميري، قاله من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو من جباة الزكاة، وقد=



فكذلك يجيءُ (التكذيب) مكان (المكذوب).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا كلام الطبري، ولا شاهد له فيه عندي، لأَن نفي (المعقول) يقتضي نفي (العقل) ولا يحتاج إلى بدل، وإنما الدَّمُ الكذبُ عندي وصف بالمصدر على جهة المبالغة. وقرأَ الحسن: [بِدَم كَدِبٍ] بِدَال غير معجمة، ومعناه: الطريُّ ونحوه، وليست هذه القراءَة قوية[1].

ثم قال لهم يعقوب لما بان كذبهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أَي: رضيت وجعلت سُؤْلاً[2] ومُرَاداً. ﴿أَمْرًا﴾ أَي: صنعاً قبيحاً بيوسف، وقوله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ رفع إمَّا على حذف الابتداءِ وإمَّا على حذف الخبر، إمَّا على تقدير: فَشَأْني صبرٌ جميلٌ، وإمَّا على تقدير: فصبرٌ جميلٌ أَمْثَلُ. وذكر أَن الأَشهب، وعيسى بن عمر قرآ بالنصب: [فَصَبْراً جَمِيلاً] على إضمار فعل، وكذلك هي في مصحف أُبي ومصحف أَنس بن مالك وهي قراءَة ضعيفة عند سيبويه، ولا يصلح النصب في مثل هذا إلا مع الأَمر، ولذا يحسن النصب في قول الشاعر:

. . . . صَبْـراً جَمِيـلا فَكِـلانَـا مُبْتَلَـى

وينشد أَيضاً بالرفع، ويروى: «صَبْرٌ جميلٌ» على نداءِ الجَمَلِ المذكور في قوله:

شَكَـا إِلَـيَّ جَمَلـي طـولَ السُّرَى يـا جَمَلـي لَيْـس إِلَـيَّ المُشْتَكَـى

صبـرٌ جميـلٌ فكِـلانـا مُبْتَلَـى

وإنما تصح قراءَة النصب على أَنْ يقدر أَنَّ يعقوب عليه السلام رجع إلى مخاطبة

= وردت في (جمهرة أشعار العرب) لابن أبي الخطاب القرشي، ومعنى البيت مع البيت الذي قبله: إن جباة الزكاة ضربوا رئيس القوم بالسياط الأصبحية حتى لم يتركوا على عظامه لحماً، ولا أبقوا في فؤاده عقلا. كذلك أورده الفراءُ البيت في (معاني القرآن) في أثناءِ شرحه للآية الكريمة، قال: «وقوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ معناه: مكذوب، والعرب تقول للكذب: مكذوب، وليس له عقدُ رأي، ومعقود رأي، فيجعلون المصدر في كثير من الكلام مفعولاً، قال الشاعر: إنَّ أخا المجلود من صبرا، وقال آخر: حتَّى إذا لم يتركوا... البيت».

(١) قال أبو الفتح بن جنّي في (المحتسب ١ ـ ٣٣٥): «أصل هذا من الكَدَب وهو الفوف، يعني البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث، فكأنه دم قد أثّر على قميصه فلحقته أعراض كالنقش عليه».

(٢) السُّؤل والسُّول: ما سألته. (المعجم الوسيط).

نفسه أَثناءَ مخاطبة بنيه، وجميلُ الصبر أَلا تقع شكوى إِلى بشر، وقال النبي ﷺ: «من بثَّ لم يصبر صبراً جميلا»[1] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ تسليمٌ لأَمر الله تعالىٰ وتوكُّلٌ عليه، والتقدير: على احتمال ما تصفون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قيل: إِن السيارة جاءَت في اليوم الثاني من طرحه في الجب، والسَّيَّارة: جمع سيَّار، كما قالوا: بغَّال وبغَّالة، وهذا بعكس تمرة وتَمْر، والسَّيَّارة بناءُ مبالغة للذين يردِّدون السَّيْر في الطرق، ورروي أَن هذه السيارة كانوا قوماً من أَهل مدين، وقيل: قوم أَعراب، والوارِدُ هو الذي يأْتي الماءَ ليسقي منه لجماعته، ويروى أَن مُدْلي الدلو كان يسمَّى مالك بن ذعر، والوارد هنا يمكن أَن تقع على الواحد وعلى الجماعة. ويروى أَن هذا الجب كان بالأُردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، ويقال: أَدْلى الدَّلْوَ إِذا أَلقاه في البئر ليستقي الماءَ، ودَلاَّه يدلوه إِذا استقاه من البئر، وفي الكلام هنا حذف تقديره: فتعلق يوسف بالحبل، فلما بصَر به المُدْلي قال: يا بشراي. ورروي أَن يوسف كان يومئذ ابن سبع سنين، ويرجح هذا لفظة «غلام» فإِنه ما بين الحولين إِلى البلوغ، فإِن قيلت فيما فوق ذلك فعلى استصحاب حال وتجَوُّز، وقيل: كان ابن سبع عشرة سنة، وهذا بعيد.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [يَا بُشْرَايَ] بإِضافة البشرى إِلى المتكلم وبفتح الياءِ على ندائها كأَنه يقول: احضري فهذا وقتك، وهذا نحو قوله: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾[2]، ورَوَى ورش عن نافع: [يا بُشْرَايْ] بسكون الياءِ، قال أَبو علي: وفيها جمع بيْن ساكنين على حدّ دابة وشابّة[3]، ووجه ذلك أَنه يجوز أَن تختص بها[4]

---

(١) الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

(٢) من الآية (٣٠) من سورة يس.

(٣) على حدّهما في مجرّد التقاءِ الساكنين، ولكن نلحظ أن ثاني الساكنين في (بُشْرَايْ) ليْس مضعفاً.

(٤) يظهر أن الضمير في (بها) يعود على (القاعدة) وهي مفهومة من كلامه، والمعنى: يجوز أن تختص بهذه القاعدة الألفُ.

الألف لزيادة المدِّ الذي فيها على المدِّ الذي في أُختيها[١] ، كما اختصت في القوافي بالتأسيس ، واختصت في تخفيف الهمزة نحو هباة[٢] ، وليس شيءٌ من ذلك في الياءِ والواو. وقرأ أبو الطفيل ، والجحدري ، وابن أبي إسحٰق ، والحسن: [يَا بُشْرَيَّ] تقلب الأَلف ياءً ثم تدغم في ياءِ الإضافة ، وهي لغة فاشية ، ومن ذلك قول أَبي ذُؤَيب:

سَبَقُوا هَوَيَّ وأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ ... فَتُخُرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[٣]

وأَنشد أَبو الفتح وغيره في ذلك:

يُطَوِّفُ بي كَعَبْدٍ في مَعَدٍّ ... ويَطْعُنُ بالصُّمُلَّةِ في قَفَيَّا

فَإِنْ لَمْ تَثْأَرُوا لي في مَعَدٍّ ... فَمَا أَرْوَيْتُمَا أَبداً صَدَيَّا[٤]

---

(١) يريد بأُختيها الياءَ والواو ، فقد ذكر بعض الفروق بين الألف وكل من الواو والياءِ.

(٢) أصلها (هبْأَة) بسكون الباءِ ، فنقلت حركة الهمزة إليها ، فصارت (هباة) ، والهباءُ: التراب الذي تطيره الريح ويلصق بالأشياءِ ، أو ينبث في الهواءِ فلا يبدو إلا في الشمس ، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ ، ويقال: هبا الرمادُ يهبو ، قال الأصمعي: إذا سكن لهَبُ النار ولم يطفأ جمرها قيل: خمدت ، فإن طفئت البَتَّةَ قيل: همدت ، فإن صارت رماداً قيل: هَبَا يَهْبُو وهو هاب غير مهموز (اللسان).

(٣) قال أبو ذؤيب هذا البيت ضمن أبيات يرثي بها أولاده ، وَهَوَيَّ: هوايَ ، وهي لغة هُذَيْل ، يقلبون ألف المقصور المضاف إلى الياءِ ياءً ثم يدغمون الياءَيْن فيقولون: هذه عَصَيَّ في عَصايَ ، وكذلك قَفَيَّ في قفايَ ، وأَعْنَقُوا: أَسْرَعُوا ، وتُخُرِّمُوا: أُخذوا واحداً بعد واحد ، قال الأصمعي: «أي: ماتوا قبلي ولم يلبثوا لهواي ، وكنت أُحب أن أموت قبلهم ، وقد جعلهم كأنهم هَوَوْا المنية لسرعتهم إليها وهم في الحقيقة لم يَهْوَوْها». والبيت من شواهد النحويين ، وقد رواه الفراءُ في (معاني القرآن) عن القاسم بن معن بلفظ آخر ، قال:

تَرَكُوا هَوَيَّ وأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ ... فَفَقَدْتُهم ولِكُلِّ حُبٍّ مَصْرَعُ

(٤) البيتان للمنخَّل اليَشْكُري ، وكان قد اتُّهم بالمُتَجَرِّدَة امرأة النعمان بن المنذر ، وعرف النعمان ذلك فدفعه إلى صاحب سجنه واسمُه عِكَبٌّ اللخمي ، فقيده عِكَبٌّ هذا وعذَّبَهُ ، فقال المنخل شعراً يصف فيه حاله ، ومنه هذان البيتان ، وقد رواهما أبو الفتح في (المحتسب) عن قطرب بلفظ آخر هو:

يُطَوِّفُ بي عِكَبٌّ في مَعَدٍّ ... ويطْعُنُ بالصُّمُلَّة في قَفَيَّا

فإنْ لَمْ تَثْأَرا لي مِنْ عِكَبٍّ ... فَلا أَرْوَيْتُمَا أَبداً صَدَيَّا

والصُّمُلَّة: العصا كما في (التاج ـ صَمَلَ). والشعر في الخصائص ، وشرح الحماسة للتبريزي ٢ ـ ٤٨ ، واللسان ـ عَكَبَ.

أرادَ: هَوايَ، وقَفَايَ، وصَدَايَ[١]. وقرأ حمزة، والكسائي: [يَا بُشْرِايْ] بالإمالة يُميلان ولا يضيفان، وقرأ عاصم كذلك إلا أنه يفتح الراءَ ولا يُميل، واختلف في تأويل هذه القراءَة ـ فقال السُّدي: كان في أَصحاب هذا الوارد رجل اسمه بشري، فناداه وأَعلمه بالغلام[٢]، وقيل: هو على نداءِ البشرى كما قدمنا.

والضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ ظاهر الآيات أنه لِوُرَّاد الماءِ، قاله مجاهد، وقال: إنهم خشَوْا أَمْر تجار الرفقة ـ إن قالوا وجدناه ـ أَن يشاركوهم في الغلام الموجود، ـ هذا إن كانوا فسقة ـ أَو يمنعوهم من تملُّكِهِ إن كانوا مؤمنين، فأَسَرُّوا بينهم أَن يقولوا: أَبْضَعَهُ معناه بعض أَهل المصر. و﴿بِضَٰعَةً﴾ حالٌ، والبِضاعَةُ: القطعة من المال يُتَّجر فيها بغير نصيب من الربح، مأْخوذة من قولهم: بَضَعْتُ، أَي: قطعت، وقيل: إنهم أَسَرُّوا في أَنفسهم أَنهم يتخذونه بضاعة لأَنفسهم، أَي متجراً، ولم يخافوا من أَهل الرفقة شيئاً، ثم يكون الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ لهم أَيضاً، أَي: باعوه بثمن قليل، إذ لم يعرفوا حقه ولا قدره، بل كانوا زاهدين فيه، وروي ـ على هذا ـ أَنهم باعوه من تاجر، وقال مجاهد: الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ لأَصحاب الدلو، وفي ﴿وَشَرَوْهُ﴾ لإخوة يوسف الأَحد عشر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ و﴿وَشَرَوْهُ﴾ لإخوة يوسف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك أَنه رُوي أَن إخوته لما رجعوا إلى أَبيهم وأَعلموه رجع بعضهم إلى الجب ليتحققوا أَمْر يوسف، ويقفوا على الحقيقة من فقده، فلما علموا أَن الورّادَ قد أَخذوه جاءُوهم فقالوا: هذا عبد أَبَق لأُمِّنا ووهبته لنا ونحن نبيعه منكم، فقارَّهم[٣] يوسف على هذه المقالة خوفاً منهم ولينفذ أَمر الله، فحينئذ أَسَر ه إخوته إذْ جحدوا أُخوَّته

(١) قال أبو علي: «إن قلْب هذه الألف ياءً لوقوع الياء بعدها كأنه عِوَض مما كان يجب فيها من كسرها لياء الإضافة بعدها، ككسرة ميم غلامِي وباءِ صاحبي ونحو ذلك، ولم يُفعل ذلك في ألف التثنية نحو غُلامايَ وصاحبايَ خوف التباس المرفوع بالمنصوب والمجرور».

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «إنَّ السدي أبعد في هذا التفسير».

(٣) قَارَّهُ: قَرَّ معه وسكن. (اللسان). ويقال: «أنا لا أُقارُّكَ على ما أنت عليه». وفي الحديث: «قَارُّوا الصلاة» بمعنى: اسكنوا فيها ولا تتحركوا. (المعجم الوسيط).

فأَسَرُّوها واتخذوه بضاعة ، أَي متَّجراً لهم ومكسباً ، وشَرَوْه أَيضاً بثمن بَخْس ، أَي باعوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ، إن كانت الضمائر لإِخوة يوسف ففي ذلك توعُّد ، وإِن كانت الضمائر للواردين ففي ذلك تنبيه على إِرادة الله تبارك وتعالىٰ ليوسف ، وسوق الأَقدار بحسب بناءِ حاله ، فهو ـ حينئذ ـ بمعنى قول النبي ﷺ: «يُدبِّر ابن آدم والقضاءُ يضحك». وفي الآية أَيضاً تسلية للنبي ﷺ عما يجري عليه من جهة قريش ، أَي: العاقبة التي هي للمتَّقين هي المراعاة والمنتظرة.

و﴿وَشَرَوْهُ﴾ هنا بمعنى باعوه ، وقد يقال: شرى بمعنى اشترى ، ومن الأَول قول يزيد بن مُفرِّغ الحِمْيَرِيُّ:

وشَـــرَيْـــتُ بُـــرْداً لَيْتَنـــي مِـــنْ بَعْـــدِ بُـــرْدٍ كُنْـــتُ هـــامَـــهْ[1]

و«بُرْد» اسم غلام له ندم على بيعه ، والضمير يحتمل الوجهين المتقدمين.

والبَخْسُ: مصدر وصف به الثمن ، وهو بمعنى النقص ، وهذا أَشهر معانيه ، فكأَنه القليل الناقص ، وهو قول الشعبي ، وقال قتادة: البَخْس هنا بمعنى الظلم ، ورجحه الزجاج من حيث أَن الحُرّ لا يحل بيعه ، وقال الضحاك: هو بمعنى الحرام ، وهذا أَيضاً بمعنى أَنه لا يحلُّ بيعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ عبارة عن قلة الثمن لأَنها دراهم لم تبلغ أَن توزن لقلتها ، وذلك أَنهم كانوا لا يَزِنون ما دون الأُوقية وهي أَربعون درهماً. واختلف في مبلغ ثمن يوسف عليه السلام ـ فقيل: باعوه بعشرة دراهم ، وقال ابن مسعود: بعشرين ، وقال مجاهد: باثنين وعشرين ، أَخذها إِخوته درهمين درهمين[2] وقال

---

(١) البيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن) على أن شَرَى بمعنى باع ، وقد رواه في تفسير الطبري: «مِنْ قَبْلِ بُرْدٍ» وجاء في (اللسان): وشاهد شريت بمعنى بعت قول يزيد بن مفرِّغ وقد باع غلامَهُ بُرْداً فندم بعد بيعه:

شَـــرَيْـــتُ بُـــرْداً ولَـــوْلا مَـــا تَكَنَّفَنـــي مِـــنَ الْحَـــوَادِثِ مـــا فَـــارَقْتُـــهُ أَبَـــداً

ومثل هذا البيت قول الشَّمَّاخ في رجل باع قوسه لرجل آخر:

فَلَمَّـــا شَـــرَاهـــا فَـــاضَـــتِ العَيْـــنُ عَبْـــرَةً وفـــي الصَّـــدْرِ حُـــزَّازٌ مـــن اللَّـــوْم حَـــامِـــزُ

يريد: فلما باع قوسه. ومعنى حامز: مُمِضٌّ مُحْرِقٌ.

(٢) أي لكل واحد منهم درهمان ، فيكون المجموع اثنين وعشرين درهماً.

عكرمة: بأَربعين درهماً دفعت ناقصة فهذا كان بَخْسُها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ وصف يترتب في وُرّاد الماء، أَي: كانوا لا يعرفون قدره، فهم ـ لذلك ـ قليلٌ اغتباطهم به، لكنه أَرْتَب في إِخوة يوسف، إِذْ حقيقة الزهد في الشيءِ إِخراج حُبّه من القلب ورفضه من اليد، وهذه كانت حال إِخوة يوسف في يوسف، وأَما الوُرّاد فتمسّكهم به وتَجْرُهم يمانع زهدهم إِلاَّ على تَجوُّز. وقوله: ﴿فِيهِ﴾ ليست بصلة لـ ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾، قاله الزجاج، وفيه نظر، لأَنه يقتضي وصفهم بالزهد على الإِطلاق وليس قصد الآية هذا، بل قصدها الزهد الخاص في يوسف، والظروف يجوز فيها من التقديم ما لا يجوز في سائر الصلات، وقد تقدم القول في عود ضمير الجماعة الذي في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

رُوي أَن مُبْتاع يوسف ـ وهو الوارد من إِخوته أَو التاجر من الوُرَّاد حسبما تقدم من الخلاف ـ ورد به مصر ـ البلد المعروف ولذلك لا ينصرف ـ فعرضه في السوق، وكان أجمل الناس، فوقعت فيه مزايدة حتى بلغ ثمناً عظيماً، فقيل: وزنه من ذهب، ومن فضة، ومن حرير. فاشتراه العزيز وكان حاجب الملِك وخازنه، واسم الملِك الرَّيَّان بن الوليد، وقيل: مصعب بن الرَّيَّان، وهو أَحد الفراعنة، وقيل: هو فرعون موسى عُمِّر إِلى زمانه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وذلك أَن ظهور يوسف عليه السلام لم يكن في مُدّة كافر يخدمه يوسف. واسم العزيز المذكور: قطفير، قاله ابن عباس، وقيل: أَطفير، وقيل: قنطور، واسم امرأَته: راعيل، قاله ابن إِسحٰق، وقيل: ربيحة، وقيل: زَليخا[1]، وظاهر أَمر العزيز أَنه كان كافراً، ويدلُّ على ذلك كون الصنم في بيته ـ حسبما نذكره في

(١) يضبط بضم الزاي وفتح اللام، والأقرب إلى الصواب ضبطه بفتح الزَّاي وكسر اللام.



البرهان الذي رأى يوسف ـ وقال مجاهد: كان العزيز مُسْلماً. والمَثْوَى: مكان الإقامة، والإكرام إنما هو لِذي المثوى، ففي الكلام استعارة. وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أَي: بأَن يُعيننا في أَبواب دنيانا وغير ذلك من وجوه النفع، وقوله: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ أَي نتَبَنَّاهُ، وكان ـ فيما يُقال ـ لا ولد لهُ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أَي: كما وصفْنَا ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ فعلنا ذلك، و﴿ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾: الرؤْيا في النوم، قاله مجاهد، وقيل: أَحاديث الأَنبياءِ والأُمم. والضمير في ﴿أَمْرِهِۦ﴾ يحتمل أَن يعود على يوسف، قاله الطبري، ويحتمل أَن يعود على الله عزَّ وجلَّ، قاله ابن جبير، فيكون إِخباراً مُنبِّهاً على قدرة الله عزَّ وجلَّ ليس في شأْن يوسف خاصة بل عامّاً في كل أَمر، وكذلك الاحتمال في قول الشاعر:

رأَيْــتُ أَبَــا بَكْــرٍ ـ ورَبُّــكَ غَــالِـبٌ   عَلَى أَمْرِهِ ـ يبغي الخِلاَفَةَ بالتَّمْر[1]

وأَكثرالناس الذين نفى عنهم العلم هم الكفرة، وفيهم الذين زهدوا في يوسف وغيرهم ممن جهل أَمره، ورُوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أَنه قال: أَصحُّ الناس فِراسة ثلاثة: العزيز حين قال لامرأَته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، وابنة شُعَيْب حين قالت: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[2]، وأَبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وقال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وَفِراسة العزيز إِنما كانت في نفس نجابة يوسف، لا أَنَّه تفرّس الذي كان كما في المثالين الآخرين، فإِنَّ ما تفرس خرج بعينه[3].

---

(١) البيت غير منسوب، والشاهد فيه أن الضمير في (أمره) قد يعود على الله سبحانه وتعالى، وقد يعود على أبي بكر رضي الله عنه، وجملة «وربُّك غالبٌ على أمره» جملة معترضة.

(٢) من الآية (٢٦) من سورة القصص.

(٣) نقل القرطبي عن ابن العربي قوله تعقيباً على خبر ابن مسعود: «عجباً للمفسرين في اتفاقهم على جلْب هذا الخبر، والفراسة هي علم غريب، وليس كذلك فيما نقلوه، لأن الصِّدِّيق إنما ولَّى عمر بالتجربة في الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمُنَّة، وليس ذلك من طريق الفِراسة، وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البيِّنة، وأما أمر العزيز فيمكن أن يُجعل فراسة لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة».



والأَشُدُّ: استكمال القوة وتناهي بنية الإنسان، وهما أَشُدَّان: أَوَّلهما البلوغ، وقد عبَّر عنه مالك وربيعة بأَشُدّ، وذكره مُنذر بن سعيد. والثاني الذي يستعمله العرب، وقيل: هو من ثماني عشرة سنة إلى ستِّين سنة، وهذا قول ضعيف. وقيل: الأَشُدُّ: بلوغ الأَربعين، وقيل: بل ستَّة وثلاثون، وقيل: ثلاث وثلاثون، وهذا هو أَظهر الأَقوال فيما نحسبه، وقيل: عشرون سنة، وهذا ضعيف، وقال الطبري: الأَشُدُّ لا واحد له من لفظه[1]، وقال سيبويه: الأَشُدُّ: جمع شِدَّةٍ نحو نِعْمةٍ وأَنْعُم، وقال الكسائي: أَشُدُّ جمع شَدٍّ نحو قَدٍّ وأَقُدّ، وشَدُّ النهار: معظمه وحيث تستكمل نهاريته.

وقوله تعالىٰ: ﴿حُكْمًا﴾ يحتمل أَن يريد الحكمة والنُّبوة، وهذا على الأَشُدِّ الأَعلى، ويحتمل العلم والحكمة دون النُّبُوَّة، وهذا أَشبه إِن كانت قصة المراودة بعد هذا. ﴿وَعِلْمًاۚ﴾ يريد تأْويل الأَحاديث وغير ذلك، ويحتمل أَن يريد بقوله: ﴿حُكْمًا﴾ أَيْ سلطاناً في الدنيا وحُكْماً بين الناس بالحق، وتدخل النُّبُوَّة وتأْويل الأَحاديث وغير ذلك في قوله: ﴿وَعِلْمًاۚ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أَلفاظ فيها وعد للنبي ﷺ، فلا يهولنَّك فعل الكفرة بك وعُتُوُّهم عليك، فالله تعالىٰ يصنع للمحسنين أَجمل صنع.

---

(١) قال الطبري أيضاً: وهو جمعٌ مثل الأَضُرّ والأَسُرّ، ويجب ـ في القياس أن يكون واحده: شَد، كما أن واحد الأَضُرّ، وواحد الأَسُرّ: سرّ، كما قال الشاعر:

هَــلْ غَيْــرَ كَثْــرَ الأَشُــدُّ وأَهْلَكَــتْ ... حَــرْبُ الْمُلــوكِ أَكَــاثِــرَ الأَمْــوَالِ

وقال حميد:

وقَــدْ أَتَــى لَــوْ تعتِــبُ العَــوَاذِلُ ... بَعْــدَ الأَشُــدِّ أَرْبَــعٌ كَــوَامِــلُ

وفي (اللسان ـ شَدَدَ): «قال الأزهريُّ: الأَشُدُّ في كتاب الله تعالىٰ في ثلاثة معان يقرب اختلافها، فأما قوله في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ فمعناه الإدراك والبلوغ، وحينئذ راودته امرأة العزيز عن نفسه، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال الزجاج: معناه: احفظوا عليه مالَه حتى يبلغ أَشُدَّه، فإذا بلغ أَشُدَّه فادفعوا إليه ماله، وبلوغه أَشُدَّه أن يؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغاً، وأما قوله تعالىٰ في قصة موسى صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ فإنه قرن بلوغ الأَشُدّ بالاستواء، وهو أن يجتمع أمره وقوته ويكتهل وينتهي شبابه، وأما قول الله تعالىٰ في سورة الأحقاف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد، وعند تمامها بعث محمد ﷺ نبياً وقد اجتمعت حُنكتهُ وتمام عقله، فبلوغ الأشد محصور الأول محصور النهاية، غير محصور ما بين ذلك».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾.

الْمُراوَدَةُ: الملاطفة في السوق إلى غرض، وأكثر استعمال هذه اللفظة إنما هو في هذا المعنى الذي هو بين الرجال والنساءِ، ويشبه أن يكون من «راد يرُودُ» إذا تقدم لاختبار الأرض والمرعى، فكأن المراودَ يختبر أبداً بأقواله وتلطفه حال المراوَدِ من الإجابة أو الامتناع.

وفي مصحف ابن مسعود: [وقرعت الأبواب]، وكذلك رويت عن الحسن[1]، ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ هي زليخا امرأة العزيز، وقوله: [عن نفسه] كناية عن غرض المواقعة، وقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ تضعيف مبالغة لا تعدية. وظاهر هذه النازلة أنها كانت قبل أن يُنبَّأ عليه السلام.

وقرأ ابن كثير وأهل مكة: [هيتُ] بفتح الهاءِ وسكون الياءِ وضم التاءِ، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحق، وابن محيصن، وأبو الأسود، وعيسى بفتح الهاءِ وكسر التاءِ، وقرأ ابن مسعود، والحسن، والبصريون: ﴿هَيۡتَ﴾ بفتح الهاءِ وسكون الياءِ، ورويت عن ابن عباس، وقتادة، وأبي عمرو، قال أبو حاتم: لا يعرف أهل البصرة غيرها، وهم أقل الناس غُلُوّاً في القراءَة، قال الطبري: وقد رُويت عن رسول الله ﷺ، وقرأ نافع، وابن عامر: [هِيْتَ] بكسر الهاءِ، وسكون الياءِ وفتح التاءِ وهي قراءَة الأعرج، وشيبة، وأبي جعفر، وهذه الأربع بمعنى واحد واختلفت باختلاف اللغات فيها[2]،

---

(١) في بعض النسخ بياض مكان (وقَرَّعتِ الأبواب)، وفي إحدى النسخ سقطت كلمة (ابن مسعود)، وعلى ما خبرناه من منهج ابن عطية فإن قوله: (وفي مصحف ابن مسعود) إلى (عن الحسن) جاءَ قبل مكانه الطبيعي، فهو يشرح الجمل والألفاظ بترتيب ورودها في القرآن الكريم، وكان الطبيعي أن يذكر ذلك عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾.

(٢) يريد أن يقول: إن المعنى في هذه القراءات الأربع واحد وهو الدعاءُ إلى الإقبال، ولكن القراءات اختلفت باختلاف اللغات.



ومعناه: الدعاءُ، أَيْ: تعال وأَقبل على هذا الأَمر، قال الحسن: معناها: هَلُمَّ، ويحسن أَن تتصل بها «لك» إذ حلَّت حل قولها: إقبالاً أَو قرباً، فجَرَت مجرى «سقياً لك ورعياً لك»، ومن هذا قول الشاعر يخاطب عليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه:

أَبْلِــغْ أَمِيــر ٱلْمُــؤمِنِيــنَ أَخـا الْعِـرَاقِ إِذا أَتيْنَـا
إِنَّ الْعِـــرَاقَ وَأَهْلَـــهُ عُنُــقٌ إِلَيْــكَ فَهَيْــتَ هَيْتـا[1]

ومن ذلك على اللغة الأُخرى قول طرفة:

لَيْسَ قَـوْمِـي بـالأَبْعَـديـنَ إِذا مـا قـال داعٍ مـن الْعَشِيـرَةِ هَيْـتُ[2]

ومن ذلك أَيضاً قول الشاعر:

قَـدْ رَابَنِـي أَن الْكَـرِيَّ أَسْكَتَـا ولَـوْ غَـدَا يُعْنَـى بنَـا لَهَيَّتَـا[3]

أَسْكَتَ: دخل في السكوت، و«هَيَّتَ» معناه: قال: هيْتَ، كما قالوا: أَفَّفَ إذ قال: أُف أُف، ومنه: سبَّح وكبَّر ودعْدعَ إذا قال: داع داع.

والتاءُ على هذه اللغات كلها مَبْنيَّة، فهي في حال الرفع مثل قَبْلُ وبَعْدُ، وفي الكسر على الباب لالتقاءِ الساكنين، وفي حال النصب ككيْفَ ونحوها. قال أَبو عبيدة:

---

(١) البيتان في (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، وفي (المحتسب) لابن جني، والرواية فيهما بكسر همزة (إن) في أول البيت الثاني على القطع والاستئناف، أو على أن (أبلغ) بمعنى (قُلْ)، ومعنى (عُنُقٌ إليكَ) أنَّهم مائلون إليك متطلعون لك، ورواية (اللسان): «سِلْم إِلَيْكَ» بدلاً من «عُنُقٌ إِلَيْكَ»، قال أبو عبيدة: ولفظ «هيت» يكون أيضاً للاثنين وللجميع من الذكر والأنثى سواءً، إلا أن العدد فيما بعده، تقول: هيت لكما، هيت لكن، ونقل في (اللسان) عن ابن جني أن «هيت» في البيت بمعنى أسرع، قال: وفيه أربع لغات وذكرها كما أوردها ابن عطية هنا.

(٢) البيت غير موجود في الديوان ولا فيما بين أيدينا من شعر طرفة، والشاهد فيه أن «هيت» تبنى على الضم عند بعض العرب فتكون مثل قبلُ وبعدُ. والشاعر يمدح قومه بالإسراع إلى نجدة من يدعوهم إلى النجدة، إنهم يسرعون إلى الإجابة جماعات جماعات، وقد روى ابن جني في المحتسب بيتاً آخر بعد هذا هو قوله:

هُـــمْ يُجيبـــون: وَاهَلُــمَّ سِـــرَاعـــاً كـــالأَبَـــابِيـــلِ لا يُغَـــادَرُ بَيْـــتُ

(٣) البيت في التاج واللسان غير منسوب، قال في اللسان: «وَهَيَّتَ بالرجل وهوَّت به: صَوَّت به وصاح، ودعاه فقال له: هيتَ هيتَ، قال: قد رابني.. البيت». لكن الشطر الثاني فيه وفي التاج جاء بلفظ: «لو كان معنيا بها لهَيَّتا». والكريُّ هو الأجير، أو الذي يُكْريكَ دابته، وقد شرح ابن عطية «أَسْكَتَ» و«هَيَّتَ»، والمعنى: أثار ريبتي أن الأجير قد دخل في السكوت، ولو كان معنياً بالدواب لهَيَّت عليها.

و«هَيْتَ» لا تُثَنى ولا تُجمع، تقول العرب: هيْت لك، وهيت لكما، وهيت لكم.

وقرأ هشام بن عامر: [هِئْتُ] بكسر الهاءِ والهمز وضم التاءِ. وهي قراءَة علي بن أَبي طالب، وأَبي وائل، وأَبي رجاءٍ، ويحيى، ورويت عن أَبي عمرو، وهذا يحتمل أَن يكون من: «هاءَ الرجل يهيءُ» إذا أَحسن هيئته على مثال: «جَاءَ يجيءُ»[1]، ويحتمل أَن يكون بمعنى: تَهيأتُ، كما يقال: «فِئْتُ وتَفَيَّأْتُ» بمعنى واحد، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يتفيأ ظلاله﴾[2]، وقال: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[3].

وقرأ ابن أَبي إِسحق أَيضاً هكذا إِلا أَنه سهَّل الهمزة، وقرأ ابن عباس أَيضاً: [هُيِّئْتُ لَكَ][4]، وقرأ الحلواني عن هشام: [هِئْتَ] بكسر الهاءِ والهمزة وفتح التاءِ، قال أَبو عليّ: ظاهر أَن هذه القراءَة وهم، لأنه كان ينبغي أَن تقول: «هِئْتَ لي» وسياق الآيات يخالف هذا[5]، وحكى النحاس أَنه يقرأُ: [هِيتِ] بكسر الهاءِ وسكون الياءِ وكسر التاءِ.

و﴿مَعَاذَ﴾ نصب على المصدر، ومعنى الكلام: أَعوذ بالله، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ فيحتمل أَن يعود الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ على الله عزَّ وجلَّ، ويحتمل أَن يريد العزيزَ سيِّده، أَي: فلا يصلح لي أَن أَخونه وقد أَكرم مثواي وائتَمَنني. قال مجاهد، والسدي: ﴿رَبِّيٓ﴾ معناه: سيِّدي، وقاله ابن إِسحٰق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِذا حفظ الآدميَّ لإِحسانه فهو عملٌ زاكٍ وأَحرى أَن يحفظ ربَّه.

---

(١) قال ابن جني: «وقالوا أيضاً: هِئْتُ أَهَاءُ، كخِفْتُ أخاف، هذا بمعنى خذ قال:
أفاطم هَائي السَّيْفَ غَيْرَ مُذَمَّم

(٢) من الآية (٤٨) من سورة النحل.

(٣) من الآية (٩) من سورة الحجرات.

(٤) علّق ابن جني عليها في المحتسب بقوله: «وأما [هُيِّئْتُ لَكَ] ففعل صريح كهئْتُ لك، كقولك: أُصلحتُ لك، أي: فدونك وما انتظارك؟ واللام متعلقة بالفعل نفسه كقولك: أُصْلِحْتُ لك، وصَلَحْتُ لكذا».

(٥) حجة أبي علي ومن وافقه أن الفعل عند فتح التاءِ يجعل التهيؤ من يوسف، ويوسف عليه السلام لم يتهيأ لها، فلا بُدَّ من ضم التاء، وقد ردَّ صاحب النشر هذه الحجة بقوله: إن المعنى مع فتح التاءِ: تهيَّأ لي أمْرُك الآن، إذ لم يتيسَّر لها قبل ذلك أن تخلو إليه، أو المعنى: حسنت هيْئتُك لي، واللام ـ على المعنيين ـ للبيان. والرواية ثابتة عن هشام. (روح المعاني).



ويحتمل أَن يكون الضمير للأَمر والشأْن ، ثم يبتدئ: ﴿رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ . والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ﴾ مرادٌ به الأَمر والشأْن فقط.

وحكى بعض المفسرين أَن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ ثم دافع الأَمر باحتجاج وملاينة امتحنه الله تعالىٰ بالهمّ بما همَّ به ، ولو قال: «لا حول ولا قوة إِلا بالله» ودافع بعنف. وبغير شيءٍ من ذلك ما ابتُلي بالمكروه.

وقرأَ الجحدري: [مَثْوِيَّ] ، وكذا قرأَها أَبو الطفيل ، وروي عن النبي ﷺ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾[1] .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ الآية. لا شك أَن همَّ زليخا كان في أَن يواقعها يوسف ، واختلف في همِّ يوسف عليه السلام ـ فقال الطبريُّ: قالت فرقة: كان مثل همها ، واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبيٌّ؟ فقيل: ذلك لِيُرِيَهُ الله تعالىٰ موقع العفو والكفاية ، وقيل: الحكمة في ذلك أَن يكون مثالاً للمذنبين ليَرَوْا أَن توبتهم ترجع بهم إِلى عفو الله كما رجعت بمن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب. وذلك كله على أَن همَّ يوسف بلغ ـ فيما روت هذه الفرقة ـ إِلى أَن جلس بين رجلي زليخا وأَخذ في حلِّ ثيابه وتكته ونحو هذا ، وهي قد استلقت له ، قاله ابن عباس وجماعة من السلف. وقالت فرقة في همِّه: إِنما كان بخطرات القلب التي لا يقدر البشر على التحفظ منها ، ونزع عن ذلك ولم يتجاوزه ، فلا يبعد هذا على مثله عليه السلام ، وفي الحديث: «إِن من هَمَّ بسيئة ولم يعملها فله عشر حسنات»[2] ، وفي حديث آخر «حسنة» ، فقد يدخل يوسف في هذا الصنف ، وقالت فرقة: كان هم يوسف بضربها ونحو ذلك.

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٢٣) من سورة طه ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾.

(٢) الحديث رواه البخاري في الرقاق ، ومسلم في مواضع كثيرة ، والترمذي في تفسير سورة الأعراف ، والدارمي في الرقاق ، والإمام أحمد في أكثر من موضع من مسنده ، ولفظه كما في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربّه عزَّ وجلَّ قال: «قال: إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيَّن ذلك ، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف البَتَّةَ.

والذي أَقول: في هذه الآية: إِن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح و لا تظاهرت به رواية، وإِذا كان ذلك فهو مؤمن قد أُوتي حكماً وعلماً ويجوز عليه الهَمُّ الذي هو إِرادة الشيءِ دون مواقعته، وأَنْ يستصحب الخاطر الرديءَ على ما في ذلك من الخطيئة، وإِن فرضناه نبيّاً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إِلاَّ الهَمُّ الذي هوالخاطر، ولا يصح عليه شيءٌ مما ذُكر من حلٍّ تكَّة ونحو ذلك، لأَن العصمة مع النبوة، وما رُوي من أَنه قيل له: «تكون في ديوان الأَنبياءِ وتفعل فعل السفهاء» فإِنما معناه العِدَةُ بالنبوة فيما بعد، ولِلْهَمِّ بالشيءِ مرتبتان: فالأُولى تجوز عليه مع النبوة، والثانية الكبرى لا تقع إِلا من غير نبي، لأَن استصحاب خاطر المعصية والتَّلَذُّذ به معصية في نفسها تكتب، وقول النبي ﷺ: «إِن الله تجاوز لأُمتي ما حدثت به نفوسهم ما لم تنطق به أَو تعمل»[(١)] معناه: من الخواطر، وأَما استصحاب الخاطر فمحال أَن يكون مباحاً، فإِن وقع فهو خطيئة من الخطايا، لكنه ليس كمواقعة المعصية التي فيها الخاطر، ومما يؤيد أَن استصحاب الخاطر معصية قولُ النبي ﷺ: «إِنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[(٢)]، وقولُ الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[(٣)]، وهذا منتزع من غير موضع من الشرع، والإِجماعُ منعقد على أَن الهمَّ بالمعصية واستصحاب التَلَذذ بها غير جائز ولا داخل في التجاوز.

واختلف في البرهان الذي رأَى يوسف. وقيل: نودي. واختلف فيما نودي به ـ فقيل: ناداه جبريل عليه السلام: يا يوسف، تكون في ديوان الأَنبياءِ وتفعل فعل

(١) الحديث رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة، وورواه الطبراني في الكبير عن عمران بن حصين، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح.

(٢) أخرجه الشيخان في الصحيحين، والإمام أحمد في مسنده، وأبو داود والنسائي عن أبي بكرة، وأخرجه ابن ماجه عن أبي موسى، ونص الحديث كاملاً: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

(٣) من الآية (١٢) من سورة الحجرات.



السفهاءِ؟ وقل: نودي: يا يوسف، لا تواقع المعصية فتكون كالطائر الذي عصَى فتساقط ريشه فبقي ملقى، ناداه بذلك يعقوب، وقيل: غير هذا مما هو في معناه. وقيل: كان البرهان كتاباً رآه مكتوباً، فقيل: في جدار المجلس الذي كان فيه، وقيل: بين عيني زليخا، وقيل: في كفٍّ من الأرض خرجت دون جسد، واخْتُلف في المكتوب ـ فقيل: قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1]، وقيل: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[2]، وقيل غير هذا. وقيل: كان البرهانُ أَنْ رأَى يعقوبَ عليه السلام ممثلا معه في البيت عاضّاً على إِبهامه، وقيل: على شفته، وقيل: بل انفرج السقف فرآه كذلك، وقيل: إِن جبريل عليه السلام قال له: لئن واقعت المعصية لأَمحونك من ديوان النبوة. وقيل: إِن جبريل ركضه برجله فخرجت شهوته على أَنامله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقيل: بل كان البرهان فكرته في عذاب الله ووعيده على المعصية، وقيل: بل كان البرهان الذي اتعظ به أَن زليخا قالت له: مكانك حتى أَسْتُر هذا الصنم ـ لِصَنم كان معها في البيت ـ فإِني أَستحي منه أَن يراني على هذا الحال، وقامت إِليه فسترته بثوب، فاتعظ يوسف وقال: من يسترني أَنا من الله القائم على كل شيءٍ؟ وإِذا كنت أَنت تفعلين هذا لما لا يعقل فإِني أَولى أَن أَستحي من الله.

والبرهان في كلام العرب: الشَّيْءُ الذي يعطي القطع واليقين لأَنه مما يُعلم ضرورة أَو بخبر قطعي أَو بقياس نظري، فهذه التي رُويت فيما رآه يوسف براهين.

و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا﴾ في موضع رفع، التقدير: لولا رؤْيتُه برهان ربه، وهذه «لولا» التي يحذف معها الخبر، تقديره: لفعل أَو لارتكب المعصية، وذهب قومٌ إِلى أَن الكلام تمَّ في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾، وأَن جواب «لولا» في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، وأَن المعنى: لولا أَنْ رأَى البرهان لَهَمَّ، أَي: فلم يَهُمَّ عليه

---

(١) من الآية (٣٣) من سورة الرعد.

(٢) من الآية (٣٢) من سورة الإسراء.



السلام، وهذا قول يردُّه لسان العرب وأقوال السلف[١]، قال الزجاج: ولو كان الكلام: «وَلَهَمَّ بِهَا لولا» لكان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام؟[٢].

والكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلقة بمضمر تقديره: جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك لنصرف، ويصحُّ أن تكون الكاف في موضع رفع بتقدير: عِصْمَتُنَا له كذلك لنصرف[٣]. وقرأ الجمهور: ﴿لِنَصْرِفَ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش: [لِيَصْرِفَ] بالياءِ على الحكاية عن الغائب[٤].

---

(١) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «ليس كما ذكر، وهو موجود في لسان العرب، قال تعالىٰ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ إما أن يتخرج على أنه الجواب، وإما أن يتخرج على ما نذهب إليه من أنه دليل الجواب، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيءٌ من ذلك لأنها أقوال متكاذبة، يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قادحة وبخاصة في المقطوع لهم بالعصمة، والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب لأنهم قدروا جواب (لولا) محذوفاً ولا يدل عليه دليل لأنهم لم يقدروا الهمَّ بها، ولا يدل كلام العرب إلا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط لأن ما قبل الشرط دليل، ولا يحذف شيء بدون دليل».

(٢) ردَّ عليه أبو حيان أيضاً في البحر بأنه كلام لا يصح الالتفات إليه، لأنه يوهم أن قول الله تعالىٰ: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هو جواب (لولا)، ونحن لم نقل بذلك، وإنما هو دليل الجواب. وعلى تقدير أن يكون هو نفس الجواب فاللام ليست بلازمة، لأن جواب (لولا) يجوز أن يأتي ـ إذا كان بصيغة الماضي ـ باللام وبغير اللام، تقول: لولا زيد لأكرمتك، ولولا زيد أكرمتك، فمن ذهب إلى أن قوله تعالىٰ: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هو نفس الجواب لم يبعد.

ثم قال: «والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ بها البتَّة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، ولا نقول: إن جواب (لولا) متقدم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل إن صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري، وأبو عباس المبرد، بل نقول: إن جواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: (أنت ظالم إن فعلت) فإنهم يقدرونه: إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قوله: (أنت ظالم) على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجوب الفعل، وكذلك التقدير هنا: (لولا أن رأى برهان ربّه لَهَمَّ بها)، فكان موجود الهَمِّ على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهمُّ».

(٣) يرى الحوفي أن الكاف للتشبيه في موضع نصب، أي: أريناه البرهان كذلك، وقال أبو البقاء: الكاف في موضع رفع، والتقدير: الأمر كذلك، وقال أبو حيان: التقدير: مثل تلك الرؤية نرى براهيننا لنصرف، فالإشارة إلى الرؤية، والناصب للكاف ما دل عليه قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، و﴿لِنَصْرِفَ﴾ متعلق بذلك الفعل الناصب للكاف.

(٤) وهو عائد على الله تعالىٰ.



وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن بن أبي الحسن، وأبو رجاءٍ: [ٱلْمُخْلِصِينَ] بكسر اللام في كل القرآن، وكذلك [مُخلِصاً] في سورة مريم[١]، وقرأ نافع [مُخْلِصاً] كذلك بكسر اللام، وقرأ سائر القرآن ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، وقرأ حمزة، والكسائي، وجمهور من القراءِ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، و[مُخْلَصاً] كذلك في كل القرآن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ الآية. ﴿وَٱسْتَبَقَا﴾ معناه: سابق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب، هي لترد ه إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فقبضت في أعلى قميصه من خلفه، فتخرق القميص عند طوقه ونزل التخريق إلى أسفل القميص، والقَدُّ: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا، والقَطُّ يستعمل فيما لو كان عرضاً، وكذلك هي اللفظة في قول النابغة:

تَقُــدُّ السَّلُــوقِــيَّ.......... . . . .[٢]

فإن قوله: «وتُوقِد بالصُّفَّاح» يقتضي أن القطع بالطول.

و﴿وَأَلْفَيَا﴾: وجدا، والسَّيِّد: الزوج، قاله زيد بن ثابت، ومجاهد. فيروى أنهما وجدا العزيز ورجلاً من قرابة زليخا عند الباب الذي استبقا إليه، قاله السُّدّي، فلما رأت الفضيحة فزعت إلى مطالبة يوسف والبغي عليه، فأرت العزيز أن يوسف أرادها، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وتكلمت في الجزاءِ، أي أن الذنب ثابت ومتقرر.

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٥١): ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

(٢) هذا جزء من بيت قاله من قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث، والبيت بتمامه:

تَقُـدُّ السَّلُـوقـيَّ المُضَـاعَـفَ نَسْجُـهُ ... وتُـوقِـدُ بـالصُّفَـاحِ نـارَ الحُبَـاحِـبِ

والضمير في (تَقُدّ) يعود على السيوف المذكورة في الأبيات السابقة، والسَّلُوقي صفة لموصوف محذوف تقديره: تَقُدُّ الدِّرْع السَّلُوقي، وهو منسوب إلى (سَلوق) بفتح السين، وهي بلدة على نهر دجلة بالعراق سُمِّيَت باسم بانيها وهو سَلُوقس الرومي، وكانت تصنع في سَلُوق هذه دروع جيدة متقنة. والمضاعف نسجه، أي الذي كررت حلقاته حلْقةً فوق حلْقة، وذلك يجعله أمتن فلا تقطعه السيوف، وسمَّى صنع الحديد نسجاً على طريقة المجاز. والصُّفَّاح: صفايح البَيْض فوق الرأس وصفايح الذراعين، والصُّفَّاح بضم الصاد وشدها هي والفاء المفتوحة. والحُباحِب ـ بضم الحاء الأولى كسر الثانية ـ شرارة تطير عند قدح الحديد بالحديد أو بالحجارة.



وهذه الآية تقتضي تعظيم موقع السجن من النفوس لا سيما بذوي الأقدار إذْ قد قُرِنَ بأَليم العذاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قال نوف الشامي: كان يوسف عليه السلام لم يبن على كشف القصة، فلما بغت عليه غضب فقال الحق، فأَخبره أَنها هي رَاوَدَتْهُ عن نفسه، فروي أَن الشاهد كان الرجل ابن عمها، قال: انظر إِلى القميص، فإِن كان قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت، أَو من قُبُلٍ فصدقت، قال السُّدّي، وقال ابن عباس: كان رجلاً من خاصة الملك، قاله مجاهد وغيره. وقيل: إِن الشاهد كان طفلاً في المهد فتكلم بهذا، قاله أَيضاً ابن عباس، وأَبو هريرة، وابن جبير، وهلال بن يساف، والضحاك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومما يضعف هذا أَن في صحيح البخاري، ومسلم: «لم يتكلم في المهد إِلا ثلاثة: عيسى بن مريم، وصاحب جريج، وابن السوداء الذي تمنت له أَن يكون كالفاجر الجبار»[١]، فقال: «لم يتكلم»، وأَسقط صاحب يوسف منها، ومنها أَن الصبي لو تكلَّم لكان الدليل نفس كلامه دون أَن يحتاج إِلا الاستدلال بالقميص، وأَسند الطبري إِلى ابن عباس أَن النبي ﷺ قال: «تكلم في المهد أَربعة» فذكر الثلاثة وزاد صاحب يوسف، وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن ابن ماشطة فرعون تكلم في المهد فهُمْ ـ على هذا ـ خمسة، وقال مجاهد أَيضاً: الشاهد القميص.

---

(١) ورواه أيضاً الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة، ولفظه فيه: «لم يتكلم في المهد إلا عيسى، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون» ذكر ذلك الإمام السيوطي في (الجامع الصغير)، وقال: حديث صحيح. وفي تفسير ابن كثير أن ابن عباس رواه عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار»، وذكر فيهم شاهد يوسف، وقد ذكر ذلك ابن عطية هنا.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأَنه لا يوصف بأَنه من الأَهل.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿مِن قُبُلٍ﴾ و﴿مِن دُبُرٍ﴾ بضم الباءَيْن وبالتنوين، وقرأَ ابن يَعْمر، والجارود بن أَبي سبرة، ونوح[١]، وابن أَبي إِسحٰق: [مِنْ قُبُلُ] و[مِن دُبُرُ] بثلاث ضمات من غير تنوين، قال أَبو الفتح: هما غايتان بنيتا كقوله تعالىٰ: ﴿مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾[٢]، قال أَبو حاتم: وهذا رديءٌ في العربية جدّاً، وإِنما يقع هذا البناءُ في الظروف، وقرأَ الحسن: [مِنْ قُبْلٍ] و[مِنْ دُبْرٍ] بإِسكان الباءَين والتنوين، ورويت عن أَبي عمرو، وروي عن نوح القاري أَنه أَسكن الباءَين وضم الأَواخر ولم ينون، ورواها عن أَبي إِسحٰق عن يحيى بن يَعْمر.

وسُمِّي المتكلم بهذا الكلام شاهداً من حيث دلَّ على الشاهد، ونفْس الشاهد هو تخريق القميص.

وقرأَت فرقة: [فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قطَّ مِنْ دُبُرٍ][٣]، والضمير في ﴿رَءَا﴾ هو للعزيز، وهو القائل: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾، قاله الطبري، وقيل: بل الشاهد قال ذلك، والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يريد مقالها المتقدم في الشكوى بيوسف.

ونزع لِهٰذه الآية من يرى الحكم بالأَمارة من العلماءِ، فإِنها معتمدهم[٤]،

---

(١) هو نوح القاري، من رواة الحروف المتصدرين بعد أبي عمرو بن العلاء.

(٢) من الآية (٤) من سورة الروم. ومعنى قول أبي الفتح شرحه بقوله في (المحتسب): كأنه يريد: وقدَّت قميصه من دُبُره وإن كان قميصه قُدَّ من قُبُلِهِ، فلما حذف المضاف إليه ـ وهي الهاءُ وهي مراده ـ صار المضاف غاية في نفسه بعد ما كان المضاف إليه غاية له، وهذا مفهوم في قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ﴾، فبني هنا كما بني هناك على الضَّمِّ، ووكَّد البناء أن (قُبُل ودُبُر) (يكونان ظرفين). تأمل كلامه هذا فكأن فيه إجابة عن قول أبي حاتم بعده.

(٣) جاء في بعض النسخ: (عُطَّ) بالعين المهملة، وآثرنا التي نقلها أبو حيان في (البحر) عن ابن عطية. مع العلم بأن (عَطَّ) في اللغة معناها: قَدَّ أو شَقَّ، يقال: عطَّ الثوبَ عَطّاً: شَقَّهُ طُولا أوْ عَرْضاً.

(٤) إذا كان الشاهد طفلاً صغيراً كانت شهادته كافية ولا حاجة إلى علامة أو أمارة أُخرى فإن كلامه هو نفسه أمارة، وإن كان رجلاً فإنه يحتاج إلى ذكر أمارة أو علامة على صدق كلامه، ومن رأى من العلماء أنه لا بد من أمارة على العمل ـ كشريح القاضي وإياس بن معاوية ـ فإنه يعتمد على هذه الآية في ذلك، وهذا هو معنى كلام ابن عطية.



و﴿ يُوسُفُ ﴾ في قوله: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ منادى ـ قاله ابن عباس ـ ناداه الشاهد، وهو الرجل الذي كان مع العزيز و﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ معناه: عن الكلام به، أي: اكتُمْه ولا تتحدث به، ثم رجع إليها فقال: ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ﴾ أي: استغفري زوجك وسيدك، وقال: ﴿ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ولم يقل: «من الخاطئات» لأن الخاطئين أعم، وهو من: خطئَ يَخْطأُ خَطْأً وخَطَأً، ومنه قول الشاعر:

لَعمْـرُكَ إِنَّمـا خَطَئـي وصَـوْبـي ... علـيَّ، وإِنَّ مـا أَتْلَفْـتُ مـالُ(١)

وينشد بيْت أُميَّة بن أَبي الصَّلْت:

عِبَـادُكَ يَخْطَـؤُونَ وأَنْـتَ رَبٌّ ... بِكَفَّيْـكَ الْمنَـايـا والْحُتُـومُ(٢)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

ذكّر الفعل المسند إلى النسوة لتذكير اسم الجمع. و(النِّسْوة) جمعُ قلة لا واحد له من لفظه، وجمع التكثير نساءٌ، و﴿نِسْوَةٌ﴾ فِعْلَة، وهو أَحد الأَبنية الأَربعة التي هي لأَدنى العدد، وقد نظمها القائل ببيت شعر:

---

(١) البيت لأَوْس بن غَلْفَاء، قال ذلك في (اللسان ـ صوب)، ورواه مع بيت قبله، قال:

ألا قـالـت أُمـامَـةُ يَـوْم غَـوْلٍ ... تُقَطَّـعُ بـابْـنِ غَلْفَـاءَ الحِبَـالُ

دعينـي إنَّمـا خَطَئِـي وصَـوْبـي ... عَلَـيَّ وإنَّ مَـا أَهْلَكْـتُ مَـالُ

والصَّوب: الصواب، و(إنَّ ما) تكتب منفصلة، ومالُ بالرفع، والمعنى: وإنَّ الذي أهلكته مالُ، ولا ضير في ذلك ما دام عرضي وافراً.

(٢) البيت في (اللسان) ـ في «خَطِئَ»، والرواية فيه:

عبـادُكَ يَخْطَـؤُونَ وأنْـتَ رَبٌّ ... كَـريـمٌ لا تَلِيـقُ بِـكَ الـذُّمُـومُ

ورواه أيضاً في «حَتَمَ» ولفظه:

حَنَـانَـيْ رَبَّنَـا ولَـهُ عَنَـوْنَـا ... بِكَفَّيْـهِ المَنَـايَـا والْحُتُـومُ

ورواه في (الصحاح) رواية ابن عطية. والمنايا: جمع مَنِيَّة وهي الموت، والحُتُوم: جمْع حَتْم بمعنى القضاء. وفي (اللسان) ـ في «ذَمَمَ» لأميَّة أيضاً:

سَـلامَـكَ رَبَّنَـا فـي كُـلِّ فَجْـرِ ... بَـرِيئـاً مَـا تَعَنَّتْـكَ الـذُّمُـومُ =

بِـــأَفْعُـــلٍ وأَفْعَـــالٍ وأَفعِلَـــه وفِعْلَـة يُعْرفُ الأَدْنَى من الْعددْ[١]

ويُروى أَن هؤلاءِ النسوة كُنَّ أَرْبَعاً، امرأة خباز الملك، وامرأَة ساقيه، وامرأَة حاجبه، وامرأَة بوابه، و﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: الملك، ومنه قول الشاعر:

دُرةٌ غَـــاص عَلَيْهَـــا تَـــاجِـــرٌ جُلِبتْ عِنْدَ عـزيـزٍ يـومَ طُـلّ[٢]

و(الْفَتَى): الغلام: وعرفه في المملوك، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يقل أَحدكم: عبدي، وأَمتي، وليقل: فتاي وفتاتي»[٣] ولكنه قد يقالُ في غير المملوك، ومنه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾[٤]، وأَصل الفتى في اللغة: الشاب، ولكنه لما كان جل الخدمة شباباً استعير لهم اسم الفتى. و﴿شَغَفَهَا﴾ معناه: بلغ حتى صار من قلبها موضع الشَّغاف، وهو على أَكثر القول غلاف من أَغشية القلب، وقيل: الشَّغافُ: سويداءُ القلب، وقيل: الشُّغاف: داءٌ يصل إِلى القلب[٥].

وقرأَ أَبو رجاءٍ، والأَعرج، وعلي بن أَبي طالب، والحسن ـ بخلاف ـ ويحيى بن يَعْمر، وقتادة ـ بخلاف ـ وثابت، وعوف، ومجاهد، وغيرهم: [قَدْ شَعَفَهَا] بالعين غير منقوطة، ولذلك وجهان: أَحدهما أَنه علا بها كل مرتبة من الحب، وذهب بها كل مذهب، فهو مأْخوذ ـ على هذا ـ من شعف الجبال وهي رُؤُوسها وأَعاليها،

---

(١) ومثل هذا قول ابن مالك في أَلفيَّته المشهورة:

أَفعِلَـــةٌ أَفْعُـــلُ ثُـــمَّ فِعْلَـــه ثُمَّـــتَ أَفْعَـــالٌ جمـــوعُ قِلَّـــه

(٢) هذا البيت لأبي دُؤاد الإيَاديِّ، والمؤلف يستشهد به على أن العزيز بمعنى الملك، ولم نجد في كتب اللغة ما يؤيد ذلك، وفي المجاز متسع لاستعمال العزيز بمعنى الملك. وطَلَّ دمُه: أُهدر تستعمل مبنية للمعلوم ولكن استعمالها مبنية للمجهول أكثر وأشهر، يقال: طُلَّ دمه فهو مطلول. وأبو دُؤاد هذا اسمه جارية بن حُمْران الحجَّاج، اشتهر بوصف الخيل، وركز في وصفه على الصورة والإيقاع الموسيقي أكثر من تركيزه على اللفظة المباشرة. مات بعد امرئ القيس.

(٣) أخرجه البخاري في العتق، ومسلم في الألفاظ، وأبو داود في الآداب، والإمام أحمد في أماكن كثيرة من مسنده، ولفظه كما في البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا يقل أحدكم أطعم ربَّك، وضِّئ ربَّك، اسق ربَّك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي».

(٤) من الآية (٦٠) من سورة الكهف.

(٥) ويكون حينئذ بالضم على وزن (فُعال) لأنه داءٌ مثل: سُعال وزُكام، قال النابغة:

وقَـــدْ حَـــالَ هَـــمٌّ دُونَ ذلِـــك والِـــجٌ مكـــانَ الشُّغَـــاف تبْتَغِيـــهِ الأَصـــابِـــعُ



ومنه قول النبي ﷺ: «يوشك أَن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القَطْر يفِرُّ بدينه من الفِتَن»(١) والوجه الآخر أَن يكون الشعف لذَّةٌ بِحُرْقَة يوجد من الجراحات والجرب ونحوها ، ومنه قول امرئ القيس:

أَيَقْتُلُنِـي وقَـدْ شَعَفْـتُ فُـؤَادهـا كمَا شَعفَ المهْنُوءَةَ الرَّجُل الطَّالي(٢)

والمشعوف في اللغة: الذي أَحرق الحب قلبه ، ومنه قول الأعشى:

تَعْصِـي الْـوُشَـاةَ وكـانَ الْحُبُّ آوِنَـةً مِمَّا يُـزَيِّـنُ لِلْمَشْعُـوفِ مـا صَنَعَـا(٣)

ورُوي عن ثابت البناني(٤) ، وأَبي رجاءٍ أَنهما قرآ: [قَدْ شَعِفَهَا] بكسر العين غير منقوطة ، قال أَبو حاتم: المعروف فتح العين ، وهذا قد قرئ به. وقرأَ ابن مُحَيْصن: [قَدْ شّغَفَها] أدغم الدال في الشّين.

ورُوي أَن مقالة هؤلاءِ النسوة إِنما قصدن بها المكر بامرأَة العزيز لِيُغْضِبْنَها حتى تعرض عليهن يوسف لِيَبِينَ عذرها أَو يحقَّ لومها ، وقد قال ابن زيد: الشَّغف في الحب والشَّعف في البغض ، وقال الشعبي: الشغف والمشغوف بالغين منقوطة في الحب ، والشعف: الجنون ، والمشغوف: المجنون ، وهذان القولان ضعيفان.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والفتن وغيرهما ، وأبو داود في الفتن ، والنسائي في الإيمان ، وابن ماجه في الفتن ، والموطأ في الاستئذان ، والإمام أحمد في مسنده (٣ ـ ٦ ، ٣٠ ، ٤٣ ، ٥٧).

(٢) الرواية المشهورة (أيقتلني) بالياء ، و(شَغَفْتُ) بالغين المنقوطة ، ومعناها: بلغ حبِّي شَغاف قلبها ، والمهنوءَة: الناقة التي تطلى بالقطران لإصابتها بالجرب ، ويروى البيت بالعين كما في اللسان ، والمعنى: إحراق الحُبُّ للقلب مع لذة يجدها المحبُّ ، كما أن الناقة التي تطلى بالقطران علاجاً لها من الجرب تجد لذة مع حرقة ، وقبل البيت أبيات يتحدث فيها الشاعر عن محبوبته وبعلها ، قال:

وصِـرْنَـا إلـى الحُسْنـى ورَقَّ كـلامُنَـا ورُضْـتَ فَـذَلَّـتْ صَعْبَـةً أيَّ إذْلالِ
فَـأَصْبَحْـتُ مَعْشُـوقـاً وَأَصْبَـحَ بَعْلُهَـا علَيْـهِ الْقَتَـامُ سَيِّـئُ الظَّـنِّ والْبَـال

إلى أن يقول: أَيَقْتُلُني وقد أحرقت فؤادها بحبي حرقة تجد فيها كل اللذة والمتعة؟.

(٣) قال الأعشى هذا البيت من قصيدته المشهورة التي يمدح بها هوزة بن علي الحنفي ، والتي مطلعها:

بـانَـتْ سُعـادُ وأمْسَـى حَبْلُهـا انْقَطَعَـا واحْتَلَّـتِ الغَمْـرَ فـالْجُدَّيْـنِ فـالْفَـرَعَـا

والرواية في الديوان بالغين المنقوطة.

(٤) هو ثابت بن أسلم أبو محمد البناني المصري ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن الكريم ، وتوفي سنة ١٢٧ (طبقات ابن الجزري ١ ـ ١٨٨) ، ولم يشر ابن جني إلى القراءَة بكسر العين ، بل جعل قراءة ثابت البناني مثل قراءة الجماعة الكثيرة المذكورة قبله بفتح العين ، وهذا هو معنى قول أبي حاتم: المعروف فتح العين ، وقد قرئ به.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ الآية. إنما سُمِّي قولهن مكراً من حيث أَظهرن إنكار منكر وقصدن إثارة غيظها عليهن، وقيل: مكرُهُنَّ أنهن أَفْشَيْنَ ذلك عنها وقد كانت أَطلعتهن على ذلك واسْتَكْتَمَتْهُنَّ، وهذا لا يكون مكراً إلا بأَن يظهرن لها خلاف ذلك ويقصدن بالإفشاءِ أَذاها.

ومعنى ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أَي لِيحْضُرْنَ، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ معناه: أَعَدَّت ويَسَّرت، و﴿مُتَّكَـًٔا﴾: ما يُتَّكَأُ عليه من فرش ووسائد، وعبر بذلك عن مجلس أُعد لكرامة، ومعلوم أَن هذا النوع من الكرامات لا يخلو من الطعام والشراب، فلذلك فسر مجاهد وعكرمة المتَّكَأَ بالطعام. قال ابن عباس: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ معناه: مجلساً، ذكره الزهراوي، وقال القتبي: يقال: اتَّكَأْنا عند فلان، أَي أَكلنا.

وقوله: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ يقتضي أَنه كان في جملة الطعام ما يقطع بالسكاكين، فقيل: كان لحماً، وكانوا لا يَنْتَهِسون اللحم وإنما كانوا يأْكلونه حزّاً بالسكاكين، وقيل: كان أُتْرُجًّا[1]، وقيل: كان زُماوَرْد[2] ـ وهومن نحو الأُتْرُج موجود في تلك البلاد ـ وقيل: هو مصنوع من سكر ولوز وأَخلاط. وقرأَ ابن عباس، ومجاهد، والجحدري، وابن عمر، وقتادة، والضحاك، والكلبي، وأَبان بن تغلب: [مُتْكاً] بضم الميم وسكون التاءِ وتنوين الكاف، واخْتُلف في معناه ـ فقيل: هو الأُترجُ، وقيل: هو اسم يعم جميع ما يقطع بالسكين من الفواكه كالأُتْرُجِّ والتفاح وغيره، وأَنشد الطبري:

نشْـربُ الإثْـم بـالصُّـواع جِهَـاراً ... وتَـرَى المُتْـكَ بيْنَنَـا مُسْتَعـارَا[3]

---

(١) الأتْرُجّ: شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبيُّ اللون، ذكيُّ الرائحة، حامض الماءِ (مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، نقلاً عن (المعجم الوسيط).

(٢) الزُّمَاوَرْدُ ـ هكذا ضبطه شارح اللسان نقلاً عن القاموس، وقال: هو طعام من البيض واللحم مُعَرَّب، وقيل: هو الرقاق الملفوف باللحم، وفي اللسان أيضاً: «ابن سيدة: المُتْك: الأتْرُجُّ، قال الجوهري: وأصل المُتْكِ: الزُّماوَرْدُ».

(٣) البيت في الطبري واللسان والقرطبي وغيرها، وهو غير منسوب، والإثم: الخمر، قاله بعضهم، واستشهد بقول الشاعر

شَـرِبْـتُ الإثْـمَ حَتَّـى ضَـلَّ عَقْلـي ... كَـذاكَ الإثْـمُ تَـذْهَـبُ بـالعُقُـولِ

والصُّواعُ: إناءٌ يُشْرب فيه، مذكر، وفي التنزيل ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وهو الإناءُ الذي كان الملك=

وقرأ الجمهور: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ بشد التاءِ المفتوحة والهمز والقصر، وقرأ الزهري: [مُتَّكاً] مشدد التاءِ من غير همز، وهي قراءَة أَبي جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح، وقرأ الحسن: [مُتَّكاءً] بالمدّ على إشباع الحركة. والسكين: تذكر وتؤنث، قاله الكسائي والفراءُ[١]، ولم يعرف الأَصمعي إلا التذكير.

وقولها: ﴿ٱخْرُجْ﴾ أَمرٌ ليوسف، وأَطاعها بحسب الملك، وقال مكي، والمهدي: قيل: إن في الآية تقديماً وتأْخيراً في القصص، وذلك أَن قصة النسوة كانت قبل فضيحتها في القميص للسيد، وباشتهار الأَمر للسيد انقطع ما بينها وبين يوسف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا محتمل إلا أَنه لا يلزم من أَلفاظ الآية. بل يحتمل أَن كانت قصة النساءِ بعد قصة القميص، وذلك أَن العزيز كان قليل الغيرة، بل قومه أَجمعون، أَلا ترى أَن الإنكار في وقت القميص إنما كان بأَن قيل: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾؟ وهذا يدل على قلة الغيرة، ثم سكن الأَمر بأَن قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ وأَنتِ ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾ وهي لم تبق حينئذ إلا على إنكارها وإظهار الصحة، فلذلك تغوفل عنها بعد ذلك، لأَن دليل القميص لم يكن قاطعاً، وإنما كان أَمارة ما، هذا إن لم يكن المتكلم طفلاً.

وقوله: ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ معناه: أَعظمنه واستهولن جَماله، هذا قول الجمهور، وقال عبد الصمد بن علي الهاشمي عن أَبيه عن جَدِّه: معناه: حِضْن، وأَنشد بعض الناس حجة لهذا التأْويل:

يَـأْتـي النِّسـاءَ عَلَـى أَطْهَـارِهِـنَّ وَلاَ   يَـأْتـي النِّسـاءَ إذا أَكْبَـرْنَ إِكْبَـاراً[٢]

= يشرب منه، وجِهَاراً: علانية، والمُتْك: الأُتْرُجّ، وسميت الأُتْرُجَّة مُتكاً لأنها تُقطع، ومعنى (مُسْتَعَاراً): نتعاوره بأَيدينا نَشْتَمُّه، قاله في اللسان. والرواية في اللسان: (المَسْك) بدلاً من (المُتْك).

(١) وأنشد الفراءُ:

فَعَيَّـــتَ فـــي السَّنـــام غَـــدَاةَ قُـــرٍّ   بِسِكِّيـــنٍ مُـــوَثَّقَـــةِ النِّصَـــابِ

(٢) البيت في (اللسان) و(الطبري) و(القرطبي) بلفظ «نأتي»، وبعض المفسرين مثل السدي وقتادة ومقاتل يقولون: أكبرن بمعنى حِضْن ويستشهدون بالبيت على أن هذا من كلام العرب المعروف، وبعض آخر ينكرون ذلك ومعهم اللغويون، قال أبو عبيدة: «ليس ذلك في كلام العرب، ولكن يجوز أن يكنَّ حضن من شدة الإعظام كما تفزع المرأة فيسقط ولدها»، وقال الزجاج: «يقال أكبرنه، ولا يقال: =



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف، ومعناه منكور، والبيت مصنوع مختلق، كذلك قال الطبري وغيره من المحققين، وليس عبد الصمد من رُوَاة العلم، رحمه الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أَي: أَكثرن فيها حزَّ السكاكين، وقال عكرمة: الأَيدي هنا: الأَكمام، وقال مجاهد: هي الجوارح وقطعنها حتى أَلقينها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فظاهر هذا أَنه بانت الأَيدي، وذلك ضعيف من معناه، وذلك أَن قطع العظم لا يكون إِلاَّ بشدة، ومحال أَن يسهو أَحد عنها، والقطع على المفصل لا يتهيأُ إِلا بتلطف لا بُدَّ أَن يُقصد، والذي يشبه أَنهن حملن على أَيديهن الحمل الذي كن يحملنه قبل المتْكِ فكان ذلك حزّاً، وهذا قول الجماعة، وضوعفت الطاءُ في ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ لكثرتهن وكثرة الحزِّ، فربما كان مراراً.

وقرأَ أَبو عمرو وحده: [حَاشَا للهِ] بأَلف[١]، وقرأَ أُبيُّ وابن مسعود: [حَاش اللهِ][٢]، وقرأَ سائر السبعة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾[٣]، وفرقة: [حَشَى للهِ][٤]، وهي لغة، وقرأَ الحسن:

= حِضْنه»، وقد قَبِل بعض اللغويين هذا المعنى، وفي (اللسان) عن أبي منصور الأزهري: «إن صحت هذه اللفظة في اللّغة بمعنى «حِضْن» فلها مخرج حسن، وذلك أن المرأة أول ما تحيض فقد خرجت من حدِّ الصغر إلى حدِّ الكبر، فقيل لها: أَكْبَرَتْ أي حاضت، وروي عن أبي الهيثم أنه قال: سأَلْتُ رجلاً من طيء، فقلت: يا أخا طِيءٍ أَلَكَ زوجة؟ قال: لا، والله ما تزوجت، وقد وُعِدْت ابنة عمٍّ لي، قلت: وما سنُّهَا؟ قال: قد أكبرت أو كَبِرَت، قلت: ما أكْبَرَتْ؟ قال: حاضت». إلا أن الهاءَ في قوله سبحانه: ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ تنفي هذا المعنى، قال بعضهم: يجوز أن تكون هاءَ الوقف لا هاءَ الكناية، ورُدَّ بأن هذا خطأٌ، لأن هاءَ الوقف تسقط في الوصل، وأَمْثَلُ منه قول ابن الأنباري: «إن الهاءَ كناية عن مصدر الفعل، أي: أكْبَرْنَ إكْبَاراً، بمعنى: حِضْنَ حَيْضاً».

(١) قال في (البحر المحيط): «بغير ألف ولام الجر».

(٢) في المحتسب (١ ـ ٣٤١): (حَاشَا اللهِ)، وكتب مُعَلِّقُه في الهامش: «وفي البحر ٥ ـ ٣٠٣ (حَاشَى اللهِ) بالإضافة»، فتأمل. وعلّق ابن جنّي على هذه القراءة بقوله: «هي على أصل اللفظة، وهي حرف جرّ»، واستشهد على كلامه بقول أبي جُمَيْح:

حَاشَى أبي ثَوْبَان إنَّ بِهِ ... ضِنّاً على المَلْحَاةِ والشَّتْمِ

(٣) أي بغير ألف بعد الشين وبلام الجر في لفظ الجلالة.

(٤) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «على وزْن رَمَى وبلام الجر». وقال: ومن الفرقة الأعمش.



[حَاشْ للهِ] بسكون الشين[1] ، وهي ضعيفة ، وقرأ الحسن أيضاً: [حَاشَ ٱلإِلٰهُ] محذوفاً من «حاشَى». فأما «حَاشَ» فهي حيث جرت حرفٌ معناه الاستثناءُ ، كذا قال سيبويه ، وقد ينصب به ، تقول: «حاشَ زيدٌ وحاشَ زيداً» ، قال المبرد: النصب أولى إذْ قد صحَّ أَنها فعلٌ بقولهم: «حاشَ لِزَيْد» ، والحرف لا يحذف منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يظهر من مجموع كلام سيبويه والمبرد أَن الحرف يُخْفَض به لا غير ، وأَن الفعل هو الذي يُنصب به ، فهذه اللفظة تستعمل فعلاً وحرفاً ، وهي في بعض المواضع فعل وزنه فَاعَل ، وذلك في قراءَة من قرأَ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾[2] ، معناه مأْخوذ من معنى الحرف وهو إزالة الشيءِ عن معنى مقرون به ، وهذا الفعل مأْخوذ من «الْحَشَى» ، أَي: هذا في حشى وهذا في حشى ، ومن ذلك قول الشاعر:

يقُولُ الَّذي يَمْشي إلى الْحِرْزِ أَهْلُهُ ... بِـأَيِّ الْحَشَـى صـارَ الْخَلِيـطُ الْمُبَـايِـنُ؟[3]

ومنه الحاشية ، كأَنها مباينة لسائر ما هي له ، ومن المواضع التي «حَاشَى» فيها فعلٌ هذه الآية ، يدلُّ على ذلك دخولُها على حرف الجر ، والحروف لا يدخل بعضها على بعض ، ويدلُّ على ذلك حذف الياءِ منها في قراءَة الباقين: ﴿حَٰشَ﴾ على نحو حذفهم من: «لا أُبَالِ» و«لا أَدْرِ» و«لَوْ تَرَ» ، ولا يجوز الحذف من الحروف إلا إذا كان فيها تضعيف مثل: «لَعَلَّ» فيحذف وتَرْجع «عَلَّ» ، ويُعْتَرض في هذا الشرط بـ «مُنْذُ» و«مُذْ» فإِنه حذف دون تضعيف ، فتأَمله.

---

(١) عبارة البحر: «وقرأ الحسن (حَاشْ) بسكون الشين وصلا ووقفاً بلام الجر. وعلَّق عليها ابن جنِّي بقوله: وهذا ضعيف من موضعين: أحدهما التقاءُ الساكنين: الألف والشين ، وليست الشين مدغمة ، والآخر: إسكان الشين بعد حذف الألف.

(٢) أصح القراءات في هذه الكلمة قراءتان: الأولى قراءة الكوفيين: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ بفتح الشين وحذف الياء ، والثانية قراءة بعض البصريين: [حَاشَى لله] بإثبات الياءِ ، قال ذلك الطبري. وعلى هذا يمكن فهم الكثير من كلام ابن عطية ، فهو هنا يشير إلى قراءة البصريين.

(٣) البيت للمُعَطَّل الهُذَليِّ ، قال ذلك في التاج ، وفي اللسان ، والرواية فيهما:

يقــولُ الــذي أمْسَــى إلـى الحَـزْنِ أهْلُـه ... بـأيِّ الحَشَـى أمْسَـى الْخَلِيطُ الْمُبَايِنُ؟

ومعنى (الحشى): الناحية.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن ذلك في حديث خالد يوم مُؤْتة: «فَحَاشَى بالناس». فمعنى ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ ها هنا: حاش يوسف لطاعتِهِ للهِ، أَو لمكانِهِ من الله، أَو لترفيع الله له أَن يُرمَى بما رَمَيْتِهِ به[1] أَو يُدْعى[2] إلى مثله، لأَن تلك أَفعال البشر وهو ليس منهم، إِنما هو مَلَكٌ، هكذا رتَّب أَبو عليٍّ الفارسي معنى هذا الكلام على هاتين القراءَتين اللَّتين في السَّبْع[3]، وأَما قراءَة أُبيٍّ بن كعب، وابن مسعود فعَلى أَن (حَاشَ) حرف استثناءٍ، كما قال الشاعر:

حَـاشَـى أَبـي ثَـوْبَـانَ إِنَّ بِـهِ ... ضِنّـاً علـى المَلْحَـاةِ والشَّتْـم[4]

وتسكين الشين في إِحدى قراءَتيْ الحسن ضعيف، جمع بين ساكنين، وقراءَته الثانية محذوفة الأَلف من (حَاشَى).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتشبيه بالمَلَك هو من قَبِيل التشبيه بالمستعظمات وإِن كانت لا تُرى. وقرأَ أَبو الحويرث الحنفي، والحسن: [مَا هَذا بَشَراً إِنْ هَذا إلا مَلِكٌ كَرِيمٌ] بكسر اللام في [مَلِكٌ]، وعلى هذه القراءَة فالكلام فصيح، لمَّا استعظمن حسن صورته قلن: ما يصلح أَن يكون هذا عبداً بشراً، إِنما يصلح أَن يكون مَلِكاً كريماً. ونصب ﴿بَشَرًا﴾

---

(١) كأن الكلام مُوَجَّه من النِّسوة لامرأة العزيز، فالمعنى: رفعه الله أن يرميه أحد بما رَمَيْتِهِ به يا زَليخا.

(٢) في بعض النسخ: أو (يُذْعِنَ) من الإذعان، والمعنى على اللفظتين وارد ومناسب.

(٣) يريد قراءة بعض البصريين [حَاشَى للهِ] بإثبات الياءِ، وقراءة الكوفيين: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ بحذف الياءِ.

(٤) يروى (أبا) مكان أبي، والبيت في الحقيقة من بيتين، ركَّبوا فيه صدر بيت على عجز بيت آخر، قال ذلك في (البحر المحيط) والبيتان هما:

حَـاشَـى أبـي ثَـوْبَـان إنَّ أبَـا ... ثَـوبـان لَيْـسَ ببُكْمَـةٍ فَـدْم

عَمْـرو بـن عَبْـد الله إنَّ بِـهِ ... ضَنّـاً عـن المَلْحَـاةِ والشَّتْـم

أراد بالبُكْمَةِ: الأبْكم، والفَدْم: العَيِيُّ عن الكلام في ثِقَلٍ فهم، والضِنُّ بالكسر والفتح: مصدر ضَنَّ، والمَلْحَاة: المنازعة والخصام. والبيت منسوب لِسَبْرة بن عمرو الأسدي في (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، وفي (المفضليات) و(الأصمعيات) إلى الجميح، و(وقيل: الجميع)، واسمه: منقذ بن الطماح الأسدي، ونسبه في (اللسان) إلى سبرة، والرواية فيه: (حاشَى أبي مَرْوَانَ...) والشاعر يمدح أبا ثوبان بأنه ليس عيِيّاً ولاغبيا، وهو يترفع عن الخصومة والنزاع.



على لغة الحجاز ، شبهت ﴿ مَا ﴾ بـ (ليس) ، وأما تميم فترفع ، ولم يُقرأ به[١].

ورُوي أن يوسف عليه السلام أعطي ثلث الحُسن ، وعن النبي ﷺ أُعطي نصف الحُسن ، ففي بعض الأسانيد هو وأمه ، وفي بعضها هو وسارة جَدَّة أبيه[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على جهة التمثيل ، أي: لو كان الحسن مما يقسم لكان حُسْن يوسف يقع في نصفه ، فالقصد أن يقع في نفس السامع عظم حُسْنه ، على نحو التشبيه برؤوس الشياطين وأنياب الأغوال[٣].

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قال الطبريُّ: المعنى: فهذا الذي لُمْتُنَّني فيه ، أي: هذا الذي قطعتن أيديكن بسببه هو الذي جعلتنني ضالَّة في هواه ، والضمير عائد على يوسف في ﴿ فِيهِ ﴾ ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى حُبِّ يوسف والضمير عائد على الحب ، فيكون ذلك إشارة إلى غائب على بابه.

ثم أَقَرَّت امرأة العزيز للنسوة بالمراودة ، واستأمنت[٤] إليهن في ذلك إذ قد علمت أنهن قد عَذَرْنَها . و﴿ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ معناه: طَلب العصمة وتمسَّك بها وعصاني ، ثم

---

(١) قال الزمخشري: «ومن قرأ على سليقته من بني تميم قرأ [بَشَرٌ] بالرفع ، وهي قراءة ابن مسعود».

(٢) أخرج أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أُعطي يوسف وأُمه شطر الحُسْن» ، وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ربيعة الجرشي رضي الله عنه قال: «قسم الله الحُسْن نصفين ، فجعل ليوسف وسارة النصف ، وقسم النصف الآخر بين سائر الناس» (الدر المنثور).

(٣) معنى كلام ابن عطية أن الناس تُشَبِّه برؤُوس الشياطين وبأنياب الأغوال في مواقف التقبيح أو التهويل مع أنها لم تر الشياطين ولا الأغوال ، وكذلك كان تشبيه يوسف بالمَلَك في الحسن على سبيل الظن بأن صورة الملَك أحسن ، مع أن النسوة لم يرين الملَك ، وهذا مألوف ودارج عن الألسنة.

(٤) تأتي (استأمن) بمعنى (ائتمن) ، والمراد أنها اطمأنت إليهن وظنت أنهن سيحفظن سر ها ، وفي بعض النسخ (استنامت) بمعنى: سكنت سكون النائم ، وهذا لا يفعله إلا المطمئن.



جعلت تتوعده ـ وهو يسمع ـ بقولها : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ . . . ﴾ إلى آخر الآية .

واللام في قوله : ﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ لام القسم ، واللام الأُولى[1] هي المؤذنة بمجيءِ القسم ، والنون هي الثقيلة والوقوف عليها بِشَدِّها ، و﴿ وَلَيَكُونًا ﴾ نونه هي النون الخفيفة ، والوقف عليها بالألف ، وهي مثل قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿ لَنَسْفَعًا ﴾[2] ، ومثلها قول الأعشى :

وَصَلِّ عَلَى حين الْعَشِيَّاتِ والضُّحَى ... ولا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ والله فاعبدا[3]

أراد : فاعْبُدَنْ . وقرأت فرقة : [وَلَيَكُونَنَّ] بالنون الشديدة ، والصاغرون : الأذلاَّءُ الذين لَحِقَهم الصَّغار .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ . رُوي أَنه لما توعدته امرأة العزيز قال له النسوة : (أَطِع مولاتك ، وافعل ما أَمرتك به) ، فلذلك قال : ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ ، قال نحوه الحَسَن . ووزن (يدعون) في هذه الآية : يفْعُلْن ، بخلاف قولك : (الرجال يدعون) .

وقرأَ الجمهور : ﴿ ٱلسِّجْنُ ﴾ بكسر السين ، وهو الاسم . وقرأَ الزهري ، وابن هرمز ، ويعقوب ، وابن أَبي إِسحٰق : [ٱلسَّجْنُ] بفتح السين ، وهي قراءَة عثمان رضي الله عنه وطارق مولاه ، وهو المصدر ، وهو كقولك : الجِذْع والجَذْع .

وقوله : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي . . . ﴾ إلى آخر الآية ، استسلام لله تبارك وتعالىٰ ، ورغبة إِليه ، وتوكل عليه ، المعنى : وإِنْ لم تُنْجِني أَنْت هلكتُ ، هذا مقتضى قرينة كلامه وحاله ، والضمير في ﴿ إِلَيْهِ ﴾ عائد على الفاحشة المعنية بـ ﴿مَا﴾ في قوله : ﴿ مِمَّا ﴾ .

---

(١) هي التي في قوله : ﴿ وَلَئِن ﴾ .

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١٥) من سورة العلق ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ .

(٣) البيت للأعشى الأكبر ميمون بن قيس ، والبيت كما رواه ابن عطية نقلاً عن الطبري مركب من بيتين ، وهما كما في الديوان :

وَذَا النُّصُبَ الْمَنْصُوبَ لاتَنْسُكَنَّهُ ... ولا تَعْبُدِ الأوْثَانَ ، واللهَ فاعْبُدا

وصَلِّ عَلى حِينِ الْعَشِيَّاتِ والضُّحَى ... ولا تَحْمَدِ الشَّيْطَانَ ، واللهَ فاحْمَدَا

وهما من قصيدة له يمدح فيها النبي ﷺ ، ومطلعها :

أَلَمْ تَغْتَمِض عَيْنَاك لَيْلَةَ أرْمَدَا ... وعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا



و﴿أَصْبُ﴾ مأخوذ من الصَّبْوة ، وهي أَفعال الصِّبا ، ومن ذلك قول الشاعر: ـ أَنشده الطبري ـ:

إِلـــى هِنْـــدٍ صَبَـــا قَلْبِـــي وهِنْـــدٌ مِثْلُهَـــا يُصْبِـــي[١]

ومن ذلك قول دُرَيْد بن الصمة:

صَبَا ماصبا حَتَّى عَلاَ الشَّيْبُ رأسَهُ فَلَمَّـا عَـلاَهُ قـال لِلْبَـاطِـلِ: ابْعُـدِ[٢]

والجاهلون: هم الذين لا يراعون حدود الله تعالىٰ ونواهيه[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الآية. قول يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ كلام يتضمن التشكي إلى الله عزَّ وجلَّ من حاله معهن، والدعاءَ إِليه في كشف بلواه، فلذلك قال ـ بعد مقالة يوسف ـ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، أَي: أَجابه إِلى إِرادته، وصرف عنه كيدهن في أَن حالَ بينه وبين المعصية، وقوله: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ صفتان لائقتان بقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

لما أَبى يوسف المعصية ويئست منه امرأَة العزيز طالبته بأَن قالت لزوجها: إِن هذا الغلام العبراني قد فضحني في الناس، وهو يعتذر إِليهم ويصف الأَمر بحسب اختياره، وأَنا محبوسة محجوبة، فإِمَّا أَذنت لي فخرجتُ إِلى الناس فاعتذرت

---

(١) البيت لزيد بن ضَبَّة، وهو من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن). وكذلك ذكره في (اللسان ـ صَبَا) قال: «يقال صَبَا إلى اللهو صَباً وصُبُوّاً وصَبْوَةً. قال زيد بن ضَبَّةَ: إلى هند. . البيت».

(٢) قال دُرَيْد هذا البيت من قصيدة يرثي فيها أخاه ابن أُمه، وهي أفضل شعره لما فيها من معان إنسانية، ولما فيها من شجو غنائي يغمر الأفكار والصور بغلالة رقيقة من الوجدان الحزين، يقول عن أخيه: إنه تعاطى اللهو واللعب في صباه، فلما اكتهل وظهر الشيب في رأسه ارعوى وأبعد الباطل عن فكره ونفسه، ومع أن القصيدة في رثاءِ صادق حزين فإن الشاعر بدأها بغزل رقيق قصير، قال:

أَرَثَّ جَـديـدُ الْحَبْـلِ مِـنْ أُم مَعْبَـدِ بِعَـاقِبَـةٍ أَمْ أخْلَفَـتْ كُـلَّ مَـوْعِـدِ؟

(٣) وذلك لأنهم لا يعملون بما يعلمون، ومن لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواءٌ، وقد يكون من الجهل بمعنى السَّفَهِ، لأن الوقوع في مواقعة النساءِ والميل إليهن سفاهة.



وكذبته ، وإمَّا حبسته كما أَنا محبوسة ، فحينئذ بدا لهم سجنه. قال ابن عباس: فأُمر به فحمل على حمار ، وضرب بالطبل ، ونودي عليه في أَسواق مصر: إن يوسف العبراني أَراد سيدته ، فهذا جزاؤُه أَن يسجن ، قال أَبو صالح: ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى.

و﴿ بَدَا ﴾ معناه: ظهر ، والفاعل بـ ﴿ بَدَا ﴾ محذوف تقديره: بدْوٌ ، أَو رأْي[1] ، وجُمع الضمير في ﴿ لَهُم ﴾ والساجن الملكُ وحده من حيث كان في الأَمر تشاور ، و﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾ جملة دخلت عليها لام القسم ، ولا يجوز أَن يكون الفاعل بـ ﴿ بَدَا ﴾ ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾ لأَن الفاعل لا يكون جملة بوجه ، هذا صريح مذهب سيبويه ، وقيل: الفاعل: ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾ ، وهو خطأٌ ، وإنما هو مفسِّر للفاعل.

و﴿ ٱلْآيَٰتِ ﴾ ذكر فيها أَهل التفسير أَنها قَدُّ القميص ـ قاله مجاهد وغيره ـ وخمش الوجه الذي كان مع قَدِّ القميص ـ قاله عكرمة ـ وحزُّ النساءِ أَيديهن ، قاله السدي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومقصد الكلام إنما هو أَنهم رأَوا سجنه بعد بدو الآيات المبرئة له من التهمة ، فهكذا تبيَّن ظلمهم له ، وخمشُ الوجه وحزُّ النساءِ أَيديهن ليس فيها تبرية ليوسف ، ولا تتصور تبرية إلا في خبر القميص ، فإن كان المتكلم طفلاً ـ على ما روي ـ فهي آية عظيمة ، وإن كان رجلاً فهي آية فيها استدلالٌ ما ، والعادة أَنه لا يُعَبَّر بآية إلا فيما ظهوره في غاية الوضوح ، وقد تقع (الآيات) أَيضاً على (المبينات) كانت في أَي حدّ اتفق من الوضوح ، ويحتمل أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْآيَٰتِ ﴾ أَي: من بعد ما ظهر لهم من وجوه الأَمر وقرائنه أَن يوسف بريءٌ ، فلم يرد تعيين آية ، بل قرائن جميع القصة.

و(الحين) في كلام العرب وفي هذه الآية: الوقت من الزمن غير محدود ، يقع

---

(١) قال في (البحر): التقدير: بدا لهم هو ، أي: رأيٌ أو بداءٌ ، كما قال:

بَـدَا لَـكَ مِـنْ تِلْـكَ القَلُـوصِ بَـداءُ

وقال القرطبي: وهو مصدر الفعل ، وقد حذف لأن الفعل يدل عليه ، كما قال الشاعر:

وحَـقَّ لِمَـنْ أبـو مـوسـى أبُـوهُ ... يُـوَفِّقُـه الـذي نَصَـبَ الجِبَـالا

أي: وحقّ الحقُّ. فحذف.

للقليل والكثير ، وذلك بيِّن من موارده في القرآن ، وقال عكرمة: الحين هنا يراد به سبعة أعوام ، وقيل: بل يراد بذلك سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بحسب ما كشف الغيب في سجن يوسف ـ وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقرأُ (عَتَّى حِين) بالعين ـ وهي لغة هذيل ـ فقال له: من أَقرأَك؟ قال: ابن مسعود ، فكتب عمر إلى ابن مسعود: «إن الله أنزل القرآن عربياً بلغة قريش ، فبها أَقْرِئ الناس ، ولا تقرئهم بلغة هذيل». ورُوي عن ابن عباس أَنه قال: «عَثَر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات: هَمَّ فسُجن ، وقال: اذكرني عند رَبِّكَ فأَنساهُ الشيطان ذكر ربِّه فطول سجنه ، وقال: إنكم لسارقون ، فروجع: إن يسرق فقد سَرَقَ أَخٌ له مِن قبل».

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ ﴾ الآية. المعنى: فسجنوه فدخل معه السجن غلامان أَيضاً ، وهذه (مع) تحتمل أَن تكون باقتران وقت الدخول ، وأَلا تكون بل دخلوا أَفذاذاً[1] ، وروي أَنهما كانا للملك الأَعظم ، الوليد بن الريان ، أَحدهما: خبَّازه ، والآخر: ساقِيه.

والفتى: الشابُ ، وقد تقع اللفظة على المملوك وعلى الخادم الحر ، ويحتمل أَن يتصف هذان بجميع ذلك ، واللفظة من ذوات الياءِ ، وقولهم: (الفُتُوَّة): شاذٌّ ، وروي أَن الملك اتَّهمهما بأَن الخابز منهما أَراد سمَّه ، ووافقه على ذلك الساقي فسجنهما ، قاله السدي ، فلما دخل يوسف السجن استمال الناسَ فيه بحسن حديثه وفضله ونبله ، وكان يسلِّي حزينهم ، ويعود مريضهم ، ويسأَل لفقيرهم ، ويندبهم إلى الخير ، فأَحبَّه الفَتَيَان ولزماه ، وأَحبه صاحب السجن والقيِّم عليه ، وقال له: كن في أَي البيوت شئت ، فقال له يوسف: لا تُحِبَّني يرحمك الله ، فلقد أَدخلت عليَّ المحبةُ مضرات: أَحبتني عمتي فامتحنت لمحبتها ، وأَحبني أَبي فامتحنت لمحبته لي ، وأَحبتني أمرأَة العزيز فامتحنت لمحبتها بما ترى ، وكان يوسف عليه السلام قد قال لأَهل السجن: إني أَعْبُر الرؤْيا وأُجيد ، فروي عن ابن مسعود أَن الفَتَيَيْن استعملا هذين المنَاميْن ليجرباه ، وروي عن مجاهد أَنهما رأَيا ذلك حقيقة فأَرادا سؤاله ، فقال أَحدهما واسمه (نبو) فيما

(١) أي: أفراداً ، وهو جمع فَذّ.



رُوي[1]: إِني رأَيت حَبَلة[2] من كرْم لها ثلاثة أَغصان حسان، فيها عناقيد عنب حسان، فكنت أَعصرها وأَسقي الملك، وقال الآخر واسمه (مجلث): كنت أَرى أَني أَخرج من مطبخة الملك وعلى رأْسي ثلاث سلال فيها خبز والطير تأْكل من أَعلاه.

وقوله: ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ قيل: إِنه سمَّى العنب خمراً بالمآل، وقيل: هي لغة أَزد عمان، يسمون العنب. خمراً، وقال الأَصمعي: حدثني المعتمر قال: لقيت أَعرابياً يحمل عنباً في وعاءٍ، فقلت: ما تحمل؟ قال: خمراً، أَراد العنب. وفي قراءَة أُبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود [إِنّي أَراني أَعْصِرُ عِنَباً][3]، ويجوز أَن يكون وصف الخمر بأَنها معصورة، إِذ العصر لها ومِنْ أَجلها.

وقوله: ﴿خُبۡزٗا﴾ يروى أَنه رأَى ثريداً فوق رأْسه، وفي مصحف ابن مسعود: [فوق رأْسي ثريداً تأْكلُ الطَّيرُ منه].

وقوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قال الجمهور: يريدان: في العلم، وقال الضحاك وقتادة: المعنى من المحسنين في عِشْرته مع أَهل السجن وإِجماله معهم، وقيل: أَرادا إِخباره أَنهما يريان له إِحساناً عليهما ويَداً إِذا تأَول لهما ما رأَياه، ونحا إِليه ابن إِسحٰق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٣٨﴾.

---

(١) في تفسير الطبري اثبتت (نبو) بتقديم النون على الباء، وفي تفسير القرطبي (نبوه) بزيادة هاءٍ.

(٢) الحَبَلة بفتح الحاءِ والباءِ، وربما جاءت الباءُ ساكنة: القضيب من الكرم، والجمع حَبَل، وفي (النهاية): أُمُّ العنب، وفي الحديث: «لا تقولوا: العنب الكرم، ولكن قولوا: العنب الحَبَلة».

(٣) قال أبو الفتح بن جني: «هذه القراءة هي مراد قراءة الجماعة: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾، وذلك أَن المعصور حينئذ هو العنب، فسماه خمراً لما يصير إليه من بعد؛ حكايةً لحاله المستأنفة، كقول الشاعر ـ يريد أبا المهوش الأسدي، أو يزيد بن عمر بن الصَّعِق ـ:

إذا مـــا مـــاتَ مَيْــتٌ مِــن تميــم ... فَسَــرَّك أنْ يَعيــش فجــيءْ بِــزَادِ

يريد: إذا مات حيٌّ فصار ميتاً كان كذا، أو فليكن كذا.



روي عن السدي وابن إسحٰق أَن يوسف عليه السلام لما علم شدة تعبير منامة رائي الخبز وأَنها تؤذن بقتله ذهب إلى غير ذلك من الحديث عسى أَلا يطالباه بالتعبير ، فقال لهما ـ مُعَلِّماً بعظيم علمه بالتعبير ـ: إنه لا يجيئكما طعام في نومكما تريان أَنكما رُزقْتماه إلا أَعلمتكما بتأويل ذلك الطعام ، أَي: بما يَؤُول إليه أَمْره في اليقظة قبل أَن يظهر ذلك التأويل الذي أُعْلِمَكُما به ، فروي أَنهما قالا: ومن أَين لك ما تدَّعيه من العلم وأَنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال لهما: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ ، ثم نهض ينحي لهما على الكفر ويحسن لهما الإيمان بالله ، فروي أَنه قصد في ذلك وجهين: أَحدهما: تنسيتهما أَمْر تعبير ما سأَلا عنه ، إذْ في ذلك النذارة بقتل أَحدهما ، والآخر: الطماعية في إيمانهما ، ليأْخذ المقتول بحظه من الإيمان وتسلم له آخرته ، وقال ابن جريج: أراد يوسف عليه السلام: لا يأْتيكما طعام ترزقانه في اليقظة إلا نبأْتكما منه بعلم ، وبما يؤول إليه أَمركما قبل أَن يأْتيكما ذلك المآل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا إنما أَعلمهم[1] بأَنه يعلم مغيبات لا تَعَلُّق لها برؤْيا ، وقصد بذلك أَحد الوجهين المتقدمين ، وهذا على ما رُوي أَنه نُبِّئَ في السجن ، فإخباره كإخبار عيسى عليه السلام. وقال ابن جريج: كانت عادة ذلك الملك إذا أَراد قتل أَحد ممن في سجنه بعث إليه طعاماً يجعله علامة لقتله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله لا يقتضيه اللفظ ولا ينهض به إسناد.

وقوله: ﴿ تَرَكْتُ ﴾ مع أَنه لم يتشبث بها ـ جائز صحيح ، وذلك أَنه عبَّر عن تجنبه من أَول بالترك ، وساق لفظة الترك استجلاباً لهما عسى أَن يتوكأَ الترك الحقيقي الذي هو بَعْدَ الأَخذ في الشيءِ ، والقوم المتروك مِلّتهم: الملِك وأَتباعه ، وكرر قوله: ﴿ وَهُم ﴾ على جهة التأْكيد ، وحسن ذلك للفاصلة التي بينهما.

وقوله: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ ﴾ الآية. تمادٍ من يوسف عليه السلام في دعائهما إلى الملَّة الحنيفة ، وزوال مواجهة (مجلث) بما تقتضيه رؤْياه. وقرأَ ﴿ ءَابَآءِيَ ﴾ بالإسكان في

(١) لعله أراد أن خطابه كانه لِلْفتَيَيْن وصاحب السجن وكل من فيه ، ولذا عبَّر عنهم بضمير الجمع.

الياءِ ، الأَشهبُ العقيلي وأَبو عمرو ، وقرأَ الجمهور: ﴿آبائيَ﴾ بياءٍ مفتوحة ، قال أَبو حاتم: هما حسنتان فاقرأْ كيف شئت ، وأَما طرح الهمزة فلا يجوز ، ولكن تخفيفها جيد ، فتصير ياءً مكسورة بعدها ياءٌ ساكنة أَو مفتوحة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ملَّتهم وشرعهم ، وكون ذلك فضلاً عليهم بيِّن ، إِذْ خصَّهم الله تعالىٰ بذلك ، وجعلهم أَنبياءَ ، وكونه فضلاً على الناس هو إِذْ يدعون به إِلى الدين ، ويساقون إِلى النجاة من عذاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ هي (من) الزائدة المؤكدة التي تكون مع الجحد ، وقوله: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ يريد الشُّكْر التَّام الذي فيه الإِيمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وصْفُه لهما بـ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ هو: إمَّا على أَنْ يَنْسُبهما بصحبتهما للسجن من حيث سكناه ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[1] ، و﴿أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾[2] ، ونحو هذا ، وإِما أَن يريد صُحْبَتَهُما له في السجن ، فأَضافهما إلى السجن لذلك ، كأَنه قال: يا صاحبيَّ في السجن ، وهذا كما قيل في الكفار: إِن الأَصنام شركاؤُهم. وعَرْضُه عليهما بُطُولَ أَمْر الأَوثان بأَن وصفها بالتفرق[3] ، وَوصْفُ الله تعالىٰ بالوحدة والقهر ـ

---

(١) في الآية (٢٠) من سورة الحشر: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ـ وتكررت في قوله تعالىٰ في الآية (٤٤) من سورة الحشر: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

(٢) من الآية (١١٩ من سورة البقرة) ، وتكررت في الآيات (١٠ ، ٨٦ المائدة) و(١١٣ التوبة) و(٥١ الحج) و(١٩ الحديد).

(٣) بُطُول: مصدر الفعل (بَطَل) ، والمعنى المراد أنه عرض على الفتَيَيْن بطلان أمْر الأوثان بأن وصفها بالتفرق في قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ ، وقد يضاف إلى التفرق دليلاً على بطلان أمرها التَّعددُ أيضاً ، =

تلطُّفٌ حسن وأَخذٌ بيسير الحجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته ، وهكذا الوجه في مُحاجَّة الجاهل ، أَن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها ، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أُخرى فوقها ، ثم كذلك أبداً حتى يصل إِلى الحق ، وإِن أُخذ الجاهل بجميع المذهب الذي يساق إِليه دفعةً أَبَاهُ للحين وعانده ، وقد ابتلي بأَرباب متفرقين من يخدم أَبناءَ الدنيا ويؤملهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ ، ذهب بعض المتكلمين إِلى أَنه أَوقع في هذه الآية الأَسماءَ على المسميات وعبَّر عنها بها إِذ هي ذوات أَسماءٍ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والاسم الذي هو: (أَلف وسين وميم) قد يجري في اللغة مجرى النفس والذات والعين ، فإِن حُملت الآية على ذلك صحَّ المعنى ، وليس الاسم ـ على هذا ـ بمنزلة التسمية التي هي: رجلٌ وحجر ، وإِن أُريد بهذه الأَسماءِ التي في الآية أَسماءُ الأَصنام التي هي بمنزلة اللات والعزى ونحو ذلك من تسميتها آلهة ، فيحتمل أَن يريد: إِلاَّ ذوات أَسماءٍ ، وحذف المضاف وأَقام المضاف إِليه مقامه. ويحتمل ـ وهو الراجح المختار إِن شاءَ الله ـ أَن يريد: ما تعبدون من دونه أُلوهية ، ولا لكم تعلق بإِلٰه إِلا بحسب أَن سميتم أَصنامكم آلهة ، فليست عبادتكم لإِلٰه إِلا باسم فقط لا بالحقيقة ، وأَما الحقيقة فهي وسائر الحجارة والخشب سواءٌ ، فإِنما تعلقت عبادتكم بحسب الاسم الذي وضعتم ، فذلك هو معبودكم إِذا حُصِّل أَمركم ، فعبّر عن هذا المعنى باللفظ المسرود في الآية. ومن هذه الآية وَهِمَ من قال: (في قولنا: رجل وحجر): إِن الاسم هو المسمى في كل حال ، وقد بانت هذه المسأَلة في صدر التعليق.

ومفعول (سمَّيْتُمْ) الثاني محذوف ، تقديره: آلهةً ، هذا على أَن الأَسماءَ يراد بها ذوات الأَصنام ، وأَما على المعنى المختار من أَن عبادتهم إِنما هي لمَعَان تعطيها الأَسماءُ وليست موجودة في الأَصنام ـ فقوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ بمنزلة: وضعتموها ، فالضمير للتسميات ، وأَكد الضمير ليعطف عليه.

= فقد قال عنها ﴿أرباب﴾ بصغة الجمع ، وكذلك هذا الاستفهام الإنكاري أو التقريري إلى جانب ما وصف به الله سبحانه وتعالىٰ من الوحدة والقهر إزاء تعددها وتفرقها. و(تَلَطُّفٌ حَسَنٌ) هو جواب المبتدأ (عَرْضُهُ).



والسلطان: الحُجَّةُ، وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أَي: ليس لأَصنامكم التي سميتموها آلهة من الحكم والأَقدار والأَرزاق شيءٌ، أَي: فما بالها إِذن؟ ويحتمل أَن يريد الردَّ على حُكْمهم في نصبهم آلهة دون الله تعالىٰ: وليس لهم تعدي أَمْر الله في أَلا يُعبد غيرُه. و﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ معناه: المستقيم، و﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهالتهم وغلبة الكفر.

ثم نادى ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ ثانية لتجتمع أَنفسهما لسماع الجواب، فروي أَنه قال لنبو: أَمَّا أَنت فتعود إِلى مرتبتك وسقاية ربك، وقال لمجلث: أَما أَنت فتصلب، وذلك كله بعد ثلاث، فروي أَنهما قالا له: ما رأَينا شيئاً وإِنما تحالمنا لنجربك، ورُوي أَنه لم يقل ذلك إِلا الذي حدثه بالصلب، وقيل: كانا رأَيا ثم أَنكرا.

وقرأَت فرقة: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ من سَقَى، وقرأَت فرقة: [فَيُسْقي] من أَسقى، وهما لغتان لمعنى واحد[1]. وقرأَ عكرمة، والجحدري، [فَيُسْقَى] بضم الياء وفتح القاف، أَي: ما يُرويه[2]. وأَخبرهما يوسف عليه السلام ـ عن غيب عَلِمَهُ من قبل الله تعالىٰ ـ أَن الأَمر قد قضي ووافق القدر.

وقوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ الآية. الظن ها هنا بمعنى اليقين، لأَن ما تقدم من قوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ يلزم ذلك، وهو يقين فيما لم يخرج بعد إِلى الوجود، وقال قتادة: الظن هنا على بابه لأَن عبارة الرؤْيا ظن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقول يوسف عليه السلام: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ دالٌّ على وحي، ولا يترتب قول قتادة إِلا بأَن يكون معنى قوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أَي: قضي كلامي وقلت ما عندي والله أَعلم بما يكون بعد.

---

(١) وقد جمع بينهما لبيد في قوله:

سَقَى قَوْمِي بني مَجْدٍ وأَسْقَى ... نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِلالِ

وفاعل (سقى) ضمير المطر، و(مَجْد) هي ابنة تميم بن غالب بن فهد، وهي أم كلاب وكليب بني ربيعة.

(٢) قال ابن جني عن هذه القراءة: «هذا في الخير يضاهي في الشر قوله: ﴿فَيُصْلَبُ﴾، لأن تلك نعمة وهي نقمة. (المحتسب)».

وفي الآية تأويل آخر، وهو أن يكون ﴿ظَنَّ﴾ مسنداً إلى الذي قيل له: إنه يسقي ربّه خمراً، لأنه دخلته أُبَّهَةُ السرور بما بُشِّر به، وصار في رتبة من يؤمل حين ظنَّ وغلب على معتقده أنه ناج، وذلك بخلاف ما نزل بالآخر المُعَرَّف بالصلب.

ومعنى الآية: قال يوسف عليه السلام لساقي الملك حين علم أنه سيعود إلى حالته الأولى مع الملك: اذكرني عند الملك، فيحتمل أن يريد أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق، أو يذكره بهما.

والضمير في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ قيل: هو عائد على يوسف عليه السلام[١]، أي: نسي في ذلك الوقت أن يشتكي إلى الله، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق، فروي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله عزَّ وجلَّ في ذلك، وطوَّل سجنه عقوبة على ذلك، وقيل: أُوحي إليه: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأُطيلن حبسك، وقيل: إن الضمير في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ عائد على الساقي، قاله ابن إسحٰق، أي: نسي ذكر يوسف عند ربّه، فأضاف الذكر إلى ربّه إذْ هو عنده، والربُّ ـ على هذا التأويل: الملك[٢].

والبضع في كلام العرب اختلف فيه ـ فالأكثر على أنه من الثلاثة إلى العشرة، قاله ابن عباس. وعلى هذا هو فقه مالك رحمه الله في الدعاوي والإيمان، وقال أبو عبيدة: البضع لا يبلغ العقد ولا نصف العقد، وإنما هو من الواحد إلى الأربعة، وقال الأخفش: البضع من الواحد إلى العشرة، وقال قتادة: البضع من الثلاثة إلى التسعة، ويقوي هذا ما رُوي من أن النبي ﷺ قال لأبي بكر الصديق في قصة خَطَره[٣] مع قريش في غلبة الروم لفارس: (أما علمت أن البضع من الثلاث إلى التسع)[٤]، وقال مجاهد:

---

(١) النسيان غير جائز على الأنبياء في أُمور الشريعة، وأما في أُمور الدنيا فهو جائز إذا أخبر الله عنهم، أما نحن فلا يجوز لنا أن نصفهم به، وقد قال ﷺ: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون»، وقال: «نسي آدم فنسيت ذريته»، ذكر ذلك القرطبي.

(٢) إطلاق الربِّ على السيد أو الملك معروف في اللغة، قال الأعشى:

رَبِّـي كَـرِيـمٌ لا يُكَـدِّرُ نِعْمَـةً ... وإذا تُنُـوشِـدَ فـي المَهَـارِقِ أَنْشَدَا

ومعنى (تُنُوشِد): نُوشد ودُعي، والمهارق: الصحف والواحدة مَهْرَق، يقول: إذا سُئِل أعْطَى.

(٣) الخَطَر بفتح الخاءِ والطاءِ: النصيب والرهان، وفي حديث عُمَر في قسمة وادي القُرى: «وكان لعثمان فيه خَطَر، ولعبد الرحمن خَطَر» أي نصيب. (المعجم الوسيط).

(٤) قصة مراهنة أبي بكر رضي الله عنه لقريش على غلبة الروم مشهورة معروفة، إذ كان المسلمون يُحبون=

من الثلاثة إلى السبعة. قال الفراءُ: ولا يذكر البضع إلا مع العشرات، لا يذكر مع مائة ولا مع ألف، والذي روي في هذه الآية أن يوسف عليه السلام سجن خمس سنين، ثم نزلت له قصة الفتيَيْن، وعوقب على قوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ بالبقاءِ في السجن سبع سنين، فكانت مدة سجنه اثنتي عشرة سنة، وقيل: عوقب ببقاءِ سنتين، وقال الحسن: قال رسول الله ﷺ: «لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث»، ثم بكى الحسن وقال: نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

المعنى: وقال الملك الأعظم: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ يريد: في منامه، وقد جاءَ ذلك مبيَّناً في قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾[٢]، وحُكيت حالٌ ماضية بـ ﴿أَرَىٰ﴾ وهو مستقبل من حيث يستقبل النظر في الرُّؤْيا[٣].

و﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾، يروى أنه قال: رأَيتها خارجة من نهر، وخرجت وراءَها سبع عجاف، فرأَيتها أَكلت تلك السمان حتَّى حصلت في بطونها، ورأَى السنابل أَيضاً كما ذكر، والعجَافُ: التي بلغت غاية الهزال، ومنه قول الشاعر:

= غلبة الروم على فارس لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك لأنهم وأهل فارس لا يؤمنون بكتاب ولا بالبعث، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على رواية أُخرى، فقال له النبي ﷺ: «اذهب فزائد في الخطر ومادد في الأجل»، وكان ذلك قبل تحريم الرهان، راجع صحيح الترمذي في تفسير أول سورة الروم.

(١) أخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «رحم الله يوسف لولا... الحديث». (الدر المنثور).

(٢) من الآية (١٠٢) من سورة الصافات، ومما يلفت النظر أن ابن عطية أحال على تفسير الرؤيا على آية الصافات هنا، وكان الأولى أن يحيل عندما ذكر له الفتيان ما رآه كل منهما.

(٣) معنى ذلك أن (أرى) حكاية حال ماضية، ولذلك جاءت بلفظ المضارع الذي يدل على الاستقبال دون (رأيت) التي تدل على الزمن الماضي. وتأمل كيف جعل الله الرؤيا ليوسف في أول أمره مع أبيه وإخوته بلاءً وشدة، ثم جعلها آخراً من هذا الملك بشرى ورحمة.



. . . . ورجــالُ مَكَّــةَ مُسْنِتُــون عجَـافُ[١]

ثم قال لجماعته وحاضريه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي﴾. قرأت فرقة بتحقيق الهمزتين، وقرأت فرقة بأن لفظت بألف ﴿أَفۡتُونِي﴾ واواً. وقوله: ﴿لِلرُّءۡيَا﴾ دخلت اللام لمعنى التأكيد والربط، وذلك أن المفعول إذا تقدم حسُن في بعض الأفعال أن تدخل عليه لام الجر، وإذا تأخر لم يحتج الفعل إلى ذلك، و(عبَارَةُ الرُّؤْيَا): مأخوذة من: عبَر النهر، وهو تجاوز من شط إلى شط، فكأن عابر الرُّؤْيا ينتهي إلى آخر تأويلها.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ الآية. الضِّغْث ـ في كلام العرب ـ أقل من الحزمة وأكثر من القبضة من النبات والعشب ونحوه، وربما كان من جنس واحد، وربما كان من أخلاط النبات، فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾[٢]، وروي أنه أخذ (عثْكَالاً) من النخل[٣]، وروي أن النبي ﷺ فعل نحو هذا في حدٍّ أقامه على رجل زمِن[٤]، ومن ذلك قول ابن مُقْبل:

خَـوْدٌ كَـأَنَّ فـرَاشَهَـا وُضعـتْ بـه ... أَضْغَـاثُ رَيْحَـانٍ غَـدَاةَ شَمَـال[٥]

---

(١) البيت لابن الزِّبَعْرَى، وهو بتمامه:
عَمْــرو الْعُــلا هَشَــمَ الثَّـرِيـدَ لِقَـوْمِـهِ ... ورجَــالُ مَكَّــةَ مُسْنِتُــونَ عِجَــافُ
ومُسْنِتُونَ: أصابتهم سنة وقحط وأجدبوا، وفي حديث أبي تميمة: «الله الذي إذا أَسْنَتَّ أنبَت لك»، أي: إذا أجدَبْتَ أخصب لك. وعِجَافٌ: بلغوا غاية الهزال والضعف.

(٢) من الآية (٤٤) من سورة ص.

(٣) العِثْكَالُ والعُثْكُول: العِذْقُ أو الشِّمْراخ وهو ما عليه البُسْر من عيدان الكباسة، وهو في النخل بمنزلة العنقود من الكرم.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الحدود، والإمام أحمد في مسنده (٥ ـ ٢٢٢) ولفظه فيه عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: «كان بين أبياتنا إنسان مخدج ضعيف، لم يُرَع أهل الدار إلا وهو على أمة من إماءِ الدار يخبث بها، وكان مسلماً، فرفع شأنه سعدٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: اضربوه حدَّه، قالوا: يا رسول الله، إنه أضعف من ذلك، إن ضربناه مائة قتلناه، قال: فخذوا له عِثْكالا فيه مائة شِمْراخ فاضربوه به ضربة واحدة، وخلُّوا سبيله». والزَّمِن: ذو الزمانة، أي مبتلى بالزمانة، وهي العاهة والآفة.

(٥) الخَوْد: الفتاة الحسنة الخَلْق الشابة ما لم تصر نَصَفاً، وقيل: الجارية الناعمة، والجمع: خودات وخُودٌ. والضِّغْث: الحُزْمة من الحشيش، أو كل ما ملأ الكف من النبات المختلط. والشَّمال: الريح الباردة. يقول: إن رائحة فراشها بعد النوم، كأنما وضعت فيه صنوف من الرَّيحان تنشر رائحتها ريحُ الشمال اللطيفة.



ومن الأَخلاط قول العرب في أَمثالها: (ضغثٌ علَى إِبَّالة)[١] ، فيشبه اختلاط الأَحلام باختلاط الجملة من النبات ، والمعنى أَن هذا الذي رأَيتَ أَيُّها الملك اختلاط من الأَحلام بسبب النوم ، ولسنا من أَهل العلم بذلك ، أَي: بما هو مختلط ورديءٌ ، فإِنما نفوا عن أَنفسهم عبر الأَحلام لا عبر الرؤْيا على الإِطلاق ، وقد قال النبي ﷺ: «الرؤْيا من الله ، والحُلْم من الشيطان»[٢] ، وقال للذي كان يرى رأْسه يُقطع ثم يردّه فيرجع: «إِذا لعب الشيطان بأَحدكم في النوم فلا يحدث بذلك»[٣] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالأَحلام وحدثان النفس مُلغاة ، الرؤْيا هي التي تعبّر ويلتمس علمها. والباءُ في قوله: ﴿بِعَالِمِينَ﴾ للتأْكيد ، وفي قوله: ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ للتعدية ، وهي متعلقة بقوله: ﴿بِعَالِمِينَ﴾ .

و(الأَحلام): جمع حُلْم ، يقال: حلَم الرجل ـ بفتح اللام ـ يحلُم إِذا خيل إِليه في منامه ، والأَحلام مما أَثبتته الشريعة ، وقال رسول الله ﷺ: «الرُّؤْيا من الله ، وهي المبشِّرة ، والحُلْم المحزن من الشيطان ، فإِذا رأَى أَحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاث مرات ، وليقل: أَعوذ بالله من شَرِّ ما رأَيت ، فإِنها لا تضره»[٤] ، وما كان عن حديث النفس في اليقظة فإِنه لا يلتفت إِليه.

ولما سمع الساقي الذي نجا هذه المقالة من الملك ومراجعة أَصحابه تذكَّر يوسف

---

(١) الضِّغْث: قبضة من الحشيش أو النبات المختلط ، والإِبَّالة: الحُزمة من الحطب ، وبعضهم يقوله بالباءِ الخفيفة المفتوحة ، وعليه:

لـــي كُـــلَّ يَـــوْم مِـــنْ ذُؤَالَـــه ... ضِغْـــثٌ يُـــزِيـــدُ عَلَـــى إِبَـــالَـــه

ومعنى المثل: بَلِيَّةٌ على أُخرى. (مجمع الأمثال ـ الميداني). وفي (المستقصى) للزمخشري: «يُضْرَب لِمَنْ حمَّلك مكروهاً ثم زادك عليه».

(٢) رواه البخاري في (التعبير) وفي (بدء الخلق) ، وفي (الطب) ، ورواه مسلم في (الرؤيا) ، وأبو داود في (الأدب) ، والترمذي في (الرؤيا) ، وكذلك ابن ماجه والدارمي ، ومالك في (الموطأ) ، والإمام أحمد (٥ ـ ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٠). ولفظه كما في البخاري «الرؤيا الصالحة من الله ، والحُلْم من الشيطان ، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره ، وإن الشيطان لا يتزيَّا بي».

(٣) رواه مسلم وابن ماجه عن جابر ، ورمز له السيوطي بالصحة. (الجامع الصغير).

(٤) راجع الهامش قبل السابق على هذا.



وعلمه بتأويل الأحلام والرُّؤَى ، فقال مقالته في هذه الآية.

و﴿ وَادَّكَرَ ﴾ أصله: اذْتكَرَ ، افتعل من الذكر ، قلبت التاءُ دالاً وأُدغم الأول في الثاني ، ثم بدلت دالاً غير منقوطة لقوة الدال وجَلَدها ، وبعض العرب يقول: (اذَّكر) ، وقرئ: [فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ][1] بالنقط ، و(مِنْ مُدَّكِرٍ) على اللغتين ، وقرأ جمهور الناس: ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وهي المُدة من الدهر ، وقرأ ابن عباس وجماعة: [بَعْدَ أَمَهٍ][2] وهو النسيان ، وقرأ مجاهد ، وشُبَيْل بن عَزْرَةَ[3]: [بَعْدَ أَمْهٍ] بسكون الميم ، وهو مصدرٌ من (أَمِهَ) إذا نسي ، وقرأ الأشهب العقيلي: [بَعْدَ إِمَّةٍ] بكسر الهمزة ، والإِمَّةُ: النعمة ، والمعنى: بعد نعمة أَنعمها الله على يوسف في تقريب إِطلاقه وعزَّته. وبقوله: ﴿ وَادَّكَرَ ﴾ يقْوي قول من يقول: إن الضمير في ﴿ فَأَنسَىٰهُ ﴾ عائد على الساقي ، والأَمر محتمل.

وقرأ الجمهور: ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم ﴾ ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [أَنَا آتِيكُمْ] ، وكذلك في مصحف أُبي بن كعب ، وقوله: ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ استئذان في المضي ، فقيل: كان السجن في غير مدينة الملك ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل: كان فيها[4].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويرسم الناس اليوم سجن يوسف في موضع على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية أَميال.

---

(١) تكررت في الآيات: (١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠) من سورة القمر.

(٢) أي: بفتح الهمز والميم مخففة وهاءٍ ، والجماعة التي قرأت مع ابن عباس هي. زيد بن علي ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو رجاءٍ ، وشُبَيْل بن عَزْرَةَ الضبعي ، وربيعة بن عمرو ، قال أبو الفتح بن جني: «والأَمَهُ: النسيان ، يقال: أَمِهَ الرجل يأْمَهُ أَمَهاً: نَسِي» ، وقال الشاعر:

أَمِهْتُ وَكُنْتُ لا أَنْسَى حَدِيثاً ... كَذاكَ الدَّهْرُ يُودي بِالعُقُولِ

(٣) اختلف في اسم أبيه ، فهو عَزْرَة في التاج والمحتسب ، وفي القاموس: عُروة ، وفي الفهرست: عَزْعَرَة ، وكان رافضياً ، ثم انتقل إلى الشُراة ، وَيُعَدُّ من خطبائهم وعلمائهم ، يروي عن أنس بن مالك ، وروى عنه شعبة ، مات بالبصرة في دولة بني العباس.

(٤) وفي الكلام حذف بعد ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ ، والتقدير: «فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال» ، والصِّدِّيق: بناءُ مبالغة مثل: السِّكِّير ، والشِّرِّيب ، وكان الساقي قد صحب يوسف زماناً وخَبَره وعرف صدقه في غير ما أمْر ، كتأويل رؤياه ورؤيا صاحبه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

المعنى: فجاءَ الرسول ـ وهو الساقي ـ إلى يوسف فقال له: يا يوسف، ﴿ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾، وسمَّاه صدِّيقاً من حيث كان جرب صدقه في غير شيءٍ، وهو بناءُ مبالغة من (صَدَقَ)، وسمِّي أبو بكر رضي الله عنه صدِّيقاً من (صدَّق غيرَهُ) إذ مع كل تصديق صدق، فالمصدق بالحقائق صادق أيضاً، وعلى هذا الأساس سُمِّي المؤمنون صدِّيقين في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾[1]. ثم قال: ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ ﴾ أي: فيمن رأى في المنام سبع بقرات، وحكى النقاش حديثاً روى فيه أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن وبشَّره بعطف الله تعالىٰ عليه، وأخرجه من السجن، وأنه قد أحدث للملِك منامة جعلها سبباً لفرج يوسف، ويروى أن الملِك كان يرى سبع بقرات سمان يخرجن من النهر، وتخرج وراءَها سبع عجاف، فتأكل العجافُ السمان، فكان يعجب كيف غلبتها؟ وكيف وسِعت السمانَ بطونُ العجاف[2]؟ وكان يرى سبع سنبلات خضر وقد التفَّت بها سبع يابسات حتى كانت تغطي خضرتها فعجب أيضاً لذلك.

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي تأويل هذه الرؤيا فيزول همُّ الملك لذلك وهَمُّ الناس، وقيل: لعلهم يعلمون مكانتك من العلم وكُنْه فضلك فيكون ذلك سبباً لتخلصك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ ﴾ الآية. تضمن هذا الكلام من يوسف عليه السلام ثلاثة أنواع من القول: أحدها: تعبير بالمعنى وباللفظ. والثاني: عرض رأي وأمْر بِهِ وهو قوله: ﴿ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾، والثالث: الإعلام بالغيب في أمر العام الثامن، قاله قتادة.

---

(١) من الآية (١٩) من سورة الحديد.

(٢) ويصح أن تضبط هكذا: وَسِعَت السِّمانُ بطونَ العجاف، كما يقال: «هذا الإناءُ يسع عشرين كيلاً، ويَسَعُه عشرون كيلاً». (المعجم الوسيط).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل هذا ألا يكون غيباً، بل علم العِبارة أعطى انقطاع الجدب بعد سبع، ومعلوم أنه لا يقطعه إلا خصب شاف، كما أعطى أن النهر مثال للزمان إذ هو أشبه شيءٍ به فجاءَت البقرات مثالاً للسنين.

و﴿ دَأَبًا﴾ معناه: ملازمة لعادتكم في الزراعة، ومنه قول امرئ القيس:

كَـدَأْبِـكَ مِـنْ أُمِّ الْحُـوَيْـرِثِ قَبْلَهَـا . . . . البيـت[1]

وقرأ جمهور السبعة: [دَأْباً] بإسكان الهمزة، وقرأ عاصم وحده: ﴿ دَأَبًا﴾ بفتح الهمزة، وأبو عمرو يُسهِّل الهمزة عند درج القراءَة، وهما مثل: نَهْر ونَهَر، والناصب لقوله: ﴿دَأَبًا﴾ ﴿تَزْرَعُونَ﴾ عند أبي العباس المبرد، إذ في قوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ (تَدْأَبُونَ)، وهي عنده مثل: (قعد القرفصاءَ)، و(اشتمل الصماءَ)[2]، وسيبويه يرى نصب هذا كله بفعل مضمر من لفظ المصدر يدل عليه هذا الظاهر، كأنه قال: (تزرعون تدأبون دأباً).

وقوله: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾ هي إشارة برأي نبيل نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل، فإن الحبة إذا بقيت في خبائها انحفظت، والمعنى: اتركوا الزرع في السنبل إلا ما لا غنى عنه للأكل، فيجتمع الطعام هكذا ويتركب، ويؤكل الأقدم فالأقدم، فإذا جاءَت السنون الجدبة تقوَّت الناسُ الأقدمَ فالأقدم من ذلك المدَّخر، وادَّخروا أيضاً الشيءَ الذي يصاب في أعوام الجدب على قلَّته، وحملت الأعوام بعضُها بعضاً حتَّى يتخلص الناس، وإلى هذه السنين أشار النبي عليه الصلاة والسلام في دعائه على قريش: «اللَّهم أعِنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف»[3]، فابتدأ

---

(١) هذا صدر بيت لامرئ القيس من معلقته المشهورة، والبيت بتمامه:

كَـدَأْبِـكَ مِـنْ أُمِّ الْحُـوَيْـرِثِ قَبْلَهَـا وجَـارَتِهَـا أُمِّ الـرَّبَـابِ بِمَـأْسَـلِ

ويروى: «كدينك»، أي: مثل عادتك وشأنك، وأُم الحويرث هي أُخت الحارث بن حصين بن ضمضم من بني كلب، وقد تزوجت من حُجْر أبي امرئ القيس، ومأسَل بفتح السين: جبل بعينه، وبكسر السين: ماءٌ بعينه، والرواية هنا بالفتح.

(٢) جاء في (الصحاح ـ شمل): «واشْتِمَالُ الصَّمَّاءِ: أن يُجَلِّل جَسَدَهُ كله بالكساء أو بالإزار».

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، وفي الاستسقاء وغيرهما، والترمذي في التفسير، ولفظه كما جاء في باب الاستسقاء في البخاري عن مسروق قال: «كنا عند عبد الله، فقال إن النبي ﷺ لما رأى من الناس=

ذلك بهم ، ونزلت سنةٌ حصَّت كلَّ شيءٍ[١] ، حتى دعا لهم النبي عليه الصلاة والسلام فارتفع ذلك عنهم ولم يتماد سبع سنين ، ورُوِي أن يوسف عليه السلام لما خرج ووصف هذا الترتيب للملِك وأَعجبه أَمْرُه ، قال له الملك ، قد أَسندت إِليك تولِّي هذا الأَمر في الأَطعمة هذه السنين المقبلة ، فكان هذا أَوَّل ما وَلِيَ يوسف .

وأَسند الأَكل إِلى السنين في قوله: ﴿يَأْكُلْنَ﴾ اتِّساعاً من حيث يُؤكل فيها ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[٢] ، وكما يقال: (نهارك بطالٌ وليلك قائم) ، وهذا كثير في كلام العرب[٣] ، ويحتمل أَن يُسَمَّى فعل الجدب وإِيباس البالات أَكلا ، وفي الحديث: «فأَصابتهم سنة حصَّت كل شيءٍ»[٤] وقال الأَعرابي في السَّنَة: (جَمَشت النَّجْمَ ، وأَلحبت اللَّحم ، وأَحجنت العظم)[٥] .

و﴿تُحْصِنُونَ﴾ معناه: تُحرزون وتخزنون ، قاله ابن عباس ، وهو مأْخوذ من الحصن ، وهو الحرز والملجأُ ، ومنه تحصُّن النساءِ لأَنه بمعنى التحرز[٦] .

وقوله تعالىٰ: ﴿يُغَاثُ﴾ جائز أَن يكون من الغيث ـ وهو قول ابن عباس ،

= إدباراً قال: اللهم سبْعاً كسبع يوسف ، فأخذتهم سنَة حصَّت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف ، وينظر أحدهم إلى السماءِ فيرى الدخان من الجوع ، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد ، إنك تأمر بطاعة الله وبصلةِ الرحِم ، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم ، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿عَآئِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ فالبطشة يوم بدر ، وقد مضت الدخان والبطشة واللِّزام وآية الروم».

(١) من قولهم: حصَّ الشيءَ: حَلَقه ، وحصَّ الشيءَ: أذهَبه. (المعجم الوسيط).

(٢) تكررت في الآيات (٦٧) من سورة يونس و(٨٦) من سورة النمل و(٦١) من سورة غافر.

(٣) هو من المجاز العقلي ، وأمثلته كثيرة في كلام العرب كما يقول ابن عطية ، ومنه قول الشاعر:

نَهَـارُكَ يَـا مَغْـرُورُ سَهْـوٌ وغَفْلَـةٌ ... ولَيْلُـكَ نَـوْمٌ والـردَى لَـكَ لازِمُ

فقد أسند الشاعر السهو والغفلة إلى النهار ، والنوم إلى الليل ، وذلك لأن السهو والغفلة يقعان في النهار ، والنوم يقع في الليل ، ولهذه الملابسة الزمانية ساغ الإسناد إلى زمان الحدث ، والعلاقة هي الزمانية.

(٤) هذا جزءٌ من الحديث السابق.

(٥) يقال: جَمَش نباتَ الأرض: حَصَدَه ، وجَمَش الشَّعْر: حَلَقَه ، والنجم هو النبات. فالمعنى: السَّنَةُ استأصلت النبات. ويقال: لحِبَ لحم فلان: نَحَل ، ويقال: حَجَن العُودَ: لواه ، فالمعنى أنها أذهبت اللحم وقوّست العظم.

(٦) ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ من الآية (٣٣) من سورة النور.



ومجاهد، وجمهور المفسرين ـ أَي: يُمْطرون، وجائز أَن يكون من (أَغاثهم الله) إِذا فرج عنهم، ومنه الغوث وهو الفرج.

وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم، ﴿يَعۡصِرُونَ﴾ بفتح الياءِ وكسر الصاد، وقرأَ حمزة، والكسائي ذلك بالتَّاءِ على المخاطبة، وقال جمهور المفسرين: هي من عَصْر النباتات كالزيتون والعنب والقصب والسمسم والفجل وجميع ما يُعصر، ومصرُ بلدُ عَصْر لأَشياءَ كثيرة، وروي أَنهم لم يعصروا شيئاً مدة الجدب، والحلْبُ منه لأَنه عصر للضرع، وقال أَبو عبيدة وغيره: ذلك مأْخوذ من العُصْرَة والعُصْر[1] وهو الملجأُ، ومنه قول أَبي زبيد في عثمان رضي الله عنه:

صـادِيـاً يَسْتَغِيـثُ غَيْـرَ مُغَـاثٍ ولقـد كـانَ عُصْـرَةَ المنجـود[2]

ومنه قول عدي بن زيد:

لَـوْ بِغَيْـرِ المـاءِ حَلْقـي شَـرِق كنْتُ كَالْغَصَّانِ بالماءِ اعْتصارِي[3]

ومنه قول ابن مقبل:

وصَـاحِبـي وَهْـوَهٌ مُسْتَـوْهِـلٌ زِعِـلٌ يحولُ بينَ حِمَارِ الْوَحْشِ والْعَصَر[4]

(١) بضم العين وسكون الصاد فيهما، يقال: جاء ولكن لم يُجئْ لِعُصْر، أي: لم يجئْ حين المجيءِ.

(٢) البيت لأبي زُبَيْد الطائي، والصادي: الشديد العطش، والجمع: صُدَاة. ومعنى «كان عُصْرَةَ المنجود»: كان ملجأً المكروب. قال في (اللسان): «العَصَر بالتحريك، والعُصْرُ والعُصْرَةُ: الملجأُ والمنجاة، وعَصَر بالشيءِ واعْتصَر به: لجأ إليه، وقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾: إنه من هذا، أي: ينجون من البلاء ويعتصمون بالخصب». وقد قيل: إن أبا زُبَيْد قال البيت في رثاءِ ابن أُخته الذي مات عطشاً في طريق مكة وليس في عثمان رضي الله عنه.

(٣) قال عَدِي بن زيد هذا البيت من قصيدة أنفذها إلى النعمان يذكره بطول عهده بالسجن ويرجوه العفو عنه، والاعتصار: أن يَغَصَّ الإنْسان بالطعام فيعتصر بالماء، وهو أن يشربه قليلاً قليلاً، ويقول: لو أني شرقت بغير الماءِ لكان في الماء نجاتي وإليه التجائي، فكيف أفعل وقد شرقت به؟ وأنت مائي، ولو كنت سجنت بأمر غيرك للجأت إليك فكيف وأنت ساجني؟.

(٤) صاحبه هنا هو فرسه، والفرسُ الوَهْوَهُ والوَهْوَاهُ هو النشيط الحديد الذي يكاد يُفلت من كل شيءٍ من شدة حرصه على السَّبق ومن نَزَقه، والوَهْوَه أيضاً الذي يُرَدِّد صوته في جزع، والمُسْتَوْهِل: الفَزِعُ النشيط، والزَّعِل: النشيط، والعَصَر: الملجأ، يصف فرسه بالنشاط والسرعة ويقول: إذا طارد فريسة بادرها ومنعها من أن تلجأ إلى ملجئها الذي تحتمي به، أو حال بينها وبين النجاة.



ومنه قول لبيد:

فَبَاتَ وأَسْرَى الْقَوْمِ آخِرَ لَيْلِهِمْ ... وما كان وَقَّافاً بِغَيْرِ مُعَصَّرِ(١)

أي: بغير ملتجإٍ، فالآية على معنى: ينجون بالعُصْرة.

وقرأ الأعرج، وعيسى، وجعفر بن محمد: [يُعْصَرُونَ] بضم الياءِ وفتح الصاد، وهذا مأخوذ من العصرة، أي: يؤتون بعصرة، ويحتمل أن يكون من: عَصَرت السحاب ماءَها عليهم، قال ابن المستنير: معناها: يُمْطَرون، وحكى النقاش أنه قُرِئ: [يُعَصِّرون] بضم الياءِ وكسر الصاد وشدها وجعلها من عصر البلل، وردَّ الطبري على من جعل اللفظة من العُصْرَة ردّاً كثيراً بغير حجة(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾.

في تضاعيف هذه الآية محذوفات يعطيها ظاهر الكلام ويدلُّ عليها، والمعنى هنا: فرجع الرسول إلى الملأ والملِك فقص عليهم مقالة يوسف، فرأى الملك وحاضروه نبل التعبير وحسن الرأي وتضمن الغيب في أمر العام الثامن، مع ما وصفه به الرسول من الصدق في المنامة المتقدمة، فعَظُم يوسف في نفس الملك، وقال: ﴿ائْتُونِي بِهِۦ﴾، فلما وصل الرسول في إخراجه إليه وقال: إن الملك قد أمر بأن تخرج ـ فقال له: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي الملك وقل له: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ ومقصد يوسف عليه السلام

---

(١) استشهد صاحب (اللسان) بالشطر الثاني من البيت، والرواية فيه: «وما كان وقَّافاً بدار مُعَصَّر»، وذكر صاحب التاج البيت كاملاً، والرواية فيه كرواية (اللسان). والبيت في الديوان من قصيدة قالها لبيد يذكر مَن فَقَد مِنْ قومه ومن سادات العرب، ويتأمل في سطوة الموت وضعف الإنسان أمامه، ومطلع هذه القصيدة:

أعَاذِلُ قُومي فاعْذُلي الآن أو ذَرِي ... فَلَسْتُ وإن أقْصَرْتِ عَنِّي بِمُقْصِرِ

والمُعَصَّر: بفتح الصاد المشددة: الملجأ والحرز، وقد نقل ابن عطية البيت عن الطبري بلفظ (بِغَيْر) وإلا فرواية الديوان هي (بدار) كما رواها التاج واللسان، والضمير في (بات) يعود على قَيْس بن جزء كما ذكر في الأبيات السابقة.

(٢) قال الطبري: «ذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه خلافُه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين».

إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي وينظر في أَمري ، هل سجنتُ بحق أَو بظلم؟ فرسم قصته بطرف منها إِذا وقع النظر عليه بان الأَمر كله ، ونَكَّب عن ذكر امرأَة العزيز حسن عشرة ورعايةً لزمام الملك العزيز له.

وقرأَ أَبو بكر عن عاصم ، وأَبو حيوة: [النُّسْوَة] بضم النون ، وقرأَ الباقون: ﴿ٱلنِّسْوَةِ﴾ بكسر النون ، وهما لغتان في تكسير (نساء) الذي هو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وقرأَت فرقة: [اللَّائي] بالياءِ ، وقرأَت فرقة: ﴿ٱلَّتِي﴾ بالتاءِ ، وكلاهما جمع (التي).

وكان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أَناةً وصبراً وطلباً لبراءَة الساحة ، وذلك أَنه ـ فيما رُوي ـ خشي أَن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أَمر ذنبه صفحاً ، فيراه الناس بتلك العين أَبداً ، ويقولون: هذا الذي راود امرأَة مولاه ، فأَراد يوسف عليه السلام أَن تبين براءَته وتتحقق منزلته من العِفَّة والخير وحينئذ يخرج للأَحظاءِ والمنزلة ، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «يرحم الله أَخي يوسف ، لقدكان صابراً حليماً ، ولو لبثْتُ في السجن لبثه لأَجبت الداعي ولم أَلتمس العذر حينئذ»[1] ، وروي نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك في كتاب التفسير من صحيح البخاري ، وليس لابن القاسم في الديوان غيره.

وهنا اعتراض ينبغي أَن ينفصل عنه ، وذلك أَن النبي ﷺ إِنما ذكر هذا الكلام على جهة المدح ليوسف ، فما باله هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك أَن النبي ﷺ إِنما أَخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأْي له جهة أَيضاً من الجودة ، أَي: لو كنت أَنا لبادرت بالخروج ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك ، وذلك أَن هذه القصص والنوازل إِنما هي معرضة ليقتدي بها الناس إِلى يوم القيامة ، فأَراد رسول الله ﷺ حمل

---

(١) أخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «يرحم الله يوسف ، إن كان لَذا أَناة حليماً ، لو كنت أنا المحبوس ثم أُرسل إلي لخرجت سريعاً». (الدر المنثور). وفي لفظ لأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر». (تفسير ابن كثير) ، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي ، ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾». (نقله القرطبي وابن كثير).



الناس على الأَحزم من الأُمور، وذلك أَن المتعمق في مثل هذه النازلة التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ربما ينتج له من ذلك البقاءُ في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإِن كان يوسف عليه السلام أَمِن مِنْ ذلك بعلمه من الله فغيره من الناس لا يأْمن ذلك، فالحالة التي ذهب إِليها النبي ﷺ بنفسه حالة حزم ومدح، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أَن يريد بالربِّ الله عزَّ وجلَّ، وفي الآية وعيد ـ على هذا ـ وتهديد، ويحتمل أَن يريد بالربِّ العزيزَ مولاه، ففي ذلك استشهادٌ به وتقريع له، والضمير في ﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾ للنسوة المذكورات لا للجنس لأَنها حالة توقيف على ذنب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾.

المعنى: فجمع الملِك النسوة وامرأَة العزيز معهن، وقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ الآية، أَيْ: أَيُّ شيءٍ كانت قصتكن؟ فهو استدعاءٌ منه أَن يعلمنه القصة، فجاوب النساءُ بجواب جيد تظهر منه براءَة أَنفسهن جملة، وأَعطين يوسف بعض براءَة، وذلك أَن الملِك لما قرَّر لهن أَنهن راودنه قلن ـ جواباً عن ذلك ـ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾، وقد يحتمل ـ على بعد ـ أَن يكون قولهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ في جهة يوسف عليه السلام، وقولُهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ ليس بإِبراءٍ تام، وإِنما كان الإِبراءُ التام وصف القصة على وجهها حتى يتقرر الخطأُ في جهتهنَّ[1]، ولو قلن: (ما علمنا عليه إِلا خيراً) لكان أَدخل في التبرئة، وقد بوَّب البخاري على هذه الأَلفاظ على أَنها تزكية، وأَدخل قول أُسامة بن زيد في حديث الإِفك: (أَهلك ولا نعلم إِلا خيراً)، وأَما مالك رحمه الله فلا يقنع بهذا في تزكية الشاهد، لأَنه ليس بإِثبات العدالة.

قال بعض المفسرين: فلما سمعت زوجة العزيز مقالتهن وحَيْدَتهن عن الوقوع في

---

(١) يريد: حتى يتقرر الخطأ إذ كان في جهتهن، وقد تقرر أنه لا خطأ فيها بشهادتهن.



الخزي حضرتها نِيّة وتحقيق[1] فقالت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾. و﴿حَصْحَصَ﴾ معناه: تبين بعد خفائه، كذا قال الخليل وغيره[2]، وقيل: مأخوذة من الحِصَّة، أي بانت حِصَّته من حِصَّة الباطل، ثم أقرت على نفسها بالمراودة، والتزمت الذنب، وأبرأت يوسف البراءة التامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال جماعة من أهل التأويل: هذه المقالة هي من يوسف عليه السلام، أي: ذلك لِيَعْلَمَ العزيز سيِّدي أني لم أخنه في أهله وهو غائب، ولِيَعْلَم أيضاً أن الله تعالىٰ لا يهدي كيد خائن ولا يرشد سعيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والهدى للكَيْد مستعار، بمعنى: لا يكلمه ولا يمضيه على طريق إصابة، ورُبَّ كيْدٍ مَهْدِيٍّ إذا كان مِن تَقِيٍّ في مصلحة.

واختلفت هذه الجماعة ـ فقال ابن جريج: هذه المقالة من يوسف عليه السلام هي متصلة بقوله للرسول: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وفي الكلام تقديم وتأخير، فالإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ـ على هذا التأويل ـ هي إلى بقائه في السجن والتماسه البراءة، أي: هذا لِيَعْلم سيدي أني لم أخنه، وقال بعضهم: إنما قال يوسف هذه المقالة حين قالت امرأة العزيز كلامها إلى قولها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، فالإشارة ـ على هذا ـ إلى إقرارها وصَنيع الله تعالىٰ فيه. وهذا يضعف لأنه يقتضي حضوره مع النسوة عند الملك، وبعد هذا يقول الملك: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾.

---

(١) خافت بعد إقرارهن ببراءة يوسف أن يشهدن عليها إن أنكرت فحضرتها نية الاعتراف، وكان ذلك لطفاً من الله بيوسف.

(٢) أصله: حَصَصَ، فقيل: حَصْحَصَ، كما قيل: كَبْكَبُو في كببوا، وكفكفوا في كففوا، وأصل الحَصِّ استئصال الشيء: حصَّ شَعْره إذا حلقه، قال أبو قيس بن الأسلت:

قَـدْ حَصَّتِ البَيْضَـةُ راسـي فَمَـا أَطْعَـمُ نَـومـاً غَيْـرَ تَهْجَـاع

ويقال: سنة حصَّاءُ أي جرداءُ لا خير فيها، قال جرير:

يَـأوي إِلَيْكُـم بـلا مَـنٍّ ولا جَحَـدِ مَـن سَـاقَـهُ السَّنَـةُ الحَصَّـاءُ والـذِّيب

وفي الحديث: «فأصابتهم سنةٌ حصَّت كلَّ شيءٍ»، أي: أتت على كل شيء.



وقالت فرقة من أَهل التأويل: هذه الآية من قول امرأة العزيز، وكلامها متصل، أَي: قَوْلي هذا وإقراري ليعلم يوسف أَني لم أَخنه في غيبتِه، بأَن أكذب عليه أَو أَرميه بذنب هو بريءٌ منه، والتقدير ـ على هذا التأويل ـ: توبتي وإقراري ليعلم أَني لم أَخنه بالغيب وأَن الله لا يهدي... وعلى أَن الكلام من يوسف يجيءُ التقدير: وليعلم أَن الله لا يهدي كيد الخائنين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾.

هذه أَيضاً مختلف فيها ـ هل هي من كلام يوسف أَم من كلام المرأَة، حسب التي قبلها؟

فمن قال: «من كلام يوسف» روى في ذلك عن أنس بن مالك أَن رسول الله ﷺ قال: (لما قال يوسف: ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ قال له جبريل: «ولا حين هممت وحَلَلْت سراويلك»؟)[1]، وقال نحوه ابن عباس، وابن جبير، وعكرمة، والضحاك. وروي أَن المرأَة قالت له ذلك، قاله السدي، ورُوي أَن يوسف تذكَّر من تلقائه ما كان همَّ به فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً.

ومن قال: «إن المرأَة قالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾» فوجه كلامها الاعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر من الشهوات، كأَنها قالت: وما هذا ببدع ولا ذلك بنكير على البشر فأُبَرِّىءُ أَنا منه نفسي، والنفوس أَمارات بالسوءِ مائلة إليه.

و[أَمَّارَةٌ] بناءُ مبالغة، و[ما] في قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ﴾ مصدرية، هذا قول الجمهور فيها، وهو ـ على هذا ـ استثناءٌ منقطع، أَي: إِلاَّ رحمة رَبِّي[2]. ويجوز أَن تكون بمعنى

---

(١) أخرج الحاكم في تاريخه، وابن مردويه، والديلمي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، قال: لما قالها يوسف عليه السلام، قال له جبريل عليه السلام: يا يوسف اذكر هَمَّك، قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾.

(٢) قال الفراء في «معاني القرآن»: ، مثله: ﴿إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾، ومثله في سورة يسٓ: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا﴾، إنما هو ـ والله أعلم ـ إلا أن يُرحموا، و«أنْ» تضارع «ما» إذا كانتا في معنى مصدر.

=



«مَنْ»، وهذا على أن تكون [ٱلنَّفْس] يراد بها النفوس، إذ النفس تجري صفة لمن يعقل كالعين والسمع، كذا قال أبو علي، فتقدير الآية: إلاَّ النفوس التي يرحمها الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذاً (ٱلنَّفْس) اسم جنس، فصح أن تقع «ما» مكان «مَنْ» إذ هي كذلك في صفات من يعقل وفي أجناسه، وهو نص في كلام المبرد، وهو ـ عندي ـ معنى كلام سيبويه، وهو مذهب أبي عليٍّ، ذكره في «البغداديات».

ويجوز أن تكون (ما) ظرفية، والمعنى: إن النفس لأَمَّارة بالسوءِ إلا مدة رحمة الله العبد وذهابه عن اشتهاءِ المعاصي.

ثم ترجَّى في آخر الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

المعنى: إن الملك لما تبينت له براءَة يوسف مما نسب إليه، وتحقق في القصة أَمانته، وفهم أَيضاً صبره وجَلَده ـ عظمت منزلته عنده، وتيقَّن حسن خلاله فقال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾. وهذا الذي أَمَّ يوسف عليه السلام ـ بتَثَبُّتِهِ في السِّجْن ـ أن يرتقي إلى أَعلى المنازل، فتأَمل أن الملك قال أَولاً ـ حين تحقق علمه ـ: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ فقط، فلما فعل يوسف ما فعل، فظهرت أَمانته وصبره وعلو همته وجودة نظره قال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾، فلما جاءَه وكلمه قال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، فدل ذلك على أنه رأَى من كلامه وحسن منطقه ما صدق به الخبر أَو أَرْبَى عليه، إذ المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه، ثم لما زاول الأعمال مشى القُدَمِيَّة[1] حتى ولِيَ خطة العزيز.

= وقال أبو حيَّان في «البحر المحيط»: والظَّاهر أن ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ استثناءٌ متصل من قوله: ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ لأنه أراد الجنس بقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾، فكأنه قال: إلا النفس التي رحمها ربِّي فلا تأمر بالسوءِ، فيكون استثناءً من الضمير المستكن في: ﴿أمارة﴾.

(١) أي: تقدم في الشرف والفضل، ولم يتأخر عن غيره في الإفضال على الناس. وروي عن ابن عباس=



و(أَمِينٌ) من الأَمانة، وقالت فرقة: هو بمعنى آمِنٌ. وهذا ضعيف، لأَنه يخرج من نمط الكلام، وينحط إِكرام يوسف كثيراً.

ويُروى أَن الملِك لما أَدنى يوسف قال له: إِني أُشاركك في كل شيءٍ إلا أَني أُحب أَلا تشركني في أَهلي، وأَلا تأْكل عندي[1]، فقال له يوسف: أَتَأْنف أَن آكل معك؟ أَنا أَحق أَن آنف، أَنا ابن إِبراهيم الخليل، وابن إِسحاق الذبيح[2]، وابن يعقوب الصديق، وفي هذا الحديث بُعْدٌ وضعف. وقد قال ابن ميسرة: إِنما جرى هذا في أَول أَمره، كان يأْكل مع العزيز، فلما جرت قصة المرأَة قالت للعزيز: أَتدع هذا يُؤَاكلك؟ فقال له: اذهب فكل مع العبيد، فأَنف وقال ما تقدم. أَما إِن الظاهر من قصته وقت محاورة الملك أَنه كان على عبودية، وإِلا كان اللائق به أَن يَتَنَحَّى بنفسه عن عمل الكافر، لأَن القوم كانوا أَهل أَوثان، ومحاورة يوسف لصاحبي السجن تقضي بذلك.

وسمَّى الله تعالىٰ فرعون مصر ملكاً إِذ هي حكاية اسم مضى حكمه وتصرم زمنه، ولو كان حيّاً لكان حكماً له إِذا قيل لكافر: «ملك أَو أَمير»، ولهذا كتب النبي ﷺ إلى هرقل فقال: «عظيم الروم»، ولم يقل: ملِكاً أَو أَميراً، لأَن ذلك حكم، والحق أَن يسلم ويسلموا، وأَما كونه عظيمهم فتلك صفة لا تفارقه كيفما تقلب، ولو كتب له النبي ﷺ: «أَمير الروم» لتمسك بتلك الحجة على نحو تمسك زياد في قوله: «شهد ـ والله ـ لي أَبو الحسن».

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. فهم يوسف عليه السلام من الملك أَنه على تصريفه والاستعانة بنظره في المُلْك، فأَلْقى يده في الفعل الذي يمكنه فيه المَعْدِلة، ويترتب له الإِحسان إِلى من يجب، ووضع الحق على أَهله وعند أَهله.

قال بعض أَهل التأْويل: في هذه الآية ما يُبيح للرجل الفاضل أَن يعمل للرجل الفاجر بشرط أَن يعلم أَنه يفوض إِليه في فِعْل ما لا يعارض فيه، فيصلح منه ما يشاءُ، وأَما إِن كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز له ذلك.

= رضي الله عنهما أنه قال: «إن ابن أبي العاص مشى القُدَميَّة، وإن ابن الزُّبير لوى ذنبه». (عن اللسان).

(١) في إحدى النسخ: «وألا يأكل معي عبدي»، والظاهر أن يوسف عليه السلام كان إلى هذا الوقت عبداً.

(٢) المعروف والثابت أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، ولعل هذا هو الذي جعل المؤلف يقول: «وفي هذا الحديث بُعْدٌ وضعف».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وطلب يوسف للعمل إنما هي حسبة منه عليه السلام لرغبته في أَن يقع العدل، ونحو هذا هو دخول أَبي بكر الصديق في الخلافة، مع نهيه المستشير له من الأَنصار أَن يتأمر على اثنين، الحديث بكماله. فجائز للفاضل أَن يعمل وأَن يطلب العمل إذا رأَى أَلا عِوَض منه[١]، وجائز أَيضاً للمرءِ أَن يثني على نفسه بالحق إذا جُهِلَ أَمْرُهُ[٢].

والخزائن لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره. و﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان تعم[٣] وجوه التثقيف والحيطة لا خلل معهما لعامل، وقد خصص الناس بهاتين الصفتين أَشياءَ مثل قولهم: حفيظ بالحساب عليم بالأَلسن، وقول بعضهم: حفيظ لما استودعتني عليم بسني الجوع، وهذا كله تخصيص لا وجه له، وإنما أَراد باتصافه أَن يعرف الملك بالوجه الذي به يستحق الكون على خزائن الأَرض، فاتصف بأَنه يحفظ المُجْبَى من كل جهة تحتاج إلى الحفظ، ويعلم التناول أَجمع، ورُوي عن مالك بن أَنس أَنه قال: «مصر خزانة الأَرض»، واحتج بهذه الآية. وقوله: ﴿خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يريد أَرض مصر إذ لم تكن مملكة فرعون إلا بها فقط، ويؤكد أَن تسمى خزانة الأَرض بصيتها في بلاد الأَرض وتوسطها، فمنها ينتقل الناس إلى أَقطار الأَرض، وهي محل كل جالب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ الآية. الإشارة بـ[ذَٰلِكَ] إلى ما تقدم من جميل صنع الله به، أَي: ولهذه الأَفعال المنصوصة درَّجناه في الرتب ونقلناه فمكَّنا له في الأَرض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فروي أَن العزيز مات في تلك الليالي، وقال ابن إسحاق: بل عزله الملك، ثم مات

---

(١) وأيضاً فإن يوسف سأل الولاية بالحفظ والعلم فقال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، ولم يطلبها بالحسب ولا بالنسب، ولم يقل: «إنِّي حسيب نسيب». ومع ذلك فقد روى ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أَخَّر ذلك عنه سنة).

(٢) قال الماوردي: «وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصلة، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع فيما سواه».

(٣) هكذا في جميع النسخ المخطوطة.



قطفير فولأه الملك مكانه وزوجه زوجته، فلما دخلت عليه عروساً قال لها: أَليس هذا خيراً مما كنت أَردت؟ فقالت له: أَيها الصديق، كنتَ في غاية الجمال وكنتُ شابة عذراءَ، وكان زوجي لا يطأُ، فغلبتني نفسي في حبك، فدخل يوسف بها فوجدها بكراً، وولدت له ولدين، ورُوي أَن الملِك عزل العزيز وَولاّه موضعه، ثم عظم مُلْك يوسف وتغلب على حال الملك أَجمع، قال مجاهد: وأَسلم الملِك آخر أَمره، ودَرَس أَمْرُ العزيز وذهبت دنياه ومات وافتقرت زوجته وزمنت وشاخت، فلما كان في بعض الأَيام لقيت يوسف في طريق والجنود حوله ووراءَه، وعلى رأسه بنود مكتوب عليها ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(١)، فصاحت به وقالت: سبحان من أَعزَّ العبيد بالطاعة، وأَذل الأَرباب بالمعصية، فعرفها، وقالت له: تعطف علي وارزقني شيئاً فدعاها وكلمها، وأَشفق لحالها، ودعا الله تعالىٰ فرَدَّ عليها جمالها وتزوجها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورُوي في نحو هذا من القصص ما لا يوقف على صحته، ويطول الكلام بسوقه.

وقرأَ الجمهور: ﴿حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ على الإِخبار عن يوسف، وقرأَ ابن كثير وحده: [حيث نشاء] بالنون على ضمير المتكلم، أَي حيث يشاءُ الله من تصرف يوسف على اختلاف تصرفه، وحكى أَبو حاتم هذه القراءَة عن الحسن، وشيبة، ونافع، وأَبي جعفر ـ بخلاف عن الثلاثة المدنيين ـ قال أَبو علي: إِمَّا أَن يكون تقدير هذه القراءَة: «حيث يشاءُ من المحاريب والمتعبدات»، وأَحوالُ الطاعات قُرَبٌ يريدها الله تبارك وتعالىٰ ويشاؤُها، وإِمَّا أَن يكون معناها: «حيث يشاءُ يوسف»، لكن أَضاف الله عزَّ وجلَّ المشيئة التي ليوسف إِليه من حيث هو عبد من عبيده، وكانت مشيئته بقوة الله تعالىٰ وقدرته، كما قال: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله من أَبي علي نزعة اعتزالية وتحفُّظٌ من أَن أَفعال العباد من فاعلين، فتأَمله.

واللام في قوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ يجوز أَن تكون على حدّ التي في قوله تعالىٰ:

---

(١) الآية (١٠٨) من سورة (يوسف).

(٢) من الآية (١٧) من سورة (الأنفال).

﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾[١]، و﴿ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾[٢] وقوله: (يَتَبَوَّأُ) في موضع نصب على الحال، و﴿ حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ نصب على الظرف، أو على المفعول به، كما قال الشَّمَّاخ:

. . . . حيثُ تُكْوَى النَّواحِزُ[٣]

وباقي الآية بيِّن.

ولما تقدم في هذه الآية أن الإحسان من العبد والجري على طريق الحق لا يضيع عند الله، ولا بُدَّ من حُسْن عاقبته في الدنيا ـ أعقَب ذلك بأن حال الآخرة أحمد، وأحرى أن يُجعل غرضاً ومقصداً، وهذا هو الذي ينتزع من الآية بحسب التقيد بين الإيمان والتقوى من الناس، وفيها ـ مع ذلك ـ إشارة إلى أن حاله من الآخرة خير من حاله العظيمة في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قال السدي وغيره: سبب مجيئهم أن المجاعة التي أنذر بها يوسف أصابت البلاد التي كان بها يعقوب، ورُوي أنه كان في العربات من أرض فلسطين بغور الشام، وقيل: كان بالأدلاج من ناحية الشعب[٤]، وكان صاحب بادية، له إبل وشاءٌ، فأصابهم الجوع، وكان أهل مصر قد استعدوا وادخروا من السنين الخصيبة، فكان الناس

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٧٢) من سورة (النمل): ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾.

(٢) من الآية (٤٣) من سورة (يوسف).

(٣) هذا جزءٌ من بيت، وهو بتمامه:

وَجَـلاهَـا عَـنِ ذِي الأَرَاكَـةِ عَـامِـرٌ ... أخو الخُضْرِ يَرْمي حيثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ

ذو الأراكة: موضع من اليمامة لبني عجل مشهور بكثرة نخيله. وجلاها: أخرجها وأبعدها. وعامر أخو الحضر: قانص مشهور. والحُضر: سرعة جري الفرس، ومثله الإحْضار، ولكن الحُضْر هو الاسم، والإحضار هو المصدر. وعامرٌ هذا كان سريع العدو حتى قيل عنه: أخو الحُضْر. والنَّواحِز: الإبل التي بها نحاز، والنُّحاز داءٌ يأخذ الدواب والإبل في رئاتها فتَسْعُل سعالاً شديداً، ودواؤها هو الكي في جنوبها أو أُصول أعناقها. وقد روى: النَّحَائِزُ، والحُزَاحِزُ والجَزَائِزُ.

(٤) اختلفت النسخ في كلمتي (العربات) و(الأدلاج)، واخترنا ما يتفق مع كتب التفسير المحققة.



يمتارون من عند يوسف وهو في رتبة العزيز المتقدم، وكان لا يعطي الوارد أكثر من حمل بعير، يُسوِّي بين الناس، فلما ورد إخوته عرفهم يوسف عليه السلام ولم يعرفوه هم لبعد العهد وتغير سنه، ولم يقع لهم ـ بسبب مُلكه ولسانه القبطي ـ ظن عليه، ورُوي في بعض القصص أَنه لما عرفهم أَراد أَن يُخبروه بجميع أَمرهم، فباحثهم بأَن قال لهم (بترجمان): أَظنكم جواسيس، فاحتاجوا حينئذ إلى التعريف بأَنفسهم فقالوا: نحن أَبناءُ رجل صِدِّيق، وكنا اثني عشر، ذهب واحد منا في البرية، وبقي أَصغرنا عند أَبينا، وجئنا نحن للميرة، وسقنا بعير الباقي منا، وكانوا عشرة ولهم أَحد عشر بعيراً، فقال لهم يوسف: ولم تخلف أَخوكم؟ قالوا: لمحبة أَبينا فيه، قال: فائتوني بهذا الأَخ حتى أَعلم حقيقة قولكم، وأَرى: لم أَحبه أَبوكم أَكثر منكم إن كنتم صادقين. ورُوي في القصص أَنهم وردوا مصر، واستأْذنوا على العزيز وانتسبوا في الاستئذان، فعرفهم وأَمر بإنزالهم، وأَدخلهم في ثاني يوم على هيئة عظيمة لمُلكه وأُبَّهة شيقة، ورُوي أَنه كان متلثماً أَبداً ستراً لجماله، وأَنه كان يأْخذ الصُّواع فينقره، ويفهم من طنينه صدق ما يُحَدَّث به أَو كذبه، فسُئِلوا عن أَخبارهم، فكلما صدقوا قال لهم يوسف: صدقتم، فلما قالوا: وكان لنا أَخ أَكله الذئب طنَّ يوسف الصواع وقال: كذبتم، ثم تغير لهم وقال: أُراكم جواسيس، وكلفهم سوق الأَخ الباقي ليظهر صدقهم. وفي ذلك قصص طويل جاءَت الإشارة إليه في القرآن وجيزة.

والجهاز: ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل، وكذلك جهاز العروس وجهاز الميت.

وقول يوسف عليه السلام: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ الآية. يرغبهم في نفسه آخراً ويؤنسهم ويستميلهم، و[ٱلْمُنزِلِينَ]: يعني المُضيفين في قُطره ووقته. والجهاز المشار إليه: الطعام الذي كان حمله لهم، ثم توعدهم إن لم يجيئوا بالأَخ بأَنه لا يكيل لهم عنده في المستأْنف، وأَمرهم أَلا يقربوا له بلداً ولا طاعة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ نهيٌ لفظاً ومعنى، ويجوز أَن يكون لفظه الخبر ومعناه النهي، وتحذف إحدى النونين، كما قُرِىءَ: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[1] بكسر النون، وهذا خبر لا غير، وخلط النحاس في هذا الموضع، وقال مالك رحمه الله: هذه الآية ـ وما يليها ـ تقتضي أَن كيل الطعام على البائع، وكذلك هي الرواية في الشركة والتولية أَنها بمنزلة البيع، والروايةُ في القرض أَن الكيل على

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٥٤) من سورة (الحِجْر): ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.



المستقرض، ورُوي أنه حبس منهم شمعون رهينة حتى يجيئوهُ ببنيامين، قاله السدي، ورُوي أنه لم يحبس منهم أحداً، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: (كان يوسف يلقي حصاة في إناءِ فضة مخوص بالذهب فيطنُّ، فيقول لهم: إن هذا الإناءَ يخبرني أن لكم أباً شيخاً).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنها حيلة وإيهامٌ لهم، ورُوي أن ذلك الإناءَ به كان يكيل الطعام إظهاراً لعزته بحسب غلائه في تلك المدة، ورُوي أن يوسف عليه السلام استوفى في تلك السنين أموال الناس ثم أملاكهم، فمن هناك ليس لأحد في أرض مصر ومزارعها ملك، وظاهر كل ما فعله يوسف معهم أنه بوحي وأمر، وإلا فكان برُّ يعقوب يقتضي أن يبادر إليه ويستدعيه، لكن الله تبارك وتعالىٰ أعلمه بما يصنع ليكمل أجر يعقوب ومحنته وتتفسر الرؤيا الأولى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾.

تقدم معنى «المراودة»، أي: سنفائل[1] أباه في أن يتركه يأتي معنا إليك، ثم شدَّدوا هذه المقالة بأن التزموها لهم في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾، وأراد يوسف عليه السلام المبالغة في استمالتهم بأن ردَّ مال كل واحد منهم في رحله بين طعامه، وأمر بذلك فتيانه.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [لِفِتْيَتِهِ]، وقرأ حمزة، والكسائي: [لِفِتْيَانِهِ]، واختلف عن عاصم، ففِتْيَان للكثرة ـ على مراعاة المأمورين، وفِتْيَة للقِلَّة ـ على مراعاة المتناولين وهم الخدمة ـ[2] ويكون هذا الوصف للحر وللعبد، وفي

(١) فاءله: لعب معه لعبة الفئال، وهي أن يخبىء فريق شيئاً في التراب ثم يقسمه قسمين، ويسأل الفريق الآخر: في أيِّهما يكون الشيءُ؟

(٢) في صيغة الكثرة يكون مثل «غلمان» و«صبيان»، وفي صيغة القِلَّة يكون مثل «غِلْمَة» و«صِبْيَة»، فإن قيل: وزن «فَتَى» فَعَل، و«فَعَل» لا يُجمع على «فِعْلَة»، قيل: لما وافق «غلاماً» في الجمع الكثير فقيل=



مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «وقال لفتيانه وهو يكايلهم».

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ يريد: لعلهم يعرفون لها يداً أَو تكرمة يرون حقها فيرغبون فينا فلعلهم يرجعون حينئذ، وأَما مَيْزُ البضاعة فلا يقال فيه: «لَعَلَّ»، وقيل: قصد يوسف بِرَدِّ البضاعة أَن يتحرجوا من أَخذ الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن، وهذا ضعيف من وجوه، وسرورُهم بالبضاعة وقولهم: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ يكشف أَن يوسف عليه السلام لم يقصد هذا، وإنما قصد أَن يستميلهم ويَصِلَهُم فيرغبهم في نفسه كالذي كان. وخصَّ البضاعة دون أَن يعطيهم غيرها من الأَموال لأَنها أَوقع في نفوسهم، إِذْ يعرفون حلَّها، وماله هو إِنما كان عندهم مالاً مجهول الحال، غايته أَن يُسْتَجَاز على نحو استجازتهم قبول الميرة، ويظهر أَن ما فعل يوسف من صلتهم وجبرهم في تلك الشدة كان واجباً عليه، إِذ هو ملك عدل، وهم أَهل إِيمان ونبوة. وقيل: علم عدم البضاعة والدراهم عند أَبيه فردَّ البضاعة إِليهم لئلا يمنعهم العدم من الإِنصراف إِليه، وقيل: جعلها توطئة لجعل السقاية في رحل أَخيه بعد ذلك ليُبَيِّن أَنه لم يسرق لمن يتأَمل القصة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر من القصة أَنه إِنما أَراد الاستئلاف وصلة الرحم.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿نَكْتَلْ﴾ بالنون على مراعاة: ﴿مُنِعَ مِنَّا﴾، ويقويه: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ ﴿وَنَزْدَادُ﴾، وقرأَ حمزة، والكسائي: [يَكْتَلْ] بالياءِ، أَي: يكتل يامين كما اكْتَلْنَا، وأَصل «نَكْتَلْ»: نَكْتَيِل، وزنه نَفْتَعِل[١]. وقولهم: ﴿مُنِعَ مِنَّا﴾ ظاهره أَنهم أَشاروا إِلى قوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ فهو مَنْعٌ في المستأْنف[٢]، وقيل: أَشاروا إِلى بعير يامين الذي لم يَمْتر، والأَول أَرجح، ثم تضمنوا له حفظه وحيطته.

= فيه «فتيان» جمعوا بينهما في القليل فقيل «فِتْيَة» ليوافقوا بينهما. قاله ابن خالويه في كتابه: «الحجة في القراءَات السبع».

(١) فاستثقلوا الكسرة على الياءِ فحذفت الكسرة، فانقلبت الياءُ أَلِفاً لانفتاح ما قبلها، فالتقى ساكنان فحذفت لالتقاءِ الساكنين.

(٢) في بعض النسخ: «فهو خوف من المستأنف»، وكان خوفهم من المنع في المستأنف حقيقة لأنهم قد كِيلَ لهم بالفعل وجاؤوا أباهم بالميرة، لكن لما أُنذروا بالمنع قالوا: (مُنِعَ).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿هَلْ﴾ توقيف وتقرير، وتألم يعقوب عليه السلام من فرقة يامين، ولم يصرح بمنعهم من حَمْله لِمَا رَأَى في ذلك من المصلحة، لكنه أَعلمهم بقلة طمأنينته إِليهم، وأَنه يخاف عليه من كيدهم، ولكن ظاهر أَمرهم أَنهم كانوا نبُّوا وانتقلت حالُهم فلم يخف مثل ما خاف على يوسف من قبل، لكن أَعْلَم بأَن في نفسه شيئاً ثم استسلم لله تعالىٰ، بخلاف عبارته في قصة يوسف.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [خَيْرُ حِفْظاً]، وقرأَ حمزة، والكسائي وحفص ـ عن عاصم ـ: ﴿خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾، ونصب ذلك ـ في القراءَتين ـ على التمييز، وقال الزجاج: يجوز أَن ينصب ﴿حَٰفِظًا﴾ على الحال، وضعف ذلك أَبو علي الفارسي، لأَنها حال لا بُدَّ للكلام والمعنى منها، وذلك بخلاف شرط الحال، وإِنما المعنى أَن حافظ الله خير من حافظكم، ومن قرأَ: [حِفْظاً] فهو مع قولهم: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾، ومن قرأَ: ﴿حَٰفِظًا﴾ فهو مع قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1]. فاستسلم يعقوب عليه السلام لله وتوكل عليه. قال أَبو عمرو الداني: قرأَ ابن مسعود: [فالله خيرُ حافظ وهو خير الحافظين].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا بُعْدٌ.

وقوله: ﴿فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ سمَّى المشدود المربوط بجملته متاعاً فلذلك حَسُن الفتح فيه، وقرأَ جمهور الناس: ﴿رُدَّتْ﴾ بضم الراءِ على اللغة الفاشية عند العرب، وتليها لغة من يُشِمُّ، وتليها لغة من يكسر، وقرأَ علقمة، ويحيى بن وثاب: [رِدَّت]

---

(١) قال ابن خالويه: «كان الأصل الإضافة، فلما حذفت خَلَفَها التنوين، فإن قيل: فما الفرق بين قولهم: «زيدٌ أَفْرَهُ عبدٍ» بالخفض، و«زيدٌ أَفْرَهُ عبداً» بالنصب؟ فقُلْ: إذا خفضوا فالفارهُ هو العبد ومَدْحَته في ذاته، وإذا نصبوا فالعبد غير زيد، ومعناه: زيد أفرهكم عبداً أو أَفْرَهُ عبداً من غيره، فهذا فرقانٌ بيِّن». (الحجة ١٩٧).



بكسر الراءِ على لغة من يكسر، وهي في بني ضبَّة، قال أَبو الفتح: وأَما المعْتَلُّ نحو قِيلَ وبِيعَ فالفاشي فيه الكسر، ثم الإِشمام، ثم الضم، فيقولون: قُولَ وبُوعَ، وأَنشد ثعلب:

. . . . وقُــولَ لا أَهْــلَ لَــهُ ولاَ مَــالْ[1]

قال الزجاج: من قرأَ: [رِدَّت] بكسر الراءِ جعلها منقولة من الدال، كما فعل في قيل وبيع لِتَدُلَّ على أَن أَصل الدال الكسرة.

وقوله: ﴿مَا نَبْغِي﴾ يحتمل أَن تكون [مَا] استفهاماً، قاله قتادة، و[نَبْغِي] من البُغْيَة، أَي: ما نطلب بعد هذه التكرمة؟ هذا مالُنَا رُدَّ إِلينا مع مِيرتنا. قال الزجاج: ويحتمل أَن تكون [مَا] نافية، أَي: ما بقي لنا ما نطلب، ويحتمل أَيضاً أَن تكون نافية و[نَبْغي] من البَغْي، أَي: ما تَعَدَّيْنَا فَكَذَبْنَا على هذا الملِك ولا في وصف إِجماله وإِكرامه، هذه البضاعة مردودة. وقرأَ أَبو حيوة: [ما تبغي] بالتاء على مخاطبة يعقوب، وهي بمعنى: ما تريد؟ وما تطلب؟ قال المهدوي: ورِوتها عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ.

وقرأَت فرقة: ﴿وَنَمِيرُ﴾ بفتح النون، من: مار يميرُ إِذا جلب الخير، ومن ذلك قول الشاعر:

بَعَثْتُكَ مَـائِـراً فَمَكَثْـتَ حَـوْلاً مَتى يَـأْتي غِيـاثُـكَ مـنْ تُغِيثُ؟[2]

وقرأَت عائشة رضي الله عنها: [ونُميرُ] بضم النون، وهي من قراءَة أَبي عبد الرحمن السُّلَمي، وعلى هذا يقال: مار وأَمَارَ بمعنى.

وقولهم: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يريدون بعير أَخيهم، إِذْ كان يوسف إِنما حمَّل لهم عشرة أَبعرة ولم يحمل الحادي عشر لغيبة صاحبه، وقال مجاهد: ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أَراد: كيل حمار، قال: وبعض العرب يقول للحمار: بعير. وهذا شاذ.

---

(١) هذا عجز بيت، أورده في (اللسان ـ قول)، و(المنصف ١ـ٢٥٠)، و(المحتسب ١ـ٣٤٥)، وهو بتمامه:

وابْتُــذِلَــتْ غَضْبَــى وأُمُّ الــرِّحَــالْ وقُــولَ لا أَهْــلَ لَــهُ ولا مَــالْ

وفي (اللسان): «وابتدأت» بدلا من و«ابْتُذِلَتْ». وقال ابن جني في «المحتسب»: «وأظنه عن أحمد بن يحيى».

(٢) يقال: مارَ أولاده وأَهْله يَميرهُم مَيْراً فهو مائِرٌ، فالمائر: اسم فاعل، والمِيرَة: الطعام يأتي به الإنسان، وهم يمتارون لأنفسهم، ويُميرون غيرهم، والمَيَّار: جالب الميرة، والمُيَّار: جمع مائر.



وقولهم: ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ تقرير بغير ألف، أي: أذلك كيلٌ يسيرٌ في مثل هذا العام فيهمل أمره؟ وقيل: معناه: يسير على يوسف أن يعطيه، وقال الحسن البصري: وقد كان يوسف وعدهم أن يزيدهم حمل بعير بغير ثمن، وقال السدي: معنى ذلك: كيل يسير أي سريع لا نحبس فيه ولا نمطل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأنهم ـ على هذا ـ آنسوه بقرب العودة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

أراد يعقوب عليه السلام أن يتوثق منهم، والمَوْثِقُ «مَفْعَل» من الوثاقة، فلما عاهدوه أشهد الله بينه وبينهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾، والوكيل: القيِّم الحافظ.

وقرأ ابن كثير: [تُؤْتُونِي] بياءٍ في الوصل والوقف، ورُوِي عن نافع أنه وصل بياءٍ ووقف دونها، والباقون تركوا الياءَ في الوجهين.

وقوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾، قيل: خشي عليهم العين لكونهم أحد عشر لرجل واحد، وكانوا أهل جَمال وبسطة، قاله ابن عباس، والضحاك، وقتادة وغيرهم. والعين حقٌّ، وقد قال رسول الله ﷺ: (إنَّ العين لتُدخِل الرجل القبر، والجمل القِدْر)[1]. وفي تعوذه عليه الصلاة والسلام: (أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، وكل عين لامة)[2]، وقيل: خشي أن يُسْتَراب بهم لقول يوسف قبْلُ: «أنتم جواسيس»، ويضعف

---

(١) أخرجه ابن عديّ في الكامل، وأبو نعيم في الحلية عن جابر، وابن عديّ في الكامل عن أبي ذر، ولفظه في «الجامع الصغير»: (العين تدخل الرجل القبر، وتدخل الجمل القدر). ورمز له الإمام السيوطي بالصحة.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في الطب، وكذلك ابن ماجه أخرجه في الطب، والإمام أحمد في مسنده (١ـ٢٣٦، ٢٧٠)، ولفظه فيه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يُعَوِّذ حَسَناً وحُسَيْناً يقول: (أُعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة)، وكان يقول: (كان إبراهيم أبي يُعَوِّذ بها إسماعيل وإسحاق).

هذا ظهورهم قبْلُ بمصر، وقيل: طمع بافتراقهم أَن يتسمّعوا ويتطلعوا خبر يوسف، وهذا ضعيف يردُّه ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ فإن ذلك لا يتركب على هذا المقصد.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ لفظ عام لجميع وجوه الغلبة والقسر، والمعنى: تعمكم الغلبة من جميع الجهات حتى لا تكون لكم حيلة ولا وجه تخلُّص، وقال مجاهد: المعنى: إلا أَن تهلكوا جميعاً، وقال قتادة: إلاَّ أَلاَّ تطيقوا ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يرجحه لفظ الآية.

وانظر أَن يعقوب عليه السلام قد توثق في هذه القصة، وأَشهد الله تعالىٰ، ووصَّى بنيه، وأَخبر بعد ذلك بتوكله، فهذا توكل مع تسبب، وهو توكل جميع المؤمنين إلا من شذَّ في رفض السعي، وقنع بالماءِ وبقل البرية ونحوه، فتلك غاية التوكل، وعليها بعض الأَنبياءِ عليهم السلام، والشارعون منهم مثبتون سُنن التسبب الجائز، وما تجاوز ذلك من الإِلقاءِ باليد مختلف في جوازه، وقد فضله بعض المجيزين له، ولا أَقول بذلك، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

رُوي أَنهم لما ودعوا أَباهم قال لهم: «بلغوا ملك مصر سلامي، وقولوا له: إن أَبانا يصلي عليك، ويدعو لك، ويشكر صنيعك معنا». وفي كتاب أَبي منصور المهراني أَنه خاطبه بكتاب قرىءَ على يوسف فبكى.

وقوله: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ بمثابة قوله: لم يكن في ذلك دفع قَدَر الله، بل كان أَرَباً ليوسف قضاه، وطيباً لنفسه تمسك به وأَمر بحسبه، فجواب [لَمَّا] في معنى قوله: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[1]،

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «وفيه حجة لمن زعم أن [لَمّا] حرف وُجوب لوجوب لا ظرف زمان بمعنى (حين)، إذ لو كانت ظرف زمان ما جاز أن تكون معمولة لِمَا بعد (ما) النافية، لا يجوز: «حين قام زيد=



و﴿ إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناءٌ ليس من الأول، والحاجة هي أن يكون طيب النفس بدخولهم من أبواب متفرقة خوف العين، قال مجاهد: الحاجة: خيفة العين، وقاله ابن إسحاق، وفي عبارتهما تجوز، وفي نظير هذا الفعل أن النبي ﷺ سدَّ كوَّة في قبرٍ بحجر وقال: (إن هذا لا يغني شيئاً ولكنه تطْيِيبٌ لنفس الحي)[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قوله ـ عندي ـ: ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ معناه: ما يرُدُّ عنهم قدراً، لأنه لو قضى أن تصيبهم عين لأصابتهم مفترقين أو مجتمعين، وإنما طمع يعقوب أن تصادف وصيتُه قَدَرَ السلامة فوصَّى، وقضى ـ بذلك ـ حاجة نفسه في أن يتنعَّم برجائه أن تصادف وصيتُه القدر في سلامتهم.

ثم أثنى الله عزَّ وجلَّ على يعقوب بأنه لقن ماعلمه الله من هذا المعنى، واندرج غير ذلك في العموم، وقال: إن أكثر الناس ليس كذلك، وقيل: معناه: إنه لعامل بما علمناه، قاله قتادة. وقال سفيان: من لا يعمل لا يكون عالماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يعطيه اللفظ، أما إنه صحيح في نفسه يرجِّحه المعنى وما تقتضيه منزلة يعقوب عليه السلام، قال أبو حاتم: قرأ الأعمش: [لذو علم مما علمناه]. ويحتمل أن يكون جواب [لَمَّا] في هذه الآية محذوفاً مقدراً، ثم يخبر عن دخولهم أنه ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الآية. المعنى أنه لما دخل إخوةُ يوسف عليه ورأى أخاه شكر ذلك لهم ـ على ما رُوي ـ وضمَّ إليه أخاه وآواه إلى نفسه، ومن هذه الكلمة: المأوى، وكان يامين شقيق يوسف فآواه. وصورة ذلك ـ فيما رُوي عن ابن إسحاق وغيره ـ أن يوسف عليه السلام أمر صاحب ضيافته أن ينزلهم رجلين رجلين، فبقي يامين وحده، فقال يوسف: أنا أُنزل هذا مع نفسي، ففعل وبات عنده، وقال له: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾، واختلف المتأولون في هذا اللفظ ـ فقال ابن إسحاق

= ما قام عمرو»، ويجوز: «لما قام زيد ما قام عمرو»، فدلَّ ذلك على أن [لَمَّا] حرف يترتب جوابه على ما بعده».

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الطب.



وغيره: أخبره بأنه أخوه حقيقة واستكتمه، وقال له: لا تبال بكل ما تراه من المكروه في تحيُّلي في أخذك منهم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يشير بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إلى ما يعمله فتيان يوسف من أمر السقاية ونحو ذلك[١]، ويحتمل أن يشير إلى ما عمله الإخوة قديماً. وقال وهب بن منبه: إنما أخبره أنه أخوه في الود مقام أخيه الذاهب، ولم يكشف له الأمر بل تركه تجوز عليه الحيلة كسائر إخوته.

و﴿تَبْتَئِسْ﴾ تفتعل، من البؤس، أي: لا تحزن ولا تهتم، وهكذا عبَّر المفسرون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

هذا من الكيد الذي يَسَّره الله ليوسف عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يُستعبد السارق، وكان في دين ملك مصر أن يُضرب ويضاعف عليه الغرم، فعلم يوسف أن إخوته ـ لثقتهم ببراءَة ساحتهم ـ سيدعون في السرقة إلى حكمهم، فتَحيَّل لذلك، واستسهل الأمر على ما فيه من رمْي أبرياءَ بالسرقة وإدخال الهَمِّ على يعقوب عليه السلام وعليهم، لما علم في ذلك من الصلاح في الآجل، وبوحي لا محالة وإرادةٍ من الله محنتُهم بذلك. هذا تأويل قوم، ويُقوِّيه قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

وقيل: إنما أُوحي إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط، ثم إن حافظها فقدها، فنادى برأيه على ما ظهر إليه، ورجَّحه الطبريُّ، وتفتيش الأوعية يردُّ عليه.

وقيل: إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا، وأنه عوقب على ذلك بأن قالوا: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

---

(١) اعترض أبو حيان في البحر على كلام ابن عطية، قال: «ولا يحتمل ذلك، لأنه لو كان التركيب «بِمَا يَعْمَلُونَ» بغير «كانوا» لأمكن عَلَى بُعْده، لأن الكلام إنما هو مع إخوة يوسف، وأما ذكر فتيانه فبعيد جداً، لأنهم لم يتقدم لهم ذكر إلا في قوله: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾، وقد حال بينهما قصص، واتسق الكلام مع الإخوة اتساقاً لا ينبغي أن يعدل فيه عن ضمير عائد إليهم، وإن ذلك إشارة إلى ما كان يلقى منهم قديماً من الأذى».



وقوله: ﴿جَعَلَ﴾ أي أمر خَدَمه وفتيانه، وقرأ ابن مسعود: [وَجَعَلَ] بزيادة واو.

و﴿السِّقَايَةَ﴾: الإناءُ الذي يشرب به الملك، وبه كان يكيل الطعام للناس، هكذا نص جمهور المفسرين: ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد، وفي كتب من حرَّر أمرها أَنها شكل له رأسان ويصل بينهما مَقْبِضَ يمسك بالأيدي، فَيُكال الطعام بالرأس الواحد، ويشرب بالرأس الثاني أو بهما، فيشبه أن يكون لِشَراب أضياف الملك وفي أطعمته الجميلة التي يحتاج فيها إلى عظم الأواني.

وقال سعيد بن جبير: الصُّواع مثل المكُّوك الفارسي، وكان إناءَ يوسف الذي يشرب فيه، وكان إلى الطول ما هو، قال: وحدثني ابن عباس رضي الله عنهما أَنه كان للعباس مثله يشرب به في الجاهلية.

وقال ابن جبير أيضاً: الصُّواع: المكُّوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه، كانت تشرب فيه الأعاجم، ورُوي أنها كانت من فضة، وهذا قول الجمهور، ورُوي أنها كانت من ذهب، قال الزجَّاج: وقيل: كان من مَسْك[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد رُوي هذا بفتح الميم.

وقيل: كان يشبه الطاس، وقيل: من نحاس، قاله ابن عباس أَيضاً، ولِعزَّة الطعام في تلك الأعوام قُصِر كيلها على ذلك الإناءِ. وكان هذا الجَعْلُ بغير علم يامين. قاله السُّدِّي، وهو الظاهر.

فلما فصلت العير بأوقارها، وخرجت من مصر فيما رُوي ـ وقالت فرقة: بل قبل الخروج من مصر ـ أَمر بهم فحبسوا، و﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾، ومخاطبة الْعِير تَجَوُّز، والمرادُ أَربابُها، وإنما المراد: أَيتها القافلة أو الرفقة، وقال مجاهد: كانت دوابهم حميراً، ووصفهم بالسرقة من حيث سرق ـ في الظاهر ـ أَحدهم، وهذا كما تقول: «بنو فلان قتلوا فلاناً» وإنما قتله أَحدهم. فلما سمع إخوة يوسف هذه المقالة أقبلوا عليهم، وساءَهم أن يُرْمَوا بهذه المنقبة، وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ليقع التفتيش فتظهر براءَتُهم، ولم يلوذوا بالإنكار من أول، بل سألوا إكمال الدعوى عسى أن يكون فيها

(١) المَسْك (بفتح الميم وسكون السين) الجلد.



ما تَبْطُل به فلا يحتاج إلى خصام. وقرأ أبو عبد الرحمن: [تُفْقِدُونَ] بضم التاءِ، وضعفها أبو حاتم.

﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ وهو المكيال، وهو السقاية، رسمه أولا بإحدى جهتيه وآخراً بالثانية. وقرأ جمهور الناس: ﴿ صُوَاعَ ﴾ بضم الصاد وبألف، وقرأ أبو حَيْوة: [صِوَاع] بكسر الصاد وبألف، وقرأ أبو هريرة، ومجاهد: [صاع الملك] بفتح الصاد دون واو، وقرأ عبد الله بن عوف: [صُوعَ] بضم الصاد، وقرأ أبو رجاءٍ: [صَوْعَ][1]. وهذه لغات في المكيال، قاله أبو الفتح وغيره، وتؤنث هذه الأسماءُ وتذكر، وقال أبو عبيد: يؤنث الصاع من حيث سمي سقاية، ويُذكَّر من حيث هو صاع، وقرأ يحيى بن يعْمَر: [صَوْغَ] بالغين منقوطة، وهذا على أنه الشيءُ المصوغ للملك على ما رُوي أنه كان من ذهب أو فضة، فهو مصدر سُمِّي به، ورويت هذه القراءَة عن أبي رجاءٍ، قال أبو حاتم: وقرأ سعيد بن جبير، والحسن: [صُوَاغ] بضم الصاد وألف وغين معجمة.

وقوله: ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أي: لمن دلَّ على سارقه وفضحه وجبر الصواع على الملك[2]، وهذا جُعْل[3]. وقوله: ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ حَمَالة[4]، وذلك أنه لما كان الطعام لا يوجد إلا عند الملِك فُهِم عن المؤذِّن أنه إنما جعَلَ عن غيره، فلخوفه ألا يوثَق بهذه الْجَعَالة ـ إذ هي عن الغَيْر ـ تحمل هو بذلك. قال مجاهد: الزَّعيم هو المؤذِّن الذي قال: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ ﴾، والزعيم: الضامن في كلام العرب، ويسمى الرئيس زعيماً لأنه يتضمن حوائج الناس.

وقوله: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ ﴾ الآية. رُوي أن إخوة يوسف كانوا ردُّوا البضاعة الموجودة في الرحال، وتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن، فلذلك قالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾، أي: لقد علمتم منا التحري، ورُوي أنهم كانوا قد اشتهروا في مصر بصلاح وتعفف، وكانوا يجعلون الأَكِمَّة[5] في أفواه إبلهم لئلا تنال زرع الناس، فلذلك قالوا: لقد علمتم

---

(١) أي بفتح الصاد وسكون الواو، والعبارة في إحدى النسخ: «وقرأ أبو رجاءٍ كذلك إلا أنه فتح الصاد»، وهي أدق.

(٢) جَبَرَ: رَدَّ، يقال: جَبَرَ الله مصيبة فلان، أي رَدَّ عليه ما ذهب منه، أو عوَّضه عنه.

(٣) الجُعْل والجَعالَة: ما يُجْعل على العمل من أجر أو رشوة. وبمعناهما أيضاً الجِعال بكسر الجيم.

(٤) الحَمَالة والحَمَال: الدِّية أو الغرامة يحملها قوم عن قوم.

(٥) الأكِمَّة: جمع كِمَامٍ، وهو الغطاءُ الذي يجعل على العناقيد والكبائس إلى حين صرامها. (اللسان ـ كمم).

ما جئنا لفساد وما نحن أَهل سرقة. والتاءُ في ﴿تَاللَّهِ﴾ بدل من واو، كما أُبدلت في «تُراثٍ»، وفي «التَّوراة» و«تُخَمة»[١]. ولا تدخل التاءُ في القسم إلا في المكتوبة من بين أَسماءِ الله تعالىٰ لا في غير ذلك، لا تقول: «تالرحمن» ولا «تالرحيم»[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ الآية. قال فتيان يوسف: فما جزاءُ السارق إن كنتم كاذبين في قولكم: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾؟ فقال إخوة يوسف: جزاءُ السارق الحكم الذي تتضمنه هذه الأَلفاظ ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾، فـ ﴿جَزَاؤُهُۥ﴾ الأَول مبتدأٌ، و﴿مَنْ﴾ مبتدأٌ ثان، ـ و﴿مَنْ﴾ شرط، أَو بمعنى الذي. وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ خبر ﴿مَنْ﴾، والجملة خبر قوله: ﴿جَزَاؤُهُۥ﴾ الأَول، والضمير في قوله: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ للسارق[٣]. ويصحُّ أَن تكون ﴿مَنْ﴾ خبراً على أَن المعنى: «جَزاءُ السارق من وجد في رحله»، والضمير في ﴿رَحْلِهِۦ﴾ عائد على ﴿مَنْ﴾، ويكون قوله: ﴿فَهُوَ﴾ زيادةَ بيانٍ وتأْكيداً، وليس هذا الموضع عندي من مواضع إبراز الضمير على ما ذهب إليه بعض المفسرين. ويحتمل أَن يكون التقدير: «جزاؤُه استرقاق من وُجد في رحله»، ثم يؤَكِّد بقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾[٤]، وقولهم هذا قولُ من لم يَسْتَرِبْ بنفسه، لأَنهم التزموا إرقاق من وُجد في رحله، وهذا أَكثر من موجب شرعهم، إذ حق شرعهم أَلا يُؤْخذ إلا من صحت

---

(١) هذا قول أكثر النحويين، وخالف السهيلي في ذلك فزعم أنها أصل وليست بدلاً من واو، وقال أبو حيان: «وهو الصحيح».

(٢) قال أبو حيان في «البحر»: «حكي عن العرب دخولها على «الرب» و«الرحمن» و«حياتك»، قالوا: «تَرَبِّ الكعبة ـ وتالرَّحمن ـ وتَحيَاتِكَ». وابن عطية يطلق في أحيان كثيرة لفظ «المكتوبة» على اسم الجلالة «الله».

(٣) من رأي صاحب «البحر المحيط» أن هذا الإعراب لا يصح لخلو جملة الجواب من رابط يربطها بالمبتدأ.

(٤) ذكر ابن عطية هنا إعرابين آخرين للجملة. الأول في قوله: «ويصح أن يكون ﴿مَنْ﴾ خبراً على أن المعنى: جزاءُ السارق من وُجد في رحله، والضمير في ﴿رَحْلِهِۦ﴾ عائد على ﴿مَنْ﴾، وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ زيادة بيان وتأكيد. والثاني هو قوله: ويحتمل أن يكون التقدير: جزاؤُه استرقاقُ من وُجد في رحله... إلخ. وقد علّق أبو حيان على الإعراب الثاني بقوله: «وهذا القول هو الذي قبله غير أنه أبرز المضاف المحذوف في قوله: (استرقاق مَنْ وُجد في رحله)، وفيما قبله، لا بد من تقديره، لأن الذات لا تكون خبراً عن المصدر، فالتقدير في الذي قبله: جزاؤُه أَخذ من وُجد في رحله، أو استرقاق من وجد في رحله، فهذا لا بد منه على هذا الإعراب». ومعنى هذا أن القولين قول واحد. وفي رأي أبي حيان أن هذا الوجه الأخير في الإعراب هو أحسن الوجوه وأبعدها من التكلف.

سرقته، وَأمْرُ يامين في السقاية كان محتملاً، لكنهم التزموا أنَّ من وُجد في رحله فهو مأخوذ على أنه سارق.

وقولهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَي: هذه سُنَّتُنَا ودِيننا في أَهل السرقة، أَن يُتَمَلَّك السارق كما تَمَلَّك هو الشيءَ المسروقَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحكى بعض الناس أَن هذا الحكم كان في أَول الإِسلام ثم نسخ بالقطع، وهذا ضعيف، ما كان قط فيما علمت. وحكى الزهراوي عن السدي أن حكمهم إنما كان أَن يُستخدم السارق على قدر سرقته، وهذا يضعفه رجوع الصُّواعِ، فكان ينبغي أَلا يُؤْخذ يامين إذ لم يبق فيما يخدم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

بدؤه أَيضاً بأَوعيتهم تمكين للحيلة، وإِبعادٌ لظهور أَنها حيلة. وقرأَ جمهور الناس: ﴿وِعَآءِ﴾ بكسر الواو، وقرأَ الحسن: [وُعاءِ] بضمها، وقرأَ ابن جُبير: [إِعَاءِ] بهمزة بدل الواو، وهذا شائع في الواو المكسورة، وهو أَكثر في المضمومة، وقد جاءَ في المفتوحة أَحد في وحَد.

وأَضاف الله تعالىٰ الكيد إِلى ضميره لَمَّا أَخرج القدر الذي أَباح به ليوسف أَخذ أَخيه مَخْرج ما هو في اعتياد الناس كيْدٌ. وقال السدي، والضحاك: ﴿كِدْنَا﴾ معناه: صنَعْنَا. و﴿دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ فسَّره ابن عباس رضي الله عنهما بسلطانه، وفسَّره قتادة بالقضاءِ والحكم. وهذا متقارب، والاستثناءُ في هذه الآية حكاية حال، التقدير: «إِلاَّ أَن شاءَ اللهُ ما وقع من هذه الحيلة»، ويحتمل أَن يقدر أَنه تَسَنُّن لما قرر النفي.

وقرأَ الجمهور: ﴿نَرْفَعُ﴾ على ضمير المعظم، و﴿نَّشَآءُ﴾ كذلك، وقرأَ الحسن، وعيسى، ويعقوب بالياءِ، أَي الله تعالىٰ، وقرأَ أَبو عمرو، ونافع، وأَهل المدينة: ﴿دَرَجَاتِ مَن﴾ بإِضافة «الدرجات» إِلى «مَنْ»، وقرأَ عاصم، وابن محيصن: ﴿دَرَجَٰتٍ

مَن﴾ بتنوين الدرجات، وقرأ الجمهور: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ﴾، وقرأ ابن مسعود: [وفوق كل ذي عالم]، والمعنى أن البشر في العلم درجات، فكل عالم فلا بُدَّ من أعلم منه، فإِمَّا من البشر، وإِمَّا الله عزَّ وجلَّ، وأَمَّا على قراءَة ابن مسعود فقيل: [ذي] زائدة، وقيل: [عَالِم] مصدر كالباطل[1].

ورُوي أَن المفتش كان إذا فرغ من رَحْل رجُل فلم يجد فيه شيئاً استغفر الله عزَّ وجلَّ تائباً من فعله ذلك. وظاهر كلام قتادة وغيره أَن المستغفر كان يوسف، لأَنه كان يفتشهم ويعلم أَين الصواع، حتى فرغ منهم وانتهى إِلى رحل بنيامين فقال: ما أَظن هذا الفتى رضي بهذا، ولا أَخذ شيئاً، فقال له إِخوته: والله لا نبرح حتى تفتشه فهو أَطيب لنفسك ونفوسنا، ففتش حينئذٍ فأَخرج السقاية، وهذا التفتيش من يوسف يقتضي أَن المؤَذِّن إنما سرَّقهم برأيه[2]، وإِمَّا أَن يقال: جميع ذلك كان بأَمر الله تعالىٰ[3]، ويُقَوِّي ذلك قوله:

---

(١) قال ابن جني في المحتَسب: هو مصدر كالفالج والباطل، فكأنه قال: «وفوق كل ذي علم عليم». وأما على تقدير زيادة [ذي] فيصبح المعنى: «وفوق كل علم عليم»، وهناك وجه ثالث في تبيين قراءة ابن مسعود ذكره ابن جني أيضاً، وهو أن تكون من باب إضافة المسمى إلى الاسم، والمعنى: «وفوق كل شخص يسمى عالماً عليم»، وقد كثر عن العرب إضافة المسمَّى إلى اسمه، فمن ذلك قول الكميت:

إِلَيْكُمْ ذَوِي آل النَّبِي تَطَلَّعَتْ ... نوازِعُ مِنْ نفْسي ظِماءٌ وأَلْبُبُ

والنوازع هي من الحنين والميل إلى الشيءِ، والْبُبُ: جمع لُبٍّ وهو العقل، والمعنى في البيت: إليكم يا آل النبي، يا مَنْ تُسمُّون بهذا الاسم، وعليه قول الأعشى:

فَكَذَّبها بما قَالَتْ فَصَبَّحَهُمْ ... ذُو آلِ حَسَّانَ يُزجِي المَوْتَ والشَّرَعَا

أي: كذبوا زرقاءَ اليمامة فصبحهم الجيش الذي يقال له: آل حسَّانَ، والشَّرَع: جمع شِرْعة وهي الحِبالة التي يصيد بها الصائد.

(٢) أي: نسبهم المؤَذِّن إلى السرقة برأيه هو.

(٣) قد يستغنى عن [إمَّا] الثانية بذكر ما يغني عنها نحو قول المثقب العبدي:

فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِصِدْقٍ ... فَأَعْرِفَ مِنْكَ غَثِّي مِنْ سَمِينِي
وَإِلا فَاطَّرِحْنِي واتَّخِذْنِي ... عَدُواً أَتَّقِيكَ وتَتَّقِينِي

وقد يستغنى عن الأُولى لفظاً كقول النَّمر بن تولب:

سَقَتْهُ الرَّوَاعِدُ مِنْ صَيِّفٍ ... وَإِنْ مِنْ خَرِيفٍ فَلَنْ يَعْدِما

ومن قول ذي الرمة (ونسب للفرزدق):

تُلِمُّ بدارٍ قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهَا ... وَإِمَّا بأَمْوَاتٍ أَلَمَّ خَيَالُهَا

أي: إِمَّا بدارٍ وإمَّا بأمواتٍ ـ ويمكن أن يكون ابن عطية على هذا الثاني، أي: حذف إمَّا الأولى، وتقدير الكلام: «إمَّا هذا، وإمَّا أن يقال. . . إلخ».

﴿كِدْنَا﴾، وكيف لا يكون برأي يوسف وهو مضطر في محاولته لأَن يلزمهم حكم السرقة ليَتِمَّ له أَخذ أَخيه.

والضمير في قوله: ﴿اَسْتَخْرَجَهَا﴾ عائد على السقاية، ويحتمل أَن يعود على السرقة.

ورُوي أَن إِخوة يوسف لما رأَوا ذلك قالوا: يَا بِنْيَامِين بن راحيل، قبَّحك الله، ولدت أُمك أَخوين لِصَّيْن، كيف سَرَقْت هذه السقاية؟ فرفع يديه إِلى السماءِ وقال: والله ما فعلتُ، فقالوا له: فمن وضعها في رحلك؟ قال: الذي وضع البضاعة في رحالكم.

وما ذكرناه من المعنى في قوله تعالىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ هو قول الحسن وقتادة، وقد رُوي عن ابن عباس، ورُوي أَيضاً عنه رضي الله عنه أَنه حدَّث يوماً بحديث عجيب، فتعجب منه رجلٌ ممن حضر وقال: «الحمد لله وفوق كل ذي علم عليم»، فقال له ابن عباس: «بئس ما قلت، إنما العليمُ اللهُ، وهو فوق كل ذي علم».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبين هذا وبين قول الْحَسَن فرقٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

الضمير في ﴿قَالُوا﴾ لإِخوة يوسف، والأَخ الذي أَشاروا إِليه هو يوسف، ونكَّروه تحقيراً للأَمر، إِذ كان مما لا علْم للحاضرين به، ثم أَلصقوه ببنْيامين إِذْ كان شقيقه.

ويحتمل قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ تأْويلَيْن:

أَحدهما: أَنهم حققوا السرقة في جانب بنيامين ويوسف عليهما السلام بحسب ظاهر الحكم، فكأَنهم قالوا: إِن كان قد سرق فغير بدع من ابْنَيْ راحيل، لأَن أَخاه يوسف كان قد سرق، فهذا من الإِخوة إِنْحاءٌ على ابْنَيْ راحيل: يوسف وبنيامين.

والوجه الآخر الذي يحتمله لفظهم يتضمن أَن السرقة في جانب يوسف وبنيامين مظنونة، كأَنهم قالوا: إِن كان هذا الذي رمي به بنيامين حقاً في نفسه فالذي رُمِيَ به يوسف قبْلُ حق إِذاً، وكأَن قصة يوسف والظن به قوياً عندهم أَقوى مما ظهر في جهة بنيامين.

وقال بعض المفسرين: «التقدير: فقد قيل عن يوسف إِنه سرق»، ونحو هذا من القول الذي لا ينطبق معناه على لفظ الآية.



وهذه الأَقوال منهم عليهم السلام إِنما كانت بحسب الظاهر وموجب الحكم في النازلين، فلم يعنوا غيبة ليوسف، وإِنما قصدوا الإِخبار بأَمر جرى لِتَزُول بعض المعرة عنهم ويختص بها هذان الشقيقان.

وأَما ما رُوي في سرقة يوسف فثلاثة وجوه: الجمهور منها على أَن عمته كانت ربَّته، فلما شب أَراد يعقوب أَخذه منها، فولعت به وأَشفقت من فراقه، فأَخذت مِنْطقة إِسحاق ـ وكانت متوارثة عندهم ـ فنَطَّقَتْهُ بها من تحت ثيابه، ثم صاحت وقالت: إِني قد فقدتُ المِنْطَقة ويوسف قد خرج بها، فَفُتِّش فوجدت عنده، فاسْتَرقَّتْهُ ـ حسبما كان في شرعهم ـ وبقي عندها حتى ماتت فصار عند أَبيه، وقال ابن إِدريس عن أَبيه: إِنَّمَا أَكل بنو يعقوب طعاماً فأَخذ يوسف عَرْقاً[(١)] فخبأَه فرموه لذلك بالسرقة، وقال سعيد بن جبير، وقتادة: إنما أَمرته أُمه أن يسرق صنماً لأَبيها فسرقه وكسره، وكان ذلك ـ منها ومنه ـ تغييراً للمنكر، وفي كتاب الزجَّاج أَنه كان صنم ذهب[(٢)].

والضمير في قوله: ﴿فَأَسَرَّها﴾ عائد يُرادُ به الحزازة التي حدثت في نفس يوسف من قولهم، والكلام يتضمنها، وهذا كما تضمن الكلام الضمير الذي في قول حاتم:

لَعَمْـرك مـا يُغْنـي الثَّـراءُ عـن الفَتَـى إِذا حشْرَجتْ يَوْماً وضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ[(٣)]

وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٤)] فهو مرادٌ به الحالة المتحصلة من هذه الأَفعال المذكورة في الآية.

وقال قومٌ: أَسرَّ المجازاة، وقال قوم: أَسرَّ الحجة. وما قدمناه أَليق. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [فأسره يوسف] بضمير تذكير.

---

(١) العَرْق بفتح العين: اللحم المطبوخ، وقيل: عظمٌ أُخذ جُلُّ لحمه.

(٢) وقيل: إن يوسف كان يسرق من طعام المائدة للمساكين، حكاه ابن عيسى. وقال الحسن: إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه.

(٣) البيت في (اللسان ـ حشرج)، وقد تمثلت به أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين دخلت على أبيها عند موته، والرواية في (اللسان): أَماوِيَّ ما يغني... وحاتم فيه يخاطب زوجة ماوية، والحشرجة: تردد صوت النفس، وهو الغرغرة في الصدر عند الموت، والشاهد فيه أن الضمير في (حشرجت) ليس له مرجع مذكور في الكلام.

(٤) الآية (١١٠) من سورة (النحل).



وقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ الآية. الظاهر منه أنه قالها إفصاحاً، فكأنه أسرَّ لهم كراهية مقالتهم ثم وبَّخهم بقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي لسوءِ أفعالكم، والله يعلم إن كان ما وصفتموه حقاً، وفي اللفظ إشارة إلى تكذيبهم، ومما يُقوِّي هذا عندي أنهم تركوا الشفاعة بأنفسهم وعدلوا إلى الشفاعة بالشيخ عليه السلام، وقالت فرقة ـ وهو ظاهر كلام ابن عباس رضي الله عنهما ـ: لم يقل يوسف عليه السلام هذا الكلام إلا في نفسه، وإنما هو تفسير للذي أسرَّ في نفسه، أي: هذه المقالة هي التي أسر. فكأن المراد: قال في نفسه: ﴿أَنتُمْ﴾.

وذكر الطبري هنا قصصاً اختصاره أنه لما استخرجت السقاية من رحل بنيامين قال إخوته: يا بني راحيل. ألا يزال البلاءُ ينالنا من جهتكم؟ فقال بنيامين: بل بنو راحيل ينالهم البلاءُ منكم: ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووَضَع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم، فقالوا: لا تذكر الدراهم وإلا أُخذنا بها، ثم دخلوا على يوسف فأخذ الصواع فنقره فطَنَّ، فقال: إنه يخبر أنكم ذهبتم بأخ لكم فبعتموه، فسجد بنيامين وقال: أيها العزيز، سل صواعك هذا يخبرك بالحق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونحو هذا من القصص الذي آثرنا اختصاره، ورُوي أن روبيل غضب ووقف شعره حتى خرج من ثيابه، فأمر يوسف بنيًّا له فمسَّه فسكن غضبه، فقال روبيل: لقد مسَّني أحد من ولد يعقوب، ثم إنهم تشاوروا في محاربة يوسف ـ وكانوا أهل قوة لا يدانون في ذلك ـ فلما أحس يوسف بذلك قام إلى روبيل فلبَّبه وصرعه، فرأوا من قوته ما استعظموه عند ذلك، وقالوا: أيها العزيز.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.



خاطبوه باسم العزيز إذْ كان في تلك اللحظة بعزل الأول أو موته[١]، على ما رُوي في ذلك. وقولهم: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ يحتمل أن يكون مجازاً وهم يعلمون أنه لا يصح أَخْذ حُرٍّ لِيُسْتَرَقَّ بدل من أَحكمت السُّنة رقَّه، وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله: «اقتلني ولا تفعل كذا وكذا»، وأَنت لا تريد أَن يقتلك ولكن تبالغ في استنزاله، وعلى هذا يتجه قول يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ لأنه تعوذ من غير جائز، ويحتمل أَن يكون قولهم: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ حقيقة، وبعيد عليهم ـ وهم أنبياءُ ـ أَن يريدوا استرقاق حُرٍّ، فلم يبق إلا أَن يريدوا بذلك طريق الحمالة، أَي: خذ أَحدنا حتى ينصرف إِليك صاحبك، ومقصدهم بذلك أَن يصل بنيامين إِلى أَبيه، ويعرف يعقوب جلية الأَمر، فمنع يوسف عليه السلام من ذلك، إذ الحمالة في الحدود ونحوها بمعنى إِحضار المضمون جائزةٌ مع التراضي غير لازمة إذا أَبَى الطالب، وأَما الحمالة في مثل هذا ـ على أَن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة ـ فلا يجوز ذلك إِجماعاً، وفي «الواضحة» أَن الحمالة في الوجه فقط في جميع الحدود جائزة إلا في النفس.

وقولهم: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل أَن يريدوا وصفه بما رأَوا من إِحسانه في جميع أَفعاله معهم ومع غيرهم، ويحتمل أَن يريدوا: إنا نرى لك إِحساناً علينا في هذه اليد إِنْ أَسديتها إِلينا، وهذا تأْويل ابن إِسحاق.

و﴿مَعَاذَ﴾ نصب على المصدر، ولا يجوز إِظهار الفعل معه، والظلم في قوله: ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ على حقيقته، إِذْ هو وضع الشيءِ في غير موضعه، وذكر الطبري أَنه رُوي أَن يوسف لما أَيْأَسهم بلفظه هذا قال لهم: إِذا أَتيتم أَباكم فاقرؤُوا عليه السلام، وقولوا له: إِن ملك مصر يدعو لك أَلا تموت حتى ترى ولدك يوسف، ليعلم أَن في أَرض مصر صدِّيقين مثله.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ الآية. يقال: يئِس واسْتَيْأَس بمعنى واحد، كما يقال: سخِر واستَسْخَر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾[٢]، وكما يقال: عجب واستعجب، ومنه قول أَوس بن حجر:

---

(١) يريد أنه في تلك اللحظة كان هو العزيز بعد عزل الأول وهو قطفير، أو موته.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١٤) من سورة (الصَّافَّات): ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾.



وَمُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يرى مِنْ أَنَاتِنَا ... وَلَوْ زَبَنَتْهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ[١]

ومنه: نَوِكَ واسْتَنْوَكَ[٢]، وعلى هذا يجيءُ قول الشاعر في بعض التأويلات:

. . . . واسْتَنْوَكَتْ ولِلشَّبابِ نُوكُ[٣]

وهذه قراءَة الجمهور، وقرأَ ابن كثير: [استايسوا][٤] و[لا تايسوا][٥]، و[لا يايس][٦] و[حتى إذا استايس الرسل][٧]، أَصله: اسْتَأْيَسُوا «اسْتَفْعَلُوا» من (أَيِسَ) على قلب الفعل من (يئِس) إلى (أَيِس)، وليس هذا كَجذَب وجَبذ، بل هذان أَصلان والأَول قلب، دلَّ ذلك على أَن المصدر من (يئِس وأَيِس) واحد وهو (اليأس)، ولِجَذَبَ وجبذَ مصدران[٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ معناه: انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضاً، والنَّجِيُّ لفظ يوصف به من له نجوى، واحداً أَو جماعة، مُؤنثاً أَو مُذَكراً، فهو مثل عدُوّ وعَدْل، وجمعه أَنجية، قال لبيد:

---

(١) قال في (اللسان ـ عجب): «الاستعجاب: شدَّة التعجب»، والأَناة: الحلم والوقار، وَزَبَنَتْهُ الحرب: دفعت به وأَذهبته، على التشبيه للحرب بالناقة التي تَزْبن وليدها أي تدفعه عنها، ومعنى «لَمْ يَتَرَمْرَم»: لم يَرُدَّ جواباً، قال الجوهري: تَرَمْرَمَ إذا حرك فاه بالكلام، واستشهد ببيت أَوْس هذا. وأَوْسٌ في بيته هذا يمضي على طريقته التي التزمها في القصيدة كلها من الاعتزاز بشعره وبصفات الحلم والفروسية عنده.

(٢) نَوِكَ: حَمُقَ، واسْتَنْوَكَ: صار أنوكَ، ويقال: اسْتَنْوَكَ فلاناً: استحمقه. (المعجم الوسيط).

(٣) البيت بتمامه في (اللسان ـ نوَكَ)، قال: «الأَنْوَكُ: الأحمق، وجمعه النَّوْكى، ويقال في الشعر: قومٌ نُوكٌ، وقومٌ نَوْكى ونُوكٌ أيضاً على القياس، مثل أَهْوَج وهُوجُ، قال الراجز:

تَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ ضَحوكُ ... واسْتَنْوَكَتْ ولِلشَّبابِ نُوكُ»

(٤) أي بتقديم الهمزة على الياءِ، فتكون الياءُ هي عين الفعل، ثم خفف الهمزة. وكذلك في الآيات المشار إليها بعدها.

(٥) من الآية (٨٧) من هذه السورة (يوسف).

(٦) من نفس الآية السابقة.

(٧) من الآية (١١٠) من هذه السورة (يوسف).

(٨) قال الإمام ابن خالويه في كتابه «الحجة في القراءات السبع»: «وقد قرىء بتخفيف الهمزة، فالحجة لمن خففها وجعل الياءَ فاءَ الفعل أنه يجعلها ياءً مشددة، لأنه أدغم الفاءَ لسكونها في العين وحرَّكها بحركتها، والحجة لمن خففها والهمزة فاءُ الفعل أنه يجعلها ألفاً خفيفة للفتحة قبلها» اهـ. قال القرطبي: «والأصل قراءة الجماعة، لأن المصدر ما جاءَ إلا على تقديم الياءِ ـ يَأْساً ـ والإياسُ ليس بمصدر أَيِسَ، بل هو مصدر: أُسْتُه أَوْساً وإياساً، أي أعطيته». (القرطبي ٩ـ٢٤١).



وشَهِدْتُ أَنْجِيَةَ الأُفَاقَةِ عَالِياً كَعْبي وأَرْدَافُ الْمُلُوكِ شُهُودُ[1]

و﴿كَبِيرُهُمْ﴾ قال مجاهد: هو شمعون، لأنه كان كبيرهم رأياً وتدبيراً وعلماً، وإن كان روبيل أَسَنَّهم، وقال قتادة: هو روبيل لأنه أسنهم، وهذا أظهر ورجحه الطبري، وقال السدي: معنى الآية: وقال كبيرهم في العلم، وذكَّرهم أخوهم الميثاق في قول يعقوب: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾، يصح أن تكون [مَا] صلة في الكلام لا موضع لها من الإعراب، ويصح أن تكون في موضع رفع بالابتداء، والخبر قوله: ﴿فِى يُوسُفَ﴾، كذا قال أبو علي، ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلقاً بـ ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾، وإنما تكون ـ على هذا ـ مصدرية، التقدير: «من قبل تفريطكم في يوسف واقع أو مستقر»، وبهذا المقدر يتعلق قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾. ويصح أن تكون في موضع نصب عطفاً، على أن التقدير: «وتعلموا تفريطكم» أو «وتعلموا الذي فرطتم»، فيصح ـ على هذا الوجه ـ أن تكون بمعنى الذي، ويصح أن تكون مصدرية[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾، أراد أرض القطر أو الموضع الذي ناله فيه المكروه المؤدي إلى سخط أبيه، والمقصد بهذا اللفظ التحريج على نفسه والتزام التضييق، كأنه سجن نفسه في ذلك القطر ليبلي عذراً[3].

وقوله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ لفظ عام لجميع ما يمكن أن يرده من القدر كالموت أو

---

(١) استشهد بهذا البيت أبو عبيدة في «مجاز القرآن»، واللسان في «أفق»، والأُفاقة: موضع بالحزن كانت تتبدى فيه ملوك الحيرة، وأنجية: مجالس التجمع والمناجاة، وعالياً كعبي: منتصراً مشهوراً أمري، والأرداف: جمع ردْف وهو الذي يجلس عن يمين الملك، فإذا شرب الملك شرب بعده، وإذا غزا ناب عنه حتى يرجع، وله المرباع إذا أغارت كتيبة الملك، ويوم الأفاقة هو اليوم الذي انتصر فيه على الربيع بن زياد، ولبيد يسميه بأسماءٍ متعددة، فهو يوم الغبيط، والرجل، والفاثور، هذا وقد قال أبو عبيدة في تعليقه على البيت: «والنجي يقع لفظه على الواحد والجمع، وقد يجمع فيقال: نجيٌّ وأنجية»، ثم استشهد بالبيت. والبيت من قصيدة قالها لبيد يذكر طول عمره وسأمه من الحياة، ويتحدث عن مآثره، ومنها بيته المشهور:

ولَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحياةِ وطُولِها وسُؤَال هَـذَا النـاسِ: كيْفَ لَبِيدُ ؟

(٢) قال أبو حيان في «البحر» بعد أن اعترض على الإعرابات التي ذكرها ابن عطية هنا: وأفضل الآراءِ أن تكون [ما] زائدة.

(٣) أي: ليقدم أو يؤدي عُذراً.



النصرة وبلوغ الأَمل، وغير ذلك، وقال أَبو صالح: أَو يحكم الله لي بالسيف، ونصب ﴿يحكُم﴾ بالعطف على ﴿يَأْذَنَ﴾، ويجوز أَن تكون ﴿أَوْ﴾ في هذا الموضع بمعنى «إلاَّ أَنْ»، كما تقول: «لألزمنك أَو تقضيني حقي»، فتنصب على هذا ﴿يَحْكُمَ﴾ بـ ﴿أَوْ﴾.

ورُوي أَنهم لما وصلوا إِلى يعقوب بكى وقال: «يا بني، ما تذهبون عني مرة إلا نقصتم، ذهبتم فنقصتم يوسف، ثم ذهبتم فنقصتم شمعون حيث ارتهن، ثم ذهبتم فنقصتم بنيامين وروبيل».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾.

الأَمر بالرجوع ـ قيل: هو من قول كبيرهم، وقيل: بل هو من قول يوسف لهم، والأَول أَظهر، وقرأَ الجمهور: ﴿سرَقَ﴾ على تحقيق السرقة على «يامين» بحسب ظاهر الأَمر، وقرأَ ابن عباس، وأَبو رزين: [سُرِّق] بضم السين وكسر الراءِ وتشديدها[1]، وكأَن في هذه القراءَة لهم تحر ولم يقطعوا عليه بسرقة، وإِنما أَرادوا: جُعل سارقاً بما ظهر من الحال، ورويت هذه القراءَة عن الكسائي، وقرأَ الضحاك: [إن ابنك سارق] بالأَلف وتنوين القاف، ثم تحروا بعد ـ على القراءَتين ـ في قولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾، أَي: وقولنا لك: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ إنما هي شهادة عندك بما علمناه من ظاهر ما جرى، والعلم في الغيب إلى الله، ليس ذلك في حفظنا، هذا قول ابن إسحاق.

وقال ابن زيد: قولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أَرادوا به: وما شهدنا عند يوسف بأَن السارق يُسْترقُّ في شرعك إلا بما علمنا من ذلك، وما كنا للغيب حافظين أَن السرقة تخرج من رحل أَحدنا، بل حسبنا أَن ذلك لا يكون البَتَّةَ، فشهدنا عنده ـ حين سأَلنا ـ بعلمنا. وقرأَ الحسن: «وما شهدنا عليه إلاَّ بما علمنا» بزيادة «عليه».

---

(١) أي: نُسب إلى السَّرقة ورُمي بها، مثل: خَوَّنْتُه وفَسَّقْتُه وفَجَّرْتُه إذا نسبته إلى هذه الخلال، وقال الزجاج: سُرِّق يحتمل معنيين: أحدهما: عُلم منه السَّرَق، والآخر: اتُّهم بالسَّرَق. قال الجوهري: والسَّرِقُ والسَّرِقة بكسر الراء فيهما هو اسم الشيءِ المسروق، والمصدر: سَرَق يسرقُ سَرَقاً بالفتح.



ويحتمل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾، أي حين واثقناك إنما قصدنا ألا يقع منا نحن من جهته شيءٌ يكرهُهُ، ولم نعلم الغيب في أنه سيأتي هو بما يوجب رقَّه، ورُوي أن معنى ﴿لِلْغَيْبِ﴾ أي: لِلَّيلِ، والغيب: اللَّيل بلغة حمير، فكأنهم قالوا: وما شهدنا عندك إلا بما علمناه من ظاهر حاله، وما كنا بالليل حافظين لما يقع من سرقته هو أو التدليس عليه.

ثم استشهدوا بأهل القرية التي كانوا فيها، وهي مصر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وهذا مجاز، والمراد أهلها، وكذلك قوله: ﴿وَٱلْعِيرَ﴾، هذا قول الجمهور وهو الصحيح، وحكى أبو المعالي في التلخيص عن بعض المتكلمين أنه قال: هذا من الحذف وليس من المجاز، وإنما المجاز لفظة تستعار لغير ما هي له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحذف المضاف هو عين المجاز وعُظمه، هذا مذهب سيبويه وغيره من أهل النظر، وليس كل حذف مجازاً، ورجَّح أبو المعالي في هذه الآية أنه مجاز، وحكى أنه قول الجمهور أو نحو هذا، وقالت فرقة: بل أحالوه على سؤال الجمادات والبهائم حقيقة، ومن حيث هو نبي فلا يبعد أن يُخبره بالحقيقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وإن جُوِّز فبعيد، والأول أقوى.

وهنا كلام مقدر يقتضيه الظاهر، تقديره: فلما قالوا هذه المقالة لأبيهم قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾، وهذا على أن يتصل كلام كبيرهم إلى هنا، ومن يرى أن كلام كبيرهم تمَّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ فإنه يجعل الكلام هنالك تقديره: فلما رجعوا قالوا: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ الآية، والظاهر أن قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ إنما هو ظن سَيِّءٌ بهم، كما كان في قصة يوسف قبل، فاتفق أن صدق ظنه هناك ولم يتحقق هنا.

و﴿سوَّلَتْ﴾ معناه: زَيَّنت وخَيَّلَت وجعلته سُولا، والسُّولُ: ما يتمناه الإنسان ويحرص عليه[1].

---

(١) أصلُ السُّولِ مهموز عند العرب، استثقلوا ضغطة الهمزة فيه فتكلموا به على تخفيف الهمز، قال الراعي فيه فلم يهمزه: =



وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إمَّا ابتداءٌ وخبره: أَمْثَلُ وأَوْلَى، وحسُن الابتداءُ بالنكرة من حيث وُصِفت. وإمَّا خبرُ ابتداءٍ تقديره: فأَمري، أَو شأْني، أَو صبري صبرٌ جميل، وهذا أَليق بالنكرة، أَن تكون خبراً، ومعنى وصفه بالجمال أَنه ليس فيه شكوى إلى بشر ولا ضجر بقضاءِ الله تعالىٰ[1].

ثم ترجَّى عليه السلام من الله أَن يجبرهم عليه، وهم: يوسف ويامين وروبيل الذي لم يبرح الأَرض، ورجاؤه هذا من جهات:

إحداها: الرؤْيا التي رأَى يوسف، فكان يعقوب ينتظرها. والثانية: حسن ظنه بالله تعالىٰ في كل حال، والثالثة: ما أَخبروه به عن ملك مصر أَنه يدعو له برؤْية ابنه، فوقع له ـ من هنا ـ تُحسُّسٌ ورجاءٌ، والوصفُ بالعلم والإحكام لائق بما يرجوه من لقاءِ بنيه، وفيها تسليم لحكم الله تعالىٰ في جميع ما جرى عليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

المعنى أَنه لما ساءَ ظنه بهم ولم يصدق قولهم بل استراب به ﴿تولى عنهم﴾ أَي زال بوجهه عنهم، وجعل يتفجع ويتأَسف. قال الحسن: خُصَّتْ هذه الأُمة بالاسترجاع[2]، أَلا ترى إلى قول يعقوب: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمراد: يا أَسفِي، لكن هذه لغة من يردُّ ياءَ الإضافة أَلفاً نحو: يا أَبتا ويا غلاما.

= اختَـارَكَ النـاسُ إذْ رَثَّـتْ خَـلائِقُهُـمْ واعْتَلَّ مَنْ كَانَ يُرْجَى عِنْدَهُ السُّولُ

والدليل على أن أصل (السُّول) همز قوله تعالىٰ: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾، أي: أُعطيت أُمنيتك التي سأَلْتَها.

(١) روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (من بَثَّ لم يصبر)، ورُوي عن الحسن رضي الله عنه: «ما مِن جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو».

(٢) يريد أُمة محمد ﷺ، والاسترجاع هو قولنا عند المصيبة: «إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون».



ونادى الأَسف على معنى: احضر فهذا من أَوقاتك. وقيل: قوله: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾ على جهة النُّدبة، وحذَف الهاءِ التي هي في النُّدبة علامةُ المبالغة في الحزن تجلُّداً منه عليه السلام، إِذْ كان قد ارتبط إِلى الصبر الجميل. وقيل: قوله: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾ نداءٌ فيه استغاثة[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يبعد أَن يجتمع «الاسترجاع» و«يَا أَسَفَا» لهذه الأُمة وليعقوب عليه السلام.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أَي: من ملازمة البكاءِ الذي هو ثمرة الحزن، ورُوي أَن يعقوب عليه السلام حَزِنَ حُزْنَ سبعين ثَكْلَى، وأُعطي أَجر مائة شهيد، وما ساءَ ظنه بالله قط، رواه الحسن عن النبي ﷺ[٢]. وقرأَ ابن عباس، ومجاهد: [الحَزْن] بفتح الحاءِ والزاي، وقرأَ قتادة بضمهما، وقرأَ الجمهور بضم الحاءِ وسكون الزاي.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ بمعنى: كاظم، كما قال: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[٣]، ووصف يعقوب بذلك لأَنه لم يَشْكُ إِلى أَحد، وإِنما كان يكمد في نفسه، ويُمسك همَّه في صدره، وكان يكظمه أَي يردُّه إِلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب والضجر، وقال ناس: ﴿كَظِيمٌ﴾ بمعنى: مكظوم. وقد وصف الله تعالىٰ يونس عليه السلام بمكظوم في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[٤]، وهذا إِنما يتجه على تقدير أَنه مليءٌ بحزنه، فكأَنه كظم بثَّه في صدره، وجَرْي ﴿كَظِيمٌ﴾ على باب «كاظم» أَبْيَن، وفسَّر ناس «الكظيم» بالمكروب وبالمكدور، وذلك كله متقارب. وقال منذر بن سعيد: الأَسف إِذا كان من جهة من هو

---

(١) قال الزمخشري: «والتجانس بين لفظتي «الأسف ويوسف» مما يقع مطبوعاً غير مستعمل فيملح، ونحوه: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم﴾ و﴿هم ينهون عنه وينأون عنه﴾، و﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ و﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾». اهـ. وهذا ما يسمى تجنيس التصريف، وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف وتتفق معها في بقية الحروف.

(٢) أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ليث بن أبي سليم رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فعرفه، فقال له: (أيها المَلك الكريم على ربِّه، هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم، قال: ما فعل؟ قال: ابيضت عيناه من الحزن عليك، قال: فماذا بلغ من حزنه؟ قال: حزن سبعين مثكلة، قال: هل له على ذلك من أجر؟ قال: نعم، أجر مائة شهيد). (الدر المنثور).

(٣) من الآية (١٣٤) من سورة (آل عمران).

(٤) من الآية (٤٨) من سورة (القلم).



أقل من الإنسان فهو غضب، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾[١]، ومنه قول الرجل الذي ذهبت لخادمه الشاةُ من الغنم: «فأسفت فلطمتها»، وإذا كان من جهة لا يطيقها فهو همٌّ وحزنٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحرير هذا المنزع أن الأسف يقال في الغضب ويقال في الحزن، وكل واحد من هذين يحرز حاله التي يقال عليها.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ﴾ الآية. المعنى: تالله لا تَفْتَأُ، فتحذف (لا) في هذا الموضع من القسم لدلالة الكلام عليها، فمن ذلك قول امرىء القيس:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرحُ قَاعِداً ... ولَوْ قَطَّعوا رَأْسي لَدَيْكِ وَأَوْصالي[٢]

ومنه قول الآخر:

تَاللهِ يبْقَى علَى الأَيَّامِ ذُو حِيدٍ ... بِمُشْمخِرٍّ بِهِ الظَّيَّانُ والآسُ[٣]

أَراد: لا يَبْرَح، ولا يبْقَى. وقال الزَّجَّاجي[٤]: وقد تحذف أيضاً (ما) في هذا

---

(١) من الآية (٥٥) من سورة (الزخرف).

(٢) البيت من قصيدة امرىء القيس الوجدانية التي يقول في مطلعها: «ألا عِمْ صَبَاحاً أَيُّها الطَّلَلُ البالي»، وفي البيت الذي قبله تقول له الحبيبة: «سَبَاكَ اللهُ إنَّكَ فاضحي» فيجيبها: لن أبرح مكاني حتى لو أدركوني وقطَّعوا أوصالي. وهذا مما يؤكد شدة هيامه ووجده بها إلى درجة التفاخر والشجاعة التي هي خط القصيدة. و«يمينُ الله» تكون بالرفع على أنه مبتدأ خبره مضمر تقديره: يمين الله لازمني، وتكون بالنصب على إضمار فعل، مثل قول العرب: «أمانةَ الله»، و«أبرح» معناه: «لا أبرح» بحذف (لا) لدلالة المعنى عليها، وذلك لأن الفعل بعد القسم غير مؤكد، ولو كان الكلام إثباتاً لوجب توكيد الفعل بالنون فيقول: «أبرحنَّ»، والأوصال: جمع وِصْل بالكسر، وهو كل عضو ينفصل من آخر.

(٣) البيت في «الصحاح»، وقد نسبه إلى الهُذَلي، وقال محققه: هو مالك بن خالد الخناعي، و«حِيَد» بكسر الحاءِ وفتح الياءِ جمع «حَيْدة» على وزن بَدْرَة وبِدَر، قال في الصحاح: والحَيْدَةُ: كل نُتُوءٍ في قرن الوعل والجبل، والحَيْد: حَرْف شاخصٌ يخرج من الجبل. والظَّيَّان والآسُ: نوعان من الأزهار والرياحين التي تنبت في الجبال، والمُشْمَخِرّ: الجبل العالي المرتفع في السماءِ، والشاهد في البيت حذف حرف النفي (لا) لأن المعنى يدل عليه، والتقدير كما قال ابن عطية: «لا يَبْقَى على الأيام».

(٤) هو عبد الرحمن بن إسحاق النهاوندي الزَّجَّاجي، أبو القاسم، شيخ العربية في عصره، ولد في نهاوند، ونشأ في بغداد، وتوفي في طبرية، وله من الكتب المطبوعة: «الجُمل الكبرى» و«الإيضاح الكافي»، وله من الكتب التي لا تزال مخطوطة: «الزاهر» في اللغة. وكانت وفاته سنة ٣٣٧هـ، ٩٤٩م. =

الموضع، وخطَّأَهُ بعض النحويِّين. ومن المواضع التي حذفت فيها (لا) ويدل عليها الكلام، قول الشاعر:

فَلاَ ـ وأبي دهماءَ ـ زالَتْ عَزيزَةً ... على قَوْمِها ما فَتَّلَ الزَّنْدَ قادِحُ[1]

وقوله: «ما فَتَّلَ الزَّنْدَ قادِحُ» يوجب أَن المحذوف (لا)، وليست (ما).

و(فَتِىءَ) بمنزلة زال وبَرِح في المعنى والعمل، تقول: «والله لا فتِئْتُ قاعداً» كما تقول: «لا زلت ولا برِحْت»، ومنه قول أَوس بن حجر:

فَما فَتِئَتْ حَتَّى كأَنَّ غُبارَها ... سُرَادِقُ يَوْمٍ ذي رِياحٍ تَرفَّعُ[2]

و«الْحَرَضُ»: الذي قد نَهَكه الهرم أَو الحب أَو الحزن إِلى حال فساد الأَعضاءِ والبدن والحِسِّ، وعلى هذا المعنى قراءَة الجمهور: ﴿حَرَضاً﴾ بفتح الراءِ والحاءِ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن بضمهما، وقرأَت فرقة: [حُرْضا] بضم الحاءِ وسكون الراءِ، وهذا كله المصدر يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع بلفظ واحد، كعَدْلٍ وعَدُوٍّ، وقيل في قراءَة الحسن: إنه فتات الأَشْنان[3]، أَي: بالياً متفتتاً، ويقال من هذا المعنى الذي هو شن الهمِّ والهرم: «رجلٌ حارضٌ»، ويُثَنَّى هذا البناءُ ويُجمع ويُؤَنَّث

= (الأعلام، بغية الوعاة، وفيات الأعيان).

(١) البيت مجهول القائل، وقد ذكره البغدادي في خزانة الأدب الكبرى شاهداً على أنه قد فصل بالجار والمجرور، أعني الجملة القسمية «وأبي الدَّهماء» بين (لا) النافية و(زال). وذكره ابن هشام في الجملة الاعتراضية شاهداً على أنها تكون بين حرف النفي ومنفيه. وقال الفراءُ في معاني القرآن: «إن (لا) قد تضمر مع الأيمان لأنها إذا كانت خبراً لا يضمر فيها (لا)، لم تكن إلا بلام، ألا ترى أنك تقول: والله لآتينَّك، ولا يجوز أن تقول: والله آتيك، إلا أن تكون تريد: لا آتيك، فلما تبيَّن موضعها وفارقت الخبر أُضمرت، قال امرىء القيس: فقلت يمينُ اللهِ أَبرح... البيت، وأنشد بعضهم: فلا وأبي دهماءَ زالت عزيزةً... البيت». ودهماءُ: اسمُ امرأة، والشاعر يقسم بوالدها، وجملة (لا زالت عزيزةً) جواب القسم، وقد روى البيت: (مَا دام للزَّنْد قادح).

(٢) قال أوس بن حجر هذا البيت من قصيدة له في وصف الخيل، وقد استشهد به ابن عطية للدلالة على أن (فتىء) بمنزلة (زال) في المعنى وفي العمل، والسرادق: كلُّ ما أحاط بشيءٍ من حائط أو مِضْرب، وقد جعل الشاعر الغبار الذي تثيره الخيل في اليوم الشديد الرياح كالسُّرادق الذي يغطي الفضاءَ كله.

(٣) الشَّنُّ: القِربة الخَلَق الصغيرة يكون الماءُ فيها أبرد من غيرها، وجمعه: شِنان، وفي اللسان عن اللحياني: قربة أشْنَان، كأنهم جعلوا كل جزءٍ منها شَنّاً ثم جمعوا على هذا، قال: ولم أسمع «أشناناً» في جمع «شَنٍّ» إلا هنا.

ويذكِّر، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

إِنِّي امْرُؤٌ لَجَّ بي حُبٌّ فَأَحْرَضَني حتَّى بَلِيتُ وحتَّى شَفَّني السَّقَمُ[(١)]

وقد سمع من العرب «رجلٌ مُحْرَضٌ»، قال الشاعر وهو امرؤُ القَيْس:

أَرى الْمَرْءَ ذا الأَذوادِ يُصْبِحُ مُحْرَضاً كإِحْراضِ بكْرٍ في الدِّيارِ مريضِ[(٢)]

والْحرض ـ بالجملة ـ: الذي فسد ودنا موته، قال مجاهد: الحرَضُ: ما دون الموت[(٣)]، قال قتادة: الحَرَض: البالي الهرم، وقال نحوه الضحاك والحسن، وقال الحسن: [حَرَضاً]: معناه: فاسدٌ لا عقل له، فكأَنهم قالوا على جهة التعنيف له: أَنت لا تزال تذكر يوسف إلى حال القرب من الهلاك، أَو إلى الهلاك، فأَجابهم يعقوب عليه السلام رادًّا عليهم: إِني لست ممن يجزع ويضجر فيستحق التعنيف، وإِنما أَشكو بَثِّي وحزني إِلى الله.

و«البَثُّ»: ما في صدر الإِنسان مما هو معتزم أَن يبثه وينشره، وأَكثر ما يستعمل البثُّ في المكروه، وقال أَبو عبيدة وغيره: البَثُّ: أَشد الحزن، وقد يستعمل البثُّ في المخفي على الجملة، ومنه قول المرأَة في حديث «أُمِّ زَرْعٍ»: (وَلا يُولج الكفَّ ليعلم البَثَّ)[(٤)]،

---

(١) البيت للعَرْجيِّ عبد الله بن عمر بن عبد الله، ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن شاهداً على أن معنى أحرضني هو: أذابني، وذكره في اللسان شاهداً على أن أحرض بمعنى: أفسد، وقال: إن معنى «شَفَّني السَّقَم»: أذابني.

(٢) الأذْواد: جمع ذَوْدٍ، وهو الثلاثة إلى العشرة من الإبل، وقد ذكره في اللسان دليلاً على أن المُحْرَض هو الهالك مرضاً، الذي لا حيٌّ فيرجى ولا ميِّت فيُوءَسُ منه، والبَكْرُ: الفَتِيُّ من الإبل، وجمعه: أبْكُر وبِكارٌ، يقول: إن المرءَ مهما كان صاحب مال يصيبه المرض الذي لا رجاءَ بعده تماماً كالبكر القوي من الإبل حين يصبح في الديار مريضاً.

(٣) ومن ذلك قول الشاعر:

سَرَى هَمِّي فَأَمْرَضَني وَقِدْماً زَادَني مَرَضَا
كذاكَ الحُبُّ قَبْلَ اليَوْ م مِمَّا يُورِثُ الحَرَضَا

(٤) رواه البخاري في «كتاب النكاح» باب «حسن المعاشرة»، وهو عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً. . . فقالت الأولى. . . الحديث)، وفيه: (قالت السادسة: زوجي إن أكل لَفَّ، وإن شرب اشْتَفَّ، وإن اضطجع الْتَفَّ، ولا يولج الكفَّ ليعلم البَثَّ). وفي آخره: (قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: كنتُ لك كأبي زَرْع لأم زَرْع)، وكانت أُم زَرْع أكرمهن على زوجها.

ومنه قولهم: «أَبثُّك حديثي»[١].

وقرأ عيسى: [وَحَزَني] بفتح الحاءِ والزاي.

وحكى الطبري بسند أَن يعقوب دخل على فرعون وقد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فقال له فرعون: ما بلغ بك هذا يا إِبراهيم؟ فقالوا: إِنه يعقوب، فقال: ما بلغ بك هذا يا يعقوب؟ قال له: طول الزمان وكثرة الأَحزان، فأَوحى الله إِليه: يا يعقوب، أَتشكوني إِلى خلقي؟ قال: يا رب، خطيئة فاغفرها لي. وأَسند الطبري إِلى الحسن قال: كان بين خروج يوسف عن يعقوب إِلى دخول يعقوب على يوسف ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه، ولم يزل يبكي حتى كف بصره، وما في الأَرض يومئذ أَكرم على الله من يعقوب.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يحتمل أَنه أَشار إِلى حسن ظنه بالله وجميل عادة الله عنده، ويحتمل أَنه أَشار إِلى الرؤْيا المنتظرة، أَو إِلى ما وقع في نفسه عن قول ملك مصر: إِني أَدعو له برؤْية ابنه قبل الموت، وهذا هو حسن الظن الذي قدمناه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

المعنى: اذهبوا إِلى الأَرض التي جئتم منها وتركتم أَخويكم بنيامين وروبيل. ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾، أَي: استقصوا وتفرقوا، والتَّحَسُّسُ: طلب الشيءِ بالحواس، ويستعمل في الخير والشر، فمن استعماله في الخير هذه الآية، وفي الشَّر نَهي النبي ﷺ في قوله: (ولا تحَسَّسُوا)[٢].

---

(١) حقيقة البَثِّ في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياءِ المهلكة التي لا يتهيأُ له أن يخفيها، وهو من: بثثته أي فرقته، فسميت المصيبة بثًّا مجازاً، قال ذو الرمة:

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ ناقَتي … فما زِلْتُ أبكي عِنْدَهُ وأُخاطِبُهْ
وأُسْقِيهِ حتَّى كادَ مِمَّا أَبُثُّهُ … تُكَلِّمُني أَحْجارُهُ ومَلاعِبُهْ

(٢) جاء هذا في حديث رواه مسلم في كتاب البر، وفيه (ولا تدابروا ولا تحسَّسُوا).

وقوله: ﴿مِن يُوسُفَ﴾ يتعلق بمحذوف يعمل فيه ﴿تَحَسَّسُوا﴾، التقدير: فَتَحَسَّسُوا نبأً أو حقيقةً من أمر يوسف، لكن يحذف ما يدل ظاهر القول عليه إيجازاً.

وقرأت فرقة: ﴿تَيْأَسُوا﴾، وقرأت فرقة: [تَأْيسُوا] على ما تقدم[1]، وقرأ الأعرج: [تِيْئسُوا] بكسر التاءِ، وخص يوسف وبنيامين بالذكر لأن روبيل إنما بقي مختاراً، وهذان قد مُنعا الأوْبة.

والرَّوْحُ: الرحمة، ثم جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين، إذْ فيه: إمَّا التكذيب بالربوبية، وإمَّا الجهل بصفات الله تبارك وتعالىٰ. وقرأ الحسن، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز[2]: [من رُوحِ اللهِ] بضم الراءِ، وكأن معنى هذه القراءَة: «لا تيأسوا من حيٍّ معه رُوحُ الله الذي وهبه، فإنَّ من بقي رُوحُه فيرجى»، ومن هذا قول الشاعر:

وَفِي غَيْرِ مَنْ قَدْ وارَت الأَرْضُ فاطْمَعِ[3]

ومن هذا قول عبيد:

وكُلُّ ذي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ وغائِبُ ٱلْمَوْتِ لا يَؤُوبُ[4]

ويظهر من حديث الذي قال: (إذا متُّ فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذرُّوني في البحر

---

(١) عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (٨٠) من هذه السورة: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾.

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، أبو حفص الأموي، أمير المؤمنين رضي الله عنه، وردت الرواية عنه في حروف القرآن، ومناقبه كثيرة، عرف بالصلاح والتقوى، وحكم بالعدل، وأعاد سيرة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، توفي في رجب سنة ١٠١ هـ.

(٣) المعنى: لا أمل ولا رجاءَ فيمن مات، أما من بقيت فيه الروح فإنه يظل موضع الأمل والرجاءِ. هذا وقد قال ابن جني تعليقاً على هذه القراءة: ينبغي أن تكون من الروح الذي من الله، ويُعني به رُوح ابن آدم، وقد أُضيف نحو ذلك إلى الله، قال لنا أبو عليٍّ في قولهم:

إذا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أعْجَبَني رِضَاهَا

أي: «وحق العمر الذي وهبه الله لي». والبيت لِلْقُحَيْف العُقَيْلي يمدح حكيم بن المُسَيَّب القُرَشي.

(٤) البيت لعبيد بن الأبرص من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فَالقُطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

وقبل هذا البيت يقول عبيد:

فَكُلُّ ذِي نِعْمَةٍ مَخلوسٌ وَكُلُّ ذِي أَمَلٍ مَكْذوبُ
وكُلُّ ذِي إِبِلٍ مَوْرُوثٌ وكُلُّ ذِي سَلَبٍ مَسْلُوبُ

والبرِّ في يوم راحٍ، فلئن قَدَر اللهُ عليَّ فليعذبني عذاباً ما عذَّبه أحداً من العالمين)[(١)]: إنه يئس من روح الله، وليس الأمر كذلك لأن قول النبي ﷺ في آخر الحديث: (فغفر الله له) يقْتضي أنه مات مؤمناً إذ لا يَغفر الله لكافر، فبقي أن يُتأول الحديث، إما على أن (قَدَرَ) بمعنى: ضيَّق وناقش الحساب، فذلك معنى بيِّن، وإما أن تكون من «القدرة» ويكون خطؤه في أن ظن أن الاجتماع بعد السحق والتذرية مُحال لا يوصف الله تعالىٰ بالقدرة عليه، فغلط في أن جعل الجائز محالاً، ولا يلزمه بهذا الكفر.

قال النقاش: وقرأ ابن مسعود: «مِنْ فَضل»، وقرأ أُبيٌّ بن كعب: «مِنْ رَحْمة الله».

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ الآية، في هذا الموضع اختصار محذوفات يعطيها الظاهر، وهي أَنهم نفذوا من الشام إلى مصر ووصلوها، والضمير في [عَلَيْهِ] عائد على يوسف. و[الضُّرّ] أرادوا به المسغبة التي كانوا بسبيلها وأَمْرُ أَخيهم الذي أَهمَّ أَباهم وغمَّ جميعهم، و«البضاعة»: القطعة من المال يقصد بها شراءُ شيءٍ، ولزمها عرف الفقه فيما لاحظ لحاملها من الربح، و«المُزْجاةُ» معناها: المدفوعة المتحيل لها، ومنه: إزجاءُ السحاب، ومنه: إزجاءُ الإبل، كما قال الشاعر:

عَلَى زواحِفَ تُزْجى مُخُّها رِيرُ[(٢)]

وكما قال النابغة:

وهبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ ذي أُرُلٍ ... تُزْجي مع اللَّيْلِ مِنْ صُرَّارِها صَرِمَا[(٣)]

---

(١) الحديث رواه البخاري في التوحيد، والأنبياء، والرقاق، ورواه مسلم في التوبة، والنسائي في الجنائز، وابن ماجه في الزهد، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده، ولفظه كما في البخاري في كتاب الرقاق باب الخوف من الله (عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ ذكر رجلاً فيمن كان سلف، أو قبلكم، آتاه الله مالاً وولداً ـ يعني أعطاه ـ قال: فلما حُضر قال لبنيه: أيَّ أب كنتُ لكم؟ قالوا: خير أب، قال فإنه لم يَبْتَئِر عند الله خيراً ـ فسَّرها قتادة: لم يدَّخر ـ وإن يَقْدم على الله يعذبه، فانظروا، فإذا متُّ فأحرقوني حتَّى إذا صرت فحماً فاسحقوني ـ أو قال: فاسهكوني ـ ثم إذا كان ريحٌ عاصف فأذروني فيها، فأخذ مواثقهم على ذلك وربي، ففعلوا، فقال الله: كُنْ، فإذا رجلٌ قائم، فقال: أي عبدي، ما حملك على ما فعلت؟ قال: مخافتك أو فَرَقٌ منك، فما تلافاه أنْ رحمه الله).

(٢) قال في (الصحاح): «الفَرَّاءُ: مُخٌّ رَيْرٌ ورِيرٌ أيْ فاسدٌ ذاهبٌ من الهزال، وأنشد:

والسَّاقُ مِنِّي باديَاتُ الرَّيْرِ

أي: أنا ظاهر الهزال، لأنه رقَّ عظمه ودقَّ جلده فظهر مُخُّه». وتُزْجَى: تساق وتدفع إلى السير.

(٣) البيت من قصيدة مطلعها: =



وقال الأَعشى:

الـوَاهِـبُ المِـائَـةَ الْهِجـان وعبْـدَهَـا ... عُـوذاً تُـزَجِّـي خَلْفَهـا أَطْفَـالَهَـا[١]

وقال الآخر:

وحَـاجَـة غَيْـرَ مُـزْجـاةٍ مِـن الْحَـاجِ[٢]

وقال حاتم:

لِيبْـك علـى مِلْحَـانَ ضيْـفٌ مُـدَفَّـعٌ ... وأَرْمَلَـةٌ تُـزْجِـي مَـع اللَّيْـلِ أَرْمـلاَ[٣]

فجملة هذا أَن من يسوق شيئاً ويتلطف في تسييره فقد أَزجاه، فإذا كانت الدراهم المدفوعة نازلة القدر تحتاج أَن يعتذر معها ويشفع لها فهي مُزجَاةٌ، فقيل: كان ذلك لأَنها كانت زُيُوفاً[٤]، قاله ابن عباس، وقال الحسن: كانت قليلة، وقيل: كانت ناقصة، قاله ابن جُبَيْر، وقيل: كانت بضاعتهم عروضاً فلذلك قالوا هذا، واختلف في تلك

= بـانَـتْ سُعَـادُ وأمْسَـى حَبْلُهَـا انْجَـذَمـا ... واحْتَلَّتِ الشَّرْعَ فالأَجْزَاعَ مِنْ إضَمَا

وأُرُل بضم الهمزة والراءِ: جبل بأرض غطفان، قال ابن قتيبة: إذا كانت الريح شمالاً أتت من عُرْضه، وتُزْجي: تسوق، وصُرَّارها بضم الصاد: غيم لا مطر فيه، فهو يحجب الشمس ولا يمطر، والصِّرِم: جمع صرمة وهي قطع السحاب، وأصلها: القطعة من الإبل. والبيت شاهد على أن الإزجاءَ هو السوق بالدفع.

(١) البيت لأعشى بني ثعلبة ميمون بن قيس، وهو من قصيدة يمدح بها قيس بن معد يكرب، ومطلعها:

رَحَلَـتْ سُمَيَّـةُ غُـدْوَةً أَجْمَـالُهَـا ... غَضْبـى عَلَيْـكَ فَمَـا تَقُـولُ بَـدَالَهَـا

والهجان: جمع هجين وهو الأبيض الكريم من الإبل، والعَوْذُ: الحديثات النتاج، يمدحه بالكرم فيقول: إنه يهب المائة من كرام الإبل وعبدها، وأطفالها تتبعها وتسعى خلفها.

(٢) ذكره في (اللسان ـ زجا) شاهداً على أن معنى «مُزجَاة»: قليلة يسيرة، قال: «وقال ثعلب: بضاعة مُزجاةٌ: فيها إغماضٌ لم يَتِمَّ صلاحها، وقيل: يسيرة قليلة، وأنشد: وحاجة... البيت»، ثم أورد كثيراً من الآراءِ في معنى (مُزْجَاة).

(٣) البيت في (اللسان ـ رمل)، وقد أنشده ابن بري شاهداً على أن الأرمل هي المرأة التي لا زوج لها، ونقل عن ابن جني قوله: «قلَّما يستعمل الأرمل في المذكر إلا في التشبيه والمغالطة، قال جرير:

كـلُّ الأرامـل قَـدْ قَضَّيْـتَ حـاجَتَهَـا ... فَمَـنْ لِحَـاجَـةِ هَـذَا الأَرْمَـلِ الـذَّكَـرِ؟

وابن عطية يستشهد بالبيت على أن معنى تُزْجي: تَسوق وتدفع.

(٤) يقال: زافَت النقود زَيْفاً وزُيُوفاً وزُيُوفة: ظهر فيها غشٌّ ورداءَة. (المعجم الوسيط).



العُروض ـ ما كانت ؟ فقيل: كانت السَّمْن والصوف، قاله عبد الله بن الحارث، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: كانت قديد وحْش، ذكره النقاش، وقال أَبو صالح، وزيد بن أَسلم: كانت الصنوبر والحبة الخضراءَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

«وهي الفستق»[١]: وقيل: كانت المُقْل[٢]، وقيل: كانت القطن، وقيل: كانت الحبال والأَعْدال والأَقْتاب[٣]. وحكى مكي أَن مالكاً رحمه الله قال: المزْجاة: الجائزة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا أَعرف لذلك وجهاً، والمعنى يأْباه، ويحتمل أَنه صحف على مالك، وأَن لفظه بالحاءِ غير منقوطة وبالراءِ[٤]، واستند مالك رحمه الله في أَن الكيل على البائع إِلى هذه الآية، وذلك ظاهر منها وليس بنص.

وقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ معناه: بما بين الدراهم الجياد وهذه المُزْجاة، قاله السدي وغيره، وقيل: كانت الصدقة غير مُحرَّمة على أُولئك الأَنبياءِ، وإِنما حرمت على محمد ﷺ، قاله سفيان بن عُيَيْنَة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف يرُدُّهُ حديث النبي ﷺ في قوله: (نحن معاشر الأَنبياءِ لا تحلُّ لنا الصدقة)[٥].

وقالت فرقة: كانت الصدقة عليهم محرمة ولكن قالوا هذا تجوزاً واستعطافاً منهم

---

(١) في إحدى النسخ: «وهي القسمور»، ولا ندري ما هو.

(٢) هو بضم الميم وسكون القاف: حَمْل الدوم، والدوم يشبه النخل.

(٣) الأعدال: الأحمال المتساوية من المتاع، يقال: عدل الأمتعة: جعلها أعدالاً متساوية لتحمل. والأَقْتاب: جمع قَتَب وهو الرَّحْلُ الصغير على قدر سنام البعير.

(٤) فتكون: الحائرة، من الحيرة.

(٥) روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ وهو يقسم تمراً من تمر الصدقة والحسن بن علي في حجره، فلما فرغ حمله النبي ﷺ على عاتقه، فسال لعابه على النبي ﷺ، فرفع النبي ﷺ رأسه فإذا تمرٌ في فيه، فأدخل النبي ﷺ يده فانتزعها منه، ثم قال: (أما علمتَ أن الصدقة لا تحل لآل محمد ؟)، وهذا الحديث يقوي رأي سفيان بن عيينة.

في المبايعة، كما تقول لمن تساومه في سلعة: هبني من ثمنها كذا وخُذْ كذا، فلم تقصد أَن يهبك، وإنما حسنت له الانفعال[1] حتى يرجع معك إلى سومك. وقال ابن جريج: إنما خصوا بقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أمر أَخيهم (يامين)، أَي: أَوف لنا الكيل في المبايعة، وتصدق علينا بصرف أَخينا إلى أبيه.

وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾. قال النقاش: يُقال: هو من المعاريض[2] التي هي مندوحة عن الكذب، وذلك أَنهم كانوا يعتقدونه مَلِكاً كافراً على غير دينهم، ولو قالوا: «إن الله يجزيك بصدقتك في الآخرة» كذبوا، فقالوا له لفظاً يوهمه أَنهم أَرادوه، وهم يصح لهم إخراجه منه بالتأويل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾.

رُوي أَن يوسف عليه السلام لما قال له إخوته: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ واستعطفوه ـ رقَّ ورحمهم، قال ابن إسحاق: وارْفَضَّ[3] دمعه باكياً، فشرع في كشف أمره إليهم، فيروى أَنه حسَرَ قناعه وقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ الآية.

وقوله: ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ يريد: من التفريق بينهما في الصغر، والتمرس بهما، وإذاية[4] (يامين) بعد مغيب يوسف، فإنهم كانوا يذلونه ويشتمونه، ولم يشر إلى قصة (يامين) الأَخيرة لأَنهم لم يفعلوا هم فيها شيئاً، ونسبهم إمَّا إلى جهل المعصية،

---

(١) النص الذي نقله في «البحر» عن ابن عطية هو: إنما حسنت له الأفعال حتى يرجع ـ إلخ وهو أقرب وأشبه بالصواب من كلمة «الانفعال».

(٢) المعاريض: جمع مِعْراض، من التعريض وهو خلاف التصريح من القول، وفي الحديث الشريف: (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب).

(٣) ارْفَضَّ الدَّمع وتَرَفَّض: نزل وسال، وفي حديث البُراق: (أنه استصعب علَيَّ ـ النبي ﷺ ـ ثم ارْفَضَّ عرقاً).

(٤) المعروف في اللغة هو: آذاهُ يُؤذيه فأذِي هو أذىً وأذِيَّة، وأما إذاية فغير فصيحة وإن وردت في القاموس. (ويامين) هو (بنيامين).



وإمّا إلى جهل الشباب وقلة الحنكة، فلما خاطبهم هذه المخاطبة ـ ويشبه أَن يكون قد اقترن بها من هيئته وبِشْره وتبسمه ما دَلَّهم ـ تنبهوا ووقع لهم من الظن القوي أنه يوسف، فخاطبوه مستفهمين استفهام تقرير.

وقرأَت فرقة: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ بتحقيق الهمزتين، وقرأَت فرقة بإدخال أَلف بين الهمزتين وتحقيقهما: [آئِنَّكَ]، وقرأَت فرقة بتسهيل الثانية [أَينَّكَ]، وقرأَ ابن مُحيصن، وقتادة، وابن كثير: [إِنَّكَ] على الخبر وتأْكيده، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب: [أَئِنَّكَ أَو أَنتَ يُوسُفُ]، قال أَبو الفتح: ينبغي أَن يكون هذا على حذف خبر (إِنَّ)، كأَنه قال: أَئِنَّكَ لَغَيْر يوسف أَو أَنت يوسف[(١)] ؟

وحكى أَبو عمرو الداني: أن في قراءَة أُبَيٍّ بن كعب: [أَوْ أَنْتَ يُوسُف]. وتأَولت فرقة ممن قرأَ: [إِنَّك] أَنها استفهام بإسقاط حرف الاستفهام، فأَجابهم يوسف كاشفاً أَمره، قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾[(٢)]، وقال مجاهد: أَراد: من يَتَّق في ترك المعصية ويصبر في السجن، وقال إِبراهيم النَّخَعي: من يتق الزنى ويصبر على العزوبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومقصد اللفظ إِنما هو العموم في العظائم، وإِنما قال: «هذان ما خصصنا» لأَنها[(٣)] كانت من نوازله، ولو فرضنا نزول غيرها به لاتَّقى وصبر.

وقرأَ الجمهور: ﴿يَتَّقِ﴾ بغير ياءٍ، وقرأَ ابن كثير وحده: [يَتَّقِي] بإثبات الياءِ، واختلف في وجه ذلك ـ فقيل: قدر الياءَ متحركة وجعل الجزم في حذف الحركة، كما قال الشاعر:

---

(١) قال أَبو الفتح: «فكأَنه قال: بل أَنت يوسف، وقد جاء حذف خبر إِنَّ كما قال الأَعشى:

إِنَّ مَحَـــلاً وإِنَّ مُـــرْتَحَـــلا ... وإِنَّ فـــي السَّفْـــرِ إِذْ مَضَـــى مَهَـــلا

أَراد: إِن لنا مَحَلاً، وإِنَّ لنا مُرْتَحَلاً، فحذف الخبر، والكوفيون لا يجيزون حذف الخبر إِلا إِذا كان الاسم نكرة».

(٢) يظهر أَن نقصاً حدث في الكلام هنا، ويُستدل عليه بالعبارة بعده، ولهذا رجعت إِلى البحر فوجدت النص الآتي: «ثم ذكر سبب مَنِّ الله عليه هو بالتقوى والصبر، والأَحسن أَلا تُخَصّ التقوى بحالة ولا الصبر، وقال مجاهد. . .».

(٣) الضمير في (لأنها) يعود على النوازل التي نزلت بيوسف، مثل فتنة الزنى، والصبر على العزوبة، ودخول السجن، وغيرها.



أَلَـمْ يَـأْتِيـكَ والأَنْبـاءُ تَنْمِـي ... بِمَـا لاقَـتْ لَبـونُ بني زِيـادِ ؟[1]

قال أبو علي: وهذا مما لا نحمله عليه، لأَنه يجيءُ في الشعر لا في الكلام، وقيل: ﴿مَنْ﴾ بمعنى الذي، و[يَتَّقِي] فعل مرفوع، و﴿يَصْبِرْ﴾ عطف على المعنى، لأَن ﴿مَنْ﴾ وإن كانت بمعنى الذي ففيها معنى الشرط، ونحوه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾[2]، وقيل: أَراد: «يصْبرُ» بالرفع، لكنه سكن الراءَ تخفيفاً، كما قرأ أَبو عمرو: [وَيَأْمُرْكم][3] بإسكان الراءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الآية، هذا منهم استنزالٌ ليوسف، وإقرارٌ بالذنب في ضمنه استغفارٌ منه، و﴿ءَاثَرَكَ﴾ لفظ يعم جميع التفضيل وأَنواع العطايا، والأَصل فيها همزتان وخُفِّفت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، والمصدر: إِيثارٌ.

وخاطئين: من خَطِىءَ يخْطَأُ، وهو المتعمد للخطأِ، والمُخْطِىءُ: من أَخطأَ وهو الذي قصد الصَّواب فلم يوفق إِليه، ومن ذلك قول الشاعر ـ وهو أُمية بن الأَسكر ـ:

وَإِنَّ مُهـاجِـرَيْـن تَكَنَّفـاهُ ... غَـداةَ غَـد لَقَـدْ خَطِئـا وَخَـابَـا[4]

وقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ عفو جميل، وقال عكرمة: «أَوحى الله إِلى يوسف:

---

(١) البيت لقيس بن زهير، من أبيات تجدها مع قصتها في «شرح الشواهد» للسيوطي ١١٣. وتَنْمِي: تسير وتنتشر حتى تبلغ، واللَّبون: جماعة الإبل ذات اللبن، والبيت في سيبويه ٢ـ٥٩، والخزانة ٣ـ٥٣٤، وسرّ صناعة الإعراب ٨٨. والشاهد فيه هو إثبات الياءِ في الفعل (يأتي) بعد (لَمْ)، وللعلماءِ في ذلك آراءٌ ذكر منها ابن عطية اثنين، ويضاف إليهما ما قيل من أن الفعل مجزوم بحذف الياءِ التي هي لام الكلمة، وهذه الياءُ الموجودة إشباع.

(٢) من الآية (١٠) من سورة (المنافقون).

(٣) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٦٨) من سورة (البقرة): ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾.

(٤) البيت لأمية بن الأسكر، ويقال: هو الأشكر بالشين، وهو من الشعراء المخضرمين، أدرك الإسلام وأسلم، والبيت من شعر له في ابنه كلاب، وكان ابنهُ قد لقي طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام فسألهما: أي الأعمال أفضل في الإسلام؟ فقالا له: الجهاد، فذهب إلى عمر رضي الله عنه وطلب إليه أن يلحقه بالجيش ففعل، وكان أبوه قد كبر وضعف، فلما طالت غيبة كلاب على أبيه قال هذا الشعر، وقد استشهد أبو عبيدة بهذا البيت في «مجاز القرآن» عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، أي إثماً، وذلك أن الرواية في البيت و(حابا) بالحاء المهملة لا بالخاء كما هي مثبتة في الأصول هنا، ثم عاد أبو عبيدة واستشهد بالبيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ وقال: «خَطِئْتُ وأخطأت واحد، قال امرؤ القيس: (يا لَهْفَ هِنْدٍ إذْ خَطِئْن كَاهلا)، أي أخطأن، وقال أُمية بن الأسكر: (وَإِنَّ مُهَاجِرَيْن... البيت)».



بعفوك عن إخوتك رفعت لك ذكرك». وفي الحديث أن أبا سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أُمية لما وردا مهاجرين على رسول الله ﷺ أعرض عنهما لِقُبْح فعلهما معه قبلُ، فشق ذلك عليهما وأتيا أبا بكر رضي الله عنه فكلفاه الشفاعة، فأبى، وأتيا عمر رضي الله عنه فكذلك، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه عليٍّ رضي الله عنه، وذهب عبد الله إلى أُخته أُم سلمة، فقال علي رضي الله عنه: الرأي أن تلقيا رسول الله ﷺ في الحفل فتصيحان به: «تالله لقد آثرك الله علينا وإنْ كنا لَخَاطِئين»، فإنه لا يرضي أن يكون دون أحد من الأنبياءِ، فلا بد لذلك أن يقول: «لا تثريب عليكما»، ففعلا ذلك، فقال لهما رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ الآية[1].

والتثريب: اللوم والعقوبة وما جرى معهما من سوءِ معتقد ونحوه، وقد عبَّر بعض الناس عن التثريب بالتعبير، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: (إذا زنت أَمة أحدكم فليجلدها ولا يُثَرِّب)[2]، أي: لا يُعيِّر، أخرجه الشيخان في الحدود.

ووقف بعض القرأة: [عَلَيْكُمْ]، وابتدأ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، ووقف أكثرهم: [اليوْمَ]، وابتدأ: ﴿يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ على جهة الدعاءِ، وهو تأويل ابن إسحاق والطبري، وهو الصحيح، و[الْيَوْمَ] ظرف، وعلى هذا فالعامل فيه ما يتعلق به [عَلَيْكُمْ]، تقديره: لا تثريب ثابت أو مستقر عليكم اليوم. وهذا الوقف أرجح في المعنى، لأن الآخر فيه حكم على مغفرة الله، اللهم إلا أن يكون ذلك بوحي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) ذكر صاحب «الإصابة» هذا الخبر قائلاً: «إن علياً علم أبا سفيان بن الحارث لما جاء لِيُسْلم أن يأتي النبي ﷺ من جهة وجهه فيقول: «تالله لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ علينا»، وذكره أيضاً الرازي في تفسيره».

(٢) أخرجه البخاري في الحدود والبيوع، ومسلم في الحدود، وكذلك أبو داود، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ـ٢٤٩، ٤٩٤). ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة قال النبي ﷺ: (إذا زنت الأمة فتبيَّن زناها فليجلدها ولا يُثَرِّب، ثم إن زنت فليجلدها ولا يُثَرِّب، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شَعَر).



حُكْمُه ـ بعد الأمر بإِلقاءِ القميص على وجه أَبيه ـ بأَن أَباه يأْتي بصيراً ويزول عماه ـ دليلٌ على أَن هذا كلَّه بوحي وإِعلام من الله تبارك وتعالىٰ، قال النقاش: ورُوي أَن هذا القميص كان لإِبراهيم كساه الله إِياه حين خرج من النار، وكان من ثياب الجنة، وكان بعْدُ لإِسحاق، ثم ليعقوب، ثم كان دفعه ليوسف فكان عنده في حفاظ من فضة(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله يحتاج إِلى سند، والظاهر أَنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبين الغرابة في أَن وجد ريحه من بُعْد، ولو كان من قُمُص الجنة لما كان في ذلك غرابة ولوجده كل أَحد.

وأَما «أَهْلُهُم» فرُوي أَنهم كانوا ثمانين نسمة، وقيل: ستة وسبعين نفساً بين رجالٍ ونساءٍ، وفي هذا العدد دخلوا مصر ثم خرج منها أَعقابهم مع موسى في ستمائة أَلف، وذكر الطبري عن السدي أَنه لما كشف أَمره لإِخوته سأَلهم عن أَبيهم: ما حاله؟ فقالوا: ذهب بصره من البكاءِ، فحينئذ قال لهم: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ الآية، معناه: فصلت العير من مصر متوجهة إِلى موضع يعقوب حسبما اختلف فيه، فقيل: كان على مقربة من بيت المقدس، وقيل: كان بالجزيرة، والأَول أَصح، لأَن آثارهم وقبورهم حتى الآن هناك، ورُوي أَن يعقوب وجد ريح يوسف وبينه وبين القميص مسيرة ثمانية أَيام، قاله ابن عباس، وقال: هاجت ريح فحملت عَرْفه، ورُوي أَنه كان بينهما ثمانون فرسخاً، قاله الحسن، وابن جريج، قال: وقد كان فارقه قبل ذلك سبعاً وسبعين سنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قريب من الأَول. ورُوي أَنه كان بينهما مسيرة ثلاثين يوماً، قاله الحسن بن أَبي الحسن، ورُوي عن أَبي أَيوب الهوزني أَن الريح استأْذنت في أَن توصل عرف يوسف إِلى يعقوب، فأُذن لها في ذلك، وكانت مخاطبة يعقوب هذه لحاضريه، ورُوي أَنهم كانوا حَفَدَتَهُ، وقيل: كانوا بعض بنيه، وقيل: كانوا قرابته.

---

(١) في بعض النسخ: «في حفاظ من قَصَب»، والقَصَب: ما كان مستطيلاً أجوف من الفضة والذهب ونحوهما، والواحدة: قصبة.



و[تُفَنِّدُون] معناه: تَرُدُّون رأيي وتدفعون في صدري، وهذا هو التفنيد في اللغة، ومن ذلك قول الشاعر:

يا عاذِلَيَّ دَعا لَوْمي وَتَفْنيدِي ... فَلَيْس ما فَاتَ مِنْ أَمْرِي بِمرْدودِ[١]

ويقال: «أَفْنَدَ الدهر فلاناً» إذا أفسده، قال ابن مقبل:

دَع الدَّهْر يفْعَلْ ما أَراد فَإِنَّهُ ... إذا كُلِّفَ الإِفْنَادَ بالنَّاسِ أَفْنَدا[٢]

ومما يعطي أَن الفَنَد: الفساد في الجملة قولُ النابغة:

إلاَّ سُليْمَانَ إذْ قَالَ الإلهُ لَهُ ... قُمْ في الْبَرِيَّةِ فاحْدُدْهَا عن الْفَنَدِ[٣]

وقال منذر بن سعيد: يقال: شيخ مُفَنَّد، أَي قد فسد رأيه، ولا يقال: عجوز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتَّفْنيد يقع إما لجهل المُفَنَّد، وإما لهوىً غلبه، وإما لكذبه، وإما لضعفه وعجزه لذهاب عقله وهرمه، فلهذا فسر الناس التفنيد في هذه الآية بهذه المعاني، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (أَوْ هَرِماً مُفَنَّداً)[٤]، قال ابن عباس، ومجاهد وقتادة: معناه:

---

(١) البيت لهانىء بن شكيم العدوي، والرواية في الطبري يا صاحبيَّ، وكذلك رواه القرطبي، وقد استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن» دليلاً على أن معنى [تُفَنِّدُون] هو تُسَفِّهون وتُعَجِّزون، وفي روايته: (ما فات من أمرٍ)، يقول الشاعر: لا داعي لِلَّوم وتسفيه الرأي فقد مضى ما مضى ولا سبيل إلى الرجوع فيه.

(٢) الخطاب في البيت لخليليه، وقد ذكرهما قبل البيت، ولهذا فالرواية (دَعَا)، ولفظ البيت كما في الديوان:

دَعَا الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا أَرادَ فَإِنَّهُ ... إذا كُلِّف الإفْسَادَ بالنَّاسِ أفْسَدا

وعلى هذا فلا شاهد فيه. ومعنى أفْنَد: أوقع في الفَنَد، وهو الخرف وإنكار العقل من الهرم والمرض.

(٣) البيت من قصيدته المشهورة التي قالها يمدح النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه مما بلغه عنه في أمر المتجردة، وهو هنا يشبه النعمان بسيدنا سليمان عليه السلام في عظم الملك، وقبل هذا البيت يقول النابغة:

ولا أَرى فاعِلاً في النَّاسِ يُشْبِهُهُ ... ولا أُحَاشي مِنَ الأَقْوَام مِنْ أَحَدِ

(٤) هذا جزء من حديث رواه الترمذي في الزهد، وقد ورد التفنيد في أحاديث كثيرة، روى شمر في حديث واثلة بن الأسقع أنه قال: خرج رسول الله ﷺ فقال: (أتزعمون أنني من آخركم وفاة؟ ألا إني من أولكم وفاةً، تتبعوني أفناداً يهلك بعضكم بعضاً)، والمعنى تتبعونني ذوي فَنَد، أي: عجز وكفر للنعمة.



تُسَفِّهون، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: تُجَهِّلُون، وقال ابن جُبير، وعطاء: معناه: تُكَذِّبون[1]، وقال ابن إسحاق: معناه: تُضَعِّفُونَ، وقال ابن زيد، ومجاهد: معناه: تقولون ذهب عقلك، وقال الحسن: معناه: تهرمون.

والذي يشبه أَن تفنيدهم ليعقوب عليه السلام إنما كان لأَنهم كانوا يعتقدون أَن هواه قد غلبه في جانب يوسف عليه السلام[2]، قال الطبري: أَصل التَّفْنيد الإِفساد.

وقولهم: ﴿ لَفِى ضَلَٰلِكَ ﴾ يريدون: انْتِكَافِكَ وتحيُّرك[3]، وليس هو بالضلال الذي هو في العُرف ضد الرشاد، لأَن ذلك من الجفاءِ الذي لا يسوغ لهم مواجهته به، وقد تأَوله بعض الناس على ذلك، ولهذا قال قتادة رحمه الله: قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أَن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله عليه السلام. وقال ابن عباس: المعنى: لفي خطئك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكان حزن يعقوب قد تجدد بقصة (يامين)، فلذلك يقال له: ذو الحزنين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ ﴾.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن البشير كان يهوذا لأَنه كان جاءَ بقميص الدم.

---

(١) ومنه قول الشاعر:

هَـلْ فـي افْتخـارِ الكَـريـمِ مِـنْ أَوَد ؟ ... أَمْ هَـلْ لِقَـوْلِ الصَّـدْقِ مِـنْ فَنَـدِ ؟

والأود: العوج، والفَنَد هنا الكذب.

(٢) فهو إذاً من فساد العقل، وعليه قول الشاعر:

يَـا عَـاذِلَـيَّ دَعَـا المَـلامَ وأَقْصِـرَا ... طَـالَ الهَـوَى وَأَطَلْتُمَـا التَّفْنِيـدا

(٣) الانتكاف هو الخروج من أمر إلى أمر، ففيه معنى الحيرة، وفي بعض النسخ: «ائتلافك» بمعنى: استمالتك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

حدثني أَبي رضي الله عنه قال: سمعت الواعظ أَبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يقول: إِن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ قال يهوذا: قد علمت أَني ذهبت إِليه بقميص التَّرْحة فدعوني أَذهب إِليه بقميص الفَرْحة، فتركوه وذلك. وقال هذا المعنى السدي.

و[ٱرْتَدَّ] معناه: رجع هو، يقال: ارتَدَّ الرجل ورَدَّه غيره، و[بصِيراً] معناه: مبصراً. ثم وقفهم على قوله لهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهذا ـ والله أَعلم ـ هو انتظاره لتأْويل الرُّؤْيا، ويحتمل أَن يشير إِلى حسن ظنه بالله تعالىٰ فقط. ورُوي أَنه قال للبشير: على أَي دين تركت يوسف؟ قال: على الإِسلام، قال: الحمد لله، الآن تمت النعمة. وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «فلما أَن جاءَ البشير من بين يدي العير، وحكى الطبري عن بعض النحويين أَنه قال: [أَنْ] في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ زائدة، والعرب تزيدها أَحياناً في الكلام بعد (لمَّا) وبعد (حتَّى) فقط، تقول: لما جئت كان كذا، ولما أَن جئت، وكذلك تقول: ما قام زيد حتى قمت، وحتى أَن قمت.

وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾.

رُوي أَن يوسف عليه السلام لما غفر لإِخوته وتحققوا أَيضاً أَن يعقوب يغفر لهم قال بعضهم لبعض: ما يغني عنا هذا إِن لم يغفر الله لنا، فطلبوا حينئذ من يعقوب أَن يطلب لهم المغفرة من الله تعالىٰ، واعترفوا بالخطأ، فقال لهم يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾، قالت فرقة: سَوَّفَهم إِلى السَّحَر، ورُوي عن محارب بن دثار أَنه قال: كان لي عمٌّ يأْتي المسجد، فسمع إِنساناً يقول: «اللهم دعوتني فأَجبت، وأَجبتني فأَطعت، وهذا سحَرٌ فاغفر لي»، فاستمع الصوت فإِذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسئل عبد الله بن مسعود عن ذلك فقال: إِن يعقوب عليه السلام أَخَّر بنيه إِلى السَّحَر، ويُقوي هذا التأْويلَ قولُ النبي ﷺ: (ينزل ربنا كل ليلة إِذا كان الثلث الآخر إِلى سماءِ الدنيا فيقول: من يدعوني فأَستجيب له؟ من يستغفرني فأَغفر له. . .) الحديث[1]، ويقويه قوله تبارك

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد، ومسلم في المسافرين، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في الصلاة، وفي الدعوات، وابن ماجه في الإقامة، والدارمي في الصلاة، والموطأ في القرآن، والإمام أحمد في مسنده (٢ـ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٨٢، ٤١٩، ٤٨٧، ٥٠٤).



وتعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾(١). وقالت فرقة: إنما سَوَّفهم يعقوب إلى قيام اللَّيل، وقالت فرقة ـ منهم سعيد بن جبير ـ: سوَّفهم يعقوب إلى الليالي البيض، فإن الدعاءَ فيهن يستجاب، وقيل: إنما أَخَّرهم إلى ليلة الجمعة، وروى ابن عباس هذا التأويل عن النبي ﷺ، قال: أخرهم يعقوب حتى تأتي ليلة الجمعة(٢).

ثم رجَّاهم يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا﴾ الآية. ها هنا محذوفات يدل عليها الظاهر، وهي: فرحل يعقوب بأَهله أَجمعين وساروا حتى بلغوا يوسف، فلما دخلوا عليه. و﴿آوَىٰ﴾ معناه: ضَمَّ وأَظهر الحَفَاوَة بهما(٣)، وفي الحديث: (أَمَّا أَحدهم فأَوى إِلى الله فآواه الله)(٤). وقيل: أَراد بالأَبوين أَبَاهُ وأُمَّه، قاله ابن إِسحاق، والحسن، وقال بعضهم: أَباه وجَدَّته أُمَّ أُمِّه، حكاه الزهراوي، وقيل: أَباه وخالته، لأَن أُمه قد كانت ماتت، قاله السدي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَول أَظهر بحسب اللفظ، إِلا لو ثبت بسند أَن أُمه قد كانت ماتت، وفي مصحف ابن مسعود: [آوى إِليه أَبويه وإِخوته].

وقوله: ﴿ٱدْخُلُوا مِصْرَ﴾ معناه: تمكنوا واسكنوا واستقروا، لأَنهم قد كانوا دخلوا عليه، وقيل: بل قال لهم ذلك في الطريق حين تلقاهم، قاله السدي، وهذا الاستثناءُ هو

---

(١) من الآية (١٧) من سورة (آل عمران).

(٢) أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (في قصة قول أخي يعقوب لبنيه): ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة. (الدر المنثور).

(٣) في بعض النسخ: «وأظهر الحفاية بهما» بكسر الحاءِ وبالياء المهملة، وهي صحيحة مثل الحفاوة بالواو مع فتح الحاءِ وكسرها، يقال: حَفِيَ بالرجل حَفاوةً وحِفاوةً وحِفايةً، وتحفَّى به واحْتَفَى: بلغ في إكرامه. (عن اللسان ـ حفا).

(٤) الحديث في البخاري، في باب «من قعد حيث ينتهي به المجلس» من كتاب العلم، ولفظه في البخاري عن أبي واقد الليثي (أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فُرْجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: ألا أُخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه). هذا وقد أخرجه البخاري أيضاً في الصلاة، ومسلم في السلام، والترمذي في الاستئذان، ومالك في الموطأ (في السلام)، وأحمد (٥/ ٢١٩).



الذي ندب إليه القرآن أن يقوله الإنسان في جميع ما ينفذه بقوله في المستقبل، وقال ابن جريج: هذا مؤخر في اللفظ وهو متصل في المعنى بقوله: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التأويل ضعف.

و﴿ٱلْعَرْشِ﴾: سرير المُلْك، وكل ما عُرِّش فهو عريش وعرْش، وخصصت اللغة الْعرْش لسرير المُلْك. و﴿خَرُّوا﴾ معناه: تصوبوا نحو الأرض، واختلف في هذا السجود، فقيل: كان كالمعهود عندنا من وضع الجبهة بالأَرض، وقيل: بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه مما كان سير تحياتهم للملوك في ذلك الزمان. وأَجمع المفسرون أَن ذلك السجود ـ على أَي هيئة كان ـ فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأَعطى الله هذه الأُمة السلام تحية أَهل الجنة، وقال الحسن: الضمير في [لهُ] للهِ عزَّ وجلَّ. ورُدَّ على هذا القول[1].

وحكى الطبري أَن يعقوب لما بلغ مصر في جملته كلم يوسف عليه السلام فرعون في تلقيه، فخرج إليه وخرج الملوك معه، فلما دنا يوسف من يعقوب ـ وكان يعقوب يمشي متوكئاً على يهوذا ـ قال: فنظر يعقوب إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا، هذا فرعون مصر، قال: لا، هو ابنك، قال: فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدأُ بالسلام، فمنعه يعقوب من ذلك، وكان يعقوب أَحق بذلك منه وأَفضل، فقال: السلام عليك يا مُذْهِب الأَحزان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونحو هذا من القصص.

وفي هذا الوقت قال يوسف ليعقوب: إن فرعون قد أَحسن إلينا فادخل عليه شاكراً، فدخل عليه، فقال فرعون: يا شيخ، ما صيَّرك إلى ما أَرى ؟ قال: تتابع البلاءِ عليَّ، قال: فما زالت قدمه حتى نزل الوحي: يا يعقوب، أَتشكوني إلى من لا يضرك ولا ينفعك ؟ قال: يا ربِّ، ذنب فاغفره. وقال أَبو عمرو الشيباني: تقدم يوسفُ

---

(١) قال النقاش: هذا خطأ، والهاءُ راجعةٌ إلى يوسف لقوله تعالىٰ في أول السورة: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

يعقوب في المشي في بعض تلك المواطن، فهبط جبريل فقال له: أتتقدم أباك ؟ إن عقوبتك لذلك ألا يخرج من ذرِّيتك نبي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

المعنى: قال يوسف ليعقوب: هذا السجود الذي كان منكم هو ما آلت إليه رؤياي قديماً في الأحد عشر كوكباً وفي الشمس والقمر.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ ابتداءُ تعديد نعم الله تعالىٰ عليه، وقوله: ﴿قد أحسن بي﴾ أي: أوقع وناط إحسانه بي، فهذا منحى في وصول الإحسان بالباءِ، وقد يقال: أَحْسَنَ إليَّ، وأَحْسن فيَّ، ومنه قول عبد الله بن أبي بن سلول: يا محمد، أَحسن في مواليَّ، وهذه المناحي مختلفة المعنى، وأَليقها بيوسف قوله: [بِي] لأَنه إحسان خُرّج فيه دون أَن يقصد هو الغاية التي صار إليها[1].

وذكر يوسف إخراجه من السجن وترك إخراجه من الجب لوجهين:

أَحدهما أَن في ذكر إخراجه من الجب تجديد فعل إخوته وخزيهم بذلك وتقليع نفوسهم وتحريك تلك الغوائل وتخبيث النفوس[2].

والوجه الآخر أَنه خرج من الجب إلى الرق ومن السجن إلى الملك، فالنعمة هنا أَوضح[3].

---

(١) الأصل في (أحْسَنَ) أن يتعدى بـ(إلى)، قال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، وقد يتعدى بالباء كقوله تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، وكذلك (أَساءَ) يقال: أساء إليه، وبه، قال الشاعر:

أَسِيئِـي بِنَـا أَوْ أَحْسِنِـي لا مَلُـومَـةً ... لَـدَيْنَـا ولاَ مَقْلِيَّـةً إنْ تَقَلَّـتِ

وقد يكون (أحْسَن) ضُمِّن معنى (لَطَفَ) فعُدِّي بالباءِ.

(٢) وفي هذا المعنى يقول بعض الصوفية: «ذكْر الجفا في وقت الصفا جفا».

(٣) وقيل: ذكر إخراجه من السجن دون الجب لأن دخوله في السجن كان باختياره بقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ وكان في الجب بإرادة الله، وقيل لأنه كان في السجن مع العصاة واللصوص، أما في الجب فكان مع الله، وقيل: لأن المِنَّة في الخروج من السجن كانت أكبر، لأنه دخله بسبب أمرٍ هَمَّ=

وقوله: ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ يعم جمع الشمل والتنقل من الشقاوة إلى النعمة بسكون الحاضرة، وكان منزل يعقوب عليه السلام بأَطراف الشام في بادية فلسطين، وكان ربَّ إبل وغنم وبادية[١].

و[نَزَغَ] معناه: فَعَل فعلاً أَفسد به، ومنه قول النبي ﷺ: (لا يُشِرْ أَحدكم على أَخيه بالسلاح، لا ينزغ الشيطان في يده)[٢]، وإنما ذكر يوسف هذا القدر من أَمر إِخوته ليُبَيِّن حسن موقع النعم، لأَن النعمة إِذا جاءَت إِثر شدة وبلاءٍ فهي أَحسن موقعاً.

وقوله: ﴿ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ أَي: من الأُمور أَن يفعله.

واختلف الناس في: كم كان بين رؤْيا يوسف وبين ظهورها؟ فقالت فرقة: أَربعون سنة، هذا قول سليمان الفارسي، وعبد الله بن شداد، وقال عبد الله بن شداد: ذلك آخر ما تبطىءُ الرؤْيا، وقالت فرقة ـ منهم الحسن، وحسن بن فرقد، وفضل بن عياض ـ: ثمانون سنة، وقال ابن إِسحاق: ثمانية عشر، وقيل: اثنان وعشرون، قاله النقاش، وقيل: ثلاثون، وقيل: خمس وثلاثون، قاله قتادة، وقال السدي، وابن جبير: ست وثلاثون سنة. وقيل: إِن يوسف عليه السلام عمَّر مائة وعشرين سنة، وقيل: إِن يعقوب بقي عند يوسف نيِّفاً على عشرين سنة ثم توفي ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا وجه في ترك تعريف يوسف أَباه بحاله منذ خرج من السجن إِلى العِزَّة إِلاَّ الوحي من الله تعالىٰ لما أَراد أَن يمتحن به يعقوب وبنيه، وأَراد من صورة جمعهم. لا إِلـٰه إِلا

= به، فكان الكرب فيه أكثر، أما الجب فقد أُلقي فيه بدون ذنب، ولهذا كان كربه فيه أخف.

(١) يقال: إن يعقوب خرج إلى مكان يُسَمَّى (بَدًا)، وهو الموضع الذي عناه جميل بثينة بقوله:

وأَنْتِ التي حَبَّبْتِ شَغْباً إلى بَدَا ... إليَّ، وأوطاني بِلادٌ سِوَاهُمَا

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل هناك. (ذكر ذلك القرطبي وأبو حيان في البحر المحيط).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: من حمل علينا السلاح فليس منا، ونصه: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لا يُشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعلَّ الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار)، فالرواية هنا بالياء في (يشير) وهي على النفي المراد به النهي، وهي أيضاً بالعين المهملة في (ينزع)، والمعنى: يرمي به في يده ويحقق ضربته، ومن رواه (ينزغ) بالمعجمة فمعناه الإغراء، أي: يُزَيِّن له الشيطان تحقيق الضربة. والرواية في (مسلم) بالعين المهملة. (راجع شرح النووي).

هو، وقال النقاش: كان ذلك الوحي في الجب، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وهذا محتمل.

ومما رُوي في أَخبار يعقوب عليه السلام: قال الحسن: لما ورده البشير لم يجد عنده شيئاً يثيبه به، فقال له: والله ما أَصبت عندنا شيئاً، وما خبزنا منذ سبع ليال، ولكن: «هَوَّن اللهُ عليك سكرات الموت». ومن أَخباره أَنه لما اشتد بلاؤُه قال: يا رب، أَعميتَ بصري وغَيَّبْتَ عَني يوسف، أَفما ترحمني؟ فأَوحى الله إِليه: سوف أَرحمك وأَرُدُّ عليك ولدك وبصرك، وما عَاقَبْتُك بذلك إِلا أَنك طبخت في منزلك حَمَلاً، فشمه جارٌ لك، ولم تساهمه بشيء، قال: فكان يعقوب بعْدُ يدعوه إِلى غذائه وعشائه. وحكى الطبري أَنه لما اجتمع شمله كلفه بنوه أَن يدعو الله لهم حتى يأْتي الوحي بأَن الله قد غفر لهم، قال: فكان يعقوب يصلي ويوسف وراءَه وهم وراءَ يوسف، ويدعو لهم، فلبث كذلك عشرين سنة ثم جاءَه الوحي، إِني قد غفرت لهم وأَعطيتهم مواثيق النبوة بعدك.

ومن أَخباره أَنه لما حضرته الوفاة أَوصى إِلى يوسف أَن يدفنه بالشام، فلما مات نفخ فيه المُرَّ وحمله إِلى الشام، ثم مات يوسف فدفن بمصر، فلما خرج موسى عليه السلام ـ بعد ذلك ـ من أَرض مصر احتمل عظام يوسف حتى دفنها بالشام مع آبائه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قرأَ ابن مسعود: [آتَيْتَنِ] و[عَلَّمْتَنِ] بحذف الياءِ على التخفيف[1]، وقرأَ ابن ذرٍّ وحده: «رَبِّ آتَيْتَني» بغير «قد».

وذكر كثير من المفسرين أَن يوسف عليه السلام لما عدَّد في هذه الآية نعم الله عنده تَشَوَّق إِلى ربه ولقاءِ الجِلَّة من صالحي سلفه وغيرهم من المؤمنين، ورأَى أَن الدنيا كلها

(١) وهذا واردٌ في كلام العرب، ومنه قول الأعشى:
فَهَــلْ يَمْنَعَنِّــي ارْتِيَــادِي البِــلا ... دَ مِــنْ حَـذَرِ الْمَـوْتِ أَنْ يـأْتِيَـنْ؟

قليلة، فتمنى الموت في قوله: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. وقال ابن عباس: «لم يتمن الموت نبي غير يوسف»، وذكر المهدويُّ تأويلاً آخر ـ وهو الأقوى عندي ـ: إنه ليس في الآية تمني موت، وإنما عدَّد يوسف عليه السلام نِعَم الله عنده، ثم دعا أن يتم عليه النِّعَم في باقي عمره، أَي: توفني ـ إذا حان أَجلي ـ على الإسلام، واجعل لحاقي بالصالحين، وإنما تمنى الموافاة على الإسلام لا الموت. وورد عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحدكم الموت لِضُرٍّ نزل به. . . الحديث بكماله)[١]، ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام أَنه قال في بعض دعائه: (وإذا أَردت في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون)[٢]، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه قال: «اللهم قد رقَّ عظمي، واسْتَنْشرت رَغْبتي، فتوفني غير مقصر ولا عاجز».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيُشبه أَن قول النبي ﷺ: (لِضُرٍّ نزل به) إنما يريد به ضرر الدنيا كالفقر والمرض ونحو ذلك، ويبقى تمني الموت مخافة فساد الدين مباحاً، ويدلك على ذلك قول النبي ﷺ: (يأْتي على الناس زمان يمر فيه الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه،

---

(١) أخرجه البخاري في أكثر من كتاب، وكذلك أخرجه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد، ولفظه كما جاء في مسلم: (لا يَتَمَنَّيَنَ أَحدكم الموت لضُرٍّ نزل به، فإن كان لا بد مُتَمَنِّياً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي).

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، والإمام مالك في الموطأ، والإمام أحمد في مسنده (٥ـ٢٤٣)، وهو حديث طويل، جاء في أوله أن معاذ بن جبل قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس، فخرج رسول الله ﷺ سريعاً فثوب بالصلاة وصلى وتجوز في صلاته، فلمَّا سلَّم قال: (كما أنتم على مصافكم)، ثم أقبل علينا فقال: (إني سأُحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني أقمت من الليل فصلَّيت ما قُدِّر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا برَبِّي عزَّ وجلَّ في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت: لا أدري يا رب، قال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت: لا أدري ربِّ، فرأيته وضع كفَّه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلَّى لي كل شيءٍ وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت: في الكفارات، قال: وما الكفارات ؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجُمْعات، والجلوس في المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوءِ عند الكريهات، قال: وما الدرجات ؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام، قال: سَلْ، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحُبَّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حُبَّكَ، وحبَّ من يحبُّكَ، وحُبَّ عمل يُقرِّبني إلى حبك)، وقال رسول الله ﷺ: (إنها حقٌّ فادرسوها وتعلموها).

ليس به الدين ولكن ما يرى من البلاءِ والفتن)[1]، فقوله: (ليس به الدين) يقتضي إباحة ذلك إن لو كان عن الدين، وإنما ذكر رسول الله ﷺ حالة الناس كيف تكون.

وقوله: ﴿ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، قيل: [مِن] للتبعيض، وقيل: لبيان الجنس، كذلك في قوله: ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، والمراد بقوله: [ٱلأَحَادِيث]: الأحلام، وقيل: قصص الأنبياءِ والأُمم.

وقوله: [فَاطِرَ] منادى، وقوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ﴾ أي القائم بأمري، الكفيل بنصرتي ورحمتي.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية. [ذَٰلِكَ] إشارة إلى ما تقدم من قصة يوسف، وهذه الآية تعريض لقريش، وتنبيه على آية صدق محمد ﷺ، وفي ضمن ذلك الطعن على مكذبيه. والضمير في [لَدَيْهِمْ] عائد إلى إخوة يوسف، وكذلك الضمائر إلى آخر الآية. و[أَجْمَعُوا] معناه: عزموا وجزموا، و«الأمر» هنا هو إلقاءُ يوسف في الجب، و«المكرُ» هو أن تدبر على الإنسان تدبيراً يضره ويؤذيه، والخديعة هي أن تفعل بإنسان وتقول له ما يوجب أن يفعل هو فعلاً فيه عليه ضرر. وحكى الطبري عن أبي عمران الجوْني أنه قال: «والله ما قصَّ الله نبأَهم ليعيرهم بذلك، إنهم لأنبياءُ من أهل الجنة، ولكن قصَّ الله علينا نبأهم لئلا يقنط عبيده».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن باب خروج النار، وفيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فتتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة)... إلى أن قال: (وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً...) الحديث.



هاتان الآيتان[١] تدلان على أن الآية التي قبلهما فيها تعريض لقريش ومعاصري محمد ﷺ، كأنه قال: فإخبارك بالغيوب دليل قائم على نبوتك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون وإن كنت أنت حريصاً على إيمانهم، أي: إنما يؤمن من شاءَ الله، وقوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراض فصيح.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ﴾ الآية، توبيخ للكفرة وإقامة لِلْحُجَّة عليهم، أي: ما أسفههم في أن تدعوهم إلى الله دون أن تبتغي منهم أجراً فيقول قائل: بسبب الأجر يدعوهم، وقرأ مُبشِّر بن عُبَيْد[٢]: [وما نسألهم] بالنون.

ثم ابتدأ الله تبارك وتعالىٰ الإخبار عن كتابه العزيز أنه ذِكر وموعظة لجميع العالم، نفعنا الله به، ووفر حظنا منه بعزته.

وقرأت الجماعة: ﴿وَكَأَيِّن﴾ بهمز الألف وشدِّ الياءِ، قال سيبويه: هي كاف التشبيه اتصلت بـ (أيّ)، ومعناها معنى (كم) في التكثير، وقرأ ابن كثير: [وَكَائِن] بمد الألف وهمز الياءِ، وهو اسم الفاعل من (كان) فهو كائن، ولكن معناه معنى (كم) أيضاً[٣]. وقد تقدم استيعاب القراءَات في هذه الكلمة في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ﴾[٤].

و«الآية» هنا: المخلوقات المنصوبة للاعتبار، والحوادثُ الدالة على الله سبحانه في مصنوعاته، ومعنى ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ الآية: إذا جاءَ منها ما يُحسُّ أو يعلم في الجملة لم يتعظ الكافر به، ولا تأمله، ولا اعتبر به بحسب شهواته وَعَمَهِ[٥]، فهو ـ لذلك ـ كالْمُعْرِض، ونحو هذا المعنى قول الشاعر:

تَمُرُّ الصَّبا صَفحاً بِسَاكِنِ ذي الغَضَا ... وَيَصْدعُ قَلْبي أَنْ يَهُبَّ هبوبُهَا[٦]

---

(١) يريد قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

(٢) في «البحر المحيط»: «وقرأ بِشْر بن عُبيد. وفي بعض الأصول: مُيَسَّر».

(٣) قال أبو حيان: «وهذا شيءٌ يروى عن يونس، وهو قول مرجوح في النحو»، ثم ذكر أن المشهور عندهم هو رأي سيبويه.

(٤) من الآية (١٤٦) من سورة (آل عمران).

(٥) العَمَه: التَّحَيُّر والتردد بحيث لا يدري أين يتوجه، وهو في البصيرة كالأعمى في البصر.

(٦) الصَّبَا: ريح معروفة تقابل الدَّبور، قال في الصحاح: «مَهَبُّها المُسْتَوِي أن تهب في موضع مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار». وفي اللسان: «لقيه صفاحاً أي استقبله بصفح وجهه»، وصَفح الوجه وصُفْحُه: عرضه، فكأنه يصف الصَّبا بأنها تمر على صفحة وجهه دون أن تؤثر فيه، لكنها تشق قلبه شقاً=

وقرأ السدي: [وَٱلْأَرْضَ] بالنصب بإضمار فعل، والوقف ـ على هذا ـ في [السَّمٰوات]، وقرأ عكرمة، وعمرو بن فائد: [وَٱلْأَرْضُ] بالرفع على الابتداءِ، والخبر قوله: [يَمُرُّونَ]، وعلى القراءَة بخفض ﴿الأَرْضِ﴾ فـ ﴿يَمُرُّونَ﴾ نعت لـ «الآية»، وفي مصحف عبد الله: «والأَرض يمشون عليها».

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ الآية. قال ابن عباس: هي في أَهل الكتاب الذين يؤمنون بالله ثم يشركون من حيث كفروا بنبيه، أَو من حيث قالوا: عُزَيْر ابن الله، والمسيح ابن الله، وقال عكرمه، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: هي في كفار العرب، وإيمانهم هو إِقرارهم بالخالق والرازق والمميت، فسمَّاه إِيماناً وإِن أَعقبه إِشراكهم بالأَوثان والأَصنام، فهذا الإِيمان لغوي فقط من حيث هو تصديق مَّا. وقيل: هذه الآية نزلت بسبب قول قريش في الطواف والتلبية: لبيك لا شريك لك إِلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، وروي أَن النبي ﷺ كان إِذا سمع أَحدهم يقول: «لا شريك لك» يقول له: (قط قط)، أَي: قف هنا ولا تزد: «إلا شريك هو لك».

و«الغاشية»: ما يغشى ويغطي ويغم، وقرأَ أَبو حفص، وبشر بن عبيد[1]: [أو يأتيهم الساعة بغتة] بالياءِ. و﴿بَغْتَةً﴾ معناها: فجأَة، وذلك أَصعب.

وهذه الآية من قوله: ﴿وَكَأَيِّنْ﴾ وإِن كانت في الكفار بحكم ما قبلها، فإِن العصاة يأْخذون من أَلفاظها بحظٍّ، ويكون الإِيمان والشرك لغوياً كالرياءِ، فقد قال ﷺ: (الرياءُ الشرك الأَصغر)[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ الآية، إِشارة إِلى دعوة الإِسلام والشريعة بأَسرها، قال ابن زيد: المعنى: هذا أَمري وسُنَّتي ومنهاجي. وقرأَ ابن مسعود: [قُلْ هَذَا سَبِيلي]، والسبيل: المسلك، وتُؤَنَّث وتُذَكَّر، وكذلك الطريق[3].

= لأنها تذكره الأحبة، والشاهد في البيت أن المرور يكون بدون أثر، ولا تترتب عليه نتيجة.

(١) في الأصول: «وقرأ أبو حفص مبشر بن عبيد»، والتصويب عن «البحر المحيط».

(٢) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٥ـ٤٢٨) عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال: الرياءُ، يقول الله عزَّ وجلَّ لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً ؟).

(٣) في إعراب ﴿أدعو إلى الله على بصيرة﴾ آراءٌ كثيرة، أشهرها أن مفعول ﴿أدعو﴾ محذوف تقديره: أدعو=



و«الْبَصِيرَةُ»: اسم لمعتقد الإِنسان في الأَمر من الحقِّ واليقين، والبصيرة أَيضاً ـ في كلام العرب ـ: الطريقة من الدَّم، وفي الحديث المشهور: (تنظر في النَّصل فلا ترى بصيرة)[١]، وبها فسَّر بعض الناس قول الأَشعر الجُعْفي:

رَاحُـوا بَصَـائِـرَهُـمْ عَلَـى أَكْتَـافِهِـمْ ... وبَصِيـرَتـي يَعْـدُو بهـا عَتِـدٌ وأَي[٢]

يصف قوماً باعوا دم وَلِيِّهم، فكأَن دمه حصلت منه طرائق على أَكتافهم إِذ هم موسومون عند الناس ببيع ذلك الدم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويجوز أَن تكون البصيرة في بيت الأَشعر على المعتقد الحق، أَي: جعلوا اعتقادهم طلب الثأْر وبصيرتهم في ذلك وراءَ ظهورهم، كما تقول: طرح فلان أَمري وراءَ ظهره.

وقوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ يحتمل أَن يكون تأْكيداً للضمير في [أَدْعُو]، ويحتمل أَن تكون الآيةُ كلها أَمَّارَةً بالمعروف داعيةً إِلى الله الكفرةَ به والعصاة. و﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيه الله، أَي وقل: سبحان الله، وقل متبرئاً من الشرك.

ورُوي أَن هذه الآية ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ إِلى آخرها كانت مرقومة على رايات يوسف عليه السلام.

= الناسَ، و﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ متعلق بالفعل [أَدْعُو]، و(أَنا) توكيد للضمير المستكن في [أَدْعُو] و[مَن] معطوف على [أَنا]، والمعنى: أَدعو إِليها أَنا ومن اتبعني، ويجوز أَن يكون ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ خبراً مقدماً، والمبتدأ [أَنا]، و[مَنْ] معطوف عليه، ويجوز أَن يكون ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ حالاً من ضمير [أَدْعُو] فيتعلق بمحذوف، و[أَنا] فاعلا بالجار والمجرور النائب عن ذلك المحذوف، و[مَنْ] معطوف على [أَنا].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، وأحمد في (٣ـ٥)، ولفظه فيه عن أبي سعيد أن النبي ﷺ ذكر قوماً يكونون في أُمته، يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق، هم شرُّ الخلق، أو من شرّ الخلق، يقتلهم أدنى الطائفتين من الحق، قال: فضرب النبي ﷺ لهم مثلاً، أو قال قولاً: الرجل يرمي الرمية، أو قال: الغرض، فينظر في النصل فلا يرى بصيرة، وينظر في النضي فلا يرى بصيرة، وينظر في النوق فلا يرى بصيرة، قال: قال أبو سعيد: وأنتم قتلتموهم يا أهل العراق.

(٢) قال في اللسان: «البصيرة: مقدار الدرهم من الدم، وقيل: البصيرة من الدم: ما لم يَسِلْ، وقيل: هو الدفعة منه، وقيل: البصيرة: دم البكر، قال: راحوا بصائرهم... البيت. ويعني بالبصائر دم أبيهم، يقول: تركوا دم أبيهم خلفهم ولم يثأروا به وطلبته أنا، قال في الصحاح: وأنا طلبت ثأري، وكان أبو عبيدة يقول: البصيرة في هذا البيت: الترس أو الدرع، وكان يرويه: حملوا بصائرهم، وقال ابن الأعرابي: راحوا بصائرهم يعني ثِقَل دمائهم على أكتافهم لم يثأروا بها». اهـ. مادة بَصَرَ.
هذا وعَتِدٌ: مُعَدٌّ مُهَيَّأً يقصد نفسه، يقال: فرسٌ عَتِدٌ: مُعَدٌّ للجري، و(أي) استفهام للتهويل والتعظيم.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

هذه الآية تتضمن الردّ على مستغربي إرسال الرسل من البشر، كالطائفة التي قالت: ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[١]، وكالطائفة التي اقترحت ملَكاً، وغيرهما.

وقرأ الجمهور: [يوحى إليهم] بالياءِ وفتح الحاءِ، وهي قراءَة عاصم في رواية أَبي بكر، وقرأَ في رواية حفص ﴿ نُّوحِىٓ ﴾ بالنون وكسر الحاءِ، وهي قراءَة أَبي عبد الرحمن، وطلحة.

و[ٱلْقُرَىٰ]: المدن، وخصصها دون القوم المنتوين[٢] أَهل العمود، فإِنهم في كل أُمَّةٍ أَهل جفاءٍ وجهالة مفرطة، قال ابن زيد: أَهل القرى أَعلم وأَحلم من أَهل العمود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فإِنهم قليل نبلهم، ولم يُنَبِّىء الله منهم قطُّ رسولاً. وقال الحسن: لم يبعث الله رسولاً قطُّ من أَهل البادية، ولا من النساءِ، ولا من الجن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتَّبدِّي مكروه إِلا في الفتن وحين يُفَرُّ بالدين، كقوله عليه الصلاة والسلام: (يوشك أَن يكون خير مال المسلم غنماً. . .) الحديث[٣]. وفي ذلك أَذن رسول الله ﷺ لِسَلَمَةَ بن الأَكوع[٤].

---

(١) من الآية (٩٤) من سورة (الإسراء).

(٢) انتوَى: انتقل من مكان إلى آخر، وفي حديث المرأة البدوية التي توفي عنها زوجها: (إنها تنتوي حيث انتوى أهلها)، قال في النهاية: أي: تنتقل وتتحول، يريد البدو الرحل.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: «من الدين الفرار من الفتن»، ولفظه كاملاً عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتَّبِع بها شعف الجبال ومواقع القطر يَفِرُّ بدينه من الفتن).

(٤) أخرج البخاري في كتاب الفتن، باب «التَّعرُّب في الفتنة» عن سلمة بن الأكوع (أنه دخل على الحجاج=

وقد قال ﷺ: (لا تَعَرُّبَ في الإِسلام)[١]، وقال: (من بَدَا جفا)[٢]، وروى عنه معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: (الشيطان ذئب الإِنسان كذئب الغنم يأْخذ الشاة القاصية، فإِياكم والشعاب، وعليكم بالمساجد والجماعات والعامة)[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا ببدو يعقوب، وينفصل عن ذلك بوجهين:

أَحدهما: أَن ذلك البدو لم يكن في أَهل عمود، بل هو بتَقَرٍّ وفي منازل وربوع، والثاني: أَنه إِنما جعله بدواً بالإِضافة إِلى مصر، كما هي بنات الحواضر بدو بالإِضافة إِلى الحواضر.

ثم أحالهم على الاعتبار في الأُمم السالفة في أَقطار الأَرض التي كذبت رسلها فحاق بها عذاب الله، ثم حضَّ على الآخرة والاستعداد لها والاتقاءِ من الموبقات فيها، ثم وقفهم موبخاً بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ زيادة في وصف إِنعامه على المؤمنين، أَي: عذَّب الكفار ونجَّى المؤمنين ولدار الآخرة أَحسن لهم.

وأَما إِضافة الدار إِلى الآخرة فقال الفراءُ: هي إِضافة الشيءِ إِلى نفسه، كما قال الشاعر:

فَإِنَّكَ لَوْ حَلَلْتَ دِيَارَ عَبْسٍ ... عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ الْيَقِينِ[٤]

= فقال: يابن الأكوع، ارتددتَ على عقبيك، تَعَرَّبْتَ؟ قال: لا، ولكن رسول الله ﷺ أَذن لي في البدو)، وعن يزيد بن أبي عبيد قال: لما قُتل عثمان بن عفان خرج سلمة بن الأكوع إلى الرَّبَذَة، وتزوج هناك امرأة وولدت له أولاداً، فلم يزل بها حتى أقبل قبل أن يموت بليالٍ فنزل المدينة).

(١) الذي وجدناه في «النهاية» ما نصه: (ثلاثٌ من الكبائر منها التَّعَرُّب بعد الهجرة...) ثم فسَّر معنى «التَّعَرُّب» بقوله: هو أن يعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ـ٣٧١، ٤٤٠، ٤ـ٢٩٧)، ولفظه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ بَدَا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد عبد من السلطان قُرْباً إلا ازداد من الله بُعْداً).

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه، ولفظه كما في «الجامع الصغير»: (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشِّعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد). ورمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن.

(٤) هذا واحد من بيتين رواهما الفراءُ عن بعضهم في «معاني القرآن»، وهما: =



وفي رواية: «فَلَوْ أَقْوَتْ عَلَيْكَ دِيَارُ عَبْسٍ» ـ وكما يقال: «مسجد الجامع» ونحو هذا، وقال البصريون: هذه على حذف مضاف تقديره: «ولدار الحياة الآخرة»، أَو «المدة الآخرة».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الأَسماءُ التي هي للأَجناس كمسجد وثوب وحق وجبل ونحو ذلك ـ إذا نطق بها الناطق لم يُدْرَ ما يريد بها فتضاف إلى مُعَرَّف مُخَصِّص للمعنى المقصود، فقد تضاف إلى جنس آخر كقولك: «ثَوْبُ خَزٍّ» و«جَبَلُ تُرَابٍ»، وقد تضاف إلى صفة كقولك: «مسْجِدُ الجامع» و«حقُّ اليقين»، وقد تضاف إلى اسم خاص كقولك: «جبَلُ أُحُدٍ» ونحوه.

وقرأَ الحسن، والأَعمش، والأَعرج، وابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم، وعلقمة: [يَعْقِلُونَ] بالياءِ، واختلف عن الأَعمش، قال أَبو حاتم: قراءَة العامة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاءِ من فوق[1].

ويتضمن قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَن الرسل الذين بعثهم الله من أَهل القُرى دعوا أُمَمَهُم فلم يؤمنوا بهم حتى نزلت بهم المَثُلات، فصاروا في حيز من يُعْتبر بعاقبته، فلهذا المُضَمَّن حسُن أَن تدخل «حتى» في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾[2].

= أَتَمْـدَحُ فَقْعَسـاً وَتَـذُمُّ عَبْسـاً ؟ ألا للهِ أُمُّـكَ مِـنْ هَجِيـنِ
وَلَـوْ أَقْـوَتْ عَلَيْـكَ دِيَـارُ عَبْـسٍ عَـرَفْـتَ الـذُّلَّ عِـرْفَـانَ الْيَقِيـنِ

ثم قال: أضاف الدار إلى الآخرة، وهي الآخرة، وقد تضيف العربُ الشيءَ إلى نفسه، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾، وجميع الأيام تضاف إلى أنفسها لاختلاف لفظها، وكذلك شهر ربيع، والعرب تقوله في كلامها، ثم أنشد البيتين عن بعضهم.

(١) قال في «البحر المحيط»: «وقرأ الحسن، وعلقمة، والأعرج، وعاصم، وابن عامر، ونافع بالتاءِ على خطاب هذه الأمة تحذيراً لهم مما وقع فيه أُولئك فيصيبهم ما أصابهم». تأمل الاختلاف بين الذي قاله ابن عطية والذي قاله أبو حيان.

(٢) قال أبو حيان في البحر بعد أن نقل كلام ابن عطية هذا: «ولم يتحصل لنا من كلامه شيءٌ يكون ما بعد (حتَّى) غاية له، لأنه علَّق الغاية بما ادعى أنه فهم ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ الآية». وقال القرطبي: «المعنى: وَمَا أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً ثم لم نعاقب أُممهم بالعقاب حتَّى إذا استيأس الرسل».



وقرأ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، والحسن، وعائشة ـ بخلاف ـ وعيسى، وقتادة، ومحمد بن كعب، والأَعرج، وأَبو رجاءٍ، وابن أَبي مُلَيْكَة: [كُذِّبُوا] بتشديد الذال وضم الكاف، وقرأَ الباقون: ﴿كُذِبوا﴾ بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب، وأُبيِّ بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطلحة، والأَعمش، وابن جبير، ومسروق، والضحاك، وإِبراهيم، وأَبي جعفر، ورواها شيبة بن نصاح عن القاسم عن عائشة. وقرأَ مجاهد، والضحاك، وابن عباس، وعبد الله بن الحارث ـ بخلاف عنهم ـ: [كَذَبوا] بفتح الكاف والذال[1].

فأَما الأُولى فتحتمل أَن يكون الظن بمعنى اليقين، ويكون الضمير في ﴿ظَنُّوا﴾ وفي [كُذِّبوا] للرسل، ويكون المكذبون مشركي من أُرسل إِليه، والمعنى: وتيقَّن الرسلُ أَن المشركين كذَّبوهم وصمموا على ذلك، وأَن لا انحراف عنه. ويحتمل أَن يكون الظن على بابه، والضميران للرسل، والمكذبون مؤمنو من أُرسل إِليه، أَي: لمَّا طالت المواعيد حسب الرسل أَن المؤمنين أَولاً قد كذبوهم وارتابوا بقولهم.

وأَما القراءَة الثانية ـ وهي ضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها ـ فيحتمل أَن يكون المعنى: حتى إِذا استيأَس الرسل من النصر، أَو من إِيمان قومهم ـ على اختلاف تأْويل المفسرين في ذلك ـ وظن المرسل إِليهم أَن الرسل قد كذبوهم فيما ادَّعَوْه من النبوة، أَو فيما توعدوهم به من العذاب، لمَّا طال الإِمهال واتصلت العافية، فلما كان المرسل إِليهم ـ على هذا التأْويل ـ مكذبين، بني الفعل للمفعول في قوله: ﴿كُذِبوا﴾، هذا مشهور قول ابن عباس، وابن جبير. وأَسند الطبري أَن مسلم بن يسار قال لسعيد بن جبير: يا أَبا عبد الله، آية بلغت مني كل مَبْلَغ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾، فهذا هو أَن تظن الرسل أَنهم قد كُذبوا مخففة، فقال له ابن جبير: «يا أَبا عبد الرحمن، إِنما يئس الرسل من قومهم أَن يجيبوهم، وظن قومهم أَن الرسل قد كَذَبتهم، فحينئذ جاءَ النصر»، فقام مسلم إِلى سعيد فاعتنقه وقال: فرَّجت عني فرَّج الله عنك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فرضي الله عنهم، كيف كانت خلقهم في العلم[2]، وقال بهذا التأْويل ـ في هذه

---

(١) أي الذال الخفيفة.

(٢) هكذا في جميع النسخ الأصلية «كانت» بتاء التأنيث.

القراءَة ـ ابن مسعود ومجاهد، ورجح أَبو علي الفارسي هذا التأْويل، وقال: إِن ردَّ الضمير في [ظَنُّوا] وفي [كُذِبُوا] على المرسل إِليهم ـ وإِن كان لم يتقدم لهم ذكْرٌ صريح ـ جائز لوجهين:

أَحدهما: أَن ذكر الرسل يقتضي ذكر مرسل إِليه.

والآخر: أَن ذكرهم قد أُشير إِليه في قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾.

وتحتمل هذه القراءَة أَيضاً أَن يكون الضمير في [ظَنُّوا] وفي [كُذِبُوا] عائد على الرسل، والمعنى: كَذَبَهم من أَخبرهم عن الله، والظن على بابه، وحكى هذا التأْويل قوم من أَهل العلم، والرُّسُلُ بشَرٌ، فضعفوا وساءَ ظنهم، قاله ابن عباس، وابن مسعود أَيضاً، وابن جبير وقال: أَلم يكونوا بشراً؟ وقال ابن مسعود لمن سأَله عن هذا: «هو الذي نَكْره»، وردّت هذا التأْويل عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها وجماعة من أَهل العلم، وأَعظموا أَن توصف الرسل بهذا، وقال أَبو علي الفارسي: «هذا غير جائز على الرسل».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصواب، وأَين العصمة والعلم؟

وأَما القراءَة الثالثة، وهي فتح الكاف والذال، فالضمير في [ظَنُّوا] للمرسل إِليهم، والضمير في [كَذَبُوا] للرسل. ويحتمل أَن يكون الضميران للرسل، أَي: ظن الرسل أَنهم قد كَذَبوا من حيث نقلوا الكذب وإِن كانوا لم يتعمدوه، فيرجع هذا التأْويل إِلى المعنى المردود الذي تقدم ذكره.

وقوله: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أَي: بتعذيب أُممهم الكافرة.

ثم وصف حال مجيءِ العذاب في أَنه ينجي الرسل وأَتباعهم، وهم الذين شاءَ رحمتهم، ويحل بأسه بالمجرمين الكفرة. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [فَنُنْجِي] بنونين، من أَنجى. وقرأَ الحسن: [فَنُنَجِّي]، النون الثانية مفتوحة والجيم مشددة، وهو من نجَّى يُنَجِّي. وقرأَ أَبو عمرو أَيضاً وقتادة [فَنُجِّي] بنون واحدة وشدِّ الجيم وسكون الياءِ، فقالت فرقة: إِنها كالأُولى أُدغمت النون الثانية في الجيم، ومنع بعضهم أَن يكون هذا موضع إِدغامٍ لتنافر النون والجيم في الصفات لا في



المخارج، وقال: إنما حذفت النون في الكتابة لا في اللفظ، وقد حكيت هذه القراءَة عن الكسائي، ونافع. وقرأ عاصم، وابن عامر ﴿فَنُجِّيَ﴾ بفتح الياءِ، على وزن فُعِّلَ، وقرأت فرقة: [فَنُنَجِّي] بنونين وفتح الياءِ، رواها هبيرة عن حفص عن عاصم، وهي غلط من هبيرة[1]. وقرأ ابن محيصن، ومجاهد: [فَنَجَا] فعل ماض بتخفيف الجيم، وهي قراءَة نصر بن عاصم، والحسن بن أَبي الحسن، وابن السميفع، وأَبي حيْوة. قال أَبو عمرو الدَّاني: «وقرأْتُ لابن محيصن: [فَنَجَّى] بشد الجيم، على معنى: فَنَجَّى النصرُ».

و«البأْس»: العذاب، وقرأَ أَبو حَيْوة: [من يشاء] بالياءِ، وجاءَ الإِخبارُ عن هلاك الكافرين بقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ الآية، إِذْ في هذه الأَلفاظ وعيد بيِّن، وتهديد لمعاصري محمد عليه الصلاة والسلام، وقرأَ الحسن: [بأْسُهُ] بالهاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

الضمير في ﴿قَصَصِهِمْ﴾ عامٌّ ليوسف وأَبويه وإِخوته وسائر الرسل الذين ذكروا على الجملة، ولما كان ذلك كله في القرآن قال عنه: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾[2]، فإِذا تأَملت قصة يوسف ظهر أَن في غرائبها، وامتحان الله فيها لقوم في مواضع، ولُطْفهِ لقوم في مواضع، وإِحسانه لقوم في مواضع ـ معتبراً لمن له لُبٌّ وأَجاد النظر حتى يعلم أَن كل أَمر من عند الله تبارك وتعالىٰ وإِليه.

وقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ صيغة مَنْع، وقرينة الحال تقتضي أَن البرهان يقوم على أَن ذلك لا يُفْتَرَى، وذلك بأَدلة النبوة وأَدلة الإِعجاز.

---

(١) عقَّب على ذلك أبو حيان في البحر بقوله: «وليست غلطاً، ولها وجْهٌ في العربية، وهو أن الشرط والجزاءَ يجوز أن يأتي بعدهما المضارع منصوباً بإضمار (أن) بعد الفاءِ، كقراءة من قرأ: [وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفرَ] بنصب (يَغْفِرَ) بإضمار (أن) بعد الفاءِ، ولا فرق في ذلك بين أن تكون أداة الشرط جازمة أو غير جازمة». (٥ـ٣٥٥).

(٢) وقيل: إن اسم كان ضمير يعود على «القَصص»، أي: ما كان القَصص حديثاً مُخْتَلقاً، بل هو حديث صدق ناطق بالحكمة جاءَ به من لم يقرأ الكتب، ولا تتلمذ لأحد، ولا خالط العلماءَ، فمحال أن يفتري هذه القصة بحيث تطابق ما ورد في التوراة من غير تفاوت.



و«الحديث» هنا واحِدُ الأَحاديث، وليس للذي هو خلاف القديم ها هنا مدخل.

ونصب ﴿تَصْدِيقَ﴾ إما على إضمار معنى كان، وإما على أن تكون ﴿لَكِنْ﴾ بمعنى (لَكِنَّ) المشددة. وقرأ عيسى الثَّقفي[1]: [تَصْدِيقُ] بالرفع، وكذلك كل ما عطف عليه، وهذا على حذف المبتدأ، والتقدير: «هو تصديقُ»[2]، وقال أَبو حاتم: النصب على تقدير: «ولكن كان»، والرفع على تقدير: «ولكن هو»، ويُنْشَدُ بيت ذي الرمة بالوجهين:

وما كانَ مالِي مِنْ تُراثٍ وَرِثْتُهُ ... وَلاَ ديةً كانتْ ولا كَسْبِ مَأْثَمِ
ولكِنْ عطاءُ اللهِ مِنْ كُلِّ رِحْلَةٍ ... إِلى كُلِّ محْجُوبِ السُّرادِقِ خِضْرَمِ[3]

رفع «عطاءُ اللهِ»، والنصب أَجود.

و﴿ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ هو التوراة والإِنجيل، والضمير في ﴿يَدَيۡهِ﴾ عائد على القرآن، وهو اسم [كانَ]، وقوله: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يعني من العقائد والأَحكام والحلال والحرام.

وباقي الآية بَيِّنٌ.

تم بعون الله وتوفيقه تفسير سورة يوسف عليه
وعلى نبينا الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) ذكر صاحب «اللوامح» أنها قراءَة حمران بن أعين، وعيسى الكوفي، ونقل ذلك صاحب البحر المحيط.

(٢) قال أبو الفتح في «المحتَسب»: ويجوز على هذا الرفع في قوله تعالىٰ: [ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكمْ ولكن رسولُ الله وخاتم النبيين]، أي: ولكن هو رسول الله.

(٣) المأثَم: مصدر أَثِمَ بمعنى وقع في الإثم. والسُّرَادق: واحد السُّرادقات التي تُمَدُّ فوق صحن الدار، وكل بيت من كُرْسُفٍ (قطن) فهو سرادق، قال رُؤْبة: «سُرَادِقُ المَجْدِ عَلَيْكَ مَمدُودْ». والخِضْرَمُ بكسر الخاءِ: الكثير العطية، مشبه في ذلك بالبحر الخِضْرم وهو الكثير الماءِ. يقول: إن ما عندي من مال هو عطاء هذا الممدوح الكثير العطاءِ، ولم يكن ميراثاً ورثته، ولا ديَّةً انتفعتْ بها، ولا كسْباً أَخذته من حرام. والشاهد فيه هو أن كلمة (عطاء) تكون بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، وتكون بالنصب على تقدير كان، قال ابن عطية: والنصب أجود. ومثل هذا البيت قول لوط بن عبيد العائي اللص:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لا مالَ مُسْلِمٍ ... أَخَذْتُ ولا مُعْطي اليَمينَ مُحالِفِ
ولكِنْ عَطاءُ اللهِ مِنْ مَالِ فاجِرٍ ... قَصِيِّ المَحَلِّ مُعْوِرٍ للمَقارِفِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الرعد

هذه السورة مكية، قاله سعيد بن جُبَيْر، وقال قتادة: هي مدنية غير آيتين: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية[٢]، حكاه الزهراوي، وحكى المهدوي عن قتادة أن السورة مكية إلا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٣]، والظاهر عندي أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل، وإربد بن ربيعة فهو مدني، وقيل: السورة مدنية، حكاه مُنْذِر بن سعيد البَلُّوطي، وذكره مَكِّي بن أَبي طالب[٤].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

تقدم القول في فواتح السور وذكر التأْويلات في ذلك، إلا أَن الذي يخصُّ هذا الموضع من ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: «إن هذه الحروف من قوله: أَنا الله أَعلم وأَرى»، ومن قال: «إن حروف أَوائل السُّور هي مثال لحروف المعجم» قال: الإشارة هنا بـ ﴿تِلْكَ﴾ هي إلى حروف المعجم، ويصح ـ على هذا ـ أَن يكون ﴿ٱلْكِتَاب﴾ يراد به القرآن، ويصح أَن يراد به التوراة والإنجيل. و﴿الٓمٓرۚ﴾ ـ على هذا ـ ابتداءٌ،

---

(١) من الآية (٣١) من السورة.

(٢) هي نفس الآية (٣١)، ولعلَّ من يقول بهذا ـ وهو قتادة ـ يعتبرهما آيتين بخلاف ما في رسم المصحف اليوم.

(٣) من الآية (٤٣) وهي آخر آية في السورة.

(٤) الذي في الأصول «بكر بن أبي طالب»، والتصويب عن تفسير «البحر المحيط».

و﴿تِلْكَ﴾ ابتداءٌ ثان، و﴿آيَاتُ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول. وعلى قول ابن عباس في ﴿الٓمٓرٰ﴾ تكون ﴿تِلْكَ﴾ ابتداءً، و﴿آيَاتُ﴾ بدلاً منه، ويصح في ﴿الْكِتَاب﴾ التأويلان اللذان تقدما.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾. ﴿ٱلَّذِي﴾ رفع بالابتداءِ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره، وعلى هذا تأويل من يرى ﴿الٓمٓرٰ تِلْكَ﴾ حروف المعجم، و﴿تِلْكَ﴾ و﴿آيَاتُ﴾ ابتداءٌ وخبر، وعلى قول ابن عباس يكون [ٱلَّذِي] عطفاً على [تِلْكَ]، و[ٱلْحَقُّ] خبر [تِلْكَ]، وإذا أُريد بـ ﴿ٱلْكِتَاب﴾ القرآن فالمراد بـ ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ جميع الشريعة، ما تضمنه القرآن منها وما لم يتضمنه. ويصح في ﴿ٱلَّذِي﴾ أن يكون في موضع خفض عطفاً على [ٱلْكِتَاب]، فإن أَردت ـ مع ذلك ـ بـ ﴿ٱلْكِتَاب﴾ القرآن كانت الواو عطف صفة لشيءٍ واحد، كما تقول: جاءَني الظريفُ والعاقل وأَنت تريد شخصاً واحداً[1]، ومن ذلك قول الشاعر:

إِلَـى الْمَلِـكِ الْقَـرْمِ وابـنِ الهُمَـامِ ... ولَيْـثِ الكَتِيبَـةِ فـي الْمُـزْدَحَـمْ[2]

وإن أَردتَ ـ مع ذلك ـ بـ ﴿ٱلْكِتَاب﴾ التوراة والإنجيل فذلك بيِّن، فإن تأولت ـ مع ذلك ـ [الٓمٓرٰ] حروف المعجم رفعت قوله: ﴿ٱلْحَقّ﴾ على إضمار مبتدأ تقديره: هو الحق، وإن تأَولتها كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فـ ﴿ٱلْحَقّ﴾ خبر ﴿تِلْكَ﴾. ومن رفع ﴿ٱلْحَق﴾ بإضمار ابتداءٍ وقف على قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وباقي الآية ظاهر إن شاءَ الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿الله الذي رفع السموات﴾ الآية. لمَّا تضمن قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ توبيخ الكفرة عقَّب ذلك بذكر الله تبارك وتعالىٰ الذي ينبغي أن يُوقَن به، وبذكر الأَدلة الداعية إلى الإيمان به. والضمير في قوله: [تَرَوْنَهَا] قالت فرقة: هو عائد على ﴿ٱلسَّمٰوَاتِ﴾ فـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ ـ على هذا ـ في موضع الحال، وقال جمهور الناس: لا عمد للسمٰوات، وقالت فرقة: الضمير عائد على «العَمَد»، فـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ ـ

---

(١) هذا في الأصل هو رأي الفراءِ، وأجازه الحوفي مع ابن عطية، وذكره أيضاً الطبري في تفسيره، وقال: «ثم يبتدىء الحقُّ بمعنى: «ذلك الحقُّ»، فيكون رفعه بمضمر من الكلام قد استغنى بدلالة الظاهر عليه منه».

(٢) القَرْم (بفتح القاف): السَّيِّد المعظم، قيل له ذلك على التشبيه بالفَحْل الذي يُتْرك من الركوب والعمل ويُودع لِلفِحْلَةِ. والكتيبة: الطائفة المحدودة من الجيش. والمُزْدَحَم: محل الازدحام، والشاهد هنا أن الواو عطفت صفات لشيءٍ واحد، والشاعر يريد: إلى الملِك القرم بن الهُمام ليث الكتيبة.



على هذا ـ صفة للعَمَد، وقالت هذه الفرقة: للسموات عَمَدٌ غير مرئية، قاله مجاهد، وقتادة. وقال ابن عباس: وما يدريك أنها بِعَمَد لا تُرى، وحكى بعضهم أن العَمَد جبل قاف المحيط بالأرض، والسماءُ عليه كالقبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، والحق ألاَّ عَمَد جملة، إذ العمد تحتاج إلى عمد، ويتسلسل الأمر فلا بُدَّ من وقوفه على القدرة، وهذا هو الظاهر من قوله تعالىٰ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾[1]، ونحو هذا من الآيات. وقال إياس بنُ معاوية: السَّمَاءُ مقبية على الأرض مثل القبة. وفي مصحف أُبَيٍّ «تَرَوْنه» بتذكير الضمير.

و«ٱلْعَمَدُ» اسم جمع عمود، والباب في جمعه «عُمُد» بضم الحروف الثلاثة، كرسول ورُسُل وشِهابٍ وشُهُب، وغيره. ومن هذه الكلمة قول النابغة:

وخَبَّـرَ الجِـنَّ أَنـي قَـدْ أَذِنْـتُ لَهُـمْ ... يَبْنُـونَ تَـدْمُـرَ بـالصُّفَّـاح والْعُمُـدِ[2]

وقال الطبريُّ: «العمَد (بفتح العَيْن) جمع عمود، كما جُمع الأديم أدَمًا»، وليس كما قال. وفي كتاب سيبويه أن الأَدَم اسم جمع، وكذلك نصَّ اللغويون على العَمَد، ولكن أَبا عبيدة ذكر الأَمر غير مُتيَقِّنٍ فاتَّبعه الطبري. وقرأَ يحيى بن وثَّاب: ﴿بِغَيْرِ عُمُدٍ﴾ بضم العين.

وقوله: [ثُمَّ] هي هنا لعطف الجُمَل لا للترتيب، لأَن الاستواءَ على العرش قبل رفع السموات، ففي الصحيح عن النبي ﷺ أَنه قال: (كان الله ولم يكن شيءٌ قبل، وكان عرشه على الماءِ، ثم خلق السموات والأَرض)[3].

---

(١) من الآية (٦٥) من سورة (الحج).

(٢) ويُروى: وخَيَّسَ، بمعنى: ذَلِّلَ، وتَدْمُر: بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام، والصُّفَّاح: حجارة عراض رقاق. والعُمُد: جمع عمود.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق)، والترمذي في التفسير، والإمام أحمد في مسنده (٢ـ٣١٢، ٥٠١) و(٤ـ٤٣١)، ولفظه كما جاء في البخاري عن عمران بن حُصَيْن رضي الله عنهما قال: (دخلت على النبي ﷺ وعَقَلْتُ ناقتي بالباب، فأتاه ناس من تميم، فقال: اقبلوا البُشْرَى يا بني تميم، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر، قال: كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماءِ، وكتب في الذكر كل شيءٍ، وخلق السموات والأرض، فنادى=

وقد تقدم القول في كلام الناس في الاستواءِ[١]، واختصاره أَن أَبا المعالي رجَّح أَنه استوى بقهره وغلبته، وقال القاضي ابن الطيب وغيره: ﴿ٱسْتَوى﴾ في هذا الموضع بمعنى: استولى، والاستيلاءُ قد يكون دون قهر، فهذا فرق ما بين القولين، وقال سفيان: فعل فعلاً سمَّاه استواءً، وقال الفراءُ: رسول الله [ٱسْتَوَى] ـ في هذا الموضع ـ كما تقول العرب: «فعل زيد كذا ثم استوى إِليَّ يكلمني»، بمعنى أَقْبلَ وقَصَدَ، وحُكِيَ لي عن أَبي الفضل بن النحوي أَنه قال: ﴿ٱلْعَرْش﴾ ـ في هذا الموضع ـ مصدر (عَرَشَ)، فكأَنه أَرَادَ جميع المخلوقات، وذكر أَبو منصور عن الخليل أَن العَرْش: المُلْك، وهذا يؤيد منزع أَبي الفضل بن النحوي إِذ قال: «العرش مصدر»، وهذا خلاف ما مشى عليه الناس من أَن ﴿ٱلْعَرْش﴾ هو أَعظم المخلوقات، وهو الشخص المشهور الذي كان على الماءِ، والذي بين يديه الكرسي، وأَيضاً فيبقى النظر على أَبي الفضل في معنى الاستواءِ قريباً مما هو على قول الجميع. وفي البخاري عن مجاهد أَنه قال: «المعنى: علا على العرش»، وكذلك هي عبارة الطبري[٢]، والنظر الصحيح يرفع هذه العبارة.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾ تنبيه على القدرة، و﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ في ضمن ذكرهما ذِكْرُ الكواكب، ولذلك قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾، أَي كل ما هو في معنى الشمس والقمر من التَّسْخير، و(كُلٌّ) لفظة تقتضي الإِضافة ظاهرة أَو مقدرة.

والأَجلُ المُسَمَّى هو انقضاءُ الدنيا وفساد هذه البنية، وقيل: يريد بقوله: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الحدود التي لا تتعداها هذه المخلوقات، أَي: تجري على رسوم معلومة[٣].

= منادٍ: ذهبت ناقتك يا بن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوَدِدْتُ أَني كنتُ تركتها.

(١) عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (٥٤) من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

(٢) في القرطبي: «وحكى أبو عمر بن عبد البر عن أبي عبيدة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قال: علا، وقال الشاعر:

فَأَوردتهم ماءً بفَيْفَاءَ قَفْرَةٍ … وقَدْ حلَّقَ النَّجْمُ الْيَمَانِيُّ فاسْتَوَى

أي: عَلا وارتفع». وعُلُوُّ الله تعالىٰ عبارة عن عُلُوِّ مجده وصفاته وملكوته، أي: ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد.

(٣) هذا رأي ابن عباس، نقل في القرطبي عنه قوله: «أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يتجاوزانها».



وقوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ بمعنى يُبْرِم وينفِّذ، وعبَّر بالتدبير تقريباً للأفهام، إذ التدبير إنما هو النظر في أدبار الأُمور وعواقبها، وذلك من صفة البَشَر، و[ٱلأَمْر] عامٌّ في جميع الأُمور وما ينقضي في كل أَوان في السموات والأَرض. وقال مجاهد: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ معناه يقضيه وحده. وقرأ الجمهور: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بالياءِ، وقرأ الحسن بنون العظمة، ورواها الخفاف وعبد الوهاب عن أَبي عمرو، وهبيرة عن حفص، قال المهدوي: ولم يختلفا في [يُدَبِّر]، وقال أَبو عمرو الداني: إن الحسن قرأ بالنون فيهما، والنظر يقتضي أَن قوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ ليس على حدِّ قوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ من تعديد الآيات، بل لما تعددت الآيات وفي جملتها تدبير الأَمر أَخبر أَنه يُفَصِّل الآيات لعل الكفرة يوقنون بالبعث، و[ٱلآيَات] هنا إِشارة إِلى ما ذكر في الآية وبعدها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

لما فرغت آيات السماءِ ذكر آيات الأَرض. وقوله: ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ يقتضي أَنها بسيطة لا كروية، وهذا هو ظاهر الشريعة. والرواسي: الجبال الثابتة، يقال: «رسا يرسو» إذا ثبت، ومنه قول الشاعر:

بِـهِ خـالـداتٌ مـا يُـرَمْـنَ وهَـامِـدٌ ... وأَشْعَـث أَرْسَتْـهُ الْـوَلِيـدَةُ بـالْفِهْر[1]

والزَّوْجُ في هذه الآية هو الصنف والنوع، وليس بالزوج المعروف في المتلازمَيْن الفردين من الحيوان وغيره، ومنه قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾[2] الآية،

---

(١) البيت للأحوص، ورواية (اللسان): «سوى خالداتٍ» بدلاً من «به خالدات»، وما يُرَمْنَ: ما يُطْلَبْنَ، من قولك: رُمْتُ الشيءَ أرومه روْماً بمعنى أطلبه، والهامد: الساكن الذي لا يتحرك، والأرض الهامدة: التي لا نبات فيها، والأشعَث: المتفرق، وأرْسَتْه: ثَبَّتته، والفِهْرُ: الحَجَر قدْر ما يُدَقُّ به الجَوْز ونحوه، أو هو حجر يملأ الكف، وفي الحديث: (لما نزل ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءت امرأته وفي يدها فِهْر، قال هو الحَجَر ملءَ الكفّ).

(٢) من الآية (٣٦) من سورة (يس).



ومثل هذه الآية: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ الآية في (ق)[1]، وهذه الآية تقتضي أَن كل ثمرة فموجود منها نوعان، فإِن اتفق أَنْ وُجد من ثمرة أَكثر من نوعين فغير ضارٍّ في معنى الآية.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿يُغْشِي﴾ بسكون الغين وتخفيف الشين، وقرأَ حمزة والكسائي وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ بفتح الغين وشدّ الشِّين، وكفى ذكر الواحد ذكر الآخر، وباقي الآية بيِّن. ويشبه أَن الأَزواج التي يراد بها الأَنواع والأَصناف والأَجناس إِنما سُمِّيَت بذلك من حيث هي اثنان اثنان في كل ثمرة ذكر أَو أُنثى، وأَشار إِلى ذلك الفراءُ عند المهدوي، وحكى عنه غيره ما يقتضي أَن المعنى تم في قوله: ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ثم ابتدأَ أَنه جعل في الأَرض من كل ذكر وأُنثى زوجين.

وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ جمع قطعة، وهي الأَجزاءُ، وقيّد منها في هذا المثال ما تجاور وقَرُبَ بعضه من بعض لأَن اختلاف ذلك في القُرْب أَغرب[2]، وقرأَ الجمهور: ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿قِطَعٌ﴾، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [وجَنَّات] بالنصب بإِضمار فعل، وقيل: هو عطف على [رَوَاسِي]، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع في الكل عطفاً على ﴿قِطَع﴾، وقرأَ الباقون بالْخَفض في الكل عطفاً على ﴿أَعْنَٰبٍ﴾، وجعل الجنة من الأَعناب، ومَنْ رفع «الزَّرع» فالجنة حقيقة هي الأَرض التي فيها الأَعناب، وفي ذلك تَجَوُّز، ومنه قول الشاعر:

كَأَنَّ عَيْنَيَّ فِي غَرْبَيْ مُقَتَّلَةٍ   مِنَ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُقَا[3]

---

(١) من الآية (٧) من سورة (ق).

(٢) قيل: في الكلام حذف، والمعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات، كما قال تعالىٰ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي: «وتقيكم البرد»، ثم حُذف لعلم السامع، والمتجاورات: المدن وما كان عامراً، وغير المتجاورات: الصحارى وما كان غيرَ عامر.

(٣) البيت لزهير بن أبي سُلْمى، قال في (اللسان ـ جنن): «والجَنَّة: البستان، ومنه الجنات، والعرب تسمي النخيل جنَّة، قال زهير: كأن عَيْنَيَّ. . .»، والمُقتّل: المُذَلَّل المكدود بالعمل، يقال: ناقة مُقَتَّلة أي مُذَلَّلة لعمل من الأعمال، وقد استشهد صاحب اللسان على هذا المعنى بالبيت نفسه في مادة (قتل)، والنَّواضح من الإبل: التي يستقى عليها، واحدها ناضح، ومنه ما جاء في حديث معاوية حين قال =



أَي: نخيل جنَّة، إذ لا يوصف بالسحق إلا النخيل. ومَنْ خفض الزرع فالجنات من مجموع ذلك لا من الزرع وحده، لأنه لا يقال للمزرعة جَنَّة إلا إذا خالطها شجرات[1].

و﴿صِنْوَانٌ﴾ جمع صِنْو وهو الفرع تكوَّن مع الآخر في أَصل واحد، وربما كان أَكثر من فرعين، قال البراءُ بن عازب: الصِّنوان: المجتمِع، وغير صنوان: المتفرق فرداً فرداً، ومنه قول النبي ﷺ: (العَمُّ صِنْوُ الأَب)[2]، وروي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَسرع إِليه العباس في ملاحاة، فجاءَ إِلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: أَردت يا رسول الله أَن أَقول للعباس فذكرت مكانه منك فسَكَتُّ، فقال رسول الله ﷺ: (يرحمك الله يا عمر، العم صنو الأَب)، وجمع الصنو صنوانٌ[3]، وهو جمع مكسَّر، قال أَبو علي: وكَسْرة الصاد في الواحد ليست التي في الجمع، وهو جار مجرى فُلْك، وتقول: صنو وصنوانٌ في الجمع بتنوين النون وإِعرابه. وقرأَ عاصم ـ في رواية القواس ـ عن حفص: [صُنْوَان] بضم الصاد، قال أَبو علي: هو مثل ذِئْب وذُؤْبان، وهي قراءَة ابن مُصَرِّف، وأَبي عبد الرحمن السُّلَمي، وهي لغة تميم وقيس، وكسر الصَّاد لغة أَهل الحجاز، وقرأَ الحسن، وقتادة: [صَنْوَان] بفتح الصاد، وهو اسم جمع لا جمع، ونظير هذه اللفظة قَبْو وقَبْوان، وإِنما نص على الصنوان في هذه الآية لأَنها بمثابة التجاور في القطع تظهر فيها غرابة اختلاف الأُكل. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وحمزة،

= للأنصار وقد قعدوا عن تلقِّيه لما حجَّ: ما فعلت نواضحكم؟ كأنه يُقَرِّعهم بذلك لأنهم كانوا أهل حرث وزرع وسقي. والغَرْبُ: عِرْقٌ في مجرى الدمع يسقي فلا ينقطع، وغربا العين: مُقْدمها ومؤْخرها، يصور عينيه في كثرة الدموع بعيون النواضح المذللة من الإبل التي تدور لتسقي جنة من النخيل العالي في السماء.

(١) قال في «فتح القدير»: «ذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل لأنه يكون في الخارج كثيراً كذلك، ومثله في قوله سبحانه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾».

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، وكذلك الدارمي، وأخرجه الترمذي في المناقب، والإمام أحمد في مسنده (١ـ٩٤، ٤ـ١٦٥)، ولفظه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة، فقيل: منع ابنُ جميل، وخالد بن الوليد، والعباسُ عمُّ رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله، وأما خالدٌ فإنكم تظلمون خالداً، وقد احتبس أدراعه وأعتَاده في سبيل الله، وأما العباس فهي عليَّ ومثلها معها، ثم قال: (يا عمر، أما شعرت أن عمَّ الرجل صِنو أبيه؟).

(٣) قال في (اللسان ـ صنا): «والاثنان صِنْوَانِ، والجمع صِنْوَانٌ برفع النون».



والكسائي، والحسن، وأَبو جعفر، وأَهل مكة: [تُسْقَى] بالتاءِ، وأَمال حمزة، والكسائي القاف، وقرأَ عاصم، وابن عامر: ﴿يُسْقَى﴾ بالياءِ على معنى: يُسْقَى ما ذُكر. وقرأَ الجمهور: ﴿ونُفَضِّلُ﴾ بالنون، وقرأَ حمزة، والكسائي: [وَيُفَضِّلُ] بالياءِ، وقرأَ ابن محيصن: ﴿يُسْقَى﴾ و[يُفَضِّلُ] بالياءِ فيهما، وقرأَ يحيى بن يَعْمَر، وأَبو حيْوَة: [ويُفَضَّل] بالياءِ وفتح الضاد [بَعْضُهَا] بالرفع، قال أَبو حاتم: وجدته كذلك في لفظ يحيى بن يَعْمَر في مصحفه، وهو أَول من نقط المصاحف.

و﴿ٱلْأُكُلِ﴾ اسم ما يُؤكل، بضم الهمزة والكاف، والأَكْل المصدر. وقرأَت فرقة: ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ بضم الهمزة والكاف، وقد تقدم هذا في البقرة[١].

وحكى الطبري عن غير واحد ـ ابن عباس وغيره ـ: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أَي: واحدة سبخة والأُخرى عذبة ونحو هذا من القول، وقال قتادة: المعنى: قُرىً متجاورات، وهذا وجه من العبرة، كأَنه قال: وفي الأَرض قطع مختلفات بتخصيص الله لها بمعان فهي تسقى بماءٍ واحد ولكن تختلف فيما تخرجه، والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور إِنما هو: من تربة واحدة ونوع واحد، والعبرة في هذا أَبين، لأَنها مع اتفاقها في التربة والماءِ تفضل القدرة والإِرادة بعض أُكلها على بعض، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام حين سئل عن هذه الآية فقال: (الدَّقَل والفارسي[٢] والحلو والحامض)[٣]، وعلى المعنى الأَول قال الحسن: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم، كانت الأَرض في يد الرحمن طينة واحدة، فسطحها الله فصارت قطعاً متجاورة ينزل عليها ماءٌ واحد من السماءِ، فتخرج هذه زهرة وثمرة، وتخرج هذه سبخة وملحاً وخبثاً، فكذلك الناس خلقوا من آدم فنزلت عليهم من السماءِ تذكرة فرقَّت قلوب وخشعت، وقست قلوب، ولهت قلوب، ووجفت قلوب[٤]، قال الحسن: فوالله ما جالس أَحد القرآن إِلا قام عنه

(١) عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (٢٦٥): ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾.

(٢) الدَّقَل: رديءُ التمر، والفارسي: نوع جيد من التمر ينسب إلى فارس.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، (فتح القدير).

(٤) وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

النَّـاسُ كـالنَّبْـتِ والنَّبْـتُ ألـوانْ ... منها شجرُ الصَّنْدَلِ والكافور والبَان
ومنهـا شَجَـرٌ ينضَـحُ ... طـولَ الـدَّهْـرِ قَطَـران =



بزيادة أو نقصان، قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[١]، والتفضيل في الأُكُل [يشمل][٢] الأذواق والألوان والملمس وغير ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

آية توبيخ للكفرة، أَي: إن تعجب يا محمد من جهالتهم وإعراضهم عن الحق فهم أَهل لذلك، وعجب غريب، والمراد به قولهم: «أَنعود بعد كوننا تراباً خلقاً جديداً»؟ ويحتمل اللفظ منزعاً آخر، أَي: إن كُنت تزيد عجباً فهلُمَّ فإن من أَعجب العجب قولهم[٣].

واختلف القراءُ في قراءَة قوله: ﴿أئذا كنا تراباً﴾ ـ فقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [آيذا كنا تراباً آينا لفي خلق جديد] جميعاً بالاستفهام، غير أَن أَبا عمرو مدَّ الهمزة ثم يأْتي بالياءِ ساكنة، وابن كثير يأْتي بياءٍ ساكنة بعد الهمزة من غير مَدٍّ. وقرأَ نافع: [أيذا كنا تراباً] مثل أَبي عمرو واختلف عنه في المدِّ، وقرأَ: [إنا لفي خلق جديد] مكسورة على الخبر، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأَول من الثاني، غير أَنه كان يهمز همزتين، وقرأَ عاصم وحمزة: ﴿أئذا كنا تراباً أئنا﴾ بهمزتين فيهما، وقرأَ ابن عامر: [إذا كنا تراباً] مكسورة الأَلف من غير استفهام [آئِنَّا] بهمز ثم بمدٍّ ثم بهمز. فمن قرأَ

= وقد روى جابر بن عبد الله قال: «سمعت النبي ﷺ يقول لعليٍّ رضي الله عنه: (الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة)، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾. حتى بلغ قوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾.

(١) الآية (٨٢) من سورة (الإسراء).

(٢) زيادة يحتاج إليها المعنى.

(٣) قال العلماءُ: التعجب: تغيُّر النفس بما تخفى أسبابه، وذلك في حق الله تعالىٰ محال، فهو لا يتعجب ولا يجوز عليه التعجب، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون، وقيل: الآية في منكري الصانع، أي: إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بُدَّ له من مغيِّر فهو محل التعجُّب.

بالاستفهامين فذلك للتأكيد والتَّحفي والاهتبال بهذا التقرير[١]، ومن استفهم في الأَول فقط فإنما القصد بالاستفهام الموضع الثاني، و﴿إِذَا﴾ ظرف له، و﴿إِذَا﴾ في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: أَنُبْعَث أَو نُحْشَر إِذَا ؟ ومن استفهم في الثاني فقط فهو بيِّن، والإشارة بـ﴿أُولـٰئِكَ﴾ إلى القوم القائلين: ﴿أئذا كنا تراباً﴾، وتلك المقالة إنما هي تقرير وتصميم على الجحد والإنكار للبعث فلذلك حكم عليهم بالكفر.

وقوله: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَـٰلُ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما الحقيقة وأَنه أَخبر عن كون الأغلال في أَعناقهم في الآخرة، فهي كقوله تعالىٰ: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَـٰلُ فِيٓ أَعۡنَـٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَـٰسِلُ﴾[٢]، ويحتمل أَن يكون مجازاً وأَنه أَخبر عن كونهم مُغللين عن الإيمان، فهي إذاً تجري مجرى الطبع والختم على القلوب، وهي كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَـٰقِهِمۡ أَغۡلَـٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾[٣]، وباقي الآية بيِّن. وقال بعض الناس: الأَغلال هنا عبارة عن الأَعمال، أَي: أَعمالهم الفاسدة في أَعناقهم كالأَغلال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحرير هذا هو في التأْويل الثاني الذي ذكرناه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ الآية، هذه الآية تَبْيِينٌ لخطئهم في أَن يتمنوا المصائب ويطلبوا سقوط كسف من السماءِ أَو حِجَارة تمطر عليهم[٤] ونحو هذا مع حلول ذلك في الأُمم ونزوله بأُناس كثير، ولو كان ذلك لم ينزل قط لكان لهم العذر[٥].

و﴿ٱلۡمَثُلَـٰتُ﴾ جمع مَثُلَة كسَمُرَة وسَمُرَات وصَدُقة وصَدُقات، وقرأَ الجمهور: ﴿ٱلۡمَثُلَـٰتُ﴾ بفتح الميم وضم الثاءِ، وقرأَ مجاهد بفتح الميم والثاءِ، وذلك جمع مُثْلَة[٦]

---

(١) الاهتبال: الاغتنام والاحتيال، وفي حديث أبي ذرّ في ليلة القدر: (فاهتبلت غفلته وافْتَرَصْتُهَا واحتلت له حتى وجدتها، كالرجل يطلب الفرصة في شيءٍ)، (اللسان).

(٢) من الآية (٧١) من سورة (غافر).

(٣) من الآية (٨) من سورة (يس).

(٤) كقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية.

(٥) في أكثر النسخ: «لكانوا أعذر».

(٦) اختلفت الأصول في ضبط قراءة مجاهد، ففي بعضها: «بضم الميم والثاء»، وفي بعضها «بفتح الميم=

في الآخرة بمعنى العِدَة بالعقوبة. وقرأ عيسى بن عمر: [ٱلْمُثُلَات] بضم الميم والثاءِ، ورُويت عن أَبي عمرو، وقرأ يحيى بن وثاب: [ٱلْمُثْلات] بضم الميم وسكون الثاءِ، وهاتان جمع مُثْلَة[1]، وقرأ طلحة بن مصرف: [الْمَثْلات] بفتح الميم وسكون الثاءِ.

ثم رجَّى تعالىٰ بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾. قال الطبري: معناه: في الآخرة، وقال قومٌ: المعنى: إذا تابوا، و«شَدِيدُ العِقَابِ» إذا كفروا[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من معنى المغفرة هنا إنما هو: سَتْرُهُ في الدنيا وإمْهَالُه لِلْكَفَرَة، أَلا ترى التنكير في لفظ ﴿مَغْفِرة﴾، وأَنها مُنَكَّرة مُقَلَّلة وليس فيها مبالغة كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾[3]، ونمط الآية يُعطي هذا، أَلا ترى حكمه عليهم بالنار؟ ثم قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾، فلما ظهر سُوءُ فعلهم وجب في نفس السامع تعذيبهم فأَخبر بسيرته في الأُمم وأَنه يمهل مع ظُلْم الكفر؟ ولم يرد في الشرع أَن الله تعالىٰ يغفر ظلم العباد.

ثم خوَّف بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، قال ابن المسيب: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: (لولا عفو الله ومغفرته لما تمنى أَحدٌ عيشاً، ولولا عقابه لاتَّكَل كل أَحد)[4]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في القرآن أَرْجى من هذه

= والثاء»، وقد اخترنا ما أثبته أبو حيان في البحر، ويؤكد صحته أن ابن عطية نسب بعد ذلك قراءة ضم الميم والثاء إلى عيسى بن عمر، ولو كانت قراءة مجاهد كقراءة عيسى لما لجأ إلى هذا التفصيل.

(١) على وزن غُرْفة وغرفات، والثابت في كتب اللغة أن المُثُلات بضم الميم والثاءِ، وكذلك المَثُلات بفتح الميم وضم الثاءِ كلاهما جمع مَثُلة بالفتح والضم، وجمع مُثْلة بالضم والسكون.

(٢) الجار والمجرور في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ في محل نصب على الحال، أي: حَالَ كونهم ظالمين، وفي الآية بشارة عظيمة لأن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً، ولهذا قيل إنها في عصاة الموحدين خاصة، وقيل: المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة، وكما تفيده الجملة المذكورة بعد جملة المغفرة وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بمعنى أنه يعاقب العصاة من الكافرين عقاباً شديداً.

(٣) من الآية (٨٢) من سورة (طه).

(٤) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، ذكر ذلك في (الدر المنثور)، وقال في فتح القدير: «أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب»، ولفظه فيهما: (لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد عيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كُل أحد).



الآية»، و﴿الْمَثُلَاتُ﴾ هي العقوبات المُنَكِّلات التي تجعل الإِنسان مثلاً يُتَمَثَّل به، ومنه التمثيل بالقتلى، ومنه المُثْلة بالعبيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. هذه آية غَضٌّ من اقتراحاتهم المُتَشَطِّطَة التي لم يُجْر الله بها عادة إلا للأمة التي حتم بعذابها واستئصالها، والآية ـ هنا ـ يراد بها الأَشياءُ التي سمَّتها قريش كالمُلْك والكَنْز وغير ذلك، ثم أَخبره الله بأنه منذر، وهذا الخبر قُصِد هُوَ بلفظه والناسُ أَجمعون بمعناه.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، فقال عكرمة، وأَبو الضُّحى: المراد بالهادِ محمد عليه الصلاة والسلام. و﴿هادٍ﴾ عطف على ﴿مُنذِر﴾ كأنه قال: «إنما أَنت منذر وهاد لكل قوم»، فيكون هذا المعنى يجري مع قوله عليه الصلاة والسلام: (بُعِثْت إلى الأَحمر والأَسود)[1]، و﴿هادٍ﴾ ـ على هذا في هذه الآية ـ داعٍ إلى طريق الهدى. وقال مجاهد، وابن زيد: المعنى: «إنما أَنت منذر، ولكل أُمَّة سلَفت هادٍ، أَي نبي يدعوهم، والمقصد: فليس أَمرك يا محمد بِبِدْع ولا بمنكر»، وهذا يشبه غرض الآية. وقالت فرقة: «الهادي ـ في هذه الآية ـ الله عزَّ وجلَّ»، رُوي ذلك عن ابن عباس، ومجاهد، وابن جُبير. و﴿هَادٍ﴾ ـ على هذا ـ معناه: مخترع للرشاد، والأَلفاظ تطلق بهذا المعنى، ويعرف أَن الله تعالىٰ هو الهادي من غير هذا الموضع. وقالت فرقة: «الهادي علي بن أَبي طالب»، ورَدَت عن النبي ﷺ من طريق ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قرأَ هذه الآية وعليّ حاضر فأَومأَ بيده إلى منكب عليّ وقال: (أَنْت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي)[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يشبه ـ إن صح هذا ـ أَن النبي ﷺ إنما جعل علياً مثالاً من علماءِ الأُمة

---

(١) أخرجه أبو داود في السير، والإمام مسلم في المساجد، والإمام أحمد في مسنده في مواضع متعددة، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد (١ـ٣٠١): (أُعطيت خمساً لم يعطهن نبيٌّ قبلي، ولا أقولهن فخراً، بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً).

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، والديلمي، وابن عساكر، وابن النجار. (الدر المنثور). ويظهر من كلام ابن عطية أنه يشك في صحة هذا الحديث، أو على الأقل أنه يؤوله بما وضحه في كلامه.



وهداتها إلى الدين، كأنه قال: يا عليّ أنت وصنفك، فيدخل في هذا أبو بكر وعمر وعثمان وسائر علماءِ الصحابة ـ عليهم رضوان الله أجمعين ـ ثم كذلك من كل عصر، فيكون المعنى ـ على هذا ـ: إنما أنت يا محمد منذر، ولكل قوم في القديم والحديث دعاة وهداة إلى الخير، والقول الأول أرجح ما تؤول في هذه الآية.

قوله عزّ وجلّ:

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾.

لما تقدم تعجُبُ الكفار واستبعادُهم البعث من القبور نصَّ الله في هذه الآيات الأَمثال المنبهة على قدرة الله تبارك وتعالىٰ القاضية بتجويز البعث، فمن ذلك هذه الواحدة من الخمس التي هي مفاتيح الغيب، وهي أَن الله تبارك وتعالىٰ انفرد بمعرفة ما تحمل كل الإناث من الأجنة في كل نوع من الحيوان، وهذه البدأة[1] تُبيِّن أنه لا يتعذر على القادر عليها الإعادة.

و[مَا] في قوله تعالىٰ: ﴿مَا تَحْمِلُ﴾ يصح أَن تكون بمعنى الذي مفعولة بـ [يعْلَمُ]، ويصح أَن تكون مصدرية مفعولة أَيضاً بـ [يَعْلَمُ]، ويصح أَن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداءِ، والخبر [تَحْمِلُ]، وفي هذا الوجه ضعف[2]. وفي مصحف أُبي بن كعب: «ما تحمل كل أُنثى وما تضع».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ معناه: ما تنقص، وذلك من معنى ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾[3] وهو من معنى النضوب، فهي ها هنا بمعنى زوال الشيءِ عن الرَّحم وذهابه،

---

(١) البَدْءُ والبَدْأَةُ والبُدْأَةُ والبَدِيئَةُ والبَدَاءَةُ والبُدَاءَةُ كلها بمعنى واحد وهو فعل الشيءِ أولَ، وبالنسبة لله تعالىٰ يكون المعنى: هو الذي أنشأ الأشياءَ واخترعها ابتداءً من غير سابق مثال. (اللسان).

(٢) إذا كانت [مَا] اسم موصول كان العائد عليها في صِلاتِها محذوفاً، ويكون [تَغِيضُ] متعدياً، وإذا كانت مصدرية كان كل من [تَغِيضُ] و[تَزْدادُ] لازماً، وثابت عن العرب سماع تعديتهما ولزومهما، وعلى الإعراب الثالث الذي ضَعَّفه ابن عطية تكون الجملة الاستفهامية في موضع المفعول. و[تَحْمِلُ] هنا بمعنى حمل البطن وليست بمعنى الحمل على الظهر.

(٣) من الآية (٤٤) من سورة (هود).

فلما قابله قوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ فُسِّر بمعنى النقصان، ثم اختلف المتأَولون في صورة الزيادة والنقصان ـ فقال مجاهد: غَيْض الرَّحِم أَن تهريق دماً على الحمل، فإِذا كان ذلك ضعف الولد في البطن وشحب، فإِذا أَكملت الحامل تسعة أَشهر لم تَضع، ويبقى الولد في بطنها زيادة من الزمن يكمل فيها من جسمه وصحته ما نقص بهراقة الدم، فهذا هو معنى قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾. وجمهور المتأَولين على أَن غيض الرحم إِرسال الدم على الحمل، وذهب بعض الناس إِلى أَن غيضه هو نضوب الدم فيه وإِمساكه بعد عادة إِرساله بالحيض، فيكون قوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ بعد ذلك جارياً مجرى «تغيض» على غير مقابلة، بل غيض الرحم هو بمعنى الزيادة فيه. وقال الضحاك: غيض الرحم أَن تسقط المرأَة الولد، والزيادة أَن تضعه لمدة كاملة تامًّا في خلْقه. وقال قتادة: الغَيْض السقط، والزيادة البقاءُ فوق تسعة أَشهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ لفظ عام في كل ما يدخله التقدير.

و[ٱلْغَيْب]: ما غاب عن الإِدراكات، و[ٱلشَّهَادَة]: ما شوهد من الأُمور، ووضع المصادر موضع الأَشياءِ التي كل واحد منها لا بد أَن يتصف بإِحدى الحالتين.

وقوله: [ٱلْكَبِيرُ] صفة تعظيم على الإِطلاق، و[ٱلْمُتَعَالِ] من العُلُوِّ، واختلف القُراءُ في الوقف على (المُتَعالِ) ـ فأَثبت ابن كثير، وأَبو عمرو ـ في بعض ما روي عنه ـ الياءَ في الوصل والوقف، ولم يثبتها الباقون في وصل ولا وقف، وإِثباتها هو الوجه والباب، واستسهل سيبويه حذفها في الفواصل كهذه الآية قياساً على القوافي في الشعر، ويقبح حذفها في غير فاصلة ولا شعر، ولكن وجهه أَنه لما كان التنوين يعاقب الأَلف واللام أَبداً، وكانت هذه الياءُ تحذف مع التنوين حَسُن أَن تحذف مع معاقبها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتصل بهذه الآية فقه يحسن ذكره.

فمن ذلك اختلاف الفقهاءِ في الدم الذي تراهُ الحامل ـ فذهب مالك وأَصحابه والشافعي وأَصحابه وجماعةٌ إِلى أَنه حيض. وقالت فرقة عظيمة: ليس بحيض، ولو كان حيضاً لما صح استبراءُ الأَمة بحيض وهو إِجماعٌ. وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أَنه ليس بحيض، ومن ذلك أَن الأُمَّة مجمعة على أَن أَقل مدة الحمل ستة



أَشهر، وذلك منتزع من قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾(١) مع قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾(٢) وهذه الستة الأَشهر هي بالأَهلَّة كسائر أَشهر الشريعة، ولذلك قد رُوي في المذهب عن بعض أَصحاب مالك ـ وأَظنه في كتاب ابن الحارث ـ أَنه إِن نقص من الأَشهر الستة ثلاثة أَيام فإِن الولد يُلْحق لعلَّة نقص الشهور وزيادتها.

واختلف في أَكثر الحمل ـ فقيل: تسعة أَشهر، وهذا ضعيف، وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وجماعة من العلماءِ: أَكثره حولان، وقالت فرقة: ثلاثة أَعوام، وفي المدونة: أَربعة أَعوام وخمسة أَعوام، وقال ابن شهاب وغيره: سبعة أَعوام، وروي أَن ابن عجلان ولدت امرأَته لسبعة أَعوام، ورُوي أَن الضحاك بن مزاحم بقي حولين، قال: فولدت وقد نبتت ثناياي، وروي أَن عبد الملك بن مروان ولد لستة أَشهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ الآية. سواءٌ مصدر، وهو يطلب بعده شيئين يتماثلان، ورفعه على خبر الابتداءِ الذي هو [مَنْ]، والمصدر لا يكون خبراً إِلا بإِضمار كما قالت الخنساءُ:

. . . . فَــإِنَّمَــا هِــيَ إِقْبَــالٌ وإِدْبَــارُ(٣)

أَي: ذاتُ إِقبال وإِدبار، فقالت فرقة: هنا المعنى: «ذو سواءٍ»، قال الزجاج: كثر استعمال (سواء) في كلام العرب حتى جرى مجرى اسم الفاعل فلا يحتاج إِلى إِضمار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهو عندي كعدْلٍ وزَوْرٍ وضيْفٍ.

---

(١) من الآية (١٥) من سورة (الأحقاف).

(٢) من الآية (٢٣٣) من سورة (البقرة).

(٣) هذا عجز بيت قالته الخنساءُ ضمن أبيات في تصوير حيرتها وقلقها وآلامها لفقد أخيها، وشبهت نفسها بناقة فقدت وليدها فهي في حنين وشوق، وكلما نسيت عادت فتذكرت ورجعت إلى آلامها وحيرتها، والبيت بتمامه مع بيت آخر قبله:

فَمَـا عَجُـولٌ علَـى بَـوٍّ تُطيـفُ بِـهِ ... لَهَـا حَنِينَـانِ إِصْغَـارٌ وإِكْبَـارُ
تَـرْتَـعُ مَـا رَتَعَـتْ حتَّـى إِذَا ادَّكَـرَتْ ... فَـإِنَّمَـا هِـيَ إِقْبَـالٌ وإِدْبَـارُ

والبَوُّ هو الحُوَارُ الصغير، والإصغار: الحنين إذا خَفَضَتْه، والإكبَار: الحنين إذا رفَعَتْه، ورتعت: رعت في خصب وسعة.

وقالت فرقة: المعنى: «مُسْتَوٍ منكم»، فلا يحتاج إِلى إِضمار، وضعف هذا سيبويه بأَنه ابتداءٌ بنكرة(١). ومعنى هذه الآية: مُعْتدلٌ منكم في إِحاطة الله تعالىٰ وعلمه مَنْ أَسَرَّ قولَه فهمس به في نفسه ومَنْ جهر به فأَسْمَع، لا يخفى على الله تعالىٰ شيءٌ.

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ معناه: من هو بالليل في غاية الاختفاءِ ومن هو متصرف بالنهار ذاهبٌ لوجهه سواءٌ في علم الله تبارك وتعالىٰ وإِحاطته بهما. وذهب ابن عباس، ومجاهد إِلى معنى مقتضاه أَن المستخفي بالليل والسارب بالنهار هو راجل واحد مريب بالليل ويظهر بالنهار البراءَة في التصرف مع الناس، فهذا قسم واحد جعل الليل نهار راحة، والمعنى: هذا والذي أَمره كله واحد بريءٌ من الرِّيَب سواءٌ في اطلاع الله تعالىٰ على الكل. ويؤيد هذا التأويل عطف السارب دون تكرار «مِنْ»، ولا يأْتي حذفها إِلا في ضرورة الشعر.

والسارب في اللغة المتصرف كيف شاءَ، ومن ذلك قول الشاعر:

أَرَى كُلَّ قومٍ كارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ ... وَنَحْنُ حَلَلْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبُ(٢)

أَي منصرف غير مدفوع عن جهة، وهذا رجل يفخر بعزة قومه، ومن ذلك قول الآخر:

أَنَّى سرَبْتِ وكُنْتِ غَيْرَ سَرُوبِ ... وتُقَرِّبُ الأَحْلامُ غَيْرَ قَرِيبِ(٣)

وتحتمل الآية أَن تتضمن ثلاثة أَصناف، فالذي يُسِرُّ طرف، والذي يجهر طرف

---

(١) علّق أبو حيان في «البحر المحيط» على ذلك فقال: «وهو لا يصح، بل يجوز أن يكون [سَوَاءٌ] مبتدأ لأنه موصوف بقوله: [مِنكُمْ] ومن المعطوف الخبر، وكذا أعرب سيبويه قول العرب: «سواءٌ عليه الخير والشر».

(٢) هذا البيت للأخنس بن شهاب التغلبي، ورواه اللسان:

وكُـلُّ أُنـاسٍ قـارَبُـوا قَيْـدَ فَحْلِهِـمْ ... ونَحْـنُ خَلَعْنَـا قَيْـدَهُ فَهُـوَ سَـارِبُ

وقد روى صاحب اللسان عن الأصمعي قوله: «هذا مثل، يريد أن الناس أقاموا في موضع واحد لا يجترئون على النُّقْلة إلى غيره، وقاربوا قيد فحلهم، أي: حبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعه إبلهم خوفاً أن يُغار عليها، ونحن أعزاء نفتري الأرض، نذهب فيها حيث نشاءُ، فنحن قد خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاءَ، فحيثما نزع إلى غيث تبعناه».

(٣) الشاعر هو قيس بن الخطيم، وقد نقل صاحب اللسان عن ابن دريد قوله: «سَرَبْت» بباءٍ موحدة، لقوله: (وكُنْتِ غير سروب)، ومَن رواه سَرَيْت بالياءِ باثنتين فمعناه: كيف سريْت ليلاً وأنت لا تَسْرُبين نهاراً ؟.

مضاد للأول، والثالث متوسط مُتَلَوِّن يعصي بالليل مستخفياً ويظهر البراءَة بالنهار، والقول في الآية يطَّرد معناه في الأعمال، وقال قطرب ـ فيما حكى الزجاج ـ: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ معناه: ظاهر، من قولهم: «خفَيْتُ الشيءَ» إذا أظهرته، قال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا ... خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ[1]

قال: و﴿سَارِبٌ﴾ معناه: مُتَوَارٍ في سرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول وإن كان متعلقاً باللغة فضعيف، لأن اقتران الليل بالمستخفي والنهار بالسارب يردُّ على هذا القول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

اختلف المتأولون في عود الضمير من [لَهُ] ـ فقالت فرقة: هو عائد على اسم الله تعالىٰ المتقدم ذكره، و«المُعَقِّبَاتُ» ـ على هذا ـ الملائكة الحفظة على العباد أعمالهم، والحفظة لهم أيضاً، قاله الحسن، وروى فيه عثمان بن عفان عن النبي ﷺ حديثاً[2]،

---

(١) البيت في وصف فرس، والأنفاق جمع نَفَق، وهو سرب في أرض إلى موضع آخر، واستعارة امرؤ القيس لحجرة الفئران، والوَدَق: المطر، والغيث المجَلِّب: المُصَوِّت، ويروى المحلب بالحاء المهملة، وفي رواية اللسان: «وَدْقٌ من سحاب مُرَكَّب». ورواية ابن عطية هي الثابتة في شعر امرىء القيس.

(٢) الحديث رواه ابن جرير الطبري عن كنانة العدوي، قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله، أخبرني عن العبد كم معه من مَلَك؟ قال: مَلَك على يمينكَ على حسناتك، وهو أمير على الذي على الشمال، فإذا عملت حسنة كُتبت عشراً، وإذا عملتَ سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أكْتُبُ؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب، فإذا قال ثلاثاً قال: نعم، اكتبْ أراحنا الله منه، فبئس القرين، ما أقل مراقبته لله، وأقل استحياءَه منا، يقول الله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، ومَلَكان من بين يديكَ ومن خلفك، يقول الله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، ومَلَكٌ قابضٌ على ناصيَتِكَ، فإذا تواضعت لله رفعكَ، وإذا تجبرتَ على الله قصمك، ومَلَكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد، ومَلَك قائم على فيك لا يدع الحيَّة تدخل في فيك، ومَلَكان على عينيك، فهؤلاءِ عشرة أملاك على كل آدمي، ينزلون ملائكة الليل على =



وهو قول مجاهد، والنَّخَعي، والضمير ـ على هذا ـ في قوله [يَدَيْهِ] وما بعده من الضمائر عائد على العبد المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾، و﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون صفة للمُعَقِّبَات، ويحتمل أن يكون المعنى: يحفظونه من كل ما جرى القدر باندفاعه، فإذا جاءَ المقدور الواقع أَسلم المرء إِليه.

وقال ابن عباس أَيضاً[1]: الضمير في [لَهُ] عائد على المذكور في قوله: ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ﴾ وكذا باقي الضمائر التي في الآية، قالوا[2]: و«المَعقِّبَاتُ» ـ على هذا ـ حرس الرجل وجلاوزَتُه الذين يحفظونه[3]، قالوا: والآية ـ على هذا ـ في الرؤَساءِ الكافرين، واختار هذا القول الطبري، وهو قول عكرمة وجماعة، قال عكرمة، هي المواكب خلفه وأَمامه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح على التأْويل الأَول الذي قبل هذا أَن يكون الضمير في [لَهُ] للعبد المؤمن على معنى: جعل الله له، وهذا التأويل عندي أَقوى[4]، لأَن غرض الآية إنما هو التنبيه على قدرة الله، فذكر استواءَ من هو مُسْتَخْف ومن هو سارب وأَنَّ له معقبات من الله يحفظه في كل حال، ثم ذكر أَن الله لا يُغَيِّر هذه الحالة من الحفظ للعبد حتى يغيّر ما بنفسه، وعلى كلا التأْويلين ليست الضمائر لِمُعَيَّنين من البشر.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الآية في النبي ﷺ، ونزلت في حفظ الله له من أَربَد بن ربيعة، وعامر بن الطُّفَيْل في القصة التي تأْتي بعْدَ هذا في ذكر الصواعق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية وإِن كانت أَلفاظها تنطبق على معنى القصة فيُضْعِف القولَ أَن النبي ﷺ لم يتقدم له ذكر فيعود الضمير في [لَهُ] عليه.

و«المُعَقِّبات»: الجماعات التي يعقب بعضُها بعضاً، فعلى التأْويل الأَول هي

= ملائكة النهار، فهؤلاءِ عشرون مَلَكاً على كل آدمي، وإبليس بالنهار وولده بالليل).

(١) قال: (أيضاً) لأن ابن عباس رُوي عنه القول الأول، ورُويت عنه أقوال أُخرى كثيرة.

(٢) يريد أصحاب هذا القول، وقد أشار بعد ذلك إلى أن منهم عكرمة وجماعة.

(٣) الجَلاوِزَةُ: الشُّرَطَة، والمفرد: جِلْوَز وجِلْوَازٌ (المعجم الوسيط).

(٤) في بعض النسخ: «وغير هذا التأْويل عندي أقوى».

الملائكة، وينظر هذا إلى قول النبي ﷺ: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة المغرب والصبح)(١)، وعلى التأويل الثاني هي الحرس والوزَعَة الذين للملوك. والمُعَقِّبات جمع مُعَقِّبة، وهي الجماعة التي تأتي بعد الأُخرى، والتعقيب بالجملة أَن تكون حَالٌ تَعْقُبها حالٌ أُخرى من نوعها، وقد تكون من غير النوع، ومنه معاقبة الركوب، ومعقب عقبة القدر، والمعاقبة في الأَزواج، ومنه قول سلامة بن جندل:

وكَـرُّنَـا الخَيْـلَ فـي آثَـارِهِـمْ رُجُعـاً كُسَّ السَّنَابِكِ مِنْ بَدْءٍ وتعْقيب(٢)

وقرأ عبد الله بن زياد على المنبر: (له المعاقيب)، قال أَبو الفتح: هو تكسير معْقِب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

بسكون العين وكسر القاف كمطعم ومطاعيم ومقدِم ومقاديم، وهي قراءَة أَبي البرهسم، فكأَن معقباً جمع على معاقبة ثم جعلت الياءُ في معاقيب عوضاً من الهاءِ المحذوفة في معاقبة.

والمُعقِّبة ليست جمع مُعَقِّب كما ذكر الطبري وشبَّه ذلك برجل ورجالٍ ورجالات، وليس الأَمر كما ذكر لأَن تلك كجَمَل وجمَالٍ وجمالات، ومُعَقبة ومُعَقِّبات إِنما هي كضاربٍ وضاربات(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت والتوحيد، ومسلم في المساجد، والنسائي في الصلاة، ومالك في الموطأ في السفر، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٥٧، ٣١٢، ٤٨٦). ولفظه كما في صحيح مسلم: (عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون).

(٢) قال سلامة بن جندل هذا البيت من قصيدة يرثي فيها شبابه، ويفخر بنفسه وبقومه، ويذكر بعض المواقع ويعدد الأسلحة ويصف القتال، والرواية: «وكرُّنا خيلنا أدراجها...»، والأدراج: الطرق، ويقال: رجع على أدراجه بمعنى: رجع إلى المواضع التي جاء منها، ومعنى «كُسَّ السنابك» أن السَّنابك تحاتَّتْ وأكلتها الطريق لطولها، والسَّنابك جمع سُنْبك وهو مُقَدَّم الحافر، والتعقيب: الرجوع. والشاعر جاهلي مُقِلٌّ واسمه: سلامة بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم، وهو من الفرسان المعدودين، وتتمثل في شعره خشونة الصحراءِ.

(٣) قال أبو حيان في «البحر» «وينبغي أن يُتأول كلام الطبري على أنه أراد بقوله: «جمع مُعَقِّب» أنه أُطلق من حيث الاستعمال على جمع «مُعَقِّب» وإن كان أصله أن يُطلق على مؤنث «مُعقِّب»، وصار مثل «الواردة»=



وفي قراءَة أُبيِّ بن كعب: «من بين يديه ورقيب من خلفه»، وقرأ ابن عباس: «ورقيباً من خلفه»، وذكر عنه أبو حاتم أنه قرأ: «معقِّبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله».

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما أَن يكون بمعنى يحرسونه ويذُبُّون عنه، فالضمير معمول الحفظ، والمعنى الثاني أَن يكون بمعنى حفظ الأَقوال وتحصيلها، ففي اللفظة حينئذ حذف مضاف تقديره: يحفظون أَعمالهم، ويكون هذا حينئذ من باب ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[1]، وهذا قول ابن جُرَيج.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ـ مَنْ جعل ﴿يحْفَظُونَهُ﴾ بمعنى يحرسونه كان معنى قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يراد به المعقِّبات، فيكون في الآية تقديم وتأْخير، أَي: له معقبات من أَمر الله يحفظونه مِنْ بَيْن يديه ومِنْ خلفه، قال أَبو الفتح: فـ ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ في موضع رفع لأَنه صفة لمرفوع وهي «المعقِّبات»، ويحتمل هذا التأْويل في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ مع التأْويل الأَول في ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾، ومَن تأَول الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على العبد وجعل «المعقبات» الحرس وجعل الآيةفي رؤساءِ الكافرين جَعَلَ قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: يحفظونه بزعمه من قَدَر الله ويدفعونه في ظنه عنه، وذلك لجهالته بالله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبهذا التأْويل جعلها المتأَولون في الكافرين، قال أَبو الفتح: فـ ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ـ على هذا ـ في موضع نصب، كقولك: «حفظت زيداً من الأَسد»، فـ «مِنَ الأَسد» معمول لـ «حفظت». وقال قتادة: معنى بـ﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أَي يحفظونه مما أَمر الله، وهذا تحكم في التأْويل، قال قوم: المعنى: الحفظ من أَمر الله، وقد تقدم نحو هذا. وقرأَ علي بن أَبي طالب، وابن عباس، وعكرمة، وجعفر بن محمد ـ رضي الله عنهم ـ: [يحفظونه بأَمر الله][2].

= للجماعة الذين يردون وإن كان أصله أن يُطلق على مؤنث «وارد»، وتشبيه الطبري ذلك برجل ورجال ورجالات من حيث المعنى لا من حيث صناعة النحويين، فبيَّن أن «معقِّبة» من حيث أُريد به الجمع كرجال من حيث وضع للجمع، وأنّ «معقِّبات» من حيث استعمل جمعاً «لمعقِّبة» المستعمل للجمع كرجالات الذي هو جمع رجال». (البحر المحيط ٥ـ٣٧٢).

(١) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف).

(٢) تعليق ابن عطية على قول قتادة بأنه تحكم في التأويل علَّق عليه أبو حيان في «البحر» فقال: «وليس=



ثم أخبر تعالىٰ أنه لايُغيِّر ما بقوم بأن يعذبهم ويمتحنهم معاقباً حتى يقع منهم تكسُّب للمعاصي وتغيير ما أُمروا به من طاعة الله، وهذا موضع تأمل، لأنه يداخل هذا الخبر ماقرّرت الشريعة من أَخْذ العامة بذنوب الخاصة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ـ وقد قيل له: يا رسول الله أنَهْلِكُ ومنا الصالحون؟ ـ قال: (نعم، إذا كثر الخبث)[2] إلى أشياءَ كثيرة من هذا، فقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾ معناه: حتى يقع تغييرٌ إمَّا منهم وإما من الناظر لهم أو ممن هو منهم بسبب، كما عبّر تعالىٰ بالمنهزمين يوم أُحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم، إلى غير هذا من أَمثال الشريعة، فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، وثم أَيضاً مصائب يريد الله بها أجر المصاب فتلك ليست تغييراً.

ثم أخبر تبارك وتعالىٰ بأنه إذا أَراد بقوم سوءاً فلا مَرَدَّ له، ولا حفظ منه، وهذا أُجري في مقام التنبيه على عادة الله تعالىٰ وقدرته، والشَّرُّ والخير بمنزلة واحدة إذا أَرادهما الله بعبد لم يُرَدّ، لكنه خصَّ السوءَ بالذكر ليكون في الآية تخويف.

واختلف القراءُ في [والٍ] ـ فأَماله بعضهم ولم يُمِلْه بعضهم، والوالي: الذي يلي أَمر الإنسان كالولي، وهما من الولاية كعليم وعالم من العلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ﴾ الآية. هذه آية تنبيه على القدرة، «والبرق» رُوي فيه عن النبي ﷺ أنه مخراق بيد مَلَك يزجر به السحاب[3]، وهذا أَصح ما رُوي فيه،

= بتحكم وورود (من) للسبب ثابت من لسان العرب، تقول: كسوته من عُرْيٍ وعن عُرْيٍ، ويكون معنى (من) ومعنى (الباءِ) سواء كأنه قيل: يحفظونه بأمر الله وبإذنه، فحفظهم إياه مُتَسَبَّب عن أمر الله لهم بذلك».

(١) من الآية (٢٥) من سورة (الأنفال).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه في الفتن، والإمام أحمد في مسنده (٦ـ٤٢٨)، ومالك في الموطأ، ولفظه كما في صحيح مسلم: عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردْم يأجوج ومأجوج مثل هذه)، وعقد سفيان بيده عشرة ـ سفيان راوي الحديث ـ قلت: يا رسول الله، أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخَبَث)، وكلمة «الخبث» يمكن ضبطها بفتح الخاءِ والباء، ويمكن ضبطها بضم الخاء وسكون الباءِ ويكون معناها: الفسق والفجور.

(٣) الذي وجدناه في المراجع أن النبي ﷺ قال ذلك عن «الرعد» وصوته، وقد أخرج أحمد، والترمذي =

ورُوي عن بعض العلماءِ أَنه قال: البرقُ: اصطكاك الأَجرام، وهذا عندي مردود، وقال أَبو الجلد في هذه الآية: البرقُ: الماءُ، وذكَرَه مكي عن ابن عباس، ومعنى هذا القول أَنه لما كان داعية الماءِ وكان خوف المسافر من الماءِ وطمع المقيم فيه عُبِّر في هذا القول عنه بالماءِ.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، من قال ذلك في الماء فهو على ما تقدم، والظاهر أَن الخوف إنما هو من صواعق البرق، والطمع في المطر الذي يكون معه، وهو قول الحسن. و﴿ٱلسَّحَابُ﴾ جمْعُ سحابة، ولذلك جَمَع الصفة. و﴿ٱلثِّقَالَ﴾ معناه: يحمل الماءَ، وبذلك فسَّر قتادة ومجاهد، والعربُ تصفها بذلك، ومنه قول قيس بن الخطيم:

فَمَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْقَطَا ... كَأَنَّ الْمَصَابِيحَ حوذانُهَا

بِأَحْسَنَ مِنْهَا وَلاَ مُزْنَة ... دَلُوح تَكَشَّفُ أَدْجَانُهَا[1]

والدَّلوح: المُثْقَلَة.

= وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياءٍ فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتَّبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، قال: هاتوا، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي، قال: تنام عينه ولا ينام قلبه، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر، قال: يلتقي الماءان فإذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أَذْكرت، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أَنَّثَتْ، قالوا: أخبرنا عما حرَّم إسرائيل على نفسه، فقال: كان يشتكي عرق النِّسا فلم يجد شيئاً يلائمه إلا أَلْبان كذا وكذا ـ يعني الإبل ـ فحرَّم لحومها، قالوا: صدقتَ، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملَك من ملائكة الله مُوَكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله، قالوا: فماذا الصوت الذي نسمع؟ قال: صوتُه، قالوا: صدقْتَ، إنما بقيت واحدة وهي أن نتابعك إن أخبرتنا، إنه ليس من نبي إلا له ملَك يأتيه بالخبر، فأخبرنا مَنْ صاحبك؟ قال: جبريل، قالوا: جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلْتَ ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والمطر لكان، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية. راجع: الدر المنثور، وفتح القدير، ومسند الإمام أحمد (١ـ٢٧٤)، أما النص الذي ذكره ابن عطية وفيه لفظ البرق فقد أخرجه أبو الشيخ عن مجاهد، ذكر ذلك في الدر المنثور.

(١) قيس بن الخطيم بن عديّ بن حارثة الغطريف، كان شاعر الأوس وبينه وبين حسّان بن ثابت منافسات، قدم مكة فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام وتلا عليه القرآن، فقال: إني لأسمع قولاً عجباً فدعني أنظر في أمري هذه السنة وأعود، فمات قبل الحول، وهو في شعره يجري مجرى الجاهليِّن. والقطا: جمع قطاة، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، ويتخذ أُفحوصَه في الأرض، ويطير في جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مرقط. والمُزْن: السحاب يحمل الماءَ والواحدة مزنة، والأدجان جمع=



و[ٱلرَّعْدُ] مَلَك يزجر السحاب بصوته، وصوتُه هذا المسموع تسبيحٌ، والرعد اسم الملَك، وقيل: الرَّعد اسم صوت الملَك، وروي عن النبي ﷺ أنه كان إذا سمع الرعد قال: (اللهم لا تُهلكنا بغضبك، ولا تقتلنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك)[١].

ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وغيره أَنهم كانوا إذا سمعوا الرَّعد قالوا: «سبحان الذي سبَّحت له»، وروى أَبو هريرة أَن النبي ﷺ كان إذا سمع الرَّعد قال: (سبحان من سبَّح الرعد بحمده)[٢]، وقال ابن أَبي زكريا: «من قال إذا سمع الرَّعد: سبحان الله وبحمده لم تصبه صاعقته»، وقيل في الرعد أَيضاً: إنه ريح يختنق بين السحاب، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي لا يصح لأَنها نزعات الطبيعيين وغيرهم من الملحدة، ورُوي أَيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن الملَك إذا غضب وزجر السحاب اضطربت من خوفه فيكون البرق، وتحتك فتكون الصواعق.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآية. قيل: إنه أَدخلها في التنبيه على القدرة بغير سبب ساق ذلك، وقال ابن جريج: كان سبب نزولها قصة أَرْبَد أَخي لبيد بن ربيعة، وعامر بن الطُّفَيل، وكان من أَمرهما فيما روي أَنهما قدما على رسول الله ﷺ فدعواه أَن يجعل الأَمر بعده إلى عامر بن الطفيل ويدخلا في دينه فأَبى، فقال عامر: فتكون أَنت على أَهل المدر وأَنا على أَهل الوبر[٣] فأَبى، فقال له عامر: فماذا تعطيني؟ فقال النبي ﷺ: أُعطيك أَعنة الخيل فإنك رجل فارس، فقال له عامر: والله لأَملأَنها عليك خيلاً ورجلاً حتى آخذك، فقال له رسول الله ﷺ: يأبى الله ذلك وأَبناءُ قيلة[٤]، فخرجا

= دَجْن، وهو ظل الغيم في اليوم المطير حين يكسو الأرض، وقد قال قيس بن الخطيم البيتين من قصيدة يردّ بها على حسان حين تعرض لأخت قيس في إحدى قصائده.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في الأدب، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم، وابن مردويه، والخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن عمر رضي الله عنهما. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث مرفوع. (الدر المنثور).

(٣) أهل المدر: سكان البيوت المبنية، وأهل الوبر: سكان الخيام من البدو.

(٤) يريد: الأوس والخزرج.

من عنده، فقال أَحدهما لصاحبه: لو قتلناه ما انتطح فيها عنزان، فتآمرا في الرجوع لذلك، فقال عامر لأَربد: أَنا أَشغله لك بالحديث واضربه أَنت بالسيف، فجعل عامر يحدثه وأَربد لا يصنع شيئاً، فلما انصرفا قال له عامر: والله يا أَربد لا خفتك أَبداً، ولقد كنت أَخافك قبل ذلك، فقال له أَربد: والله لقد أَردت إِخراج السيف فما قدرتُ على ذلك، ولقد كنت أَراك بيني وبينه أَفأَضربك؟ فمضيا للحشد على النبي ﷺ، فأَصابت أَرْبَد صاعقة فقتلته، ففي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أَخوه:

أَخشى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ ولا ... أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ والأَسَدِ
فَجَّعَني البَرْقُ والصَّوَاعِقُ بالْـ ... ـفَارِسِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ النُّجُدِ[١]

فنزلت الآية في ذلك، وروي عن عبد الرحمن بن صحار العبدي أَنه بلغه أَن جباراً من جبابرة العرب بعث إِليه النبي ﷺ لِيُسْلِم، فقال: أَخبروني عن إِلـٰه محمد، من لؤلؤ هو أَو من ذهب؟ فنزلت عليه صاعقة ونزلت الآية فيه[٢]، وقال مجاهد: إِن بعض اليهود جاءَ إِلى النبي ﷺ يناظره، فبينما هو كذلك إِذ نزلت صاعقة فأَخذت قحف رأسه فنزلت الآية فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾، يجوز أَن تكون إِشارة إِلى جدال اليهود المذكور وتكون الواو واو حال، أَو إِلى جدال الجبار المذكور، ويجوز ـ إِن كانت الآية على غير سبب ـ أَن يكون قوله: ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ إِشارة إِلى جميع الكفرة من العرب وغيرهم الذين جُلبت لهم هذه التنبيهات.

---

(١) كان أَرْبد قد وفد على الرسول ﷺ في عام الوفود مع عامر بن الطفيل وجابر بن سلمى بن مالك، ولم يوفقهم الله للإسلام، وفي عودتهم توفي عامر بالطاعون، وأَصابت أَرْبد صاعقة فقتلته حرقاً، وقد قيل: إِن أربد لم يكن شقيقاً للبيد بن ربيعة وإنما هو أخوه لأمه، واسمه أَرْبد بن قيس بن جزءٍ.

والحتف: الهلاك، وجمعه حُتُوف، والنَّوْءُ: النجم في السماءِ إذا مال للغروب، وجمعه أنواء، والنُّجُد: البطل ذو النجدة. يقول لبيد: كنت أخشى على أَرْبد كل سبب من أسباب الهلاك فقد كان يتعرض لها كلها إلا سبباً واحداً لم أكن أخافه ولا أخشاه وهو أن يموت بصاعقة من السماء، ثم يتحدث عن فجيعته في هذا الفارس المعروف بالشهامة والنجدة في يوم الكريهة وعند الشدة.

(٢) أخرجه ابن جرير، والخرائطي في مكارم الأخلاق ـ وأخرج مثله النسائي، والبزَّار، وأبو يعْلَى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والطَّبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي الرواية أن رسول الله ﷺ إلى هذا الجبار قد ذهب إليه ثلاث مرات، وفي كل مرة يتعاظم ويتكبر.

و[ٱلْمِحَال]: القوة والإهلاك، ومنه قول الأعشى:

فَـرْعُ نَبْـعٍ يَهْتَـزُّ فـي غُصُـنِ الْمَجْـ ـدِ عَظِيمُ النَّدَى شَدِيدُ المحَال[١]

ومنه قول عبد المطلب:

لاَ يَغْلِبَــــنَّ صَلِيبُهُـــمْ وَمَحَــالُهُـمْ عَـدْواً مِحَـالَـكْ[٢]

وقرأ الأعرج، والضحَّاك: [ٱلْمَحَال] بفتح الميم بمعنى المحالة، وهي الحيلة، ومنه قول العرب في [ذكر] المثل: «المرءُ يعز لا محالة»[٣]، وهذا كالاستدراج والمكر ونحوه، وهذه استعارات في ذكر الله تعالىٰ، والميم إذا كُسرَت أَصلية، وإذا فتحت زائدة، ويقال: مَحَلَ الرجل بالرجل: مَكَر به وأَخذه بسعاية شديدة[٤].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا

---

(١) البيت من قصيدته المشهورة التي قالها يمدح الأسود بن المنذر اللَّخمي، ومطلعها:

مَـا بُكَـاءُ الكَبِيـرِ بـالأَطْـلالِ وسُـؤالـي، فَهَـلْ تَـرُد سُـؤَالـي ؟

ورواية الديوان «غزير النَّدى»، والمِحال: المكر والقوة، ويمكن أن يراد به العقوبة، ومنه قول ذي الرمة:

ولَبْـسَ بَيْـنَ أَقْـوَامٍ فَكُـلٌّ أَعَـدَّ لَـهُ الشَّغَـازِبَ والمِحَـالا

والشَّغْزَبِيَّةُ: ضربٌ من الحيلة في الصراع، وهي أن تلوي برجلك رجله.

(٢) وقبله يقول عبد المطلب:

لا هُـــمَّ إنَّ الْمَــرْءَ يَمْـ ـنَـعُ رَحْلَـهُ فـامْنَـعْ حِـلالَـك

والحِلالُ بالكسر: القوم المقيمون المتجاورون، يريد بهم سكان الحرم، ويروى: «غَدْراً»، والغدر معروف، ويروى: «أبداً محالك»، هكذا رواه في «البحر المحيط».

(٣) معناه: لا تضيق الحِيَلُ ومخارج الأمور إلا على العاجز (مجمع الأمثال للميداني)، وكلمة (ذكر) وردت في بعض الأصول، والأولى أن تحذف، فالمعنى أسلم والتعبير أصح بدونها.

(٤) قال الزمخشري: «ويجوز أن يكون المعنى: شديد العقاب ويكون مثلاً في القوة والقدرة، كما جاء: «فسَاعِدُ الله أشَدُّ، وموساه أَحَدُّ»، لأن الحيوان إذا اشتد غاية كان منعوتاً بشدة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره، ألا ترى إلى قولهم: «فَقَرَتْه الفواقر»، وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه».



ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ .

الضمير في [لَهُۥ] عائد على اسم الله تبارك وتعالىٰ، وقال ابن عباس: «﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۖ﴾ لا إلـهَ إلا الله». وما كان من الشريعة في معناه، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «هي التوحيد»، ويصح أن يكون معناها: له دعوة العباد بالحق ودعاءُ غيره من الأَوثان باطل.

وقوله: [وَٱلَّذِينَ] يُراد به ما عُبد من دون الله، والضمير في [يَدْعُونَ] لكفار قريش ونحوهم من العرب، وروى اليزيدي عن أَبي عمرو بن العلاءِ ﴿تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ بالتاءِ من فوق، و[يَسْتَجِيبُونَ] بمعنى يُجيبونَ، ومنه قول الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يا مَنْ يُجيبُ إِلى النَّدَى فَلَـمْ يَسْتَجِبْـهُ عِنْـدَ ذَاكَ مُجيـبُ[(١)]

ومعنى الكلام: والذين يدعونهم الكفار في حوائجهم ومنافعهم لا يجيبون بشيءٍ.

ثم مثل تعالىٰ مثالاً لإِجاباتهم بالذي يبسط كفَّيْه نحو الماءِ ويشير إِليه بالإِقبال إِلى فيه، فهو لا يبلغ فمه أَبداً، فكذلك إِجابة هؤلاءِ والانتفاع بهم لا يقع[(٢)]. وقوله: [هُوَ] يريد به الماءَ وهو البالغ، والضمير في [بِبَٰلِغِهِۦ] للفم، ويصح أَن يكون [هُوَ] يراد به الفم وهو البالغ أَيضاً، والضمير في [بِبَٰلِغِهِۦ] للماءِ، لأَن الفم لا يبلغ الماءَ أَبداً على تلك الحال، ثم أَخبر تعالىٰ عن دعاءِ الكافرين أَنه في ضلال ولا يفيد شيئاً ولا يغني.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ الآية. يحتمل ظاهر هذه الأَلفاظ أَنه جرى في طريق التنبيه على قدرة الله وتسخير الأَشياءِ له فقط، ويحتمل أَن يكون في ذلك طعن على كفار قريش وحاضري محمد ﷺ، أَي: إِن كنتم أَنتم لا توقنون ولا تسجدون فإِن جميع من

(١) قال هذا البيت كعب بن سعد الغَنَوِيُّ يرثي أخاه أبا المغوار، وبعده يقول:

فقُلْتُ ادْعُ أُخْرَى وارْفَعِ الصَّوْتَ رَفْعَةً لَعَـلَّ أَبَـا المِغْـوَارِ مِنْـكَ قَـرِيـبُ

(٢) العرب تضرب مثلاً لمن سعى فيما لا يدركه بالقابض على الماء، قال ضابىء بن الحارث البرجمي:

فَـإِنّـي وإِيَّـاكُـمْ وشَـوْقـاً إِلَيْكُـمُ كَقَـابِـضٍ مـاءٍ لَـمْ تَسِقْـهُ أَنَـامِلُـهْ

أي: لم تحمله أنامله، وروي: «لم تُطعه»، يعني أنه ليس في يده من ذلك إلا كما في يد القابض على الماءِ، والقابض على الماء ليس في يده شيءٌ، وقال آخر:

فـأَصْبَحْـتُ مِمَّـا كـانَ بَيْنـي وبَيْنَهـا مِنَ الـوُدِّ مِثْـلَ القَـابِـضِ المـاءَ بـاليَـدِ



في السموات والأَرض لهم سجود لله تعالىٰ، وإلى هذا الاحتمال نحا الطبري، و﴿مَنْ﴾ تقع على الملائكة عموماً وسجودهم طوعاً بلا خلاف، وأَما أَهل الأَرض فالمؤمنون منهم داخلون في مَنْ سجودهم طَوْعٌ، وأَما سجود الكفرة فهو الكُرْه، وذلك على نحوين من هذا المعنى، فإن جعلنا السجود هنا الهيئة المعهودة فالمراد من الكفرة من يضمه السيف إلى الإسلام ـ كما قال قتادة ـ فيسجد كرهاً، إمَّا نفاقاً، وإمَّا أَن يكون الكره أَول حاله فتستمر عليه الصفة وإن صحَّ إيمانه بعد، وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلُّل على حسب ما هو في اللغة كقول الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكْمَ فيها سُجَّداً للْحَوَافِرِ[١]

فيدخل الكفار أَجمعون في [مَنْ]، لأَنه ليس من كافر إلا ويلحقه من التذلُّل والاستكانة بقدرة الله أَنواع أَكثر من أَن تُحصى بحسب رزاياه واعتباراته، وقال النحاس، والزجَّاج: إن الكره يكون في سجود عصاة المسلمين وأَهل الكسل منهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإن كان اللفظ يقتضي هذا فهو قلق من جهة المعنى المقصود بالآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ۩﴾ إخبار عن أَن «الظِّلال» لها سجود لله تعالىٰ بالبُكَر والعَشيَّات، قال الطبري: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾[٢]، قال: وذلك هو فيئُهُ بالعشي، وقال مجاهد: «ظلُّ الكافر يسجد طوعاً وهو كاره»، وقال ابن عباس: «يسجد ظلُّ الكافر حين يفيءُ عن يمينه وشماله»، وحكى الزجَّاج أَن بعض الناس قال: إن «الظِّلال» هنا يُراد بها الأَشخاص، وضعفه أَبو إسحاق. و﴿ٱلْآصَالِ﴾ جمع أَصيل[٣]، وقرأَ أَبو

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل، والبيت بتمامه:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَرَاتِهِ ... ترى الأُكْمَ فيها سُجَّداً لِلْحَوافِرِ

والبَلَقُ: سوادٌ وبياضٌ، يقال فرس أبلق، وهي بلقاءُ، والعرب تقول: دابة أبلق وجبل أَبرق، والحَجَرات: الجوانب، ،الأكمة: التَّلُّ المرتفع، والجمع: أكماتٌ وأَكَمٌ، وجمع الأكَم إكامٌ مثل جبل وجِبال، وجمع الإكام أُكُمٌ مثل كِتاب وكُتُب، وجَمْع الأُكم آكامٌ مثل عُنُق وأعناق.

(٢) من الآية (٤٨) من سورة (النحل).

(٣) قال ابن جرير في تفسيره: والآصال جمع أُصُل، والأصل جمع أصيل، والأصيل هو العشي، وهو =



مجلز: [والإِيصالِ]، قال أَبو الفتح: هو مصدر أَصلنا، أَي: دخلنا في الأَصيل، كأَصبحنا وأَمسينا. وروي أَن الكافر إِذا سجد لصنمه فإِن ظله يسجد لله حينئذ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قل من رب السموات والأرض﴾ الآية. جاءَ السؤال والجواب في هذه الآية من ناحية واحدة، إِذ كان السؤال والتقرير عن أَمر واضح لا مدافعة لأَحد فيه ملتزم للحجة، فكان السبق إِلى الجواب أَفصح في الاحتجاج وأَسرع في قطعهم من انتظار الجواب منهم، إِذ لا جواب إِلا هذا الذي وقع البِدار إِليه[1]. وقال مكي: جهلوا الجواب وطلبوه من جهة السائل فأَعلمهم به السائل، فلما تقيد من هذا كله أَن الله تعالىٰ هو رب السموات والأَرض وقع التوبيخ على اتخاذهم من دونه أَولياءَ مُتَّصفين بأَنهم لا ينفعون أَنفسهم ولا يضرونها، وهذه غاية العجز، وفي ضمن هذا الكلام: «وتركتموه وهو الذي بيده ملكوت كل شيءٍ»، ولفظه ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تقتضي ذلك.

ثم مثَّل الكفار والمؤمنين ـ بعد هذا ـ بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ بالتاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [يَسْتَوِي] بالياءِ، فالتأْنيث أَحسن لأَنه مؤنث لم يُفْصل بينه وبين فاعله بشيءٍ، والتذكير شائع لأَنه تأْنيث غير حقيقي والفعل مقدم[2]، وشبهت هذه الآية الكافر بالأَعمى والكفر بالظلمات، وشبهت المؤمن بالبصير والإِيمان بالنور. ثم وقفهم بعْدُ، هل رأَوا خلقاً لغير الله فحملهم ذلك واْشتباهه بما خلق الله على أَن جعلوا إِلـٰهاً غير الله. ثم أَمر محمداً عليه الصلاة والسلام بالإِفصاح بصفات الله تعالىٰ في أَنه خالق كل شيءٍ، وهذا عموم في

= ما بين العصر إلى مغرب الشمس، قال أبو ذؤيب الهُذَلي:

لَعَمْـري لأَنْـتَ البَيْـتُ أُكْـرمُ أَهْلَـهُ ... وأَقْعُـدُ فـي أَفْيـائِـهِ بـالأصـائـلِ

واستشهد أيضاً بهذا البيت أبو عبيدة في (مجاز القرآن) على أن آصال جمع أُصل، وأُصل جمع أصيل، فآصال جمع الجمع، وبهذا أيضاً قال الزجاج.

(١) ومثل هذا قوله تعالىٰ: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله﴾.

(٢) [أَمْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ منقطعة، فهي تقدر بـ (بَلْ والهمزة)، فالتقدير: «بَلْ أَهَلْ تستوي»، و(هَلْ) وإن نابت عن (الهمزة) إلا أنها تأتي معها كما في قول الشاعر: «أَهَلْ رأَونا بوادي القَفر ذي الأكَم»، فإذا جاءت معها صريحة كان من باب أولى أن تأتي مع [أَمْ] المتضمنة لها، قال ذلك صاحب البحر المحيط (٥ـ٣٧٩).



اللفظ يراد به الخصوص في كل ما هو خلْق لله تعالىٰ، ويخرج عن ذلك صفات ذاته لا ربَّ غيره، ووصف نفسه بالوحدانية من حيث لا موجود إلا به، وهو في وجوده مستغن عن الموجودات، لا إلـٰه إلا هو العلي العظيم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالىٰ وإقامة الحجة على الكفر به، ثم لما فرغ ذكر ذلك جعله مثالاً للحق والباطل والإيمان والكفر والشك في الشرع واليقين به.

و«الماءُ»: يريد به المطر، و«الأَودية»: ما بين الجبال من الانخفاض والخنادق، وقوله سبحانه: [بِقَدَرِهَا] يحتمل أن يريد بما قُدّر لها من الماء ويحتمل أن يريد بقدر ما تحمله على قدر صغرها وكبرها وقرأ جمهور الناس [بِقَدَرِهَا] بفتح الدال، وقرأ الأشهب العقيلي بسكونها.

و«الزَّبدُ»: ما يحمله السيل من غثاءٍ ونحوه وما يرمي به ضفَّتيه من الحَباب الملْتَبك[1] به، ومنه قول حسّان بن ثابت:

والبَحْرُ حينَ تَهُبُّ الرِّيحُ شَاميَةً ... فَبَاطِلٌ ويرمي العِبْرَ بالزَّبَدِ[2]

و«الرَّابي»: المنتفخ الذي قَدْ رَبَا، ومنه الرَّبْوَة.

وقوله تعالىٰ: [وَممَّا] خبر ابتداءٍ، والابتداءُ قوله: [زَبَدٌ] و[مِثْلُهُ] نعت لـ «الزَّبَد»، والمعنى: ومن الأَشياءِ التي توقدون عليها ابتغاءَ الحلي ـ وهي الذهب والفضة ـ أَو ابتغاءَ الاستمتاع بها في المرافق ـ وهي الحديد والرصاص والنحاس ونحوها من الأَشياءِ التي توقدون عليها، فأَخبر تعالىٰ أَن من هذه أَيضاً ـ إذا أُحمي عليها ـ تكون زبداً مماثلاً للزَّبد الذي يحمله السيل، ثم ضرب تعالىٰ ذلك مثلاً للحق والباطل، أَي أَن الماءَ الذي

---

(١) الحَباب: الفقاقيع تظهر على وجه الماءِ، الملتبك: المختلط بعضه ببعض.

(٢) العِبْر بكسر العَيْن: الضفة أو الشاطىء وورد فيها الفتح، والزَّبَد فسّره ابن عطية. والريح الشامية هي التي تهب من جهة الشام. وروي البيت: و«النهر» بدلاً من «البحر».



تشربه الأرض فيقع النفع به هو كالحق، والزَّبد الذي يجْفُو ويَنْفِش[١] ويذهب هو كالباطل، وكذلك ما يخلص من الذهب والفضة والحديد ونحوها هو كالحق، وما يذهب في الدخان هو كالباطل. وقوله: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: كائناً كذا، قال مكي وغيره: ومنعوا أن يتعلق بقوله: ﴿يُوقِدُونَ﴾ لأنهم زعموا أنه ليس يوقد على شيءٍ إلا وهو في النار، وتعلق حرف الجر بـ ﴿يُوقِدُونَ﴾ يتضمن تخصيص حال من حال أُخرى[٢]. وذهب أبو علي الفارسيّ إلى تعلقه بـ ﴿يُوقِدُونَ﴾، وقال: قد يوقد على شيءٍ وليس في النار كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾[٣]، فذلك البناءُ الذي أمر به أن يوقد عليه ليس في النار ولكن يصيبه لهيبها. وقوله: ﴿جُفَآءً﴾ مصدر من قولك: «جفأت القدر» إذا غلت خرج زبدها وذهب. وقرأ رؤبة: [جُفَالاً] من قولهم: «جفلت الريح السحاب» إذا حملته وفرقته، قال أبو حاتم: لا تعتبر قراءَة الأعراب في القرآن[٤].

وقوله: ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ يريد الخالص من الماءِ ومن تلك الأحجار، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، والحسن: [تُوقِدُونَ] بالتاءِ، أي أنتم أيها الموقدون، وهي صفة لجميع أنواع الناس. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن محيصن، ومجاهد، وطلحة، ويحيى، وأهل الكوفة ﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياءِ على الإشارة إلى الناس. و﴿جُفَآءً﴾ مصدر في موضع الحال، وروي عن ابن عباس أنه قال: قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد به الشرع والدين. وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ يريد به القلوب، أي: أخذ النبيل بحظِّه والبليد بِحَظِّه[٥].

---

(١) يجفو: يبعد، يقال: جفا الشيءُ: نَبَا وبَعُد، وينفش: يتفرق وينتشر بعد تَلَبُّد.

(٢) قال أبو حيان ردّاً على هذا: «ولو قلنا إنه لا يوقد على شيءٍ إلا وهو في النار، لجاز أن يكون متعلقاً بـ ﴿يُوقِدُونَ﴾، ويجوز ذلك على سبيل التوكيد، كما قالوا في قوله تعالىٰ: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾. البحر المحيط ٥ـ٣٨٢».

(٣) من الآية (٣٨) من سورة (القصص).

(٤) وعن أبي حاتم أيضاً: «لا يُقرأُ بقراءة رؤبة، لأنه كان يأكل الفار»، يعني أنه كان أعرابياً جافياً.

(٥) وقيل في هذه الآية أيضاً: «هذا مثل ضربه الله تعالىٰ للقرآن والقلوب والحق والباطل، فالماءُ مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب وبقاءِ الشرع والدين، والأودية مثل القلوب. ومعنى ﴿بِقَدَرِهَا﴾: على سعة القلوب وضيقها، فمنها ما انتفع به القلب فحفظه ووعاه وتدبر فيه فظهرت ثمرته وأدركَ تأويله ومعناه، =



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا يصح والله أَعلم عن ابن عباس لأَنه ينحو إِلى قول أَصحاب الرموز، وقد تمسَّك به الغزالي وأَهل ذلك الطريق، ولا وجه لإِخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير علَّة تدعو إِلى ذلك، والله الموفق للصواب برحمته، وإِنْ صحَّ هذا القول عن ابن عباس فإِنما قصد أَن قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ معناه: الحق الذي يتقرر في القلوب، والباطل الذي يعتريها[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ هم المؤمنون الذين دعاهم الله على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام فأَجابوه إِلى ما دعاهم إِليه من اتِّباع دينه.

و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي الجنة، ويدخل في هذا النصرُ في الدنيا ونحُو ذلك من البشارات التي تكون للمؤمن وكلُّ ما يختص به المؤمنون من نعم الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾ هم الكفرة. و﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ هو التَّقصي على المحاسَب، ولا يقع في حسابه شيءٌ من التجاوز. قاله حوشب، وإِبراهيم النَّخعي،

= ومنها دون ذلك بطبقة، ومنها دونه بطبقات، والزَّبد مثل الشكوك والشُّبه وإنكار الكافرين أنه كلام الله ودفعهم إياه بالباطل، والماءُ الصافي المُنْتَفع به مثل الحق»، قال أبو حيان تعليقاً على هذا الكلام: «وفي الحديث الصحيح ما يؤيد هذا التأويل، وهو قوله ﷺ: (مثَل ما بُعِثْت به من الهدى كمثل غيث أصاب أرضاً، وكانت منها طائفة طيبة قبلت الماءَ وأنبتت الكلأ والعُشْب الكثير، وكانت منها طائفة أجادب فأمسكت الماءَ فانتفع الناس به وسقوا ورعوا، وكانت منها قيعان لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مثل ما جئت به من العلم والهدى، ومثل من لم يقبل هدى الله الذي جئت به).».

(١) وفي نفس الموضوع قال أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري صاحب كتاب (سوق العروس): «إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثَّل القرآن بالماءِ، ومثَّل القلوب بالأودية، ومثَّل المحكم بالصافي، ومثَّل المتشابه بالزَّبد».



وفَرْقَدُ السَّبَخي[1] وغيره. و«المأوى» حيث يأوي الإنسان ويسكن، و﴿ٱلْمِهَادُ﴾ ما يُفترش ويُلبس بالجلوس والرقاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ استفهام بمعنى التقرير، والمعنى: أَيستوي مَنْ هداه الله تعالىٰ فآمن بك وعلم صدق نبوتك ومَنْ لم يهتد ولا رُزق بصيرة فبقي على كفره؟ فمثَّل عزَّ وجلَّ ذلك بالعمى، ورُوي أَن هذه نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأَبي جهل بن هشام، وقيل: في عمار بن ياسر وأَبي جهل، وهي ـ بعد هذا ـ مثال في جميع العالم. و﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصِرة، أَي: إِنما يتذكر فيُؤْمن ويراقب الله مَنْ له لبٌّ وتحصيل.

ثم أَخذ تبارك وتعالىٰ في وصف هؤلاءِ الذين يسَّرهم للإيمان فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾. وقوله: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ اسم للجنس، أَي بجميع عهوده، وهي أَوامره ونواهيه التي وصَّى بها عبيده، ويدخل في هذه الأَلفاظ التزامُ جميع الفروض وتجنُّب جميع المعاصي.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ﴾ يحتمل أَن يريد به جنس المواثيق، أَي: إِذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه، قال قتادة: وتقدم الله إِلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية، ويحتمل أَن يشير إِلى ميثاق معيّن وهو الذي أَخذه الله على عباده وقت مسحه على ظهر أَبيهم آدم عليه السلام.

وَوَصْلُ ما أَمر الله به أَن يُوصل ظاهِرُهُ في القرابات، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات، وسُوءُ الحساب هو أَن يُتقصَّى، ولا يقع فيه مسامحة ولا تغمّد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

الصبر لوجه الله يدخل في الرَّزايا والأَسقام والعبادات، وعن الشهوات ونحو ذلك.

---

(١) بفتح السين والباءِ نِسْبةً إِلى السَّبخة، وهي موضع بالبصرة، قال فرقد: قال لي إبراهيم النَّخعي: يا فرقد، أتدري ما سوءُ الحساب؟ قلت: لا، قال: أَنْ يحاسب الرجل بذنبه كله لا يُفقد منه شيءٌ.



و[ٱبْتِغَاءَ] نصب على المصدر، أَو على المفعول من أَجله، و«الوَجْه» في هذه الآية ظاهره الجهة التي تقصد عند الله تعالىٰ بالحسنات لتقع عليه المثوبة، وهذا كما تقول: خرج الجيش لوجه كذا، وهذا أَظهر ما فيه، مع احتمال غيره، و«إِقامة الصلاة» هي الإِتيان بها على كمالها، والصلاة هنا هي المفروضة.

وقوله تعالىٰ: [وَأَنفَقُوا] يريد مواساة المحتاج، و«السِّرُّ» هو فيما أُنفق تطوعاً، والعلانية فيما أُنفق من الزكاة المفروضة، لأَن التطوع كله الأَفضل فيه التكتم. وقوله ﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ أَي: ويدفعون من رأَوْا منه مكروهاً بالتي هي أَحسن، وقيل: يدفعون بقول «لا إِلـه إِلا الله» شرْكَهُم، وقيل: يدفعون بالسلام غوائل الناس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبالجملة لا يُكَافئون الشرَّ بالشرِّ، وهذا بخلاف خُلُق الجاهلية. ورُوي أَن هذه الآية نزلت في الأَنصار ثم بقيت عامة ـ بعد ذلك ـ في كل من اتصف بهذه الصفات.

وقوله: ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ يحتمل أَن تكون عُقْبى دار الدنيا، ثم فسَّر «العقبى» بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إِذ العقبى تعُمّ حالة الخير وحالة الشر، ويحتمل أَن يريد: عقبى دار الآخرة لدار الدنيا، أَي: العقبى الجنة[1] في الدار الآخرة هي لهم، وقرأَ الجمهور: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، وقرأَ النَّخعي: [جنةُ عدنٍ يُدْخَلُونَها] بضم الياءِ وفتح الخاءِ، و[جَنَّات] بدلٌ من [عُقْبى] وتفسير لها[2]. و[عَدْن] هي مدينة الجنة ووسطها[3]، ومنها «جنات الإِقامة»، من «عَدَن بالمكان» إِذا أَقام فيه طويلاً، ومنه المعادن، وجناتُ عدْن يقال: هي سكن الأَنبياءِ والشهداءِ والعلماءِ فقط، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص، ويروى أَن لها خمسة آلاف باب.

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ أَي: من عمل صالحاً وآمن، قاله مجاهد وغيره، ويحتمل: أَي مَنْ صلح لذلك بقدر الله تعالىٰ وسابق علمه، وحكى الطبري في صفة دخول

---

(١) في بعض النسخ: «العقبى الحسنة في الدار الآخرة».

(٢) ويكون التقدير: لهم دخول جنات عدْن، لأن ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ حدَثٌ، و﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ عَيْنٌ، والحدث إنما يُفَسَّر بمثله، فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول، ويجوز أن تكون ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبر ابتداءٍ محذوف.

(٣) في صحيح البخاري: (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أَوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة).



الملائكة أحاديث لم نطول بها لضعف أسانيدها، والمعنى: يقولون: سلام عليكم، فحذف «يقولون» تخفيفاً وإيجازاً لدلالة ظاهر الكلام عليه، والمعنى: هذا بما صبرتم[1]، والمعنى في ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ على نحو ما تقدم من المعنيين، وقرأ الجمهور: ﴿فَنِعْمَ﴾ بكسر النون وسكون العين، وقرأ يحيى بن وثاب بفتح النون وكسر العين، وقالت فرقة: معنى ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: أنْ أُعقبوا الجنة من جهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل مبني على حديث ورَدَ وهو: (إن كل رجل في الجنة فقد كان له مقعد معروف في النار فصرفه الله عنه إلى النعيم، فيعرض عليه، ويقال له: هذا مكان مقعدك فبدَّلك الله منه الجنة بإيمانك وطاعتك وصبرك)[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

هذه صفة مضادة للمتقدمة، وقال ابن جريج في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أنه رُوي: «إذا لم تمش إلى قريبك برجلك ولم تواسه بمالك فقد قطعته»، وقال مصعب بن سعد: سألت أبي عن قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3] أهُم الحرورية؟ قال: لا، ولكن الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وتلا هذه الآية، فكان سعد بن أبي وقاص رضي الله

---

(١) فـ [مَا] مع الفعل بمعنى المصدر، والباء في [بِمَا] متعلقة بمعنى ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾، ويجوز أن تتعلق بمحذوف تقديره: «هذا بصبركم» كما قال ابن عطية. والقول المضمر في ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ تكرر في القرآن الكريم، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ في الآية (١٢) من سورة (السجدة): ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ﴾ أي: يقولون: [رَبَّنَا].

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، والترمذي في فضائل الجهاد، وابن ماجه في الجهاد، والإمام أحمد في مسنده (٢ـ٥٤١، ٤ـ١٣١ـ٢٠٠، ٦ـ٨٩).

(٣) الآية (١٠٣)، ومن الآية (١٠٤) من سورة (الكهف).

عنه يجعل فيهم الآيتين. و﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾: الإبعاد من رحمة الله تعالىٰ ومن الخير جملة، و﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ ضد ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، والأظهر في الدار هنا أنها دار الآخرة، ويحتمل أن تكون الدنيا على ضعف.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ الآية. لما أخبر تعالىٰ عمن تقدمت صفته بأن لهم اللعنة ولهم سوءُ الدار أنحى بعد ذلك على أغنيائهم، وحقَّر شأنهم وشأن أموالهم، والمعنى أن هذا كله بمشيئة الله، يهب الكافر المال ليهلكه به، ويقدر على المؤمن ليعظم بذلك أجره وذخره. وقوله: ﴿ويَقْدِرِ﴾ من التقدير، فهو مناقض لـ ﴿يَبْسُط﴾، ثم استجهلهم في قوله تعالىٰ: ﴿فرحوا بالحياة الدنيا﴾ وهي بالإضافة إلى الآخرة متاع ذاهب مضمحل، يستمتع به قليلاً ثم يفنى. و«المتاع»: ما يُتَمَتَّعُ به مما لا يبقى، قال الشاعر:

تَمَتَّـــعْ يـــا مُشَعَّـــثُ إِنَّ شيئـــاً سَبَقْـتَ بِـهِ الْمَمَـاتَ هُـوَ الْمَتَـاعُ[1]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، هذا ردٌّ على مقترحي الآيات من كفار قريش، كسقوط السماءِ عليهم كِسَفاً، ونحو ذلك من قولهم: سيّر عنا الأَخشبين، واجعل لنا البطاح محارث ومغترساً كالأردنّ، وأَحْيِ لنا مُضيّنا وأَسلافنا، فلما لم يكن ذلك بحسب أَن آيات الاقتراح لم تجر عادة الأَنبياءِ بالإِتيان بها إلا إِذا أَراد الله تعذيب قوم قالوا هذه المقالة، فردّ الله عليهم، أَي أَن نزول الآية لاتكون معه ضرورة إِيمانكم ولا هداكم، وإِنما الأَمر بيد الله يُضل من يشاءُ ويهدي من يشاءُ إِلى طاعته والإِيمان به من أَناب إِلى الطاعة وآمن بالآيات الدالة، ويحتمل أَن يعود الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ على القرآن الكريم، أَو على محمد ﷺ[2].

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ مِن [منْ] في ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾، وطمأْنينة القلوب هي الاستكانة والسرور بذكر الله والسكون به كمالاً به، ورضًى بالثواب عليه، وجودة اليقين. ثم

---

(١) البيت للمُشَعَّث العامري، وهو من مقطوعة له يخاطب نفسه، استشهد به صاحب اللسان على معنى المتاع، قال: «والمتاع: كل ما ينتفع به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها»، وكذلك ذكره صاحب تاج العروس في (متع)، وذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» شاهداً على معنى المتاع، وكذلك ذكره المرزباني في «معجم الشعراء».

(٢) قالوا: والأظهر أن يعود على الله تعالىٰ مع تقدير مضاف محذوف، والتقدير: إلى دينه وشرعه.

استفتح الإخبار بأَن طمأْنينة القلوب بذكر الله تعالىٰ، وفي هذا الإِخبار حضٌّ وترغيبٌ في الإِيمان، والمعنى: إن بهذا تقع الطمأْنينة لا بالآيات المقترحة، بل ربما كفر بعدها قوم فنزل العذاب كما سلف في بعض الأُمم.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ الثاني ابتداءٌ وخبره ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، ويصح أَن تكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلاً من الأُولى. و﴿طُوبى﴾ ابتداءٌ و﴿لَهُمْ﴾ خبره. وطوبى اسم، ويدل على ذلك كونه ابتداءً، وهي فُعْلى من الطيب في قول بعضهم، وذهب سيبويه بها مذهب الدعاءِ، وقال: هي في موضع رفع، ويدل على ذلك رفع ﴿وحُسْنُ﴾[1]، قال ثعلب: وقرىءَ: [وحُسْنَ] بالنصب، فـ ﴿طُوبَى﴾ ـ على هذا ـ مصدر، كما قالوا: سقْياً لك، ونظيره من المصادر: الرُّجعى والعُقْبى. قال ابن سيدة: والطُّوبى جمع طيبة ـ عن كراع ـ، ونظيره كُوسَى في جمع كيسَة، وصُوفى في جمع صِيفة[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي قرأَ: ﴿وَحُسْنَ﴾ بالنصب هو يحيى بن يَعْمَر، وابن أَبي عبلة.

واختلف في معنى [طُوبَى] ـ فقيل: معناه: خير لهم، وقال عكرمة: معناه: نعم لهم، وقال الضحاك: معناه: غبطة لهم، وقال ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبشية، وقال سعيد بن مشجوح: اسم الجنة طوبى بالهندية، وقيل: طوبى اسم شجرة في الجنة، وبهذا تواترت الأَحاديث، قال رسول الله ﷺ: (طوبى شجرة في الجنة، يسير الراكب المُجِدُّ في ظلها مائة عام مجداً لا يقطعها، اقرؤوا إِن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[3]). وحكى الطبري عن أَبي هريرة، وعن مغيث بن سُمَيّ، وعتبة بن عبد يرفعه أَخباراً

---

(١) وكما يقال في الكلام: «ويلٌ لِعَمْرو»، وإنما أُوثر الرفع في «طوبى» لحسن الإضافة فيه بغير لام، وذلك أنه يقال: طوباكَ، كما يقال: وَيْلَك وَوَيْبَك، ولولا حسن الإضافة فيه بغير لام لكان النصب فيه أحسن وأفصح، كما أن النصب في قولهم: «تعْساً لزيد وبعْداً له وسحقاً» أحسن، إذ كانت الإضافة فيه بغير لام لا تحسن.

(٢) قال صاحب البحر المحيط تعليقاً على ذلك: «وفُعْلى ليست من ألفاظ الجموع، فلعلَّ المقصود أنها اسم جمع». ورأي الجمهور أنها مفرد مصدر مثل بُشْرَى وعُقْبى، كما أشار ابن عطية.

(٣) قال في «فتح القدير»: ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه... وساق الحديث. والأحاديث متواترة في أن (طُوبى) شجرة في الجنة، لكن بعض الروايات تزيد أخباراً قال عنها ابن عطية: «إنها مما لا يثبت سندها». وقوله تعالىٰ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ هو الآية (٣٠) من سورة (الواقعة).

مقتضاها أَن هذه الشجرة ليست في الجنة دار إلا وفيها من أَغصانها، وأَنها تثمر ثياب أَهل الجنة، وأَنها تخرج منها الخيل بسُرُجِهَا ولُجُمها، ونحو هذا مما لا يثبت سنده.

و«ٱلْمَآبُ»: المرجع والمآل، من آب يؤوب، ويقال في طوبى: طِيبَى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

الكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلقة بالمعنى الذي في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، أَي: كما أَنفذ الله هذا كذلك أَرسلناك، هذا قول، والذي يظهر لي أَن المعنى: كما أَجرينا العادة بأَن الله يضل من يشاءُ ويهدي، لا الآيات المقترحة، فكذلك أَيضاً فعلنا في هذه الأُمة، أَرسلناك إِليها بوحي لا بالآيات المقترحة، فيضل الله من يشاءُ ويهدي من يشاءُ[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، قال قتادة، وابن جريج: نزلت في قريش حين عاهدهم رسول الله ﷺ عام الحديبية، فكتب الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال قائلهم: نحن لا نعرف الرحمن ولا نقر اسمه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي أَقول في هذا: إِن ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هنا يراد به الله تعالىٰ وذاته، ونسب إِليهم الكُفر به على الإِطلاق، وقصة الحديبية وقصة أُمية بن خلف مع عبد الرحمن بن عوف إِنما هي عن إِباية الاسم فقط، وهروب عن هذه العبارة التي لم يعرفوها إِلا مِن قِبل محمد ﷺ، ثم أَمر الله نبيَّه بالتصريح بالدين والإِفصاح بالدعوة في قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ

---

(١) وقال الزمخشري: «مثل ذلك الإرسال أرسلناك، يعني أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات»، وقال الحسن: «كإرسالنا الرسل أرسلناك»، فـ (ذلك) إشارة إلى إرساله الرسل، وقال الحوفي: «الكاف للتشبيه في موضع نصب».

رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾، و«الْمَتَاب»: المرجع كالمآب، لأن التوبة: الرجوع.

ويحتمل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فيكون معنى الآية الإخبار عنهم أنهم لا يؤمنون ولو نزل قرآن سُيِّرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض، هذا تأويل الفراءِ وفرقة من المتأوّلين(١). وقالت فرقة: بل جواب [لَوْ] محذوف تقديره: ولو أن قرآناً يكون صفته كذا لما آمنوا بوجه(٢)، قال أَهل التأْويل: ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: إن الكفار كانوا قالوا للنبي ﷺ: أَزِح عنَّا، أَو سَيِّر عنا جبلي مكة فقد ضيقا علينا، واجعل لنا أَرضاً قطع غراسة وحرث، وأَحْيِ لنا آباءَنا وأَجدادنا وفلاناً وفلاناً، فنزلت الآية في ذلك مُعْلِمة أَنهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كله. وقالت فرقة: جواب [لَوْ] محذوف ولكنه ليس في هذا المعنى، بل تقديره: لكان هذا القرآن الذي يصنع به هذا، وتتضمن الآية ـ على هذا ـ تعظيم القرآن، وهذا قول حسن يحرر فصاحة الآية. وقوله تعالىٰ: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ يعضد التأْويل الأَخير ويترتب مع الآخرَيْن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ بمعنى: يعلم، وهي لغة هوازن، قاله القاسم بن معن، وقال ابن الكلبي: هي لغة «هَبْيل» حيٌّ من النخع، ومنه قول سُحَيْم بن وثيل الرياحي:

أَقُولُ لهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ ييْسِرُونَنِي ... أَلَمْ تيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فارِسِ زهْدم ؟(٣)

---

(١) الذي ذكره الفراءُ في معاني القرآن أن جواب (لَوْ) لم يأت، فإن شئت جعلت جوابها متقدماً: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾، وإن شئت كان جوابه متروكاً لأن أمره معلوم، والعرب تحذف جواب الشيء إذا كان معلوماً إرادة الإيجاز، قال الشاعر وهو امرؤ القيس:

وأُقْسِمُ لَوْ شيءٌ أَتانا رسُولُهُ ... سواكِ، ولكِنْ لَمْ نَجِدْ لكِ مَدْفَعا

ومعنى هذا أن الفراءَ ذكر التأويلين، ولكن يترتب على التأويل الأول أن يكون الجواب: «لما آمنوا»، ولا يصح أن يكون قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ جواباً، بل هو دليل الجواب، وعبارة ابن عطية توضح أنه لاحظ ذلك عند تقدير الجواب على رأي الفراء.

(٢) حذف الجواب لدلالة المعنى عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب، ومنه في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، ومنه في كلام العرب بيت امرىء القيس الذي استشهد به الفراءُ، وقول امرىء القيس أيضاً:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً ... وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُساً

(٣) قيل: إن البيت لابن سُحَيْم واسمه جابر بدليل قوله فيه: «أَني ابن فارس زهدم»، وزَهْدَم هي فرس =



ويحتمل أن يكون «اليأس» في هذه الآية على بابه، وذلك أنه لما أبعد إيمانهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية، على التأويلين في المحذوف المقدر قال في هذه: أفلم ييأس المؤمنون من إيمان هؤلاءِ الكفرة علماً منهم أن لو شاءَ الله لهدى الناس جميعاً؟

وقرأ ابن كثير، وابن محيصن [يأيس]، وقرأ ابن عباس، وعليُّ بن أبي طالب، وابن أبي مُليكَة، وعكرمة، والجحدري، وعلي بن حسين، وزيد بن عليّ، وجعفر بن محمد: [أفلم يتبين](1).

ثم أخبر تعالىٰ عن كفار قريش والعرب أنهم لا يزالون تصيبهم قوارع من سرايا رسول الله ﷺ وغزواته، وقرأ ابن مسعود ومجاهد: [ولا يزال الذين ظلموا]، ثم قال: ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أنت يا محمد قريباً من دارهم، هذا تأويل فرقة منهم الطبري، وعزاه إلى ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقال الحسن ابن أبي الحسن: المعنى: أَوْ تحلُّ القارعةُ قريباً من دارهم، وقرأ سعيد بن جبير، ومجاهد: «أَوْ تحلُّ قريباً مِنْ دِيَارِهِمْ» بالجمع.

= سحيم بن وثيل. ويُروى البيت: «أني ابن قاتل زهدم»، وعلى هذا يصح أن ينسب إلى سحيم نفسه، وقوله: ييْسرونني: من أيسار الجزور، أي: يجتزُّونني ويقتسمونني، ويُروى: يأسِرونني من الأسر، وقال الشاعر يَيْسرونني لأنه كان قد أُسر في صباه فضرب عليه الآسرون بالمَيْسر يتحاسبون على قسمة فدائه، والشاهد فيه أن (يَيْأس) بمعنى: يعلم، ومثله في ذلك قول مالك بن عوف:

أَلَمْ يَيْأسِ الأَقْوَامُ أَنِّي أنا ابْنُهُ ... وإنْ كُنْتُ عَنْ أرْضِ الْعَشِيرَةِ نائيا

بمعنى ألم يعلموا ويتبينوا؟

وكان بعض الكوفيين ينكر أن «يئس» تأتي بمعنى: «علم»، ويزعم أنه لم يسمع أحداً من العرب يقول ذلك، قال الفراءُ: وأما قول الشاعر (وهو لبيد):

حتَّى إذا يَئِسَ الرماةُ وأرْسَلُوا ... غُضْفاً دواجِنَ قافلاً أعْصَامُهَا

فمعناه: حتى إذا يئسوا من كل شيء مما يمكن إلا الذي ظهر لهم أرسلوا، فهو معنى: «حتى إذا علموا أن ليس وجه إلا الذي رأوا» أرسلوا، كان ما وراءه يأساً. (معاني القرآن ٢ـ٦٤). وقد علَّق أبو حيان على ذلك فقال: «وقد حفظ ذلك غيره، فهذا القاسم بن معن من ثقاة الكوفيين يقول: «إنها لغة هوازن»، وكذلك نقلها ابن الكلبي» (البحر ٥ـ٣٩٢).

(1) قال أبو حيان: «وتدل هذه القراءة على أن معنى ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ هنا معنى العِلْم، كما تضافرت النقول أنها لغة لبعض العرب، وهذه القراءة ليست قراءة تفسير لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ كما يدل عليه ظاهر كلام الزمخشري، بل هي قراءة مسندة إلى الرسول ﷺ، وليست مخالفة للسواد إذا كتبوا (يَيْئَس) بغير صورة الهمزة، وهذه كقراءة (فتبيَّنُوا) و(فتثبَّتُوا) وكلتاهما في السبعة».



ووعْدُ الله ـ على قول ابن عباس وقوم ـ فتحُ مكة، وقال الحسن ابن أَبي الحسن: الآية عامة في الكفار إلى يوم القيامة، وإن حال الكفار هكذا هي أبداً، ووعد الله قيام الساعة، و«القارعة»: الرزيّة التي تقرع قلب صاحبها بفظاعتها كالقتل والأَسْر ونهب المال وكشف الحريم ونحوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾. هذه آية تأنيس للنبي ﷺ، أَي: لا يضيق صدرك يا محمد بما ترى من قومك وتلقى منهم، فليس ذلك ببدع ولا نكير، قد تقدم هذا في الأُمم، و«أَمْلَيْتُ لَهُمْ»: أَي: مددْتُ المدة وأَطَلْتُ، والإملاءُ: الإمهال على جهة الاستدراج، وهو من المُلاَوة من الزمن، ومنه: تَمَلَّيْتُ حُسْنَ العَيْش[1].

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ تقرير وتعجيب، وفي ضمنه وعيد للكفار المعاصرين لمحمد عليه الصلاة والسلام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

هذه الآية بالمعنى راجعة إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ﴾، والمعنى: أَفمن هو هكذا أَحقُّ بالعبادة أَم الجمادات التي لا تضر ولا تنفع؟ هذا تأْويل، ويظهر أَن القول مرتبط بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، كأَن المعنى: أَفمن له القدرة والوحدانية ويُجعل له شريكٌ أَهْلٌ أَن ينتقم ويعاقب أَم لا[2]؟ و«الأَنْفُس» من مخلوقاته وهو قائم على الكلِّ

---

(١) «تملَّيْت حُسْن العيش» معناها: تمتعت به، والملاوة بفتح الميم وضمها وكسرها، ويقال: «تملَّيْتُ عمري» بمعنى استمتعت به، و«تملَّيْتُ حبيباً» أي: عشت معه مُلاوة من دهري، قال التَّميمي في يزيد بن مزيد الشيباني:

وقَـدْ كنـتُ أرجـو أنْ أُمـلاّك حقبَـةً ... فحـال قَضـاءُ الله دون رَجَـائيـا
ألا فلْيَمُـتْ مَـنْ شـاءَ بعْـدَكَ إنَّمـا ... عَلَيْـكَ مِـن الأَقْـدار كـانَ حِـذَاريـا

(٢) [من] موصولة، وصلتها ما بعدها، والخبر محذوف تقديره ما وضحه ابن عطية على التأويلين اللذين=

أَي محيط به لِيُقرِّب الموعظة من حسِّ السامع، ثم خصَّ من أَحوال الأَنفس حال كسبها ليتفكر الإِنسان عند نظر الآية في أَعماله وكسبه[(١)].

وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أَي: سمُّوا من له صفات يستحق بها الأُلوهية، ثم أَضرب عن القَول وقرَّر: هل تُعلمون الله بما لا يعلم، وقرأَ الحسن: [تُنْبِؤُونَهُ] بإِسكان النون وتخفيف الباءِ. و[أَمْ] بمعنى «بل» و«أَلف الاستفهام»، هذا مذهب سيبويه، وهي كقولهم: «إنها لإِبلٌ أَمْ شاءٌ». ثم قررهم بعْدُ، هل يريدون تجويز ذلك بظاهر من الأَمر؟ لأَن ظاهر الأَمر له إِلباسٌ مّا وموضع من الاحتمال، وما لم يكن إِلا بظاهر من القول فقط فلا شبهة له. وقرأَ الجمهور: ﴿زُيِّنَ﴾ على البناءِ للمفعول ﴿مَكْرُهُمْ﴾ بالرفع، وقرأَ مجاهد: [زَيَّنَ] على بناية الفاعل [مَكْرَهُمْ] بالنصب، أَي: زَيَّن الله. و﴿مَكْرُهُم﴾ لفظ يعم أَقوالهم وأَفعالهم التي كانت بسبيل مناقضة الشرع. وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَصُدُّوا﴾ بضم الصاد، وهذا على تعدي الفعل، وقرأَ الباقون هنا وفي «حـمَ المؤمن»[(٢)] [وَصَدُّوا] بفتحها، وذلك يحتمل أَن يكون: صدُّوا أَنفسهم أَو صدوا غيرهم، وقرأَ يحيى بن وثاب: [وَصِدُّوا] بكسر الصاد[(٣)].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾ الآية وعيدٌ، أَي: لهم عذاب في دنياهم بالقتل والأَسر والجدوب والبلايا في أَجسامهم وغير ذلك مما امتحنهم الله به، ثم لهم عذاب أَشَقُّ من هذا كله وهو الاحتراق بالنار. و﴿أَشَقُّ﴾: أَصعب، من المشقة، و«الواقي» هو الساتر على جهة الحماية، من الوقاية.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية، قال قوم: (مَثَل) معناه: صفة، وهذا من قولك:

= ذكرهما، وحذف الخبر إذا فهم جائز، وقد ورد كثيراً، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، والتقدير ها هنا: كالقاسي قلبه، وقد دلّ على الخبر في آيتنا هنا قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، كما دلّ على القاسي قوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾، هذا وقد جعل حذف الخبر حسناً في هاتين الآيتين أن المبتدأ يكون في مقابله الخبر المحذوف.

(١) في بعض النسخ: «عند نظر الله إليه في أعماله وكسبه».

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (٣٧) من سورة المؤمن (غافر): ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

(٣) وهي كقراءة: ﴿رِدَّتْ إِلَيْنَا﴾ بكسر الراءِ من قوله تعالىٰ في الآية (٦٥) من سورة (يوسف): ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، وفي اللوامح عن الكسائي وابن يعمر: (وَصِدُّوا) بالكسر لغة.

«مثلتُ الشيءَ» إِذا وصفته لأحد وقرّبتَ عليه فهم أَمره، وليس بضرب مثل لها، وهو كقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[١] أَي الوصف الأَعلى، ويظهر أَن المعنى الذي يتحصل في النفس مثالاً للجنة هو جرْي الأَنهار وأَن أُكُلَها دائم، ورافعه عند سيبويه مُقدّر، قيل: تقديره: فيما يُتْلى عليكم أَو يُنصّ عليكم مثلُ الجنة[٢]، ورافعه عند الفراءِ قوله: [تَجْرِي]، أَي: صفة الجنة أَنها تجري من تحتها الأَنهار، ونحو هذا موجود في كلام العرب، وتأَول عليه قومٌ أَن [مَثَل] مُقْحم، وأَن التقدير: الجنة التي وُعد المتقون بها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قلق[٣]، وقرأَ علي بن أَبي طالب، وابن مسعود: [أَمثال الجنة]، وقد تقدم غير مرّة معنى قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

وقوله: ﴿أُكُلُهَا﴾ معناه: ما يُؤكل فيها[٤]، «والعُقْبى» والعاقبة والعاقب: حال تتلو أُخرى قبلها. وباقي الآية بيّن، وقيل: التقدير في صدر الآية: «مثل الجنة جنة تجري»، قاله الزجاج، فتكون الآية ـ على هذا ـ ضَرْبَ مثل لجنة النعيم في الآخرة[٥].

---

(١) من الآية (٢٧) من سورة (الروم)، ومثلها قوله تعالىٰ في الآية (٦٠) من سورة النحل): ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

(٢) عبارة أبي حيّان هنا أدق من عبارة ابن عطية، فقد قال: «ارتفع [مَثَلُ] على الابتداء عند سيبويه، والخبر محذوف، أي: فيما قصصنا عليكم مَثَلُ الجنة، و﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تفسير لذلك المثل». لأن ابن عطية يجعل عامل الرفع مقدراً عند سيبويه مع أنه هو الابتداءُ نفسه، هذا وقد أنكر أبو علي الفارسيّ أن يكون [مَثَل] بمعنى صفة، قال: «إنما معناه التشبيه، ألا تراه يجري مجراه في مواضعه ومتصرفاته ؟»، كقولهم: مررتُ برجل مثلك، كما تقول: مررت برجل شبهك، قال: ويَفْسد أيضاً من جهة المعنى، لأننا حين نقول في شرح الآية: «صفة الجنة التي فيها أنهار» يكون كلاماً غير مستقيم المعنى، لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها» اهـ، ولكن قيل ردًّا عليه: المثل بمعنى الصفة موجود كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

(٣) لأن إقحام الأسماءَ لا يجوز في القرآن، قال أبو حيان: وقد حكوا عن الفراءِ أن العرب تقحم كثيراً المَثَل والمِثْل، وأنه خرّج على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فقال: أي: ليس هو كشيءٍ.

(٤) وفي الخبر: (إذا أُخذت ثمرةٌ عادت مكانها أُخرى)، وقوله تعالىٰ: (وَظِلُّهَا) أي: وظِلُّها كذلك دائم، فحذف، أي: ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول.

(٥) معنى كلام الزّجاج أن الله تعالىٰ مثّل لنا ما غاب عنا بما نراه، وأنكر أبو علي ذلك فقال: لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله، لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم=



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

اختلف المتأولون فيمن عني بهذه الآية ـ فقال ابن زيد: عني به من آمن من أَهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وشبهه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى مَدْحُهم بأَنهم لشدة إِيمانهم يُسَرون بما يرد على النبي ﷺ من مباحات الشرع، وقال قتادة: عني به جميع المؤمنين، و[الْكِتاب] هو القرآن، و﴿ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يراد به جميع الشرع، وقالت فرقة: المراد «بالذين آتيناهم الكتاب» اليهود والنصارى، وذلك أَنهم لهم فرح بما ينزل على النبي ﷺ من تصديق شرائعهم وذكر أَوائلهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويُضَعَّف هذا التأْويل بأَن همهم به أَكثر من فرحهم فلا يُعْتد بفرحهم، ويُضعَّف أَيضاً بأَن اليهود والنصارى ينكرون بعضه وقد فرّق الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه وبين الذين آتيناهم الكتاب.

و[الْأَحْزَاب] قال مجاهد: هم اليهود والنصارى والمجوس، وقالت فرقة: أَحزاب الجاهلية من العرب، وأَمره الله تعالىٰ أَن يطرح اختلافهم، وأَن يصدع بأَنه إِنما أُمر بعبادة الله وترْك الإِشراك والدعاءِ إِليه، ، اعتقاد المآب إِليه، وهو الرجوع عند البعث يوم القيامة.

وقوله: [وكَذلِكَ]، المعنى: كما يسَّرنا هؤلاءِ للفرح وهؤلاءِ لإِنكار البعض، كذلك

= يصح، لأنك إذا قلت: صفة الجنة جنة، فجعلت الجنة خبراً لم يستقم ذلك، لأن الجنة لا تكون الصفة، وكذلك أيضاً شِبْه الجنة جنة، ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حدث، والجنة غير حدث، فلا يكون الأول الثاني.



﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، ويحتمل المعنى: والمؤمنون الذين آتيناهم الكتاب يفرحون به لفهمهم له وسرعة تَلَقِّيهم، ثم عدَّد النعمة بقوله: كذلك جعلناه، أَي: سَهَّلْنَاهُ عليهم في ذلك وتَفَضَّلْنَا. و﴿حُكْماً﴾ نصب على الحال، والحُكْم: ما تضمنه القرآن من المعاني، وجعله عربياً لما كانت العبارة عنه بالعربية. ثم خاطب النبي ﷺ محذِّراً من اتباع أَهواءِ هذه الفرق الضالة، والخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو بالمعنى يتناول المؤمنين إِلى يوم القيامة. ووقف ابن كثير وحده على: [وَاقِي] و[هَادِي] و[وَالِي] بالياءِ، قال أَبو عليّ: «والجمهور يقفون بغير ياءٍ، وهو الوجه»، وباقي الآية بيّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية. في صدرها تأْنيس للنبي ﷺ، وردٌّ على المقترحين من قريش بالملائكة، المتعجبين من بعثة الله بشراً رسولاً، فالمعنى: إِنَّ بعثك يا محمد ليس ببدع، فقد تقدم هذا في الأُمم، ثم جاءَ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية، لفظه لفظ النهي والزجر، والمقصد به إِنما هو النفي المحض، لكنه نفي تأْكيد بهذه العبارة، ومتى كانت هذه العبارة عن أَمر واقع تحت قدرة المنهي عنه فهي زجرٌ، ومتى لم يقع ذلك تحت قدرته فهو نفيٌ مؤكَّد. و﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه: إِلاَّ أَن يأْذن الله في ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في جميع الأَشياءِ التي لها آجال، وذلك أَنه ليس كائن فيها إِلا وله أَجل في بدئه وفي خاتمته، وكل أَجل مكتوب محصور، فأَخبر الله تعالىٰ عن كتْبه الآجالَ التي للأَشياءِ عامة، وقال الضحاك، والفراءُ: المعنى: لكل كتاب أَجل[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا العكس غير لازم، ولا وجه له، إِذ المعنى تام في ترتيب القرآن، بل يمكن

(١) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: ومثله ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾، وذلك عن أَبي بكر الصديق رضي الله عنه، «وجاءَت سكرة الحقّ بالموت»، لأن الحق يأْتي بها وتأْتي به، فكذلك تقول: «لكل أجل مؤجل ولكلِّ مؤجّل أجل» والمعنى واحد، والله أعلم اهـ. قال أبو حيان: ولا يجوز ادعاءُ القلب إلا في ضرورة الشعر، وأما هنا فالمعنى في غاية الصحة بلا عكس ولا قلب، بل ادعاءُ القلب هنا لا يصح المعنى عليه إذْ ثمّ أشياء كتبها الله أزلية ـ كنعيم أهل الجنة ـ ولا أجل لها. وهذا هو نفس الرأي الذي قدمه ابن عطية.



هدم قولهما بأَن الأَشياءَ التي كتبها الله أَزلية باقية كتنعيم أَهل الجنة وغيره يوجد كتابها ولا أَجل له.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، قرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [وَيُثَبِّتُ] بتشديد الباءِ، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم بتخفيفها، وقد تخبط الناس في معنى هذه الأَلفاظ، والذي يتلخَّص من مسلكها أَن الأَشياءَ التي قدرها الله تعالىٰ في الأَزل، وعلمها بحال مّا، لا يصحُّ فيها محْوٌ ولا تبديل، وهي التي كتبت في أُم الكتاب، وسبق بها القضاءُ، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره من أَهل العلم، وأَما الأَشياءُ التي أَخبر الله تعالىٰ أَنه يبدل فيها وينقل كغفر الذنوب بعد تقريرها، وكنَسْخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها ففيها يقع المحو والتَّثبيت فيما يقيده الحفظة ونحو ذلك، وأَما إِذا رُدَّ الأَمر إِلى القضاءِ والقدر فقد محا الله ما محا وثبَّت ما ثبَّت، وجاءَت العبارة مستقبلة لمحي الحوادث[1] وهذه الأُمور فيما يستأْنف من الزمان، فينتظر البشر ما يمحو أَو ما يثبت، وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤُهم ودعاؤُهم، وقالت فرقة منهم الحسن: هي في آجال بني آدم، وذلك أَن الله تعالىٰ في ليلة القدر ـ وقيل: ليلة نصف شعبان ـ يكتب آجال الموتى، فيُمْحى ناس من ديوان الأَحياءِ ويُثْبَتون في ديوان الموتى، وقال قيس بن عُباد: العاشر من رجب هو يوم يمحو الله ما يشاءُ ويثبت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التخصيص في الآجال وغيرها لا معنى له، وإِنما يحسن من الأَقوال هنا ما كان عامًّا في جميع الأَشياءِ، فمن ذلك أَن يكون معنى الآية: إِن الله تعالىٰ يغير الأُمور عن أَحوالها، أَعني ما من شأْنه أَن يُغَيَّر على ما قدمناه، فيمحو من تلك الحالة ويثبته في التي نقله إِليها[2]، ورُوي عن عُمر، وابن مسعود أَنهما كانا يقولان في دعائهما: «اللهم إِن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة فامحنا وأَثبتنا في ديوان السعادة، فإِنك تمحو ما تشاءُ

---

(١) في (اللسان): يقال: محا يمحو محواً ومحياً.

(٢) قال القرطبي: «مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفاً، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم»، وهو بهذا يؤيد كلام ابن عطية، وأبو حيان يقول: «الظاهر أن المحو عبارة عن النسخ من الشرائع والأحكام، والإثبات عبارة عن دوامها وتقرُّرها وبقائها، أي: يمحو ما يشاءُ محوه، ويثبت ما يشاءُ إثباته». ورأيه يوافق رأي الزمخشري، وقتادة ـ هذا وللمفسرين آراءٌ كثيرة في معنى المحو والإثبات ذكر منها ابن عطية أهمها.

وتثبت»، وهذا دعاءٌ في غفران الذنوب وعلى جهة الجزع منهما، أي: اللهم إن كنا شقينا بمعصيتك، وكتبت علينا ذنوب وشقاوة فامحها عنا بالمغفرة والطاعة، وفي لفظ عمر رضي الله عنه ـ في بعض الروايات ـ بعض من هذا، ولم يكن دعاؤهما البتَّة في تبديل سابق القضاءِ، ولا يُتأَوّل عليهما ذلك.

وقيل: إن هذه الآية نزلت لأن قريشاً لما سمعت قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قالوا: ليس لمحمد في هذا الأمر قدرة ولا حظٌّ، فنزلت ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: ربما أذن الله من ذلك كما تكرهون بعد أن لم يكن بإذن الله.

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يمحو الله ما يشاءُ ويثبت من أُمور عباده، إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنه لا محو فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو ما أَصَّلناه أَولاً في الآية.

وحكى عن فرقة أنها قالت: يمحو الله ما يشاءُ ويثبت من كتاب حاشى أُم الكتاب الذي عنده لا يغير منه شيئاً، وقالت فرقة: معناه: يمحو كل ما يشاءُ ويثبت كل ما أَراد، ونحو هذه الأقوال التي هي سهلة المعارضة. وأسند الطبري عن إبراهيم النَّخَعي أن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، وذكر أبو المعالي في التلخيص أن علياً رضي الله عنه هو الذي قال هذه المقالة المذكورة عن كعب، وذلك ـ عندي ـ لا يصح عن علي.

واختلفت أيضاً عبارة المفسرين في تفسير ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما[1]: هو الذِّكر، وقال كعب: هو علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأصوب ما يُفسَّر به ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أنه ديوان الأمور المحدثة[3] التي قد سبق

---

(١) دليله على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾.

(٢) وقد رُوي هذا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً، فقد سئل عن «أُم الكتاب» فقال: «علم الله ما هو خالق، وما خَلَقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً، ولا تبديل في علم الله».

(٣) في الأصول: «الأمور المخزونة»، والتصويب عن «البحر المحيط»، إذ نقل كلام ابن عطية بهذا اللفظ.

القضاءُ فيها بما هو كائن، وسبق ألاَّ يُبَدَّل، ويبقى المحو والتثبيت في الأُمور التي سبق في القضاءِ أَن تُبدل وتُمحى وتثبت، قال نحوه قتادة، وقالت فرقة: معنى ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الحلال والحرام، وهذا قول الحسن بن أَبي الحسن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

«إِنْ» شرط دخلت عليها «مَا»، وهي قبل الفعل، فصارت بعدُ في ذلك بمنزلة اللام المؤكدة في القسَم التي تكون قبل الفعل في قولك: «والله لتخرجنَّ»، فلذلك يحسن أَن تدخل النون الثقيلة في قولك «نُرِيَنَّكَ» لحلولها هنا محل اللام هناك، ولو لم تدخل «ما» لما جاز ذلك إلا في الشِّعر.

وخصَّ «البعض» بالذكر إذ مفهومٌ أَن الأَعمار تقصر عن إدراك جميع ما تأْتي به الأَقدار مما يُوعد به الكفار، وكذلك أَعطى الوجود، أَلا ترى أَن أكثر الفتوح إنما كان بعد النبي ﷺ، و[أَوْ] عاطفة.

وقوله: [فَإِنَّما] جواب الشرط[1]، ومعنى الآية: إِنْ تبْق يا محمد لترى، أَو نتوفَّينَّك

---

(١) هذا رأي الحوفي، وقد تعقبه أبو حيان في البحر، وقال: والذي تقدم شرطان، لأن المعطوف على الشرط شرط، فأما كونه جواباً للشرط الأول فليس بظاهر، لأنه لا يترتب عليه، إذ يصير المعنى: «وإما نُرِيَنَّك بعض ما نعدهم من العذاب فإنما عليك البلاغ»، وأما كونه جواباً للشرط الثاني وهو ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ فكذلك، لأنه يصير التقدير: إما نتوفينك فإنما عليك البلاغ، ولا يترتب وجوب التبليغ عليه على وفاته عليه الصلاة والسلام، لأن التكليف ينقطع بعد الوفاة، فيحتاج إلى تأويل، وهو أن يتقدر لكل شرط منهما ما يناسب أن يكون جزاءً مترتباً عليه، وذلك أن يكون التقدير والله أعلم: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ بعض الذي نعدهم من العذاب فذلك شافيك من أعدائك، ودليل على صدقك، إذ أخبرت بما يحل بهم، ولم يعين زمان حلوله بهم، فاحتمل أن يقع ذلك في حياتك، واحتمل أن يقع بهم بعد وفاتك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: إن نتوفَّينَّك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب، إذ قد حلّ بهم بعض ما وعد الله به على لسانك من عذابهم، فإنما عليك البلاغ لا حلول العذاب بهم، إذ ذلك راجع إليَّ، وعلينا جزاؤهم في تكذيبهم إياك وكفرهم بما جئت به». (البحر المحيط ٥-٣٩٩).



فعلى كلا الوجهين إنما يلزمك البلاغ فقط. وقوله: ﴿نَعِدُهُم﴾ يحتمل أن يريد به المَضارَّ التي توعَّد الله بها الكفار، فأطلق فيها لفظة الوعد لما كانت تلك المضَارّ معلومة مصرحاً بها، ويحتمل أن يريد الوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام في إهلاك الكفرة، ثم أَضاف الوعد إليهم لما كان في شأنهم.

والضمير في قوله: ﴿يَرَوْا﴾ عائد على كفار قريش، وهم المتقدم ضميرهم في قوله: [نَعِدُهُمْ]، وقوله: ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ معناه: بالقدرة والأمر، كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾(١). و﴿ٱلْأَرْضَ﴾ يريد به اسم الجنس، وقيل: يريد أَرض الكفار المذكورين، وهذا بحسب الاختلاف في قوله: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾. وقرأَ الجمهور: ﴿نَنقُصُهَا﴾ وقرأَ الضحاك: [نُنَقِّصُهَا](٢)، وقوله: ﴿مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾، مَنْ قال: «إنها أَرض الكفار المذكورين» قال: معناه: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نأْتي أَرض هؤلاءِ بالفتح عليك فننقصها بما يدخل في دينك من القبائل والبلاد المجاورة لهم، فما يؤمِّنهم أَن نمكِّنك منهم أَيضاً كما فعلنا بمجاوريهم؟ قاله ابن عباس، والضحاك، وهذا القول لا يتأَتَّى إلا بأَن يُقدّر نزول هذه الآية بالمدينة. ومن قال: «إن [الأَرضَ] اسم جنس» جعل الانتقاص من الأَطراف بتخريب العمران الذي يُحِلُّه الله بالكفرة، وهذا قول ابن عباس أَيضاً ومجاهد، وقالت فرقة: الانتقاص هو بموت البَشَر، وهلاك الثمرات، ونقص البركة، قاله ابن عباس أَيضاً والشعبي، وعكرمة، وقتادة. وقالت فرقة: الانتقاص بموت الأَخيار والعلماءِ، قال ذلك ابن عباس أَيضاً ومجاهد، وكلُّ ما ذكر يدخل في لفظ الآية. والطرف من كل شيءٍ: خياره، ومنه قول علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: «العلوم أَودية، في أَي وادٍ أَخذت منها خسرت، فخذوا من كل شيءٍ طرفاً»، يعني خياراً. وجملة معنى هذه الآية الموعظة وضرْب المثل، أَي: أَلَم يروا فيقع منهم اتِّعاظ، وأَليق ما يقصد لفظ الآية هو تنقص الأَرض بالفتوح على محمد ﷺ.

وقوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾ أَي: لا رادَّ ولا مناقض يتعقَّب أَحكامه، أَي: ينظر في أَعقابها، أَمصيبةٌ هي أَم لا؟(٣) وسُرْعَة حساب الله واجبة لأَنها بالإِحاطة وليست بعدد.

---

(١) من الآية (٢٦) من سورة (النحل).

(٢) بتشديد القاف، من نقَّص المتعدي بالتضعيف.

(٣) المعقِّب هو الذي يكرُّ على الشيء فيُبطله، وحقيقته الذي يعقبه بالردّ والإبطال، ومنه قيل لصاحب =

و«المَكْرُ»: ما يتمرس بالإنسان ويسعى عليه، عِلم بذلك أَو لم يعلم، فوصف الله تعالىٰ الأمم السَّالفة التي سعت على أنبيائها، كما فعلت قريش بمحمد ﷺ بالمكر، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أَي العقوبات التي أَحلَّها بهم، وسمَّاها مكراً على عرف تسمية المعاقبة باسم الذنب، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[1] ونحو هذا، وفي قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تنبيهٌ وتحذيرٌ في طيِّ إخبار. ثم توعدهم تبارك وتعالىٰ بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، وقرأ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو: [الْكافر] على الإفراد، وهو اسم الجنس، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [ٱلْكُفَّار]، وقرأ ابن مسعود: [الكافرون]، وقرأ أُبيّ بن كعب «الذين كفروا»، وتقدم القول في ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ قبل هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية. المعنى: ويُكذبك يا محمد هؤلاءِ الكفرة، ويقولون: لسْت مرسلاً من الله، وإِنما أَنت مُدَّع، قل لهم: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾، و[بِاللهِ] في موضع رفع، التقدير: كفى الله، و«شهيد» بمعنى: شاهد، وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، قيل: يريد اليهود والنصارى الذين عندهم الكتب السابقة برفض الأَصنام وتوحيد الله تبارك وتعالىٰ، يريد مَنْ آمن منهم، كعبد الله بن سلام، وتميم الدَّاري، وسلمان الفارسي الذين يشهدون بتصديق محمد عليه الصلاة والسلام. وقال مجاهد: يريد عبد الله بن سلام خاصة، قال هو: فيّ نزلت ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان الأَخيران لا يستقيمان إِلا أَن تكون الآية مدنية والجمهور على أَنها مكية، قاله سعيد بن جبير، وقال: لا يصح أَن تكون الآية في عبد الله بن سلام لكونها مكية، وكان يقرأُ: ﴿وَمِنْ عِندِهِۦ عُلِمَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[2].

= الحق: معقِّب لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب، قال لبيد:

حتَّى تَهَجَّرَ في الرَّواحِ وهاجَهُ ... طَلَبُ المُعَقِّبِ حَقَّهُ المَظْلُومُ

أي: طلب المظلوم المعقب حقه، و«المعقب» في محلٍّ رفع لأنها فاعل المصدر «طَلَب»، و«المَظْلومُ» مرفوع عطفاً على موضع «المعقب».

(١) من الآية (١٥) من سورة (البقرة).

(٢) على أن [مِنْ] حرف جر، و[عِندِ] مجرورة بها، و[عُلِمَ] مبني للمفعول، و[الكتابُ] نائب فاعل مرفوع، =

وقيل: يريد الله تعالىٰ، كأنه استشهد بالله سبحانه، ثم ذكره بهذه الألفاظ التي تتضمن صفة تعظيم، ويعترض هذا القول بأن فيه عطف الصفة على الموصوف وذلك لا يجوز وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض(١)، ويحتمل أن تكون [مَنْ] في موضع رفع بالابتداءِ والخبر محذوف(٢) والتقدير: أعدل أو أمضى قولاً، ونحو هذا مما يدل عليه لفظ «شهيد»، ويراد بذلك الله تعالىٰ.

وقرأ علي بن أبي طالب، وأُبيٌّ بن كعب، وابن عباس، وابن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، والحكم، وغيرهم: [وَمِنْ عندِهِ علمُ الكتاب] بكسر الميم مِنْ [مِنْ] وخفض الدال، قال أبو الفتح: ورُويت عن النبي عليه الصلاة والسلام، وقرأ علي بن أبي طالب أيضاً، والحسن، وابن السميفع: [وَمِنْ عندِهِ عُلِمَ الكِتَابُ] بكسر الميم والدال، وبضم العين وكسر اللام على ما لم يسم فاعله ورفع (الكتاب)، وهذه القراءَات يرادُ فيها الله تعالىٰ، لا يحتمل لفظها غير ذلك.

تم تفسير سورة الرَّعد والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه

* * *

= والمعنى: عُلِمَ الكتابُ من عند الله سبحانه وتعالىٰ، وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قرأ كذلك، روى ذلك محبوب عن إسماعيل بن محمد اليماني، ورُوي أيضاً أنه ﷺ قرأ: ﴿وَمِنْ عِندِهِۦ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بكسر الميم في [مِنْ] والعين والدال في (عِنْدِ)، وأن [عِلْم] مصدر مضاف إلى [الكتاب] والمعنىٰ علمُ الكتاب من عند الله روىٰ ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه قال القرطبي وفي الرواية ضعف و[الكتاب] على هاتين القراءتين هو القرآن.

(١) قال أبو حيان: «وليس ذلك كما زعم من عطف الصفة على الموصوف، لأن «مَنْ» لا يوصف بها، ولا بشيءٍ من الموصولات إلا بـ «الذي» و«التي» وفروعها، و«ذو» و«ذوات» الطائيتين، وقوله: «وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض» ليس على إطلاقه، بل له شرط، وهو أن تختلف مدلولاتها، ويعني ابن عطية أنك لا تقول: «مررت بزيد والعالم» فتعطف «العالم» على الاسم، وهو عَلَمٌ لم يلحظ منه معنى صفة، وكذلك «الله» عَلَمٌ. ولما شعر بهذا الاعتراض من جعله معطوفاً على «الله» قدّر قوله «بالذي يستحق العبادة» حتى يكون من عطف الصفات بعضها على بعض، لا من عطف الصفة على الاسم.

(٢) والاحتمال الأظهر أن [مَنْ] ـ في قراءة الجمهور ـ في موضع خفض عطفاً على لفظ الجلالة [الله]، أو في موضع رفع عطفاً على موضعه، إذ هو في مذهب من جعل الباءَ في [باللهِ] زائدة فاعلٌ بـ [كَفَى].



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

هذه السورة مكية إلاَّ آيتين[(١)]، وهي[(٢)] قوله تعالىٰ: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟﴾ إلى آخر الآيتين، ذكره مكيّ، والنقاش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾.

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، و﴿كِتَابٌ﴾ رفع على خبر ابتداءٍ مضمر، تقديره: هذا كتابٌ، وهذا على أكثر الأقوال في الحروف المقطعة، وأما مَنْ قال فيها: «إنها كناية عن حروف المعجم» فـ ﴿كِتَابٌ﴾ مرفوع بقوله: ﴿الٓر﴾، أي: هذه الحروف كتاب أنزلناه إليك[(٣)]. وقوله: [أَنزَلْنَاهُ] في موضع الصفة لـِ «الكتاب»، قال القاضي ابن الطيب، وأبو المعالي، وغيرهما: إن الإنزال لم يتعلق بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، لكن بالمعاني التي أفهمها اللهُ جبريل عليه السلام من الكلام.

---

(١) حدد القرطبي الآيات المكية بدايةً ونهايةً، فقال: وهي قوله تعالىٰ: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وهي بهذا ثلاث آيات كما هو ثابت في المصحف الشريف، وأرقامها (٢٨، ٢٩، ٣٠)، ونسب القرطبي هذا القول إلى ابن عباس وقتادة، وكذلك قال في «البحر المحيط»، أما الجمهور فيقولون: السورة كلها مكية.

(٢) هكذا في جميع النسخ كما هي عادة ابن عطية، وهو يقصد الآيات التي سيذكرها بعد.

(٣) جوَّز العلماءُ في إعراب [الٓر] أن تكون في موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره: «هذه الٓر»، وأن تكون في موضع نصب على تقدير: «الْزَم أو اقرأ الٓر»، وتكون جملة ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ مفسِّرة. ويجوز في هذه الحالة أن يكون ﴿كِتَابٌ﴾ مبتدأ، وسوَّغ الابتداء به كونه موصوفاً في التقدير، أي: كتابٌ عظيم أنزلناه إليك.



وقوله تعالىٰ: ﴿لِتُخْرِجَ﴾ أسند الإخراج إلى النبي ﷺ من حيث له فيه المشاركة بالدعاءِ والإنذار، وحقيقته إنما هي لله تعالىٰ بالاختراع والهداية، وفي هذه اللفظة تشريف للنبي ﷺ، وعمَّ «النَّاس» إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق، ثبت ذلك بآيات القرآن التي اقترن بها ما نُقل تواتراً من دعوته عليه الصلاة والسلام العالَمَ كلَّه، وفي بعثه إلى الأَحمر والأَسود، علم ذلك الصحابة مشاهدة، ونقل عنهم تواتراً، فعلم قطعاً والحمد لله. واستعير الظُّلمات للكفر والنور للإيمان تشبيهاً، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بعلمه وقضائه وتمكينه لهم. و﴿إِلَى﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ بدل من الأَول في قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1]، أي الْمَحَجَّة المؤدية إلى طاعة الله والإيمان به ورحمته، فأَضافها إلى الله بهذه المتعلقات، و﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ صفتان لائقتان في هذا الموضع، فالعزَّة من حيث الإنزال للكتب، وما في ضمن ذلك من القدرة واستيجاب الحمد من حيث بثِّ هذه النعم على العالم في هدايتهم.

وقرأَ نافع، وابن عامر: [اللهُ الذي] برفع اسم الله على القطع والابتداء، وخبره [ٱلَّذِي]، ويصحُّ رفعه على تقدير: «هو الله الذي»، وقرأَ الباقون بكسر الهاءِ على البدل من قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وروى الأَصمعي وحده هذه القراءَة عن نافع، وعبّر بعض الناس عن هذا بأَن قال: التقدير: «إلى صراط اللهِ العزيز الحميد»، ثم قدم الصفات وأَبدل منها الموصوف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإذا كان هذا فليست بعْدُ بصفات على طريقة صناعة النحو، وإن كانت بالمعنى صفاته ذكر معها أَو لم يذكر[2].

---

(١) ولا يضر الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله تعالىٰ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لأَنَّه معمول للعامل في المبدل منه وهو ﴿لِتُخْرِجَ﴾.

(٢) عند تقديم الصفة على الموصوف يجوز في الإعراب أن تعرب الصفة نعتاً مقدماً، ويجوز أن تجعل ما بعد الصفة بدلاً، ويجوز أيضاً أن تضيف الصفة إلى الموصوف، ذكر ذلك أبو الحسن بن عصفور، ومما جاء فيه تقديم الصفة قول الشاعر:

والْمُؤمِنِ الْعَائذاتِ الطَّيْرَ يَمْسَحُها ... رُكْبَانُ مكَّةَ بَيْنَ الْغِيلِ والسَّعَدِ

فلو جاء على المألوف الكثير لكان نصه: «والمؤمن الطير العائذات».



وقوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾ معناه: وشدَّةٌ وبلاءٌ ونحوه، أَي يلقونه من عذاب شديد ينالهم الله به يوم القيامة، ويحتمل أَن يريد: في الدنيا، هذا معنى قوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾، وقال بعض الناس: ﴿وَيْلٌ﴾ اسم واد في جهنم يسيل من صديد أَهل النار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا خبر يحتاج إِلى سند يقطع العذر، ثم لو كان هكذا لَقَلِقَ تأْويل هذه الآية لقوله: ﴿مِّنْ عَذَابٍ﴾، وإِنما يحسن تأْويله في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[1] وما أَشبهه، وأَما هنا فإِنما يحسن في [ويْل] أَن يكون مصدراً، ورفعه على نحو رفعهم «سَلاَمٌ عَلَيْكَ» وشبهه.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ من صفة الكافرين الذين توعدهم قَبْلُ، والمعنى: يؤثرون دنياهم وكفرهم وترك الإِذعان للشرع على رحمة الله تعالىٰ وسكنى جنَّته. وقوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ يحتمل أَن يتعدى وأَن يقف، والمعنى على كلا الوجهين مستقل، تقول: «صدَّ زيد» و«صدَّه غيره»، ومن تعديته قول الشاعر:

صَـدَدْتِ الْكَـأْسَ عَنَّـا أُمَّ عَمْـرٍو وكَـانَ الْكَـأْسُ مجْـرَاهَـا الْيَمِينَـا[3]

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طريقة هداه وشرعه الذي جاءَ به رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ يحتمل ثلاثة أَوجه من التأْويل: أَظهرها أَن يريد: ويطلبونها في حالة عِوَج منهم، ولا يُراعى إِن كانوا بزعمهم على طريق نظر وبسبيل

---

(١) الآية (١) من سورة (المطففين).

(٢) ويجوز في إعراب ﴿الذينَ﴾ أن يكون مبتدأ خبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مضمر تقديره: أَذُمُّ. أما إعرابه بدلاً من (الْكَافِرِينَ) الذي ذكره ابن عطية فهو إعراب الحوفي، واختاره الزمخشري وأبو البقاءِ، ولكن أبا حيان الأندلسي اعترض عليه في «البحر المحيط» بأنه لا يجوز، وعلَّل ذلك بأن فيه الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي منهما وهو قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ سواءٌ أكان ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿وَيْل﴾ أم متعلقاً بفعل محذوف تقديره: يضجون أو يولولون من عذاب شديد.

(٣) البيت لعمرو بن كلثوم، وهو الخامس من معلقته المشهورة: «ألا هُبي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينا»، وقد سقط مع ثلاثة أبيات أُخرى بعده من شرح الأنباري للقصائد السبع الطوال «مجموعة ذخائر العرب» تحقيق عبد السلام هارون، ويروى: «صبَنْتِ» بدلاً من «صَدَدْتِ»، يقول لها: لقد صرفت الكأس عنا، وكان مجراها اليمينا فأجريتها على اليسار، أي: تَعَمَّدْتِ صرفها عنا. هذا وقد سبق الاستشهاد به.

اجتهاد واتباع الأَحسن، فقد وصف الله تعالىٰ حالهم تلك بالعوج، كأَنه قال: ويصدُّون عن سبيل الله التي هي بالحقيقة نبيلة، ويطلبونها على عوج في النظر.

والتأْويل الثاني أَن يكون المعنى: ويطلبن لها عوجاً يظهر فيها، أَي: يسعون على الشريعة بأَقوالهم وأَفعالهم، فـ ﴿عِوَجاً﴾ مفعول.

والتأْويل الثالث أَن تكون اللفظة من البغْي على معنى: ويبغون عليها أَو فيها عوجاً، ثم حذف الجار، وفي هذا بعض القلق.

وقال كثير من أَهل اللغة: العِوَجُ ـ بكسر العين ـ في الدِّين والأُمور، وبالجملة في المعاني، والعَوَجُ ـ بفتح العين في الأَجرام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا القانون بقوله تعالىٰ: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[1]، وقد تتداخل اللفظة مع الأُخرى، ووصْف الضلال بالبُعد عبارة عن تعمُّقهم فيه وصعوبة خروجهم منه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾.

هذه الآية رَدٌّ وطعن على المُسْتَغرِبين أَمْر محمد ﷺ، أَي: لستَ يا محمد ببدع من الرسل، وإِنما أَرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إِلى النور على عادتنا في رسلنا في أَن نبعثهم بأَلسنة أُممهم ليقع التكلم بالبيان والعبارة المتمكنة، ثم يكون تبايُن الناس من غير أَهل اللسان عيالاً في التَّبْيين على أَهل اللسان الذي يكون للنبي عليه الصلاة والسلام، وجعل الله العلة في إِرسال الرسل بأَلسنة قومهم طلب البيان، ثم قطع[2]

---

(١) الآيتان (١٠٦، ١٠٧) من سورة (طه).

(٢) أي أن النيَّة الاستئناف لا العطف ولذلك رفع الفعل في ﴿فَيُضِلُّ﴾، ومثله قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾، قال الفراءُ: «إذا رأيت الفعل منصوباً وبعده فعل قد نسق عليه بواو أو فاءٍ أو ثم أَوْ أَوْ فإن كان يُشاكل معنى الفعل الذي قبله نسقته عليه، وإن رأيته غير مشاكل لمعناه استأنفته فرفعته».



قوله: ﴿فَيُضِلُّ﴾، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام إنما غايته أن يُبلِّغ ويُبيِّن، وليس فيما كلف أن يهدي ويضل، ذلك بيد الله ينفذ فيه سابق قضائه، وله في ذلك العزَّة التي لا تعارض، والحكمة التي لا تُعَلَّل، لا ربَّ غيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فإن اعترض أعجمي بأن يقول: من أين يبيّن هذا الرسول لي الشريعة وأنا لا أفهمه؟ قيل له: أهل المعرفة باللسان يعبّرون لك، وفي ذلك كفايتك، وإن قال: من أين يتبيّن لي المعجزة وأفهم الإعجاز وأنا لا أفهم اللغة؟ قيل له: الحجة عليك إذْعان أهل الفصاحة والذين كانوا يُظَنُّ بهم أنهم قادرون على المعارضة، وبإذعانهم قامت الحجة على البشر، كما قامت الحجة في معجزة موسى بإذعان السَّحرة، وفي معجزة عيسى بإذعان الأطباءِ.

و«اللِّسان» ـ في هذه الآية ـ يُراد به اللغة[(١)]، وقرأ أبو السَّمَّال: [بِلِسْنِ قَوْمه] بسكون السِّين دون الألف، كرِيْش ورياش، ونقول: لِسْن ولِسَانٌ في «اللغة»، فأما العضو فلا يقال فيه: لِسْن بسكون السين[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ الآية. آيات الله هي العصا، واليد، وسائر التِّسع[(٣)]. وقوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾، تقديره: بأن أخرج، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسِّرةً لا موضع لها من الإعراب[(٤)]، وأما «الظُّلمات والنُّور» هنا فيحتمل أن يراد بها: من الكفر إلى الإيمان، وهذا على ظاهر أمر بني إسرائيل في أنهم كانوا قبل بعث موسى

---

(١) ومنه قول الشاعر:

* أَتَتْني لِسَانُ بَنِي عَامِرٍ *

يعني لغة بني عامر، وقد ذهب بها إلى الكلمة فأنَّثها، وقال أعشى باهلة:

* إنِّي أتاني لِسانٌ لا أُسَرُّ بِهِ *

ذهب إلى الخبر فذكَّره.

(٢) وقرأ أبو رجاءٍ، وأبو المتوكل، والجحدري: [لُسُن] بضم اللام والسين، وهو جمع لسانٍ كعمادٍ وعُمُد، وقرىء أيضاً بضم اللام وسكون السين، كرُسُل ورُسْل.

(٣) الآيات التسع هي: الطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدَّم، والعصا، ويده البيضاءُ، والسنين، والنقص في الثمرات.

(٤) فتكون بمعنى «أيْ»، كقوله تعالىٰ: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ بمعنى: أي امشوا.



فيهم أَشياعاً متفرقين في الدين ففرع مع القبط في عبادة فرعون، وكلهم على غير شيءٍ، وهذا مذهب الطبري، وحكاه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإن صحَّ أَنهم كانوا على دين إبراهيم وإسرائيل أَو نحو هذا فالظلماتُ: الذل أَو العبودية، والنور: العزَّة بالدين والظهور بأَمر الله تبارك وتعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر هذه الآية وأَكثر الآيات في رسالة موسى عليه السلام أَنها إِنما كانت إِلى بني إِسرائيل خاصة في معنى الشرع لهم، وأَمرهم ونهيهم بفروع الديانة، وإِلى فرعون وأَشراف قومه في أَن ينظروا ويعتبروا في آيات موسى فيقرُّوا بالله تعالىٰ ويؤمنوا به وبموسى وبمعجزته، ويتحققوا نبوته، ويرسلوا معه بني إِسرائيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يترتب هذا منهم إلا بالإِيمان به.

وأَمَّا أَن تكون رسالته إِليهم لمعنى اتِّباعه والدخول في شرعه فليس هذا بظاهر القصة، ولا كشف الغيب ذلك، أَلا ترى أَن موسى عليه السلام خرج عنهم ببني إِسرائيل، فلو لم يُتبع لمضى بأُمته؟ وأَلا ترى أَنه لم يَدْعُ القبط بجملتهم وإِنما كان يحاور أُولي الأَمر؟ وأَيضاً فليس دعاؤُه لهم على حدّ دعاءِ نوح وهود وصالح ـ عليهم السلام ـ أُممهم في معنى كفرهم ومعاصيهم، بل في الاهتداءِ والتَّزكي وإِرسال بني إِسرائيل، ومما يؤيد هذا أَنه لو كانت دعوته لفرعون والقبط على حدّ دعوته لبني إِسرائيل فلم كان يطلب بأَمر الله أَن يرسل معه بني إِسرائيل؟ بل كان المطلوب أَن يؤمن الجميع ويتشرَّعوا بشرعه ويستقرَّ الأَمر، وأَيضاً فلو كان مبعوثاً إِلى القبط لردَّه الله إِليهم حين أَغرق فرعون وجنوده، ولكن لم يكونوا أُمته فلم يُرَدّ إِليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واحتجَّ من ذهب إِلى أَن موسى عليه السلام بُعث إِلى جميعهم بقوله تعالىٰ في غير آية: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾[1]، و﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾[2] والله أَعلم.

---

(١) تكررت الآيات: (١٠٣ من الأعراف، و٧٥ من يونس، و٩٧ من هود، و٤٦ من المؤمنون، و٣٢ من القصص، و٤٦ من الزخرف).

(٢) من الآية (١٢) من سورة (النمل).



وقوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ الآية. أَمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ موسى أَن يعظ قومه بالتهديد بِنقم الله التي أَحلَّها بالأمم الكافرة قبلهم، وبالتَّعديد لنعمه عليهم في المواطن المتقدمة، وعلى غيرهم من أَهل طاعته، ليكون جَرْيُهُم على منهاج الذين أَنعم الله عليهم، وهربهم من طريق الذين حلَّت بهم النقمات، وعُبِّر عن النِّعم والنِّقم بالأَيام إِذْ هي في أَيَّام[1]، وفي هذه العبارة تعظيم هذه الكوائن المُذَكَّر بها، ومن هذا المعنى قولهم: يومٌ عصيب، ويوم عبوسٌ، ويوم بسَّام، وإِنما الحقيقة وصف ما وقع فيه من الشِّدَّة أَو السرور، وحكى الطبري عن فرقة أَنها قالت: أَيام الله: نِعَمُه، وعن فرقة أَنها قالت: أَيام الله: نِقَمُه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظة «الأَيام» تعم المعنَيَين، لأَن التذكير يقع بالوجهين جميعاً.

وقوله سبحانه: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إِنما أَراد: لكل مؤمن ناظر لنفسه، فأَخذ من صفات المؤمن صفتين تجمعان أَكثر الخصال، وتعُمَّان أَجمل الأَفعال[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ

(١) إطلاق الأيام على النقم والبلايا مشهور وكثير في كلام العرب، وكانوا يطلقون الأيام على الوقائع والحروب، كيوم ذي قار، ويوم الفِجار، ويوم فضة، ويوم حليمة، ومن ذلك قول الشاعر:

وأَيَّامُنا مَشْهُورَةٌ في عَدُوِّنَا

وإذا كانت أيام الوقائع بلايا على المغلوب، فهي نعم على الغالب المنتصر، وكانوا يفخرون بها ويذكرونها على أنها نعم الله عليهم، قال عمرو بن كلثوم:

وأَيَّـــام لَنَـــا غُـــرٌّ طِـــوَالٍ ... عَصَيْنَـــا المَلْـــكَ فيهـــا أَن نَـــدِينَـــا

فأَيَّامهم غُرٌّ لِعُلُوِّهم على الملك وامتناعهم عليه، وهي طوالٌ على أعدائهم، وبهذا الفهم لمعنى البيت قد يكون من الصعب تفسير الأيام بأنها نِعَم الدنيا.

(٢) في الأصول: «فأخذ من صفات (المؤمنين) صفتين (تجمع) أكثر الخصال، (وتعُمّ) أجمل الأفعال»، وهي عادة لابن عطية.



مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

هذا من التذكير بأيام الله في النعم، وكان يوم الإنجاءِ عظيماً لعظم الكائن فيه، وقد تقدم تفسير هذه الآية وقصصها بما يغني عن إعادته[١]، غير أن في هذه الآية زيادة الواو في قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ وفي البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بغير واو عطف، فهنالك فسر (سوءَ العذاب) بأنه التذبيح والاستحياءُ، وهنا دلَّ بـ (سوءَ العذاب) على أنواع غير التذبيح والاستحياءِ، وعطف التذبيح والاستحياءَ عليها. وقرأ ابن محيصن: [وَيَذْبَحُونَ] بفتح الياءِ والباءُ مخففة.

و«الْبَلاَءُ» في هذه الآية يحتمل أن يريد به المحنة، ويحتمل أن يريد به الاختبار، والمعنى متقارب.

و(تَأَذَّنَ) بمعنى: أَذَّن، أَي: أَعلم، وهو مثل: أَكْرم وتكرم، وأَوْعد وتوعَّد، وهذا الإِعلام منه مقترن بإِنفاذٍ وقضاءٍ قد سبقه، وما في «تَفَعَّل» هذه من المحاولة والشروع إذا أُسندت إِلى البشر منفيٌّ في جهة الله تعالىٰ، وأَما قول العرب: تَعلَّم بمعنى: اعْلَم فمرفوض الماضي على ما ذكر يعقوب، كقول الشاعر:

تَعَلَّمْ ـ أَبَيْتَ اللَّعْـنَ . . . .[٢]

ونحوه.

وقال بعض العلماءِ: الزِّيادة على الشكر ليست في الدنيا، وإِنما هي من نعم الآخرة، والدنيا أَهون من ذلك.

---

(١) تقدم ذلك في تفسير الآية (٤٩) من سورة (البقرة)، والآية (١٤١) من سورة (الأعراف)، ولكن اللفظ في سورة (الأعراف) هو [يُقَتِّلونَ]، أما في سورة (البقرة) فهو [يُذَبِّحُونَ] بدون واو، ولفظ القتل أعم إذ يشمل الذبح وغيره.

(٢) سبق أن شرح ابن عطية معنى ﴿تَأَذَّنَ﴾ في سورة الأعراف، واستشهد بهذا الجزء من البيت، راجع المجلد الرابع صفحة ٧٦ وما بعدها. والعرب تضع تَفَعَّل موضع أَفْعَل، فقالوا: أَوْعَدته وتَوَعَّدْته بمعنى واحد. والبيت المشهور في هذا هو قول القطاميّ:

تعَلَّـــمْ أنَّ بَعْـــدَ الغَـــيِّ رُشْـــداً   وأنَّ لهـــذه الغُبَـــرِ انقِشَـــاعـــاً



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وصحيح جائز أَن يكون ذلك، وأَن يزيد الله تعالىٰ المؤمن على شكره من نعم الدنيا، وأَن يزيده أَيضاً منهما جميعاً، وفي هذه الآية تَرْجية وتخويف، ومما يقضي بأَن الشكر متضمن الإِيمان أَنه عادله بالكفر، وقد يحتمل أَن يكون الكفر كفر النعم لا كفر الجحد، وحكى الطبري عن سفيان وعن الحسن أَنهما قالا: معنى الآية: لئن شكرتم لأَزيدنكم من طاعتي، وضعفه الطبريّ، وليس كماقال، بل هو قويٌّ حسَنٌ فتأَمله، وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ هو جواب قَسَم يتضمنه الكلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ الآية. في هذه الآية تحقيرٌ للمخاطبين بشرط كفرهم وتوبيخٌ، وذلك بيِّن في الصفتين اللتين وصف بهما نفسه تبارك وتعالىٰ في آخر الآية، وقوله: ﴿لَغَنِيٌّ﴾ يتضمن تحقيرهم وعظمته. وقوله: ﴿حَمِيدٌ﴾ يتضمن توبيخهم، وذلك أَنه بصفة توجب المحامد كلها دائماً كذلك في ذاته لم يزل ولا يزال، فكفركم أَنتم بإِلـه هذا حاله غاية التخلف والخذلان، وقوله أَيضاً: [حَمِيدٌ] يتضمن أَنه ذو آلاءٍ عليكم أَيها الكافرون به كان يستوجب بها حمدكم، فكفركم به مع ذلك أَذهب في الضلال، وهذا توبيخ بيِّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الآية. هذا من التذكير بأَيام الله في النقم من الأُمم الكافرة، وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ من نحو قوله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾[(١)]، وفي مثل هذا قال رسول الله ﷺ: (كذب النَّسابون من فوق عدنان)[(٢)]، ورُوي عن ابن عباس أَنه قال: «كان بين زمن موسى وبين زمن نوح قرون ثلاثون لا يعلمهم إِلا الله»، وحكى عنه المهدوي أَنه قال: «كان بين عدنان وإِسماعيل ثلاثون أَباً لا يُعرفون».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الوقوف على عدتهم بعيد، ونفْي العلم بها جملة أَصح، وهو لفظ القرآن.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بحسب

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٣٨) من سورة (الفرقان): ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾.

(٢) أخرجه ابن سعد، وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في الجامع الصغير، ولفظه فيه: (كذب النَّسابون، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾).

احتمال اللفظ، و«الأَيدي» في هذه الآية قد تُتَأَوّل بمعنى الجوارح، وقد تُتَأَوّل بمعنى أَيدي النعم فيما ذكر، وعلى أَن «الأَيدي» هي الجوارح يكون المعنى: رَدُّوا أَيدي أَنفسهم في أَفواه أَنفسهم عضًّا عليها من الغيظ على الرُّسل، ومبالغةً في التكذيب، هذا قول ابن مسعود، وابن زيد، وقال ابن عباس: عجبوا ففعلوا ذلك، والعض من الغيظ مشهور[1]، وفي كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[2]، وقال الشاعر:

قَـدْ أَفْنـى أَنَـامِلَـهُ أَزْمَـةً ... فَـأَضْحَـى يَعَـضُّ عَلَـيَّ الْـوَظِيفَـا[3]

وقال الآخر:

لَـوْ أَنَّ سَلْمَـى أَبْصـرَتْ تَخَـدُّدِي ... وَدِقَّـةً فـي عَظْـم سَـاقِـي ويَـدِي

وَبُعْـدَ أَهْلـي وَجَفَـاءَ عُـوَّدِي ... عضَّتْ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ[4]

ومما ذُكر أَن يكون المعنى أَنهم ردُّوا أَيدي أَنفسهم في أَفواه أَنفسهم إِشارةً على الأَنبياءِ بالسكوت، واستبشاعاً لما قد قالوه من دعوى النبوة، ومما ذكر أَن يكون المعنى: ورَدُّوا أَيدي أَنفسهم في أَفواه الرُّسل تسكيناً لهم، ودفعاً في صدر قولهم، قاله الحسن، وهذا أَشنع في الردِّ وأَذهب في الاستطالة على الرسل والنيل منهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحتمل الأَلفاظ معنى رابعاً، وهو أَن يُتجَوَّز في لفظ الأَيدي، أَي أَنهم ردُّوا أَقوالهم ومكافحتهم ومدافعتهم فيما قالوه بأَفواههم من التكذيب، فكأَن المعنى: ردُّوا

---

(١) في إحدى النسخ زيادة: «مِن البشر».

(٢) من الآية (١١٩) من سورة (آل عمران).

(٣) الأنامل: جمع أُنمُلَة: عُقْدَة الإصبع أَو سُلامَاهَا، وتطلق أيضاً على المفصل الأعلى من الإِصْبَع وهو الذي فيه الظفر، وأَزمةً: عَضّاً، يقال: أَزَمَ على الشيءِ أَزْماً: عضَّ بالفم عضّاً شديداً، والوظيف لكل ذي أربع: ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق، وفي اليد: ما بين الرسغ والذراع، والجمع: أَوْظِفَة. والبيت غير منسوب. والمعنى أنه قطع أنامله من شدة العضّ عليها، وانتقل إلى عض وظيفه بعد ذلك.

(٤) التَّخَدُّد: أن يَتَغَضَّن الجلد من شدة الهزال، يقال: رجل مُتَخَدِّد، وامرأة متخَدِّدة: مهزول قليل اللحم، والجفاءُ: الإعراض والقطيعة، والعُوَّد: جمع عائد، وهو الذي يزور المريض، والوجْد: الحزن، يقول: لو أنها رأت هزالي وضعفي ونحول جسمي مع بُعْد الأهل وقطيعة الأحبة والزائرين لعضَّت يدها من شدة الحزن عليَّ والرثاء لحالي.



جميع مدافعتهم في أفواههم، أي في أقوالهم، وعُبّر عن جميع المدافعة بالأيدي إذ الأيدي موضعُ أشد المدافعة والمرادَّة، وحكى المهدوي قولاً ضعيفاً، وهو أن المعنى: أخذوا أيدي الرسل فجعلوها في أفواه الرسل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي لا وجه له.

ومما ذكر على أن «الأيدي» أيادي النعم ما ذكره الزجاج، وذلك أنهم ردُّوا الأيدي من الرسل في الإنذار والتبليغ بأفواههم، أي بأقوالهم، فوَصَل الفعلُ بـ (في) عِوَضَ وصوله بـ (الباءِ)[1]، ورُوي نحوه عن مجاهد، وقتادة. والمشهور جمع «يد» النعمة على «أيادٍ»، ولا يجمع على «أيدٍ»، إلا أن جمعه على «أيدٍ» لا يكسر باباً ولا ينقض أصلاً وبحسبنا أن الزجَّاج قدّره وتأول عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل اللفظ ـ على هذا ـ معنى ثانياً، أن يكون المقصود: ردُّوا إنعام الرسل في أفواه الرسل، أي لم يقبلوه، كما تقول لمن لا يُعجبك كلامه: أمْسِك يا فلان كلامك في فِيك، ومن حيث كانت أيدي الرسل أقوالاً ساغ هذا فيها، كما تقول: كسرتُ كلام فلان في فمه، أي: رَدَدْتُه عليه وقطعته بقلَّة القبول وبالردّ، وحكى المهدوي عن مجاهد أنه قال: معناه: ردُّوا نعم الرُّسل في أفواه أنفسهم بالتكذيب والنَّجْه[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ يقتضي أنهم شكُّوا في صدق نبوتهم وأقوالهم وكذبوها، وتوقفوا في إمضاءِ أحد المعتقدين، ثم ارتابوا بالمعتقد

---

(١) معنى هذا الرأي: «أنهم كذبوا الرسل بأفواههم»، ولكن التعبير جاء بـ (في) بدلاً من (الباء) فقال: «في أفواههم»، بدلاً من «بأفواههم»، وذلك لأن (في) تأتي بمعنى (الباء)، تقول: جلست في البيت وبالبيت، قال الفراءُ: قد وجدنا من العرب من يجعل (في) موضع (الباء)، فتقول: أدخلك الله بالجنة، تريد: في الجنة، وأنشدني بعضهم:

وأرْغَبُ فيها عَنْ لَقِيطٍ ورَهْطِهِ ... ولَكِنَّني عَنْ سِنْبِسٍ لسْتُ أرْغَبُ

فقال: «أرغب فيها» يعني بنْتاً له، أي أني أرْغَب بها عن لقيط، وسِنْبِس: حيٌّ من طيّءٍ، وهي قبيلته، ولهذا فهو لا يرغب بها عن قبيلته.

(٢) النَّجْهُ: الرَّدُّ القبيح جداً، يقال: نَجَه فلاناً نَجْهاً: رَدَّه أقْبح رَدٍّ.



الواحد في صدق نبوته، فجاءَهم شك مؤكد بارتياب، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿مِمَّا تَدْعُونَّا﴾ بنون واحدة مشددة[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ﴾ مُقدَّر فيه ضمير، تقديره عند كثير من النحويين: أَفي إلـٰهيَّته شك؟ وقال أَبو علي الفارسي: أَفي وحدانيته شك؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وزعم بعض الناس أَن أَبا عليٍّ إنما فزع إِلى هذه العبارة حفظاً للاعتزال، وزوالاً عما تحتمله لفظة «الإلـٰهية» من الصفات بحسب عمومها، ولفظة الوحدانية مخلصة من ذلك الاحتمال.

و«الْفَاطِر»: المخترع المبتدىء، وسوْقُ هذه الصفة احتجاج على الشَّاكِّين، أَي الشك فيمن هذه صفته، فساق الصفة التي هي منصوبة لرفع الشك، وقوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، ذهب بعض النحاة إِلى أَنها[٢] زائدة، وسيبويه يأْبى أَن تكون زائدة في الواجب، ويراها للتبعيض، وهو معنى صحيح، وذلك أَن الوعد وقع بغفران الشرك وما معه من المعاصي، وبقي ما يستأْنف أَحدهم بعد إيمانه من المعاصي مسكوتاً عليه ليبقى معه في مشيئة الله تعالىٰ، فالغفرانُ إِنما يقدمه الوعد في البعض، فصحَّ معنى [مِنْ][٣].

---

(١) معنى ذلك أنه يدغم نون الرفع في الضمير كما تُدغم في نون الوقاية في مثل: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالىٰ: [مُريب] صفة توكيدية. ومعناها: موجب لِلرِّيبة، يقال: أَرَبْتُهُ إذا فعلت أمراً أوجب ريبةً وشكاً.

(٢) الضمير في (أَنَّهَا) يعود على (مِنْ) في قوله تعالىٰ: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ والذي ذهب إلى زيادتها هو أبو عبيدة والأخفش، والبصريون لا يجيزون ذلك إلا بشروط.

(٣) يعني أن الغفران يكون لما سبق من الذنوب حتى ولو كان الذنب شركاً بما معه من المعاصي، أمَّا ما يقع=



وقوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قد تقدم القول فيه في سورة الأعراف في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية[1]، وجلبت هذه هناك بسبب ما يظهر بيْن الآيتين من التعارض، ويليق هنا أَن نذكر مسأَلة المقتول: هل قُطع أَجله أَم ذلك هو أَجله المحتوم عليه؟ فالأَول قول المعتزلة، والثاني قول أَهل السُّنَّة، فنقول: قول المعتزلة: «إِنه لو لم يقتله لعاش، وهذا سبب القَوَد»، وقالت فرقة من أَهل السُّنَّة: «لو لم يقتله لمات حتف أنفه»، قال أَبو المعالي: «وهذا كله تخبط، إنما هو أَجله الذي سبق في القضاءِ أَنه يموت فيه على تلك الصفة، فمحال أَن يقع غير ذلك، فإِن فرضنا أَنه لم يقتله، وفرضنا مع ذلك أَن علم الله تعالىٰ سبق بأَنه لا يقتله بقي أَمره في حيِّز الجواز في أَن يعيش أَو يقتل أَو كيف ما كان علم الله تعالىٰ سبق فيه».

وقول الكفرة: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فيه استبعادٌ لبعثة البشر، وقال بعض الناس: بل أَرادوا إِحالته، وذهبوا مذهب البراهمة[2] أَو من يقول من الفلاسفة: إِن الأَجناس لا يقع فيها هذا التَّباين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر كلامهم لا يقتضي أَنهم أَغمضوا هذا الإِغماض، ويدل على ما ذكرتُ أَنهم طلبوا منهم الإِتيان بآية وسلطان مبين، ولو كانت بعثتهم عندهم محالاً لما طلبوا منهم حجة، ويحتمل أَن طلبهم منهم السلطان إنما هو على جهة التعجيز، أَي: بعثتكم محال وإِلا فأْتوا بسلطانٍ مبين، أَي: إِنكم لا تفعلون ذلك أَبداً، فيَتَقوَّى بهذا الاحتمال منحاهم إِلى مذهب الفلاسفة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، المعنى: صدقتم في قولكم: «إِنَّا بَشَرٌ» في الأَشخاص والخلقة، لكن تبايَنَّا بفضل الله تعالىٰ ومَنِّه الذي

= في المستقبل من الذنوب فليس داخلاً في وعد الله، بل هو مسكوت عنه، وبهذا تكون (من) للتبعيض، ويمكن أن يكون التبعيض بمعنى آخر هو أن الله يغفر ما بينه وبينهم من الذنوب، وهو بعض ذنوبهم، ويبقى بعض آخر من ذنوبهم وهو ما بينهم وبين العباد من المظالم.

(١) الآية (٣٤) من سورة (الأعراف). (راجع المجلد الثالث، صفحة ٥٥٥).

(٢) البَرَاهِمَة: طائفة من الهنود لا يجوّزون على الله تعالىٰ بعث الأنبياء، ويحرمون لحوم الحيوان، والواحد: برهمي.



يختص به من يشاءُ، ففارقوهم بالمعنى، بخلاف قوله تعالىٰ: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾[(١)] فإنَّ ذلك في المعنى لا في الهيئة.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، هذه العبارة إذا قالها الإنسان من نفسه، أَو قيلت له فيما يقع تحت مقدوره فمعناها النهي والحظر، وإن كان ذلك فيما لا قدرة له عليه فمعناها نفي ذلك الأمر جملة، وكذلك هذه الآية. وقال المهدوي: لفظها لفظ الحظر ومعناها النفي. واللام في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلْ﴾ لام الأمر، وقرأَها الجمهور ساكنة، وقرأَها الحسن مكسورة، وتحريكها بالكسر هو أَصلها، وتسكينُها طلب للتخفيف، ولكثرة استعمالها، وللفرق بينها وبين لام كي التي أُلزمت الحركة إِجماعاً[(٢)].

وقوله: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ الآية، وقفهم الرسل على جهة التوبيخ على تعليل في أَلاَّ يتوكلوا على الله وهو قد أَنعم عليهم، وهداهم طريق النجاة، وفضلهم على خلقه، ثم أَقسموا أَن يقع منهم الصبر على الإِذاية في ذات الله تعالىٰ. و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ مصدرية، وهي حرف عند سيبويه بانفرادها، إلا أَنها اسمٌ مع ما اتصل بها من المصدر، وقال بعض النحويين: «ما» المصدرية بانفرادها اسمٌ، ويحتمل أَن تكون ﴿مَا﴾ في هذا الموضع بمعنى الذي، فيكون في ﴿آذَيْتُمُونَا﴾ ضمير عائد تقديره: آذيتمونا‌ه، ولا يجوز أَن يضم به بسبب إِضمار حرف الجر، هذا مذهب سيبويه، والأَخفش يُجيز ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾

---

(١) الآية (٥٠) من سورة (المدثر).

(٢) في الآيتين أمران بالتوكل، الأمر الأول وهو قوله تعالىٰ: ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ لاستحداث التوكل، والثاني وهو قوله تعالىٰ: ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ للثبات على ما استحدثوه من توكلهم. وقوله تعالىٰ: [وَلَنَصْبِرَنَّ] جواب قَسَم، ويدل على سبْق ما يجب فيه الصبر، بمعنى أنه لا بد من حدوث شيءٍ يحتاج إلى الصبر، وهو هنا: الأذى.

يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، قالت فرقة: [أَوْ] هنا بمعنى: «إلاَّ أن»، كما هي في قول امرىء القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[1]

وتحتمل ﴿أَوْ﴾ في الآية أن تكون على بابها لوقوع أَحد الأَمرين، لأَنهم حملوا رسلهم على أَحد الوجهين، ولا يحتمل بيت امرىء القيس ذلك لأَنه لم يحاول أَن يموت فيعذر، فتخلصت بمعنى «إلاَّ أَن» ولذلك نصب الفعل بعدها. وقالت فرقة: هي بمعنى «حتَّى» في الآية، وهذا ضعيف، وإنما يترتب ذلك في قوله: «لألْزَمنَّك أَو تقضيني حَقِّي»، وفي قوله: «لا يقوم زيدٌ أَو يقوم عمرو»، وفي هذه المثل كلها يحسن تقدير «إلاَّ أَن». والعوْدَةُ أَبداً إنما هي إلى حالةٍ قد كانت، والرُّسل ما كانوا قط في ملَّة الكفر، فإنما المعنى: أَو لتعودن إلى سكوتكم عنَّا إغفالاً، وذلك عند الكفار كوْنٌ في مِلَّتهم، وخصَّص تعالىٰ الظالمين من الذين كفروا إذ جائز أَن يؤمن من الكفرة الذين قالوا المقالة ناسٌ، فإنما توعَّد بإهلاك من خلص للظلم[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ الخطاب للحاضرين والمرادُ هُمْ وذريتهم، ويترتب هذا

---

(١) من قصيدة له قالها حين ذهب إلى قيصر يطلب منه المساعدة على استرداد مُلكه والأخذ بثأر والده ممن قتلوه، وقبله يقول:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ وأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ لاَ تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

فقد رفع (نحاول) ونصب (نموت) على معنى: «إلا أن».

ومثله قول الأحوص:

لا أَسْتَطِيعُ نزوعاً عَنْ مَوَدَّتِهَا أَوْ يَصْنَعَ الْحُبُّ بي غَيْرَ الذي صَنَعَا

قال الفراءُ: ومن العرب من ينصب ما بعد (أو) ليؤذن نصبُه بالانقطاع عمّا قبله، قال أعرابي حين عاد من سفر طويل فوجد امرأته قد ولدت له غلاماً فأنكره:

لَتَقْعُدِنَّ مَقْعَدَ القَصِيِّ مِنِّي ذي القَاذورةِ المَقْلِيِّ
أَوْ تَحْلِفِي بِرَبِّكِ العَلِيِّ أَنِّي أَبُو ذَيَّالِكِ الصَّبِيِّ

(٢) وقيل: أراد بالظالمين المشركين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

المعنى في قوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: يؤخركم وأعقابكم، وقرأ أبو حيْوة [لَيُهْلِكَنَّ] و[لَيُسْكِنَنَّكُمْ] بالياءِ فيهما[1]، وقوله ﴿مَقَامِي﴾ يحتمل أن يريد به المصدر من القيام على الشيءِ بالقدرة، ويحتمل أن يريد به الظرف لقيام العبد بين يديه في الآخرة، فإضافته إذا كان مصدراً إضافةُ المصدر إلى الفاعل، وإضافته إذا كان ظرفاً إضافة الظرف إلى حاضره، أي: مقام حسابي، فجائز قوله: ﴿مَقَامِي﴾، وجائز لو قال: «مقامه»، وجائز لو قال: «مقَام العرض والحساب»، وهذا كما تقول: «دار الحاكم، ودار الحُكْم، ودار المحكوم عليه»، قال أبو عبيدة: ﴿مَقَامِي﴾ مجازٌ، حيث أُقيمُه بين يديَّ للحساب[2].

و«الاستفتاحُ»: طلب الحُكْم، والفتَّاح: الحاكم، والمعنى: إن الرُّسل استفتحوا، أي: سألوا الله تعالىٰ إنفاذ الحكم بنصرهم وتعذيب الكفرة، وقيل: بل استفتح الكفارُ على نحو قول قريش: ﴿عجِّل لنا قِطَّنا﴾[3]، وعلى نحو قول أبي جهل في بدر: «اللهم أَقْطَعُنَا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأَحِنْهُ الغداة»[4] هذا قول ابن دُرَيْد، وقرأت فرقة: [واسْتَفْتِحُوا] بكسر التاءِ على معنى الأَمر للرسل، قرأها ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن. و﴿خَابَ﴾ معناه: خسِر ولم ينجح، و«الجَبَّارُ»: المتعظِّم في نفسه الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، وقيل: معناه: الذي يجبر الناسَ على ما يكرهون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو المفهوم من اللفظ. وعبَّر قتادة وغيره عن «الجبار» بأَنه الذي يأبى أَن يقول: «لا إلـه إلا الله»، و«العنيد»: الذي يعاند ولا ينقادُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾، ذكر الطبريُّ وغيره من المفسرين أَن معناه: «من أَمامه»، وعلى ذلك حملوا قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾[5]، وأَنشد الطبريّ:

---

(١) اعتباراً بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾، إذ لفظه لفظ الغائب.

(٢) وقال الفراءُ في «معاني القرآن»: «معناه: ذلك لمن خاف مقامه بين يديَّ، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، معناه: رزقي إياكم، والعرب تضيف أفعالها إلى أنفسها وإلى ما أُوقعت عليه، فيقولون: ندمتُ على ضربي إياك ـ وندمت على ضربك، فهذا من ذلك».

(٣) يريدون: كتابَ حسابنا، أو نصيبنا. وهي من الآية (١٦) من سورة (صٓ).

(٤) أَحِنْه الغَداة: اجعل حَيْنَه (أي وقت وفاته) سريعاً في الغد.

(٥) من الآية (٧٩) من سورة (الكهف).

أَتُــوعِــدُونِــي وراءَ بنــي رِيــاحٍ   كَــذَبْــتَ لَتَقْصُــرَنَّ يــداكَ دُونــي[(١)]

وليس الأمر كما ذكر، و«الوراءُ» ها هنا على بابه، أَي: هو ما يأْتي بعدُ في الزمان، وذلك أَن التقدير في هذه الحوادث بالأَمام والوراءِ إنما هو بالزمان، وما تقدم فهو أَمامٌ، وهو بين اليد، كما يقال في التوراة والإِنجيل: إِنهما بين يدي القرآن، والقرآن وراءَهما على هذا، وما تأَخر في الزمان هو وراءَ المتقدم، ومنه قولهم لِولَد الْوَلَد: الوراءُ، وهذا الجبار العنيد وجودُه وكُفره وأَعماله في وقت مَّا، ثم بعد ذلك في الزمان يأْتيه أَمر جهنم، قال: وتلخيص هذا أَن يُشَبَّه الزمان بطريق تأْتي الحوادث من جهته الواحدة متتابعة، فما تقدم فهو أَمام، وما تأَخر فهو وراءَ المتقدم، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ أَيْ غَضْبُه وتَغَلُّبه يأْتي بعد حذرهم وتحفظهم[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾، وليس بِمَاءٍ، لكن لمَّا كان بدل الماءِ في العُرف عندنا[(٣)]. ثم نعته بـ[صديدٍ]، كما تقول: هذا خاتم حديد. و«الصَّديدُ»: القَيْحُ والدَّمُ، وهو ما يسيل من أَجساد أَهل النار، قاله مجاهد والضحاك.

---

(١) هذا البيت لجرير، وهو في الديوان، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، وقد استشهد به الطبريُّ على أنَّ «دوني» بمعنى «عَنِّي» عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾، واستشهد به هنا على أن «وراء» بمعنى «أمام»، فالمعنى على هذا: إنك توعدني أمام بني رياح وقد كذبت فستقصر يداك عني.

(٢) يشرح ابن عطية رأيه في أن «وراء» بمعنى «بَعْد» في الزمان، ويردّ على الطبري بأدلة، وهذا هو رأي أبو عبيدة، وابن الأنباري أيضاً، ومما يؤكد كلامهم قول النابغة:

حَلَفْــتُ فَلَــمْ أَتْــرُكْ لِنَفْسِــكَ رِيبَــةً   ولَيْــسَ وراءَ اللهِ لِلْمَــرْءِ مَهْــرَبُ

ويؤيد رأيَ الطبريِّ قطرب وأبو عبيدة أيضاً، وكذلك الزمخشري إذ قال: معناها: من بين يديه وأنشد:

عَســى الكَــرْبُ الــذي أَمْسَيْــتُ فيــهِ   يكــونُ وراءَهُ فَــرَجٌ قَــرِيــبُ

وقال الشاعر:

أَلَيْــسَ ورائــي إنْ تَــراخَــتْ مَنِيَّتِــي   لُزومُ الْعَصَا نَحْني عَلَيْهَا الأصابع ؟

وقال أبو عبيدة، والأزهري: «وراء» من الأضداد، وقال ثعلب: هي اسمٌ لما توارى عنك سواءٌ كان أمامك أم خلفك. وقيل: المعنى: من خَلْفِهِ، أي في طلبه، كما تقول: الأمر من ورائك، أي: سوف يأتيك.

(٣) يعني لمَّا كان بدل الماءِ أُطلق عليه ماءٌ.



وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ عبارة عن صعوبة أَمْرِهِ عليهم[١]، وَيُرْوى أَن الكافر يؤتى بالشربة من شراب أَهل النار فيتكرهها، فإِذا أُدْنيت منه شوت وجهه وسقطت فيها فروة رأْسه، فإِذا شربها قطعت أَمعاءَه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الخبر مفرق في آيات من كتاب الله[٢].

وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أَي مِن كلِّ شعرةٍ في بدنه، قاله إِبراهيم التيمي، وقيل: من جميع جهاته الست، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، أَي: لاَ يُرَاحُ بالموت. وباقي الآية كأَوَّلها، ووصْف العذاب بالغليظ مبالغة، وقال الفضيل بن عياض: العذابُ الغليظ: حبْسُ الأَنفاس في الأَجساد، وقيل: إِنَّ الضمير في ﴿وَرَآئِهِۦ﴾ هنا هو العذابُ المتقدم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

اخْتُلِف في الشيءِ الذي ارتفع به ﴿مثَلُ﴾، فمذهب سيبويه أَن التقدير: فيما يُتلى عليكم، أَوْ يُقَصُّ مثلُ الذين كفروا، ومذهب الكسائي والفراءُ أَنه ابتداءٌ وخبره ﴿كَرمادٍ﴾، والتقدير عندهم: مَثَلُ الذين كفروا كرمادٍ، وقد حكي عن الفراءِ أَنه يرى إِلغاءَ ﴿مثَل﴾، وأَن المعنى: الذين كفروا أَعمالهم كرماد، وقيل: هو ابتداءٌ، و﴿أَعْمَالُهُم﴾ ابتداءٌ ثان، و﴿كَرَمَادٍ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأَول، وهذا عندي أَرجح الأَقوال، وكأَنك قلت:

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ معناه عند الفراء: «فهو يُسيغه»، قال: «والعرب تجعل «لا يكاد» فيما قد فُعل، وفيما لم يُفعل، فأما ما قد فُعل فهو بيِّن هنا من ذلك، لأن الله عزَّ وجلَّ يقول لِمَا جعله لهم طعاماً: ﴿إن شجرة الزقوم، طعام الأثيم، كالمهل يغلي في البطون﴾، فهذا أيضاً عذاب في بطونهم يسيغونه، وأما ما دخلت فيه (كاد) وهو لم يفعل فكقولك: ما أتيته ولا كِدت، وكقوله تعالىٰ: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فهو لا يراها، لأنها لا تُرَى فيما هو دون هذا من الظلمات، وكيف بظلمات قد وصفت بأشد الوصف».

(٢) منها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

المُتَحَصّل في النفس الذين كفروا، هذه الجملة المذكورة، وهي: أعمالهم كرمادٍ، وهذا يطَّرد عندي في تقدير قوله تعالىٰ: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، وشُبِّهت أعمال الكفرة ومساعيهم ـ في فسادها وقت الحاجة وتلاشيها ـ بالرماد الذي تذروه الريح وتفرقه لشدتها، حتى لا يبقى أثر، ولا يجتمع منه شيءٌ، ووصَف اليومَ بالعَصُوف وهي من صفة الريح بالحقيقة لمَّا كانت في اليوم، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وَقَدْ لُمْتِنَا يا أُمَّ غيلاَنَ في السُّرَى ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِم[1]

ومنه قول الآخر:

* يَوْمَيْنِ غَيْمَيْنِ وَيَوْماً شَمْساً *[2]

---

(١) هذا البيت لجرير، وهو في الديوان ٥٥٤، والخزانة ١ـ٢٢٣، وابن الشجري ١ـ٣٦، ٣٠١، والإنصاف ١٥١، والكامل ٧٠٠، وسيبويه ١ـ١٦٠، وأم غيلان هي بنت جرير، والسُّرى: سير الليل، والمطيُّ: جمع مطية، وهي الراحلة يُمتطى ظهرها، أي يُركب، وأراد: ليْلَ رُكَّاب المطيِّ، يقول: دعي عنك اللوم، فنحن لما نرجو من غِبِّ السُّرَى لا نصغي إلى لومك وعذلك، والشاهد فيه وصف الليل بالنوم اتساعاً ومجازاً.

(٢) البيت من الرَّجز، وقد أنشده الفراءُ في «معاني القرآن»، قال: «جعل العُصُوف تابعاً لليوم في إعرابه، وإنما العُصوف للريح، وذلك جائز على وجهين: أحدهما أن العصوف وإن كان للريح فإن اليوم يوصف به لأن الريح فيه تكون، فجاز أن تقول: «يومٌ باردٌ ويومٌ حارٌّ»، وهنا وصف اليومين بالغيمين، وإنما يكون الغيم فيهما، والوجه الآخر أن يريد: في يوم عاصف الريح، فتحذف الريح لأنهاقد ذكرت في أول الكلمة، كما قال الشاعر:

وَيُضْحِكُ عِرْفَانُ الدُّروعِ جُلُودَنَا ... إذا جاءَ يَوْمٌ مُظْلِمُ الشَّمْسِ كاسِفُ

يريد: كاسف الشمس.

هذا وقد نقل الطبري أن هذا من نعْت الريح خاصة، «غير أنه لما جاءَ بعد اليوم أتبع إعرابه، وذلك أن العرب تُتْبع الخفضَ الخفضَ في النعوت، كما قال الشاعر:

تُرِيكَ سُنَّةَ وَجْهٍ غَيْرِ مُقْرِفَةٍ ... مَلْسَاءَ لَيْسَ بها خالٌ ولا نَدبُ

فخفض «غير» إتباعاً لإعراب «الوجه»، وإنما هي من نعت «السُّنَّة»، والمعنى: «سُنَّة وجه غَيْرَ مقرفة»، وكما قالوا: «هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ» اهـ، فقد أتبعوا «خرب» لـ «ضَبٍّ» في الإعراب، وهو في الحقيقة صفة للْجُحْر، وإن كان ابن جني قد جعل كلمة «خَرِبٍ» نعتاً سببياً لـ «ضَبٍّ» المجرور، وفاعله محذوفاً، فيكون التقدير: «خرب جُحْرُه»، وعلى هذا فلا شذوذ في: المثال، والمسألة مشهورة بين النحويين. «راجع الخصائص لابن جني».

فأعمال الكفرة لتلاشيها لا يقدرون منها على شيءٍ، وقرأ نافع وحده، وأبو جعفر: [الرِّيَاحُ]، والباقون: ﴿الرِّيحُ﴾ بالإفراد، وقد تقدم هذا ومعناه مستوفىً بحمد الله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم بهذه الحالة، وعلى مثل هذا الغَرَر، و﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾: الذي قد تعمق فيه صاحبه وأبْعَد عن لا حب النجاة. وقرأ ابن أبي إسحاق، وإبراهيم النَّخَعي، وابن أبي بكر[1]: [فِي يَوْمِ عَاصِفٍ] بإضافة «يوم» إلى «عاصف»، وهذا بيّن.

وقرأ السُّلَمي: [أَلَمْ تَرْ] بسكون الراءِ، بمعنى: «أَلم تعلم»، من رؤْية القلب، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿خلق السموات﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: [خالق السمٰوات]، فوجه الأول أنه فعل قد مضى فذكر ذلك، ووجه الثاني أنه كـ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] و﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾[3]، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بما يحق في وجوده من جهة مصالح عباده، وإنفاذ سابق قضائه، ولتدلَّ عليه وعلى قدرته، ثمَّ تَوَعَّدَ تبارك وتعالىٰ بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي يعدمكم ويطمس آثاركم. وقوله: ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يصح أن يريد: من فرق بني آدم، ويصح غير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بممْتَنع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ معناه: صاروا بالبراز، وهي الأرض المتسعة كالبَراح والعَراءِ والخَبارِ[4]، فاستعير ذلك ليوم القيامة، وقوله: ﴿تَبَعًا﴾ يحتمل أن يكون

---

(١) الذي أثبته أبو حيان في «البحر المحيط» أن هذه القراءة لابن أبي إسحق، وإبراهيم بن أبي بكر، فتأمل الفرق.

(٢) من الآية (١) من سورة (فاطر).

(٣) من الآية (٩٥) من سورة (الأنعام).

(٤) الخَبارُ من الأرض: مالان واسترخى وساخت فيه قوائم الدوابّ، ويقال في المثل: «من تَجَنَّبَ الخَبارَ، أمِنَ العِثَار»، (المعجم الوسيط ـ خَبَر).



مصدراً فيكون على نحو قولهم: «يوم عدل ويوم حرب»، ويحتمل أَن يكون جمع «تابع» على نحو «غايبٌ وغَيَبٌ»، وهو تأْويل الطبري.

وفسَّر الناس ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ بالأَتْباع، و«المستكبرين» بالقادة وأَهل الرأْي، وقولهم: ﴿مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ من الغَناء، وهي المنفعة التي تكون من الإِنسان للآخر في الدفاع وغيره.

والأَلِف في قوله: ﴿أَجَزِعْنَآ﴾ أَلِف التسوية وليست بأَلِف استفهام، بل هي كقوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا﴾[1]، و«الْمَحِيصُ»: المفرُّ والملجأُ، مأْخوذ من «حاص يحيص» إذا نفرَ وفرَّ، ومنه في حديث هرقل: (فحاصُوا حَيْصَة حُمُر الوحش إِلى الأَبواب[2]، وروي عن ابن زيد، وعن محمد بن كعب أَن أَهل النار يقولون: إِنما نال أَهلُ الجنة الرحمة بالصبر على طاعة الله تعالىٰ، فلنصبر، فيصبرون خمسمائة سنة فلا ينتفعون، فيقولون: فلنجزع، فيضجُّون ويصيحون ويبكون خمسمائة سنة أُخرى فلا ينتفعون، فيقولون هذا القول الذي في الآية[3]، وظاهر الآية أَنهم يقولونها في موقف العرض وقت البروز بين يدي الله تبارك وتعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

المراد ها هنا «بالشيطان» إِبليس الأَقدم نفسه، وروي في حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام من طريق عقبة بن عامر أَنه قال: (يقوم يوم القيامة خطيبان: أَحدهما إِبليس، يقوم في الكفرة بهذه الأَلفاظ، والثاني عيسى بن مريم عليه السلام، يقوم

---

(١) من الآية (٦) من سورة (البقرة).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب «بدءُ الوحي»، وفي تفسير سورة النساء، وأخرجه أبو داود، والترمذي في الجهاد، وهو حديث طويل. (راجع البخاري).

(٣) أخرجه ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية، وأخرج مثله ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن كعب بن مالك رضي الله عنه، رفعه إلى النبي ﷺ فيما أحسب في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قال: يقول أهل النار... إلخ الحديث. (الدر المنثور).

بقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦ﴾ الآية[١] وقال بعض العلماءِ: يقوم إِبليس خطيب السوءِ الصادق بهذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فعلى معنى هذه الروايات يكون معنى قوله تعالىٰ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أَيْ: تعيَّن قومٌ لدخول النَّار، وقومٌ لدخول الجنَّة، وذلك كله في الموقف.

ورُوي في حديث أَن إِبليس إِنما يقوم بهذه الأَلفاظ في النَّار على أَهلها عند قولهم: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ في الآية المتقدمة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فعلى هذه الرواية يكون معنى قوله تعالىٰ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أَي: حصل أَهل النار في النَّار، وأَهل الجنَّة في الجنَّة، وهو تأْويل الطبري. و«قُضِيَ» قد يُعبَّر بها في الأُمور عن فعل كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾[٢]، وقد يُعبَّر بها عن عزم على أَن يفعل كقوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[٣].

و«الْوَعْد» في هذه الآية على بابه في الخير، أَي أَن الله وعدهم النعيم إِنْ آمنوا، ووعدهم إِبليسُ الظفر والأَمل إِنْ كذَّبوا، ومعلوم اقتران وعد الله بوعيده، واتَّفق أَن لم يَتَّبعوا طلب وعد الله فوقعوا في وعيده، وجاءَ من ذلك كأَن إِبليس أَخلفهم.

والسلطان: الحُجَّة البيِّنة، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ استثناءٌ منقطع[٤]، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب، ويصح أَن تكون في موضع رفع على معنى: إلا أَن النائب عن السلطان

---

(١) أخرج ابن المبارك في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر بسند ضعيف عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا جمع الله الأولين والآخرين وقضى بينهم وفرغ من القضاء يقول المؤمنون قد قضى بيننا ربنا وفرغ من القضاء) وهو حديث طويل يأتي فيه أيضاً قول الكافرين وجدالهم مع إبليس. أما النَّص الذي ذكره ابن عطية فقد أخرجه ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (هود).

(٣) من الآية (٤١) من سورة (يوسف).

(٤) لأن دعاءَه إياهم ليس من جنس السلطان وهو الحجة البيِّنة، وقيل: هو استثناءٌ متصل، لأن القدرة على حمل الإنسان على الشيء تارة تكون بالقهر من الحامل، وتارة تكون بتقوية الداعية في قلبه، وذلك بإلقاء الوساوس إليه، فهذا نوع من التسلط.

أَنْ دعوتكم، فيكون هذا في المعنى كقول الشاعر:

. . . . تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[(١)]

ومعنى قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ أَي: رأَيتم ما دعوتكم إِليه ببصيرتكم، واعتقدتموه الرأْي، وأَتى نظركم عليه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذكر بعض الناس أَن هذا المكان يبطل منه التقليد، وفي هذه المقالة ضعف على احتمالها، والتقليد وإِن كان باطلاً ففساده من غير هذا الموضع.

ويحتمل أَن يريد بالسلطان في هذه الآية الغلبة والقدرة والملك، أَي: ما اضطررتكم ولا خوفتكم بقوة منِّي، بل عرضت عليكم شيئاً فأَتى رأْيكم عليه.

وقوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ يريد بزعمه: إِذ لا ذنب لي، ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ في سوءِ نظركم وقلَّة تثبتكم، فإِنكم إِنما أَتيتم اتباعي عن بصيرة منكم وتكسُّب. و«المُصْرِخ»: المغيث، والصَّارِخُ: المستغيث. ومنه قول الشاعر:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ ... كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعَ الظَّنَابِيبِ[(٢)]

فيقال: «صرخ الرَّجُل وأَصرخ غيره»، وأَما «الصَّرِيخُ» فهو مصدر بمنزلة البريح[(٣)]،

---

(١) والضرب ليس من جنس التحية، وكأن الشيطان قال ذلك لهم مبالغة في نفيه للسلطان عن نفسه، كأنه قال: إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاءِ من السلطان، وليس منه قطعاً، هذا والشعر لعمرو بن معديكرب الزبيدي. والبيت بتمامه:

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْلٍ ... تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

(٢) البيت لسَلامة بن جَنْدل، وهو شاعر جاهلي مقلّ، من شعراء الطبقة الثانية، وهو فارس من فرسان تميم المعدودين، والبيت من قصيدة له يرثي فيها شبابه وما كان فيه من فروسية، ويقول في مطلعها:

أَوْدَى الشبابُ حميداً ذُو التَّعاجِيبِ ... أَوْدَى، وذلِك شَأْوٌ غَيْرُ مَطْلُوبِ

والظَّنَابيب: جمع ظُنْبُوب وهو عظم الساق، وقرع الظنبوب هو أن يضرب الرجل ظنبوب البعير ليتنوخ له فيركبه، والمراد هنا سرعة الإجابة، لأنهم يستجيبون للمستغيث الصارخ بإناخة الجمال للركوب، فإذا تأخرت قرعوا ظنابيبها لتبرك بسرعة.

(٣) يقال: قولٌ بريحٌ: مُصَوَّبٌ به، قال الهُذَلِيّ:

فَإِنَّ ابْنَ تُرْنَى إِذَا جِئْتُكُمْ ... يُدَافِعُ عَنِّي قَوْلاً بَرِيحَا

ويوصف به كما يقال: «رجلٌ عَدْلٌ» ونحوه.

وقرأ حمزة، والأعمش، وابن وثاب: [بِمُصْرِخِيِّ] بكسر الياءِ تشبيهاً بياءِ الإضمار في قوله: بمصرخيه، وردَّ الزجاج هذه القراءَة وقال: هي رديئة مرذولة[1]، وقال فيها القاسم بن معن: إنها صواب، ووجهها أَبو علي، وحكى أَبو حاتم أَن أَبا عمرٍو حسَّنها، وأَنكر أَبو حاتم ذلك على أَبي عمرٍو[2].

وقوله: ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾ أَي: مع الله في الطاعة التي ينبغي أَن يُفْرد الله بها، فـ [ما] مصدرية، وكأَنه يقول: إني الآن كافر بإشراككم إياي مع الله قبل هذا الوقت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا تبرٍّ منه، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾[3]، ويحتمل اللفظ أَن يكون إقراراً على نفسه بكفره الأَقدم، فتكون [ما] بمعنى الَّذي، يريد «الله»

---

(١) في بعض النسخ: هي رديَّةٌ مردودة.

(٢) وقع خلاف كبير بين العلماء في هذه القراءة، قال الفراءُ: «لعلَّها من وهم القراءِ طبقة يحيى، فإنه قلَّ من سلم منهم من الوهم، ولعلَّه ظن أن الباءَ في [بِمُصْرِخِيِّ] خافضة للحرف كله، والياءُ من المتكلم خارجة من ذلك»، وقال أبو عبيد: «نراهم غلطوا ظنوا أن الباءَ تكسر ما بعدها»، وقال الأخفش: «ما سمعتُ هذا من أحد من العرب ولا من النحويين»، وقال النحاس: «صار هذا إجماعاً، ولا يجوز أن يحمل كتابُ الله على الشذوذ»، وحاول الزمخشري ـ مع اعترافه بضعفها ـ أن يستشهد لها بيت مجهول (وقيل هو للأغلب العجلي):

قَــالَ لَهــا هَــلْ لَــكِ يــا تــافِــيِّ ... قَــالَــتْ لَــهُ مــا أنْــتَ بــالْمَــرْضِــيِّ

كأن الشاعر قدر ياءَ الإضافة ساكنة وقبلها ياءٌ ساكنة، فحركها بالكسر لما عليه أصل التقاءِ الساكنين، قال الزمخشري: «ولكن هذا غير صحيح، لأن ياءَ الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف نحو عصاي، فما بالها وقبلها ياءٌ؟»، وقال القاسم بن معن عن هذه القراءة: هي صوابٌ، وسأل حسين الجعفي أبا عمرو بن العلاءِ وذكر تلحين أهل النحو، فقال: «هي جائزة»، قال أبو حيان الأندلسي: «ولا التفات إلى إنكار أبي حاتم على أبي عمرو تحسينها، فأبو عمرو إمامُ لغة، وإمامُ نحو، وإمامُ قراءة، وعربي صريح، وقد أجازها وحسَّنها، وقدَّروا بيت النابغة:

علــيَّ لعمــرٍو نِعْمَــةٌ بَعْــدَ نِعْمَــةٍ ... لِــوالــدِهِ لَيْسَــتْ بِــذَاتِ عَقَــارِب

بخفض الياءِ من «عَلَيِّ».

(٣) من الآية (١٤) من سورة (فاطر). ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾.



تعالىٰ، أَي: خطيئتي قبل خطيئتكم فلا إِصراخ عندي[(١)]، وباقي الآية بيِّن.

وقرأ الجمهور: ﴿وَأُدْخِلَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأ الحسن: [وَأُدْخِلُ] على فعل المتكلم، أَي: يقولها الله تعالىٰ[(٢)]، وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أَي: من تحت ما عَلا منها كالغُرف والمباني والأَشجار وغيره، و«الخلود» في هذه الآية على بابه في الدوام، و«الإِذْنُ» هنا عبارة عن القضاءِ والإِمضاءِ. وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مصدر مضاف إِلى الضمير، فجائز أَن يكون الضمير للمفعول، أَي: تُحَيِّيهم الملائكة، وجائز أَن يكون الضمير للفاعل، أَي: يُحَيِّي بعضُهم بعضاً، و﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ رفع بالابتداءِ، و﴿سَلَامٌ﴾ ابتداءٌ ثانٍ وخبره محذوف تقديره: عليكم، والجملة خبر الأَول، والجميع في موضع الحال من الضمير في ﴿خَالِدِينَ﴾، أَو يكون صفةً لـ ﴿جَنَّاتٍ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى: أَلم تعلم، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول لـ ﴿ضَرَبَ﴾، و﴿كَلِمَةً﴾ مفعول أَول بها، و«ضَرَبَ» هذه تتعدى إِلى مفعولين، لأَنها بمنزلة «جَعَل» ونحوه، إِذ معناها، جعل ضربها، وقال المهدوي: ﴿مَثَلًا﴾ مفعول، و﴿كَلِمَةً﴾ بدل منها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على أَنها تتعدى إِلى مفعول واحد، وإِنما أَوهم في هذا قلة التحرير في

---

(١) يَردُ على هذا القول أن فيه إطلاق (ما) على الله تعالىٰ، و(ما) الأصح فيها أنها لا تطلق على آحاد من يعلم ويعقل.

(٢) تثير هذه القراءة سؤالاً هو: فيمَ يتعلق قوله تعالىٰ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؟ لأن قوله: «أُدْخِلُهُمْ أنا بإِذْنِ ربِّهم» كلام غير ملتئم، وكان الظاهر أن يقال: أُدخِلُهم بإِذني. وحاول الزمخشري أن يجيب عن ذلك فقال: «الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بما بعده، أي: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ بإذن ربهم، يعني أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم». وقال أبو حيان الأندلسي: «معنى كلام الزمخشري أن قوله ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ معمول لقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾، ولذلك قال: «إن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم»، وهذا لا يجوز، لأن فيه تقديم معمول المصدر المنحل بالفعل وبحرف مصدري عليه، وهو غير جائز».

«ضرب» هذه. والكاف في قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: مشبهة بشجرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: الكلمة الطيبة هي «لا إلـه إلا الله»، مثَّلها الله بالشجرة الطيبة وهي النخلة في قول أكثر المتأولين، فكأن هذه الكلمة أصلها ثابت في قلوب المؤمنين، وفضلها وما يصدر عنها من الأفعال الزكية والخبيثة وما يتحصل عليها من عفو الله ورحمته هو فرعها يصعد إلى السماءِ من قِبَل العبد، ويتنزل منها مِنْ قِبَل الله تبارك وتعالىٰ. وقرأ أنس بن مالك: «ثابِتٌ أَصْلُهَا»[1]، وقالت فرقة: إنما مثَّل الله بالشجرة الطيبة المؤمنَ نفسه، إذ الكلمة الطيبة لا تقع إلا منه، فكأن الكلام: كلمة طيبة قائلها، وكأن المؤمن ثابت في الأرض، وأفعاله وأقواله صاعدة، فهو كشجرة فرعها في السماءِ، وما يكون أبداً من المؤمن من الطاعة أو على الكلمة من الفضل والأجر والغفران هو بمثابة الأكل الذي تأتي به كل حين، وقوله عن الشجرة: ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في الهواءِ نحو السماءِ، وهذا كما تقول عن المستطيل: نحو الهواءِ، وفي الحديث: «خُلَق الله آدم طوله في السماءِ ستون ذراعاً»[2]، والقيدودة: الطويل في غير سماءٍ[3].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنه انقاد وامتد، وقال أنس بن مالك، وابن مسعود، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد: الشجرة الطيبة في هذه الآية: النخلة، ورُوي في ذلك

---

(١) في هذه القراءة أُجريت الصفة على الشجرة لفظاً وإن كانت في الحقيقة للسَّبَبِيّ، أما في قراءة الجماعة فإن الثبوت أُسند إلى السَّبَبِيِّ لفظاً ومعنى.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأخرجه الإمامان البخاري ومسلم، عن أبي هريرة، ولفظه كما في «الجامع الصغير»: (خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذارعاً، ثم قال: اذهب فسلِّم على أُولئك النَّفر ـ وهم نفر من الملائكة جلوس ـ فاستَمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه «ورحمة الله»، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم في طوله ستون ذراعاً، فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن)، وقد رمز له السيوطي بالصحة.

(٣) اختلفت الأصول في هذه الجملة، ففي بعضها: «في سماءٍ»، وفي بعضها: «في غير سماءٍ»، كما أن كلمة «القيدودة» كتبت بالدال في بعض النسخ، وبالراءِ في نسخ أُخرى.



أَحاديث[١]، وقال ابن عباس أَيضاً: هي شجرة في الجنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن تكون شجرة غير معينة إِلا أَنها كل ما اتَّصف بهذه الصفات[٢] فيدخل فيه النخلة وغيرها، وقد شبَّه الرسول عليه الصلاة والسلام المؤمنَ الذي يقرأُ القرآن بالأُتْرُجَّة[٣]، فلا يتعذر أَن يُشَبَّه أَيضاً بشجرتها، و«الأكل»: الثَّمر، وقرأَ عاصم وحده: ﴿أُكُلَهَا﴾ بضم الكاف.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، الحينُ في اللغة: القطيع من الزمان غير محدود، كقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[٥]،

---

(١) منها ما روي عن أنس رضي الله عنه، قال: أُتي رسول الله ﷺ بقِناع من بسر ـ والقِناع: الطبق من عسب النخل يوضع فيه الطعام والفاكهة ـ فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: هي النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ حتّى بلغَ ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ قال: هي الحنظلة. أخرجه الترمذي، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وغيرهم، ومنها ما أخرجه البخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: أخبروني بشجرة مثل الرجل المسلم، لا يتحات ورقها، وتؤْتي أُكلها كل حين بإذن ربها، قال عبد الله رضي الله عنه: فوقع في نفسي أنها النخلة، فأردت أن أقول: هي النخلة، فإذا أنا أصغر القوم، وثمَّ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما لم يتكلما بشيءٍ قال رسول الله ﷺ: هي النخلة.

(٢) وصفت هذه الشجرة بصفات أربع: الأولى أنها طيبة، أي: كريمة المنبت، والثانية رسوخ أصلها، وهذا يدل على تمكنها، وعلى أن الرياح لا تقصفها، وهي لهذا طويلة العمر، والثالثة عُلوّ فرعها، وذلك يدل على رسوخ عروقها في الأرض، والرابعة أن ثمرها دائم مستمر، وأن عطاءها لا ينقطع، فهي تعطي جناها في كل وقت أراده الله سبحانه.

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة، وفي فضائل القرآن، وفي التوحيد، وأخرجه مسلم في المسافرين، وأبو داود في الأدب، وكذلك الترمذي، والنسائي في الإيمان، وابن ماجه في المقدمة، والدارمي في فضائل القرآن، والإمام أحمد في مسنده (٤ـ٣٩٧، ٤٠٤، ٤٠٨)، ولفظه كما في البخاري في كتاب «فضائل القرآن» عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: (مثل الذي يقرأُ القرآن كالأُتْرُجَّة، طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأُ القرآن كالتَّمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأُ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مُرٌّ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأُ القرآن كمثل الحنظلة، طعمها مُرٌّ ولا ريح لها). والأُتْرُج: شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبيّ اللون، زكي الرائحة، حامض الماءِ. (المعجم الوسيط).

(٤) من الآية (١) من سورة (الإنسان).

(٥) الآية (٨٨) من سورة (صٓ) وهي آخر السورة.



وقد تقتضي لفظة «الحين» بقرينتها تحديداً كقوله في هذه الآية: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحَكَمُ، وحَمَّاد، وجماعة من الفقهاءِ، قالوا: من حلف لا يفعل شيئاً حيناً فإنه لا يفعله سنة، واستشهدوا بهذه الآية: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أَي: كل سنة، وقال ابن عباس، وعكرمة، والحسن: أَي كل ستة أَشهر، وقال ابن المُسَيَّب: الحينُ: شهران، لأَن النخلة تدوم مثمرة شهرين، وقال ابن عباس أَيضاً والضحاك، والربيع بن أَنس: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ أَي: كل غدوة وعشية ومتى أُريد جناها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهكذا يشبهها المؤمن الذي هو في جميع أَيامه في عمل، والكلمة التي أَخرجها والصادر عنها من الأَعمال مستمر، فيشبه أَن الله تعالىٰ إِنما شبَّه المؤمن أَو الكلمة بالشجرة في حال إِثمارها، إِذ تلك أَفضل أَحوالها، وتأْويل الطبري في ذلك أَن أُكُل الطلْع في الشتاءِ، وأَن أُكل الثمر في كل وقت من أَوقات العام هو إِتيانُ أُكُل وإِن فارق النخل، وإِن فرضنا التشبيه بها على الإِطلاق وهي إِنما تؤتي في وقت دون وقت فالمعنى: كشجرة لا تخل بما جعلت له من الإِتيان بالأُكل في الأَوقات المعلومة، فكذلك هو المؤمن لا يُخل بما يُسِّر له من الأَعمال الصالحة، أَو الكلمة لا تغيب بركتها والأَعمال الصادرة عنها، بل هي في حفظ النظام كالشجرة الطيبة في حفظ وقتها المعلوم، وباقي الآية بيِّن.

ومَن قال: «الحين سنة» راعَى أَن ثمر النخلة وجناها إِنما يأْتي كل سنة، ومن قال: «ستة أَشهر» راعى من وقت جَداد النخلة[1] إِلى حملها من الوقت المقبل، وقيل: إِن التشبيه وقع بالنخل الذي يثمر مرتين في العام، ومن قال: «شهرين» قال: هي مدة الجني في النخل، وكلهم أَفتى بقوله في الإِتيان على الحين[2].

وحكى الكسائي والفراءُ أَن في قراءَة أُبَيِّ بن كعب: «وضرب اللهُ مَثَلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ»[3]، والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر وما قاربها من الكلام السوقي في الظلم

---

(١) الجَداد: أوان قطع ثمر النخل.

(٢) يعني أن رأي كل واحد في معنى «الإتيان» متوقف على رأيه في معنى «الحين».

(٣) نصُّ عبارة الفراءِ كما هي في كتابه «معاني القرآن»: «وهي في قراءَة أُبي: (،ضَرَبَ مَثَلاً كلمةً خَبيثَة) كشجرة خبيثة، وكلٌّ صواب». أي بدون إضافة كلمة «مثل» إلى «الكلمة».

ونحوه، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، قال أكثر المفسرين: شجرة الحنظل، قاله أنس بن مالك، ورواه عن النبي ﷺ[١]، وهذا عندي على جهة المثال، وقالت فرقة: هي الثَّوْم، وقال الزجاج: هي الكَشُوثَا[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذه الأقوال من الاعتراض أن هذه كلها من النَّجْم[٣]، وليست من الشجر، والله تعالىٰ إنَّما مثَّل بالشجرة، فلا تسمى هذه بشجرة إلاَّ بتجوز، فقد قال عليه الصلاة والسلام في الثوم والبصل: (من أكل من هذه الشجرة)[٤]، وأيضاً فإن هذه كلها ضعيفة وإن لم تخبث، اللهم إلا أن نقول: اجتثت بالخلقة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالىٰ ولم يخلق هذه الشجرة على وجه الأرض». والظاهر عندي أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة إذا وجدت فيها هذه الأوصاف، فالخبث هو أن تكون كالعضاة أو كشجرة السموم ونحوها إذا اجتثت، أي اقتلعت جثتها بنزع الأصول، وبقيت في غاية الوهن والضعف فتقلبها أقل ريح، فالكافر يرى أن بيده شيئاً، وهو لا يستقر ولا يغني عنه، كهذه الشجرة التي يُظَن بها على بعد ـ أو للجهل بها ـ أنها شيءٌ نافع، وهي خبيثة الجنى غير باقية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ

---

(١) راجع الحديث الذي رُوي عن أنس رضي الله عنه في أن المراد بالشجرة الطيبة النخلة، هامش رقم (١) ص(٢٤٤) من هذا المجلد.

(٢) قال عنها أبو حيَّان في تفسيره «البحر المحيط»: «هي شجرة لا ورق لها ولا أصل»، يقال: هي كَشُوثٌ، أي: لا أصل ولا ثمر. وقال الشاعر:

وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصْلٌ ولا وَرَقٌ ... ولا نَسِيمٌ ولا ظِلٌّ ولا ثَمَرُ

(٣) النَّجْم من النَّبات: ما لا ساقَ له، ويقال: ليس لهذا الشيءِ نَجْمٌ، أيْ أصْل.

(٤) الذي رواه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه هو: (مَن أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا، وليعتزل مسجدنا، وليقعد في بيته)، وهذا ما نقله السيوطي عنهما في «الجامع الصغير»، وقال: هو حديث صحيحٌ، ولا يوجد في اللفظ الذي رواه كل منهما كلمة «شجرة»، ولعلها موجودة في رواية غيرهما.

ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

القولُ الثابت في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة كلمة الإِخلاص والنجاة من النار «لا إلـٰه إلا الله» والإِقرار بالنبوة، وهذه الآية تعم العالم من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة. وقال طاوس، وقتادة، وجمهور من العلماء: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هي مدة حياة الإِنسان، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هي وقت سؤاله في القبر، وقال البراءُ بن عازب وجماعة: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هي وقت سؤاله في قبره، ورواه البراءُ عن النبي ﷺ في لفظ مُتأَوَّل[1]، لأن ذلك في مدة وجود الدنيا، وقوله: ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هو يوم القيامة عند العرض. والأول أحسن، ورجَّحه الطبريُّ.

و«الظَّالِمُونَ» في هذه الآية: الكافرون، بدليل أنه عادل بهم المؤمنين، وعادل التثبيت بالإِضلال، وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ تقرير لهذا التقسيم المتقدم، وكأَن امرءاً رأَى التقسيم فطلب في نفسه علَّته فقيل له: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ بحق الملك، وفي هذه الآية ردٌّ على القدرية. وذكر الطبريُّ في صفة مُساءَلة العبد في قبره أَحاديث منها ما وقع في الصحيح، وهي من عقائد الدين، وأَنكرت ذلك المعتزلة، ولم تقل بأَن العبد يُسأَل في قبره، وجماعة السنة تقول: إن الله يخلق له في قبره إدراكات وتحصيلاً، إما بحياة كالمتعارفة وإما بحضور النفس وإن لم تتلبس بالجسد كالعرف، كل هذا جائز في قدرة الله تعالىٰ، غير أَن في الأَحاديث أَنه يسمع خفق النعال، ومنها أَنه يرى الضوءَ كالشمس دنت للغروب، وفيها: أَنه يراجع، وفيها: فتعاد روحه إلى جسده، وهذا كله يتضمن الحياة، فسُبْحَانَ ربِّ هذه القدرة.

---

(١) الحديث جاء موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء، قال القرطبي: والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم، وكتاب النسائي، وأبي داود، وابن ماجه، وغيرهم، وذكر البخاري بسنده عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: (إذا أُقعد المؤمن في قبره أَتاهُ آتٍ، ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، وقيل: معنى يُثَبِّت: يُديمهم الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

يُثَبِّتُ الله مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسى ونَصْراً كالَّذي نُصِرَا

وليس في الحديث ما يفيد أن الحياة الدنيا هي في القبر، وأن الآخرة هي يوم القيامة، وليس فيه أيضاً ما يفيد العكس، ولهذا قال ابن عطية: «في لفظ مُتأَوَّل».



وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾، هذا تنبيه على مثال من الظالمين، والتقدير: بدَّلوا شكر نعمة الله كفراً، وهذا كقوله سبحانه: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾[(١)]، ونعمة الله المشار إليها في هذه الآية هو محمد عليه الصلاة والسلام ودينه، أنعم الله به على قريش فكفروا النعمة ولم يقبلوها وتبدلوا بها الكفر، والمراد بالذين كفروا قريشٌ جملة، وهذا بحسب ما اشتهر من حالهم، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم. وروي عن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب أنها نزلت في الأَفْجَرَيْنِ من قريش: بني مخزوم وبني أُمية، قال عمر: فأَما بنو المغيرة فكفوا يوم بدر[(٢)]، وأَما بنو أُمية فمُتِّعوا إِلى حين، وقال ابن عباس: هذه الآية في جَبَلَة بن الأَيْهَم[(٣)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم يُرد ابن عباس أَنها فيه نزلت، لأَن نزول الآية قبل قصته، وإنما أَراد أَنها تخص مَنْ فَعَلَ فِعْلَ جَبَلَة إِلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿ وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ أَي: من أَطاعهم وكان معهم في التبديل، فكأَن الإشارة والتعنيف إنما هو للرؤُوس والأَعلام، و[الْبَوَار] الهلاك، ومنه قول سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي ... راتِقٌ ما فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ[(٤)]

---

(١) الآية (٨٢) من سورة (الواقعة)، والتقدير فيها: وتجعلون شكر رزقكم.

(٢) الكلام عن بني مخزوم، والمراد أن الله أهلكهم يوم بدر وكفى المؤمنين شرَّهم.

(٣) في الأصول كلها: «جبلة بن إبراهيم»، وهو خطأ واضح من النساخ، والصواب ما أثبتناه، وله قصة معروفة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أسلم، وأكرم عمر مقدمه، وخرج للحج مع عمر، فوطىء فزاري إزاره في الطواف، فضربه جبَلَة فهشم أنفه، فلما شكاه إلى عمر رضي الله عنه قال عمر: لا بد من القود، قال: هو من السوقة وأنا ملك، قال عمر: الإسلام سوى بينكما، قال: إذاً أتنصر، قال عمر: أضرب عنقك لأنك مسلم مرتد، فلما رأى الجد في كلام عمر رضي الله عنه هرب مع قومه إلى الشام وتنصر وعاش حزيناً نادماً في بلاط الروم.

(٤) نسبه في (اللسان) إلى عبد الله بن الزِّبعرى السهمي، وكذلك في سيرة ابن هشام أنشده ونسبه إلى ابن الزِّبعرى ضمن أبيات قالها حين قدم على النبي ﷺ، وكان هارباً منه في نجران، وقد ذكر ابن عطية أن الطبريّ وغيره ينسبون البيت أيضاً لابن الزِّبعرى، والرَّاتق: الذي يصلح ما تمزق من الثوب، وفَتَق: شقَّ وقطع، والمراد هنا ما أحدث في الدين، وما قاله من هجاء النبي بشعره، وهذا كله إثم يشبه الفتق في=

قاله الطبريُّ، وقال هو وغيره: إنه يُرْوى لابن الزِّبعرى، ويحتمل أن يريد بـ﴿الْبَوَارِ﴾ الهلاك في الآخرة ففسَّره حينئذ بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يحترقون في حرِّها ويحتملونه، ويحتمل أن يريد بـ[الْبَوَار] الهلاك في الدنيا بالقتل والخزي فتكون «الدار» قَلِيبَ بدر ونحوه. وقال عطاءُ بن يسار: نزلت هذه الآية في قتلى بدر، فيكون قوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ نصباً على حدِّ قولك: «زيداً ضربته» بإضمار فعل يقتضيه الظاهر، و﴿الْقَرَارُ﴾ موضع استقرار الإنسان.

و«الأنداد» جمع نِدٍّ، وهو المثل والشبيه المناوىء، والمراد الأصنام. واللام في قوله: [لِيُضِلُّوا] بضم الياءِ لام كي. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [لِيَضِلُّوا] بفتح الياءِ، أي هم أنفسهم، فاللَّام ـ على هذا ـ لام عاقبة وصيرورة، وقرأ الباقون بضمها، أي: يُضِلُّوا غيرهم. وأمْرُهم بالتمتع هو وعيد وتهديد على حدِّ قوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

العباد: جمع عبدٍ، وعرفه في التكرمة بخلاف العبيد[2]، وقوله: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾،

= الثوب، والتوبة رَتْقٌ وإصلاح له، وبورٌ: هالِكٌ، يقالُ: رجلٌ بورٌ، وكذلك الاثنان والجمع، وقد استشهد أبو عبيدة في «مجاز القرآن» بهذا البيت منسوباً إلى ابن الزِّبعرى على أن البوار معناه الهلاك، وأنه يقال منه: بار، يبور.

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فُصِّلت)، ومثلها في الوعيد والتهديد قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، هذا وقوله تعالىٰ: ﴿مَصِيرَكُمْ﴾ معناه: مرجعكم، فمصيركم مصدر من صار التامة بمعنى رجع، وخبر [إنَّ] هو قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾، ولا يقال هنا إن «صار» بمعنى انتقل ولذلك تعدى بإلى، لأنه بذلك تبقى [إنَّ] بدون خبر، قال أبو حيَّان في «البحر»: «ولا ينبغي أن يُدَّعى حذفه فيكون التقدير: فإن مصيركم إلى النار واقع لا محالة، أو كائنٌ، لأن حذف الخبر في مثل هذا التركيب قليل». ٥

(٢) في (اللسان): قال الأزهري: «اجتمع العامة على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك، فقالوا: هذا عبد من=



قالت فرقة مِن النحويِّين: جزْمه بإِضمار لام الأمر على حدِّ قول الشاعر:

مُحَمَّـدُ تَفْـدِ نَفْسَـكَ كُـلُّ نَفْـسٍ ....[1]

أنشده سيبويه، إِلا أنه قال: إِن هذا لا يجوز إِلا في الشعر، وقالت فرقة ـ أبو عليٍّ وغيره ـ: هو فعل مضارع جزم لما كان في معنى فعل أَمر، لأَن المراد: أَقيموا، وهذا كما يبنى الاسم المتمكن في النداءِ في قولك: «يا زيد»، لما شُبِّه بـ «قبل وبعد»[2]، وقال سيبويه: هو جواب شرط مقدر يتضمنه صدر الآية، تقديره: إِن تقل لهم: أَقيموا يقيموا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون جواب الأَمر الذي يعطينا معناه قوله: ﴿قُلْ﴾، وذلك بأَن تجعل ﴿قُلْ﴾ في هذه الآية بمعنى بَلِّغ وأَدِّ الشريعة يقيموا الصلاة[3]، وهذا كله على أَن المقول هو الأَمر بالإِقامة والإِنفاق، ويظهر أَن المقول هو الآية التي بعدُ، أَعني قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية. و«السِّرُّ» صدقةُ النَّفل، والعلانية الصدقةُ المفروضة، هذا هو مقتضى الأَحاديث، وفسَّر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية بزكاة الأَموال مجملاً، وكذلك فسَّر الصلاة بأَنها الخمس، وهذا عندي منه تقريب للمخاطب.

و«الْخِلاَل» مصدر من خالَلْت إِذا وَادَّ وصافى، ومنه الخُلَّة والخليل، قال امرؤ القيس:

= عباد الله، وهؤلاء عبيد مماليك»، وجعل بعضهم العباد لله، وغيره من الجمع لله وللمخلوقين.

(١) يقال: فدَيْتُهُ فِدَاءً وفِدىً، وافتديته، والبيت نُسب إلى أبي طالب، وحسَّان، والأعشى، وليس في ديوان أحد منهم، وهو في سيبويه، والخزانة، والعيني، والأشموني، وهو بتمامه:

مُحَمَّـدُ تَفْـدِ نَفْسَـكَ كُـلُّ نَفْـسٍ إِذَا مَـا خِفْـتَ مِـنْ شَـيْءٍ تَبَـالا

والمعنى: كل النفوس فداءٌ للنبي ﷺ، والشاهد فيه أن «تَفْدِ» مجزوم بإضمار لام الأمر، والتقدير: لِتَفْدِ نَفْسَك كلُّ نَفْسٍ. والتَّبال: سوءُ العاقبة.

(٢) ردَّ بعض العلماءِ هذا بقولهم: لو كان مضارعاً بلفظ الخبر ومعناه الأمر لبَقِي على إعرابه بالنون كقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، والمعنى: آمنوا بالله.

(٣) علَّق عليه أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط) بقوله: «هذا الذي ذهب إليه تفكيك للكلام يخالفه ترتيب التركيب، ويكون قوله: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كلاماً مفلتاً من القول ومعموله، أو يكون جواباً فُصل به بين القول ومعموله، ولا يترتب أن يكون جواباً لأن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لا يستدعي إقامة الصلاة والإنفاق إلا بتقدير بعيد جداً».

صَرَفْتُ الْهَوى عَنْهُنَّ مِن خَشْيَةِ الرَّدَى ولَسْتُ بِمَقْلِيِّ الْخِلاَلِ وَلاَ قَالِ(١)

وقال الأخفش: الخِلالُ جمع خُلَّة. وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة والكسائي، وابن عامر: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ بالرفع على إلغاءِ [لاَ]، وقرأ أبو عمرو، والحسن، وابن كثير: ﴿لَّا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلالَ﴾ بالنصب على التبرية، وقد تقدم هذا، والمرادُ بهذا اليوم يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية تذكير بآلاءِ الله، وتنبيه على قدرته التي فيها إحسانٌ إلى البشر؛ لتقوم الحُجَّة من وجهين، و﴿الله﴾ مبتدأً، و﴿ٱلَّذِي﴾ خبره، ومن أُخبر بهذه الجملة وتقررت في نفسه آمَن وصلَّى وأَنفق. و﴿ٱلسَّمٰوَاتِ﴾ هي الأَرقعة السبعة، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: السحاب. وقوله: ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يجوز أَن تكون ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، فيكون المراد بعض جنى الأَشجار، ويسقط ما كان منها سُمًّا أَو مجرداً للمضرات، ويجوز أَن تكون ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس كأَنه قال: فأَخرج به رزقاً لكم من الثمرات(٢)، وقال بعض الناس: ﴿مِنْ﴾ زائدة، وهذا لا يجوز عند سيبويه لكونها في الجواب، ويجوز عند الأَخفش، و«الْفُلْك» جمع فُلْك، وقد تقدم القول فيه مراراً.

وقوله: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ مصدر من أَمر يأْمُر، وهذا راجع إلى الكلام القائم بالذات، كقوله تعالىٰ للبحار وللأَرض وسائر الأَشياءِ: «كن» عند الإِيجاد، إنما معناه: كن بحال كذا، أَو على وتيرة كذا، وفي هذا تدريج دوران الفلك وغيره، وفي تسخير الفُلْك ينطوي تسخير البحر وتسخير الرياح، وأَما تسخير الأَنهار فتفجيرها في كل بلد وانقيادها للسقي وسائر المنافع.

و﴿دَائِبَيْنِ﴾ معناه: متماديين، ومنه قول النبي ﷺ لصاحب الجمل الذي بكى

---

(١) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله:

أَلا عِـمْ صَبَـاحـاً أيُّهـا الطَّلَـلُ البَـالـي وهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُرِ الخَالي

والمَقْلِيّ: المُبْغَض، والقالي: المُبْغِض، والخلال: الصفات، يقول: إنه لم يدع حبّ الحسان يتملكه خشية الهلاك، وهو يريد الهلاك بالشهوة والضنى والتَّيَتُّم، فإن هذا يقضي على الحبيب، ثم يقول: إنه لم ينصرف عنهن لسوءٍ في طباعه، بل نجاة من الهلاك.

(٢) قال أبو حيان: هذا ليس بجيد، لأن «مِنْ» التي لبيان الجنس إنما تأتي بعد المبهم الذي تُبَيِّنُهُ.



وأجهش إليه: (إن هذا الجمل شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه)[١] أي تديمه في الخدمة والعمل، وظاهر الآية أن معناه: دَائِبَيْنِ في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التي لا تُحصى كثرة، وحكى الطبريُّ عن مقاتل بن حيان ـ يرفعه عن ابن عباس ـ أنه قال: معناه: دائبين في طاعة الله، وهذا قول إن كان يُراد به أن الطاعة انقياد منهما في التسخير فذلك موجود في قوله: [سَخَّرَ]، وإن كان يُراد أنها طاعة مقصودة كطاعة العباد من البشر فهذا بعيد، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ للجنس من البشر، أي أن الإنسان بجملته قد أُوتي من كل ما شأنه أن يُسأل ويُنتفع به، ولا يطرد هذا في واحد من الناس، وإنما تفرقت هذه النعم في البشر، فيقال بحسب هذا للجميع: «أُوتيتم كذا» على جهة التعديد للنعمة، وقيل: المعنى: وآتاكم من كل ما سألتموه إن لو سألتموه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قريب من الأول، و[ما] في قوله سبحانه: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يصح أن تكون مصدرية، ويكون الضمير في قوله: [سَأَلْتُمُوهُ] عائداً على الله تبارك وتعالىٰ، ويصح أن تكون [مَا] بمعنى «الذي»، ويكون الضمير عائداً على «الذي»، وقرأ الضحاك بن مزاحم[٢]، وابن عباس: ﴿مِّن كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بتنوين [كُلٍّ]، وهي قراءَة الحسن، وقتادة، وسلام، ورويت عن نافع، والمعنى: وآتاكم من كل هذه المخلوقات المذكورات قبلُ ما شأنه أن يُسأل لمعنى الانتفاع به، فـ[مَا] في قوله: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ مفعول ثانٍ بـ[آتَاكُمْ]. وقال بعض الناس: [مَا] نافية على هذه القراءَة، أي: أعطاكم من كُلٍّ شيئاً، ما سألتموه، والمفعول الثاني هو قولنا: «شيئاً»، فعدَّد ـ على هذه ـ

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، وأحمد في مسنده (١ـ٢٠٤، ٢٠٥)، ولفظه فيه ـ عن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسرَّ إلي حديثاً لا أُخبر به أحداً أبداً، وكان رسول الله ﷺ أحب ما استتر به في حاجته هدف أو حشائش نخل، فدخل يوماً حائطاً من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه، قال بهز وعفان: فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فمسح رسول الله ﷺ سراته وذِفْراهُ فسكن، فقال: من صاحب الجمل؟ فجاء فتىً من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله، فقال: أما تتقي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَها الله؟ إنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتُدئبه.

(٢) هو الضحاك بن مُزاحم البلخي الخراساني، أبو القاسم، مفسِّر، كان يؤدب الأطفال، ذكره ابن حبيب تحت عنوان: «أشراف المعلمين وفقهاؤهم»، له كتاب في التفسير. (راجع ميزان الاعتدال ١ـ٤٧١، والمحبر ٤٧٥، والأعلام ٣ـ٣١٠).



النعمةَ في تفضله بما لم يسأله البشر من النعم، وكأن ما سألوه لم يعرض له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير الضحاك. وأما القراءَة الأولى بإضافة [كُلٍّ] إلى [مَا] فلا بُدَّ من تقدير المفعول الثاني: جُزءاً أو شيئاً أو نحو هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي: لكثرتها وعظمها في الحواس والقوى والإيجاد من العدم إلى الهداية إلى الإيمان وغير ذلك. وقال طلق بن حبيب: إن حقَّ الله أثقل من أن يقوم به العباد، ونعمه أكثر من أن يُحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين. وقال أبو الدرداءِ: من لم ير نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ علمه وحَضر عذابه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يريد به النوعَ والجنسَ، المعنى: توجد فيه هذه الخلال، وهي الظلم والكفر، فإن كانت هذه الخلال من جاحد فهي بصفة، وإن كانت من عاص فهي بصفة أخرى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

المعنى: واذكر إذ قال إبراهيم، و[ٱلْبَلَدَ]: مكة، و[آمِناً] معناه: فيه أمْن، فوصفه بالأمن تجوزاً، كما قال: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، وكما قال الشاعر:

. . . . وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ[1]

و[أَجْنُبْنِي] معناه: امنعني، يقال: جَنَبَه كذا وجَنَّبَه وأَجنبَه إذا منعه من الأمر وحماه

(١) هذا جزء من بيت، وهو بتمامه:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السُّرَى ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ

وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ الآية، من هذه السورة (هامش ١ صفحة ٢٣٦).



منه، وقرأ الجحدريُّ، والثقفي: [وأَجْنِبْني] بقطع الألف وكسر النون. و﴿بَنِيَّ﴾ أراد بني صُلْبه، ولذلك أُجيبت دعوته فيهم، وأَما باقي نسله فقد عبدوا الأصنام، وهذا الدعاءُ من الخليل عليه الصلاة والسلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن حصل في رتبته، فكيف يخاف أَن يعبد صنماً؟ لكن هذه الآية ينبغي أَن يُقتدى بها في الخوف وطلب الخاتمة.

و﴿الأَصنام﴾ هي المنحوتة على خلقة البشر، وما كان منحوتاً على غير خِلْقة البشر فهي أَوثان، قاله الطبري عن مجاهد، ونسب إلى الأَصنام أَنها أَضلت كثيراً من الناس تجوُّزاً إِذ كانت عرضة الإِضلال والأَسباب المنصوبة للغي، وعليها منشأُ الأَعمال، وحقيقة الإِضلال إنما هي لمخترعه.

قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ظاهره بالكفر لمعادلة قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، وإذا كان ذلك، كذلك فقوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معناه: بتوبتك على الكفرة حتَّى يؤْمنوا، لا أَنه أَراد أَن الله يغفر لكافر، ولكن حمله على هذه العبارة ما كان يأْخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأَدب ﷺ، قال قتادة: اسمعوا قول الخليل، والله ما كانوا طعَّانين ولا لعَّانين، وكذلك قال نبيُّ الله عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]، وأَسند الطبريّ عن عبد الله بن عمرو حديثاً عن النبي ﷺ أَنه تلا هاتين الآيتين، ثم دعا لأُمته فبُشِّر فيهم[2]، وكان إِبراهيم التيمي يقول: من يأْمن على نفسه بعد خوف الخليل على نفسه من عبادة الأَصنام؟

وقوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ يريد إِسماعيل عليه السلام، وذلك أَن سارة لما غارت لهاجر بعد أَن ولدت إِسماعيل تعذَّب إِبراهيم عليه السلام بهما، فركب البراق هو وهاجر والطفل، فجاءَ في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، فنزل ونزل ابنه وأَمَتُه هنالك، وركب منصرفاً من يومه ذلك، وكان هذا كله بوحي من الله تبارك وتعالىٰ، فلما ولَّى دعا

(١) من الآية (١١٨) من سورة (المائدة).

(٢) نصُّ الحديث كما أخرجه الطبري ـ أن النبي ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه ثم قال: اللهمَّ أُمَّتي، اللهمَّ أُمَّتي، وبكى، فقال الله تعالىٰ: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربُّك أعلم ـ فاسأله: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، قال: فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد وقل له: إنا سنرضيك في أُمتك ولا نسوؤك.

بمضمن هذه الآية، وأَما كيفية بقاءِ هاجر وما صنعت وسائر خبر إِسماعيل ففي كتاب البخاري والسِّير وغيره، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ للتبعيض، لأَن إِسحاق كان بالشام. و«ٱلْوَادِي»: ما بين الجبلين وليس من شرطه أَن يكون فيه ماءٌ، وهذه الآية تقتضي أَن إِبراهيم عليه السلام قد كان عَلِمَ من الله تعالىٰ أَن الله لا يُضَيِّع هاجر وابنها في ذلك الوادي، وأنه يرزقهما الماءَ، وإِنما نظر النظر البعيد للعاقبة فقال: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، ولو لم يعلم ذلك من الله لقال: «غير ذي ماءٍ» على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك(١).

وقوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ إما أَن يكون البيت قد كان قديماً على ما رُوي قبل الطوفان، وكان علمه عند إِبراهيم، وإِما أَن يكون قالها لما كان قد أَعلمه الله تعالىٰ أَنه سيبني هنالك بيتاً لله تعالىٰ فيكون مُحَرَّماً، والمعنى: محرَّماً على الجبابرة أَن تُنْتَهك حرمته ويُستخف بحقه، قاله قتادة وغيره، وجَمْعُه الضمير في قوله: ﴿لِيُقِيمُوا﴾ يدل على أَن الله قد أَعلمه أَن ذلك الطفل سيعقب هنالك ويكون له نسل. واللام في قوله: [لِيُقِيمُوا] هي لام «كي»، هذا هو الظاهر فيها، على أَنها متعلقة بـ ﴿أَسْكَنتُ﴾، والنداءُ اعتراضٌ، ويصحُّ أَن تكون لام أَمْر، كأَنه رغب إِلى الله أَن يوفقهم لإِقامة الصلاة، ثم ساق عبارة ملزمة لهم إِقامة الصلاة، وفي اللفظ ـ على هذا التأْويل ـ بعض تجوز يربطه المعنى ويُصلحه.

و«ٱلأَفْئِدَةُ»: القلوب، جمع فؤاد، سمي بذلك لانفآده، مأْخوذ من: فَأَدَ، ومنه المُفْتَأَد وهو مستوقد النار حيث يشوى اللحم(٢)، وقرأَ ابن عامر بخلاف عنه: [فاجْعَلْ أَفيدةً] بياءٍ بعد الهمزة(٣). وقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ تبعيض، ومراده: المؤمنون، قال

---

(١) قيل: إن انتفاءَ كونه ذا زرع يستلزم انتفاءَ الماء الذي لا يمكن أن يوجد زرع إلا به، فنُفِي ما يتسبب عن الماءِ وهو الزرع، لانتفاءِ سببه وهو الماءُ.

(٢) قال في (اللسان): «وفَأَدَ اللحم في النار يَفْأَدُهُ فأداً: شواه، والمِفْأَدُ والمِفْأَدة: السَّفُّودُ، وهو من فأَدْتُ اللحم وافتأَدْتُه إذا شويتَه، ولحمٌ فَئِدٌ أي: مشويٌّ».

(٣) وقرىء: [آفِدَة] على وزن فاعلة، ويحتمل أن يكون اسم فاعل من أَفَد أي دَنَا وقرب، والمعنى: جماعات آفِدةٌ، وقرأت أُم الهيثم: «أَفْوِدَةً» بالواو المكسورة بدل الهمزة، قال صاحب اللوامح: «وهو جمع وَفْد، والقراءَة حسنة ولكني لا أعرف هذه المرأة، بل ذكرها أبو حاتم»، قال أبو حيان الأندلسي: «وأم الهيثم امرأة نقل عنها شيءٌ من لغات العرب».

مجاهد: لو قال إبراهيم: «أفئدة الناس» لازدحمت على البيت فارس والروم، وقال سعيد بن جبير: «لَحَجَّتْه اليهود والنصارى»[١]. و[تَهْوِي] معناه: تسير بجدٍّ وقصد مستعجل، ومنه قول الشاعر:

وَإِذَا رَمَيْـتَ بِـهِ الْفِجَـاجَ رَأَيْتَـهُ ... يَهْـوِي مَخَـارِمَهَـا هُـوِيَّ الأَجْـدَلِ[٢]

ومنه البيت المروي:

تَهْـوِي إِلَـى مَكَّـةَ تبغـي الْهُـدَى ... مـا مُـؤْمِنُـو الْجِـنِّ كَـأَجْنَـاسِهَـا[٣]

وقرأ سلمة بن عبد الله: [تُهْوِي] بضم التاءِ، مِنْ أَهوى، وهو الفعل المذكور معدى بالهمزة، وقرأ علي بن أبي طالب، ومحمد بن علي، ومجاهد: [تَهْوَى] بفتح التاءِ والواو، ويُعَدَّى هذا الفعل ـ وهو من الهُوِيِّ ـ بـ «إلى» لما كان مقترناً بسَيْرٍ وقصد، وروي عن مسلم بن محمد الطائفي أنه لما دعا عليه السلام بأن يرزق سكان مكة من الثمرات بعث الله جبريل عليه السلام فاقتلع بجناحه قطعة من أَرض فلسطين، وقيل ـ من الأُردن ـ فجاءَ بها وطاف حول البيت بها سبعاً ووضعها قريب مكة، فهي الطائف، وبهذه القصة سُمِّيت، وهي موضع ثقيف، وبها أَشجار وثمرات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

مقصد إبراهيم عليه السلام التنبيه على اختصاره في الدعاء، وتفويضه إلى

---

(١) المعنى: لو قال إبراهيم: «أفئدة الناس» لَحَجَّته اليهود والنصارى.

(٢) قال في (اللسان): «البيت لأبي كبير الهُذَلي»، واسمه عامر بن الحُلَيس، وهو من شعراء الحماسة، قيل: إنه أدرك الإسلام وأسلم. ويروى: «ينضو مخارمها» بدلاً من «يهوي»، والفجاج: جمع فجٍّ وهو الطريق، والمخارم: جمع مَخْرم، وتطلق المخارم على أُنوف الجبال ورؤُوسها، والأجدل: الصقر، وفي حديث مُطرِّف: يَهْوِي هُوِيَّ الأجادل، وقوله: «يَهْوِى مَخَارِمَها» أراد به: «يهوى في مخارمها»، فهو على هذا ظرف، كقولك: ذهبت الشام، وكقولهم: «عَسَل الطريقَ الثَّعْلَبُ»، أي: في الطريق. وقيل: «يهوي» بمعنى «يقطع»، ومخارمها مفعول صحيح.

(٣) رواه أبو حيان في «البحر»: «مَا مُؤْمِنُ الجنِّ كَكُفَّارِها»، و«تَهْوِي» في البيت مثلها في الآية: تقصد في جِدٍّ وسرعة، وتبغي: تريد وتطلب. والبيت غير منسوب.



ما علم الله من رغائبه وحرصه على هداية بنيه والرفق بهم، وغير ذلك. ثم انصرف إلى الثناءِ على الله تعالىٰ بأنه علام الغيوب، وإلى حمده على هباته، وهذه من الآيات المعلمة أن علم الله تبارك وتعالىٰ بالأشياءِ هو على التفصيل التام.

ورُوي في قوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أنه وُلد له إسماعيل وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً، ورُوي أقل من هذا، وإسماعيل أسَنُّ من إسحاق فيما روي، وبحسب ترتيب هذه الآية، ورُوي عن سعيد بن جُبير أنه قال: بُشِّر إبراهيم وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾. دعا إبراهيم عليه السلام في أمر كان مثابراً عليه، متمسكاً به، ومتى دعا الإنسان في مثل هذا فإنما المقصد إدامة ذلك الأمر واستمراره، وقرأ طلحة والأعمش: ﴿دعاءِ ربنا﴾ بغير ياءٍ، وقرأ أبو عمرٍو، وابن كثير: [دُعَايْ] بياءٍ ساكنة في الوصل، وأثبتها بعضهم في الوصل دون الوقف، وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بغير ياءٍ في وصل ولا وقف، وروى ورش عن نافع إثبات الياءِ في الوصل، وقرأت فرقة: ﴿[وَلِوَالِدَيَّ﴾، واختلف في تأويل ذلك، فقالت فرقة: كان هذا من إبراهيم قبل يأسه من إيمان أبيه وتبَيُّنِهِ أنه عدوٌّ لله، فأراد أباهُ وأمه لأنها كانت مؤمنة، وقيل: أراد أمه ونوحاً عليه السلام، وقيل: أراد آدم وحوَّاءَ لأن أمه لم تكن مؤمنة، وقيل: أراد آدم ونوحاً عليهما السلام، وقرأ سعيد بن جبير: [وَلِوَالِدِي] بإفراد الأب وحده، وهذا يدخله ما تقدم من التأويلات، وقرأ الزهري، وإبراهيم النَّخعيّ: [وَلِوَلَدَيَّ] على أنه دعاءٌ لإسماعيل وإسحاق، وأنكرها عاصم الجحدري وقال: إن في مصحف أُبَيِّ بن كعب: [ولأبَوَيَّ]، وقرأ يحيى بن يَعْمَر: [ولِوُلْدِي] بضم الواو وسكون اللام، وهي لغة في الولَد، ومنه ما أسند أبو عليٍّ وغيره:

فَلَيْـتَ زِيَـاداً كـانَ فـي بَطْـنِ أُمِّـهِ ... ولَيْـتَ زيـاداً كـان وُلْـدَ حِمـارِ[1]

ويحتمل أن يكون الوُلْدُ جمع وَلَد، لا كأُسْدٍ في جمع أَسَدٍ.

---

(١) رواه في (اللسان) غير منصوب بلفظ: فليت «فُلاناً». ونقل عن الزجاج قوله: الوَلَد والوُلْد واحد، مثل العَرَب والعُرْب والعَجَم والعُجْم، قال الفراءُ: وأنشد:

ولَقَـــدْ رَأَيْـــتُ مَعَـــاشِـــراً ... قَـــدْ ثَمَّـــرُوا مـــالاً وَوُلْـــدَا

ثم أنشد البيت المذكور هنا، وقال: فهذا واحد، وقيسٌ تجعل الوُلْدَ جمعاً والوَلَدَ واحداً.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يعني: يوم يقوم الناس للحساب، فأسند القيام إلى الحساب إيجازاً إذ المعنى مفهوم، ويتوجه أن يريد قيام الحساب نفسه، ويكون القيام بمعنى ظهوره وتلبُّس العباد بين يدي الله به كما تقول: قامت السوقُ، وقامت الصلاة، كما قال: وقامت الحرب على ساق[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤)﴾.

هذه الآية بجملتها فيها وعيد للظالمين، وتسلية للمظلومين، والخطاب بقوله: [تَحْسَبَنَّ] لمحمد ﷺ، والمراد بالنهي غيره مِمَّن تَلَبَّس به أن يحسب مثل هذا، وقرأ طلحة بن مصرف: [ولا تحسب الله غافلاً] بإسقاط النون، وكذلك: [فلا تحسب الله مخلف وعده]، وقرأ أبو حيوة، وعبد الرحمن، والحسن، والأعرج: [نُؤَخِّرُهُمْ] بنون العظمة، وقرأ الجمهور: (يُؤَخِّرُهُمْ) بالياءِ، أي الله تعالىٰ. و[تَشْخَصُ] معناه: تَحِدُّ النظر لفزع، ولفرط ذلك يشخص المحتضر.

و«المُهْطِع»: المُسْرِعُ في مشيه، قاله ابن جبير، وقتادة، وذلك بِذِلَّة واستكانة، كإسْراع الأَسير الخائف ونحوه، وهذا هو أَرجح الأَقوال، وقد توصف الإبل بالإهطاع على معنى الإسراع، وقلَّما يكون إسراعها إلاَّ خوف السوط ونحوه، فمن ذلك قول الشاعر:

وَبِمُهْطِعٍ سُرُحٍ كَأَنَّ عِنَانَهُ ... في رأسِ جِذْعٍ مِنْ أَوَالَ مُشَذَّبِ[2]

---

(١) في (اللسان ـ سوق): «السَّاقُ في اللغة الأمر الشديد، وكَشْفُه ـ في قولهم: يكشف عن ساقه ـ مَثَلٌ في شدة الأمر، كما يقال للشَّحيح: يده مغلولة، ولا يَدَ ثَمَّ ولا غُلَّ، وإنما هو مثل في شدة البخل، فكذلك هذا، لا ساق هناك ولا كشف». فقولهم: قامت الحرب على ساق، إنما يراد به شدة الأمر، ثم قال صاحب اللسان: ولسنا ندفع مع ذلك أن الساق إذا أُريدت بها الشدة فإنما هي مشبهة بالساق التي تعلو القدم».

(٢) البيت في (اللسان ° أول)، ونسبه ابن بري فيه لأنيف بن جبلة، وروايته فيه:

أَمَّا إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ فَكَأَنَّهُ ... لِلْعَيْنِ جِذْعٌ مِنْ أَوالِ مُشَذَّبُ =



ومن ذلك قول عِمْرانَ بن حِطَّان:

إِذَا دَعَـانَـا فَـأَهْطَعْنَـا لِـدَعْـوَتِـهِ   داعٍ سميعٌ فَلَفُّـونا وسَـاقُـونـا[١]

ومنه قول ابن مفرغ:

بِـدِجْلَـةَ دارُهُـمْ وَلَقَـدْ أَرَاهُـمْ   بِـدِجْلَـةَ مُهْطِعِيـنَ إِلَـى السَّمَـاعِ[٢]

ومن ذلك قول الآخر:

بِمُسْتَهْطِـعٍ رَسْـلٍ كَـأَنَّ جَـدِيلَـهُ   بِقَيْـدُومِ رَعْـنٍ مِـنْ صَـوامٍ مُمَنَّـعُ[٣]

وقال ابن عباس، وأبو الضحى: الإهطاع: شدة النظر من غير أن يطرف، وقال ابن زيد: الذي لا يرفع رأسه، قال أبو عبيدة: وقد يكون الإهطاع للوجهين جميعاً: الإسراع وإدامة النظر.

و«والمُقْنِع» هو الذي يرفع رأسه قدماً بوجهه نحو الشيءِ، ومن ذلك قول الشاعر:

يُبَـاكِـرْنَ الْعِضَـاهَ بِمُقْنَعَـاتٍ   نَـوَاجِـذُهُـنَّ كـالحِـدَأْ الـوَقِيـعِ[٤]

= وفي معجم ما استعجم للبكري: أَوَالُ: قرية بالبحرين، وقيل: جزيرة، فإن كانت قرية فهي من قُرى السِّيف، ويشهد لذلك قول ابن مُقبل: «وكأنَّها سُفُنٌ بسيفِ أوال». والمُهْطع: الذي يسرع في مشيته مع خوف، والسُّرُح: السريعة، قال في اللسان: «خيلٌ سُرُحٌ في سيرها، أي سريعة»، والجذع: الساق من الشجرة ونحوه من الأغصان المتينة، والمشَذَّب: الذي هُذِّبَ وأُزيل عنه قشره.

(١) رواه أبو حيان في «البحر»: فَلَبُّونا، ولَفَّ معناها: جَمَعَ، أما لَبَّه فمعناها: ضَرَبَ لَبَّتَه، والإهطاع هو الإسراع في خضوع، وسميع معناها: مُسْمِعٌ.

(٢) البيت في «اللسان» غير منسوب، أنشده الليث للتدليل على أن قوله تعالى ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ يحتمل الوجهين اللَّذيْن ذكرهما ابن عطية نقلاً عن أبي عبيدة، والرواية فيه: «بِدِجْلَةَ أَهْلُهَا» بدلاً من «دارُهم».

(٣) أورده صاحب (اللسان ـ قدم)، وأورده الزمخشري في (أساس البلاغة ـ هطع)، والرواية فيه: «من رُضَامٍ مُمَتَّعِ» بالتاء، وقال: إنه في صفة ثور، والمُسْتَهْطِع هو المُسْرِع، ورَسْل: سَهْلٌ فيه لين، والجَدِيل: حبْلٌ مجدولٌ أي مفتول من أدم أو شعر، يكون في عُنُق البعير أوالناقة، وجمعه جُدُل، والرَّعْن: أنف الجبل، وقيدوم كلِّ شيءٍ: صدْرُه ومقدمه، وقيدوم الجبل: أنفٌ يتقدم منه، والقيدوم الرَّعْن: هو الأنف المندفع في ارتفاعه، وصَوَام (كسَحَاب): اسم جبل، قال ذلك صاحب اللسان، والبكري، والمُمَنَّع بالنُّون: المرتفع الصعب الذي يمتنع على الناس فلا يستطيعون الصعود والارتقاءَ فيه. وقد أورد أبو عبيدة البيت في «مجاز القرآن»، وقال: «صُوَّام: بضم الصاد وهمز الواو»، وفسَّر الرَّسْلَ بأنه الذي لا يكلفك شيئاً.

(٤) هذا البيت للشَّمَّاخ بن ضرار، والرواية في الديوان «يبَادِرْنَ» بدلاً من «يُبَاكِرْنَ» والمعنى واحد، وهو =



يصف الإبل بالإقناع عند رعيها أعالي الشجر. وقال الحسن في تفسير هذه الآية: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماءِ، لا ينظر أَحد إلى أَحد، وذكر المبرِّد فيما حكي عنه أنَّ الإقناع يوجد في كلام العرب بمعنى خفض الرأس من الذِّلَّة، والأَول أَشهر.

وقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أَي: لا يطرفون من الحذر والجزع وشدة الحال.

وقوله: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ تشبيه محض، لأَنها ليست بهواءٍ حقيقة، وجهة التشبيه يحتمل أَن تكون في فراغ الأَفئدة من الخير والرجاءِ والطمع في الرحمة، فهي منخرقة مشبهة الهواءَ في تفرغه من الأَشياء وانخراقه، ويحتمل أَن يكون في اضطراب أَفئدتهم وجيشانها في صدورهم، وإنما تجيءُ وتذهب وتبلغ ـ على ما رُوي ـ حناجرهم، فهي في ذلك كالهواءِ الذي هو أَبداً في اضطراب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هاتين الجهتين يشبه قلب الجبان وقلب الرجل المضطرب في أُموره بالهواءِ، فمن ذلك قول الشاعر:

ولا تَـكُ مِـنْ أَخْـدَانِ كُـلِّ يَـرَاعَـةٍ ... هَواءٍ كَسَقْبِ الْبَانِ جُوفٍ مَكَاسِرُهْ[1]

ومن ذلك قول حسَّان:

أَلا أَبْلِـغ أَبَـا سُفْيَـانَ عَنِّـي ... فَـأَنْـتَ مُجَـوَّفٌ نَخِـبٌ هَـوَاءُ[2]

= الإسراع، والعِضاه: جمع عضاهة وهي أعظم الشجر، والمُقْنَعات: جمع مُقْنع وهو الذي يرفع رأسه نحو الشيءِ، يصف الإبل وهي تسارع إلى أعلى الشجر الكبير فترفع رؤوسها لتأكل منه، والنواجذ: أقصى الأضراس، والحِدأ: جمع حِدَأة، وهي فأسٌ ذات رأسين، والوقيع: الذي حُدِّدَ بالمِيقَعَة وهي المطرقة، يعني: طرقت حتى أصبحت حادَّةً قاطعة، يشبه أضراس الإبل بالفؤوس الحادة التي طرقت بالمطارق حتى أصبحت شديدة القطع. وقد استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن» في نفس الموضع.

(١) نسبه في (اللسان ـ يرع) إلى كعب الأمثال، والأخدان: جمع خِدْن وهو الصديق، واليَرَاعة: الجبان الذي لا عقل له ولا رأي، مشتق من القصب، فهو مثل القصب الأجوف، والهواءُ: الجبان الخفيف الفؤاد، أو الذي انتزع فؤاده، والبان: شجر من أشجار البادية، يطول ويرتفع في اعتدال، وبه يشبه الشعراء قوام الحسناء، وسَقْبُ البانِ: عمودُ الخيمة فإذا صُنع من شجر البان كان ضعيفاً لا يحتمل لِقِلَّة صلابته، وجُوفٍ: جمع أجوف، والمكاسر: مواضع الكسر، يعني أنه إذا كُسِر بان أنه أجوف ضعيف. ينهى عن صداقة الأخدان الجبناء الذين لا يعتمد عليهم، وتظهر حقيقتهم الضعيفة عند الاختبار.

(٢) أبو سفيان هو المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب، كان يهجو النبي ﷺ قبل أن يسلم، وكان حسَّان يَرُدُّ=

ومن ذلك قول زهير:

كَـأَنَّ الـرَّحْـلَ مِنْهَـا فَـوْقَ صَعْـلٍ مِـنَ الظِّلْمَـانِ جُـؤْجُـؤُهُ هَـوَاءُ[1]

فالمعنى أنه في غاية الخفَّة في إجفاله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية. المرادُ باليوم يومُ القيامة، ونصبه على أنه مفعول بـ [أَنْذِر]، ولا يجوز أَن يكون ظرفاً لأن القيامة ليست بموطن إنذار. وقوله: [فَيَقُولُ] رفع عطفاً على قوله: [يَأْتِيهِم]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ﴾ إلى آخر الآية معناه: يقال لهم، فحذف ذلك إيجازاً إذ المعنى يدلُّ عليه، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ هو المقسم عليه نقل المعنى[2]، و﴿مِّن زَوَالٍ﴾ معناه: من الأرض بعد الموت، أَي: لا بعث من القبور، وهذه الآية ناظرة إلى ما حكي عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول عزَّ وجلَّ: أَيها المعرضون عن آيات الله من جميع العالم سكنتم في مساكن الذين ظلموا أَنفسهم بالكفر من الأُمم السالفة فنزلت بهم المثلات، فكان قولكم الاعتبار والاتعاظ، وقرأَ الجمهور: [تَبَيَّنَ] بتاءٍ، وقرأَ السُّلَمي ـ فيما حكى المهدوي ـ:

= عليه. والمُجَوَّف: الخالي الجوف، وهذا دليل الجبن والضعف مع التظاهر بالشجاعة، والنَّخب والْهَواءُ لهما نفس المعنى، وحسَّان هنا يصف أبا سفيان بالجبن والضعف، وأن هذه هي حقيقته.

(١) يصف زهير في هذا البيت ناقته، والرَّحل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب عليه، وكذلك هو كل شيءٍ يوضع على ظهر البعير من وعاءٍ للمتاع وغيره، والصَّعْل: الصغير الرأس، ويريد به هنا ذَكَر النعام (الظَّليم) لأنه صغير الرأس، وجؤجؤه: صدره، وهواءٌ: خالٍ لا قلب فيه، وهو يريد أن يقول: إن الظليم ليس له عقل فهو كالمجنون.

(٢) هكذا في جميع الأصول.

(٣) من الآية (٣٨) من سورة (النحل).



[وَنُبَيِّنْ] بنون عظمة مضمومة وجزم على معنى: أَو لم نُبَيِّنْ، عطف على ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ﴾، قال أَبو عمرو: وقرأَ أَبو عبد الرحمن بضم النون الأُولى ورفع النون الآخرة.

وقوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ هو على حذف مضاف تقديره: وعند الله عقاب مكرهم، أَو جزاءُ مكرهم، ويحتمل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ أَن يكون خطاباً لمحمد عليه الصلاة والسلام والضمير لمعاصريه، ويحتمل أَن يكون مما يقال للظلمة يوم القيامة، والضمير للذين سُكن في منازلهم.

وقرأَ السبعة سوى الكسائي: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ بكسر اللام الأُولى وفتح الثانية، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب وجماعة، وهذا على أَن تكون [إِنْ] نافية بمعنى «ما»، ومعنى الآية تحقير مكرهم، وأَنه ما كان لتزول منه الشرائع والنبوات وأَقدار الله بها التي هي كالجبال في ثبوتها وقوتها، وهذا تأْويل الحسن وجماعة المفسرين. وتحتمل عندي هذه القراءَة أَن تكون بمعنى تعظيم مكرهم، أَي: وإِن كان شديداً إِنما يفعل لتذهب به عظام الأُمور، وقرأَ الكسائي: [لَتَزُولُ] بفتح اللام الأُولى ورفع الثانية(1)، وهي قراءَة ابن عباس، ومجاهد، وابن وثاب، وهذا على أَن تكون [إِنْ] مخففة من الثقيلة، ومعنى الآية تعظيم مكرهم وشدته، أَي أَنه مما يُشقى به، ويزيل الجبال من مستقراتها بقوته، ولكن الله تعالىٰ أَبطله ونصر أَولياءَه، وهذا أَشد في العبرة.

وقرأَ علي بن أَبي طالب، وابن مسعود، وعمر بن الخطاب، وَأُبَيُّ بن كعب: [وإِن كاد مكرهم]، ويترتب مع هذه القراءَة في [لَتَزُولُ] ما تقدم(2)، وذكر أَبو حاتم أَن في قراءَة أُبَيّ بن كعب: [وَلَوْلاَ كَلِمَةُ اللهِ لَزَالَ مِنْ مَكْرِهِمُ ٱلْجِبَالُ]، وحكى الطبريُّ عن بعض المفسرين أَنهم جعلوا هذه الآية إِشارة إِلى ما فعل نمروذ، إِذْ علَّق التابوت بين الأَنسر ورفع لها اللَّحم في أَطراف الرِّماح بعد أَن أَجاعها، ودخل هو وحاجبه في

---

(١) قال ابن خالويه في كتاب «الحجة في القراءات السبع»: «الحُجَّة لمن فتح أنه جعل اللام للتأكيد، فلم تؤثر في الفعل، ولم تُزله عن أصل إعرابه، والحجة لمن كَسَر اللام أنه جعلها لام «كي»، وهي في الحقيقة لام الجحد»، ويترتب مع هذا الكلام ما ذكره ابن عطية في [إن] على القراءتين.

(٢) في «البحر المحيط» أن هذه القراءة بالدال بدلاً من النون تكون مع فتح اللام الأولى ورفع الثانية في [لَتَزُولُ]. ولعلَّ هذا هو ما قصد إليه ابن عطية في عبارته: «ويترتب مع هذه القراءة في [لَتزول] ما تقدم، أي: من فتح اللام الأولى ورفع الثانية، وإن كان الكلام يوهم غير ذلك».



التابوت فعلت بهما الأنسر حتى قال له النمرود: ماذا ترى ؟ قال: أرى بحراً وجزيرة، يريد الدنيا المعمورة، ثم قال: ما ترى ؟ قال: أرى غماماً ولا أرى جبلاً، فكأن الجبال زالت عن نظر العين بهذا المكر، وذكر ذلك عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك عندي لا يصح عن عليٍّ، وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيد أن يُغرِّر أحد بنفسه في مثل هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ الآية. تثبيت للنبي ﷺ ولغيره من أُمَّتِه، ولم يكن النبي ﷺ ممن يحسب مثل هذا، ولكن خرجت العبارة هكذا، والمراد بما فيها من الزَّجر من شارك النبي ﷺ في أن قصد تثبيته. وقرأ جمهور الناس: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾ بالإضافة ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ بالنصب، وأضاف ﴿مُخْلِفَ﴾ إلى «الْوَعْدِ» إذ للإخلاف تعلق بالوعيد على تجوز، وإنما حقيقة تعلقه بالرسل، وهذا نحو قول الشاعر:

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَه وسَائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ[1]

وكقولك: «هذا مُعْطِي زَيْدٍ درهماً»، وقرأت فرقة: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلِهِۦ﴾ بنصب «الوعد» وخفض «الرسل» على الإضافة، وهذه القراءَة ذكرها الزَّجاج وضعفها، وهي تَحُول بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، وهو كقول الشاعر:

فَزَجَجْتُهَا بِمَزَجَّةٍ زَجَّ الْقَلُوصَ أَبِي مَزَادَه[2]

---

(١) استشهد الفراءُ بهذا البيت في «معاني القرآن»، وكذلك استشهد به الطبري، وأبو حيَّان في «البحر»، ولم ينسبه أحد منهم، قال الفراءُ: «فأضاف (مُدْخِلَ) إلى (الظِّلِّ)، وكان الوجه أن يضيف (مُدْخِل) إلى الرأس»، ومن كلامه هنا: «إذا كان الفعل يقع على شيئين مختلفين مثل: كسَوتُكَ الثوب، وأدْخَلْتُكَ الدارَ، فابدأ بإضافة الفعل إلى الرجل، فتقول: هو كاسي عبد الله ثوباً، ومُدْخله الدار، ويجوز هو كاسي الثوب عبد الله، ومدخل الدار زيداً، ومنه قول الشاعر «تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسَهُ». . . البيت. ومثله:

فَرِشْنِي بِخَيْرٍ لا أَكُونَنْ وَمِدْحَتِي كَنَاحِتِ يَوْمٍ صَخْرَةً بِعَسِيلِ

والشاهد أنه أضاف (ناحِت) إلى (يوم)، ونصب (صخرةً)، ومعنى رِشْنِي: انفعني، والعسيل: مكنسة العطار، وهي من شعر يكنس به العطار الطيب، والمراد أنه لا فائدة فيه كمن ينحت الصخرة بهذه المكنسة الناعمة».

(٢) ذكره الفراءُ في «معاني القرآن» مرتين، الأولى عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾، (١٣٧ من سورة الأنعام)، والثانية هنا في سورة إبراهيم، ونقله عنه ابن عطية وغيره من المفسرين، ورواية الفراءِ: «فَزَجَجْتُهَا مُتَمَكِّناً»، والمراد: =

وأَمَّا إذا حِيلَ في مثل هذا بالظرف فهو أَشهر في الكلام كقوله:

* للهِ دَرُّ الْيَوْمَ مَنْ لاَمَهَا * [١]

وقال آخر:

كَمَا خُطَّ الْكِتَابُ بِكَفِّ يَوْماً ... يَهُودِيٍّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ [٢]

والمعنى: لا تحسب يا محمد أَنت ومن اعتبر بالأَمر من أُمَّتك وغيرهم أَن الله لا يُنْجِزُ وعده في نصر رسله وإِظهارهم، ومعاقبة من كفر بهم في الدنيا والآخرة، فإِن الله عزيزٌ لا يمتنع منه شيءٌ، ذو انتقام من الكفرة، ولا سبيل إِلى عفوه عنهم.

قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية. [يَوْمَ] ظرف للانتقام المذكور قبله، ورُوي في «تبديل الأَرض» أَقوال: منها في الصحيح أَن الله يبدل هذه الأَرض بأَرض عفراءَ بيضاءَ كأَنها قُرْصَةُ النَّقِيِّ [٣]، وفي الصحيح أَن الله يبدلها خبزة يأْكل المؤمن منها من تحت قدميه [٤]، وروي أَنها تبدل أَرضاً من فضة، وروي أَنها أَرض كالفضة في بياضها [٥]، وروي أَنها تبدل

= زَجَجْتُ الكتيبة، أي دفعتها، والقلوص: الناقة الفتية، وأبو مزادة: كنية رجل، والشاهد فيه أنه فصل بين المضاف وهو (زَجَّ) والمضاف إليه وهو (أبي مزادة) بالمفعول وهو (القلوصَ)، وأصل الكلام: زَجَّ أبي مزادةَ القلوصَ. والفراءُ ينكر هذا على أهل المدينة، ويقول: هو باطلٌ، والصوابُ: «زَجَّ القَلُوصِ أبو مزادة».

(١) أصل الكلام: للهِ درُّ مَنْ لامها اليومَ، لكن الشاعر فصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف وهو «اليوم»، وهو كثير في كلام العرب.

(٢) هو كالشاهد السابق في الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف وهو «يوماً»، وأصل الكلام: خُطَّ الكتابُ بكفِّ يهوديٍّ يوماً.

(٣) أخرج البخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن مردويه، عن سهل بن سعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاءَ عفراءَ كقرصة نَقِي ليس فيها معلم لأحد)، والنَّقِيُّ: دقيق خالص البياض والنقاءِ يسمى الحواريّ، وهو ما حُوِّر أي بُيِّض. والقرصة فطيرة مصنوعة من هذا النقيِّ. (الدر المنثور).

(٤) أخرج البخاريُّ، ومسلم: وابن مردويه عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفرة نزلاً لأهل الجنة. . .) راجع البخاري ـ كتاب الرقاق ففيه بقية الحديث، وكذلك في الدر المنثور.

(٥) أخرج البزّار، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في البعث ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾، قال: (أرضٌ بيضاءُ كأنها فضة لم يسفك فيها دمٌ حرامٌ، ولم يعمل فيها خطيئة). (الدر المنثور) و(فتح القدير).



أَرضاً من نار[(١)] وقال بعض المفسرين: تبديل الأَرض هو نسف جبالها، وتفجير بحارها، وتَغْيِيرها حتى لا تَرى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً، فهذه حال غير الأُولى، وبهذا وقع التبديل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وسمعت من أَبي رضي الله عنه أَنه رُوي أَن التبديل يقع في الأَرض، ولكن يُبدَّل لكل فريق بما يقتضيه حاله، فالمؤمن يكون على خبز يأْكل منه بحسب حاجته إِليه، وفريق يكون على فضة ـ إِن صحَّ السند بها ـ، وفريق الكفرة يكونون على نار، ويجوز هذا مما كله واقع تحت قدرة الله تعالىٰ. وأَكثر المفسِّرين على أَن التبديل يكون بأَرض بيضاءَ عفراءَ لم يُعْصَ اللهُ فيها، ولا سُفك فيها دم، وليس فيها مَعْلم لأَحد. وروي فيها عن النبي ﷺ أَنَّه قال: (المؤمن وقت التبديل في ظل العرش)[(٢)]، وروي عنه أَنه قال: (الناس وقت التبديل على الصراط)[(٣)]، وعنه أَنه قال: (الناسُ حينئذ أَضياف الله فلا يعجزهم ما لديه)[(٤)].

[وَبَرَزُوا] مأْخوذ من الْبَرَاز، أَي: ظهروا بين يديه لا يواريهم بناءٌ ولا حِصْن. وقوله ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ صفتان لائقتان بهذه الحال.

---

(١) أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: «الأرض كلها نار يوم القيامة والجنَّة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى يرشح في الأرض قدمه... إلخ» (تفسير الطبري).

(٢) الذي رواه الإمام أحمد في مسنده (٥ـ٣٠٠، ٣٠٨) هو أن أبا قتادة كان له دين على أحد الناس، وكان المدين يختبيء منه، ثم علم ذات يوم أنه في البيت فناداه وسأله عن سبب اختفائه، فقال: إني معسر ـ فبكى أبو قتادة وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من نفَّس عن غريمه، أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة)، وليس لهذا صلة بالتبديل.

(٣) أخرجه أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والحاكم ـ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾، قلت: أين الناس يومئذ؟ قال: على الصراط. (الدر المنثور، وتفسير الطبري، وفتح القدير).

(٤) أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي أيوب الأنصاري. (الدر المنثور).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

المجرمون هم الكفار، و[مُقَرَّنِينَ] مربوطين في قَرَنٍ وهو الحبل الذي يُشَدُّ به رُؤُوس الإبل والبقر، ومنه قول الشاعر:

وابْنُ اللَّبُونِ إذَا مَا لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيسِ[(١)]

و[الأَصْفَاد] الأغلال، واحدها صَفَد، يقال: صَفَده وأَصْفَدَهُ وصَفَّدَه إذا غَلَّلَهُ، والاسم الصفاد، ومنه قول سلامة بن جندل:

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لاقَى صِفَاداً ... يَعَضُّ بِسَاعِدٍ وبِعَظْمِ سَاقِ[(٢)]

وكذلك يقال في العطاءِ، ومنه قول النابغة:

. . . . فَلَمْ أُعَرِّض ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ بالصَّفَدِ[(٣)]

---

(١) البيت لجرير، قاله في (اللسان ـ لزز وقنعس)، واللَّبون: التي نزل اللَّبن في ضرعها، وابن اللَّبون: ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة لأن أُمَّه ولدت غيره فصار لها لبن ـ ولُزَّ: أُلْصِقَ وشُدَّ في قَرَن، والقَرَن: الحبل الذي تربط فيه الإبل والبقر. والبُزْل: جمع بازل وهو البعير الذي طلع نابه، ويكون ذلك في الثامنة أو التاسعة، والقنعاس: الجمل الضخم العظيم، وهو من صفات الذكور عند أبي عبيد، والجمع: القناعس، ويقال فيها: القناعيس.

(٢) هو سلامة بن عمرو، من بني تميم، فارس وشاعر مقل، والصِّفادُ: الغُلُّ أو الوثاق يُشدُّ به الإنسان، يقول: لقد لقي زيد الخيل وثاقاً يشد به شدّاً قوياً، فكأنما يعض من شدته على ساعديه وساقيه.

(٣) هذا عجز بيت، قاله النابغة في قصيدته التي يمدح بها النعمان ويعتذر إليه عما بلغه عنه، والتي مطلعها: «يا دَارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ»، والبيت بتمامه:

هَذَا الثَّنَاءُ ـ فَإِنْ تَسْمَعْ بِهِ ـ حَسَناً ... فَلَمْ أُعَرِّضْ ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ بالصَّفَدِ

قول الشاعر: «فإن تسمع به» جملة معترضة بين «الثَّنَاء» و«حَسَناً»، والباءُ في «به» زائدة، وأصل المعنى: هذا الثناءُ حسناً يأتيكَ، أي: هذا مديحي لك، ومعنى تَسْمَع: تقبل، يريد أن يقول: فإن تقبله مني فهو ما أُريد. و«حَسَناً» حال من اسم الإشارة «هذا»، و«أَبَيْتَ اللَّعْنَ» كلمة يخاطب بها العرب ملوكهم، ومعناها: أبيت أن تفعل شيئاً تُلْعَن به، فأنت لا تفعل إلا الحسن الجميل، وأُعَرِّض: أقُول كلاماً أكني به عن شيءٍ يستلزمه معناه، يريد: لم أَقُلْ شيئاً فيه تعريض، و«بالصفد» معناها: بالعطاءِ، أي: لم أقصد بمديحي أيَّ عطاءٍ، بل أردتُ رضاكَ فقط. والشاهد أن الصفد جاء بمعنى العطاءِ. وقد=



و«السَّرَابِيل»: القُمُص[١]، و«القَطِرَان» هو الذي تُهْنَأُ به الإبل، وللنار فيه اشتعال شديد، فلذلك جعل الله قُمُص أَهل النار منه، ويقال بفتح القاف وكسر الطاءِ، وبكسر القاف وسكون الطاءِ، وبفتح القاف وسكون الطاءِ، وقرأَ عُمَرُ، وعلِيٌّ، والحسن ـ بخلاف ـ وابن عباس، وأَبو هريرة، وعلقمة، وسِنانُ بن سَلَمة، وعكرمة، وابن سيرين، وابن جُبَيْر، والكَلْبِيُّ، وقتادة، وعمرو بن عبيد: [قَطِرٍ آنٍ][٢]، والقَطِرُ: القصدير، وقيل: النحاس. وروي عن عمر رضي الله عنه أَنه قال: ليس بالقطران، ولكنه النحاس يُسَرْبلونه، و[آن] صفة، وهو الذائب الحارُّ الذي قد تناهى حرُّه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: يعذبون به، وقال الحسن: قد سُعِّرَت عليه جهنم منذ خلقت فتناهى حرُّه. وقرأَ جمهور الناس: ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ بالنَّصب ﴿النَّارُ﴾ بالرفع، وقرأَ ابن مسعود بالعكس، فالأَول على نحو: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾[٣] فهي حقيقة الغشيان، والثاني على نحو قول الشاعر:

يُغْشَـوْنَ حَتَّـى مـا تَهِـرُّ كِـلابُهُـمْ لا يَسْـأَلُـونَ عَـنِ السَّـوَادِ المُقْبِـلِ[٤]

فهو بِتَجَوُّزٍ في الغشيان، كأَن ورود الوجوه على النار غشيان.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ﴾ أَي: لكي يجزي الله، واللام متعلقة بفعل مضمر

= روي الشطر الأول: «هذا الثناءُ فإن تَسْمَعْ لِقائِلِه». . . .

(١) واحد السَّرابيل: سِرْبَال، والفعل سَرْبَلْتُ وتَسَرْبَلْتُ، قال كعب بن مالك:

تَلْقَـاكُـمُ عصَـبٌ حَـوْلَ النَّبـيِّ لَهُـمْ مِـنْ نَسْـجِ داودَ فـي الهَيْجـا سَـرَابِيـلُ

(٢) مكونة من كلمتين: صفة وهي (آن)، وموصوف وهو (قَطِر). وقد فسَّر العلماءُ معنى كل منهما على ما ذكر ابن عطية.

(٣) الآية الأولى من سورة (اللَّيْل).

(٤) ذلك لأنه يريد بالغشيان هنا الزيارة، فمجرد قدوم الزوار إليهم غشيان، والهرير: صوت الكلب دون النباح، يقول: يأتيهم الضيوف ويطرقون أبوابهم في كل وقت حتى أن كلابهم قد اعتادت ذلك فهي لا تنبح ولا تهرُّ أحداً، وهم لا يسألون عن القادم إذا رأوا سواداً لشجاعتهم ولكرمهم. هذا والبيت لحسَّان بن ثابت قاله يمدح جَبَلَة بن الأيهم الغساني، وهو من قصيدته التي مطلعها:

للهِ دَرُّ عِصَـابَـةٍ نَـادَمْتُهُـمْ يَـوْمـاً بِجِلَّـقَ فـي الـزَّمـانِ الأوَّل

وفيها يقول:

بيـضُ الـوُجُـوهِ كَـرِيمَـةٌ أَحْسَـابُهُـمْ شُـمُّ الأنـوفِ مِـنَ الطِّـرَازِ الأوَّلِ

تقديره: أُنفذ على المجرمين هذا العقاب ليكون في ذلك جزاءُ المسيءِ على إساءَته، وجاءَ من لفظة الكسب بما يعم المسيءَ والمحسنَ لِيُنَبِّه على أَن المحسن أَيضاً يجازى بإِحسانه خيراً.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أَي: فاصله بين خلقه بالإحاطة التي له بدقيق أُمورهم وجليلها، لا إِلـٰه غيره، وقيل لِعَلي بن أَبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسبُ الله العبادَ في وقت واحد مع كثرتهم؟ قال: كما يرزقهم في وقت واحد.

وقوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ الآية إِشارة إِلى القرآن والوعيد الذي تضمنه[(١)]، ووصفه بالمصدر في قوله: [بَلَاغٌ]، والمعنى: هذا ذو بلاغ للناس، وهو لينذروا به[(٢)]. وقرأَ الجمهور: [وَلِيُنْذَرُوا] بضم الياءِ وفتح الذال على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ يحيى بن عمارة، وأَحمد بن يزيد بن أُسيد: [وَلِيَنْذَرُوا] بفتح الياءِ والذال، تقول العرب: «نَذِرْتُ بكذا» إِذا أُشعرتَ به، وتحَرَّزْتَ منه، وأَعْدَدْتَ له[(٣)].

ورُوي أَن قوله سبحانه: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه[(٤)].

انتهى تفسير سورة إِبراهيم عليه الصلاة والسلام

والحمد لله كثيراً، وصلى الله على سيدنا محمد

المبعوث بشيراً ونذيراً وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

---

(١) وقيل: الإشارة إِلى السورة. وقيل: الإشارة إِلى ما ذكّر به تعالىٰ من قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ إِلى قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

(٢) معنى ﴿بَلَاغٌ﴾: كفاية في الوعظ والتذكير، والواو في ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ زائدة عند الماوردي، وقال المبرد: هي واو عطف مفرد على مفرد، فالمعنى عنده: هذا بلاغٌ وإِنذار، والمعنى عند الماوردي: هذا بلاغ للإِنذار. وهذا من تفسير المعنى لا تفسير الإِعراب. والمعنى الذي يفهم من كلام ابن عطية أنه بلاغ للناس، وهو لينذروا به، فجعل ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ في موضع رفع خبر لمبتدأ تقديره: هو.

(٣) قالوا: لم يُعرف للفعل «نَذِرَ بِهِ» مصدر، فهو مثل «عسى» وغيرها مما استعمل من الأفعال ولم يعرف له أصل.

(٤) رَوَى ذلك يَمَان بنُ رئاب، وقد سئل بعضهم: هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم، قيل: وأين هو؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحِجْر

هذه السورة مكية(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾.

[الٓر]، تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، و﴿تِلْكَ﴾ يمكن أن تكون إشارة إلى حروف المعجم بحسب بعض الأقوال، ويحتمل أن تكون إشارة إلى الحِكَم والعِبَر ونحوها التي تضمنتها آيات التوراة والإنجيل، وعطف القرآن عليه، قال مجاهد، وقتادة: [الكتاب] في هذه الآية ما نزل من الكتب قبْل القرآن، ويحتمل أن يراد بـ[الكتاب] القرآن، ثم تعطف الصفة عليه(٢).

وقرأ نافع، وعاصم: ﴿رُبَمَا﴾ بتخفيف الباءِ، وقرأ الباقون بشدها، إلا أن أبا عمرو قرأها على الوجهين، وهما لغتان(٣)، ورُوي عن طلحة بن مصرف [رُبَّتَما] بزيادة التاءِ،

---

(١) قال الشوكاني: «وهي مكية بالاتفاق كما قال القرطبي»، وأخرج النحاس في ناسخه، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت سورة الحِجْر بمكة»، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله.

(٢) تنكير «القرآن» هنا للتفخيم، كأنه قيل: تلك آيات الكتاب الكامل، والقرآن الجامع للكمال والغرابة في الشأن.

(٣) قال ابن خالويه في كتاب «الحجة»: «الحجة لمن خفف أن الأصل عنده في التشديد ياءان، أُدغمت إحداهما في الأخرى، فأسقط واحدة تخفيفاً، والحجة لمن شدَّد أنه أتى بلفظها على الأصل، وهو الاختيار، قال الشاعر:

يــا رُبَّ ســارٍ بــاتَ لــنْ يُــوَسَّــدا ... إلا ذراعَ العَنْــس أَو كَــفَّ الْيَــدَا =



وهي لغة، و«رُبَّمَا» للتقليل، وقد تجيءُ شاذة للتكثير، وقال قومٌ: إن هذه من تلك[١]، ومنه:

رُبَّ كـأْسٍ هَـرَقْـتَ يـابْـنَ لُـؤَيٍّ . . . .[٢]

وأنكر الزَّجَّاج أن تجيءَ «رُبَّ» للتكثير[٣].

و«ما» التي تدخل عليها «رُبَّ» قد تكون اسماً نكرةً بمنزلة «شيءٍ»، وذلك إذا كان في الكلام ضمير عائد عليه كقول الشاعر:

رُبَّمـا تَكْـرَهُ النُّفـوسُ مِـنَ الأَمْـ ـرِ لَـهُ فَـرْجَـةٌ كَحَـلِّ العِقَـالِ[٤]

التقدير: رُبَّ شيءٍ. وقد تكون حرفاً كافًّا لِـ «رُبَّ» وَمُوَطِّئاً لتدخل على الفعل، إذْ ليس من شأنها أَنْ تدخل إلا على الأَسماءِ، وذلك إذا لم يكن ثَمَّ ضمير عائدٌ، كقول الشاعر:

= (والعَنْس: الناقة الصلبة). وأحكام «رُبَّ» كثيرة، وعلى الرغم من كثرة ورودها في لسان العرب فإنها لم تقع في القرآن إلا في هذه السورة.

(١) يعني أن «رُبَمَا» في هذه الآية من تلك التي جاءَت للتكثير.

(٢) هذا صدر بيت، نقل صاحب اللسان عن الجوهري أنه يقال: هراقَ الماء يُهرَيقه بفتح الهاءِ هِرَاقَةً، أي صَبَّه، وأنشد ابن برِّي:

رُبَّ كَـأْسٍ هَـرَقْتها ابـنَ لُـؤَيٍّ حَـذَرَ المـوتِ لـم تَكُـنْ مُهْـرَاقَـهْ

وابن عطية يستشهد بالبيت على أن «ربَّ» فيه للتكثير.

(٣) قال الزجاج: «من قال: إن رُبَّ يعني بها التكثير فهو ضد ما تعرفه العرب، فإن قال قائل: فلم جازت ربَّ في قوله تعالىٰ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وربَّ للتقليل؟ فالجواب في هذا أن العرب خوطبت بما تعلمه في التهديد، والرجل يهدد الرجل فيقول له: لعلَّك ستندم على فعلك، وهو لا يشك في أنه يندم، ويقول: ربما ندم الإنسان من مثل ما صنعت، وهو يعلم أن الإنسان يندم كثيراً، ولكن مجازه أن هذا لو كان مما يُوَدُّ في حال واحدة من أحوال العذاب، أو كان الإنسان يخاف أن يندم على الشيءِ لوجب عليه اجتنابه، والدليل على أنه على معنى التهديد قوله تعالىٰ: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾.

(٤) البيت لأُميَّةَ بن أبي الصَّلْت، والفَرْجة: انكشاف الهَمِّ والغَم، والنحويون يستشهدون بهذا البيت على أن «ربَّ» تدخل على مضارع في لفظه، ولكنه ماض في زمنه، بقرينة تدل على المضيِّ الزمني، فالشاعر يقول البيت لرجل هارب من حاكم توعده بالقتل، ثم جاءه الخبر بموت ذلك الحاكم، فهو يريد: ربما جزعتَ، ولا يصلح زمن المضارع هنا إلا للمضي، لأن الجزع لن يقع في المستقبل بعد موت الحاكم وزوال سبب الجزع. والبيت في الكتاب، والخزانة، والعيني، والأشموني، واللسان، وابن الشجري، وابن يعيش.



رُبَّمَــا أَوْفَيْــتُ فــي عَلَــمٍ تَــرْفَعَــنْ ثَــوْبِــي شَمَــالاتُ[١]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذلك تدخل «ما» على «مِنْ» كافَّةً في نحو قوله: «وكان رسول الله ﷺ مِمَّا يُحرك شفتيه»[٢]، ونحو قول الشاعر:

وإِنَّـا لمِمَّـا نَضْـرِبُ الْكَبْـشَ ضَـرِبَـةً عَلَى رَأْسِهِ تُلْقِي اللِّسَانَ مِنَ الْفَمِ[٣]

قال الكسائي، والفراءُ: الباب في «رُبَّما» أَن تدخل على الفعل الماضي، ودخلت هنا على المستقبل إِذ هذه الأَفعال المستقبلة في كلام الله تعالىٰ لمَّا كانت صادقةً واقعةً ولا بُدَّ تجري مجرى الماضي الواقع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد تدخل «رُبَّ» على الماضي الذي يراد به الاستقبال، وتدخل على العكس.

والظاهر في «رُبَّما» في هذه الآية أَن «ما» حرف كافٌّ، هكذا قال أَبو عليٍّ، قال: ويحتمل أَن تكون اسماً، ويكون في [يَوَدُّ] ضمير عائد عليه، التقدير: رُبَّ ودٍّ، أَو شيءٍ يوده الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ويكون ﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ بدلاً من [ما].

---

(١) البيت لجذيمة بن مالك الأبرش يفتخر بأنه يصعد الجبل بنفسه ليستطلع أعداءه، ولا يعتمد في ذلك على غيره، وأَوْفَيْت: أشرفت، والعَلَم: الجبل، والشمالات: رياح الشمال الشديدة، وفي البيت الشاهد الذي ذكره ابن عطية وهو أن «ما» هيأت لـ «رُبَّ» أن تدخل على الفعل، وهو شاهد آخر على أن «ربَّما» هنا للتكثير، لأن البيت مسوق للافتخار، ولا يناسبه التقليل، وفيه شاهد ثالث على إدخال نون التوكيد للضرورة، والبيت في سيبويه، وفي الخزانة، وفي مغني اللبيب.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي، والتوحيد، وفضائل القرآن ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، قال: (كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مِمَّا يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أُحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، فحرَّك شفتيه، فأنزل الله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، قال: جَمْعَه لك صدرُك وتقرأهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، قال: فاستمعْ له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، ثم إن علينا أَنْ تَقرَأَهُ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأ).

(٣) البيت لأبي حيَّةَ النميري، واسمه: الهيثم بن الربيع، وهو شاعر مجيد، وراجز فصيح، من أهل البصرة ومخضرمي الدولتين، والمراد بالكبش سيِّدُ القوم، والبيت في الخزانة، وفي سيبويه، والشاهد فيه أن «ما» تدخل على «من» فتجعلها صالحة لأن يليها الفعل.



وقالت فرقة: تقدير الآية: ربما كان يود الذين كفروا، قال أبو علي: وهذا لا يجيزه سيبويه، لأن «كان» لا تضمر عنده.

واختلف المتأولون في الوقت الذي يود فيه الذين كفروا لو كانوا مسلمين ـ فقالت فرقة: هو عند معاينة الموت في الدنيا، حكى ذلك الضحاك، وفيه نظر؛ إذ لا يقين للكافر حينئذ بحسن حال المسلمين، وقالت فرقة: هو عند معاينة أهوال يوم القيامة، قاله مجاهد، وهذا بيِّن؛ لأن حُسْن حال المسلمين ظاهر فيُوَدُّ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وأنس بن مالك رضي الله عنه: هو عند دخولهم النار ومعرفتهم بدخول المؤمنين الجنة، واحتج لهذا القول بحديث رُوي في هذا من طريق أبي موسى الأشعري، وهو أن الله تعالىٰ إذا أدخل عصاة المسلمين النار نظر إليهم الكفار فقالوا: أليس هؤلاءِ من المسلمين؟ فماذا أغنت عنهم لا إلـٰه إلا الله؟ فيغضب الله تعالىٰ لقولهم، فيقول: أخرجوا من النار كل مسلم؟ قال رسول الله ﷺ: «**فحينئذ يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين**»[١]. وهذا يقينهم فيه متمكن بحُسْن حال المسلمين، فمن حيث هذا كله موطن واحد في كلٍّ قول فـ [رُبَمَا] للتقليل، لأنهم كانوا في الدنيا لا يودون الإسلام في كل أوقاتهم، ومن حيث موطن الآخرة يدوم ودُّهم فيه جعل بعض الناس [رُبَمَا] هذه للتكثير، إذْ كلما تذكر أمره ودَّ أن لو كان مسلماً.

و[لَوْ] في هذه الآية هي التي للتمني، ويدخلها الامتناع من الشيءِ لامتناع غيره بإضمار يوضحه المعنى، وذلك أنهم وَدُّوا لو كانوا مسلمين فينجون النجاءَ الذي مانعه أن لم يكونوا مسلمين.

---

(١) أخرج ابن أبي عاصم في السنة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفارُ للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بكل من كان في النار من أهل القبلة فأُخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا، ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾، (الدر المنثور).



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومن العِبَر في هذه الآية حديث الوابصي الذي في ذيل الأَمالي، ومقتضاه أَنه ارتد ونسي القرآن إلاَّ هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ الآية، وعيدٌ وتهديد، وما فيه من المهادنة منسوخ بآية السيف. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ ثان، وحكى الطبري عن بعض العلماءِ أَنه قال: الأَول في الدنيا، والثاني في الآخرة، فكيف تطيب حياةٌ بين هذين الوعيدين ؟ ومعنى قوله: ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي يشغلهم أَملهم في الدنيا والتَّزيُّد فيها عن النظر والإِيمان بالله ورسوله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا﴾ الآية، أَي: لا تَسْتَبْطِئَن هلاكهم، فليس من قرية إلاَّ مُهْلَكَة بأَجل وكتاب. ومعنى [مَعْلُومٌ] محدود، والواو في قوله: ﴿وَلَهَا﴾ هي واو الحال، وقرأَ ابن أَبي عَبْلَة: [إِلَّا لَهَا] بغير واو، وقال منذر بن سعيد: هذه الواو هي التي تعطي أَنَّ الحالةَ التي بعدها هي في الزمان قبل الحالة التي قبل الواو[1]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[2]. وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ

(١) للعلماء في هذه الواو آراءٌ كثيرة، ذكر ابن عطية رأيين، وقال الفراءُ: يجوز هذا التعبير بالواو وبدون الواو، فكل اسم نكرة جاءَ خبره بعد إلا والكلام في النكرة تامٌّ فافعل ذلك بصلتها بعد إلا، فإن كان الذي وقع على النكرة ناقصاً فلا يكون إلا بطرح الواو، قال الشاعر:

إذا مـا سُتـور البَيْـتِ أُرْخِيـنَ لـم يَكُـنْ ... سـراجٌ لَنَـا إلا وَوَجْهُـكِ أنْـوَرُ

فلو قيل: إلا وَجْهُكِ أنورُ جاز، وقال الآخر:

وَمـا مَـسَّ كَفِّـي مِـنْ يـدٍ طـابَ ريحُهَـا ... مِـنَ النَّـاسِ إلا ريـحُ كَفَّيْـكِ أَطْيَـبُ

وقال الزمخشري: الجملة واقعة صفة لـ [قَرْيَة]، والقياسُ ألا تتوسط الواو بينهما، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، ووافقه على ذلك أبو البقاءِ. وعقَّب على قول كل منهما أبو حيان الأندلسي فقال: وهذا الذي قاله الزمخشري، وتبعه فيه أبو البقاءِ لا نعلم أحداً قاله من النحويِّين، قال الأخفش: لا يُفصل بين الصفة والموصوف بـ «إلا».

(٢) من الآية (٧٣) من سورة (الزُّمَر).



ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

الضمير في [قَالُوا] يُراد به كفارُ قريش، ويروى أَن القائلين كانوا: عبد الله بن أَبي أُميَّة، والنضر بن الحارث وأَشباههما، وقرأَ الأَعمش: [يَاأَيُّها ٱلَّذِي أُلْقِيَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ]. وقولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ كلامٌ على جهة الاستخفاف، أَي بزعمكَ ودعواكَ، وهذه المخاطبة كما تقول لرجل جاهل أَراد أَن يتكلم فيما لا يُحْسِن: يأَيُّها العالِم أَنت لا تُحْسِن تتوضأ.

و﴿لَوْما﴾ بمعنى «لولا» فتكون تحضيضاً كما هي في هذه الآية، وقد تكون دالةً على امتناع شيءٍ لوجوب غيره، كما قال ابن مقبل:

لَـوْلاَ الحيـاءُ ولَـوْمَـا الـدِّيـنُ عِبْتُكُمَـا ... بِبَعْضِ ما فيكُمَا إِذْ عِبْتُمَا عَوَري[1]

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [ما تَنزل الملائكةُ] بفتح التاءِ والرفع[2]، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر كذلك إِلاَّ أَنه ضم التاءَ، وهي قراءَة يحيى بن وثاب، وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص: ﴿نُنَزِّلُ﴾ بنون العظمة ﴿ٱلْمَلاَئِكَةَ﴾ نصباً، وهي قراءَة طلحة بن مصرف.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، قال مجاهد: المعنى: بالرسالة والعذاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر أَن معناه: كما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي أَراها الله لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا باختيار معترض. ثم ذكر عادة الله في الأُمم من أَنه لم يأْتهم بآية اقتراح إِلا ومعها العذاب في أَثرها إِن لم يؤمنوا، وكأَن الكلام: ما نُنَزِّل الملائكة إِلا بحق واجب لا باقتراحكم، وأَيضاً فلو نزلت لم يُنظروا بعد ذلك بالعذاب، أَي: لم

---

(١) البيت شاهد على أن «لَوْمَا» بمعنى «لَوْلا»، ولهذا تستعمل في امتناع الشيءِ لوجود غيره، وقد قال أبو عبيدة في معاني القرآن: «لوما» مجازها ومجاز «لولا» واحد، ثم استشهد ببيت ابن مقبل، واستشهد به الطبري، وعنهما أخذ ابن عطية.

(٢) يعني رفع كلمة «الملائكة» على أنها فاعل للفعل «تَنَزَّل».



يؤخروا، والنَّظِرَة: التأخير، والمعنى: فهذا لا يكون أبداً إذ كان في علم الله أن منهم من يؤمن، أو يلد من يؤمن.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ ردٌّ على المستخفِّين في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾، وهذا كما يقول لك رجل على جهة الاستخفاف: «يا عظيم القدر»، فتقول له على جهة الرَّدِّ والنَّجْه[1]: نعم أنا عظيم القدر، ثم تأخذ في قولك، فتأمله. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، قالت فرقة: الضمير في [لَهُ] عائد على محمد عليه الصلاة والسلام، أي: نحفظه من أذاكم، ونحوطه من مكركم وغيره، ذكر الطبري هذا القول ولم ينسبه، وفي ضمن هذه العِدَة كان رسول الله ﷺ حتى أظهر الله به الشرع وحان أجله، وقالت فرقة ـ وهي الأكثر ـ: الضمير في [لَهُ] عائد على القرآن، وقاله مجاهد، وقتادة، والمعنى: لحافظون من أن يبدل أو يغير كما جرى في سائر الكتب المنزلة، وفي آخر ورقة من البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن التبديل فيها إنما كان في التأويل، وأما في اللفظ فلا، وظاهر آيات القرآن أنهم بدلوا اللفظ، وَوَضْع اليَدِ على آية الرجم هو في معنى تبديل الألفاظ[2]. وقيل: لحافظون باختزانه في صدور الرجال، والمعنى متقارب، وقال قتادة: هذه الآية نحو قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، وعَرْض أُسوة، أي: لا يضيق صدرك يا محمد بما يفعله قومك من الاستهزاءِ في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ وغير ذلك، فقد تقدم منا إرسال الرسل في شِيَع

---

(١) يقال: نَجَهَ فلاناً نَجْهاً: ردَّه أقبح ردٍّ. (المعجم الوسيط).

(٢) وضع اليد على آية الرجم ورد في حديث رواه البخاري وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما، قال عبد الله: فرأيت الرجل يَخْبَأُ على المرأة يقيها الحجارة. (البخاري ـ باب المناقب). قال ابن الأثير في النهاية: (يُخْبِىء) أي: يُكِبُّ عليها ويميل، أَخْبَأ يُخْبِىءُ إخباءً، وفي رواية أُخرى: (يُخَابِىءُ عليها)، مفاعلة، ويروى بالحاء المهملة.

(٣) من الآية (٤٢) من سورة (فُصلت).



الأولين، وكانت تلك سيرتهم في الاستهزاءِ بالرسل، و«الشِّيَعُ» جمع شِيعَةٍ، وهي الفرقة التابعة لرأس، إمَّا مذهب أو رجل أو نحوه، وهي مأخوذة من قولهم: شيعت النار إذا استدمت وقدها بحطب أو غيره، فكأن الشيعة تصل أمر رأسها وتظهره وتمده بمعونة. وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ تقتضي «رُسُلاً»، ثم اختصر ذكرهم لدلالة ظاهر القول على ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

الضمير عائد على الاستهزاءِ أو الشرك ونحوه، وهو قول الحسن، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، ويكون الضمير في [بِهِ] يعود على ذلك بعينه، وتكون باءُ السبب، أي: لا يؤمنون بسبب شِرْكهم واستهزائهم، ويكون قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ في موضع الحال. ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائداً على «الذِّكْر المحفوظ» المتقدم الذكر وهو القرآن، أي: مكذَّباً به مردوداً مُسْتَهْزَءاً به ندخله في قلوب المجرمين، ويكون الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائداً عليه أيضاً، أي: لا يصدقون به. ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿نسْلُكُهُ﴾ عائداً على الاستهزاءِ والشرك، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على القرآن، فيختلف على هذا عَوْد الضميرين، والمعنى في ذلك كله ينظر بعضه إلى بعض.

و﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ معناه نُدْخِلُه، يقال: سلكْتُ الرجل في الأمر إذا أدخلته فيه، ومن هذا قول الشاعر:

وَكُنْتُ لِـزَازَ خَصْمِـكَ لَـمْ أُعَـرِّدْ ... وَقَـدْ سلكُـوكَ فـي أَمْـرٍ عَصِيـبِ[1]

ومنه قول الآخر:

حَتَّـى إذا أَسْلَكُـوهُـمْ فـي قُتَـائِـدَةٍ ... شَلاً كما تَطْرُد الْجَمَّالَةُ الشُّرُدَا[2]

---

(١) البيت لعديّ بن زيد العباديّ، وقد سبق أن استشهد به ابن عطية في تفسير سورة هود، عند قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، وقد ذكره في اللسان شاهداً على أن السَّلْكَ بالفتح هو مصدر سَلَكْتُ الشيءَ في الشيءِ فانسلَكَ، أي: أدخلته فيه فدخل. وَلِزَاز خَصْم معناه: مُقَارِنه ومُلْتَصِقٌ به لا أُفارقه مع القدرة عليه. ولم أُعَرِّدْ: لم أُحْجِم ولم أَفِرَّ من المعركة.

(٢) البيت لعبد مناف بن رِبْع الهُذَلي، وهو في (اللسان ـ جمل وسلك)، وهو هنا شاهد على أن أسلك =

ومنه قول أَبي وَجْزَة يصف حُمُر وَحْشٍ:

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوى مِنهُنَّ في مَسَكٍ ... مِن نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ مِهْدَاجِ(١)

قال الزَّجاج: ويُقرأُ: [نُسْلِكُهُ] بضم النون وكسر اللام. و﴿المُجْرِمِينَ﴾ في هذه الآية يُراد بهم كفار قريش ومعاصري رسول الله ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن ختم عليه. وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَي: على هذه الوتيرة، وتقول: سلَكْتُ الرجلَ في الأَمر وأَسْلَكْتُه بمعنى واحد، ويُروى:

حَتَّـى إِذَا أَسْلَكُـوهُـمْ فـي قُتَـائِـدَةٍ ... .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ الضمير عائد على قريش وكفرة العصر المختوم عليهم، والضمير في قوله: ﴿فَظَلُّوا﴾ يحتمل أَن يعود عليهم، وهو أَبلغ في إِصرارهم، وهذا هو تأْويل الحسن. و﴿يَعْرُجُونَ﴾ معناه: يصعدون، وقرأَ الأَعمش، وأَبو حيوة: [يَعْرِجُونَ] بكسر الراءِ(٢)، والمعارج: الأَدراج، ومنه المِعْراج، ومنه قول كثير:

إِلَـى حسَـبٍ عَـوْدٍ بَنـى الْمَـرْءَ قَبْلَـهُ ... أَبُـوهُ لَـهُ فِيـهِ مَعَـارِجُ سُلَّـم(٣)

= بالهمزة في أوله مثل سَلَك التي في بيت عديّ بن زيد، وهو أيضاً في خزانة الأدب شاهداً على أن جواب إذا محذوف، والتقدير: بلغوا أملهم، وهذا هو رأي الرضي شارح كافية ابن الحاجب، وقال البغدادي أيضاً: إن أسلك لغة في سلك، يقال: أسلكت الشيءَ في الشيءِ، مثل سلكته فيه، بمعنى أدخلته فيه، فهو من رأي ابن عطية، وكذلك الطبريُّ من رأيهما، وقُتَائِدَة: جَبَلٌ بين المنصرف والروحاءِ، قال ذلك البكري، وقيل: هي ثَنِيَّة، والشَّلُّ: الطَّرْدُ، والجَمَّالة: أصحاب الجمال، وهي في الوزن مثل الحَمَّارة لأصحاب الحمير، وهي فاعل للفعل تَطْرُد، والشُّرُد: جمع شرود، يريد: من الجمال.

(١) البيت لأبي وجْزَة، قال صاحب (اللسان ـ مَسَك) بعد أن ذكر أن المَسَك أَسْوِرَةٌ من ذَبْلٍ أو عاج: «واستعاره أبو وجزة فجعل ما تُدخل فيه الأُتن أَرْجُلَها من الماءِ مَسَكاً فقال: حتى سلكن. . . البيت». وفي التهذيب: «المَسَك الذَّبْل من العاج كهيئة السِّوار تجعله المرأة في يديها، فذلك المسك، والذَّبْل: القرون». والشَّوَى: القوائم، وقيل: هي اليدان والرجلان، والمرادُ واحد. وجابَ يجوب جوباً: قَطَع وخَرَقَ، ورجُلٌ جَوَّابٌ: مُعتادٌ لذلك إذا كان قطَّاعاً للبلاد سَيَّاراً فيها، والمِهْدَاجُ: العطوفُ الحنون على ولدها، يقول: إن هذه الحمر أَدْخلت قوائمها أو أرجلها فيما يشبه المَسَك من الماء، ثم جعل ذلك الماء من نَسل ريح تجوب البلاد، فجعل الماءَ للريح كالولد لأن الريح حملته.

(٢) وهي لغة هذيل في العروج بمعنى الصعود.

(٣) الحَسَب: الشرف الثابت في الآباءِ، أو ما يَعُدُّه الإنسان من مفاخر آبائه، والعَوْد: القديم الضخم، =



ويحتمل أن يعود على الملائكة لقولهم: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، فكأن الله تعالىٰ قال: «ولو رأوا الملائكة يصعدون ويتصرفون في باب مفتوح في السماءِ لما آمنوا»، وهذا هو تأويل ابن عباس رضي الله عنهما.

وقرأ السبعة سوى ابن كثير: ﴿سُكِّرَتۡ﴾ بِضَمِّ السِّين وشد الكاف، وقرأ ابن كثير وحده بتخفيف الكاف، وهي قراءَة مجاهد، وقرأ الزهري بفتح السين وتخفيف الكاف، على بناءِ الفعل للفاعل، وقرأ أَبان بن تغلب: «سُحِّرت أبصارنا»، ويجيءُ قوله: ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ انتقالاً إلى درجة عُظمى من سحر العقل. وتقول العرب: «سَكَرَت الريحُ تَسْكُر سُكُوراً» إذا ركدت ولم تنفذ لما كانت بسبيله أولاً، وتقول: «سَكِر الرَّجُلُ من الشراب يَسْكَرُ سُكْراً» إذا تغيرت حاله وركد ولم ينفذ فيما للإنسان أن ينفذ فيه، ومن هذا المعنى «سَكْران لا يَبتُّ»، أي: لا يقطع أمراً، وتقول العرب: «سَكَرْتُ الفَتْق في مجاري الماءِ سَكْراً» إذا طَمسته وصرفتَ الماءَ عنه فلم ينفذ لوجهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذه اللفظة: ﴿سُكِّرَتۡ﴾ بشَدِّ الكاف، إن كانت من سُكْر الشراب، أو من سُكُورِ الرِّيح فهي فعل عُدِّي بالتضعيف، وإن كانت من سَكْر مجاري الماءِ فتضعيفها للمبالغة لا للتعدية، لأن المخفف من فعله مُتَعَدٍّ، ورجَّح أبو حاتم هذه القراءَة، لأن «الأبصار» جمع، والتثقيل مع الجمع أكثر، كما قال: ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾[1]، ومن قرأ: [سُكِرَتْ] بضم السِّين وتخفيف الكاف، فإن كانت اللفظة من سَكْر الماءِ فهو فعل مُتَعَدٍّ، وإن كانت من سُكْر الشراب، أو من سُكُور الرِّيح فتضمنا أن الفعل بني للمفعول إلى أن ننزله متعدياً، ويكون هذا الفعل من قبيل: رجع زَيْدٌ ورَجَعه غيرُه، وغارت العين وغارها الرجلُ، فتقول ـ على هذا ـ: سكِرَ الرجلُ وسَكَرَهُ غيرُه، وسَكَرت الريحُ وسَكَرَها شيءٌ غيرها، ومعنى هذه المقالة منهم: أي غُيِّرت أبصارُنا عما كانت عليه، فهي لا تعطينا حقائق الأشياءِ كما كانت تفعل. وعبَّر بعض المفسرين عن هذه اللفظة بقوله: غشي على أبصارنا، وقال بعضهم: عميت أبصارنا، وهذا ونحوه تفسير بالمعنى لا يرتبط باللفظ، ويقال أيضاً: هؤلاء المبصرون عروج الملائكة أو عروج أنفسهم بعد

= والمعارج: جمع مَعْرج (بالفتح والكسر في الميم) وهو ما يصعد فيه، والعروج هو الصعود.

(١) من الآية (٥٠) من سورة (ص).

قولهم: ﴿ سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ بل سُحِرْنا حتَّى لا نعقل الأشياءَ كما يجب، أَي صرف فينا السحر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

لما ذكر أَنهم لو رأَوا الآية المذكورة قبل في السماءِ لعاندوا فيها عقَّب ذلك بهذه الآية، كأَنه قال: وإِن في السماءِ لعِبَراً منصوبة غير هذه المذكورة، وكفرهم بها وإِعراضهم عنها إِصرارٌ منهم وعُتُوٌّ، والبروج: المنازل، واحدها بُرْج، وسُمِّي بذلك لظهوره ووضوحه، ومنها تبرُّج المرأَة ظهورها وبدوها، والعرب تقول: «برج الشيءُ» إِذا ظهر وارتفع.

وحفظ السماءِ هو بالرجم بالشهب على ما تضمنته الأَحاديث الصحاح، قال رسول الله ﷺ: (إِن الشياطين تقرب من السماءِ أَفواجاً قال: فينفرد المراد منها فيعلو فيسمع فيرمى بالشهاب، فيقول لأَصحابه وهو يلهث: إِنه من الأَمر كذا وكذا، فيزيد الشيطان في ذلك، ويلقون إِلى الكهنة، فيزيدون مع الكلمة مائة)، ونحو هذا الحديث[1]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إِن الشهب تَجْرَحُ وتؤذي ولا تقتل، وقال الحسن: تقتل، وفي الأَحاديث ما يدل على أَن الرجم كان في الجاهلية ولكنه

---

(١) روى البخاري في تفسير سورة الحِجْر عن أبي هريرة يَبْلُغ به النبي ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماءِ ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان، قال علي وقال غيره: صفوانٍ يَنفُذُهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال: الحقَّ وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا، واحد فوق آخر، ووصف سُفيان بيده، وفرَّج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض ـ فربما أدرك الشهابُ المستمع قبل أن يرمي إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض ـ فتلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبة، فيصدُق فيقولون: أَلم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقّاً للكلمة التي سمعت من السماء»، والأحاديث في ذلك كثيرة وصحيحة.



اشتد في وقت الإسلام، وحفظ السماءَ حفظاً تامًّا. وقال الزَّجاج: لم يكن إلا بعد النبي عليه الصلاة والسلام؛ بدليل أن الشعراءَ لم يشبهوا به في السرعة إلا بعد الإسلام، وذكر الزهراوي عن أَبي رجاءٍ العطاردي: كنا لا نرى الرجم بالنجوم قبل الإسلام، و﴿رَجِيمٍ﴾ بمعنى مرجوم، فعيل بمعنى مفعول، فإمَّا من رجْم الشهب، وإما من الرجم الذي هو الشتم والذم. ويقال: تَبِعْت الرجل واتَّبَعْتُه بمعنى واحد[1]، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن، هذا قول، والظاهر أَن الاستثناءَ من الحفظ، وقال محمد بن يحيى عن أَبيه: إلاَّ منِ اسْتَرَقَ السَّمع فإنها لم تحفظ منه، ذكره الزهراوي.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ روي في الحديث أَن الأَرض كانت تتكفَّأُ بأَهلها كما تتكَفَّأُ السفينة فثبتها الله تبارك وتعالىٰ بالجبال، ويقال: رَسَا الشيءُ يرسو إذا رسخ وثبت، وقوله: ﴿مَوۡزُونٖ﴾، قال الجمهور: معناه: مقدر محدد[2] بقصد وإرادة، فالوزن على هذا مستعار، وقال ابن زيد: المراد ما يوزن حقيقة كالذهب والفضة وغير ذلك مما يوزن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأَول أَعَمُّ وأَحسن[3].

و«المعايش» جمع معيشة، وقرأَها الأَعرج بالهمز، وكذلك روى خارجة عن نافع، والوجه ترك الهمز، لأَن الأَصل في ياءِ «معيشة» الحركة، فيردها الأَصل إلى الجمع، بخلاف «مدينة ومدائن»[4]، وقوله: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ يحتمل أَن تكون ﴿مَنْ﴾

---

(١) قال في (اللسان ـ تبع): «تَبِعْتُ الشيءَ تُبُوعاً: سِرْتُ في أثره، واتَّبَعْه وأَتْبَعَه وتَتَبَّعَهُ قفاه وتَطَلَّبَه مُتَّبِعاً له»، ونقل عن سيبويه أنه قال: إنَّ (تَتَبَّعْتُ) في معنى (اتَّبَعْتُ).

(٢) في بعض النسخ: (مُحَرَّر) بالراء، وهو النَّص الذي نقله عنه أبو حيان في «البحر المحيط».

(٣) نقل القرطبي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير أنهما قالا: «إنما قال: [مَوْزُون] لأن الوزن يُعرف به مقدار الشيءِ»، ثم أنشد:

قَد كنتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذا مِرَّةٍ ... عِنْدِي لكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزانُه

وقال قتادة: موزون يعني مقسوم، وقال مجاهد: موزون معدود.

(٤) يقول النحويون: إن الهمزة إنما تكون في هذه الياءِ إذا كانت زائدة، مثل صحيفة وصحائف، فأما معايش فالياءُ أصلية لأنها من العيش، ومَعيشة وزنها مَفْعِلة، والياءُ أصلها متحركة فلا تنقلب في الجمع همزة، وبهذا يتضح كلام المؤلف.

في موضع نصب على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون عطفاً على ﴿مَعايِشَ﴾، كأن الله تعالىٰ عدَّد النِّعم في المعايش وهي ما يُؤكل ويُلْبس، ثم عدَّد النعم في الحيوان والعبيد والضياع وغير ذلك مما ينتفع به الناس وليس عليهم رزقهم، والوجه الثاني أن تكون ﴿مَنْ﴾ معطوفة على موضع الضمير في ﴿لكُمْ﴾، وذلك أن التقدير: وأَعَشْناكم وأعشْنا[1] أمماً غيركم من الحيوان، وكأن الآية ـ على هذا ـ فيها اعتبار وعرض آية، والوجه الثالث أن تكون [مَنْ] منصوبة بإضمار فعل يقتضيه الظاهر وتقديره: وأَعَشْنا مَنْ لسْتُم له برازقين، ويحتمل أن تكون ﴿مَنْ﴾ في موضع خَفْض عطفاً على الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، وهذا قلق في النحو، لأنه العطف على الضمير المجرور وفيه قُبْح، فكأنه قال: ومن لَسْتُمْ له برازقين وأنتم تنتفعون به.

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[2]، قال ابن جريج: هو المطر خاصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وينبغي أن يكون أَعَمَّ من هذا في كثير من المخلوقات، و«الخزائن» المواضع الحاوية، وظاهر هذا أن الماءَ والريح ونحو ذلك موجود مخلوق، وهو ظاهر قولهم في الريح: «عتَت على الخزائن، وانفتح منها قدر حلقة الخاتم، ولو كان قدر منخر الثور لأهلك الأرض»، إلى غير ذلك من الشواهد، وذهب قوم إلى أن كونها في القدرة هو خَزْنُهَا، فإذا شاءَ الله أوجدها، وهذا أيضاً ظاهر في أشياءَ كثيرة، وهو لازم في الأعراض إذا عَمَّمْنا لفظة «شيء»، وكيفما كان الأمر فالقدرة تسعه وتُتْقنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾، ما كان من المطر ونحوه فالإنزال فيه متمكن، وما كان من غير ذلك فإيجاده والتمكين من الانتفاع به إنزالٌ على تجوز، وقرأ الأعمش: [وَمَا نُرْسِلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ معْلُوم][3]، وقوله: ﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ روي فيه ابن مسعود وغيره أنه ليس عامٌ أكثر مطراً من عام، ولكن ينزله الله في مواضع دون مواضع.

---

(١) في بعض الأصول: «وأمعشناكم وأمعشنا أُمَماً غيركم» بالميم، وفي بعض آخر: «وأنْعَشناكم...» بالنون.

(٢) [إنْ] نافية، و[مِنْ] زائدة، وأصل الكلام: لا شيءَ إلا عندنا خزائنه.

(٣) قال أبو حيان في البحر المحيط: «وهي قراءة تفسير معنى، لا أنها لفظ قرآن لمخالفتها سواد المصحف».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

يقال: لقحت الناقة والشجرة فهي لاقحة إذا حملت، والرياح تلقح الشجر والسحاب، فالوجه في الريح أَنها مُلَقِّحَة لا لاقحة، وتتجه صفة الرياح بـ [لَوَاقح] على أَربعة أَوجه: أَولها وأَوْلاها أَن جعلها لاقحة حقيقة؛ وذلك أَن الريح منها ما فيه عذاب أَو ضر أَو نار، ومنها ما فيه رحمة أَو مطر أَو نصر أَو غير ذلك، فإِذاً هي تَحْمِلُ مَا حَمَّلَتها القدرة، أَو ما علقته من الهواءِ أَو التراب أَو الماءِ الذي مرت عليه، فهي لاقحة بهذا الوجه، وإِن كانت أَيضاً تلقح غيرها وتصير إِليه نفعها، والعرب تُسمِّي الجنوب الحامل واللاقحة، وتسمِّي الشمال الحايل[1] والعقيم ومَحْوة لأَنها تمحو السحاب، روى أَبو هريرة أَن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «الرِّيح الجنوب من الجنة، وهي اللواقح التي ذكر الله، وفيها منافع للناس»[2]، ومن هذا قول الطِّرِمَّاح:

قَلِقٌ لأَفْنَانِ الرِّيَا ... حِ لِلاَقِحٍ منها وحائل[3]

وقول أَبي وجزة:

. . . . مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ. . .[4]

---

(١) أي التي لا تحمل خيراً، يقال: حالت النَّاقة تحيل حيالاً: لم تحمل، قال الشاعر:

مِنْ سَرَاةِ الهِجَانِ صَلَّبَهَا العُضْـ ... ـضُ ورَعْيُ الحِمَى وطولُ الحِيَالِ

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه، وللحديث بقية هي «والشمال من النار تخرج فتمر بالجنة فيصيبها نعمة منها فبَرْدها هذا من ذلك». (الدر المنثور، وفتح القدير).

(٣) اللاَّقح: الجنوب، والحائل: الشمال، وتسمى الشمال عقيماً، كما سمَّاها الطِّرِمَّاحُ حائلاً، وقال أبو عليٍّ في الحجة: «الرياح أربع: الشمال، والجنوب، والصَّبا، والدبور، فأما الشمال فمن عن يمين القبلة، والجنوب من عن شمالها، والصَّبا والدبور متقابلتان، فالصَّبا من قِبَل المشرق، والدبور من قِبَل المغرب، وإذا جاءت الريح بين الصَّبا والشمال فهي النكباء».

(٤) هذا جزء من البيت، وقد سبق الاستشهاد به والحديث عنه في هذا الجزء عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية (١٢) من هذه السورة: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾، والبيت بتمامه: =



فجعلها حاملاً بنسل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويخرج هذا على أَنها ملقحة فلا حجة فيه.

والثاني أَن يكون وصفها بـ [لَوَاقحَ] من باب قولهم: «ليل نائِمٌ»، أَي: فيه نوم ومعه، «ويوم عاصف» ونحوه، فهذا على طريق المجاز. والثالث أَن توصف الرياح بـ [لَوَاقح] على جهة النسب، أَي: ذات لقح، كقول النابغة:

كِلِينـي لِهَـمٍّ يـا أُمَيْمَـةَ نَـاصِـبِ . . . .[1]

أَي: ذي نصب. والرابع أَن يكون [لَوَاقح] جمع «ملقحة» على حذف زوائده، فكأَنه «لَقِحة» فجمعها كما تجمع «لاقحة»، ومثله قول الشاعر:

لِيُبْـك يَـزِيـدُ ضـارِعٌ لِخُصـومَـةٍ وأَشعَثُ مِمَّن طَوَّحَتْهُ الطَّـوَائِحُ[2]

وإِنما طَوَّحَتْهُ المطاوح، وعلى هذا النحو فسَّرها أَبو عبيدة في قوله: «لواقح ملاقح»، وكذلك العبارة عنها في كتاب البخاري: «لواقح ملاقحة».

= حَتَّى سلَكْنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ فِي مَسَكٍ مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ مِهْدَاجِ

والشاهد هنا أنه جعل الريح التي تجوب الآفاق حاملاً بماءٍ تكونت منه بعد ذلك بِرَكٌ أَدخلت فيها الحمر الوحشية قوائمها.

(١) البيت بتمامه:

كِلِينـي لِهَـمٍّ يـا أُمَيْمَـةَ نـاصِـبِ وَلَيْـلٍ أُقـاسيه بَطِيءِ الْكَـوَاكِـبِ

وهو مطلع قصيدة للنابغة يمدح بها عمرو بن الحارث الأعرج، حين هرب من النعمان بن المنذر، وفيه يطلب إلى أُميمة أن تتركه لهذا الهم الذي ينصب فيه ويتعب، ولهذا الليل الطويل الذي لا يريد أن يفارقه. والشاهد هنا أن «ناصب» بمعنى «ذي نصب» على جهة النسب، وهذا رأي من الآراء التي قيلت في البيت، وقال الأصمعي: ناصب: ذي نصب، مثل: ليل نائم، أي ذو نوم، ورجل دارع، أي ذو درعٍ، وكذلك قال سيبويه، وقال في اللسان: هَمٌّ ناصب: مُنْصب، وحكى أبو علي نَصْبَه لـ (هَمٍّ). فهل يا ترى يريد أنه اسم فاعل قياسي جارٍ على فعله، وليس على النَّسَب ولا على التجوز في الإسناد؟.

(٢) هذا البيت لنهشل بن حريّ، وقد استشهد به أبو عبيدة عند تفسير هذه الآية ونسبه لنهشل، وكذلك نسبه البغدادي لنهشل، وأورده صاحب (اللسان ـ طيح) مع اختلاف في بعض الألفاظ، قال: وأنشد سيبويه ـ البيت، ثم قال ـ أي سيبويه ـ: «الطوائح» على حذف الزائد، أو على النسب.



وقرأ الجمهور: [الرِّيَاحَ] بالجمع، وقرأ الكوفيون: حمزة، وطلحة بن مصرف، والأعمش، ويحيى بن وثاب: [الرِّيحَ] بالإفراد، وهي للجنس فهي في معنى الجمع، ومثَّلها الطبريُّ بقولهم: «قميص أَخلاقٌ، وأَرضٌ أَغفال»[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله من حيث هو أَجزاءٌ كثيرة تجمع صفته، فكذلك «ريح لواقح» لأَنها متفرقة الهبوب، وكذلك «دارٌ بلاقع»، أَي: كل موضع منها بلقع. وقال الأَعمش: إن في قراءَة عبد الله «وأَرْسَلْنَا الرِّيحَ تَلْقَح»، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «الريح من نفس الرحمن»[٢]. ومعنى الإضافة هنا إضافة خَلْق إلى خالق، كما قال: «من روحي»، ومعنى «من نفس الرحمن» أَي من تنفيسه وإزالته الكُرَب والشدائد، فمن التنفيس بالريح النَّصْر بالصبا[٣]، ودُرُور الأَرزاق بها، وما لها من الخدمة في الأَرزاق وجَلْب الأَمطار وغير ذلك مما يكثر عدُّه، ولقد حُدِّثْتُ أَن ابن أَبي قحافة رحمه الله فَسَّر هذا الحديث نحو هذا، وأَنشد في تفسيره:

فـإِنَّ الصَّبـا ريـحٌ إذا مـا تنفَّسَـتْ ... على نفْسِ مَهْمُوم تَجلَّت همومها[٤]

وهذا من جملة التنفيس.

---

(١) عبارة الطبري تقول: «إن الريح وإن كان لفظها واحداً فمعناها الجمع، لأنه يقال: جاءَت الريح من كل جانب، فقيل: لواقح لذلك، فيكون معنى جمعهم نعتها وهي في اللفظ واحدة معنى قولهم: أرض سباسب، وأرض أغفال، وثوب أخلاق، كما قال الشاعر:

جـاء الشِّتـاءُ وقَميصـي أخْـلاقْ ... شَـرَازِمٌ يَضْحَـكُ مِنْـهُ التَّـوَّاقْ

وكذلك تفعل العرب في كل شيءٍ اتسع». اهـ. والسباسب: جمع سبْسَب، وهي المفازة أو الأرض البعيدة المستوية، وأَغفال: لا عَلَم فيها، والتَّوَّاق في البيت هو ابن الراجز، قال ذلك في (اللسان ـ خَلَق).

(٢) النَّص الذي وجدناه في هذا المعنى هو ما رواه البخاري في الأدب، وأبو داود، والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة: «الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها، واسألوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرها»، قال الإمام السيوطي: حديث صحيح. (الجامع الصغير).

(٣) الصَّبَا: ريح مَهَبُّهَا من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنث). (المعجم الوسيط).

(٤) ويروى: «على قلب محزون»، وتَجَلَّت همومها: ذهبت وانكشفت عنها. والبيت غير منسوب.



والعرب تقول: أَسقَى وسقى بمعنى واحد، قال لبيد:

سَقَى قَوْمِي بَنِي مجدٍ وأَسْقَى ... نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِلاَلِ[1]

فجاء باللغتين، وقال أَبو عبيدة: أَما إِذا كان من سَقْي الشفة خاصة فلا يقال إِلاَّ سَقَى، وأَما إِن كان لسَقْي الأَرض والثمار وجملة الأَشياءِ فيقال: أَسقى، وأَما الداعي لأَرض أَو غيرها بالسقي فإِنما يقال فيه: أَسقى، ومنه قول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رسْمٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي ... فمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وأُخاطِبُهْ

وأَسْقِيهِ حتَّى كادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلاعِبُهْ[2]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

على أَن بيت لبيد دعاءٌ وفيه اللغتان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ الآية. هذه الآية مع الآيات التي قبلها تضمنت العبرة والدلالة على قدرة الله تعالىٰ، وما يوجب توحيده وعبادته، فمعنى هذه الآية: وإِنا نحن نحيي من نشاءُ بإخراجه من العدم إِلى وجود الحياة، ونردُّه عند البعث من مرقده ميتاً، ونميت بإِزالة الحياة عمن كان حيًّا. ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أَي: لا يبقى شيءٌ سوانا، وكل شيٍ هالك إِلا وجهه، لا ربَّ غيره.

ثم أَخبر تعالىٰ بإِحاطة علمه بمن تقدم من الأُمم وبمن تأَخر في الزمن، من لدن أُهبط آدم إِلى الأَرض إِلى يوم القيامة، وأَعلم أَنه هو الحاشر لهم، الجامع لِعرض يوم القيامة على تباعدهم في الأَقطار والأَزمان، وأَنَّ حِكمَته وعِلْمه يأْتيان بهذا كله على أَتَمِّ غاياته التي قدرها وأَرادها. وقرأَ الأَعرج: [يَحْشِرُهُم] بكسر الشين.

---

(١) قال صاحبُ (اللسان ـ سقى): «سقاه اللهُ الغيثَ وأَسقاه، وقد جمعها لبيد في قوله: سقى قومي... البيت» ثم قال: «ويقال: سقيته لشفته، وأسقيته لماشيته وأرضه». وهذا يتفق تماماً مع ما قاله ابن عطية، ومع ما نقله عن أبي عبيدة.

(٢) البيتان في الديوان، وقد استشهد بهما الطبري في تفسيره، وأبو عبيدة في كتابه «مجاز القرآن»، قال: يقال: سقيت الرجل ماءً وشراباً من لبن وغير ذلك، وليس فيه إلا لغة واحدة بغير ألف، إذا كان في الشَّفة، وإذا جعلت له شِرْباً فهو أَسْقَيْته وأَسْقَيت أرضه وإبله، لا يكون غير هذا، وكذلك إذا استسقيت له. وهو يتفق مع كلام المؤلف هنا إلا في النقطة الأخيرة، لأن ابن عطية يقول: «بيت لبيد دعاءٌ وفيه اللغتان». والرسم: الأثر الباقي من الدار بعد أن عَفَتْ وأَسْقِيه: أَدعو له بالسقيا. وأَبُثُّه أشكو إليه، وقد أبدع الشاعر في تصويره وكاد يحرك الأحجار والملاعب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا سياق معنى الآية، وهو قول جمهور المفسرين. وقال الحسن: معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ أي: في الطاعة والبدار إلى الإيمان والخيرات، و﴿ٱلْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ بالمعاصي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإن كان اللفظ يتناول كل من تقدم وتأخر على جميع وجوهه، فليس يطرد سياق معنى الآية إلا كما قدمناه. وقال ابن عباس، ومروان بن الحكم، وأبو الجوزاءِ: نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ الآية في قوم كانوا يصلون مع النبي ﷺ، وكانت امرأة جميلة تصلي وراءَه، فكان بعض القوم يتقدم في الصفوف لئلا تفتنه، وكان بعضهم يتأخر ليسرق النظر إليها في الصلاة، فنزلت الآية فيهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما تَقَدَّم الآية من قوله: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ وما تأخر من قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يضعف هذه التأويلات، لأنها تُذهب إيصال المعنى، وقد ذكر ذلك محمد بن كعب القرظي لعون بن عبد الله(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الآية. ﴿الإنسان﴾ هنا للجنس، والمراد آدم عليه السلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سُمِّي بذلك لأنه عُهد إليه فنسي، ودخل مَنْ بعده في ذلك إذ هو من نسله. و«الصلصال» الطين الذي إذا جف صَلْصَل، هذا قول فرقة، منها من قال: هو طين الخزف، ومنها قول الفراءِ: هو الطين الحر يخالطه رمل دقيق. وقال ابن عباس: خلق من ثلاثة: من طين لازب، وهو اللازق الجيد، ومن

---

(١) أما القرظي فهو محمد بن كعب بن سليم بن أسد أبو حمزة القرظي، المدني، نزل الكوفة مدة، ثقة، عالم، من الطبقة الثالثة، ولد سنة أربعين على الصحيح، قال البخاري: إن أباه كان ممن لم ينبت من بني قريظة. (تقريب التهذيب).

وأما عون، فهو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، خطيب، راوية، ناسب، شاعر، كان من آدب أهل المدينة، وسكن الكوفة فاشتهر فيها بالعبادة والقراءة، كان يقول بالإرجاء، ثم رجع، وخرج مع ابن الأشعث ثم هرب، وصحب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في خلافته. (تهذيب التهذيب ـ الأعلام).



صلصال، وهو الأَرض الطيبة يقع عليها الماءُ ثم ينحسر فتشقق وتصير مثل الخزف، ومن حمإٍ مسنون، وهو الطين فيه الحمأَة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكان الوجه ـ على هذا المعنى ـ أَن يقال: «صلال»، لكن ضوعف الفعل من فائه، وأُبدلت إِحدى اللامين من «صلال» صاداً، وهذا مذهب الكوفيين، وقاله ابن جني، والزبيدي، ونحوهما على نحو البصرة، ومذهب جمهور البصريين أَنهما فعلان متباينان، وكذلك قالوا في ثَرَّار وثَرْثَارة، قال بعضهم: تقول: صلَّ الخزف ونحوه إِذا صوت بتمديد، فإِذا كان في صوته ترجيع كالجرس ونحوه قلت: صَلْصَلَ، ومنه قول الكُميت:

فيهـا الْعَنَـاجِيـج تَـرْدِي فـي أَعِنَّتِهَـا ... شُعْثاً تُصلْصِلُ في أَشْدَاقِهَا اللُّجُمُ[1]

وقال مجاهد وغيره: [صَلْصَال] هنا إِنما هو من: «صَلَّ اللَّحْم» إِذا أَنْتَن، فجعلوا معنى [صَلْصَالٍ] و[حَمَإٍ] في لزوم النَّتَن شيئاً واحداً.

و«المَسْنُون»، قال معمر: معناه: المنتن، وهو من «أَسِن الماءُ» إِذا تغير، والتصريف يرُدُّ هذا القول، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المسنون: الرطب، ، هذا تفسير لا يخص اللفظة، وقال الحسن: المعنى: سن ذريته على خلقه، ، الذي يترتب في [مَسْنُون] إِما أَن يكون: محْكُوك مُحْكم العمل أَملس السطح، فيكون من معنى المسنّ والسنان وقولهم: «سننت السكين، وسننت الحجر» إِذا أَحكمت مَلْسه، ومن ذلك قول الشاعر:

ثُـمَّ دافَعْتُهَـا إِلَـى القُبَّـةِ الْخَضْـ ... ـراءِ تَمْشِي في مَرْمَرٍ مَسْنُونِ[2]

---

(١) العَنَاجيج: جمع عُنْجُوج، وهو الرائع من الخيل، وقد استعمل في الإبل أيضاً، ولكن الوصف هنا للخيل، ومعنى تَرْدِي أنها تَرْجُم الأرض في عدوها، نقل صاحب اللسان عن الأصمعي قوله: إذا عدا الفرسُ فرجم الأرض رجماً قيل: رَدَى بالفتح يردِي ردْياً ورَدَياناً، والشُّعْث: التي تَلَبَّد شعرها واغبَرَّ، وصَلْصَلة اللجام: صوتُه إذا ضوعف، قال الليث (ونقله عنه في اللسان): يقال: صلَّ اللجامُ إذا توهمتَ في صوته حكايةَ صوت صَلْ، فإن توهمت ترجيعاً قلتَ: صلصل اللجام، وهو ما قاله ابن عطية هنا واستشهد عليه بالبيت.

(٢) نسب هذا البيت إلى عبد الرحمن بن حسَّان، وذلك أن يزيد بن معاوية قال لأبيه: ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسَّان يُشَبِّب بابنتك ؟ فقال معاوية: ما قال ؟ فقال: قال: =



أَي: مُحْكم الإملاس، وإما أَن يكون بمعنى الْمَصْبُوب: تقول: «سَنَنتُ التراب والماءَ» إذا صببْتَهُ شيئاً بعد شيءٍ، ومنه قول عمرو ابن العاص رضي الله عنه لمن حضر وفاته: «إِذَا أَدخلتُموني في قبري فسُنُّوا علي التراب سنًّا»، ومن هذا سنُّ الغارة. وقال الزَّجاج: هو مأْخوذ من كونه على سُنَّة الطريق، لأَنه إنما يتغير إذا فارق الماءَ، فمعنى الآية على هذا: من حمأٍ مصبوب يوضع بعضه فوق بعض على مثال وصورة.

[وَٱلْجَآنَّ] يراد به جنس الشياطين، ويُسَمَّون جنَّة وجَانًّا وجِنًّا لاستتارهم عن العين، وسئل وهب بن مُنَبِّه عنهم فقال: هم أَجناس، فأَما خالص الجِنِّ فهم ريح لا يأْكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون، ومنهم أَجناس تفعل هذا كله، منها السعالي والغول وأَشباه ذلك. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: «الجأن» بالهمز[1]، والمراد بهذه الخلقة إبليس أَبو الجن، وفي الحديث: «إن الله تعالىٰ خلق آدم من جميع أَنواع التراب، الطيب والخبيث، والأَسود والأَحمر»[2]، وفي سورة البقرة إيعاب هذا. وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ لأَن إبليس خلق قبل آدم بمدة، وخلق آدم آخر الخلق. و«السَّمُومُ»

=
هِـــي زَهْــرَاءُ مِثْــلُ لُــؤْلُــؤَةِ الغَــوْ ... وَاصِ مِيــزَتْ مِــنْ جَــوْهَــرٍ مَكْنُــونِ

فقال معاوية: صدق، فقال يزيد: إنه يقول:

وإذا مـــا نَسَبْتَهَـــا لَـــمْ تَجِـــدْهَـــا ... فـــي سَنَـــاءٍ مِـــنَ الْمَكَـــارِمِ دُونِ

قال: وصدق، قال: فأَيْنَ قوله:

ثـــم خَـــاصَـــرْتُهَـــا إلـــى القُبَّـــةِ الْخَضْـ ... ـــراءِ تَمْشـــي فـــي مَـــرْمَـــرٍ مَسْنُـــونِ

قال معاوية: كذب.

قال ابن بري: وتُروى هذه الأبيات لأبي رَهْبَل، وهي في شعره، يقولها في رمْلَة بنت معاوية، وأول القصيدة:

طَـــالَ لَيْلِـــي وَبِـــتُّ كـــالمَجْنُـــونِ ... وَمَلِلْـــتُ الثَّـــوَاءَ بـــالمَـــاطِـــرُونِ

(راجع اللسان ـ سَنَن) فللخبر بقية.

(١) وهي أيضاً قراءة عمرو بن عبيد، قاله في «البحر المحيط».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود، والترمذي، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في السنن، عن أبي موسى، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة، ولفظه كما في «الجامع الصغير»: «إن الله تعالىٰ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحسن والخبيث والطيب وبين ذلك».



في كلام العرب إفراط الحرّ حتى يقتل، من نارٍ أو شمس أو ريح، وقالت فرقة: السَّموم بالليل، والحرُور بالنهار، وأما إضافة النار إلى السموم في هذه الآية فيحتمل أن تكون النار أنواعاً ويكون السموم أمراً يختص بنوع منها فتصح الإضافة حينئذ، وإن لم يكن هذا فيُخَرَّج هذا على قولهم: «مسجد الجامع» و«دار الآخرة» على حذف مضاف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[إذْ] نصبت بإضمار فعل مقدر، تقديره: واذكر إذ قال ربك، و«البشر» ها هنا آدم، وهو مأخوذ من البشرة، وهي وجه الجلد في الأشهر من القول، ومنه قول النبي ﷺ: «وأَنْقوا البشرة»[1]. وقيل: البشرة ما يلي اللحم، ومنه قولهم في المثل: «إنما يُعَاتَبُ الأديمُ ذُو البَشَرة»[2]؛ لأن تلك الجهة هي التي تبشر، وأخبر الله تعالىٰ الملائكة بعجب عندهم، وذلك أنهم كانوا مخلوقين من نور، فهي أجسامٌ لطاف، فأخبرهم أنه يخلق جسماً حيًّا ذا بشرة، وأنه يخلقه من صلصال، والبِشْر والبِشارة أيضاً أصلهما البَشَرة لأنهما فيها يظهران.

و[سَوَّيْتُهُ] معناه: كمَّلته وأتقنته حتى إذا استوت أجزاؤُه على ما يجب، وقوله: ﴿ مِن رُّوحِي ﴾ إضافة خلق وملك إلى خالق مالك، أي: من الروح الذي هو لي، ولفظ الروح هنا للجنس، وقوله: [فَقَعُوا] من وقع يَقَع، وفتحت القاف لأجل حرف الحلق، وهذه اللفظة تُقَوِّي أن سجود الملائكة إنما كان كالمعهود عندنا، لا أنه خضوع وتسليم وإشارة كما قال بعض الناس، وشبهوه بقول الشاعر:

(١) «فاغسلُوا الشعر وأَنقوا البشرة»، هكذا رواه الترمذي، وابن ماجه في الطهارة. (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي).

(٢) جاء في «مجمع الأمثال» للميداني: «المعاتبة: المعاودة، وبشرة الأديم: ظاهره الذي عليه الشعر، أي: إنَّما يُعاد إلى الدِّباغ من الأديم ما سلمت بَشَرته، يُضربُ لمن فيه مراجعة ومُسْتَعْتب، قال الأصمعي: كل ما كان في الأديم محتمل ما سلمت البشرة، فإذا نغلت البشرة بطل الأديم».



فَكِلْتَاهُمَا خرَّتْ وأَسْجَدَ رأْسُهَا ... كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ[1]

وهذا البيت يشبه أَن يكون السجود فيه كالمعهود عندنا، وحكى الطبري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «خلق الله ملائكة وأَمرهم بالسجود لآدم فأَبوا، فأَرسل عليهم ناراً فأَحرقتهم، ثم خلق آخرين فكذلك، ثم خلق آخرين فأَمرهم بالسجود فأَطاعوا إِلا إِبليس فإِنه كان من الأَولين»، وقوله: «من الأَولين» يحتمل أَن يريد: من الأَولين في حالهم وكفرهم، ويحتمل أَن يريد أَنَّه بقِيَ منهم.

وقوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ هو عند سيبويه تأكيد بعد تأكيد، يتضمن الآخر ما تضمن الأَول، وقال غيره: [كُلُّهُمْ] لَوْ وُقف عليه لصلحت للاستثناءِ، وصلحت على معنى المبالغة مع أَن يكون البعض لم يسجد، وهذا كما يقول القائل: «كلُّ الناس يعرف كذا»، وهو يريد أَن المذكور أَمر مشتهر، فلما قال: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ رفع الاحتمال في أَن يبقى منهم أَحد، واقتضى الكلامُ أَن جميعهم سجد، وقال المبرّد: لو وُقف على ﴿كُلُّهُمْ﴾ لاحتمل أَن يكون سجودهم في مواطن كثيرة، فلما قال: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ دلَّ على أَنهم سجدوا في موضع واحد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واعترض قول المبرّد بأَنه جعل قوله تعالىٰ: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ حالاً بمعنى «مُجْتَمِعِينَ»، ويلزمه ـ على هذا ـ أَن يكون ﴿أَجْمَعُونَ﴾ هنا على أَن يقرب من التنكير إِذ هو معرفة لكونه يلزم إِتباع المعارف، والقراءَة بالرفع تأْبَى قوله.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾، قيل: إِنه استثناءٌ من الأَول، وقيل: إِنه ليس من

---

(١) تأتي «خَرَّ» بمعنى سجد، فقد نقل صاحب (اللسان ـ خَرَرَ) أن الأخفش قال: «خَرَّ: صار في حال سجوده»، وتأتي «أسجد» بمعنى «سجد»، قال الزمخشري في (أساس البلاغة ـ سَجَدَ): «وسَجَدَ البعير وأَسْجَد: طامن رأسَه لراكبه». «ولم تَحَنَّف» لم تُسْلِمْ، وابن عطية يستشهد بالبيت على أن السجود هنا سجود حقيقي كالمألوف عندنا، وليس مجرد خضوع وتسليم وإشارة.

هذا والبيت لأبي الأخزر الحماني، وهو في (سيبويه)، وفي (اللسان ـ نصر)، وأنشده في (الإنصاف ٤٤٥)، وفيه يصف الشاعر ناقتين خَرَّتا من الإعياء، أو نُحِرتا فطأطأتا رأسيهما، فشبه إسجادهما بسجود النصرانة، والنحويون يستشهدون بالبيت على أن (نصرانة) مؤنثة بالهاءِ، وأن المذكر منها (نصران) وإن لم يستعمل في الكلام إلا بياء النسب (نصراني)، وأن (النصارى) جمع (نصران) كما أن ندامى جمع ندمان.

الأول، وهذا متركب على الخلاف في إبليس، هل هو من الملائكة أم لا ؟ والظاهر من كثير من الأحاديث ومن هذه الآية أنه من الملائكة، وذلك أن الله تعالىٰ أمر الملائكة بالسجود، ولو لم يكن إبليس من الملائكة لم يذنب في ترك السجود، وقد روي عن الحسن بن أبي الحسن أن إبليس إنما كان من قبيل الجن، ولم يكن قط ملكاً، ونسب ابن فُورك القول إلى المعتزلة، وتعلّق من قال هذا بقوله تعالىٰ في صفته: ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾[1]، وقالت الفرقة الأخرى: لا حجة في هذا لأن الملائكة قد تُسمَّى جنًّا لاستتارها، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿قال يا إبليس﴾، قيل: إنه حينئذ سمَّاه إبليس، وإنما كان اسمه قَبْلُ عَزَازيل[3]، وهو من الإبلاس، وهو الإبْعَاد، أي: يا مُبْعَد. وقالت طائفة: إبليس كان اسمه، وليس باسم مشتق، بل هو أعجمي، ويقضي بذلك أنه لا ينصرف، ولو كان عربياً مشتقاً لكان كإجفيل، من أجفل، وغيره، ولكان منْصرفاً، قاله أبو علي الفارسي.
وقوله: ﴿ أَلَّا تَكُونَ ﴾، [أَنْ] في موضع نصب، وقيل: في موضع خفض، والأصل: «مالك في ألا تكون»، وقول إبليس: ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ ﴾ ليس هذا موضع كفره عند الحذاق، لأن إبايته إنما هي معصية فقط، وأما تعليله فإنما يقتضي أن الله خلق خلقاً مفضولاً وكَلَّف خلقاً أفضل منه أن يذلّ له، فكأنه قال: «وهذا جور»، وذلك أن إبليس لما ظن أن النار أفضل من الطين ظن أن نفسه أفضل من آدم من حيث النار تأكل الطين، فقاس وأخطأ في قياسه، وجهل أن الفضائل إنما هي حيث جعلها المالك للجميع، لا ربَّ غيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٥٠) من سورة (الكهف): ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾.
(٢) من الآية (١٥٨) من سورة (الصافات).
(٣) وقيل: كان اسمه (الحارث)، والاسمان منقولان عن ابن عباس رضي الله عنهما، (راجع الطبري).

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

الضمير في [مِنْها] للجنة وإن لم يجر ذكرها، فالقصة تتضمنها، ويحتمل أن يعود الضمير على صيغة الملائكة. و«الرجيم» المشؤوم، أي: المرجوم بالقول والشتم، و﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاءِ، ومنه قول الشاعر:

ولَـمْ يبْـقَ سِـوَى ٱلْعُـدْوا ... نِ دِنَّـاهُـمْ كمـا دَانُـوا[1]

وسأَل إبليس النَّظرة إلى يوم البعث فأَعطاه الله إياها إلى وقت معلوم، واختُلف فيه ـ فقيل: إلى يوم القيامة، أَي يكون آخر من يموت من الخلق، قاله الطبري وغيره. وقيل: إلى وقت غير معين ولا مرسوم بقيامة ولا غيرها، بل علمه عند الله وحده. وقيل: بل أَمره كان إلى يوم بدر، وأَنه قتل يوم بدر، وهذا ـ وإن كان رُوي ـ فهو ضعيف. والمُنْظر: المؤخَّر. وقوله: ﴿رَبِّ﴾ مع كفره يخرج على أَنه يُقِرُّ بالربوبية والخلق، وهو الظاهر من حاله وما تقتضيه فيه الآيات والأَحاديث، وهذا لا يدفع في صَدْر كفره.

وقوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾، قال أَبو عبيدة، وغيره: «أَقْسَمَ بالإِغواءِ»، كأَنه جعله بمنزلة قوله: «ربِّ بقدرتك عليَّ وقضائك»، ويحتمل أَن يكون بالسبب، كأَنه قال: «ربِّ والله لأُغوينهم بسبب إغوائك لي ومن أَجله وكفاءً له»، ويحتمل أَن يكون المعنى تجلداً منه ومبالغة في الجد، أَي: «بحالي هذه وبعدي من الخير والله لأَفعلن ولأُغوِيَنَّ» ومعنى ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَي الشهوات والمعاصي. والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ لذرية آدم وإن كان لم يجر لهم ذكر، فالقصة بجملتها حيث وقعت كاملةً تَتَضَمَّنُهم، والإِغواءُ: الإِضلال».

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأَعرج: [ٱلْمُخْلَصِين] بفتح

---

(١) المعنى: جازيناهم كما جازَوْا، ومن نفس المعنى قوله تعالىٰ: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال قتادة: معناه: مالك يوم يُدان فيه العباد، أي يجازون بأعمالهم، وفي المثل: «كما تَدين تُدان»، أي كما تجازي تُجازَى، وقال خُوَيْلد بن نوفل الكلابي للحارث بن أبي شَمر الغَسَّاني وكان اغتصبه ابنته أبياتاً منها:

يـا حـارِ أيقِـنْ أنَّ مُلْكَـكَ زَائِـلٌ ... واعْلَـمْ بـأنَّ كمـا تَـدِيـنُ تُـدَانُ



اللام، أي الذين أخلصتهم أنت لعبادتك وتقواك، وقرأ الجمهور بكسر اللام، أي الذين أخلصوا الإيمان بك وبرسولك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴾، القائل هو الله تبارك وتعالىٰ، ويحتمل أن يكون ذلك بواسطة، وقرأ الضحاك، وحُميْد، والنَّخعي، وأبو رجاءٍ، وابن سيرين، وقتادة، وقيس ابن عبَّاد، ومجاهد، وغيرهم: [عليٌّ مستقيم] من العُلُوِّ والرفعة، والإشارة بـ[هَذَا] ـ على هذه القراءَة ـ إلى الإخلاص، لما استثنى إبليس من أخلص قال الله له: هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهله. وقرأ جمهور الناس: (عَلَيَّ) بياءٍ مشددة مفتوحة، والإشارة بـ[هَذَا] ـ على هذه القراءَة ـ إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص، لما قَسَّم إبليس الناس هذين القسمين قال الله له: هذا طريق إلَيَّ، أي: هذا أمر مصيره إلَيَّ، والعرب تقول: «طريقك في هذا الأمر على فلان»، أي: إليه يصير النظر في أمرك. وهذا نحو قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾[1]، والآية ـ على هذه القراءَة ـ خبر تتضمن وعيداً[2].

ثم ابتدأ الإخبار عن سلامة عباده المتقين من إبليس، وخاطبه بأنه لا حجة له عليهم ولا ملكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من قوله: (عِبَادِي) الخصوص في أهل الإيمان والتقوى لا عموم الخلق، وبحسب هذا يكون ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ مستثنى من غير الأول، والتقدير: لكن من اتبعك من الغاوين لك عليهم سلطان، وإن أخذنا العباد عاماً في عباد الناس، إذ لم يقدر الله لإبليس سلطاناً على أحد، فإنا نقدر الاستثناءَ في الأقل في القدر[3] من حيث لا قدر للكفار، والنظر الأول أصوب، وإنما الغرض ألا نقع في استثناءِ الأكثر من الأقل وإن

---

(١) الآية (١٤) من سورة (الفجر).

(٢) قال أبو الحسن في معنى الآية على قراءة الجمهور: «هو كقولك: الدلالة اليوم عليَّ، أي: هذا صراط في ذمتي وتحت ضماني، كقولك: صحة هذا المال عليَّ، وتوفية عدته عليَّ، وليس معناه عنده أنه مستقيم عليَّ، كقولنا: قد استقام عليَّ الطريق، واستقر عليَّ كذا»، وقال ابن جني: «وما أحسن ما ذهب إليه أبو الحسن فيه».

(٣) في إحدى النسخ: «في الأقل عَلَى القدر».



كان الفقهاءُ قد جوزوه، وقال أبو المعالي: ليس معروفاً في استعمال العرب، وهذه الآية أمثل ما احتج به مُجَوِّزوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا حجة لهم في الآية على ما بيّنته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ أي موضع اجتماعهم، والموعد يتعلق بزمان ومكان، وقد يذكر المكان ولا يحدد زمان الموعد. و[أَجْمَعِينَ] تأكيد، وفيه معنى الحال[1]، وقوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ قيل: إن النار بجملتها سبعة أطباق، أعلاها جَهَنَّم، ثم لظَى، ثم الحُطَمَة، ثم السَّعير، ثم سَقَر، ثم الجَحِيم وفيه أبو جهل، ثم الهاوية، وإن في كل طبق منها باباً، فالأبواب ـ على هذا ـ بعضها فوق بعض، وعُبِّر في هذه الآية عن النار جملة بجهنم، إذ هي أشهر منازلها وأولها، وهي موضع عصاة المؤمنين الذين لا يخلدون، ولهذا روي أن جهنم تخرب وتبلى. وقيل: إن النار أطباق كما ذكرنا، لكن الأبواب السبعة كلها في جهنم على خط استواءٍ، ثم ينزل من كل باب إلى طبقة الذي يفضي إليه. واختصرت ما ذكر المفسرون في المسافات بين الأبواب، وفي هواءِ النار، وفي كيفية الحال، إذ هي أقوال كثيرة أكثرها لا يستند، وهي في حيِّز الجائز، والقدرة أعظم منها، عافانا الله من ناره، وتغمدنا برحمته بِمنِّه.

وقوله: [جُزْءٌ]، قرأ الجمهور بالهمز، وقرأ ابن شهاب بضم الزاي[2]، وقرأت فرقة: [جُزٌّ] بشد الزاي دون همز، وهي قراءَة ابن القعقاع[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «وهذا جنوح لمذهب من يزعم أن [أَجْمَعِينَ] تدل على اتحاد الوقت، والصحيح أن مدلوله مدلول «كلهم».

(٢) قال أبو حيان في البحر: «لعلَّه تصحيف من الناسخ، لأني وجدت في التحرير: وقرأ ابن وثَّاب بضمها مهموزاً» فهي قراءة ابن وثاب لا ابن شهاب.

(٣) وجهه أنه حذف الهمزة، وألقى حركتها على الزَّاي، ووقف بالتشديد، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

ذكر الله تعالىٰ ما أعد لأَهل الجنة عَقِب ذكره ما أعد لأهل النار ليظهر التباين، وقرأ الجمهور: [وَعُيُونٍ] بضم العين، وقرأ نُبَيح، والجراح، وأَبو واقد، ويعقوب ـ في رواية رُوَيْس ـ بكسر العين، مِثْل بيوت وشيوخ.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على الأمر بمعنى يقال لهم: ادخلوها، وقرأ رويس عن يعقوب: [أُدْخِلُوها] على بناءِ الفعل للمفعول بضم الهمزة وكسر الخاءِ وضم التنوين في ﴿عُيُونٍ﴾ أَلْقى عليه حركة الهمزة[1]. و«السَّلام» ها هنا يحتمل أَن يكون السلامة، ويحتمل أَن يكون التحية، و«الغِلُّ»: الحقد، وذكر الله تعالىٰ في هذه الآية أَنه ينزع الغِلَّ من قلوب أَهل الجنة، ولم يذكر لذلك موطناً، وجاءَ في بعض الحديث أَن ذلك على الصراط، وجاءَ في بعضها أَن ذلك على أَبواب الجنة، وفي لفظ بعضهاأَن الغِلَّ ليبقى على أَبواب الجنة كمعاطن الإِبل[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على أَن الله تعالىٰ يجعل ذلك تمثيلاً بكون يخلقه هناك ونحوه، وهذا كحديث ذبح الموت[3]، وقد يمكن أَيضاً أَن يُسلَّ من الصدور، ولذلك جواهر سود فيكون

---

(١) وعلى هذا تكون قراءة رويس عن يعقوب هي ﴿في جنات وعيون ادخلوها﴾ من الإدخال مع تنوين النون في (عُيُون) بالضم لإلقاء حركة الهمزة في لفعل «أُدْخِلَ» عليها، وقرأ الحسن كذلك مع إبقاء تنوين النون في (عيونٍ) مكسوراً. وفي الرواية عن رُوَيْس خلاف.

(٢) من هذه الأحاديث ما أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «يُحْبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظُلماتهم في الدنيا، ويدخلون الجنة وليس في قلوبهم على بعض غِلٌّ». ومنها ما أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن قتادة في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، قال: حدثنا أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يَخْلُص المؤمنون من النار فيُحْبَسُون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة من منزله كان في الدنيا»، قال قتادة: وكان يقال: ما يُشَبَّه بهم إلا أهل جمعة انصرفوا من جمعتهم.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، وغيرهم، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد (٢ـ١١٨): عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، جيء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة خلود لا موت، يا أهل النار خلود لا موت، فازداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، وازداد أهل النار حزناً على حزنهم».



كمبارك الإبل، وجاءَ في بعض الأَحاديث أَن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة، والذي يقال في هذا أَن الله ينزعه في موطن من قوم، وفي موطنٍ من آخرين، وقال عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: «إني لأَرجو أَن أَكون أَنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، وذكر أَن ابناً لطلحة كان عنده[1]، فاستأْذن الأَشتر فحبسه مدة، ثم أَذن له فدخل، فقال: أَلهذا حبستني ؟ وكذلك لو كان ابن عثمان حبستني له ؟ فقال عليٌّ: نعم، إني أَنا وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ الآية. وقد رُوي أَن المستأْذن غير الأَشتر.

و[إِخْوَاناً] نصب على الحال[2]، وهذه أُخُوَّة الدِّين والوُدّ. والأَخ من ذلك يجمع على إِخوان وإِخوة، والأَخ من النسب يجمع إِخوة وآخاء[3]، ومنه قول الشاعر:

. . . . وأَيُّ بَني الآخاءِ تصْفُو مَذاهِبُهْ ؟[4]

و«السُّرُر»: جمع سرير، و﴿مُتَقَابِلِين﴾ الظاهر أَن معناه: في الوجوه، إذ الأَسِرَّة متقابلة، فهي أَحسن في الزينة، قال مجاهد: لا ينظر أَحدهم في قفا صاحبه، وقيل: متقابلين في المودة، وقيل غير هذا مما لا يعطيه اللفظ.

و«النَّصَب»: التَّعب، يقع على القليل من ذلك والكثير، ومن الكثير قول موسى عليه

---

(١) أي كان عند عليٍّ رضي الله عنه، ومعنى قوله: «فحبسه مدة»: أمهله مدة فلم يأذن له بالدخول فوراً.

(٢) يجوز أن يكون حالاً من ﴿المُتَّقين﴾، أو من المضمر في ﴿ادْخُلُوهَا﴾، أو من المضمر في ﴿آمِنِينَ﴾، أو يكون حالاً مقدرة من الهاء والميم في ﴿صُدُورِهِم﴾، وقد جوَّز أبو البقاءِ أن يكون حالاً من الضمير في الظرف في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾، واعترض في «البحر» على كونها حالاً من الضمير في ﴿صُدُورِهِم﴾، لأن الحال من المضاف إليه إذا لم يكن معمولاً لما أُضيف على سبيل الرفع أو النصب تَنْدر، ولهذا قال بعضهم: إذا كان المضاف جزءاً من المضاف إليه كما في هذا المثال حيث أن الصدور بعض ما أُضيفت إليه جاءت الحال من المضاف، قال أبو حيان: ونحن نقرر أن ذلك لا يجوز، والأفضل هنا أنها منصوبة على المدح، أي: أمدح إخواناً.

(٣) نقل صاحب اللسان عن الجوهري أن الأخ أصله أَخَوٌ بالتحريك، لأنه جمع على آخاءٍ مثل آباءٍ، والذاهب منه الواو، لأنك تقول في التثنية: أخوان.

(٤) هذا عجز بيت ورواية اللسان: «تنبو مناسِبُه»، قال: ويدلُّ على أن أخاً فَعَلٌ مفتوحة العين جمعهم إيَّاها على أفْعَال نحو آخاءٍ، حكاه سيبويه عن يونس، وأنشد أبو عليٍّ:

وجَـدْتُـمْ بَنيكُـمْ دُونَنَـا إذْ نُسِبْتُـمْ ... وَأَيُّ بَنـي الآخَـاءِ تَنْبُـو مناسِبُـهْ ؟



السلام: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[(١)]، ومنه قول الشاعر:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ . . . . [(٢)]

وقوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ﴾ معناه: أَعْلِم، و﴿عِبَادِي﴾ مفعول بـ ﴿نَبِّئْ﴾، وهي تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، فـ ﴿عِبَادِي﴾ مفعول، و[أَنَّ] تسد مسَدَّ المفعولين الباقيين، واتفق ذلك وهي مع ما عملت فيه بمنزلة اسم واحد، أَلا ترى أنك إذا قلت: «أعجبني أنَّ زيداً منطلق» إنما المعنى: أَعجبني انطلاق زيد، لأَن دخولها إنما هو على جملة ابتداءٍ وخبر، فسدت تلك مسَدَّ المفعولين، وقد يتعدى «نَبَّأَ» إلى مفعولين فقط، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا﴾[(٣)]، وتكون في هذا الموضع بمعنى: أَخْبِر وعرِّف، وفي هذا كله نظر.

وهذه آية ترجية وتخويف، وروي في هذا المعنى عن النبي عليه الصلاة والسلام أَنه قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عذابه لَبَخَع نفسه»[(٤)]، ورُوي في هذه الآية أَن سببها أَن رسول الله ﷺ جاءَ إلى جماعة من أَصحابه عند باب بني شيبة في الحرم فوجدهم يضحكون، فزجرهم ووعظهم، ثم ولى، فجاءَه جبريل عن الله فقال: يا محمد، أَتقنط عبادي؟ وتلا عليه الآية، فرجع بها رسول الله ﷺ إليهم وأَعلمهم[(٥)]. ولو لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها يقتضيها، إذ قد تقدم ذكر ما في النار وما في الجنة فأَكد تعالىٰ تنبيه الناس بهذه الآية.

---

(١) من الآية (٦٢) من سورة (الكهف).

(٢) هذا صدر بيت قاله النابغة في مطلع قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث الأعرج حين هرب من النعمان بن المنذر، والبيت بتمامه:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ

(٣) من الآية (٣) من سورة (التَّحْريم).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. (الدر المنثور)، وأخرج الترمذي مثله عن أبي هريرة، ورمز له السيوطي بأنه حديث حسن. (الجامع الصغير).

(٥) أخرجه ابن أبي جرير، وابن مردويه، من طرق عطاء بن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وأخرج مثله ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مصعب بن أبي ثابت، وأخرج مثله البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة. (الدر المنثور) و(فتح القدير).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝ ﴾.

قرأَ أَبو حيوة: [ونَبُّهُمْ] بضم الهاءِ من غير همز، وهذا ابتداءُ قصص بعد انصرام الغرض الأَول[1]، و«الضَّيف» مصدر وُصف به فهو للواحد وللاثنين والجمع والمذكَّر والمؤنث بلفظ واحد، قال النحاس وغيره: التقدير: عن أَصحاب ضيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويغني عن هذا أَن هذا المصدر عومل معاملة الأَسماءِ، كما فعل في «رهن» ونحوه، والمراد بالضيف هنا الملائكة الذين جاؤُوا لإِهلاك قوم لوط وبشروا إِبراهيم ـ عليهما السلام ـ، وقد تقدم قصصهم.

وقوله: ﴿سَلَامًا﴾ مصدر منصوب بفعل مضمر تقديره: سلَّمنا، أَو نُسَلِّم سلاماً، والسلام هنا التحية، وقوله: ﴿سَلَامًا﴾ حكاية قولهم، فلا يعمل القول فيه، وإِنما يعمل إِذا كان ما بعده ترجمة عن كلام ليس يحكى بعينه، كما تقول لمن قال: «لا إِلٰه إِلا الله»: قُلْت حَقًّا، ونحو هذا.

وقوله: ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أَي: فزعون، وإِنما وجل إِبراهيم عليه السلام منهم لَمَّا قدم إِليهم العجل الحنيذ فلم يرهم يأْكلون، وكان عندهم العلامة المؤمِّنة أَكل الطعام، وكذلك هو في غابر الدهر أَمَنَةٌ للنازل والمنزول به.

وقرأَ الجمهور: [تَوْجلْ] مستقبل «وَجِل»، وقرأَ الحسن بضم التاءِ على بناءِ الفعل للمفعول من «أَوجل»، لأَن «وَجِلَ» لا يتعدى، وكانت هذه البشارة بإِسحق، وذلك

---

(١) في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ الآية ترجيح لجهة الخير، لأن الله تبارك وتعالىٰ أمر رسوله ﷺ بهذا التبليغ فكأن الله أشهده على نفسه بالتزام المغفرة والرحمة، ولأنه أضاف العباد إليه وفي هذا تشريف لهم، ولأنه أكَّد اسم ﴿أَنَّ﴾ بقوله: (أَنَا)، وأدخل (أَلْ) على صفتي الغفران والرحمة، وجاء بهما في صيغة المبالغة، وبدأ بالصفة السَّارة وهي الغفران، ثم أتبعها بالصفة التي نشأ عنها الغفران وهي الرحمة، وقد أخرج مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد».



بعد مولد إسماعيل بمدة، وقول إبراهيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾(١) ليس يقتضي أنه حينئذ وهبهما، بل قبل الحمد بكثير.

وقرأ الجمهور: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بألف استفهام، وقرأ الأعرج: [بشَّرْتمُوني] بغير ألف، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ﴾ أي: في حالة قد مسني الكبر فيها، وقرأ ابن محيصن [الكُبْرُ] بضم الكاف وسكون الباءِ، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ بفتح النون التي هي علامة الرفع، والفعل ـ على هذه القراءَة ـ غير مُعَدًّى، وقرأ الحسن البصري: [تُبَشِّرُونِّي] بنون مشددة وياءٍ، وقرأ ابن كثير بشَدِّ النون دون ياءٍ، وهذه القراءَة أُدغمت فيها نون العلامة في النون التي هي للمتكلم موطئة للياءِ، وقرأ نافع: [تُبَشِّرُونِ] بكسر النون، وغلَّط أبو حاتم نافعاً في هذه القراءَة، وقال: إن شاهد الشعر في هذا اضطرار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا حمْل منه، وتقدير هذه القراءَة أنه حُذفت النون التي للمتكلم، وكُسرت النون التي هي علامة الرفع بحسب الياءِ، ثم حذفت الياءُ لدلالة الكسرة عليها، ونحو هذا قول الشاعر ـ أنشده سيبويه ـ:

تَـــرَاهُ كَـــالثَّغَـــام يُعَـــلُّ مِسْكـــاً ... يَسُـــرُّ الْفَـــالِيَـــاتِ إِذَا فَلَيْنِـــي(٢)

(١) من الآية (٣٩) من سورة (إبراهيم).

(٢) البيت لعمرو بن معديكرب الزَّبيدي، وبعده يقول:

فَـــأُقْسِـــمُ لَـــوْ جَعَلْـــتُ عَلَـــيَّ نَـــذْراً ... بِطَعْنَـــةِ فَـــارِسٍ لَقَضَيْـــتُ دَيْنِـــي

ورواية اللسان: «يسوءُ الْفَالِيَاتِ»، وكذلك رواه الفراءُ في «معاني القرآن»، وهو في الأصول هنا «يَسُرّ الْفَالِيَاتِ»، والشاهد فيه حذف النون، إذ أراد «فَلَيْنَنِي» بنونين، فحذف إحداهما استثقالاً للجمع بينهما، قال الأخفش: حذفت النون الأخيرة؛ لأن هذه النون وقاية للفعل وليست باسم، فأما النون الأولى فلا يجوز طرحها لأنها الاسم المضمر، وقال الفراءُ: وقد خففت العرب النون من أن الناصبة ثم أنفذوا لها نصبها، وهي أشدُّ من ذا، قال الشاعر يخاطب زوجه عندما طلبت منه الطلاق:

فَلَـــوْ أَنْـــكِ فِـــي يَـــوْمِ الـــرَّخَـــاءِ سَـــأَلْتِنِـــي ... فِـــرَاقَـــكِ لَـــمْ أَبْخَـــلْ وَأَنْـــتِ صَـــدِيـــقُ

فَمَـــا رُدَّ تَـــزْوِيـــجٌ عَلَيْـــهِ شَهَـــادَةٌ ... وَمَـــا رُدَّ مِـــنْ بَعْـــدِ الْحَـــرَارِ عَتِيـــقُ

إذ الأصل: سَأَلْتِنَي. والثَّغام بالفتح: نبت على شكل الحَلِيِّ، وهو أغلظ منه وأَجَلُّ عُوداً، يكون في الجبل، ينبت أخضر ثم يَبْيَضُّ إذا يبس، وله سنمة غليظة، ولا ينبت إلا في قُنَّة سوداء، قال ذلك في=



ومنه قول الآخر:

أَبِالْمَوْتِ الَّذِي لا بُدَّ أَنِّي مُلاقٍ ـ لا أَبَاكِ ـ تُخَوِّفِينِي؟[1]

ومن حذف هذه النون قول الشاعر:

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبَيْنِ قَدِي[2]

يريد عبد الله ومصعباً ابني الزبير، وكان عبد الله يكنى أبا خبيب.

وقرأ الحسن [فَبِمَ تَبْشُرونِ] بفتح التاءِ وضم الشين.

وقول إبراهيم: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ تقرير على جهة التعجب والاستبعاد لكبرهما، أو على جهة الاحتقار وقلة المبالاة بالمسرات لمضيِّ العمر واستيلاءِ الكبر. قال مجاهد: عجب من كبره وكبر امرأته، وقد تقدم ذكر سنِّه وقت البشارة.

وقولهم: ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ فيه شدَّة ما، أي: أَبْشِر بما بُشرت به ودع غير ذلك، وقرأ جمهور الناس: ﴿الْقَانِطِينَ﴾، والقنوطُ: أَتمُّ اليأس، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وابن مصرف، ورويت عن أبي عمرو: [الْقَنِطِينَ]. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ بفتح النون في كل القرآن. وقرأ أبو

= اللسان، وفي حديث النبي ﷺ أنه أُتي بأبي قحافة يوم الفتح وكان رأسه ثَغامة، فأمرهم أن يغيروه. وفَلَى رأسه فلياً: بحثه عن القمل، وعَلَّه: سقاه مرة بعد مرة، أو سقاه تباعاً، فمعنى «يُعَلُّ مسكاً» أنه يدهن بالمسك مرة بعد مرة، أو يدهن تباعاً. والضمير الأول في (تراه) لزوجه التي كانت زوج أبيه من قبله، والضمير الثاني لشعر رأسه، أي أن زوجه ترى شعر رأسه كالثغام.

(١) البيت لأبي حَيَّة النُّمَيْري، أراد: تُخَوِّفينَنِي فحذف، قال في (اللسان ـ فَلا): وعلى هذا قرأ بعض القراءِ: [فَبِمَ تُبَشِّرُونِ] فأذهب إحدى النونين استثقالاً. يقول: إنه لا يخاف من الموت لأنه يعلم أنه لا بُدَّ ملاقيه ولهذا يستنكر أن تخوفه به.

(٢) هذا الرجز لحميد بن مالك الأرقط، وقيل: إنه لأبي بحدلة، وهو في كتاب سيبويه، وفي ابن عقيل وفي خزانة الأدب. وبعده:

لَيْسَ الإمَامُ بِالشَّحِيحِ المُلْحِدِ ولا بِوَتْنٍ بِالحِجَازِ مُفْرَدِ

ومعنى «قدني»: حسبي، والخُبَيْبَين: عبد الله بن الزبير، وابنه خُبَيب، أو هما عبد الله وأخوه مصعب بن الزبير، والإمام في البيت الثاني هو عبد الملك بن مروان، والمعنى: حسبي منهما ما نلتُ، ولن أطلب نصرتهما، فإن عبد الملك خير وأفضل، لأنه ليس شحيحاً ولا ملحداً، وقيل: أراد بالإلحاد هنا الظلم. ويقال: الملحد: الظالم في الحرم، والوَتْنُ بمعنى واتِن، أي: ولا بدائم ثابت في أرض الحجاز مفرد، ويقال للماءِ المعين الدائم الذي لا يذهب: واتن، وكذا واثن بالثاءِ المثلثة.

عمرو، والكسائي بكسرها، وكلهم قرأ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾[(١)] بفتح النون، وردَّ أبو عبيدة قراءَة أهل الحرمين، وأَنكر أَن يقال: «قَنِطَ» بكسر النون، وليس كما قال، لأَنهم لا يُجمعون إلا على قويٍّ في اللغة مرويٍّ عندهم، وهي قراءَة فصيحة، يقال: قَنَط يقْنِط، وقَنِط يقْنَط، مثل: نَقَم ونَقِم، وقرأ الأَعمش هنا: [يَقْنِطُ] بكسر النون، وقرأ: [مِنْ بَعدِ ما قَنِطُوا] بكسر النون أَيضاً، فقرأ باللغتين، وقرأ الأَشهب: [يَقْنُط] بضم النون، وهي قراءَة الحسن، والأَعمش أَيضاً، وهي لغة تميم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ۝٦٥﴾.

القائل هنا إبراهيم عليه السلام، وقوله: [مَا خَطْبُكُمْ]؟ سؤال فيه عنف مَّا، كما تقول لمن تنكر حاله: ماذا دهاك؟ وما مصيبتك؟ وأَنت إنما تريد استفهاماً عن حاله فقط، لأَن «الخطب» لفظة إنما تستعمل في الأُمور الشداد، على أَن قول إبراهيم: ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، وكونهم أَيضاً قد بشَّروه، يقتضي أَنه قد كان عرف أَنهم ملائكة حين قال: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾؟ فيحتمل قوله: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾ مع هذا أَنه أَضاف الخطب إليهم من حيث هم حملته إلى القوم المعذبين. أَي: ما هذا الخطب الذي تحملونه؟ وإلى أَي أُمَّة؟

و«القوم المجرمون» يراد بهم أَهل مدينة سدوم الذين بعث فيهم لوط عليه السلام، والمجرم: الذي يجرُّ الجرائم ويرتكب المحظورات، وأَصل جَرم وأَجْرَمَ: كَسَب، ومنه قول الشاعر:

جَـريمَـةُ نَـاهِـضٍ فـي رأسِ نيـق . . . .[(٢)]

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٨) من سورة (الشورى): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾.

(٢) هذا صدر بيت قاله أبو خِراشِ الهُذَليُّ يصف عُقَاباً تَرْزق طفلها وتكسب له، والبيت بتمامه: =



أي: كسْب عقاب في قُنَّة شامخ، ولكن اللفظة خُصَّت في عرفها بالشر، لا يقال لكاسب الأجر مجرم.

وقولهم: ﴿إِلَّآ ءَالَ﴾ استثناءٌ منقطع، و«الآلُ»: القوم الذين يؤول أمرهم إِلى المضاف إِليه، كذا قال سيبويه، وهذا نصٌّ في أَن لفظة «آلٍ» ليست لفظة «أَهْلٍ» كما قال النحاس، ويجوز ـ على هذا ـ إِضافة «آلٍ» إِلى الضمير وأَما «أُهيْل» فتصغير «أَهْل»، واحترزوا به عن تصغير «آلٍ»، فرفضوا «أُويْلا». وقرأ جمهور السبعة: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي بالتَّخفيف، والضمير في «مُنَجُّوهُم» في موضع خفض بالإِضافة، وانحذفت النون للمعاقبة، هذا قول جمهور النحويِّين، وقال الأَخفش: الضمير في موضع نصب، وانحذفت النون لأنه لا بُدَّ من اتصال هذا الضمير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناءٌ بعد استثناءٍ، وهما منقطعان فيما حكى بعض النحاة، لأَنهم لم يجعلوا امرأَته الكافرة من آله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، لأَنها قبل الاستثناءِ داخلة في اللفظ الذي هو «الآل»، وليس كذلك «الآل» مع المجرمين، فيظهر الاستثناءُ الأَول منقطعاً، والثاني متصلاً، والاستثناءُ بعد الاستثناءِ يردُّ المستثنى الثاني في حكم الأَمر الأَول، ومثَّل بعض الناس في هذا بقولك: «عندي مائة درهم إِلا عشرة دراهم إِلا درهمين»، فرجعت الدرهمان في حكم التسعين درهماً. وقال المبرّد: ليس هذا المثال بجيد، لأَنه من خلف الكلام وردِّه، إِذْ لَه طريق إِلى أَداءِ المعنى بأَجمل من هذا التحليق، وهو أَن يقول: «عندي مائة إِلا ثمانية»، وإِنما ينبغي أَن يكون مثلاً للآية قولك: «ضربت بني تميم إِلا بني دارم إِلا حاجباً»، لأَن

= جَـرِيمَـةُ نـاهِـضٍ فـي رَأْسِ نِيـقٍ ... تَـرَى لِعِظَـامِ مَـا جَمَعَـتْ صَلِيبـاً

وجريمة هنا بمعنى: كسْب، وقال في اللسان: بمعنى: كاسبة، وفي التهذيب عن هذا البيت: «يصف عقاباً تصيد فرخَها الناهضَ ما تأكله من لحم طير أكلته، وبقي عظامه يسيل منها الودك»، أي: تصيد له. هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت.



«حاجباً» من بني دارم، فلما كان المستثنى الأول في ضمنه ما لا يجري الحكم عليه، والضرورة تدخله في لفظه، ولا يمكننا العبارة عنه دون ذلك الذي لا يجري الحكم عليه، اضطررت إلى استثناءٍ ثانٍ[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونزعة المبرد في ذلك نبيلة. وقرأ جميعهم سوى عاصم في رواية أبي بكر: (قَدَّرْنا) بتشديد الدَّال في كل القرآن، وقرأ عاصم بتخفيفها وثَقَّل في رواية حفص، والتخفيف يكون بمعنى التثقيل، كما قال الهذليُّ أبو ذؤيب:

وَمُفْرِهَـةٍ عَنْسٍ قَـدَرْتُ لِسَـاقِهَـا ... فَخَرَّت كَمَا تَتَابَعُ الرِّيحُ بالقَفْلِ[٢]

يريد: قدَّرْتُ ضربي لساقها، وكقول النبي ﷺ في الاستخارة: «واقْدُرْ لي الخير حيث كان»[٣]، ويَكُونُ أيضاً بمعنى: يَسِّر ووَفِّق، ومنه قول الشاعر:

بِقُنْـدُهَـارَ ومَـنْ تُقْـدَرْ مَنِيَّتُـهُ ... بِقُنْـدُهَـارَ يُـرَجَّـمْ دُونَـهُ الْخَبَـرُ[٤]

---

(١) يرى الزمخشري أنه ليس استثناءً من استثناءٍ، يقول: «لأن الاستثناءَ من الاستثناءِ إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته، كما اتخذ الحكم في قول المطلق: أنتِ طالق ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدة، فأما في الآية فقد اختلف الحُكمان، لأن (آل لوط) متعلق بـ (أرسَلْنَا) أو بـ (مُجْرِمِينَ) و﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ قد تعلق بـ (مُنَجُّوهُمْ)، فأنَّى يكون استثناءً من استثناءٍ؟.

(٢) الناقة المُفْرِهَةُ: التي تَلِدُ الفُرْهَةَ، أي: الملاحَ، يقال: جارية فارهة إذا كانت حسناءَ مليحة، والعَنْس: الناقة القوية، شُبِّهَت بالصخرة لصلابتها. وخرَّت: سقطت، والقَفْل: الشجر اليابس، يقول: قدَّرت ضربي لساق هذه الناقة القوية الصلبة التي تلد الملاح فسقطت وتدحرجت كما تفعل الريح بالشجر اليابس حين تدفعه على الرمال.

(٣) هذا جزءٌ من حديث شريف أخرجه البخاري في التَّهجد، والتوحيد، والدعوات، وأخرجه أبو داود، والترمذي في الوتر، والنسائي في النكاح، وابن ماجه في الإقامة، والإمام أحمد في مسنده (٣ـ٣٤٤)، ولفظه كما في كتاب التوحيد في البخاري عن جابر بن عبد الله السَّلَمي، قال: كان رسول الله ﷺ يُعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلم السورة من القرآن، يقول: «إذا هَمَّ أَحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر ـ ثم يُسَمِّيه بعينه ـ خيراً لي في عاجل أمري وآجله، ـ قال: أو في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ فاقْدُرْهُ لي، ويسِّره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلم أنه شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاصرفني عنه، واقْدُرْ لي الخير حيث كان، ثم رَضِّني به».

(٤) البيت ليزيد بن مفرّغ، وقُنْدُهار ـ بضم القاف والدال وسكون النون بينهما مدينة في الإقليم الثالث كما=



وكسرت الألف من [إِنَّهَا] بسبب اللام التي في قوله تعالىٰ: ﴿لَمِنَ﴾، و«الغَابر»: الباقي في الدهر وفي غيره. وقالت فرقة ـ منهم النحاس ـ: هو من الأضداد، يقال في الماضي وفي الباقي(١)، وأما في هذه الآية فهي للبقاءِ، أي: من الغابرين في العذاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الآيات. تقدم القولُ وذِكْرُ القصص في أَمر لوط، وصورة لقاءِ الرسل له، وقيل: إن الرسل كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: كانوا اثني عشر. وقوله: ﴿مُنكَرُونَ﴾ أَي لا تُعرفون في هذا القطر، وفي هذه اللفظة تحذير، وهو من نمط ذمّه لقومه، وجريه أَلا ينزل هؤلاءِ القوم في تلك المدينة خوفاً منه أَن يظهر سوءُ فعلهم وطلبهم الفواحش، فقالت الرسل للوط: بل جئناك بما وعدك الله من تعذيبهم على كفرهم ومعاصيهم(٢)، وهو الذي كانوا يشكون فيه ولا يحققونه.

وقرأَت فرقة: [فَاسْرِ] بوصل الألف، وفرقة بقطعها، يقال: سَرَى وَأَسْرَى بمعنى إِذا سار ليلاً، قال النابغة:

= قال الحموي في «معجم البلدان»، قال: غزا عبَّاد بن زياد ثغر السند وسجستان، فأتى «سَنَارُوزَ» ثم نزل «كِسّ» وقطع المفازة حتى أتى «قُنْدُهار» فقاتل أهلها فهزمهم وقتلهم، وفتحها بعد أن أُصيب من المسلمين، فرأى قلانس أهلها طوالاً فعمل عليها فسُمِّيت العبادية، وقال يزيد بن مفرغ:

كَمْ بِالْجُرُومِ وأَرْضِ الهِنْدِ مِنْ قَدَمِ ... ومِنْ سَرَابِيلَ قَتْلَى لَيْتَهُمْ قُبِرُوا
بِقُنْدُهَارَ وَمَنْ تُقْدَرْ مَنِيَّتُهُ ... بِقُنْدُهَارَ يُرَجَّمْ دونَهُ الْخَبَرُ

وترجيم الخبر أو الكلام معناه: يقال عن غير يقين.

(١) أما في الباقي فمنه ما ورد في الحديث الشريف: «أنه اعتكف العشر الغوابر من شهر رمضان» أي البواقي، ويقال عن النافلة: «بها غُبَّرٌ من لبن»، أي بقية من لبن، وقال ابن حلِّزة:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بِأَغْبَارِهَا ... إِنَّكَ لا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ

وأما في الماضي فمنه قول الأعشى:

عَضَّ بِمَا أَبْقَى المَوَاسِي لَهُ ... مِنْ أُمِّهِ فِي الزَّمَنِ الغَابِرِ

يريد ما تركته الموسى عند ختان أمه.

(٢) قال العلماءُ: ﴿بَلْ﴾ هنا إضرابٌ عن قولٍ محذوف، أي: ما جئناك بشيءٍ تخافه، بل جئناك بالعذاب لقومك، لأنهم كانوا يشكون فيه.

أَسْـرَتْ عَلَيْـهِ مِـنَ الْجَـوْزَاءِ سَـارِيَـةٌ . . . .[١]

فجمع بين اللغتين[٢]، وقرأ اليماني: «فَسِرْ بِأَهْلِكَ»، وهذا الأمر بالسُّرى هو عن الله تعالىٰ، أَي: يقال لَكَ، و«القِطْعُ»: الجزءُ من الليل، وقرأت فرقة: [بِقِطَع] بفتح الطاءِ، حكاه منذر بن سعيد.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أَي: كن خلفهم وفي ساقهم حتى لا يبقى منهم أَحد ولا تلْوي[٣]. و«حَيْثُ» في مشهورها ظرف مكان، وقالت فرقة: أُمِرَ لوطٌ أَن يسير إِلى زُغَر[٤]، وقيل: إِلى موضع نجاة غير معروف عندنا، وقالت فرقة: «حيث» قد تكون ظرف زمان، وأَنشد أَبو علي في هذا بيت طرفة:

لِلْفَتَــى عقْــلٌ يَعِيــشُ بِــهِ ... حَيْـثُ تَهْـدِي سَـاقَـهُ قَـدَمُـه[٥]

كأَنه قال: مُدَّة مَشْيِهِ وتنقله، وهذه الآية من حيث أُمر أَن يسري بقطع من الليل، ثم قيل له: «حيث تُؤمر»، ونحن لا نجد في الآية أَمراً إِلا في قوله: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أَمكن أَن تكون «حيثُ» ظرف زمان. و﴿يَلْتَفِتْ﴾ مأْخوذ من الالتفات الذي هو نظر العين، قال

---

(١) هذا صدر بيت سبق الاستشهاد به، والبيت بتمامه:

أسْـرَتْ عَلَيْـهِ مِـنَ الجَـوْزَاءِ سَـارِيَـةٌ ... تُـزْجِـي الشَّمَـالُ عَلَيْـهِ جَـامِـدَ الْبَـرَدِ

والسارية هي السحابة الممطرة التي تكون ليلاً، وجمعها: سواري. ويروى البيت: «سَرَتْ عليه. . .».

(٢) في بعض النسخ: «فجمع بين اللغتين في بيت واحد».

(٣) أي: لا تلتفت، لأن من معاني «لفت» أنها تكون بمعنى «لوى» كما سيوضح ذلك ابن عطية. وقد وردت هكذابالياء على إرادة العطف على «لا يبقى».

(٤) «زُغَر» بوزن «زُفَر»: قرية بمشارف الشام، وإياها عنى أبو دؤاد الإيادي حيث قال:

كَكِتَـابَـةِ الـزُّغَـرِيِّ غَشَّـا ... هَـا مِـنَ الـذَّهَـبِ الـدُّلَامِـص

وقيل: «زُغَر»: اسم بنت لوط عليه السلام، نزلت بهذه القرية فسميت باسمها، قال حاتم الطائي:

سَقَـى اللهُ رَبُّ النَّـاسِ سَحّـاً وَدِيمَـةً ... جَنُـوبَ السَّـرَاةِ مِـن مـآبٍ إلـى زُغَـرْ

بـلادَ امْـرِىءٍ لا يعـرفُ الـذَّمَّ بَيْتُـهُ ... لَهُ المَشْرَبُ الصَّافي ولا يُطعَم الكدرْ

(٥) هو آخر بيت في قصيدة له مطلعها:

أشجَـاكَ الـرَّبْـعُ أمْ قِـدَمُـهْ ... أمْ رمـادٌ دارسٌ حُمَمُـهْ ؟

وفيها يخاطب بني تغلب ويفخر عليهم في الحرب التي كانت بينهم وبين قومه بكر.

مجاهد: المعنى: لا ينظر أَحد وراءَه، ونُهوا عن النظر مخافة الغفلة وتعلق النفس بمن خلف، وقيل: بل لئلا تتفطَّر قلوبهم من معاينة ما جرى على القرية في رفعها وطرحها، وقيل: ﴿يَلْتَفِتْ﴾ معناه: يلوي، من قولك: «لَفَتُّ الأمر» إذا لويته، ومنه قولهم للقصيدة: لفيتة، لأنها ملويٌّ بعضها على بعض[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

المعنى: وقضينا ذلك الأَمر، أَي: أَمضيناهُ وحتمناه، ثم أَدخل في الكلام ﴿إِلَيْهِ﴾ من حيث أَوحى إِليه ذلك وأَعلمه الله به، فجلب هذا المعنى بإِيجاز، وحذف ما يدل الظاهر عليه. و﴿أَنَّ﴾ في موضع نصب، قال الأَخفش: هي بدل من ﴿ذلك﴾، وقال الفراءُ: التقدير: «بأَن دابر» فحذف حرف الجر[٢]، والأَول أَصوب.

و«الدَّابِرُ»: الذي يأْتي في آخر القوم، أَي في أَدبارهم، وإِذا قطع ذلك وأُتي عليه فقد أَتى العذاب من أَولهم إِلى آخرهم، وهذه أَلفاظ دالَّة على الاستئصال والهلاك التام، يقال: «قطع الله دابره»، و«استأْصل شأْفته»، و«أَسكتَ نأْمته» بمعنى. و﴿مُصْبِحِينَ﴾ معناه: إِذا أَصبحوا ودخلوا في الصباح.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يحتمل أَن يرجع إِلى وصف أَمر جرى قبل إِعلام لوط بهلاك أُمَّته، ويدل على هذا أَن محاجَّة لوط لقومه في الأَضياف تقتضي ضعف من لم يعلم إِهلاكهم وأَن الأَضياف ملائكة. ويحتمل أَن يكون قوله:

---

(١) في بعض النسخ: «لأنها يلتوي بعضها على بعض».

(٢) عبارة الفراءِ تشير إِلى احتمالين حيث قال في «معاني القرآن»: «أَنَّ مفتوحة على أَنْ تردَّ على الأمر، فتكون في موضع نصب بوقوع القضاء عليها، وتكون نصباً آخر بسقوط الخافض منها، أي: قضينا ذلك الأمر بهذا، وهي في قراءَة عبد الله «وَقُلْنَا إِنَّ دابِرَ»، فعلى هذا لو قرىء بالكسر لكان وجهاً»، ولو رجعت إِلى الطبريّ لوجدت هذا الكلام بنصه فيه.

﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ بعد علمه بهلاكهم، وكان قولهم ما يأتي من المحاورة على جهة التكتم عنهم، والإملاءِ لهم، والتَّربُّص بهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والاحتمال الأول عندي أرجح، وهو الظاهر من آيات غير هذه السورة. وقوله: (يَسْتَبْشِرُونَ) أي: بالأضياف طمعاً منهم بالفاحشة، والضَّيف مصدر وُصف به فهو يقع للواحد والجميع والمذكر والمؤنث.

وقولهم: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، رُوي أنهم كانوا قد تقدموا إليه في ألاَّ يضيف أحداً ولا يجيره، لأنهم لا يراعونه ولا يكفون عن طلب الفاحشة فيه، وقرأ الأعمش: [إِنَّ دَابِرَ] بكسر الهمزة، ورُوي أن في قراءَة عبد الله: [وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ وقُلْنَا إِنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ]، وذكر السديُّ أنهم كانوا يفعلون الفاحشة مع الغرباءِ ولا يفعلونها بعضهم ببعض، فكانوا يتعرضون الطرق.

وقول لوط عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ اختلف في تأويله ـ فقيل: أراد نساءَ أُمَّته، لأَنَّ زوجات البنين أُمهات الأُمم وهو أبوهم، فالنساءُ بناته في الحرمة، والمراد بالتزوج، ويلزم من هذا التأويل أن يكون في شرعه جواز زواج الكافر للمؤمنة، وقد ورد أن المؤمنات به قليل جداً. وقيل: إنما أراد بنات صلبه، ودعا إلى التزويج أيضاً، قاله قتادة، ويلزم هذا التأويل ما لزم المتقدم في ترتيبنا. ويحتمل أن يريد عليه السلام بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ بنات صلبه، ويكون ذلك على طريق المجاز، وهو لا يحقق في إباحة بناته، وهذا كما تقول لإنسان تراه يريد قَتْل آخر: اقتلني ولا تقتله، فإنما ذلك على جهة التشنيع عليه، والاستنزال من جهة ما، واستدعاءِ الحياءِ منه، وهذا كله من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب، بل الغرض منه مفهوم، وعليه قول النبي ﷺ: «وَلَوْ كَمَفْحَص قَطاةٍ»[1] إلى غير هذا من الأمثلة.

و«العَمْرُ» و«العُمْرُ» بفتح العين وضمها واحد، وهما عُمْر الحياة ومدتها، ولا يستعمل في القَسَم إلا بالفتح، وفي هذه الآية شرف لمحمد ﷺ لأن الله تعالىٰ أقسم

(١) أخرجه ابن ماجه، والإمام أحمد في مسنده (١ـ ٢٤١)، ولفظه: «مَنْ بَنَى لله مسجداً ولو كمَفْحَص قَطاة لبيضها بنى الله له بيتاً في الجنة» ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة. (الجامع الصغير).



بحياته، ولم يفعل ذلك مع بشر سواه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والقَسَم بـ «لَعَمْرِك» في القرآن وبـ «لَعَمْري» ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها في غير موضع، كقوله:

لَعَمْـري وَمَـا عَمْـري عَلَـيَّ بِهَيِّـنٍ . . . . (١)

وقول الآخر:

لَعَمْـرُ أَبِيـكَ مـا نُسِـبَ الْمُعَلَّـى . . . . (٢)

وكقول الآخر:

لَعَمْـرُكَ إِنَّ الْمَـوْتَ مَـا أَخْطَأَ الْفَتَـى لَكَالطِّوَلِ الْمُرْخَى وثِنْيَاهُ باليَدِ(٣)

---

(١) هذا صدر بيت للنابغة، وهو من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر ويعتذر إليه مما وشت به بنو قريع بن تميم، وهو بتمامه:

لَعَمْـري ومـا عَمْـري عَلَـيَّ بِهَيِّـنٍ لَقَـدْ نَطَقَـتْ بُطْـلاً عَلَـيَّ الأَقَـارِعُ

واللام في «لَعَمْري» لام ابتداءٍ يقصد بها توكيد الجملة، و«لَعَمْري» مبتدأ وخبره محذوف تقديره: يميني، و«ما عُمَري» رويت بضم العين وبفتحها، وبُطْلا ـ بضم الباء وسكون الطاء ـ مصدر بَطَل إذا كان غير حق، والأقارع: بنو قريع بن عوف.

(٢) هذا صدر بيت لأبي علي البصير، وهو واحد من بيتين ذكرهما صاحب الأمالي، قال: أنشد علي بن سليمان لأبي عليّ البصير:

لَعَمْـرُ أَبِيـكَ مـا نُسِـبَ المُعَلَّـى إلـى كَـرَمٍ وفـي الـدُّنْيَـا كَـرِيـمُ
ولَكِـنَّ البِـلادَ إذا اقْشَعَـرَّتْ وصَـوَّحَ نَبْتُهَـا رُعِـيَ الْهَشِيـمُ

ومعنى صَوَّح: يَبِسَ وتشقق، والهجاءُ في البيتين قاسٍ ومؤلم.

(٣) الشاعر هو طَرَفة بن العبد، والبيت من معلقته التي امتازت بالحكمة وبالنظر الصائب في أُمور الحياة، وقوله: «ما أخطأ الفتى» يحتاج إلى شيءٍ من البيان، إذ أن (ما) مع الفعل هنا بمنزلة مصدر حلَّ محلَّ الزمان، نحو قولهم: «آتيك خفوق النجم ومقدم الحاج» أي: وقت خفوق النجم، ووقت مقدم الحاج، والطِّوَل: الحبل الذي يطول للدابة ويعطيها فرصة الرعي على مسافة كبيرة، والإرخاءُ: الإرساء، والثِّنْيُ: الطرف والجمع الأثناءُ، يقسم طَرَفة أن الموت في مدة تركه للفتى، أو مجاوزته إياه بمنزلة حبل طويل ترك على طوله لترعى الدابة فيه وطرفاه بيد صاحبها، فكما أن الدابة لا يمكن أن تفلت ما دام صاحبها آخذاً بطرفي الحبل فكذلك الموت لا يمكن للفتى أن يتخلص منه، ولما جعل الموت بمنزلة صاحب الدابة التي أرخى طولها قال: متى شاءَ الموت قاد الفتى لهلاكه، ومن كان في حبل الموت انقاد له.



والعرب تقول: «لَعَمْرُ الله»، ومنه قول الشاعر:

إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بنو قُشَيْرٍ ... لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَنِي رضاهَا[1]

وقال الأعشى:

وَلَعَمْرُ مَنْ جَعَلَ الشُّهورَ عَلاَمَةً ... فينَا فبَيَّن نِصْفَهَا وكَمالها[2]

وقال بعض أصحاب المعاني: لا يجوز هذا لأنه لا يقال: لله تعالىٰ عُمْر، وإنما يقال: بقاءٌ أزلي، ذكره الزهراوي، وكره إبراهيم النَّخَعي أن يقول الرجل: «لعمري»، لأنه حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعفة الرجال، ونحو هذا. وقوْلُ مالك في

---

(١) البيت لِلْقُحَيْف العُقَيْلِيِّ، وبعده يقول:

ولا تَنْبو سُيُوفُ بَنِي قُشَيْرٍ ... ولا تَمْضِي الأَسِنَّةُ في صَفَاهَا

يقال: رضيتُ عنْك وعليك، وقد عدَّاها الشاعر في بيتنا بـ «على» لأنه إذا رضيت عنه أحببته وأقبلت عليه، فلذلك استعمل على بمعنى عن، قال صاحب اللسان: وكان أبو علي يستحسن قول الكسائي في هذا، لأنه لما كان رضيت ضد سخطت عدَّى رضيت بـ «على» حملاً للشيءِ على نقيضه كما يحمل على نظيره.

(٢) الرواية في الديوان: «فَلَعَمْر بالفاء، و«فبيَّن نصفها وهلالها»، ويُروى: «نَقْصَهَا»، وهو من قصيدة للشاعر يمدح بها قيس بن معديكرب، وبعده يقول مخاطباً الممدوح:

ما كُنْتَ في الحَرْبِ العَوَانِ مُغَمَّراً ... إذْ شَبَّ حَرُّ وَقُودها أَجْزَا لَهَا

ومن الشواهد الشعرية على استعمال العرب «لَعَمْري» و«لَعَمْرك» قول الشاعر:

لَعَمْرُك ما يَدْري الفَتَى أيُّ أمْرِهِ ... وإنْ كانَ مَخروصاً على الرُّشْدِ أَرْشَدُ

أفي عاجِلاتِ الأمرِ أمْ آجِلاتِهِ ... أمِ اليَوْمُ أدْنى لِلسَّعَادَةِ أمْ غَدُ؟

وقول العباس بن الأحنف:

لَعَمْري لَئِنْ كانَ المُقَرَّبُ مِنْكُمُ ... هوىً صادِقاً إنِّي لَمُسْتَوْجِبُ القُرْبِ

وقد استعمله أبو خِراشٍ في الطير فقال:

لَعَمْرُ أبي الطَّيْرِ المُرِبَّةِ غُدْوَةً ... علَى خالِدٍ لَقَدْ وقَعْتِ على لَحْم

وتأتي «عَمْر» بدون اللام، قال عُمر بن أبي ربيعة:

أيُّهَا المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلا ... عَمْرَكَ اللهَ، كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ؟

قيل: معنى «عَمْرَكَ اللهَ» هنا، عبادتُك الله، ولذلك نصب الشاعرُ لفظ الجلالة. وتأتي «عَمْر» بالراءِ بدلاً من اللام في أولها فيقال: «رَعَمْرُك».

«لَعَمْرِي ولَعَمْرِكَ» أنها ليست بيمين، وقال ابن حبيب: ينبغي أن تصرف «لعمرك» في الكلام اقتداءً بهذه الآية.

و﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي يَرْتَبكون ويتحيرون، والضمائر في «سَكْرَتِهِمْ» يراد بها قوم لوط المذكورون، وذكر الطبري أن المراد قريش، وهذا بعيد لأنه ينقطع مما قبله ومما بعده. وقوله: ﴿في سَكْرَتهم﴾ مجازٌ وتشبيه، أي: في ضلالتهم وغفلتهم عن الحق ولهوهم، و﴿يَعْمَهُونَ﴾ معناه: يترددون في حيرتهم. و﴿مُشْرِقِينَ﴾ معناه: قد دخلوا في الإشراق، وهو سطوع ضوءِ الشمس وظهوره، قاله ابن زيد، وهذه الصيحة هي صيحة الوجبة[1]، وليست كصيحة ثمود، وأُهلكوا بعد الفجر مصبحين، واستوفاهم الهلاك مشرقين. وخبر قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ محذوف تقديره: لَعَمْرك قسمي أو يميني، وفي هذا نظر. وقرأ ابن عباس: [وَعَمْرك]، وقرأ الأشهب العقيلي: [لفي سُكْرَتِهِمْ] بضم السِّين، وقرأ ابن أبي عبلة: [سَكَرَاتِهِمْ]، وقرأ الأعمش: [لفي سُكْرِهِمْ] بغير تاء، وقرأ أبو عمرو في رواية الجهضمي: [أَنَّهُمْ] بفتح الهمزة [في سكرتهم].

ورُوي في معنى قوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أن جبريل عليه السلام اقتلع المدينة بجناحه ورفعها حتى سمعت ملائكة السماءِ صراخ الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها وأرسل الكل، فمن سقط عليه شيءٌ من ردم المدينة مات، ومن أفلت منهم أصابته حجارة من سِجِّيل، و«سِجِّيل» اسم من أسماءِ سماءِ الدنيا، وقيل: هي لفظة فارسية، وهي الحجارة المطبوخة من الطين كالآجُرِّ ونحوه، وقد تقدم القول في هذا.

و«المُتَوَسِّمُونَ» قال مجاهد: المتفرِّسون، وقال الضحاك: الناظرون، وقال قتادة: المعتبرون، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وهذا كله تفسير لها بالمعنى، وإنما تفسيرها باللفظ، فإن المعاني التي تكون في الإنسان وغيره من خير أو شرٍّ يلوح عليه وَسْم على تلك المعاني كالسكون والديانة والهيبة التي تكون عن الخير ونحو هذا، فالمتوسِّم هو الذي ينظر في وَسْم المعنى ليستدل به على المعنى، وكأن معصية هؤلاءِ أبقت من العذاب والإهلاك وسْماً، فمن رأى الوَسْم استدل على المعصية به، واقتاده

(١) هكذا في جميع النسخ الأصلية، ولا نرى لها معنى، وقد وجدناها في «البحر المحيط» نقلاً عن ابن عطية: «صيحة الوَحْشَة».



النظر إلى تجنب المعاصي لئلا ينزل به ما نزل بهم، ومن الشعر في هذه اللفظة قول الشاعر:

تَوَسَّمْتُه لَمَّا رَأَيْتُ مَهَابَةً ... عَلَيْهِ وقلْتُ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمِ(١)

وقال آخر:

* وظَلَلْتُ فيهَا واقِفاً أَتَوَسَّمُ *(٢)

وقال آخر:

إِنِّي تَوسَّمْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً ... .(٣)

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يحتمل أَن يعود على المدينة المهلكة، أَي: أَنها في طريق ظاهر للمعتبر، وهذا تأويل مجاهد، وقتادة، وابن زيد، ويحتمل أَن يعود على الآيات، ويحتمل أَن يعود على الحجارة، ويقوي هذا التأويل ما روي أَن النبي ﷺ قال: «إِن حجارة العذاب معلقة بين السماءِ والأَرض منذ أَلْفَيْ عام لعصاة أُمَّتي»(٤).

وقوله: ﴿لآية﴾ أَي أَمارة وعلامة، كما تقول: آيةٌ ما بيني وبينك كذا وكذا.

---

(١) رواه الزمخشري في أساس البلاغة: «وقلْتُ الشَّيْخُ من آل هاشم»، قال: توسَّمْتُ فيه الخير: تبيَّنت فيه أثره، ثم ذكر البيت، والمهابة: الإجلال والمخافة، وابن عطية يستشهد به على أن التوسم هو النظر في العلامات الدالة على المعنى ليستدل بها عليه.

(٢) قال في التاج: «التَّوسُّم: التَّفرُّس كما في الصحاح، قال شيخنا: وأصله: عَلِمَ حقيقته بسمته، ويقال: توسَّمه إذا نظر من قرنه إلى قدمه واستقصى وجوه معرفته»، فالتوسم هنا هو استقصاء وجوه معرفة الشيءِ. ومثله ما استشهد به سيبويه وهو قول طريف بن تميم العنبري:

أَوَ كُلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيلَةٌ ... بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ؟

(٣) هذا صدر بيت قاله عبد الله بن رواحة يخاطب النبي ﷺ، والبيْتُ بتمامه كما رواه في القرطبي:

إِنِّي تَوَسَّمْتُ فِيكَ الخَيْرَ أَعْرِفُهُ ... والله يَعْلَمُ أَنِّي ثَابِتُ الْبَصَرِ

(٤) لم نعثر على هذا الحديث في المراجع التي بين أيدينا، ولكن وجدنا في القرطبي حديثين يدلان على أن العذاب بالحجارة ينتظر من يفعل فعل قوم لوط من أُمة محمد ﷺ، ولفظ الأول: «سيكون في آخر أُمتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال، ونساؤهم بالنساء، فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. ولفظ الثاني: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء، فتصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من ربك».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ . .

﴿ٱلْأَيْكَةِ﴾: الغيْضة والشجر الملتف المخضر، يكون السِّدر ونحوه، قال قتادة: رُوي أن أَيكة هؤلاءِ كانت من شجر الدوم، وقيل: من المقل، وقيل: من السِّدْر، وكان هؤلاءِ قوماً يسكنون غَيْضة ويرتفقون بها في معايشهم، فبعث الله إِليهم شعيباً عليه السلام فكفروا، فسلَّط الله عليهم الحر فدام عليهم سبعة أَيام، ثم رأَوا سحابةً فخرجوا فاستظَلُّوا تحتها فاضطرمت عليهم ناراً، وحكى الطبريُّ قال: بُعث شُعَيْبٌ إِلى أُمتين كفرتا فعُذِّبتا بعذابين مختلفين: أَهل مدين عذبوا بالصيحة، وأَصحاب الأيكة عذِّبوا بالظُّلَّة، ولم يختلف القراءُ في هذا الموضع في إِدخال الأَلف واللام على «أَيكَة»، وأَكثرهم همز أَلف «أَيكة» بعد اللام، ورُوي عن بعضهم أَنه سهَّلها ونقل حركتها إِلى اللام فقرأَ: [الأَيْكَةَ] دون همز، واختلفوا في سورة الشعراءِ، وفي سورة صَ[1].

و﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة على مذهب البصريين، وقال الفراءُ: ﴿إِنْ﴾ بمعنى «ما»، واللام في قوله: ﴿لَظَالِمِين﴾ بمعنى «إِلاَّ»، قال أَبو علي: الأَيْكُ: جمع أَيكة كتَمرة وتَمْر، ومن الشاهد على اللفظة قول أُمَيَّة بن أَبي الصلت:

كَبُكَــا الْحَمَــام عَلَــىٰ غُصُــو نِ الأَيْــكِ فــي الطَّيْــرِ الْجَــوَانــح[2]

---

(١) أما في الشعراء ففي قوله تعالىٰ في الآية(١٧٦): ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وأما في صَ ففي قوله تبارك وتعالىٰ في الآية(١٣): ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾.

(٢) قال أُمية هذا البيت من قصيدة له يرثي بها قتلى بدر، ومطلعها:

الا بَكَيْــتِ عَلَــى الكــرَا مِ بَنــي الْكِــرَامِ أُولــي الْمَمَــادحْ

والأيك: الشجر الملتف، واحدته أيكة، والجوانح: الموائل، يقال: جَنَح إذا مال. وفي اللسان: الأيكة: الشجر الكثير الملتف، وقيل: هي الغيضة تنبت السِّدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر، وخصَّ بعضهم به منبت الأثل ومجتمعه. وقد رُوي البيت: «على فروع» بدلاً من: «على غصون».

وقول جرير:

وقَفْتُ بهـا فَهَـاجَ الشَّـوْقَ مِنـي ... حَمـامُ الأيْـكِ يسعِـدُهـا حَمـامُ[١]

ومنه قول الآخر:

أَلا إِنَّمـا الـدُّنيـا غَضـارةُ أَيْكَـةٍ ... إِذَا اخْضَرَّ مِنها جانِبٌ جَفَّ جَانِبُ[٢]

ومنه قول الهذلي:

مُـوَشَّحَـةٌ بـالطُّـرَّتَيْـنِ دَنَـا لَهَـا ... جَنى أَيْكَةٍ يَضْفُو عَلَيْهَا قِصَارُهَا[٣]

وأَنشد الأَصمعي:

ومـا خلِيـجٌ مـن.... ذو حَـدَبٍ ... يَرْمِي الصَّعيدَ بخُشْبِ الأَيْك والضَّالِ[٤]

---

(١) «هاج» يهيج: ثار لمشَقَّة أو ضرر، يتعدَّى ولا يتعدَّى، والذي حرَّك الشوق هنا هو الحمام السعيد في الأيك بأليفه، وقد اعتاد الشعراءُ تداول هذا المعنى، قال الشاعر:

وَمَـا هَـاجَ هـذا الشَّـوْقَ إلا حَمَـامَـةٌ ... تَغَنَّـتْ علـى خَضْـرَاءَ سُمْـرٌ قُيُـودُهَـا
صَدوحُ الضُّحَى مَعروفةُ اللَّحن لـم تَزَلْ ... تَقُـودُ الهَـوَى مِـن مُسْعِـدٍ ويَقُـودُهـا

وقال آخر:

إذا تَغَنَّـى الحَمَـامُ الـوُرْقُ هَيَّجَنـي ... ولَـوْ تَعَـزَّيْـتُ عَنْهَـا أُمَّ عَمَّـار

(٢) يقال: غَضُرَ غَضارةً: كان في سعة وطيب عيش، وغَضُر النباتُ: نَعُم فهو غاضر وغضير، يصور الدنيا في صورة الأيْكة، إذا اشتدت خضرة النبات في جانب منها جفَّ منها جانب آخر، وكذلك الدنيا تعطي وتأخذ، والبيت غير منسوب.

(٣) قال أبو ذؤيب هذا البيت من قصيدة يرثي بها نُشَيْبَة بن مُحرِّث، أحد بني مُؤَمَّل، ومطلعها:

هَـلِ الـدَّهْـرُ إلا لَيْلَـةٌ ونَهَـارُهَـا ... وإلا طُلُـوعُ الشَّمْـسِ ثُـمَّ غِيَـارُهَـا

والموشَّحةُ من الظباءِ والشاءِ والطير: التي لها طُرَّتان مسبلتان من جانبيها، ويروى «مُوَلَّعَةٌ»، والتَّوْليع: ألوان مختلفة، و«الطُّرَّتان»: طريقتان في جنبيها، وهو حيث ينقطع اختلاف لون الظهر من لون البطن، و«دَنَا لَهَا» قَرُبَ لها، و«الجَنَى»: الثمر الذي يُجتنى، و«يَضْفُو»: يكثر ويَسْبغُ عليها، فإذا سبغَ عليها القصار من الأغصان فالطوال أحرى أن تكون أسبغ، والشاعر يصف ظبية ويقول في هذا البيت وما بعده: إنها ملونة جميلة تأكل ما تشاءُ من الثمار، وقد نعمت بالربيع، ومع ذلك فإنها ليست أجمل ولا أحسن من حبيبته.

(٤) لم أقف على قائله، ومكان النقط كلمة غير واضحة في النسخ الخطية، وتختلف صورتها وحروفها من نسخة إلى أُخرى، والخليج من البحر: شَرْمٌ منه، أو نهر في شق من النهر الأعظم إلى موضع ينتفع به، وذو حَدَب: ذو موج مرتفع، وحَدَب الماءِ: ما ارتفع من أمواجه. والصعيد: الأرض المرتفعة، وقيل: =



والضمير في قوله: [وَإِنَّهُمَا] يحتمل أَن يعود على المدينتين اللَّتَين تقدم ذكرهما، مدينة قوم لوط، ومدينة أَصحاب الأَيكة، ويحتمل أَن يعود على النَّبيَّين لوطٍ وشُعيب في أَنهما على طريق من الله وشرع مبين.

و«الإمامُ» في كلام العرب: الشيءُ الذي يهتدى به ويُؤْتَمُّ، يقولونه لخيط البناءِ، وقد يكون الطريق، وقد يكون الكتاب المفيد، وقد يكون القياس الذي يعمل عليه الصناع، وقد يكون الرجل المُقْتدى به، ونحو هذا، ومن رأَي عود الضمير في [إِنَّهُما] على المدينتين قال: الإمامُ: الطريق، وقيل على ذلك: الإمامُ: الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما.

و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ ثمود، وقد تقدم قصصهم، و[ٱلْحِجْر] مدينتهم، وهي ما بين المدينة وتبوك، وقال: [ٱلْمُرْسَلِينَ] من حيث يجب بتكذيب رسول واحد تكذيب الجميع، إِذ القول في المعتقدات واحد للرسل أَجمع، فهذه العبارة أَشنع على المكذبين.

والآيات التي آتاهم الله هي الناقة وما اشتملت عليه من خرق العادة حسب ما تقدم تفسيره وبسْطه، وقرأَ أَبو حيْوة: [وآتَيْناهم آيَتنا] مفردة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ﴾ الآية. يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والكسب منها، فذكر من ذلك مثالاً أَن بيوتهم كانوا ينحتونها في حجر من الجبال، والنحتُ: النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه، وقرأَ جمهور الناس بكسر الحاءِ، وقرأَ الحسن بفتحها وذلك لأَجل حرْف الحلق، وهي قراءَة أَبي حيوة، وقوله: [آمِنِينَ]، قيل: معناه: من انهدامها، وقيل: من حوادث الدنيا، وقيل: من الموت لاغترارهم بطول الأَعمار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، وأَصح ما يظهر في ذلك أَنهم كانوا يأْمنون عواقب الآخرة،

= ما ارتفع من الأرض في أرض منخفضة، وقيل: وجه الأرض عموماً، والأَيْكَة: الغيضة تُنْبت السِّدرَ والأراك ونحوهما من ناعم الشجر، وعن ابن الأعرابي: أيكة من أَثْل، ورهْطٌ من عُشَر، وقصيمة من عضا. والضَّال: السِّدْرُ البرِّي، غير مهموز، واحدته ضالة، وألفه منقلبة عن ياء. والشاهد في البيت أن الأيكة بمعناها المعروف مستعملة في الشعر العربي.



فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها.

ومعنى ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي عند دخولهم في الصباح، وذُكر أن ذلك كان يوم سبت، وقد تقدم قصص عذابهم وميعادهم وتغيُّر ألوانهم، ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكسُّبهم شيئاً، ولا دفع عذاب الله.

و[ما] الأُولى للنفي، وتحتمل التقرير[١]، والثانية مصدريَّة[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية. المراد أن هؤلاءِ المكتسبين للدنيا الذين لم يغن عنهم اكتسابهم ليسوا في شيءٍ، فإن السموات والأرض وجميع الأشياءِ لم تخلق عبثاً ولا سُدى ولا لتكون طاعة الله كما فعل هؤلاءِ ونظراؤُهم، وإنما خلقت بالحق، ولواجب مقصود وأغراض لها نهايات من عذاب ونعيم، وإنَّ الساعة آتية على جميع أُمور الدنيا، أي: فلا تهتم يا محمد بأعمال قومك، فإن الجزاءَ لهم بالمرصاد، فاصفح عن أعمالهم، أي: وَلِّها صفحة عنقك بالإعراض عنها، وأكَّد الصفح بِنَعْت الجَمَال إذ المرادُ منه أن يكون لا عَتْب فيه ولا تعرض. وهذه الآية تقتضي مهادنة، ونسختها آية السيف، قاله قتادة.

ثم سلاَّه في آخر الآيات بأن الله تعالىٰ يخلق ما شاءَ لمن شاءَ، ويعلم تعالىٰ وجه الحكمة في ذلك، لا هذه الأوثان التي تعبدونها. وقرأ جمهور الناس: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾، وقرأ الأعمش والجحدري: [ٱلْخَالِقُ].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود، وابن عمر، ومجاهد، وابن جبير: السَّبع هنا هي السبع الطُّوَل: البقرة، وآل عمران، والنساءُ، والمائدة، والأنعام،

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «وتحتمل الاستفهام المراد منه التعجب».

(٢) يصح أن تكون بمعنى «الذي» والضمير محذوف، والتقدير: فما أغنى عنهم الذي كانوا يكسبونه في البيوت المتينة والأموال والعَدَد.

والمَص، والأنفال مع براءَة[١]، وقال ابن جبير: بل السابعة يونس: وليست الأنفال وبراءَة منها. و﴿المَثَانِي﴾ ـ على قول هؤلاءِ ـ القرآن كله، كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾[٢]، وسُمِّي بذلك لأَن القصص والأَخبار تُثَنَّى فيه وتُرَدَّد.

وقال عمر بن الخطاب، وعلي بن أَبي طالب، وابن عباس أَيضاً، وابن مسعود، والحسن، وابن أَبي مُلَيْكة، وعبيد بن عمير، وجماعة: السبع هنا هي آيات الحمد، قال ابن عباس: هُنَّ سبع بالبسملة، وقال غيره: هُنَّ سبع دون البسملة، ورَوى في هذا حديث أُبَيّ بن كعب ونَصُّه: قال أُبَيٌّ: قال رسول الله ﷺ: «أَلا أُعلمك يا أُبَيُّ سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإِنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها»؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: «إِنِّي لأَرجو أَلا تخرج من ذلك الباب حتى تعلمها»، فقام رسول الله ﷺ وقمت معه، ويدي في يده، وجعلت أبطىءُ مخافة أَن أَخرج، فلما دنوت من المسجد قلت: يا رسول الله، السورة التي وعدتنيها؟ فقال: «كيف تقرأُ إِذا قُمت في الصلاة؟» قال: فقرأْتُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى أَكملت فاتحة الكتاب، فقال: «هي هي، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيت»، كذا أَو نحوه، ذكره مالك في الموطأ، وهو مروي في البخاري، ومسلم عن أَبي سعيد بن المعلى أَيضاً. وروى أَبو هريرة عن النبي ﷺ «أَنها السبع المثاني، وأُم القرآن، وفاتحة الكتاب»[٣]، وفي كتاب الزهراوي: «وليس فيها بسملة». و«المثاني» ـ على قول هؤلاءِ ـ يحتمل أَن تكون القرآن، فـ ﴿مِن﴾ للتبعيض، وقالت فرقة: بل أَراد الحمد نفسها، كما قال: ﴿ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾[٤] فـ ﴿مِن﴾ لبيان الجنس، وسميت بذلك لأَنها تثنى في كل ركعة، وقيل: سميت بذلك لأَنها يثنى بها على الله تبارك وتعالىٰ، جوّزه الزجاج، وفي هذا القول من جهة التصرف نظر[٥]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سميت

---

(١) لأنهما في حكم سورة واحدة، ولذلك لم يفصل بينهما بالبسملة.

(٢) من الآية (٢٣) من سورة (الزُّمَر).

(٣) قال في (فتح القدير): (أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «أُمُّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»). وفي القرطبي: (وخَرَّج الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أُم القرآن وأُم الكتاب والسبع المثاني»).

(٤) من الآية (٣٠) من سورة (الحَجّ).

(٥) قال أبو حيان في البحر: «ولا نظر في ذلك، لأنها جمع مُثْنى بضم الميم، مُفعل من أثنى رباعياً، أي مقر=

بذلك لأن الله تعالىٰ استثناها لهذه الأمة ولم يعطها لغيرها، وقال نحوه ابن أبي مُلَيْكَة. وقرأت فرقة: ﴿وَٱلْقُرْآنِ﴾ بالخفض عطفاً على ﴿ٱلْمَثَانِي﴾، وقرأت فرقة: [وَٱلْقُرْآنَ] بالنصب عطفاً على قوله: ﴿سَبْعاً﴾.

وقال زياد بن أبي مريم[1]: المراد بقوله: ﴿سَبْعاً﴾ أي سبع معانٍ من القرآن خوَّلناك فيها شرف المنزلة في الدنيا والآخرة، وهي: مُرْ، وانْهَ وبَشِّر، وأَنْذِرْ، واضرب الأمثال، واعدد النعم، وفُضَّ الغيوب.

وقال أبو العالية: السبع المثاني هي آي فاتحة الكتاب، وقد نزلت هذه السورة وما نزل من السبع الطُّوَل شيءٌ[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية. حكى الطبري عن سفيان بن عُيَيْنَة أنه قال: هذه الآية أمر بالاستغناءِ بكتاب الله عن جميع زينة الدنيا، وهي ناظرة إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[3]، أي: يستغني به، فكأنه قال: ولقد آتيناك عظيماً خطيراً، فلا تنظر إلى غير ذلك من أُمور الدنيا وزينتها التي متعنا بها أنواعاً من هؤلاءِ الكفرة، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «من أُوتي القرآن فرأى أن أحداً أُعطي أفضل مما أُعطي فقد عظَّم صغيراً وصغر عظيماً»[4]، وكأن مدَّ العين يقترن به تَمَنٍّ، ولذلك عبَّر عن الميل إلى زينة الدنيا بِمَدِّ العين. و«الأزواج» هنا: الأنواع والأشباه.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لا تتأسف لكفرهم وهلاكهم، واصرف وجهك وتَحَفِّيك إلى من آمن بك، واخفض لهم جناحك، وهذه استعارة بمعنى: ليِّن جانبك

= ثناءٍ على الله تعالىٰ، أي: فيها ثناءٌ على الله تعالىٰ».

(١) هو زياد بن أبي مريم الجزري، وثَّقه المعجلي، من الطبقة السادسة.

(٢) يَرُدُّ أبو العالية بذلك على من قال إنها السبع الطُّوَل. وأُجيب بأن الله تعالىٰ أنزل القرآن إلى السماء الدنيا، ثم أنزله منها نجوماً، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمداً ﷺ وإن لم ينزل بعد عليه.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، وأبو داود في الوتر، والدارمي في الصلاة وفي فضائل القرآن، والإمام أحمد (١٧٢٠١، ١٧٥، ١٧٩)، وفي رواية الإمام أحمد بعد أن ذكر الحديث قال وكيع: «يعني: يستغني به»، ووكيع هو الراوي.

(٤) رواه أبو القاسم الطبراني عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ: «من قرأ القرآن فرأى أن أحداً أُوتي أفضل مما أُوتي فقد استصغر ما عظَّم الله»، (راجع ج١ ص١٣) من هذا الكتاب.



ووطىء أكنافك، و«الجناح»: الجانب والجنب، ومنه قوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾[١]، فهو أمر بالميل إليهم، والجنوحُ: المَيْلُ.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: تمسَّك بهذا القدر العظيم الذي وهبناك، والكاف من قوله: ﴿كَمَآ﴾ متعلقة بفعل محذوف تقديره: وقل إني أنا النذير بعذاب كالذي أنزلناه على المقتسمين، والكاف اسمٌ في موضع نصب، هذا قول المفسرين، وهو عندي غير صحيح[٢]؛ لأن ﴿كَمَآ﴾ ليست مما يقوله محمد ﷺ، بل هو من قول الله تعالىٰ له، فينفصل الكلام، وإنما يترتب هذا القول بأن يقدر أن الله تعالىٰ قال له: تنذر عذاباكما، والذي أقول في هذا: إن المعنى: وقل إني أنا نذير كما قال قبلك رسلنا، وأنزلنا عليهم كما أنزلنا عليك. ويحتمل أن يكون المعنى: وقل أنا النذير كما أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً، وهذا على أن ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أهل الكتاب.

واختلف الناس في ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾. من هم؟ ـ فقال ابن زيد: هم قوم صالح الذين اقتسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهله[٣]، فالمقتسمون ـ على هذا ـ من القسم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقلق هذا التأويل مع قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: المقتسمون هم أهل الكتاب الذين فرقوا دينهم، وجعلوا كتاب الله أعضاءَ، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقال نحوه مجاهد.

وقالت فرقة: المقتسمون هم من كفار قريش الذين اقتسموا الطرق وقت المواسم ليُعَرِّفوا الناسَ بحال محمد ﷺ، وجعلوا القرآن سحراً وشعراً وكهانة، فعضهوه بهذا وعضَّوه أعضاءً بهذا التقسيم.

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (طه).

(٢) علَّق أبو حيان في البحر على قوله: «وهذا عندي غير صحيح» فقال: «استعذر بعضهم عن ذلك فقال: الكاف متعلقة بمحذوف دلَّ عليه المعنى، تقديره: أنا النذير بعذاب مثل ما أنزلنا، وإن كان المنزل هو الله، كما يقول بعض خواص الملك: «أمَرْنا بكذا» وإن كان الملك هو الآمر».

(٣) إشارة إلى قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، الآية (٤٩) من سورة (النمل). ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، وقوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيءٍ إلا أقسموا عليه، فسُمُّوا مقتسمين.

وقال عكرمة: المقتسمون هم قوم كانوا يستهزئون بِسُوَر القرآن، ويقول الرجل منهم: هذه السورة لي، ويقول الآخر: وهذه لي.

وقوله: ﴿عِضِينَ﴾ مفعول ثان، و﴿جَعَلُوا﴾ بمعنى «صَيَّروا»، أَي بأَلسنتهم ودعواهم، وأَظهر ما فيه أَنه جمع عِضَة، وهي الفرقة من الشيءِ، والجماعة من الناس كثُبَةٍ وثُبين، وعِزةٍ وعِزين، وأَصلها عِضْهَة وثُوبَة، فالياءُ والنون عوض من المحذوف، كما قالوا: سَنَةٌ وسنون، إِذ أَصلها سَنْهَة[1]. وقال ابن عباس وغيره: ﴿عِضينَ﴾ مأْخوذ من الأَعضاءِ، أَي عضَّوه فجعلوه أَقساماً وأَعضاءً، ومن ذلك قول الراجز:

وَلَيْسَ دِينُ اللهِ بِالْمُعَضَّى[2].

وهذا هو اختيار أَبي عبيدة. وقال قتادة: ﴿عِضِين﴾ مأْخوذ من العَضْهِ وهو السَّبُّ المفحش، فقريش عَضَهوا كتاب الله بقولهم: هو شعر، هو سحر، هو كهانة، وهذا هو اختيار الكسائي. وقالت فرقة: ﴿عِضِين﴾ جمع عِضَة، وهو اسم للسِّحْر خاصة بلغة قريش، ومنه قول الراجز:

لِلْمَاءِ مِنْ عِضَاتِهِنَّ زَمْزَمَهْ[3]

قال هذا القول عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: العَضْه: السِّحْر،

---

(١) استثقلوا الجمع بين هاءَيْن فقالوا: عِضَة، كما قالوا: شَفَة، والأصل شَفْهة، وسَنَة، والأصل سَنْهَة، ومن علماء العربية من قال: عِضِين واحدتها عِضَة، ولكن أصلها عِضْوة من: عَضَّيْتُ الشيءَ إذا فرقتَه، جعلوا النقصان هو الواو. اتفقوا على أن الأصل (عِضَة) ولكن اختلفوا في المحذوف، أهو واو أو هاءٌ؟.

(٢) الراجز هو رؤبة بن العجاج، والبيت من قصيدة له يمدح بها تميم ونفسه. يقول: «إن دين الله ليس أقساماً ولا أجزاءً»، وفي مطلع القصيدة يقول:

دايَنْتُ أرْوَى والديونُ تُقْضَى ... فَمَطَلَتْ بَعْضاً وأَدَّتْ بَعْضا

(٣) جاء في (اللسان ـ عَضَه): «العِضَهُ: السِّحْر والكهانة، والعاضه: السَّاحر، الفعل كالفعل والمصدر كالمصدر، قال:

أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ النَّافِثَا ... ت فِي عِضَهِ العَاضِهِ المُعْضِهِ

وسُمِّي السِّحر عِضَهاً لأنه كذب وتخييل لا حقيقة له». وعلى هذا نفهم كلام هذه الفرقة، والرجز الذي ساقه ابن عطية يشهد بأن العِضَة اسم للسِّحر، والزَّمْزَمة: صوت خفيٌّ لا يكاد يفهم، وزمزمة الماء: كثرته، يقول: إن للماء من سحرهن كثرة، أو صوت خفي لا يكاد يُفْهم. ولم نقف على قائل هذا الرجز.



وهم يقولون للساحرة: العاضِهة، وفي الحديث: «لعن الله العاضهة والمُسْتَعْضِهَة»[١]، وهو اختيار الفراءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن قال: «جعلوه أَعضاءً» فإنما أَراد: قسَّموه كما يُقَسَّم الجزور أَعضاءً.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى آخر الآية، ضمير عام، ووعيد محضٌ يأخذ كل أَحد منه بحسب جرمه وعصيانه، فالكافر يُسأَل عن «لا إلـٰه إلا الله»، وعن الرسل، وعن فكره وقصده، والمؤمن العاصي يُسأَل عن تضييعه، والإمام عن رعيته، وكلُّ مكلف عما كلف القيام به، وفي هذا أَحاديث.

وقال أَبو العالية في تفسير هذه الآية: يسأَل العباد كلهم عن خلَّتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وبماذا أَجابوا المرسلين. وقال في تفسيرها أَنَسُ بن مالك، وابن عمر، ومجاهد: إن السؤال عن «لا إلـٰه إلا الله»، وذكره الزهراوي عن النبي ﷺ.

وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢]، قال: يقال لهم: لِم عملتم كذا وكذا؟ قال: وقوله تعالىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[٣] معناه: لا يقال له: ما أَذنبت؟ لأَن الله تعالىٰ أَعلم بذنبه منه، ونفيُ السؤال هو نفي الاستفهام المحض، وإيجاب السؤال هو على جهة التقرير لهم والتوبيخ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

«أَصدع»: معناه: أَنفذ وصرِّح بما بعثت به، والصَّدع: التفريق بين مُلْتحم، كصدع الزجاجة ونحوه، فكأَن المصرِّح بقول يُرْجع إليه يَصْدع به ما سواه مما يضادُّه،

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية: «هي الساحرة والمستسحرة، سُمِّي السِّحر عضهاً لأنه كذب وتخييل لا حقيقة له».

(٢) قال الزمخشري: أقسم تعالىٰ بذاته وربوبيته مضافاً إلى رسوله على جهة التشريف.

(٣) من الآية (٣٩) من سورة (الرحمن).



والصَّديعُ: الصُّبْح[١]، لأنه يصدع الليل. وقال مجاهد: نزلت في أن يجهر بالقرآن في الصلاة.

وفي [تُؤْمَر] ضمير عائد على ﴿مَا﴾، تقديره: تؤمر به، أو تؤمره، وفي هذين تنازع. وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من آيات المهادنات التي نسختها آية السيف، قاله ابن عباس، ثم أعلمه تعالىٰ أنه كفاه المستهزئين به من كفار مكة ببوائق من الله أصابتهم، لم يسع بها محمد، ولا تكلف فيها مشقة.

وقال عروة بن الزُّبير، وسعيد بن جبير: المستهزئون خمسة نفر: الوليدُ بن المغيرة، والعاصُ بن وائل، والأَسود بن المطلب أَبو زمعة، والأَسود بن عبد يغوث، ومن خزاعة الحارث بن الطُّلاطلة، وهو ابن غيطلة، وهو ابن قيس. قال أَبو بكر الهذليُّ: قلت للزهري: إن ابن جبير، وعكرمة اختلفا في رجل من المستهزئين، فقال ابن جبير: هو الحارث بن غيطلة، وقال عكرمة: هو الحارث بن قيس، فقال الزهري: صَدَقا، أُمُّه غيطلة وأَبوه قيس، وذكر الشَّعْبي في المستهزئين هَبَّار بن الأَسود، وذلك وهم، لأَن هَبَّار أَسلم يوم الفتح ورحل إِلى المدينة. وذكر الطبريُّ عن ابن عباس أَن المستهزئين كانوا ثمانية، كلهم مات قبل بدر، وروي أَن رسول الله ﷺ كان في المسجد، فأَتاه جبريل، فجاء الوليدُ فأَومأَ جبريل بإِصبعه إِلى ساقه وقال: كُفيت، ثم جاءَ العاصي فأَومأَ إِلى أَخْمَصيه وقال: كفيت، ثم جاءَ أَبو زمعة فأَومأَ إِلى عينه، ثم مرَّ الأَسود بن عبد يغوث فأَومأَ إِلى رأسه وقال: كفيت، ثم مرَّ الحارث فأَومأَ إِلى بطنه وقال: كفيت، وكان الوليد قد مرَّ بقَيْن في خزاعة فتعلق سهم من نبله بإِزاره فجرح[٢] ساقه، ثم برىء، فانتقض به ذلك الخدش بعد إِشارة جبريل عليه السلام فقتله، وقيل: إِن السهم قطع أَكْحَلَه[٣]، قاله قتادة، ومقسم. وركب العاصي بغلة في حاجة، فلما جاءَ

---

(١) قال عمرو بن معديكرب:

تَـرَى السِّـرْحَـانَ مُفْتَـرِشـاً يَـدَيْـهِ ... كـأَنَّ بيـاضَ لَبَّتِـهِ صَـديـعُ

(٢) في بعض النسخ: «فخدش ساقه»، وهو مناسب لقولك بعد ذلك: «فانتقض به ذلك الخدش».

(٣) الأَكحَل: عِرْقٌ في اليد يُفصد، قال ابن سيدة: يقال له النَّسَا في الفخذ، وفي الظهر الأَبْهَر، وقيل: الأَكْحَلُ: عِرْقُ الحياة، يُدْعى نهر البَدَن، وفي كل عضو منه شعبة لها اسمٌ على حدة، فإذا انقطع في اليد لم يرقأ الدم. (اللسان).



ينزل وضع أَخْمُصَه على شِبْرِقة[1]، فورمت قدمه فمات، وعمي أَبو زمعة، وكان يقول: دعا عليَّ محمد بالعمى فاستجيب له، ودعوت عليه بأَن يكون طريداً شريداً فاستجيب لي، وتمخض رأسُ الأَسود بن عبد يغوث قيحاً فمات، وامتلأَ بطن الحارث ماءً فمات حيناً[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي ذكر هؤلاءِ وكفايتهم اختلاف بين الرواة، وفي صفة أَحوالهم وما جرى لهم جلبت أَصحَّه مختصراً طلباً للإِيجاز.

ثم قرر الله تبارك وتعالىٰ ذنبهم في الكفر، واتخاذ الأَصنام آلهة مع الله، ثم توعَّدهم بعذاب الآخرة الذي هو أَشق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ آية تأْنيس للنبي ﷺ وتسلية عن أَقوال المشركين وإِن كانت مما يقلق، وضيق الصدر يكون من امتلائه غيظاً بما يكره الإِنسانُ، ثم أَمر تعالىٰ بملازمة الطاعة، وأَن تكون مَسْلاته عند الهموم. وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ يريد: من المصلين، فذكر من الصلاة حالة القرب من الله تعالىٰ وهي السجود، وهي أَكرم حالات الصلاة وأَقمنها بنيل الرحمة، وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ إِذا حَزَبه أَمْرٌ فزع إِلى الصلاة»[3]، فهذا منه عليه الصلاة والسلام أَخذٌ بهذه الآية.

و﴿ٱلْيَقِينُ﴾: الموتُ، بذلك فسَّره هنا ابن عمر، ومجاهد، وقتادة، والحسن، وابن زيد، ومنه قول النبي ﷺ عند موت عثمان بن مظعون: «أَما هو فقد رأَى اليقين»[4]،

---

(١) الشِّبْرِقُ بالكسر: نبات ثمرتُه شاكَّة، صغيرة الحجم، حمراءُ مثل الدَّم، مَنْبَتُها السباخ والقيعان، واحدته: شِبْرِقَة، وقيل: إذا يبس الضريع فهو الشُّبرق، وهو نبت كأظفار الهِرِّ (اللسان ـ شبرق).

(٢) الحَيْن: الهلاك. يقال: حان يحين حَيْناً: هَلَك، وأَحَانَه الله.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٥ـ٣٨٨)، والنسائي في المواقيت، عن حذيفة، ولفظه في المسند: «كان إذا حَزَبَهُ أَمرٌ صَلَّى».

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز، والتعبير، ومناقب الأنصار، والشهادات، وأخرجه الإمام أحمدفي مسنده (٦ـ٤٣٦)، (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) ـ ولفظه كما في المسند: عن أم العلاءِ الأنصارية، قالت: اشتكى عثمان بن مظعون عندنا فمرضناه، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال =



ويروى: «فقد جاءَه اليقين»، وليست اليقين من أَسماءِ الموت، وإِنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل، فسمَّاه هنا يقيناً تَجَوُّزاً، أَي: يأْتيك الأَمر اليقين علْمُه ووقوعُه، وهذه الغاية معناها: مُدَّة حياتك، ويحتمل أَن يكون المعنى: حتى يأْتيك اليقين في النصر الذي وُعِدْتَه[1].

نجز تفسير سورة الحِجْر، ولله الحمد والمنة،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

= رسول الله ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه ؟ قالت: فقلت: لا أدري، بأبي أنت وأُمي، فقال رسول الله ﷺ: أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري ـ وأنا رسول الله ـ ما يُفعل بي. ـ قال يعقوب (الراوي): به ـ قالت: والله لا أُزكِّي أحداً بعده أبداً، فأحزنني ذلك، فنِمت فأُريت لعثمان عيناً تجري، فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته ذلك، فقال رسول الله ﷺ: ذاك عمله».

(١) قال بعض العلماء: حكمة التَّغْيِيَة باليقين وهو الموت أنه يقتضي ديمومة العبادة ما دام حيّاً، بخلاف الاقتصار على الأمر بالعبادة دون غاية.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة النحل

هذه السورة كانت تُسمى سورة النِّعم بسبب ما عدَّد الله فيها من نعمه على عباده، وهي مكية غير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ الآية، نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه وقتلى أُحد، وغير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، وغير قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ الآية، وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ فمكيٌّ في شأن هجرة الحبشة[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾.

رُوي أن رسول الله ﷺ لمَّا قال جبريل عليه السلام في سرد الوحي: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ وثب رسول الله ﷺ قائماً، فلما قال: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ سكن[2].

وقوله: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ قال فيه جمهور المفسِّرين: إنه يريد القيامة، وفيه وعيد للكفار،

---

(١) قال الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر: السورة مكية كلها. وقال ابن عباس: هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة رضي الله عنه، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ إلى قوله: ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ هذا والآيات التي ذكرها المؤلف على أنها مدنية هي على حسب ترتيبها لها رقم (١٢٦)، ورقم (١٢٧)، ورقم (١١٠)، أما الآية التي أكد أنها مدنية فهي رقم (٤١) من السورة.

(٢) الذي وجدناه في (الدر المنثور)، و(فتح القدير) ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ ذعر أصحاب رسول الله ﷺ، حتى نزلت ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ فسكنوا»، وما أخرجه عبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد)، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي بكر بن حفص قال: «لما نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ قاموا، فنزلت ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾». وفي القرطبي عن ابن عباس: «نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ والمسلمون وخافوا، فنزلت ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ فاطمأنوا».



وقيل: المرادُ نصر محمد ﷺ، وقيل: المرادُ تعذيب كفار مكة بقتل محمد عليه الصلاة والسلام لهم وظهوره عليهم، ذكر نحو هذا النقاشُ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: المراد فرائض الله وأحكامه في عباده وشرعه لهم، هذا قول الضحاك، ويُبعده قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، لأنَّا لا نعرف استعجالاً إلاَّ ثلاثة: اثنان منها للكفار في القيامة وفي العذاب، والثالث للمؤمنين في النصر وظهور الإسلام، وقوله: [أَتَى] ـ عَلَىٰ هذا القول ـ إخبارٌ عن إتيان ما سيأتي، وصحَّ ذلك على جهة التأكيد، وإذا كان الخبر حقًّا يُؤكَّد المستقبل بأَن يخرج في صيغة الماضي، أَي كأَنه لوضوحه والثقة به قد وقع، ويحسن ذلك في خبر الله تبارك وتعالىٰ لصدق وقوعه.

وقال قومٌ: [أَتَى] بمعنى قَرُبَ، وهذا نحو ما قلتُ، وإنما يجوز الكلام بهذا عندي لمن يعلم قرينة التأكيد ويفهم المجاز، وأَما إن كان المخاطب لا يفهم القرينة فلا يجوز وضع الماضي موضع المستقبل، لأَن ذلك يفسد الخبر ويوجب الكذب، وإنما جاز في الشرط لوضوح القرينة بـ (إنْ)، ومن قال: «إن الأَمر القيامة» قال: إن قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ردٌّ على القائلين: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾[1] ونحوه من العذاب، أَو على مستبطئي النصر من المؤمنين في قراءَة من قرأَ بالتاءِ ـ وهي قراءَة الجمهور ـ على مخاطبة المؤمنين، أَو على مخاطبة الكافرين، بمعنى: قُلْ لهم: فلا تستعجلوه. وقرأَ سعيد بن جبير بالياءِ على غيبة المشركين، وقرأَ حمزة، والكسائي: [تُشْرِكُونَ] بالتاءِ من فوق، وجميع الباقين قرؤُوا بالياءِ، ورجح الطبري القراءَة بالتاءِ من فوق في الحرفين، قال أَبو حاتم: قرأَ [يُشْرِكُونَ] بالياءِ من تحت في هذه والتي بعدها الأَعرجُ، وأَبو جعفر، ونافع، وأَبو عمرو، وابن نَصَّاح، والحسن، وأَبو رجاءٍ، وقرأَ عيسى الأُولى بالتاءِ من فوق، والثانية بالياءِ من أَسفل، وقرأَهما جميعاً بالتاءِ من فوق أَبو العالية، وطلحة، والأَعمش، وأَبو عبد الرحمن، ويحيى بن وثاب، والجحدري، وقد روى الأَصمعي عن نافع التاءَ في الأُولى.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ معناه: تنزيهاً له، وحكى الطبري عن ابن جريج قال: لما نزلت ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال رجالٌ من الكفار: إن هذا يزعم أَن أَمر الله قد أَتى، فأَمسكوا عما أَنتم بسبيله حتى ننظر، فلما لم يروا شيئاً عادوا، فنزلت ﴿اقْتَرَبَ

(١) من الآية (١٦) من سورة (صٓ).



لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[١]، فقالوا مثل ذلك، ثم عادوا فنزلت ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾[٢] الآية. وقال أبو بكر بن حفص: لمَّا نزلت ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ رفعوا رؤوسهم فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وحكى الطبري عن أبي صادق أنه قرأ: «يا عبادي أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ»، و[سُبْحَانَهُ] نصب على المصدر، أي: تنزيهاً له.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ بالياءِ وشد الزاي، ورجحها الطبريُّ لما فيها من التكثير، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بتخفيف الزاي مكسورة وسكون النون، وقرأ ابن أَبي عبلة بالنون للعظمة وشدّ الزاي، وقرأ قتادة بالنون وتخفيف الزاي وسكون النون، وفي هذه والتي قبلها شذوذ كثير[٣]، وقرأ أبو بكر عن عاصم [تُنَزَّلُ] بضم التاءِ وفتح النون والزاي وشدها ورفع [الْمَلاَئِكَةُ] على ما لم يُسَمَّ فاعله، وهي قراءَة الأعمش، وقرأ الجحدري بالياءِ مضمومة وسكون النون وفتح الزاي، وقرأ الحسن، وأبو العالية، وعاصم، والجحدري، والأعرج بفتح التاءِ ورفع [الْمَلاَئِكَةُ] على أنها فاعلة، ورواها المفضل عن عاصم، و[الْمَلاَئِكَةُ] ها هنا جبريل عليه السلام.

واختلف المتأولون في «الرُّوح» ـ فقال مجاهد: الروح: النبوة، وقال ابن عباس: الوحي، وقال قتادة: بالرحمة والوحي، وقال الربيع بن أنس: كل كلام الله روح، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[٤]، وقال ابن جريج: الروح: شخص له صورة كصورة بني آدم، ما نزل جبريل قط إلاَّ وهو معه، وهم كثير، وهم ملائكة. وهذا قول ضعيف لم يأت به سند، وقال الزجاج: الروح: ما تحيا به القلوب من هداية الله تعالىٰ لها.

---

(١) الآية (١) من سورة (الأنبياء).

(٢) من الآية (٨) من سورة (هود).

(٣) قال أبو حيان تعقيباً على كلام ابن عطية: «وشذوذهما أن ما قبله وما بعده ضمير غيبة، ووجْهُه أنه التفات».

(٤) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى)، هذا وقد قيل أيضاً: الروح: حفظة على الملائكة، لا تراهم الملائكة، كما أن الملائكة حفظة علينا ولا نراهم، وقيل: الباءُ بمعنى (مع)، وقال مجاهد أيضاً: الروح: اسم مَلك، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن، وكأن اللَّفظة على جهة التشبيه بالمقايسة، أي: إن هذا الذي أمر الأنبياءُ أن ينذروا به الناس من الدعاءِ إلى التوحيد هو بالمقايسة إلى الأوامر التي هي في الأفعال والعبادات كالروح للجسد، ألا ترى قوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾[1]، و﴿مِنْ﴾ في هذه الآية ـ على هذا التأويل الذي قدرناه ـ للتبعيض، وعلى سائر الأقوال لبيان الجنس. و﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ هي للأنبياءِ، و﴿أَنْ﴾ في موضع خفض بدل من ﴿الرُّوحِ﴾، ويصح أن تكون في موضع نصب بإسقاط الخافض، على تقدير: بأن أنذروا، ويحتمل أن تكون مفسِّرة بمعنى «أي». وقرأ الأعمش: [لِيُنْذِرُوا]، وحسنت النِّذارة هنا وإن لم يكن في اللفظ ما فيه خوف من حيث كان المُنْذَرون كافرين بالألوهية، ففي ضمن أمرهم مكان خوف، وفي ضمن الإخبار بالوحدانية نهي عَمَّا كانوا عليه ووعيد.

ثم ذكر تعالىٰ ما يقال للأنبياءِ بالوحي على المعنى، ولم يذكره على لفظه، لأنه لو ذكره على اللفظ لقال: أنْ أنذروا أنه لا إلـٰه إلا الله، ولكنه إنما ذكر ذلك على معناه، وهذا شائع في كل الأقوال إذا حكيت أن تحكى على لفظها، أو تحكى بالمعنى فقط.

وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ آية تنبيه على قدرة الله تعالىٰ. وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالواجب اللائق، وذلك أنها تدل على صفات يحق لمن كانت له أن يخلق ويخترع ويعيد، وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة النافذة، بخلاف شركائهم الذين لا يحق لهم شيءٌ من صفات الربوبية. وقرأ الأعمش بزيادة فاءٍ: [فَتَعَالَىٰ].

وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يراد بالإنسان الجنس، وأخذ له الغايتين ليظهر البعد بينهما بقدرة الله، ورُوي أن الآية نزلت لقول أُبيِّ بن خلف: «مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟»[2] وقوله: ﴿خَصِيمٌ﴾ يحتمل أن يريد به الكفرة الذين يختصمون في الله، ويجادلون في توحيده وشرعه، ذكره ابن سلام عن الحسن البصري، ويحتمل

---

(١) من الآية (١٢٢) من سورة (الأنعام).

(٢) ورد ذلك في قوله تعالىٰ في الآية (٧٨) من سورة (يسٓ): ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

أن يريد أعم من هذا، على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان على البشر، ويظهر أنها إذ تقرر في خصام الكافرين ينضاف إلى العبرة وعيد مَّا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿الأَنْعَامَ﴾: الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال: نعَم وأنعام للإبل، ويقال للجموع، ولا يقال للغنم مفردة، ونصبها إما عطفاً على ﴿الإِنْسَانَ﴾، وإما بِفِعْل مقدر، وهو أَوْجَه[1].

و«الدِّفْءُ»: السَّخَانَةُ[2] وذهاب البرد بالأكسية، وذكر النحاسُ عن الأَموي قال: الدفْءُ في لغة بعضهم: تناسل الإبل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نسْل كل شيءٍ، والمعنى الأول هو الصحيح. وقرأ الزهري، وأبو جعفر: «دِفٌّ» بضم الفاءِ وشدها وتنوينها[3].

و«الْمَنَافِع»: أَلبانُها وما تصرف منها، ودهونُها وحرثُها والنضحُ عليها، وغير ذلك، ثم ذكر «الأَكْل» الذي هو من جميعها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: في النظر، ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ معناه: حين

---

(١) قال الفراءُ: «نصبت بـ ﴿خَلَقَهَا﴾ لما كانت في ﴿الأَنْعَامَ﴾ واو، وكذلك كُلُّ فعل عاد على اسم بذكره وقبل الاسم واو أو كلام يحتمل نُقْلة الفعل إلى ذلك الحرف الذي قبل الاسم ففيه وجهان: الرفع والنصب، أما النصب فأن تجعل الواو ظرفاً للفعل، والرفع أن تجعل الواو ظرفاً للاسم الذي هي معه، ومثله ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾. وقرأ عليٌّ بعض العرب من سورة يٰس ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ رفعاً، قرأها غير مرة». ومعنى ذلك أنه يجوز رفع ﴿الأَنْعَام﴾، وقد قرىء بذلك في الشاذ، قاله أبو حيان في البحر.

(٢) السَّخَانة والسُّخونة مصدران للفعل سَخُن (بضم الخاءِ). راجع اللسان.

(٣) قال أبو الفتح عثمان بن جني: «خفف بأن حذف الهمزة، وألقى حركتها على الفاءِ قبلها، كقولك في مسألة: مَسَلَة، وفي يَزْئِرُ: يَزِرُ». وزاد أبو حيان الأندلسي على ذلك فقال: «ثم شدد الفاءَ إجراءً للوصل مجرى الوقف إذ يجوز تشديدها في الوقف». وقرأ زيد بن علي مثل قراءة الزهري ولكن بدون تنوين.

تردُّونها وقت الرواح إلى المنازل فتأتي بطاءً ممتلئة الضروع. و﴿تَسْرَحُونَ﴾ معناه: تخرجونها غدوة إلى السرح، تقول: «سرَحْتُ السائمةَ» إذا أرسلتها تسرح، فسرحَت هي، كرَجَع ورجَعْتُه، وهذا الجمَالُ لمالكها ولمُحِبِّيه وعلى حسدته[١]، وهذا في المعنى كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢]، وقرأ عكرمة، والضحاك: «حيناً تُريحُونَ وحيناً تسْرَحونَ»[٣]، وقرأت فرقة: «حيناً تَريحون».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهي ضعيفة، وأظنها تصحيفاً.

و«ٱلْأَثْقَالُ»: الأمتعة، وقيل: المراد هنا الأجسام، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[٤]، أي بني آدم، واللفظ يحتمل المعنيين، قال النقاش: ومنه سمِّي الإنس والجن الثقلان. وقوله: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ أي: إلى أيِّ بلدٍ توجهتم بحسب اختلاف أغراض الناس، وقال عكرمة، وابن عباس، والربيع بن أنس: المراد مكة[٥]، وفي الآية ـ على هذا ـ حضٌّ مَّا على الحج. و«الشِّقُّ»: المشقَّة، ومنه قول الشاعر:

وذي إبـلٍ يَسْعَـى ويحْسِبُهَـا لَـهُ ... أخـي نَصَـبٍ مـن شِقِّهَـا ودؤُوبِ[٦]

---

(١) الجَمَالُ: الحُسْن، يقال: جَمُل الرجل جمالاً فهو جميل، والمرأة جميلة، وقد يقال: جَمْلاءُ، وأنشد الكسائي على ذلك:

فَهِـيَ جَمْـلاءُ كَبَـدْرٍ طـالِـعٍ ... بَـذَّتِ الْخَلْـقَ جَميعـاً بـالْجَمَـالِ

(٢) من الآية (٤٦) من سورة (الكهف).

(٣) بالتنوين وفك الإضافة، وجعلا الجملتين صفتين حذف منهما العائد، كقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى﴾، ويكون العامل في (حِيناً) ـ على هذا ـ إمَّا المبتدأُ لأنه في معنى «التَّجَمُّل»، وإما خبرُه بما فيه من معنى الاستقرار.

(٤) الآية (٢) من سورة (الزلزلة).

(٥) وقيل: مدينة الرسول، وقيل: مصر. قال أبو حيَّان: «وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على المراد، إذ المنَّة لا تختص بالحمل إليها».

(٦) البيت للنَّمر بن تولب، قال ذلك في (اللسان ـ شَقَق). وفيه: الشَّقُّ: المشقَّة. وقد ينشد البيت بكسر الشين وبفتحها، قال أبو عبيدة في «معاني القرآن»: إلا بشِقِّ الأنفس. بكسر أوله ويفتح، ومثل هذا البيت قول العجاج:

أصْبَحَ مَسْحُولٌ يُوَازي شِقّاً

ومسحُول هو بَعيره، ويوازي: يقاسي. والشِقّ: المَشَقَّة.



أي: من مَشقَّتها. ويقال فيها: شِقٌّ وشَقٌّ، أي: مَشقَّة، وقرأ أبو جعفر القاري، وعمرو بن ميمون، وابن أرقم، ومجاهد، والأعرج: [بشَقِّ] بفتح الشين، ورويت عن نافع، وأبي عمرو، وذهب الفراءُ إلى أن معنى ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ أي: بذهاب نصفها، كأنها قد ذابت تعباً ونصباً، كما تقول لرجل: لا تَقْدرُ على كذا إلاَّ بذهاب جُلِّ نفسك، وبقطعة من كبدِ لك، ونحو هذا من المجاز، وذهبوا في فتح الشين إلى أنه مصدر: شقَّ يَشُقُّ. ثم أوجب الله رأفته ورحمته في هذه النعم التي أذهبت المشقات ورفعت الكلف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ عطف، أي: وخلَق الخيلَ، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿والخيلُ والبغالُ والحميرُ﴾ بالرفع في كلها، وسميت الخيل خيلاً لاختيالها في المشية، أفهمه أعرابي لأبي عمرو بن العلاءِ. وقوله: ﴿وَزِينَةً﴾ نصبت بإضمار فعل تقديره: «وجعلناها زينة»، وقرأ أبو عياض: [لتركبوها زينة] دون واو، والنصب حينئذ على الحال من الهاءِ في [تَرْكَبُوهَا][1]. وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عبرة منصوبة على العموم، أي أن مخلوقات الله تعالىٰ من الحيوان وغيره لا يُحيط بعلمها بشر، بل ما يخفى عنه أكثر مما يُعْلم وقد روي أن الله تعالىٰ خلق ألف نوع من الحيوان، منها في البرِّ أربعمائة، وبثَّها بأعيانها في البحر، وزاد فيه مائتين ليستا في البر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكل من خصَّص في هذه الآية شيئاً ـ كقول من قال: سُوس الثياب وغير ذلك ـ فإنما هو على جهة المثال، لا أن ما ذكره هو المقصود في نفسه، وقال الطبري: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو ما أُعدَّ في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تره عين، ولا سمعته أُذن، ولا خطر على قلب بشر. واحتج بهذه الآية مالك ومن ذهب مذهبه في كراهية لحوم الخيل والبغال والحمير وتحريمها بحسب الاختلاف في ذلك، وذكره الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن جبير: سُئل ابن عباس عن لحوم الخيل والبغال والحمير فكرهها واحتج بهذه الآية، وقال: جعل الله الأنعام للأكل وهذه للركوب، وكان الحكم بن عيينة يقول: الخيل والبغال والحمير حرام في كتاب الله تعالىٰ، ويحتج بهذه الآية، وهذه الحجة غير لازمة عند جماعة من العلماءِ، قالوا: إنما ذكر الله تعالىٰ عظم منافع الأنعام، وذكر عظم منافع هذه وأهم ما فيها، وليس يقضي

(١) وقال الزمخشري: «التقدير: خلقها زينةً لتركبوها».



ذلك بأَن ما ذكره لهذه لا تدخل هذه فيه، قال الطبري: وفي إِجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأَكل دليل على جواز أَكل ما ذكر للركوب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، ولحوم الخيل عند كثير من العلماءِ حلال، وفي جواز أَكلها حديث أَسماءَ بنت أَبي بكر رضي الله عنهما، وحديث جابر بن عبد الله: «كنا نأْكل الخيل في عهد النبي عليه الصلاة والسلام»[١] والبغال والحمير مكروهة عند الجمهور، وهو تحقيق مذهب مالك رحمه الله، وحُجَّة من أَلْحَق الخيل بالبغال والحمير في الكراهية القياسُ، إِذ قد تشابهت وفارقت الأَنعام في أَنها لا تجْترُّ، وأَنها ذات حوافر، وأَنها لا أَكراش لها، وأَنها متداخلة في النسل، إِذ البغال بين الخيل والحمير، فهذا من جهة النظر، وأَما من جهة الشرع فإِنها قرنت في هذه الآية وأُسقطت الزكاة فيها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ الآية. هذه أَيضاً من أَجَلِّ نعم الله تبارك وتعالىٰ، أَي: على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه، وذلك بِنَصْب الأَدلة وبعث الرسل، وإِلى هذا ذهب المتأَوِّلون، ويحتمل أَن يكون المعنى: إِن من سلك السبيل القاصد فعلى الله رحمته ونعيمه وطريقه، وإِلى ذلك مصيره، فيكون هذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٢]، وقول النبي ﷺ: «والشَّرُّ ليس إِليك»، أَي: لا يُفضي إِلى رحمتك، و«طَريقٌ قاصدٌ» معناه: بيِّن مستقيم قريب، ومنه قول الراجز:

فَصَدَّ عنْ نَهجِ الطَّريقِ ٱلْقَاصِدِ[٣]

---

(١) هذا هو لفظ حديث جابر، أما حديث أسماء فلم يذكره، ولفظه: «نَحَرْنَا فَرَساً على عهد رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة فأكلناه»، رواه مسلم، ورواه الدارقطني بزيادة تبين سبب الذبح، «قالت أسماءُ: كان لنا فرسٌ على عهد رسول الله ﷺ أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها»، فذبحها إنما كان لخوف الموت لا لغير ذلك من الأحوال.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٥١) من سورة (آل عمران): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وتكررت في سورة (مريم) في الآية (٣٦) في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وفي قوله تعالىٰ في الآية (٦١) من سورة (يسٓ): ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وفي سورة (الزخرف) في الآية (٦١) في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وفي الآية (٦٤) في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

(٣) النَّهجُ: الطريق المستقيم، ونَهْج الطريق: وَضَحُه، وطريق نَهْجٌ: واضحٌ بيِّنٌ، والطَّريق القاصِدُ: السهل =



والألف واللام في ﴿السَّبيلِ﴾ للعهد، وهي سبيل الشرع، وليست للجنس، ولو كانت للجنس لم يكن فيها جاير.

قوله: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ يريد طريق اليهود والنصارى وغيرهم كعباد الأصنام، والضمير في [مِنْهَا] يعود على [السُّبُلِ] التي يتضمنها معنى الآية، كأنه قال: «ومن السُّبُل جائر»، فأعاد عليها وإن كان لم يَجْر لها ذكر لِتَضَمُّن لفظة [السَّبيل] بالمعنى لها، ويحتمل أن يعود الضمير في [مِنْهَا] على سبيل الشرع المذكورة، وتكون [مِنْ] للتبعيض، ويكون المراد فِرَق الضلالة من أُمة محمد ﷺ، كأنه قال: «ومنْ بُنَيات الطريق في هذه السبيل ومن شُعَبها جاير»[(١)].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ معناه: لَخَلق الهداية في قلوب جميعكم ولم يَضل أَحد، وقال الزَّجاج: معناه: لو شاءَ لعرض عليكم آية تضطركم إلى الإيمان والاهتداءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول سوءٍ لأَهل البِدَع الذين يرون الله لا يخلق أَفعال العباد لم يُحصِّله الزجاج، ووقع فيه رحمة الله عليه من غير قصد[(٢)]، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «ومنكم جائر»، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: «فمنكم جائر»، والسَّبيل تُذَكَّر وتُؤَنَّث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

هذا تعديد نعمة الله في المطر، وقوله: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أَي: يكون منه بالتدريج،

= المستقيم، و﴿على الله قصد السبيل﴾: أي: على الله تَبْيِينُ الطريق المستقيم، والدعاءُ إليه بالحجج والبراهين الواضحة. (اللسان).

(١) قيل: إن (ألْ) في [السَّبيل] للجنس، وانقسمت إلى طريق الحق وطريق الباطل.

(٢) قال أبو حيَّان تعقيباً على هذا: «ولم يعرف ابن عطية أن الزجاج معتزلي، فلذلك تأول عليه أنه لم يحصله، وأنه وقع فيه من غير قصد».



إذْ يَسقي الأَرض فينبت عن هذا السقي الشجر، وهذا من التَّجَوُّز، كما قال الشاعر:

أَسْنِمَةُ الآبَالِ في رَبَابِهْ(١)

وكما سَمَّى الآخر الغَيْثَ سماءً في قوله:

إذَا نَــزَلَ السَّمَــاءُ بــأَرْضِ قَــوْمٍ رَعَيْنَــاهُ وَإنْ كَــانُــوا غِضَــابـا(٢)

قال أَبو إِسحق: يقال لكل ما ينبت على الأَرض: شَجَرٌ، وقال عكرمة: لا تأْكلوا ثمر الشجر فإِنه مسحت، يعني الكلأَ.

و﴿تُسِيمُونَ﴾ معناه: ترعون أَنعامكم، وسَوْمها من الرعي، وتسرحونها، ويقال للأَنعام: السائمة، قال رسول الله ﷺ: «في سائمة الغنم الزكاة»(٣)، يقال: أَسامَ الرجلُ ماشيته إِسامةً إِذا أَرسلها ترعى، وسَوَّمها أَيضاً فسامَتْ هي، ومن ذلك قول الأَعشى:

وَمَشَــى القَــوْمُ بــالْعِمَــادِ إِلــى الــرَّزْ حَى، وأَعْيَا المُسِيمُ أَيْن المَساقُ(٤)

---

(١) الأَسْنِمَة: جمع سنام وهو الجزء المرتفع من ظهر الجمل، والآبال: جمع إبل، وإبل جمع لا مفرد له، وربما قالوا (إبْل) بسكون الباء. والرَّبابُ: السحاب الأبيض، وقيل: هو السحابُ المتعلّق الذي تراه كأنه دون السحاب، والواحدة: رَبَابة، وبهذا سُمِّيت المرأة الرَّباب، قال الشاعر:

سَقَــى دارَ هِنْــدٍ حَيْــثُ حَــلَّ بهــا النَّــوَى مُسِــفُ الــذُّرَى دَانــي الــرَّبَــابِ سَخِيــنُ

والشاهد أنه جعل الأسْنِمة في السحاب، وهذا من التجوز، إذ المراد أن الأسنمة تنمو من أكل النبات الذي ينشأ عن المطر النازل من السحاب.

(٢) البيت لمعوِّد الحكماءِ معاوية بن مالك، وسُمِّي مُعَوِّد الحكماءِ لقوله في قصيدته التي منها هذا البيت:

أُعَــوِّدُ مِثْلَهـــا الحُكَمَـــاءَ بَعْــدي إذا مــا الْحَــقُّ فــي الحــدثــانِ نــابَــا

وهو في الأمالي للقالي (١ـ١٨١)، الرواية فيها «إذا سقط السماءُ»، والبيت تصوير لشجاعتهم وهيبتهم، فهم يرعون في أي أرض وإن كان أصحابها غضاباً محافظين على حقوقهم، والشاهد كما قال المؤلف أنه أطلق على الغيث اسم السماءِ، وفيه أيضاً من التَّجَوُّز أنه جعل الرعي للغيث، مع أن الإبل ترعى النبات الذي ينبت بسبب الغيث.

(٣) الحديث في الموطأ، وأخرجه أبو داود، والدارمي في كتاب الزكاة، ولفظه في الدارمي: «عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كتب الصدقة، وكان في الغنم في كل أربعين سائمة شاة إلى العشرين ومائة، فإذا زادت ففيها شاتان إلى مائتين، فإذا زادت ففيها ثلاث شياه إلى ثلاثمائة، فإذا زادت شاة لم يجب فيها إلا ثلاث شياه حتى تبلغ أربعمائة، فإذا بلغت أربعمائة شاةففي كل مائة شاة، ولا تؤخذ في الصدقة هرمة، ولا ذات عوار ولا ذات عيب».

(٤) البيت من قصيدة له قالها بنجران يتشوق إلى قومه مفتخراً بهم، والرَّزْحَى: التي لا تستطيع المشي من=



ومنه قول الآخر:

مِثْلِ ابنِ بزْعَةَ أَوْ كآخَرَ مِثْلِهِ ... أَوْلَى لَكَ ابْنَ مُسِيمَةِ الأَجْمَالِ(١)

أَي: راعية الأَجمال. وفسَّر المتأولون [تُسِيمُونَ] بـ «تَرْعَوْنَ».

وقرأَ الجمهور: ﴿يُنْبِتُ﴾ بالياءِ، على معنى: يُنْبت اللهُ، يُقال: نبت الشجر وأَنبته الله، ويقال: أَنبت الشجرُ بمعنى نَبتَ، وكان الأَصمعي يأْبى ذلك ويتهم قصيدة زهير التي فيها:

. . . . حَتَّى إذا أَنْبَتَ الْبَقْلُ(٢)

وقرأَ أَبو بكر عن عاصم: [نُنْبِتُ] بنون العظمة، وخَصَّ عزَّ وجلَّ ذكر هذه الأَربعة لأَنها أَشرف ما يَنْبُت وأَجمعها للمنافع، ثمَّ عمَّ بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ثم أَحال القول على الفكرة في تصاريف النبات والأَشجار، وهي موضع عبرة في أَلوانها واطراد خلقها وتناسب أَلطافها فسبحان الخلاق العظيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ الآية. قرأَ الجمهور بإِعمال ﴿سَخَّرَ﴾ في

= الهزال، وكانوا يضعون العماد تحت بطونها ليرفعوها، والمُسِيمُ: الراعي، والمساق: المكان الذي تساق إليه الماشية، والرواية في الطبري: «إلى المرعى» بدلاً من «إلى الرَّزْحَى».

(١) البيت للأخطل وهو في الديوان من قصيدة قالها في مدح عكرمة بن ربعي الفياض، ويروى: «كابْنِ البَزِيعَة»، ويعني بابن بَزْعَة شدَّاد بن المنذر أخا حُصَين الذُّهليّ، ويعني بقوله: «كَآخَرَ مِثْلِهِ» حَوْشَبَ بنَ رُوَيْم، وقبل هذا البيت يقول مخاطباً عكرمة:

وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَى رَبِيعَةَ كُلِّهَا ... وكَفَيْتَ كُلَّ مُوَاكِلٍ خَذَّالِ

إلى أن يقول: مثل ابن بَزْعَة... إلخ، وهو يعيره بأن أُمَّه ترعى الإبل كالإماءِ، والشاهد هنا أن كلمة «مُسِيمَة» معناها: التي ترعى الإبل من «السَّوْم» وهو الرَّعْي.

(٢) هذا جزءٌ من بيت قاله زهير بن أبي سُلْمى، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

إذا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ بالنَّاسِ أَجْحَفَتْ ... وَنَالَ كِرَامَ النَّاسِ في الحَجْرَةِ الأَكْلُ

رَأَيْتَ ذَوي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِم ... قَطِيناً لَهُمْ حَتَّى إذا أَنْبَتَ الْبَقْلُ

والسَّنة الشهباءُ: البيضاءُ من شدة الجذب لأنها تَبْيَضُّ بالثلج أو بعدم النبات، والْحَجْرَةُ: السَّنة الشديدة التي تَحْجُر الناسَ في بيوتهم فينحرون كرام إبلهم ليأكلوها، والقَطِينُ: الْحَشَمُ وسُكَّان الدار، وأَجْحَفَتْ: أَضَرَّتْ بهم وأهلكت أموالهم. وأنبت البَقْلُ: نَبَتَ، وهو الشاهد في الشعر. يقال: نبت وأنبت بمعنى واحد، مثل: مَطَر وأمطر، وإن كان ذلك لا يرضي الأصمعي.



جميع ما ذكر، ونصب [مُسَخَّرَاتٍ] على الحال المؤكدة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾(١)، وكما قال الشاعر:

أَنَــا ابْــنُ دَارَةَ مَعْــرُوفــاً بِهَــا نَسَبِــي . . . . (٢)

ونحو هذا، وقرأ ابن عامر: [والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ] برفع هذا كله، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿والنجومُ مسخراتٌ﴾ بالرفع، ونصب ما قبل ذلك، والمعنى في هذه الآية أن هذه المَخْلُوقات مُسَخَّرات على رتبة قد استمر بها انتفاع البشر من السكون بالليل والمعايش وغير ذلك بالنهار، وأما منافع الشمس والقمر فأكثر من أن تُحصى، وأما النجوم فهدايات، ولهذا الوجه اعتدت في جملة النعم على بني آدم، ومن النعمة بها ضياؤُها أحياناً، قال الزجاج: وعلم عدد السنين والحساب بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر.

وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وطلحة بن مصرف: «والرِّياحُ مُسَخَّرات» في موضع «والنجوم». ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ﴾ لعظم الأمر، لأن كل واحد مما ذكر آية في نفسه لا يشترك مع الآخر، وقال في الآية قَبْلُ: [لآية] لأن شيئاً واحداً يعم تلك الأربعة وهو النبات، وكذلك في ذكر ما ذرأ لِيَسَارَته بالإضافة، وأيضاً فإنه بمعنى «آيات»، واحد يراد به الجمع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى

---

(١) من الآية (٩١) من سورة (البقرة).

(٢) البيت لابن دارة، واسمه سالم بن دارة، ودارة أُمُّه، سميت بذلك لجمالها، تشبيهاً لها بدارة القمر، واسم أبيه مسافع، وهو من بني عبد الله بن غطفان بن قيس، والبيت بتمامه هو:

أنــا ابْــنُ دارةَ مَعْــرُوفــاً بِهَــا نَسَبِــي وَهَـلْ بِـدَارَةَ يـا لَلنَّـاسِ مِـنْ عَـارِ؟

وهو في أمالي ابن الشجري ٢ـ٢٨٥، والخصائص ٢ـ٢٦٨، ٣١٧، ٣٤٠، ٣ـ٦٠، والخزانة ١ـ٥٥٣، والعيني ٣ـ١٨٦، وابن يعيش ٢ـ٦٤، وسيبويه ٢ـ٧٩، والأشموني ٢ـ١٨٥، والبيت من قصيدة يهجو بها بني فزارة، والشاهد فيه أنه نصب «معروفاً» على الحال المؤكدة لجملة «أنا ابن دارة».



ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: بَثَّ ونشر، و«الذُّرية» من هذا في أحد الأقوال في اشتقاقها، وقوله: [أَلْوَانُه] معناه: أَصنافه، كما تقول: هذه أَلوان من الثَّمر ومن الطعام، ومن حيث كانت هذه المبثوثات في الأَرض أَصنافاً عُدّت في النعمة، وظهر الانتفاع بها أَنه على وجوه، ولا يظهر ذلك من حيث هي متلونة حُمرة وصُفرة وغير ذلك، ويحتمل أَن يكون التنبيه على اختلاف الأَلوان حمرة وصفرة، والأَول أَبْيَن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ الآية، تعديد نعم الله، وتسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه، وتذليله للركوب والأَرفاد[1] وغيره.

والبحر: الماءُ الكثير ملحاً كان أَو عذباً، كلُّه يسمى بحراً، والبحر هنا اسم جنس، وإِذا كان كذلك فمنه أَكل اللحم الطري، ومنه استخراج الحلية، وأَكل اللحم يكون من ملحه وعذبه، وإِخراج الحلية إِنما هو ـ فيما عرف ـ من الملح فقط، ومما عُرف من ذلك اللُّؤلؤ والمرجان والصدف البحري، وقد يوجد في العَذْب لؤلؤٌ لا يلبس إِلا قليلاً، وإِنما يُتَدَاوى به، ويقال: إِن في الزُّمرد بحرياً، وقد خُطِّىءَ الهذليُّ في قوله في وصف الدُّرَّة:

فَجَـاءَ بِهَـا مِـنْ دُرَّةٍ لَطَمِيَّـةٍ ... عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفُرَاتِ يَمُوجُ[2]

---

(١) الأرفاد: جمع رِفْد، وهو العطاءُ والصِّلة.

(٢) رُوي البيت في أكثر النسخ «يَدُوم» بدلاً من «يموج»، والقصيدة جيمية، وتعليق ابن عطية على البيت بقوله: (وتأمل قوله: «يموج») لا يتفق مع رواية «يدوم»، والرواية في «شرح أشعار الهذليين»:

فَجَـاءَ بهـا مـا شِئْـتَ مِـنْ لَطَمِيَّـةٍ ... تَـدومُ البحـارُ فَـوْقَهَـا وتَمُـوجُ

والضمير في (بها) يعود على دُرَّة شبه بها الشاعر ابنة السَّهْمي التي يتغزل فيها بقوله قبل هذا البيت بأبيات:

كـأن ابنَـةَ السَّهْمِـيِّ دُرَّةُ قَـامِـسٍ ... لَهَـا بَعْـدَ تَقْطِيـع النُّبُـوحِ وَهِيـجُ

والقَامِسُ هو الغواص، وعليه يعود الضمير في (جاء) من بيت الشاهد، والنُّبُوح: أصوات الناس وضجتهم، واللطيمَةُ: عِيرٌ تحمل التجارة والعِطْر، فإن لم يكن فيها عطرٌ فليست بلطيمة، فجعل هذه الدُّرَّة تحملها غير اللَّطيمة، وتدوم البحارُ: تَسْكُن فوقها، وتموج: تتحرك فتجيءُ وتذهب، والفُرات: العَذْبُ، ومن هنا قالوا: لا يجيءُ منه الدُّر، إلا أن الشاعر غلط، وظن أن الدُّرة إذا كانت في الماءِ=



فجعلها من الماءِ الحلو.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتأَمل قوله: «يموج» على أَنه أَراد وصف بريقها ومَائِيَّتِهَا فشبَّهه بماءِ الفرات، ولم يذهب إِلى الغرض الذي خُطِّىءَ فيه. و«اللَّحم الطريُّ»: السمك، و«الحِلْيَةُ»: ما تقدم، و«الفُلْك» هنا جمع، و[مَوَاخِر]: جمع ماخرة، و«المَخْر» في اللغة الصوتُ الذي يكون من هبوب الريح على شيءٍ يُشَقُّ، أَو يصحب في الجملة الماءَ، فيترتب منه أَن يكون «المَخْر» من الريح، وأَن يكون من السفينة ونحوها، وهو في هذه الآية من السفن، ويقال للسحاب: «بَنَات مَخْر» تشبيهاً، إِذ في جريها ذلك الصوت الذي هو عن الريح، والماء الذي في السحاب وأَمرها يشبه أَمر البحر، على أَن الزَّجاج قد قال: «بَنَاتُ ٱلْبَحْر»: سحاب بيض لا ماءَ فيها، وقال بعض اللغويين: المَخْر في كلام العرب: الشَّقُّ، يقال: مَخَر الماءُ في الأَرض، فهذا بيِّنٌ أَن يقال فيه للفُلْك: مواخر، وقال قوم: [مَوَاخر] معناه: تجيءُ وتذهب بريح واحدة، وهذه الأَقوال ليست تفسيراً لِلَّفظة، وإِنما أَرادوا بها أَنها مواخر لهذه الأَحوال، فنصُّوا على هذه الأَحوال؛ إِذ هي موضع النعم المعدودة؛ إِذْ نفس كون الفلك ماخرة لا نعمة فيه، وإِنما النعمة في مخرها بهذه الأَحوال في التجارات، والسفر فيها، وما يمنح الله فيها من الأَرباح والمِنَن، وقال الطبري: «المَخْر» في اللغة: صوت هبوب الريح، ولم يقيد ذلك بكونٍ في ماءٍ، وقال: إِن من ذلك قول واصل مولى أَبي عُيَيْنَة: إِذا أَراد أَحدكم البول فَلْيَتَمَخَّر الريح، أَي: لينظر في صوتها في الأَجسام من أَين تهب فيتجنب استقبالها لئلا تردَّ عليه بوله.

وقوله: [وَلِتَبْتَغُوا] عطف على قوله: [تَأْكُلُوا]، وهذا ذكر نعمة لها تفاصيل لا تُحصى، وفيه ركوب البحر للتجارة وطلب الأَرباح، فهذه ثلاثة أَسباب في تسخير البَحْر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. قال المتأَولون: [أَلْقَى] بمعنى خلق وجَعَل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

= العذب فليس لها شبه، ولم يعلم أنها لا تكون في العذب.

وهي عندي أَخصُّ من خلَق وجعَل، وذلك أنَّ أَلْقى تقتضي أَن الله أَحدث الجبال ليس من الأَرض، لكن من قدرته واختراعه، ويؤيد هذا النظر ما رُوي في القصص عن الحسن عن قيس بن عباد أَن الله تعالىٰ لما خلق الأَرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمُقرَّة على ظهرها أَحداً، فأَصبحت ضحى وفيها رواسيها، و«الرَّواسي»: الثوابت، رسَا الشيءُ يرسو إِذا ثبت، ومنه قول الشاعر في وصف الوتد:

. . . . وَأَشْعَثَ تُرْسِيهِ الْوَلِيدَةُ بِالْفِهْرِ(١)

و﴿أَن﴾ مفعولٌ من أَجله، و«الْمَيْدُ»: الاضطراب، وقوله: ﴿أَنْهَاراً﴾ منصوب بفعل مضمر، تقديره: وجَعَلَ أَو خَلَق أَنهاراً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِجماعهم على إِضمار هذا الفعل دليل على خصوص ﴿أَلْقَى﴾، ولو كان ﴿أَلْقَى﴾ بمعنى «خَلَقَ» لم يحتج إِلى الإِضمار. و«السُّبُل»: الطُّرق، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يحتمل أَن يكون: لعلكم تهتدون في مشيكم وتصرفكم في السُّبل، ويحتمل لعلكم تهتدون بالنظر في دلالة هذه المصنوعات على صانعها، وهذا التأْويل هو البارع، أَي: سخَّر وأَلقى وجعل أَنهاراً وسُبُلاً لعلَّ البشر يعتبرون ويرشدون، ولتكون علامات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ

(١) هذا عجز بيت للأحوص، ذكر صاحب اللسان أن ابن برِّي قال: يقال أرسيتُ الوتد في الأرض إذا ضربتها فيها، قال الأحوص:

سِوَى خَالِدَاتٍ مَا يُرَمْنَ وَهَامِدٍ وَأَشْعَثَ تُرْسِيهِ الْوَلِيدَةُ بِالْفِهْرِ

والفِهْرُ: الحَجَر، يُذكَّر ويُؤنَّث. والشاهد هنا أن «رسا» بمعنى ثَبَتَ، وهذا مثال للشيء المحسوس، وتستعمل «رسا» بمعنى ثَبَت أيضاً في المعنويات، قال عنترة يصور شجاعته وثبات نفسه في المواقف الصعبة:

وَعَلِمْتُ أنَّ مَنِيَّتِي إنْ تَأْتِنِي لا يُنْجِنِي مِنْهَا الْفِرَارُ الأَسْرَعُ
فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذلِكَ حُرَّةً تَرْسُو إذا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ



يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿عَلَامَاتٍ﴾ نصب على المصدر، أي: فعل هذه الأشياءَ لعلَّكم تعتبرون بها، وعلامات، أيْ عبرة وإعلاماً في كل سلوك، فقد يُهتدى بالجبال والأنهار والسُّبل، واختلف الناس في معنى قوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ على أن الأظهر عندي ما ذكرتُ ـ فقال ابن الكلبي: العلامات: الجبال، وقال إبراهيم النَّخَعي ومجاهد: العلامات: النجوم، منها ما سُمِّي علامات، ومنها ما يهتدى بها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العلامات: معالم الطرق بالنهار، والنجوم هداية بالليل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصواب ـ إِذا قدرنا الكلام غير معلَّق بما قبله ـ أَن اللفظة تعم هذا وغيره، وذلك أَن كل ما دلَّ على شيءٍ أَو علم به فهو علامة، وأَحسن الأَقوال المذكورة قول ابن عباس رضي الله عنهما لأنه عموم بالمعنى فتأَمله، وحدثني أَبي رحمه الله أنه سمع بعض أَهل العلم بالمشرق يقول: إن في بحر الهند الذي يجري فيه من اليمن إلى الهند حيتاناً طوالاً رقاقاً كالحيَّات في أَلوانها وحركتها والتوائها، وأَنها تُسمَّى العلامات، وذلك أَنها علامة الوصول إِلى بلاد الهند، وأَمَارة النجاة والانتهاءِ إِلى الهند لطول ذلك البحر وصعوبته، وأَن بعض الناس قال: إِنها التي أَراد الله تعالىٰ في هذه الآية، قال أَبي رضي الله عنه: وأَنا ممن شاهد تلك العلامات في البحر المذكور وعاينها، فحدثني منهم عدد كثير.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ على أَنه اسم الجنس، وقرأَ يحيى بن وثاب: [وَبالنُّجْم] بضم النون وإِسكان الجيم على التخفيف من ضمها، وقرأَ الحسن بضمهما، وذلك جمعٌ، كسَقْف وسُقُف، ورَهْن ورُهُن، ويحتمل أَن يُراد به النُّجوم، فحذف الواو[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي توجيه ضعيف.

---

(١) ورد في الشعر العربي النُّجُم والمراد النجوم، قال الشاعر:

إنَّ الفقيــر بيْننَــا قــاضٍ حَكَــمْ أنْ تَـرِدَ المَـاءَ إذا غَـابَ النُّجُـمْ

أراد: النُّجُوم ولكنه قصر.



وقال الفراءُ: المرادُ الجدْيُ والفرقدان[1]، وقال غيره: المراد القطب الذي لا يجري، وقال قوم غير هذا، وقال قوم: هو اسم الجنس، وهذا هو الصواب.

ثم قررهم تعالىٰ على التفرقة بين من يخلق الأشياءَ ويخترعها وبين من لا يقدر على شيءٍ من ذلك، وعبَّر عن الأصْنامِ بـ[مَنْ] لوجهين: أَحدهما أن الآية تضمنت الرَّدَّ على جميع من عبد غير الله، وقد عبدت طوائف ممن تقع عليه العبارة بـ «من»، والآخر أن العبارة جرت في الأَصنام بحسب اعتقاد الكفرة فيها من أَن لها تأْثيراً وأَفعالاً[2]، ثم وبَّخهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، أَي: إن حاولتم إِحصاءَها عدداً حتى لا يشذَّ منها شيءٌ لم تقدروا على ذلك، ولا اتَّفق لكم إِحصاؤُها؛ إذ هي في كل دقيقة من أَحوالكم، و«النِّعْمَة» هنا مفردة يراد بها الجمع، وبحسب العجز عن عدد نعم الله تبارك وتعالىٰ يلزم أَن يكون الشكر لها مقصراً عن بعضها، فلذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَي تقصيركم في الشكر عن جميعها، نحا هذا المنحى الطبري، ويرد عليه أَن نعمة الله في قول العبد: «الحمدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِين» مع شرطها من النِّيَّة والطاعة يوازي جميع النعم، ولكن أَين قولها بشروطها؟ والمخاطبة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ عامة لجميع الناس.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، متصل بما قبله، أَي: إِنَّ الله الغفور الرحيم في تقصيركم عن شكر ما لا تحصونه من نعم الله، وإِنَّ الله تعالىٰ يعلم سِرَّكُم وعَلَنكم، فيغني ذلك عن التزامكم بشكر كل نعمة، هذا على قراءَة من قرأَ: [تُسِرُّونَ] بالتَّاءِ مخاطبة للمؤمنين، فإِن جمهور القراءِ قرأَ: [تُسِرُّونَ] بالتَّاءِ من فوق، و[تُعْلِنُونَ] و[تَدْعُونَ] كذلك، وهي قراءَة الأَعرج، وشيبة، وأَبو جعفر، ومجاهد، على

---

(١) الجَدْيُ: برج في السماء بجوار الدَّلْوِ، والفَرْقَدان: نجمان في السماء، نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً، ولهذا يهتدى به، وهو المُسَمَّى «النجم القطبي» وبقربه نجم آخر مماثل له وأصغر منه، قال القرطبي: «وسأل ابن عباس رسول الله ﷺ عن النجم فقال: «هو الجَدْي، عليه قبلتكم، وبه تهتدون في برّكم وبحركم»، وعلَّل القرطبي ذلك بقوله: «وذلك أن آخر الجَدْي بنات نعش الصغرى، والقطب الذي تستوي عليه القِبلة بينها».

(٢) ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾. قال الفراءُ: «والعرب تقول: اشتبه عليَّ الراكبُ وجمله فما أدري مَنْ ذا ومَنْ ذا؟ حيث جَمَعَهُما وأَحَدُهما إنسان صلحت (مَنْ) فيهما جميعاً».



معنى: قُلْ يا محمد للكفار. وقرأ عاصم: ﴿تُسِرُّونَ﴾ و﴿تُعْلِنُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، و﴿يَدْعونَ﴾ بالياءِ من تحت على غيبة الكفار، وهي قراءَة الحسن بن أَبي الحسن. وروى هبيرة عن حفص عن عاصم كلَّ ذلك بالياءِ على غيبة الكفار، ورُوي عن الكسائي، وأَبي بكر عن عاصم كلُّ ذلك بالتاءِ من فوق، وقرأَ الأعمش وأَصحاب عبد الله: «يعلم الذين تُبدون وما تكتمون» و[تَدْعُونَ] بالتَّاءِ من فوق في الثلاثة، وقرأَ طلحة: «ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُون» و[تدْعُونَ] بالتَّاءِ من فوق في الثلاثة. و[يَدْعُونَ] معناه: يدعونه إِلـهاً، وعبَّر عن الأَصنام بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ على ما قدمناه من أَن ذلك يعُمُّ الأَصنام ومَنْ عُبد من دون الله من غيرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أَجمع عبارة في أَحوال الربوبية عنهم، وقرأَ محمد اليماني: ﴿وَٱلَّذِينَ يُدْعَوْنَ﴾ بضم الياءِ وفتح العين على ما لم يُسَمَّ فاعله.

و﴿أَمْوَاتٌ﴾ يراد به الذين يدعون من دون الله، ورفع على ابتداءِ خبر مضمر تقديره: هم أَموات، ويجوز أَن يكون خبراً لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ بعد الخبر في قوله: ﴿لاَ يَخْلُقُونَ﴾، ووصفهم بالموت مجازاً، وإِنما المراد أَنَّهم لم يقبلوا حياةً قط ولا اتَّصفوا بها، وعلى قراءَة من قرأَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ بالياءِ على غيبة الكفار يجوز أَن يراد بالأَموات الكفار الذين ضميرهم في [يَدْعُونَ]، شبَّههم بالأَموات غير الأَحياءِ من حيث هم ضلال غير مهتدين، ويستقيم ـ على هذا ـ فيهم قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ والبعث هنا هو الحشر من القبور. و[أَيَّانَ] ظرف زمان مبني، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلَمِي: [إِيَّانَ] بكسر الهمزة، والفتح فيها والكسر لغتان، وقالت فرقة: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَي الكفار ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الضميران لهم، وقالت فرقة: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَي الأَصنام أَيان يبعث الكفار، ويحتمل أَن يكون الضميران للأَصنام الأَمارة، كما تقول: «بعثت النائم من نومه» إِذا نبهته، وكما تقول: «بعث الراعي سهمه»، فكأَنه وصفهم بغاية الجمود، أَي: وإِن طلبتَ حركاتهم بالتحريك لم يشعروا بذلك، وعلى تأْويل من يرى الضميرين للكفار ينبغي أَن يُعتقد في الكلام الوعيد، أَي: وما يشعر الكفار متى يُبعثون إِلى التعذيب، ولو اختصر هذا المعنى لم يكن في وصفهم بأَنهم لا يشعرون أَيان يُبعثون طائل؛ لأَن الملائكة والأَنبياءَ والصالحين كذلك هم في الجهل بوقت البعث. وذكر



بعض المفسِّرين أَن قوله: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ظرف لقوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، وأَن الكلام تَمَّ في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1]، ثم أَخبر عن يوم القيامة أَن الإِلـٰه فيه واحد، وفي هذا توعُّد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

لما تقدم وصف الأَصنام جاءَ الخبر الحق بالوحدانية، وهذه مخاطبة لجميع الناس مُعلمة بأَن الله تعالىٰ متحدٌ وحدانية تامة، لا يحتاج لكمالها إِلى مضاف إِليها، ثم أَخبر عن إِنكار قلوب الكافرين، وأَنهم يعتقدون إِلهية أَشياءَ أُخر، ويستكبرون عن رفض معتقدهم فيها واطِّراح طريقة آبائهم في عبادتها، ووسمهم بأَنهم لا يؤمنون بالآخرة، إِذ هي أَقوى رُتَب الكفر، أَعني الجمع بين التكذيب بالله تبارك وتعالىٰ وبالبعث، لأَن من صدق بالبعث فمحالٌ أَن يُكذِّب بالله تبارك وتعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: [لاَ جَرَمَ] عبَّرت فرقة من اللغويين عن معناها بـ «لاَ بُدَّ، ولا محالة»، وقالت فرقة: معناها: «حقٌّ أَن الله»، ومذهب سيبويه أَنَّ (لاَ) نفيٌ لما تقدَّم من الكلام، و(جَرَمَ) معناه: وَجَبَ أَو حقَّ، ونحو هذا من مذهب الزَّجاج، ولكن مع مذهبهما (لاَ) ملازمة لـ (جَرَمَ)، لا تنفكُّ هذه من هذه، وفي جرم لغات قد تقدم ذكرها في سورة هود[2]، وأَنشد أَبو عبيدة:

. . . . جَـرَمَـتْ فَـزَارَةُ. . . . . . .[3]

---

(١) قال أبو حيان في (البحر) تعقيباً على ذلك: «لا يصح هذا القول، لأن (أَيَّانَ) إذْ ذاك تخرج عما استقر فيها من كونها ظرفاً إما استفهاماً وإما شرطاً، وفي هذا التقدير تكون ظرفاً بمعنى وقت مضافاً للجملة بعدها معمولاً لقوله (وَاحِدٌ)، كقولك: (يوم يقوم زيد قائماً)».

(٢) راجع المجلد الرابع، ص ٥٥٩ـ ٥٦٠.

(٣) هذا جزءٌ من بيت لأبي أسماءَ بن الضريبة، أو لعطية بن عفيف، وهو بتمامه:

وَلَقَـدْ طَعَنْـتَ أَبـا أُمَيْمَـةَ طَعْنَـةً ... جَـرَمَـتْ فَـزَارَةُ بَعْـدَهـا أن يَغْضَبـوا =



وقال: معناها: حقت عليهم وأوجبت أن يغضبوا. و[أَنَّ] على مذهب سيبويه فاعلة بـ [جَرَمَ]. وقرأ الجمهور: [أَنَّ] مفتوحة، وقرأ عيسى الثقفي: [إِنَّ] بكسر الألف على القطع، قال يحيى بن سلام، والنقاش: المراد هنا بـ ﴿ مَا يُسِرُّونَ ﴾ تشاورهم في دار الندوة في قتل النبي ﷺ. وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ عامٌّ في الكافرين والمؤمنين، يأخذ كل واحد منهم بقسطه، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كبر»[١]، وفيه «إِنَّ الكِبْر منع الحق وغمط الناس»[٢]، ويروى عن الحسن بن عليٍّ أنه كان يجلس مع المساكين ويحدثهم ثم يقرأ: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾، ورُوي في الحديث أنه «من سجد لله سجدة من المؤمنين فقد برىءَ من الكبر»[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ الآية. الضمير في [لَهُمْ] لكفار مكة، ويقال: إن سبب الآية كان أن النضر بن الحارث سافر عن مكة إلى الحيرة وغيرها، فجاءَ إلى مكة وكان قد اتَّخذ كتب التاريخ «كليلة ودِمنة، وأَخبار اسفنديار ورستم»، فكان يقول: إنما يحدث محمد بأساطير الأولين، وحديثي أَجمل من حديثه. وقوله: [مَاذَا] يجوز أَن تكون [مَا] استفهاماً و[ذَا] بمعنى: الذي، وفي [أَنْزَلَ] ضمير عائد، ويجوز أَن يكون [مَا] و[ذَا] اسماً واحداً مركباً، كأنه قال: أَي شيءٍ؟ وقولهم: «أَسَاطِيرُ

= وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ الآية (٢٢) من سورة (هود) ـ ولنا عليه تعليق فارجع إليه في المجلد الرابع ص ٥٥٩.

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، والدارمي، والإمام أحمد في مسنده، ولفظه كما في المسند (١ـ٣٩٩) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبَّة من كِبْر، فقال رجل: يا رسول الله: إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً، ورأسي دهيناً، وشراك نعلي جديداً، وذكر أشياء حتى ذكر علاقة أسواطه ـ أفَمِنَ الكبر ذاك يا رسول الله؟ قال: لا، ذاك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من سفه الحق وازدرى النَّاس». (المعجم المفهرس)، وفي (الدر المنثور): أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي.

(٢) أخرجه أبو داود، والحاكم في مستدركه ـ عن أبي هريرة، ولفظه كما في الجامع الصغير «الكبر من بطر الحق وغمط الناس». وقد رمز له الإمام السيوطي بالصحة.

(٣) أخرجه الترمذي في السِّير، وفي لفظه: «وهو بريءٌ من الكبر والغلول». (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي).



الأَوَّلين» ليس بجواب عن السؤال الأَول، لأَنهم لم يريدوا أَنه نزَل شيءٌ، ولا أَن ثم منزلاً، ولكنهم ابتدءُوا الخبر بأَن هذه أَساطير الأَولين، وإنما الجواب عن السؤال قول المؤمنين في الآية المستقبلة: خيراً، وقولهم: «أَساطيرُ الأَوَّلين» إنما هو جواب بالمعنى. فأَما على السؤال وبحسبه فلا.

واللّام في قوله: [لِيَحمِلُوا] يحتمل أَن تكون لام المعاقبة[1]، لأَنهم لم يقصدوا بقولهم: «أَساطِير الأَولين» أَن يحملوا الأَوزار، ويحتمل أَن تكون صريح لام كيْ على معنى: قَدَّرَ هذا[2]، ويحتمل أَن تكون لام الأَمر على معنى الحتم عليهم بذلك والصغار الموجب لهم. و«الأَوْزار»: الأَثقال، وقوله: [وَمِن] للتبعيض[3]، وذلك أَن هذا الرأْس المضل يحمل وزر نفسه كاملاً، ويحمل وزراً من أَوزار كل من ضلَّ بسببه، ولا تنقص أَوزار أُولئك. وقوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ يجوز أَن يريد بها المضِلّ، أَي: أَضلَّ بغير برهان قام عنده، ويجوز أَن يريد: بغير علم من المقلِّدين الذين يضلونهم. ثم استفتح الله تعالىٰ الإِخبار عن سوءِ ما يتحملونه للآخرة، وأَسند الطبري وغيره في معنى هذه الآية حديثاً نصه: «أَيُّمَا داعٍ دعا إِلى ضلالة فاتُّبع فإِن عليه مثل أَوزار من اتَّبعه من غير أَن ينقص من أَوزارهم شيءٌ، وأَيُّما داعٍ دعا إِلى هدى فاتُّبع فله مثل أُجورهم من غير أَن ينقص من أُجورهم شيءٌ»[4]، و[سَاءَ] فعل مسند إِلى [مَا]، ولا يحتاج في ذلك هنا إِلى صلة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٧﴾.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره من المفسرين: الإِشارة بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) في إحدى النسخ «لام العاقبة»، وهو التعبير المشهور بين النحويين.

(٢) صريحُ لام كَيْ هي لام التعليل، لكنه لم يعلقها بقوله: [قَالُوا]، بل أضمر فعلاً آخر هو: قَدَّر هذا ليحملوا أوزارهم.

(٣) قال الواحدي: ليست [مِنْ] للتبعيض، لأنه يستلزم تخفيف الأوزار عن الأتباع وذلك غير جائز لقوله ﷺ: «من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ». وقال الأخفش: [مِنْ] زائدة، أي: وأوزار الذين يُضِلُّونهم، والمعنى: ومثل أوزار الذين يضلونهم.

(٤) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن الربيع بن أنس. (الدر المنثور).

قَبۡلِهِمۡ﴾ إلى نمروذ الذي بنى الصرح ليصعد به إلى السماءِ على زعمه، فلما أفرط في غُلُوِّه وطوَّله في السَّماءِ فرسخين على ما حكى النقاش بعث الله عليه ريحاً فهدمه، وخرَّ سقفه عليه وعلى أتباعه، وقيل: إن جبريل عليه السلام هدمه بجناحه، وألقى أعلاه في البحر، وانجعف[1] من أسفله. وقالت فرقة أُخرى: المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ جميع من كفر من الأُمم المتقدمة ومكر، ونزلت به عقوبة من الله تعالىٰ، وقوله ـ على هذا ـ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ إلى آخر الآية تمثيل وتشبيه، أي: حالهم كحال من فُعل به هذا. وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ أي: جاءَهم العذاب من قِبَل السماءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ينحو إلى اللّغز.

ومعنى قوله: ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ رفع الاحتمال في قوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾، فإنك تقول: «انهدم على فلان بناؤُه» وهو ليس تحته، كما تقول: «انفسد عليه متاعه». وقوله: ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ ألزم أنهم كانوا تحته.

وقوله: ﴿فَأَتَى﴾ أي: فأتى أَمْرُ الله وسلطانه، وقرأ الجمهور: ﴿بُنۡيَانَهُمۡ﴾، وقرأت فرقة «بِنْيَتَهُمْ»، وقرأ جعفر بن محمد: «بَنِيَّتَهُمْ»، وقرأ الضحاك: «بُيُوتَهُم». وقرأ الجمهور: [ٱلسَّقْف] بسكون القاف، وقرأت فرقة بضمها، وهي لغة فيه، وقرأ الأعرج بضم السين والقاف، وقرأ مجاهد بضم السِّين وسكون القاف.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الآية، لما ذكر الله تعالىٰ في الآية المتقدمة حال هؤلاءِ الماكرين في الدنيا، ذكر في هذه حالهم في الآخرة، وقوله: [يُخۡزِيهِمۡ] لفظ يعم جميع المكاره التي تنزل بهم، وذلك راجع إلى إدخالهم النار، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾[2]. وقوله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ توبيخ لهم، وأضافهم إلى نفسه في مخاطبة الكفار، أي: على زعمكم ودعواكم، قال أبو عليٍّ: وهذا كما قال

---

(١) انجَعَفَ مطاوع جَعَفَ، يقال: جَعَفَه جَعْفاً: قلبه وقَلَعه، فانجعف.

(٢) من الآية (١٩٢) من سورة (آل عمران).



تعالىٰ حكايةً: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾(١)، وكما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والإضافات تترتب معْقُولَةً وملفوظاً بها بأرَقِّ سبب، وهذا كثير في كلامهم، ومنه قول الشاعر:

إذَا قُلْتُ قَدْنِي قَالَ بِاللهِ حلْفَةً　　　لتُغْنِي عَنِّي ذا إنَائِكَ أَجْمَعَا(٣)

فأضافَ الإناءَ إلى حاسِيهِ. وقرأَ البزي عن ابن كثير: [شُرَكَايَ] بقصر الشركاءِ وفتح الياءِ، مثل هدايَ، وقرأَ الجمهور بالمدِّ وفتح الياءِ بعد الهمزة، وقرأَت فرقة بالمدِّ وياءٍ ساكنة.

وقوله: ﴿تُشَاقُّونَ﴾ معناه: تحاربون وتحاجُّونَ، أَي: تكونون في شقٍّ والحق في شقٍّ، وقرأَ الجمهور: (تُشَاقُّونَ) بفتح النون، وقرأَ نافع وحده بكسرها، ورويت عن الحسن بخلاف، وضعَّف هذه القراءَة أَبو حاتم، وقد تقدم القول في مثله في «الحِجْر» في ﴿تُبَشِّرُونَ﴾(٤)، وقرأَت فرقة: [تُشَاقُّونِّي] بشدِّ النون وكسرها وياءٍ بعدها. و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ هم الملائكة فيما قال بعض المفسرين، وقال يحيى بن سلام: «هم المؤمنون، وهذا الخطاب منهم يوم القيامة».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصواب أَن يعم جميع من آتاه الله علم ذلك من جميع من حضر الموقف من ملَك وإِنسي وغير ذلك. وباقي الآية بيِّنٌ.

---

(١) الآية (٤٩) من سورة (الدخان).

(٢) من الآية (٤٩) من سورة (الزُّخرف).

(٣) البيت لحُرَيْث بن عناب الطائي، وهو في (الخزانة)، وفي (اللسان ـ لوم)، ورواية اللسان:

إذَا هُوَ آلَى حِلْفَةً قُلْتُ مِثْلَهَا　　　لِتُغْني عَنِّي ذا أتَى بِكَ أجْمَعَا

وقال: أراد: لَيُغْنِيَنَّ، فأسقط النون وكسر اللام، ويُرْوَى: لَتَغْنِنَّ. أما على رواية المؤلف والخزانة فإن قَدْنِي بمعنى: حَسْبي، وذا إِنَائِكَ: صاحب إنائك، يريد به اللَّبن، والمعنى أنه حلف أن أغني عنه لبن الإناءِ جميعاً، أي: أشربه عنه. والشاهد فيه هو إضافة الإناءِ إلى شاربه كما ذكر المؤلف.

(٤) من قوله تعالىٰ في الآية (٥٤) من سورة (الحِجر): ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت لـ ﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾ في قول أكثر المتأوِّلين، ويحتمل أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مرتفعاً بالابتداءِ منقطعاً مما قبله، وخبره في قوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ فزيدت الفاءُ في الخبر، وقد يجيءُ مثل هذا. و﴿ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ يريد بهم القابضين لأرواحهم، وقوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حال. و[ٱلسَّلَم] هنا: الاستسلام، أَي: رموا بأَيديهم وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ فحذف «قالوا» لدلالة الظاهر عليه، قال الحسن: هي مواطن، فمرَّة يقرون على أنفسهم، كما قال: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[1]، ومرَّة يجحدون كهذه الآية، ويحتمل قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ وجهين: أَحدهما أنهم كذبوا وقصدوا الكذب اعتصاماً منهم به، على نحو قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2]، والآخر أَنهم أَخبَروا عن أَنفسهم أَنهم لم يكونوا يعملون سُوءاً، فأَخبروا عن ظنهم بأَنفسهم، وهو كذب في نفسه، وحَسُن الردُّ عليهم في الوجهين جميعاً بـ [بَلَى]، أَي يقال لهم: بَلَى، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وعيد وتهديد، وظاهر الآية أَنها عامة في جميع الكفار. وإِلقاؤهم السَّلَم ضدُّ مُشَاقَّتهم قَبْلُ، وقال عكرمة: نزلت في قوم من أَهل مكة آمنوا بقلوبهم ولم يهاجروا، فأَخرجهم كفار مكة مكرهين إِلى بدر فقتلوا هنالك، فنزلت فيهم هذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِنما اشتبهت عليه بالآية الأُخرى التي نزلت في أُولئك باتفاق من العلماءِ، وعلى هذا القول يحسن قطع ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ورفعه بالابتداءِ، فتأَمله. والقانون أَن «بَلَى» تجيءُ بعد النفي، و«نعم» تجيءُ بعد الإِيجاب، وقد تجيءُ بعد التقرير، كقولك: أَلَيْسَ كذا ؟

---

(١) من الآية (١٣٠) من سورة (الأنعام).

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٣) من سورة (الأنعام): ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

ونحوه، ولا تجيءُ بعد نفي سوى التقرير: وقرأ الجمهور ﴿تَتَوَفَّاهُمُ﴾ بالتَّاءِ من فوق، وقرأها حمزة بالياءِ، وهي قراءَة الأعمش، قال أَبو زيد: أَدغم أَبو عمرو: [السَّلَم مَّا].

وقوله تعالىٰ: ﴿فادْخُلُوا﴾ من كلام الذي يقول: [بَلَى]، و«أَبْوَابُ جَهَنَّم» مفضية إِلى طباقها التي هي بعض على بعض، والأَبواب كذلك بابٌ على باب، و﴿خَالِدِينَ﴾ حالٌ، واللام في قوله: ﴿فَلَبِئْسَ﴾ لام التأْكيد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذكره سيبويه، وهو إِجماعٌ من النحويين فيما علمتُ أَن لام التأْكيد لا تدخل على الفعل الماضي، وإِنما يدخل عليه لام القسم، ولكن دخلت على «بئس» لأَنها لمَّا لم تتصرف أَشبهت الأَسماءَ وبعدت عن حال الفعل في هذا، وهي بعيدة أَيضاً عن حال الفعل من جهة أَنها لا تدخل على زمان. و«المَثْوى»: موضع الإِقامة، ونعم وبئس إِنما يدخلان على معرَّف بالأَلف واللام، أَو مضاف إِلى معرَّف بذلك، و«المَثْوَى» هنا محذوف تقديره: ولبئس المثوى مثوى المتكبرين، والمتكَبِّر هنا هو الذي أَفضى به كِبْره إِلى الكفر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ الآية. لما وصف الله تعالىٰ مقالة الكفار الذين قالوا: «أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ» عادَلَ ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أَصحاب النبي ﷺ، وأَوْجَب لكلٍّ فريق ما يستحق لتباين المنازل بين الكفر والإِيمان، و﴿مَاذَآ﴾ تحتمل ما ذكر في التي قبلها[1]، وقولهم: ﴿خَيْرًا﴾ جواب بحسب السؤال، واختلف المتأَوِّلون في قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ إِلى آخر الآية ـ فقالت فرقة: هو ابتداءُ كلام من الله تعالىٰ مقطوع مما قبله، ولكنه بالمعنى وعْدٌ متصل بذكر إِحسان المتقين في مقالتهم، وقالت فرقة: هو من كلام الذين قالوا: ﴿خَيْرًا﴾، وهو تفسير للخير الذي أُنزل، أَي: أَنزل الله في الوحي على نَبِيِّنا[2] خيراً، أَي: من أَحسن في الدنيا بالطاعة فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة بدخول الجنة، وروى أَنس بن مالك أَن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الله لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة»[3]، وقد

---

(١) يريد ﴿مَاذَآ﴾ التي سبقت في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾.

(٢) في بعض النسخ «أنبيائه» بدلاً من «نَبِيِّنَا»، وفي نسخ أُخرى الكلمتان: «نَبِيِّنا»، ثم بين قوسين «أنبيائه».

(٣) أخرجه مسلم، والإمام أحمد، ولفظه كما في مسنده (٣ـ١٢٥) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ=

تقدم القول في إضافة الدار إلى الآخرة، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

يحتمل أن يرتفع ﴿جَنَّٰتُ﴾ على خبر ابتداءٍ مضمر بتقدير: هي جنات عدن، ويحتمل أن ترتفع بقوله: (ولنعم دار المتقين جنات عدن)، ويحتمل أن يكون التقدير: لهم جناتُ عدن، ويحتمل أن تكون ﴿جَنَّٰتُ﴾ مبتدأً، وخبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وقرأَ زيد بن ثابت، وأَبو عبد الرحمن: [جَنَّاتَ] بالنَّصب، وهذا على نحو قوله: «زيداً ضربته»، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وقرأ إسماعيل عن نافع: [يُدْخَلُونَهَا] بضم الياءِ وفتح الخاءِ، ولا يصح هذا عن نافع، ورويت عن أَبي جعفر، وشيبة بن نصاح. وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في موضع الحال، وباقي الآية بيِّن.

وقرأَ الجمهور: ﴿تَتَوَفَّاهُمْ﴾ بالتاءِ، وقرأَ الأَعمش، وحمزة: [يَتَوَفَّاهُم] بالياءِ من تحت، وفي مصحف ابن مسعود [تَوَفَّاهُم] بتاءٍ واحدة في الموضعين[1]. و﴿طَيِّبِينَ﴾ عبارة عن صلاح حالهم واستعدادهم للموت، وهذا بخلاف ما قال في الكفرة: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾، والطَّيب: الذي لا خبث معه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[2]. وقول الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ بشارة من الله تعالىٰ، وفي هذا أَحاديث صحاح يطول ذكرها[3]. وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي: بما كان في

= قال: «إن الله عزَّ وجلَّ لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويُجْزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيعطى بحسناته في الدنيا، فإذا لقي الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً».

(١) أي في هذه الآية، وفي قوله تعالىٰ قبلها: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

(٢) من الآية (٧٣) من سورة (الزُّمَر).

(٣) أخرج ابن مالك، وابن جرير، وابن المنذر وغيرهم عن محمد بن كعب القرظي قال: إذا استفاقت نفس العبد المؤمن جاءه الملَك فقال: السلام عليك يا وليَّ الله، الله يقرأُ عليك السلام، ثم نزع بهذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾. (الدر المنثور)، وفي القرطبيِّ: (إذا اسْتَنْقَعَت نَفْسُ العَبْد المؤمن) ـ ومعنى استنقعت: تجمعت في فيه لتخرج، من قولهم: استنقع الماء بمعنى تجمع وثبت=

أعمالكم من تكسبكم، وهذا على التجوز، علّق دخولهم الجنة بأعمالهم من حيث جعل الأعمال أمارة لإدخال العبد الجنة، ويعترض في هذا قول رسول الله ﷺ: «لا يدخل أَحَدٌ الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلاَّ أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»[١]، وهذه الآية تُرَدُّ بالتأويل إلى معنى الحديث، ومن الرحمة والتغمد أن يوفق الله العبد إلى أعمال برّة، ومقصد الحديث نفي وجوب ذلك على الله تعالىٰ بالعقل كما ذهب إليه فريق من المعتزلة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

[يَنْظُرُونَ] معناه ينتظرون، و«نَظَرَ» متى كانت من رؤْية العين فإنما تُعَدِّيها العرب بإلى، ومتى لم تتعدَّ بإلى فهي بمعنى انتظر، كما قال امرؤُ القيس:

فَــإِنَّكُمَــا إِنْ تَنْظُــرَانِــي سَــاعَــةً مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعُني لَدَى أُمِّ جُنْدبِ[٢]

ومنه قوله تعالىٰ حكاية: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾[٣]، وقد جاءَ شاذًّا نظرتُ بمعنى الرؤْية متعدياً بغير إلى كقول الشاعر:

= ـ وقال ابن مسعود: إذا جاءَ ملَك الموت يقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام.

(١) أخرجه البخاري، وابن ماجه، والدارمي، ومسلم، وأحمد. (المعجم المفهرس).

(٢) يقول مخاطباً صديقين له ـ على عادته ـ: إن انتظرتماني ساعة من الزمن تنفعني عند أم جندب، فالفعل (تنظر) هنا بمعنى (تنتظر) لأنه من النظر بالعين ولم يتعدَّ بـ (إلى)، وأُمُّ جُنْدَب: زوج الشاعر تزوجها في بني طيّ، وقد فضّلت عليه علقمة في الشّعر في قصة معروفة فطلقها، وقبل هذا البيت يقول ـ وهو مطلع القصيدة:

خَليلَــيَّ مُــرَّا بــي عَلَــى أُمِّ جُنْــدبِ نُقَــضِّ لُبَــانَــاتِ الفُــؤادِ المُعَــذَّبِ

والجُنْدب في الأصل نوع من الجراد يصرُّ ويقفز ويطير، وجمعه جنادب، و«أم جُنْدب» الداهية والغدر والظلم، ويقال: ركب أُمَّ جندب: غَدَرَ وظَلَم.

(٣) من الآية (١٣) من سورة (الحديد).

بَــاهِــرَاتُ ٱلْجَمَــالِ وَٱلْحُسْــنِ ينظُــرْ نَ كمــا يَنْظُــرُ الأَرَاكَ الظِّبَــاءُ[1]

وقرأ الجمهور: ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأ حمزة والكسائي: [يَأْتِيَهُمُ] بالياءِ، وهي قراءَة يحيى بن وثاب، وطلحة، والأعمش، ومعنى الكلام أَن تأْتيهم الملائكة لتقبض أَرواحهم ظالمي أَنفسهم، وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وعيد يتضمن قيام الساعة أَو عذاب الدنيا. ثم ذكر تعالىٰ أَن هذا كان فعل أَسلافهم من الأُمم، أَي: فَعُوقبوا، ولم يكن ذلك ظلماً لأَنه لم يوضع ذلك العقاب في غير موضعه، ولكن هم ظلموا أَنفسهم بأَن وضعوا كفرهم في جهة الله تعالىٰ، وميلَهم إِلى الأَصنام والأَوثان، فهذا وضع الشيءِ في غير موضعه. وظلموا أَنفسهم، أَي: آذوها بنفس فعلهم وإِن كانوا لم يقصدوا ظلمها ولا إِذايتها.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، أَي جزاءُ ذلك في الدنيا والآخرة. ﴿وَحَاقَ﴾ معناه نزل وأَحاط، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر من الكلام، تقديره: جزاءَ بما كانوا به يستهزئون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الآية جدل من الكفار، وذلك أَن أَكثر الكفار كانوا يعتقدون وجود الله تعالىٰ، وأَنه خالقهم ورازقهم، فإِن كان أَهل هذه الآية من هذا الصنف فكأَنهم قالوا: يا محمد، نحن من الله بمرأَى في عبادتنا الأَوثان، واتخاذها لتنفع وتقرِّب زُلفى، ولو كره الله فعلنا لغيَّره منذ مدة، إِمَّا بإِهلاكنا وإِمَّا بهدايتنا. وكان من الكفار فريق لا يعتقدون بوجود الله، فإِن كان أَهل هذه الآية من هذا الصنف فكأَنهم أَخذوا الحجة على النبي عليه الصلاة والسلام من قوله، أَي: إِن الرَّبَّ الذي تثبته يا محمد وهو على ما تصفه يعلم ويقدر، ولا شَكَّ أَنه يعلم حالنا، ولو كرهها لغيَّرَها. والرَّدُّ على هذين الفريقين هو أَن الله تعالىٰ ينهى عن الكفر وقد أَراده بقوم، وإِنما نصب الأَدلة وبعث الرسل ويَسَّرَ كلاً لما حتم عليه، وهذا الجدال ـ بين أَيِّ الصِّنفين فَرَضْتَهُ ـ

(١) امرأَةٌ باهرة الحُسْن: تفوق غيرها من النساءِ فيه، والأراك، أو شجر المِسْوَاك: نبات شجيري، من الفصيلة الأراكية، كثير الفروع، خوَّار العود، متقابل الأوراق، له ثمار حُمْرٌ دكناءُ تؤكل، ينبت في البلاد الحارة، ويوجد في صحراء مصر الجنوبية الشرقية، يُشَبِّهُهُنَّ وهن ينظرن بالظباءِ وهي تنظر إلى شجر الأراك في صورة باهرة من الجمال والحسن، والشاهد أن (نظر) هنا بمعنى الرُّؤية والنظر بالعين، ولم تَتَعَدَّ بإِلى كما اعتادت العرب.



ليس فيه استهزاءٌ، لكن أَبا إِسحق الزجاج قد قال: إن هذا الكلام على جهة الهُزْءِ، فذهب أَبو إسحق ـ والله أَعلم ـ إلى أَنَّ الطائفة التي لا تقول بالإِثم، ثم أَقامَت الحجة من مذهب خصمها كأَنها مستهزئة في ذلك، وهذا جدالٌ محض، والرَّدُّ عليه كما ذكرناه، وقوله: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يُشير إِلى ما ذكرناه.

وقوله: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ يريدون البَحِيرَة والسائبة والوصيلةَ وغير ذلك مما حرَّموه، وأَخبر الله تبارك وتعالىٰ أَنَّ هذه النزعة قد سبقهم الأَولون من الكفار إِليها، وكأَنه قال: والأَمر ليس على ما ظنُّوه من أَن الله تعالىٰ إِذا أَراد الكفر لا يأْمر بتركه، بل قد نصب الله لعباده الأَدلة، وأَرسل الرسل منذرين، وليس عليهم إِلاّ البلاغ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

لما أَشار قوله: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إِلى إقامة الحجة حسب ما ذكرناه بيَّن ذلك في هذه الآية، أَي أَنه بعث الرسل آمِراً بعبادته وتجنب عبادة غيره. و«الطَّاغُوت» في اللغة كلُّ ما عُبد من دون الله من آدميٍّ راضٍ بذلك أَو حجر أَو خشب، ثم أَخبر أَن منهم من اعتبر وهداه الله ونظر ببصيرته، ومنهم من أَعرض وكفر فحقت عليه الضلالة، وهي مؤدية إِلى النار حتماً، ومنهم من أَدَّته إِلى عذاب الله في الدنيا، ثم أَحالهم في علم ذلك على الطلب في الأَرض، واستقراءِ الأُمم، والوقوف على عواقب الكافرين المكذبين.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَحْرِصْ﴾، الحِرْصُ: أَبلغ الإِرادة في الشيءِ، وهذه تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، أَي أَنَّ حرصك لا ينفع، فإِنها أُمور محتومة. وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة، ومجاهد، وشبل، ومزاحم الخراساني، وأَبو رجاءِ العطارديّ، وابن سيرين: [لا يُهْدَى] بضم الياءِ وفتح الدال[1]، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿لَا يَهْدِى﴾ بفتح الياء وكسر

---

(١) قال الفراءُ في (معاني القرآن): وهو وجه جيِّد، لأنها في قراءَة أُبيٍّ: «لا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ».

الدال، وهي قراءَة ابن مسعود، وابن المسيب، وجماعة، وذلك على معنيين: أَي أَن الله لا يَهْدِي من قضى بإِضلاله، والمعنى الآخر أَن العرب تقول: «يَهْدِي الرجل» بمعنى «اهتدى»، حكاه الفراءُ[1]، وفي القرآن: ﴿لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۚ﴾[2]، وجعله أَبو علي وغيره بمعنى «يهتدي»، وقرأَت فرقة بفتح الياءِ وكسر الهاءِ والدَّال، وقرأَت فرقة: [يُهْدِي] بضم الياءِ وكسر الدال، وهي ضعيفة[3]، وفي مصحف أُبيّ بن كعب [فإِنَّ الله لا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ]، وحكاها أَبو حاتم: «فإِنَّه لا هادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ»، قال أَبو عليٍّ: «الراجع إِلى اسم ﴿إِنَّ﴾ مقدر في ﴿يُضِلُّ﴾ على كل قراءَة إِلاَّ قراءَة ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الياءِ وكسر الدال، أَي: يهدي الله، فإِنَّ الراجع مقدر في ﴿يَهْدِي﴾. وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ضمير على معنى ﴿منْ﴾، وتقول العرب: حَرَصَ يَحْرُصُ[4] وَحَرَصَ يَحْرِصُ، والكسر في المستقبل لغة أَهل الحجاز. وقرأَ الحَسَن، وإِبراهيم، وأَبو حيوة بفتح الراءِ في قوله [تَحْرَصْ] وقرأَ إِبراهيم: «وإِنْ تَحْرِصْ» بزيادة واو.

والضمير في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ لكفار قريش، وذكر أَن رجلاً من المسلمين جاور رجلاً من المشركين، فقال في حديثه: «لا والذي أَرجوه بعد الموت»، فقال له الكافر: «أَوتُبعث بعد الموت»؟ قال: «نعم»، فأَقسم الكافر مجتهداً في يمينه أَن الله لا يبعث أَحداً بعد الموت، فنزلت الآية بسبب ذلك، و﴿جَهْدَ﴾ مصدر، ومعناه: بغاية جهدهم، ثم ردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿بَلَى﴾ فأَوجب بذلك البعث. وقوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ مصدران مؤكدان، وقرأَ الضحاك: [بلى وعدٌ عليه حقٌ] بالرفع في المصدريْن[5]،

---

(١) الذي حكاه الفراءُ هو أن العرب تقول: «قَدْ هَدَّى الرَّجل» يريدون: اهتَدى، ثم استشهد بالآية وهي بتشديد الدال المكسورة، ثم عاد الفراءُ فنقل عن الأعمش أنه قرأ: [يَهْدِي] بفتح الياءِ وكسر الدال. وقال محقق «معاني القرآن» للفراءِ: إنه يريد قراءَة حمزة، والكسائي، «بفتح الياءِ وإسكان الهاء وتخفيف الدال»، وبهذا يكون ما ذكره ابن عطية عن الفراء صحيحاً إذا كان قد فهم ما يريده الفراء كما فهمه المحقق.

(٢) من الآية (٣٥) من سورة (يونس).

(٣) قال أبو حيان تعقيباً على هذا: «وإذا ثبت أن «هدى» لازمة بمعنى «اهتدى» لم تكن ضعيفة، لأنه أدخل على اللازم همزة التعدية، فالمعنى: لا يجعل مهتدياً من أضلَّه».

(٤) ضبطها محقق (اللسان) طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ بضم الراءِ، وضبطها محقق المحتسب لابن جني بفتح الراءِ. أما لغة أهل الحجاز وهي الكسر فلا خلاف فيها.

(٥) وعلى هذا تكون [وعْدٌ] خبر لمبتدأٍ محذوف، والتقدير: بَعْثُهم وعدٌ عليه حقٌّ، و[حَقٌّ] صفة لـ [وَعْدٌ].

وأَكثر الناس في هذه الآية الكفار المكذبون بالبعث، والبعث من القبور مما يُجَوِّزه العقل، وأَثبته خبر الشريعة على لسان جميع النَّبِيِّين، وقال بعض الشيعة: إن الإشارة بهذه الآية لعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وإِن الله سيبعثه في الدنيا، وهذا هو القول بالرجعة، وقولهم هذا باطل وافتراءٌ على الله، وبهتان من القول ردَّه ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

اللام في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ متعلقة بما في ضمن قوله: ﴿بَلَىٰ﴾، لأَن التقدير: بلى يبعث ليبين، وقيل: هي متعلقة بقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾، والأَول أَصوب في المعنى، لأَن به يَتَصور كذب الكفار في إِنكار البعث.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ الآية. «إِنَّمَا» في كلام العرب هي للمبالغة وتحقيق وتحضيض على المذكورين، وقد تكون ـ مع هذا ـ حاصرةً إِذا دلَّ على ذلك المعنى، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[1]، وأَما قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إنما الربا في النَّسيئة»[2]، وقول العرب: «إِنما الشجاع عنترة» فبقي فيها معنى المبالغة فقط. و﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية هي للحصر، وقاعدة القول في هذه الآية أَن نقول: إِن الإِرادة والأَمر اللذين هما صفتان من صفات الله تبارك وتعالىٰ القديمة هُما قديمان أَزليَّان، وإِن ما في أَلفاظ هذه الآية من معنى الاستقبال والاستئناف إِنما هو راجع إِلى المراد لا إِلى الإِرادة، وذلك أَن الأَشياءَ المرادة المكوَّنة في وجودها استئناف واستقبال، لا في إِرادة ذلك، ولا في الأَمر به، لأَن ذينك قديمان، فمن أَجل المراد عبَّر بـ ﴿إِذَا﴾ و﴿نَقُول﴾. ونرجعُ الآن على هذه الأَلفاظ فنوضِّحُ الوجه فيها واحدةً واحدةً: أَما قوله: ﴿لِشَىْءٍ﴾ فيحتمل وجهين: أَحدهما أَن هذه الأَشياءَ التي هي مُرادة وقيل لها: ﴿كُنْ﴾ معلوم أَن

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (١٧١) من سورة (النساء): ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والنسائي، وابن ماجه ـ عن أُسامة بن زيد، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بالصحة.

الوجود يأتي على جميعها بطول الزمن وتقدير الله تعالىٰ، فلما كان وجودها حتْماً جاز أن تسمى «أشياءَ» وهي في حالة عدم، والوجه الثاني أن يكون قوله: ﴿لِشَيْءٍ﴾ تنْبيهاً لنا على الأَمثلة التي ننظر فيها، أي أنَّ كل ما تأْخذونه من الأشياءِ الموجودة فإنما سبيله أن يكون مراداً وقيل له: «كُنْ» فكان، ويكون ذلك الشيءُ المأْخوذ من الموجودات مثالاً لما يتأخر من الأُمور وما تقدم، فبهذا نتخلص من تسمية المعدوم شيئاً، وقوله: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ مُنَزَّل منزلة مراد، ولكنه أتى بهذه الألفاظ المستأنفة بحسب أن الموجودات تجيءُ وتظهر شيئاً بعد شيءٍ فكأنه قال: «إذا ظهر المراد منه»، وعلى هذا الوجه تخرج قوله تعالىٰ: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٢]، ونحو هذا مِمَّا معناه: ويقع منكم ما رآه الله تعالىٰ في الأزل كلِّه وعَلِمَه.

وقوله: ﴿أَن نَّقُولَ﴾ نزل منزلة المصدر، كأنه قال: «قولنا»، ولكن «أَنْ» مع الفعل تعطى استئنافاً ليس في المصدر في أغلب أمرها، وقد تجيءُ في مواضع لا يُلحظ فيها الزمن كهذه الآية، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[٣] وغير ذلك.

وقوله: ﴿لَهُۥ﴾ ذهب أكثر الناس إلى أن «الشَّيْءَ» هو الذي يقال له كالمخاطَب، وكأن الله تبارك وتعالىٰ قال في الأزل لجميع ما خلق: «كُنْ» بشرط الوقت والصفة، وقال الزَّجَّاج: ﴿لَهُۥ﴾ بمعنى: من أجله، وهذا ممكن أن يُرَدَّ بالمعنى إلى الأول، وذهب قومٌ إلى أن قوله: ﴿أَن نَّقُولَ﴾ مجازٌ، كما تقول: قال برأسه فرفعه، وقال بيده فضرب فلاناً، وردَّ على هذا المنزع أبو منصور، وذهب إلى أن الأول هو الأول. وقرأ الجمهور: ﴿فَيَكُونُ﴾ برفع النون، وقرأ ابن عامر، والكسائي هنا وفي «يسٓ»[٤] [فَيَكُونَ] بنصبها، وهي قراءة ابن محيصن[٥].

---

(١) من الآية (١٠٥) من سورة (التوبة).

(٢) من الآية (١٤٠) من سورة (آل عمران).

(٣) من الآية (٢٥) من سورة (الروم).

(٤) من قوله تعالىٰ في الآية (٨٢): ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

(٥) قال القرطبي: في الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق، لأنه لو كان قوله: (كُنْ) مخلوقاً لاحتاج إلى قول ثان، والثاني إلى ثالث وتسلسل، وكان محالاً، وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجميع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها، والدليل على ذلك أن من يرى في سلطانه ما يكرهه ولا يريده فلأحد شيئين: إما لكونه جاهلاً لا يدري، وإما لكونه مغلوباً لا يطيق، ولا يجوز ذلك في وصفه سبحانه، وقد قام الدليل على أنه خالق لاكتساب العباد، ويستحيل أن يكون فاعلاً لشيءٍ وهو غير=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَول أَبْعَدُ على التعقيب الذي يصحب الفاءَ في أَغلب حالها، فتأَمله.

وفي هذه النُّبذة ما يُطَّلع منه على عيون هذه المسأَلة، وشرط الإِيجاز منع من بسط الاعتراضات والانفصالات، والمقصود بهذه الآية إِعلامُ مُنكري البعث بهوان أَمره على الله تعالىٰ وقربه في قدرته، لا رَبَّ غيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

لمَّا ذكر الله تعالىٰ كفار مكة الذين أَقسموا أَن الله لا يبعث من يموت وردَّ عليهم قولهم ذكَر مؤمني مكة المعارضين لهم، وهم الذين هاجروا إِلى أَرض الحبشة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح في سبب هذه الآية، لأَن هجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية، وقالت فرقة: سبب الآية أَبو جندل بن سهيل بن عمرو[(١)]، وهذا ضعيف، لأَن أَمر أَبي جندل إِنما كان والنبي ﷺ بالمدينة، وقالت فرقة: نزلت في عمَّار وصهيب وخبَّاب وأَصحابهم الذين أُوذوا بمكة وخرجوا عنها، وعلى كل قول فالآية تتناول بالمعنى كل من هاجر أَوَّلاً وآخراً.

وقرأَ الجمهور: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾، وقرأَ ابن مسعود، ونعيم بن ميسرة، والربيع بن خُثَيم[(٢)]،

= مريد له، لأَنَّ أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا، فلو لم يكن الحق سبحانه مريداً لها لكانت تحصل من غير قصد، وهو قول الطَّبيعيين، وهو فاسد.

(١) قيل: اسمه عبد الله، وكان من السابقين إلى الإسلام، وممَّن عُذِّب بسبب إسلامه، ثبت ذكره في صحيح البخاري في قصة الحديبية، قال: وجاءَ أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، فقال: يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مُسلماً، ألا ترون إلى ما لقيتُ؟ وكان مجيئه قبل أن يتم كتاب الصلح، ولم يرض المشركون بأن ينضم إلى المسلمين مع أن النبي ﷺ طلب ذلك، وقال من يمثلهم: هذا أول ما أُقاضيك عليه، استشهد أبو جندل باليمامة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. (الإصابة).

(٢) ذكر في أكثر النسخ أن اسمه: الربيع بن تميم، والصواب ما ذكرناه، والتصويب عن كتب التفسير والقراءات، وهو أبو يزيد الكوفي الثوري، تابعي جليل، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، أخذ=

وأَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: [لَنُثْوِيَنَّهُم][1]، وهاتان اللفظتان معناهما التقرير في موضع، فقالت فرقة: «الْحَسَنَةُ» عِدَةٌ ببقعة شريفة كشف الغيب أَنها كانت بالمدينة، وإِليها كانت الإشارة بقوله: [حسَنَة]، وقالت فرقة: الحَسَنَةُ هنا لسانُ الصدق الباقي عليهم في غابر الدهر، وفي قوله: [لَنُبَوِّئَنَّهُم] أَوْ [لَنُثْوِيَنَّهُم] على هذا التأويل في لسان الصدق تَجَوُّز كثير واستعارة بعيدة، وهذا على أَن «الحسنة» هي الحياة والمثوى، وأَن الفعل الظاهر عامل فيها، وقال أَبو الفتح: نصبها على معنى: «نُحْسن إِليهم في ذلك إِحساناً»، وجعلت [حَسَنَة] موضع «إِحساناً»، وذهبت فرقة إِلى أَن الحسنة عامة في كل أَمر مستحسن يناله ابن آدم، وتخف الاستعارة المذكورة على هذا التأويل، وفي هذا القول يدخل ما رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه كان يعطي المال وقت القسمة الرجلَ من المهاجرين ويقول له: خُذ ما وعدك الله في الدنيا ولأَجر الآخرة أَكبر، ثم يتلو هذه الآية، ويدخل في هذا القول النصرُ على العدو وفتح البلاد وكل أَمل بلغه المهاجرون، و«أَجر الآخرة» هنا إِشارة إِلى الجنة، والضمير في [يَعْلَمُونَ] عائد على كفار قريش، وجواب [لَوْ] مقدر محذوف، ومفعول [يَعْلَمُونَ] كذلك، وفي هذا نظر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ من صفة المهاجرين الذين وعدهم الله، والصبر يَجْمَع: عن الشهوات، وعلى المكاره في الله تعالىٰ، والتوكل بتفاصيل مراتبه، فَمُطيل فيه وذلك مباحٌ حَسَن، ما لم يَغل حتى يُسَبِّب الهلاك، ومتوسط يسعى جميلاً ويتوكل، وهذا مع قول النبي ﷺ: «قَيِّدها وتوكل»[2]، ومقصِّر لا نفع في تقصيره، وإِنَّما لَهُ مَا قُدِّر له.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية، هي ردٌّ على كفار قريش الذين

= القراءَة عن عبد الله بن مسعود، وقال له ابن مسعود: لو رآك محمد ﷺ لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرتُ المخبتين، مات في ولاية عبيد الله بن زياد. (طبقات القراء لابن الجوزي).

(١) بالثاء المثلثة، مضارع أَثْوَى المنقول بهمزة التعدية من ثَوَى بالمكان بمعنى أقام فيه. وعلى هذه القراءة تُنصب [حَسَنَة] على تقدير: إِثْوَاءَةً حسنة، أو على نزع الخافض، أي في حسنة، يعني في دار حسنة، أو منزلة حسنة.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن أُمية الضمري، ولفظه كما في الجامع الصغير: «قَيِّد وتوكل» ـ ورمز له الإمام السيوطي بالصحة.



استبعدوا أَن يكون البشر رسولاً من الله تعالىٰ، فأَعلمهم اللهُ مخاطباً لمحمد ﷺ أنه لم يرسل إِلى الأُمم إِلا رجالاً، ولم يرسل ملَكاً ولا غير ذلك، و﴿رِجَالاً﴾ منصوب بـ ﴿أَرسلْنَا﴾، و﴿إِلاَّ﴾ إِيجابٌ، وقرأَ الجمهور: [يُوحَى] بضم الياءِ وفتح الحاءِ، وقرأَت فرقة بضم الياءِ وكسر الحاءِ، وقرأَ عاصم من طريق حفص وحده[١] ﴿نُوحِي﴾ بالنون وكسر الحاءِ، وهي قراءَة ابن مسعود، وطلحة بن مصرف، وأَبي عبد الرحمن. ثم قال تعالىٰ: ﴿فَاسْأَلُوا﴾، أَي: قل لهم فاسأَلوا، و«أَهْلَ الذِّكْرِ» هنا اليهود والنصارى، قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن. وقال الأَعمش، وسفيان بن عُيَيْنَة: المرادُ من أَسلم منهم، وقال أَبو جعفر، وابن زيد: «أَهْلُ الذِّكْرِ»: أَهْلُ القرآن، وهذان القولان فيهما ضعف؛ لأَنه لا حجة على الكفار في إِخبار المؤمنين بما ذكر، لأَنهم يكذبون هذه الصنائف، وقال الزجاج: «أَهْلُ الذِّكْرِ» عام في كل من يُعزى إِلى علم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَظهر في هذا كله قول ابن عباس رضي الله عنهما أَن يكون أَهل الذكر هنا أَحبار اليهود والنصارى الذين لم يسلموا، وهم في هذه النازلة خاصة إِنما يُخْبِرُونَ بأَن الرسل من البشر، وأَحبارهم حجة على هؤلاءِ، فإِنهم لم يزالوا مُصَدِّقين لهم، ولا يتهمون بشهادة لنا لأَنهم مدافعون في صدر ملة محمد ﷺ قاتلهم الله، وهذا هو كسْر حجتهم من مذهبهم، لا أَنَّا[٢] افتقرنا إِلى شهادة هؤلاءِ، بل الحق واضح في نفسه، وقد أَرسلت قريش إِلى يهود يثرب يسأَلونهم ويُسْنِدون إِليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ متعلق بفعل مضمر تقديره: أَرسلناهم بالبيِّنات، وقالت فرقة: إِنها متعلقة بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في أَول الآية[٣]، والتقدير ـ على هذا ـ: وما أَرسلنا من قبلك بالبينات والزُّبُرِ إِلا رجالاً، ففي الآية تقديم وتأْخير، و«الزُّبُر»: الكتب المزْبُورَة،

---

(١) يعني وحده من السبعة، وإلا فقد قرأ بها معه كثيرون.

(٢) في أكثر النسخ «لكنا» بدلاً من «لا أنَّا». وقد نقلها أبو حيان في «البحر» كماأثبتناها هنا وهي الملائمة للمعنى.

(٣) وأجاز الزمخشري أن تكون صفة لـ ﴿رجالاً﴾، أي: رجالاً متلبسين بالبينات، فيتعلق بمحذوف، وهذا وجه سائغ لأنه في موضع صفة لما بعد «إلا»، وبهذا يكون الله تعالىٰ قد وصف «الرجال» بأنهم يوحى إليهم، وبذلك العامل في ﴿البيِّنَات﴾، كما تقول: ما أكرمت إلا رجلاً مسلماً مُتَلبِّساً بالخير، وأجاز أيضاً أن يتعلق بـ ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، وأن يتعلق بـ ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

تقول: «زبرت ودبرت» إذا كتبتَ، و[الذِّكر] في هذه الآية القرآن. وقوله: [لِتُبَيِّن] يحتمل أن يريد: لِتُبَيِّن بِسَرْدِك نص القرآن ما نزل، ويحتمل أن يريد: لِتُبَيِّن بتفسيرك المجمل وبشرحك ما أشكل مما نُزِّل، فيدخل في هذا ما تُبَيِّنه السُّنَّة من أمر الشريعة، وهذا قول مجاهد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

هذه آية تهديد لأهل مكة، وهم المراد ـ [ٱلَّذِينَ] في قول الأكثرين، وقال مجاهد: المراد نمروذ بن كنعان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأول أظهر، ونصب [ٱلسَّيِّـَٔاتِ] يحتمل وجهين، أحدهما أن ينصب بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾، وتكون السيئات ـ على هذا ـ العقوبات التي تسوءُ من تنزل به، ويكون قوله: ﴿أَن يَخۡسِفَ﴾ بدلاً منها، والوجه الثاني أن تنصب بـ [مَكَرُوا]، وعُدِّي [مَكَرُوا] لأنه في معنى «عملوا» أو «فعلوا»، و[ٱلسَّيِّئَات] ـ على هذا ـ معاصي الكفر وغيره، قاله قتادة. ثم توعدهم بما أصاب الأمم قبلهم من الخسف، وهو أن تبتلع الأرض المخسوف به ويقعد إلى أسفل، وأسند النقاش عن بعض أهل العلم أن قوماً في هذه الأمة أُقيمت الصلاة فتدافعوا الإمامة وتَصَلَّفُوا في ذلك[1]، فما زالوا كذلك حتى خُسِفَ بهم.

و[تَقَلُّبِهِم]: سفرهم ومحاولتهم المعايش بالسفر وبالرعاية وغيرها، و«ٱلْمُعْجِز»: المُفْلت هرباً، كأنَّه عجَّز طالبه، وقوله: ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾، أي: على جهة التَّخَوُّف، والتَّخَوُّف: التَّنَقُّص، ومنه قول الشاعر يصف ناقة:

---

(١) المراد أنهم وصلوا إلى درجة أبغض بعضهم فيها بعضاً، يقال: صَلِف فلان: لم يحظ عند الناس وأبغضوه، وأَصْلَفَه الله: بَغَّضه إلى الناس، ويقال: صَلَفه صَلْفاً: أبغضه.



تَخَوَّفَ السَّيْرُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً ... كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[1]

فالسَّفَن: المِبْرد، ويُروى أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خفي عليه معنى «التَّخَوُّف» في هذه الآية، وأراد الكتب إلى الأمصار يسأل عن ذلك حتى سمع هذا البيت، ويروى أنه جاءَ فتىً من العرب وهو قد أَشكل عليه أمر لفظة التخوف، فقال له: يا أَمير المؤمنين، إن أَبي يَتَخَوَّفَني مالي، فقال عمر رضي الله عنه: الله أكبر، ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، ومنه قول طرفة:

وَجَامِلٍ خَوَّفَ مِنْ نِيبِهِ ... زَجْرُ المُعَلَّى أُصُلاً والسَّفِيحْ[2]

ويروى: من نفسه، ومنه قول الآخر:

أُلامُ عَلَى الْهِجَاءِ وكُلَّ يَوْمٍ ... يُلاَقِيني مِنَ الْجِيرَانِ غُولُ
تَخَوَّفَ عَذْوُهُمْ مَالي وَأَهْدَى ... سَلاَسِلَ في الْحُلُوقِ لَهَا صَلِيلُ[3]

يريد الأَهاجي. ومنه قول النابغة:

---

(١) البيت لابن مقبل، (اللسان ـ خوف)، والتَّخَوُّف: التَّنَقُّص، وقال الفراءُ: «إنه التنقيص، والعرب تقول: تَحَوَّفته (بالحاء المهملة) بمعنى: تَنَقَّصْته من حافاته، وقد جاء التفسير بالحاء»، وقال ابن الأعرابي: «تَحَوَّفته وتَحَيَّفته، وتَخَوَّفته وتَخَيَّفته». والتَّامِكُ: السَّنام، وقيل: السَّنَام المرتفع، والقَرِدُ: الذي تَجَمَّع شَعْره، أو الذي تراكم لحمُهُ من السمن، والنَّبْعَةُ: واحدة النَّبع، وهو من شجر الجبال، تُتَّخذ منه القِسِيُّ لصلابته، والسَّفَن: الحديدة التي تبرد بها القِسِيُّ. يقول ابن مقبل: إن السَّيْر قد أخذ ينقص من سنام هذه الناقة ومن لحمها السمين كما ينتقص المبرد من خشب القِسِيِّ. ويروى: «تَخَوَّف الرَّحْلُ» بدلاً من: «تخَوَّف السَّيْرُ».

(٢) هذا البيت لطرفة، وهو من أبيات قالها يصف مرضه ويسأل عن عُوَّاده فيه، والجامِلُ: القطيع من الإبل، وخوَّف: نَقَّص، ويروى «خَوَّعَ» وهي بمعنى نَقَّص أيضاً، ولكن لا يصلح شاهداً، وفاعِلُ الفعل (خَوَّفَ) هو قوله: «زَجْرُ الْمُعَلَّى» في الشطر الثاني، والنِّيبُ: جمع ناب وهي النَّاقة المُسِنَّة. والمُعَلَّى: سابع سهام المَيْسِر، والسَّفيح: قَدَحٌ من قداح الميْسر لا نصيب له، وأُصُلا: جمع أَصِيل، وهو الوقت بين العصر والمغرب، يقول: إن هذا القطيع من الإبل قد أتى على نياقه النقص بسبب ما خسره صاحبه منه في لعب الميسر في وقت الأصيل. وفي (اللسان ـ خوف) أن أبا إسحاق رواه: «من نَبْتِهِ» بدلاً من «نِيبِهِ».

(٣) استشهد أبو عبيدة بهذين البيتين في «مجاز القرآن» على أن «التَّخَوّف» هو «التَّنَقُّص» والشاهد في البيت الثاني، أي: تَنَقَّص عَدْوُهم مالي، والعَدْوُ هو العدوان أو الاعتداءُ، ويروى «غَدْرُهُمْ» بالغين والراءِ، ويريد بالسلاسل: قوافي الشعر التي تنشد، وهي قلائد في الأعناق، وصليل القوافي هو صوتها حين تنشد.

تَخَـوَّفَهُـمْ حَتَّـى أَذَلَّ سَـرَاتِهِـم   بِطَعْنٍ ضِرَارٍ بَعْدَ نَفْحِ الصَّفَائحِ[1]

وهذا التنقيص يتجه الوعيد به على معنييْن: أَحدهما: أَن يهلكهم ويخرج أَرواحهم على تخوف، أَي أَفذاذاً، يتَنَقَّصهم بذلك الشيءَ بعد الشيءِ، وهذا لا يدعي أَحد أَنه يأْمنه، وكأَن هذا الوعيد إِنما يكون بعذاب ما يلقون بعد الموت، وإِلا فهكذا تهلك الأُمم كلها، ويؤيد هذا قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أَي أَن هذه الرتبة من الوعيد فيها رأْفة ورحمة وإِمهال ليتوب التائب ويرجع الراجع، والآخرُ: ما قال الضحاك: أَن يأْخذ بالعذاب طائفة أَو قرية ويترك أُخرى، ثم كذلك حتى يهلك الكل. وقالت فرقة: التخوُّف هنا من الخوف، أَي: يأْخذهم بعد تخوف ينالهم يعذبهم به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا تكلُّف مَّا.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ الآية، قرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: ﴿أولم يروا﴾ بالياءِ، على لفظ الغائب، وكذلك في العنكبوت[2]، فهي جارية على قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ﴾ وقوله: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾، ورجَّحها الطبري. وقرأَ حمزة، والكسائي: [أَوَلَمْ تَرَوا] بالتاءِ من فوق في الموضعين، وهي قراءَة الحسن، والأَعرج، وأَبي عبد الرحمن، وذاك يحتمل من المعنى وجهين: أَحدهما على معنى: قُلْ لهم يا محمد أَوَلَمْ تَرَوْا، والوجه الثاني أَن يكون خطاباً عاماً لجميع الخلق ابتدأَ به القول آنفاً، وقرأَ عاصم في النحل بالتاءِ من فوق، واختلف عنه في العنكبوت. وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لفظ عام في كل ما اقتضته الصفة في قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ لأَن ذلك صفة لما عرض للعبرة في جميع الأَشخاص التي لها

---

(١) التَّخَوُّف: التَّنَقُّص، والسَّراة: اسم جمع سَرِيٍّ، وليس جمعاً، لأن فعيل لم يُجمع على فَعَلَة، قال سيبويه: الدليل على أنه ليس جمعاً قولهم: سَرَوات، أو هو جمع سَرِيٍّ على غير قياس، والسَّرِيُّ: الشريف النفس الرفيع المنزلة: ذو المروءَة، والطعن ضراراً هو الطعن عن قرب شديد (راجع أساس البلاغة)، والصفائح: السيوف العراض، ونفحت بالسيف: ضربت ضرباً خفيفاً، أو التناول بالسيف من بعيد شذراً واحتقاراً للمضروب، فهو طعن شديد بالرماح بعد ضرب خفيف بالسيوف، أو طعن بالرماح عن قرب بعد تناول بالسيوف من بعيد، ولم أجد البيت في ديوان النابغة. (طبع ونشر الشركة التونسية للتوزيع ـ الجزائر، وتحقيق الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، طبعة مكملة).

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (١٩): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ظل، والرؤية هنا هي رؤية القلب، ولكن الاعتبار برؤية القلب هنا إنما تكون في مرئيات بالعين، وقرأ أبو عمرو وحده: [تَتَفَيَّأُ] بالتاءِ من فوق، وهي قراءَة عيسى ويعقوب، وقرأ الجمهور: ﴿يَتَفَيَّأُ﴾، قال أبو علي: إذا تقدم الفعل المسند إلى مثل هذا الجمع فالتذكير والتأنيث فيه حسنان. و«فَاءَ الظِّلُّ»: رجع بعكس ما كان بُكْرة إلى الزوال، وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى وقت الزوال إنما هي في نسخ الظِّلِّ العام قبل طلوعها، فإذا زالت ابتدأ رجوع الظل العام، ولا يزال ينمو حتى تغيب الشمس فيعم، والظل الممدود في الجنة لم يذكر الله له فيئاً لأنه لم يرجع بعد أن ذهب، وكذلك قول حُميد بن ثور الهلالي:

فَلاَ الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ ... ولاَ الْفَيْءُ مِنْ بَرْدِ الْعَشِيِّ تَذُوقُ[١]

فهو على المهيع[٢]، وكذلك قول علقمة بن عبدة:

تَتَبَّـــعُ أَفْيَـــاءَ الظِّـــلاَلِ عَشِيَّـــةً ... عَلَـى طُـرُقٍ كَـأَنَّهُـنَّ سُيُـوبُ[٣]

وكذلك قول امرىء القيس:

. . . . يَفِيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ. . . . . . .[٤]

---

(١) قال حميد هذا البيت يصف سَرْحَةً، وكَنَى بها عن امرأة، وقال في (اللسان ـ فَيَأَ): «وإنَّمَا سُمِّيَ الظِّلُّ فَيْئاً لرجوعه من جانب إلى جانب»، ونقل عن ابن السكيت قوله: «الظِّل: ما نسخته الشمس، والفَيْءُ: ما نَسَخَ الشمس»، وقد وضح الشاعر في هذا البيت أن الظِّلَّ بالغداة، وهو ما لم تَنَلْه الشمسُ، وأن الفَيْءَ بالعَشِيِّ، وهو ما انصرفت عنه الشمس. والسَّرْحَةُ: واحدة السَّرْح، وهو شجر عظام طوالٌ.

(٢) المَهْيَعُ من الطُّرُق: البَيِّنُ، وجمعه مهايع. (المعجم الوسيط).

(٣) هذا البيت من قصيدة قالها علقمة الفحل في مدح الحارث ملك الغساسنة في الشام على أثر الموقعة المعروفة باسم «يوم حليمة»، وهو في وصف الناقة، حيث بدأ الشاعر بالغزل: «طَحَابِكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ»، ثم قال: «فَدَعْهَا وسَلِّ الْهَمَّ عَنْكَ بجَسْرَةٍ» فهذه الناقة تَتَبَّعُ أَفياءَ الظلال على طول الطريق، والطريق أمامها كأنها مجاري المياه لرطوبتها، والسُّيُوب: مجاري المياه. وفي رواية «سُبُوب»، وهي جمع سُبٍّ وهي قطع الكتَّان.

(٤) هذا جزء من بيت، وهو بتمامه:

تَيَمَّمَـــتِ الْعَيْـــنَ الَّتـــي عنْـــدَ ضَـــارِجٍ ... يَفِـيءُ عَلَيْهَـا الظِّـلُّ عَـرْمَضُهَـا طَـامِ

وهو من قصيدة له يرُدُّ على سُبَيْع بن عوف بن مالك الذي قال فيه أبياتاً يذمه، وضارج: جبل معروف، والعين نبع عند ضارج، والعرْمض: الطُّحْلُب الأخضر الذي يتغشى الماءَ كأنه نسج العنكبوت، ويُسمَّى بالطُّحْلب إذا كان في جوانب الماء، يقال: عرْمض الماءُ عرمضةً: علاهُ العرْمضُ، =

وأما النابغة الجعدي فقال:

فَسَلَامُ الإلٰهِ يَغْدُو عَلَيْهِمْ   وَفُيُوءُ الْفِرْدَوْسِ ذَاتُ الظِّلَالِ[(١)]

فَتَجَوَّزَ في أَنْ جعل الفَيْءَ حيثُ لا رجوع، وقال رؤْبة بن العجّاج: يقال بعد الزوال: فيءٌ وظِلٌّ، ولا يقال قبله إلاَّ ظِلٌّ فقط، ويقال: فاءَ الظِّلُّ إذا رجع من النقصان إلى الزيادة، ويُعدَّى (فَاءَ) بالهمزة، كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾[(٢)]، ويُعدَّى بالتضعيف، فيقال: أَفَاءهُ الله وفيَّأَهُ، وتَفَيَّأَ مضارع فَيَّأَ، ولا يقال الفيْءُ إلا من بعد الزوال في مشهور كلام العرب، لكن هذه الآية الاعتبار فيها من أول النهار إلى آخره، فكأن الآية جارية في بعض التأويلات على تجوز كلام العرب واقتضائه وضع (تَتَفَيَّأَ) مكان (تَتَنَقَّل) و(تميل)، وأَضافَ الظلال إلى ضمير مفرد حملاً على لفظ [مَا]، أَو لفظ [شَيْءٍ]، وهو بالمعنى لجميع، وقرأَ الثَّقفيُّ: [ظُلَلُهُ] بفتح اللام الأُولى وضم الثانية وضم الظاءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾، أَفرد [ٱلْيَمِين] وهو يراد به الجمع فكأَنه للجنس، والمراد: عن الأَيمان والشمائل، كما قال الشاعر:

الـوَارِدُونَ وتَيْـمٌ فـي ذُرَى سَبَـأٍ   قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُم جِلْدُ ٱلْجَواميسِ[(٣)]

وقال الآخر:

بِفِي الشَّامِتِينَ الصَّخْرُ إنْ كانَ هَدَّني   رَزِيَّةُ شِبْلَيْ مُخْدَرٍ في الضَّرَاغِمِ[(٤)]

= وطام: مرتفع، يقول: إن ناقتي قصدت العين التي عند ضارج، وهي عين يفيءُ عليها الظل، ويرتفع فوقها الطحلب.

(١) الفِرْدَوس: البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين «مذكر ومؤنث»، أو الوادي الخصيب، أو المكان تكثر فيه الكروم، وكل ذلك جائز هنا، والشاهد في البيت أن النابغة الجعدي تجوَّز لأنه جعل الفُيُوءَ حيث لا رجوع، بخلاف المألوف المعروف في الأمثلة الأخرى.

(٢) من الآية (٧) من سورة (الحشر).

(٣) البيت لجرير، وهو في هجاءِ عمر بن لجأ التَّيْمي، والرواية في الديوان: «تدعوك تيْمٌ وتيْمٌ»، ويريد بقوله: «عضَّ أَعْنَاقَهُم جِلْدُ الجواميس» أنهم أسرى وفي أعناقهم أطواقٌ من جلد الجواميس، وهو جلد غليظ متين، والشاهد أَن الشاعر هنا أفرد فقال: «جِلْد الجواميس»، ولم يقل: «جُلُود الجواميس» في مقابلة قوله: «أَعْنَاقِهِمْ».

(٤) البيت للفرزدق، وهو من قصيدة له يرثي ابْنَين له. والشامتون: جمع شامت وهو الذي يفرح في بليَّة =



والمنصوب للعبرة في هذه الآية هو كل شخص وجرم له ظل كالجبال والشجر وغير ذلك، والذي يترتب فيه أيمان وشمائل إنما هو البشر فقط، ولكن ذكر الأيمان والشمائل هنا هو على جهة الاستعارة لغير البشر، أَي: تُقَدِّرُهُ ذات يمين وشمال، وتُقدِّرُه يستقبل أيَّ جهة شئت ثم تنظر ظله فتراه يميل إما إلى جهة اليمين وإما إلى جهة الشمال، وذلك في كل أَقطار الدنيا، فهذا وجه يعمم لك أَلفاظ الآية، وفيه تجوُّز واتساعٌ، ومن ذهب إلى أَن اليمين من غدوة النهار إلى الزوال، ثم يكون من الزوال إلى المغيب عن الشمال ـ وهو قول قتادة، وابن جريج ـ فإنما يترتب له ذلك فيما قدره مستقبِل الجنوب، والاعتبار في هذه الآية عندي إنّما هو في مستقبل الجنوب، وما قاله بعض الناس من «أَن اليمين أَول دفعة للظل بعد الزوال، ثم الآخر إلى الغروب هي عن الشمائل، ولذلك جمع الشمائل وأَفرد اليمين» فتخليط من القول يبطل من جهات، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا صليت الفجر كان ما بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلاً، ثم جعل الله عليه الشمس دليلاً فقبض إليه الظل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا فأَول ذرور الشمس فالظل عن يمين مستقبل الجنوب، ثم يبدأُ الانحراف فهو عن الشمائل، لأَنها حركات كثيرة وظلال مقطعة، فهي شمائل كثيرة، وكان الظل عن اليمين متصلاً واحداً عامًّا لكل شيءٍ، وفي هذا القول تجوُّز في [يَتَفَيَّأُ]، وعلى ما قدَّرنا من استقبال الجنوب يكون الظل أَبداً مندفعاً عن اليمين إلى الزوال، فإذا تحرَّك بعْدُ فارَق الأَيمان جملة وصار اندفاعه عن الشمائل، وقالت فرقة: الظلال هنا: الأَشخاص، وهي المراد أَنفسها، والعرب تُعبِّر أَحياناً عن الأَشخاص بالظلال، ومنه قول عَبْدة بن الطبيب:

= الإنسان، وهدَّني: أوهن رُكْني، والمُخْدَر: الأسد، والضَّراغِم: جمع ضِرْغام وهو الأسد أيضاً، فهو يتجلد ويتحمل مصيبته في فقد ولديه حتى لا يشمت فيه الشامتون الحاقدون، والشاهد أنه أفرد فقال: «بِفِي» ولم يقل: «بأفواه»، وهذا دليل على جواز إفراد اليمين وجمع الشمائل، لأن معنى الكلام في الآية الكريمة: أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيءٍ يتفَيَّأُ ظلال ما خلق من شيءٍ عن يمينه ـ أي: ما خلَقَ ـ وشمائله، فلفظ [مَا] لفظ واحد ومعناه معنى الجمع، فقال سبحانه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ بمعنى: عن يمين ما خلق، ثم رجع إلى معنى [مَا] في [الشمائل].

إِذَا نَـزَلْنَـا نَصَبْنَـا ظِـلَّ أَخْبِيَـةٍ　　　وَفَـارَ لِلْقَـوْمِ بـاللَّحْـمِ الْمَـرَاجِيـلُ(١)

وإنما تُنصب الأخبية، ومنه قول الآخر:

تَتَبَّـعُ أَفْيَـاءَ الظِّـلاَلِ عَشِيَّـةً　　　. . . . .(٢)

أَي أفياءَ الأشخاص، وهذا كله محتمل غير صريح، وإن كان أَبو علي قد قرره.

واختلف المتأوِّلون في هذا السجود ـ فقالت فرقة: هو سجود عبادة حقيقية، وذكر الطبري عن الضحاك قال: إذا زالت الشمس سجد كل شيءٍ قِبَل القبلة من بيتٍ أَو شجر، ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة في ذلك الوقت، وقال مجاهد: إنما تسجد الظلال لا الأَشخاص، وقالت فرقة ـ منهم الطبري ـ: عبَّر عن الخضوع والطاعة وميلان الظلال ودورانها بالسجود، كما يقال للمشير برأسه نحو الأَرض على جهة الخضوع: ساجد، ومنه قول الشاعر:

فَكِلْتَـاهُمَـا خَـرَّتْ وَأَسْجَـدَ رَأْسُهَـا　　　كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحْنفِ(٣)

و«الدَّاخِر»: المتصاغر المتواضع، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

فَلَـمْ يَبْـقَ إلاَّ داخِـرٌ فـي مُخَيَّـسٍ　　　وَمُنْجَحِرٍ في غَيْرِ أَرْضِكَ في جُحْرِ(٤)

---

(١) عبدة بن الطبيب من بني عَبْشَمْس بن كعب، وهو شاعر مخضرم، أدرك الإسلام وأسلم، وشهد مع المثنى قتال هرمز، وله في ذلك آثار مشهورة. والأخبية: جمع خباءٍ، وهو البيت من الوبر أو الشعر أو الصوف يكون على عمودين أو ثلاثة، والمراجيل: قدور من الطين أو النُّحاس يطبخ فيها، وقد وضح المؤلف الشاهد في البيت.

(٢) هذا صدر بيت قاله علقمة الفحل، وقد سبق الاستشهاد به قبل ذلك بقليل ص٣٦٢ هامش ٣ من هذا المجلد، والبيت بتمامه:

تَتَبَّـعُ أفيـاء الظِّـلالِ عَشِيَّـةً　　　عَلَـى طُـرُقٍ كَـأنَّهُـنَّ سُبُـوبُ

(٣) البيت لأبي الأَخْزَر الحِمَّانيِّ، وفيه يصف الشاعر ناقتين خرَّتا من الإعياء والتَّعب، أو نُحِرتا فطأطأتا رأسيهما، فشبَّه الشاعر سجودهما بسجود النصرانة، وقد سبق الاستشهاد به في هذا المجلد (ص٢٩٠، هامش١) والشاهد هنا أنه عبر عن طأطأة الرأس بالسجود.

(٤) البيت شاهد على أن معنى الدَّاخر: الصاغر، وقد استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن»، وذكره صاحب اللسان في (خَيَسَ)، ونسبه إلى الفرزدق، قال في اللسان: «وكل سجن: مُخَيَّسٌ ومُخَيِّسٌ ـ بتشديد الياءِ مفتوحة ومكسورة، والمُنْجَحر ـ بتقديم الجيم على الحاء ـ: الداخل في الجحر، يقال: أجحره: أدخله الجحر فدخله، والجحر: كل مكان تحتفره الهوام والحيوانات لأنفسها، والجمع: أجحارٌ وجحَرة، يَقولُ: إن أعداءَك جميعاً أذلاءُ صاغرون في السجون والأجحار. ورواية الديوان: =



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾.

وقعت ﴿ما﴾ في هذه الآية لما يعقل، قال الزجاج: قوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ يعمُّ ملائكة السماءِ وما في السحاب وما في الجوِّ من حيوان، وقوله: ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ بيِّن، ثم ذكر ملائكة الأَرض في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ هو الذي يَعُمُّ ملائكة السموات والأَرض، وما قبل ذلك لا يدخل فيه مَلَك، إِنما هو الحيوان أَجمع. وقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يحتمل معنَيَيْن: أَحدهما الفوقية التي يوصف الله بها تعالىٰ، فهي فوقيَّة القَدر والعظمة والقهر والسلطان، والآخر أَن يتعلق قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ بقوله: ﴿يَخَافُونَ﴾، أَي: يخافون عذاب ربهم من فوقهم، وذلك أَن عادة عذاب الله للأُمم إِنما يأْتي من جهة فوق. وقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، أَمَّا المؤمنون فبحسب الشرع والطاعة، وأَما غيرهم من الحيوان فبالتسخير والقَدَر الذي يسوقهم إِلى ما تقدم من أَمر الله تبارك وتعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ نهيٌ من الله تبارك وتعالىٰ عن الإِشراك به، ومعناها: لا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنين فصاعداً بما ينصه قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، قالت فرقة: المفعول الأَول لـ ﴿تَتَّخِذُوا﴾ قوله: ﴿[إِلٰهَيْنِ]﴾ وقوله: ﴿اثْنَيْنِ﴾ تأْكيدٌ وبيانٌ بالعدد، وهذا معروف في كلام العرب، أَن يبيَّن المعدود بذكر عدده تأْكيداً، ومنه قوله: ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾(١)، لأَن لفظة الإِلـه تقتضي الانفراد، وقال قومٌ منْهم: المفعول الثاني محذوف، تقديره: مفرداً، أَو معبوداً، أَو مطاعاً، ونحو هذا، وقالت فرقة:

= ومُنْحَجر بتقديم الحاء على الجيم».

(١) ورد ذلك في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، وتكرر ذلك في القرآن الكريم مرات كثيرة.

المفعول الأول قوله: [ٱثْنَيْنِ]، والثاني قوله: [إِلَـٰهَيْنِ]، وتقدير الكلام: لا تتخذوا اثنين إلـٰهين، ولا يحتاج إلى اعتذار بالتأكيد، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[1]، ففي هذه الآية ـ على بعض الأقوال ـ تقديم المفعول الأول لـ [تَتَّخِذُوا]، وقوله: [فَإِيَّايَ] منصوب بفعل مضمر تقديره: فارهبوا إِيَّايَ فارهبون، ولا يعمل فيه الفعل الظاهر، لأنه قد عمل في الضمير المتصل به.

وقوله تعالىٰ: و﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ الآية، الواو في قوله: [وَلَهُ] عاطفة على قوله: ﴿إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وجائز أَن تكون واو ابتداءٍ[2]، و[مَا] عامة جميع الأشياءِ مما يعقل وما لا يعقل، والسموات هنا كل ما ارتفع من الخلق في جهة فوق، فيدخل فيه العرش والكرسي، و[ٱلدِّينُ]: الطاعة والمُلك كما قال زهير:

. . . . في دين عَمْرٍو وحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ[3]

في طاعته وملكه. و«الواصِبُ»: الدائم، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقال الشاعر:

لا أَبْتَغِي الْحَمْدَ القَلِيلَ بقاؤُهُ يَوْماً بِذَمِّ الدَّهْرِ أَجْمَعَ واصِبا[4]

---

(١) من الآيتين (٢ و٣) من سورة (الإسراء).

(٢) قال أبو حيان في البحر تعقيباً على ذلك: «لا يقال واو ابتداءٍ إلا لواو الحال، ولا يظهر هنا الحال، فهي عاطفة على الخبر، أو على الجملة بأسرها، أو تكون الجملة في تقدير المفرد».

(٣) هذا عجز بيت، وهو بتمامه مع بيت آخر بعده:

لَئِنْ حَلَلْتِ بِجَوٍّ في بَنِي أَسَدٍ في دِينِ عَمْرٍو وحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ
لَيَأْتِيَنَّكِ مِنِّي مَنْطِقٌ قَذِعٌ بَاقٍ كَمَا دَنَّسَ القِبْطِيَّةَ الوَدَكُ

وفَدَك بالتحريك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل: ثلاثة، أفاءَها الله على رسوله ﷺ صلحاً، والشَّاهد أن «الدِّين» هنا بمعنى الطاعة، أي: في طاعة عمرٍو ومُلكه.

(٤) البيت لأبي الأسود الدُّؤَلي، وقد استشهد به القرطبي، والشطر الثاني فيه: (بِذَمِّ يكون الدَّهْرَ أجمعَ واصباً)، ثم قال: وأنشد الغزنوي والثعلبي وغيرهما:

مـا أبتغي الحَمْدَ القَلِيلَ بَقَاؤُهُ يَوْماً بِذَمِّ الدَّهْرِ أَجْمَعَ وَاصِبَا

وهي كرواية ابن عطية ما عدا (ما)، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن، واستشهد به الطبريّ أيضاً، والرواية فيهما كرواية ابن عطية. والشاهد فيه أن (واصب) تأتي بمعنى (دائم).



ومنه قول حسّان بن ثابت:

غَيَّرَتْهُ الرِّيحُ تَسْفِي بِهِ وهَزِيمٌ رَعْدُهُ وَاصِبُ[1]

وقالت فرقة: هو من الوصَب وهو التعب: أَي: وله الدِّين على تعبه ومَشَقَّتِهِ، فـ «واصب» ـ على هذا ـ جارٍ على النسب، أَي: ذَا وَصَبٍ، كما قال:

. . . . أَضْحَى فُؤَادِي بِهِ فاتِنا[2]

وهذا كثير، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً: الواصِبُ: الواجب، وهذا نحو قوله: الواصب: الدائم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ توبيخ في لفظ استفهام، ونصب ﴿غَيْرَ﴾ بـ ﴿تَتَّقُونَ﴾، لأنه فعل لم يعمل في سوى [غَيْر] المذكورة.

والواو في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم﴾ يجوز أَن تكون واو ابتداءٍ، ويجوز أَن تكون واو الحال ويكون الكلام متصلاً بقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾، كأَنه يقول على جهة التَّوبيخ: أَتَتَّقُون غير الله ولا يُنْعِم عليكم سواهُ؟ والباءُ في قوله: [بِكُمْ] متعلقة بفعل تقديره: وما نزَلَ أَو أَلَمَّ، ونحو هذا، و﴿مَا﴾ بمعنى «الذي»، والفاءُ في قوله: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ دخلت بسبب الإبهام الذي في ﴿مَا﴾ التي هي بمعنى «الذي»، فأَشبه الكلام الشرط[3]، ومعنى الآية التذكير بأَن الإنسان في جليل أَمره ودقيقه إِنما هو في نعمة الله

---

(١) هو البيت الثاني من قصيدة، وقبله المطلع، وهو:

قَدْ تَعَفَّى بَعْدَنَا عَاذِبُ مَا بِهِ بَادٍ وَلا قَارِبُ

وتَسْفي به: تحمل إليه التراب، والهزيم: السحاب المتشقق بالمطر، يقول: لقد غَيَّرَ هذا المكان ما حملته الريح إليه من التراب، وما ساق السحابُ من مطر دائم الرَّعْد.

(٢) هذا جزء من عجز بيت ذكره في (اللسان ـ فتن) شاهداً على أن (فَاتِناً) تأتي بمعنى (مُفْتَتِن)، والبيت بتمامه كما في اللسان:

رَخِيمُ الكَلامِ قَطِيعُ القِيَا مِ أَمْسَى فُؤَادِي بِهِ فَاتِنَا

وابن عطية يستشهد به على أن المعنى: ذَا فِتْنَة، أو ذَا فُتُون، ونلحظ أن رواية اللسان: «أَمْسَى» ورواية المؤلف: «أَضْحَى».

(٣) هذا هو رأي الفراءِ، قال في (معاني القرآن): «[ما] في معنى جزاءٍ، ولها فعل مضمر، كأنك قلتَ: ما يكن بكم من نعمة فمن الله؛ لأن الجزاءَ لا بُدَّ له من فعل مجزوم، إن ظهر فهو جزم، وإن لم يظهر=

وأَفضاله، إيجاده داخل في ذلك فما بعده، ثم ذكَر تعالىٰ بأَوقات المرض لِكَوْن الإنسان الجاهل يُحِسُّ فيها قدر الحاجة إلى لطف الله، و«الضُّرُّ» ـ وإن كان يعُمُّ كل مكروه ـ فأكثرُ ما يجيءُ عبارة عن أرزاءِ البدن. و[تَجْأَرُونَ] معناه ترفعون أَصواتكم باستغاثة وتضرع، وأَصله من جؤار الثور والبقرة وصياحهما، وهو عند جهد يلحقهما، أَو في أَثر دَمٍ يكون من بقر يُذبح، فذلك الصراخ يشبه به انتحاب الداعي المستغيث بالله إذا رفع صوته، ومنه قول الأَعشى:

يُـــرَاوِحُ مِـــنْ صَلَـــوَاتِ الْمَلِيـ ... ـكِ طَوْراً سُجُوداً وَطَوْراً جُؤَارَا[1]

وأَنشد أَبو عبيدة:

. . . . بِـأَبِيـلٍ كُلَّمَـا صَلَّـى جَـأَرْ[2]

= فهو مضمر، كما قال الشاعر:

إنِ العَقْـلُ فـي أَمْـوَالِنَـا لا نَضِـقْ بِـهِ ... ذِرَاعـاً وإنْ صَبْـراً فَنَعْـرِفُ لِلصَّبْـرِ

أراد: «إن يكن» فأضمرها، ولو جعلت ﴿ما بكم﴾ في معنى (الذي) جاز، وجعلت صلته [بكُمْ] و[ما] حينئذ في موضع رفع بقوله: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وأدخل الفاءَ كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾، وكل اسم وصل مثل (من) و(ما)، و(الذي) فقد يجوز دخول الفاءِ في خبره؛ لأنه مضارع للجزاءِ، والجزاءُ قد يجاب بالفاء». وقد ناقشه أبو حيان في إضمار الفعل، وقال: إن هذا ضعيف جداً، ولا يجوز إلا بعد (إنْ) وحدها في باب الاشتغال، واستشهد على ذلك فارجع إليه (٥ـ٥٠٢) إن شئت.

(١) هذا البيت من قصيدة للأعشى يمدح بها قيس بن معديكرب، وقبله يقول:

وَمَـــا أَيْبُلِـــيٌّ عَلَـــى هَيْكَـــلٍ ... بَنَـــاهُ وَصَلَّـــبَ فِيـــهِ وصَـــارا

والأَيْبُلِيُّ: الراهب: أو رئيس الرهبان، أو الذي حرَّم على نفسه النساءَ، والهيكل: مكان في صدر الكنيسة يقدم فيه القربان، وصَلَّب: صوَّر صورة الصَّليب، وصَارَ: صوَّر كما قال في اللسان عن أبي عليٍّ الفارسي، والمراد أنه رَسَمَ صورة الصليب بيده فأشار إلى جبهته فقلبه، ثم إلى صدره يسرة ويمنة، والمراوحة: المداولة بين الأمرين أو العملين، يفعل هذا مرَّة، وذاك مرة، وهما هنا السجود والجؤار، وجأر رفع صوته بالدعاءِ والاستغاثة، والمعنى الذي يقوله الأعشى هو: إن الراهب المتبتل الضارع إلى الله في الهيكل المقدس أمام الصليب، الدائب على السجود والاستغاثة والتضرع إلى الله ـ ليس بأعظم منه ولا أكثر تقى. . . وخبر (ما) يأتي في بيتٍ تالٍ لهذا حيث يقول:

بِـأَعْظَـمَ مِنْـهُ تُقـىً فـي الحِسَـابِ ... إذا النَّسَمَـــاتُ نَفَضْـــنَ الغُبَـــارَا

(٢) هذا عجز بيت قاله عديُّ بن زيد، والبيت بتمامه:

إنَّنِـــي واللهِ فـــاسْمَـــعْ حَلِفِـــي ... بِـــأَبِيـــلٍ كُلَّمَـــا صَلَّـــى جَـــأَرْ =



والأَصوات تأْتي غالباً على فُعال أَو فَعِيل. وقرأَ الزهري [تَجَرونَ] بفتح الجيم دون همز، حذفت وأُلقيت حركتها على الجيم، كما خُفِّف تَسَلُون من تَسْأَلُون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾، قرأَ الجمهور: (كَشَفَ)، وقرأَ قتادة: [كَاشف]، وَوَجْهُهَا أَنه فاعل من واحد بمعنى «كشف»، وهي ضعيفة. و«الفريقُ» هنا يراد به المشركون الذين يرون أَن للأَصنام أَفعالاً من شفاءِ المرضى وجلب الخير ودفع الضر، فهم إِذا شفاهم الله عظموا أَصنامهم وأَضافوا ذلك الشِّفَاءَ إِليها.

وقوله تعالىٰ: (لِيَكْفُرُوا) يجوز أَن تكون اللام لام الصيرورة، أَي: فصار أَمرهم ليكفروا، وهم لم يقصدوا بأَفعالهم تلك أَن يكفروا، ويجوز أَن تكون لام أَمرٍ على معنى التهديد والوعيد، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[1]، والكفر هنا يحتمل أَن يكون كفر الجحد بالله والشرك، ويؤيده قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، ويحتمل أَن يكون كفر النعمة، وهو الأَظهر؛ لقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ﴾، أَي: بما أَنعمنا عليهم. وقرأَ الجمهور: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ على معنى: قل لهم يا محمد، وروى أَبو رافع عن النبي ﷺ: [فيُمتَّعوا فسوف يعلمون] بياءٍ من تحت مضمومة، و[فسوف يعلمون] على معنى ذكر الغائب، وكذلك في الروم[2]، وهي قراءَةُ أَبي العالية، وقرأَ الحسن: [فَتَمَتَّعُوا] كالجماعة على الأَمر [فسوف يعلمون] بالياءِ على ذكر الغائب، كقراءَة أَبي رافع، فيكون [يُمَتَّعُوا] في قراءَة أَبي رافع في موضع نصب عطفاً على [يَكْفُرونَ] إِن كانت اللام لام (كَيْ)، ونصباً بالفاء في جواب الأَمر إِن كانت لام الأَمر، ومعنى «التَّمَتُّعْ» في هذه الآية: بالحياة الدنيا التي مصيرها إِلى الفناءِ والزوال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ

= والأَبِيلُ بوزن أَمِير: الراهب، وهو الأَيْبُلِيُّ والأَيْبُل ـ على خلاف بين اللغويين ـ وفي الحديث: «كان عيسى بن مريم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ يُسَمَّى أَبِيلَ الأَبِيلِين»، وقد سُمِّي الراهب بذلك لتأَبُّلِهِ عن النساءِ وترك غشيانهن، والفعل منه: أَبَلَ يأْبُلُ أَبَالَةً إذا تنَسَّك وترهب.

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فُصِّلت).

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (٣٤): ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

الضمير في ﴿يَجْعَلُونَ﴾ للكفار، ويريد بـ ﴿ما لا يَعْلَمُون﴾ الأصنام، أي: لا يعلمون فيها حجة ولا برهاناً، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ الأَصنام، أي: يجعلون للجمادات ـ وهي لا تعلم شيئاً ـ نصيباً، فالمفعول محذوف، ثم عبَّر عنهم بعبارة من يعقل بحسب مذهب الكفار الذين يسندون إليها ما يُسند إلى من يعقل، وبحسب أنه إسناد منفيٌّ، وهذا الاحتمال كله ضعيف. و«النصيب» المشار إليه هو ما كانت العرب سنَّتْه من الذبح لأصنامها، والإهداءِ إليها، والقسم لها من الغلات.

ثم أَمر الله تبارك وتعالىٰ نَبِيَّه عليه الصلاة والسلام أَن يُقْسم لهم أَنهم سَيُسْأَلون عن افترائهم في أَن تلك السُّنَن هي الحق الذي أَمر الله به كما قال بعضهم، و«الفِرْية» اختلاقُ الكذب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ الآية. هذا تعديد لقبيح قول الكفار: «الملائكة بناتُ الله»، ورَدَّ عليهم من وجهين: أَحدهما نِسْبَة النسل إِلى الله تعالىٰ عن ذلك، والآخر أَنهم نسبوا من النسل الأَخسَّ المكروه عندهم، و[مَا] في قوله: ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾ مرتفعة بالابتداءِ، والخبر في المجرور، وأَجاز الفراءُ أَن تكون في موضع نصب عطفاً على ﴿الْبَنَاتِ﴾[1]، والبصريون لا يجيزون هذه الآية من باب: ضربني، وكان يلزم عندهم أَن يكون: «ولأَنفسهم ما يشتهون»، والمراد بـ ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾ الذُّكْران من الأَولاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ الآية. لما صرَّح بالشيءِ المبَشَّر به حسُن ذكر البشارة فيه، وإِلاَّ فالبشارة مطلقةً لا تكون إِلاَّ في خير. وقوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ عبارة عن العبوس والقطوب الذي يلحق وجه المغموم، وقد يعلو وجه المغموم سواد

---

(١) هذا رأي الفراءِ والحوفي، ووافقهما عليه الزمخشري، وقال أبو البقاء: «ذهل هؤلاء عن قاعدة في النحو، وهي أن الفعل الرافع لضمير الاسم المتصل لا يتعدَّى إلى ضميره المتصل المنصوب، فلا يجوز: «زيد ضربه زيد» تريد: ضرب نفسه، إلا في باب ظنَّ وأخواتها من الأفعال القلبية، أو (فَقَدَ) و(عَدِمَ)، فيجوز: «زيد ظنه قائماً، وزيد فَقَده، وزيد عَدِمَه»، والضمير المجرور بالحرف كالمنصوب المتصل، فلا يجوز: «زيد غضب عليه» تريد: غضب على نفسه، فعلى هذا الذي تقرر لا يجوز النصب؛ إذ يكون التقدير: ويجعلون لهم ما يشتهون». انتهى كلام أبي البقاء، وعلَّق عليه أبو حيان الأندلسي في البحر بقوله: «وفيه نظر».



وزبد، وتذهب شراقته، فلذلك يذكر له السَّواد. و[كَظِيمٌ] بمعنى كاظِم كعليم وعالم، والمعنى أنه يُخفي وجهه وهَمَّه بالأنثى.

وقوله: ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ الآية، هذا التواري الذي ذكره الله تعالىٰ إنما هو بعد البشارة بالأُنثى، وما يحكى أَن الرجل منهم كان إِذا أَصاب امرأَته الطَّلْق؛ توارى حتى يُخبَر بأَحد الأَمرين. فليس المراد في الآية. ويُشْبه أَن ذلك كان لكي: إِنْ أُخْبر بسَارٍّ خرج، وإِنْ أُخبر بِسُوءٍ بَقِي على تواريه ولم يحتج إِلى إِحداثه. ومعنى ﴿يَتَوَارَىٰ﴾: يتغيب، وتقدير الكلام: يَتَوارى من القوم مدبراً، أَيُمْسكه أم يدُسُّه ؟ وقرأَت فرقة ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ على لفظ ﴿ما﴾، [أم يَدُسُّها] على معنى الأُنثى. وقرأَ الجحدري: [أَيُمْسِكُهَا]، [أم يَدُسُّها] على معنى الأُنثى في الموضعين. وقرأَ الجمهور: ﴿ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ بضم الهاءِ، وقرأَت فرقة بفتحها، وقرأَ عيسى بن عمر: [على هوان] وهي قراءَة عاصم الجحدري، وقرأَ الأَعمش: [عَلَى سُوءٍ]، ومعنى الآية: يُدَبِّر: أَيُمْسك هذه الأُنثى على هوان يتحمله، وهمٌّ يتخلد له، أَم يَئِدُها فيدفنها حيَّة، فهو الدَّسُّ في التراب. ثم استفتح الله تعالىٰ الإِخبار عن سوءِ فعلهم وحكمهم بهذا في بناتهم ورزق الجميع على الله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

قالت فرقة: ﴿مَثَلُ﴾ هنا بمعنى صفة، أَي: لهؤلاءِ صفة السوءِ، ولله الوصف الأَعلى، وهذا لا نَضطر إِليه؛ لأَنه خروج عن اللفظ، بل قوله: ﴿مَثَلُ﴾ على حاله، وذلك أَنهم إِذا قالوا: «إِن البنات لله» فقد جعلوا له مثلاً فالبنات من البشر، وكثرة البنات عندهم مكروه ذميم، فهو المثل السوءِ الذي أَخبر الله تعالىٰ أَنه لهم وليس في البنات فقط، لكن لما جعلوه هم في البنات جعله هو لهم على الإِطلاق في كل سوءٍ، ولا غاية بعد عذاب النار.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ على الإطلاق أيضاً، أي: الكمال المستقر[١]، وقال قتادة: المثل الأعلى: لا إله إلاَّ الله. وباقي الآية بيِّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ الآية. [يُؤَاخِذُ] هو يُفَاعِل من أَخَذ، كأن أحد المؤاخذين يأخذ من الآخر مأخذاً كما هي في حق الله تعالىٰ، أو بإذاية من جهة المخلوقين، فيأخذ الآخر من الأول بالمعاقبة والجزاءِ، وهي لغتان: وَاخَذَ، وآخَذَ، ويُؤَاخذ يصح أن تكون من آخَذ، وأما كونها من واخذ فبيِّن، والضمير في [عَلَيْهَا] عائد على الأرض، ويمكن ذلك مع أنه لم يجر لها ذكر لشهرتها، ويمكن الإشارة إليها كما قال لبيد في الشمس:

حَتَّـى إذا أَلْقَـتْ يَـداً فـي كَـافِـرٍ وَأَجَـنَّ عَـوْرَاتِ البِـلاَدِ ظَـلاَمُهَـا[٢]

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[٣]، ولم يجر للشمس ذكر. وقوله: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾، [مِنْ] دخلت لاستغراق الجنس، وظاهر الآية أن الله تعالىٰ أخبر أنه لو آخذ النَّاسَ بعقابٍ يستحقونه بظلمهم في كفرهم ومعاصيهم لكان ذلك العقاب يهلك عنه جميع ما يدب على الأرض من حيوان، فكأنه بالقحوط أو بأمر يصيبهم من الله تعالىٰ، وعلى هذا التأويل قال بعض العلماءِ: كاد الْجُعَل[٤] أن يهلك بذنوب بني آدم، ذكره الطبريُّ، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالىٰ لَيُهْزِل الحوتَ في الماءِ والطير في الهواءِ بذنوب العصاة»[٥]، وسمع أبو هريرة رجلاً يقول: «إن الظالم لا يهلك إلاَّ

---

(١) في إحدى النسخ: الكمال المستغني.

(٢) هذا البيت من معلقة لبيد، ومعنى «ألقت يداً في كافر» بدأت في المغيب، والكافر هو الليل، وذلك لأنه يكفر كل شيءٍ، أي يغطيه ويستره، وأَجَنَّ: سَتَر، وفي الديوان: «عورات الثغور» بدلاً من «البلاد»، والثغور: جمع ثغر وهو الموضع الذي تأتي المخافة منه: لأنه على الحدود مع الأعداءِ.

(٣) من الآية (٣٢) من سورة (صٓ). ومثل هذه الآية وبيت لبيد في رجوع الضمير إلى غير مذكور قولُ حاتم الطائي:

أَمَـاوِيَّ مـا يُغْنـي الثَّـراءُ عـن الْفَتَـى إذا حشْرَجَتْ يَوْماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

إذ يعني بقوله: «حشرجت وضاق بها» النَّفسَ، ولم يجر لها ذكرٌ قبلُ.

(٤) الجُعَل: حيوان كالخنفساءِ يكثر في المواضع الندية وقد نقل الطبري هذا الكلام عن أبي الأحوص.

(٥) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مراجع.



نفسه»، فقال أَبو هريرة: «إِن الله ليهلك الحبارى في وكورها هُزالاً[1] بذنوب الظلمة»، وقد نطقت الشريعة في أَخبارها بأَن الله أَهلك الأُمم برَّها وعاصيها بذنوب العصاة منهم.

وقالت فرقة: قوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ يريد: من أُولئك الظلمة فقط، ويدلُّ على هذا التخصيص أَن الله تعالىٰ لا يعاقب أَحداً بذنب أَحد، واحتجت بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2]، وهذا كلُّهُ لا حجة فيه؛ وذلك أَن الله تعالىٰ لا يجعل العقوبة تقصد أَحداً بسبب إِذْناب غيره، ولكنه إِذا أَرسل عذاباً على أُمة عاصية لم يمكن البريء التخلص من ذلك العذاب، فأَصابه العذاب لا بأَنه له مجازاة، ونحو هذا قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[3]، وقيل للنبي ﷺ: أَنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إِذَا كَثُرَ الخبث»[4]. ثم لا بدَّ من تعلق ظلم ما بالأَبرياءِ؛ وذلك بترك التغيير ومداجنة أَهل الظلم ومداومة جوارهم، و«الأَجَلُ ٱلْمُسَمَّى» في هذه الآية هو بحسب شخصٍ شخص، وفي معنى الآية ضمائر كثيرة تركتها اختصاراً وإِيجازاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ يريد البنات، و﴿ما﴾ في هذا الموضع تقع لمن يعقل من حيث هو صنف، وقرأَ الحسن: [أَلْسِنَتْهم ٱلْكَذِبَ] بسكون النون خوفاً من توالي الحركات. وقرأَ الجمهور: ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بكسر الذال وفتح الباءِ، فـ﴿أَنَّ﴾ بدلٌ منه، وقرأَ معاذ بنُ جبل رضي الله عنه وبعض أَهل الشام بضم الكاف والذال والباءِ على صفة الأَلسنة، و﴿أَنَّ﴾ مفعولةٌ بـ﴿تَصِفُ﴾. و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يريد المذكور من الأَولاد، وهو الأَسبق من معنى الآية، وقالت فرقة: يريد الجَنَّة، ويؤيد هذا قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، ومعنى الآية على هذا التأْويل: يجعلون لله المكروه ويدَّعون مع ذلك أَنهم يدخلون الجنَّة، كما تقول لرجل: أَنت تعصي الله وتقول ـ مع ذلك ـ إِنَّكَ

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، والبيهقي في الشُّعَب. (الدر المنثور).

(٢) من الآية (١٦٤) من سورة(الأنعام).

(٣) من الآية (٢٥) من سورة (الأنفال).

(٤) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، ومالك في الموطأ، والإمام أحمد (٦ـ٤٢٨، ٤٢٩)، ولفظه كما رواه البخاري في الفتن: «عن زينب بنت أُمّ سلمة، عن أُمّ حبيبة، عن زينب بنة جحش رضي الله عنهن أنها قالت: استيقظ النبي ﷺ من النوم مُحْمَرّاً وجهه يقول: لا إلـه إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج، مثل هذه ـ وعقد سفيان تسعين أو مائة ـ قيل: أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث».

تنجو، أي: إنَّ ذلك لبعيد مع هذا، ثم حكم عليهم بعد ذلك بالنار، وقد تقدم القول في ﴿لَاجَرَمَ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بفتح الهمزة، وإعرابها بحسب تقدير ﴿جَرَمَ﴾، فمن قَدَّرَها بـ «كسب فعلهم» فهو نصب، ومن قدرها بـ «وجب» فهو رفع، وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر: [إنَّ] بكسر الهمزة، وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ بفتح الراءِ خفيفة، ومعناه: مقدمون إلى النار والعذاب، وهي قراءَة الحسن، والأعرج، وأصحاب ابن عباس، وقد رُويت عن نافع، وهو مأخوذ من «فرط الماءِ»، وهم القوم الذين يتقدمون إلى المياه لإصلاح الدِّلاءِ والأَرشاءِ[1]، ومنه قول النبي ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض»[2]، ومنه قول القطاميّ:

واسْتَعْجَلونَا وكانوا مِن صَحَابَتِنَا كَمَا تَعَجَّلَ فُرَّاطٌ لِوُرَّادِ[3]

وقالت فرقة: ﴿مُفْرَطونَ﴾ معناه: مُخَلَّفون متروكون في النار مَنْسِيُّون فيها، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن هند، وقال آخرون: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ معناه: مُبعدون في النار، وهذا قريب من الذي قبله، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [مُفَرِّطونَ] بكسر الراءِ وتشديدها وفتح الفاءِ، ومعناه: مُقَصِّرون في طاعة الله تبارك وتعالىٰ، وقد رُوي فتح الرَّاءِ مع شدِّها، وقرأَ نافع وحده: [مُفْرِطُونَ] بكسر الراءِ وخفتها، وهي قراءَة ابن مسعود، وابن عباس، وأَبي رجاءِ، وشيبة بن نصاح، وأَكثر أَهل المدينة، أَي: متجاوزون للحدِّ في معاصي الله.

---

(١) جمع رشاءٍ، وهو الحبل، أو حبل الدَّلْو ونحوها.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق والفتن، ومسلم في الطهارة والإمارة، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده (١ـ٢٥٧، ٣٨٤، ٤٠٢)، ولفظه كما في البخاري ـ كتاب الرقاق ـ «عن عتبة بن عامر أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أُحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: إنِّي فَرَطٌ لكم، وأنا شهيد عليكم، وإنِّي والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإنِّي والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها».

(٣) رواية الديوان «فاستعجلونا» بالفاء، ومعناها: أعجلونا، يريد أنهم تقدمونا، والفُرَّاط: الذين يتقدمون الوُرَّاد فيصلحون الحبال والدلاءَ، وقد ذكره في اللسان، قال: فَرَطَ القوم يفرطهم فرطاً (من باب قتل) وفراطة: تقدمهم إلى الورد لإصلاح الأرشية والدلاءِ ومدر الحياض والسقي فيها، ثم ذكر البيت. والرواية فيه (تقدم) بدلاً من (تعَجَّل)، وفي الصحاح (تَعَجَّل).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾.

هذه آية ضرب مثل لهم بمن تقدم، وفي ضمنها وعيد لهم وتأنيس للنبي ﷺ، وقوله: [ٱلْيَوْم] يحتمل أن يريد به يوم الإخبار بهذه الآية، وهو بعد موت أُولئك الأمم المذكورة، أَي: لا وليَّ لهم مذ ماتوا واحتاجوا إلى الغوث إلا الشيطان، ويحتمل أن يريد يوم القيامة، والألف واللام فيه للعهد، أَي: هو وليُّهم في اليوم المشهود، وهو وقت الحاجة والفصل، ويحتمل أن يريد: فهو ولِيُّهم مدة حياتهم ثم انقطعت ولايته بموتهم، وعبَّر عن ذلك بقوله: [ٱلْيَوْمَ] تمثيلاً للمخاطبين بمدة حياتهم، كما تقول لرجل شابٍّ تحضُّه على طلب العلم: يا فلان لا يدرس أَحد من الناس إلا اليوم، تريد: في مثل سنك هذه، فكأَنه قال لهؤلاءِ: فهو وليُّهم في مثل حياتكم هذه، وهي التي كانت لهم، وسائر الآية وعيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يريد القرآن، وقوله: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ﴾ في موضع المفعول من أَجله، وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ عطف عليه، كأَنه قال: إلا للبيان، أَي لأَجل البيان، وقوله: ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ لفظ عام لأَنواع كفر الكفرة من الجحد بالله تعالىٰ وبالقيامة، أَو بالنُّبُوَّات وغير ذلك، ولكن الإشارة في هذه الآية إنما هي لجحدهم الربوبية، وتشريكهم الأَصنام في الإلـٰهية، يدل على ذلك أَخذه بعد هذا في إثبات العِبَر الدَّالة على أَن الأَنعام وسائر الأَفعال إنما هي من الله تعالىٰ لا من الأَصنام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الآية. لما أَمره تبيين ما اختلف فيه نصَّ العِبَر المؤدية إلى بيان أَمر الربوبية، فبدأَ بنعمة المطر التي هي أَبين العبر، وهي ملاك الحياة، وفي غاية الظهور، لا يخالف فيها عاقل، وحياة الأَرض وموتها استعارة وتشبيه بالحيوان؛ إذ هي هامدة غبراءُ غير مُنْبِتة فهي كالميت، وإذ هي مُنْبتة مخضرَّة مهتزَّة رابية فهي كالحيِّ. وقوله: [يَسْمَعُونَ] يدل على ظهور هذا المعتبر فيه وبيانه؛ لأَنه لا يحتاج

إلى تفكُّر ولا نظر قلب، وإنما يحتاج المنبه إلى أن يسمع القول فقط.

و[ٱلأَنْعَام] هي الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز، و«العِبْرَةُ»: الحال المعتبر فيها، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ وابن مسعود ـ بخلاف ـ والحسن، وأهل المدينة: [نَسْقِيكُم] بفتح النون، من أَسْقَا يسقي، وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم بضم النون، وهي قراءَة الكوفيين وأهل مكة، وقال بعض أهل اللغة: هما لغتان بمعنى واحد، وقالت فرقة: تقول لمن سقيته بالشَّفة أو في مرة واحدة: سَقَيْتُه، وتقول لمن تُمِرُّ سَقْيه أو تمنحه شرباً: أَسْقَيْتُهُ، وهذا قول من قرأ: [نَسْقِيكُم]، لأن ألبان الأنعام من المُسْتَمِرِّ للبشر، وأنشد من قال: «إنهما لغتان بمعنى» قولَ لبيد:

سَقَى قَوْمي بني بَدْرٍ وأَسْقَى ... نُمَيْراً والقَبائِلَ مِن هِلاَلِ[1]

وذلك لازم؛ لأنه لا يدعو لقومه بالقليل. وقرأ أبو رجاءٍ: [يَسْقِيكُم] بالياءِ، أي: يسقيكم الله، وقرأت فرقة: [تَسْقِيكُم] بالتاءِ، وهي ضعيفة، وكذلك اختلف القراءُ في سورة «المؤمنون»[2]، وقوله: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس، وعلى المذكور، كما قال الشاعر:

* مِثْلُ الْفِرَاخِ نُتِفَتْ حَوَاصِلُهْ *[3]

---

(١) البيت من قصيدة له يصف فيها حيوان الصحراء، ويعاتب قومه لأنهم أسلموا قيادهم إلى رجل سيىء الخليقة، وأبعدوا عن شيمهم، وسَقَى وأَسْقَى بمعنى واحد، والرواية في الديوان، وفي لسان العرب: «بنى مَجْدٍ»، ومَجْد اسم امرأة هي ابنة تيم بن غالب، وهي أُمُّ كلاب وكليب ابني ربيعة بن عامر، وبسببها عُدَّ بنو عامر من الحُمْس؛ لأنها قرشية، والضمير في «سَقَى وأَسْقَى» يعود على بَرِيقٍ في سحاب ألقى ماءه على كل البقاع، وقد ذكره في الأبيات السابقة، وبدأها بقوله:

أصاحِ تَرَى بريقاً هَبَّ وَهْناً ... كَمِصْبَاحِ الشَّعِيلَةِ في الذُّبَالِ

(٢) في قوله تعالى في الآية (٢١) من سورة (المؤمنون): ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾.

(٣) ورد هذا الشاهد في كل من (اللسان ـ نعم)، و«الطبري»، و«البحر المحيط»، و«معاني القرآن» فقد جاءت «نُتِفَتْ» بمعنى: سمنت وبرزت وارتفعت، وقد علّق محقق (اللسان) طبعة دار المعارف بالقاهرة على الرواية الأولى وقال: هو خطأ صوابه «نَتَقَتْ» بالقاف وبالبناء للفاعل، كما في التهذيب. وفي اللسان: قال الكسائي في قوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾: أراد في بطون ما ذكرنا، ومثله قوله: مثل الفراخ... إلخ أي: حواصل ما ذكرنا. وقال الفراءُ في «معاني القرآن»: «ولم يقل بطونها والأنعام مؤنثة؛ لأنه ذهب به إلى النَّعَم والنَّعَم ذَكَر، وإنما ذهب به إلى واحدها لأن الواحد يأتي في المعنى على=



وهذا كثير، كقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[1]، وقيل: إنما قال: ﴿بُطُونِهِۦ﴾ لأن الأنعام والنَّعَم واحد فردٌ، والضمير على معنى النَّعَم، وقالت فرقة: الضمير عائد على «البعض»؛ لأن الذكور لا أَلبان فيها، فكأن العبرةَ إنما هي في بعض الأَنعام. و«الْفَرْثُ»: ما ينزل إلى الأمعاءِ، و«السَّائِغُ»: المُسَهَّل في الشرب اللَّذيذُ، وقرأَت فرقة: «سيِّغاً» بشدِّ الياءِ، وقرأَ عيسى الثقفي: «سَيْغاً» بسكون الياءِ، وهي تخفيف من «سَيِّغ» كمَيْتٍ وهَيْنٍ، وليس وزنها فِعْلاً؛ لأن اللَّفظة واوية، فَفَعْل منها «سَوْغ»، ورُوي أن اللبن لم يشرق به أَحد قط، روي ذلك عن النبي ﷺ[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦٧ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾.

قال الطبريُّ: التقدير: ومن ثمرات النخيل والأَعْناب ما تتخذون. وقالت فرقة: التقدير: ومن ثمرات النخيل والأَعناب شيءٌ تتخذون منه، ويجوز أَن يكون قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ﴾ عطفاً على ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أَي: ولكم من ثمرات النخيل والأَعناب عبرة، ويجوز أَن يكون عطفاً على ﴿مِّمَّا﴾، أَي: ونسقيكم أَيضاً مشروبات من ثمرات.

= معنى الجمع»، ثم استشهد بنماذج من الشعر العربي منها هذا الشاهد، ومثله قول الأسود بن يَعْفُر:

إنَّ المَنِيَّـةَ والْحُتُـوفَ كـلاهُمَـا ... يـوفـي الْمَخَـارِمَ يَـرْقُبَـانِ سَـوَادي

فقال: كلاهما، ولم يقل: كلتاهما، وقول الصَّلَتان العَبْديِّ:

إنَّ السَّمَـاحَـةَ والمُـرُوءَةَ ضُمِّنَـا ... قَبْـراً بِمَـرْوَ عَلَـى الطَّـرِيـقِ الْـوَاضِـحِ

وذلك لأنه قال: ضُمِّنَا، ولم يقُل: ضُمِّنَتَا، وقول الآخر:

وعَفْـرَاءُ أَدْنَـى النَّـاسِ مِنِّـي مَـوَدَّةً ... وعَفْـرَاءُ عَنِّـي المُعْـرِضُ المُتَـوَانـي

إذ قال: المعرض المتواني، ولم يقل: المعرضة المتوانية.

(١) الآيتان (١١ و١٢) من سورة (عبس).

(٢) أخرج ابن مردويه، عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي كبشة، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «ما شرب أحدٌ لبناً فشرق»، إن الله يقول: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

و«السَّكَر»: ما يُسْكر، هذا هو المشهور في اللغة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر، وأَراد «بالسَّكَر» الخمر، و«بالرزق الحسن» جميع ما يُشرب ويؤكل حلالاً من هاتين الشجرتين، فالحَسَنُ ها هنا الحلالُ، وقال هذا القول ابن جبير، وإِبراهيم، والشعبي، وأَبو رزين، وقال الحسن بن أَبي الحسن: ذكر الله نعمته في السَّكَر قبل تحريم الخمر، وقال الشعبي، ومجاهد: السَّكَر: المايع من هاتين الشجرتين كالخَلِّ والرُّبِّ والنَّبيذ، والرزق الحسن: العنب والتمر، قال الطبري: والسَّكَر أَيضاً في كلام العرب: ما يطعم، ورجح الطبريُّ هذا القول. ولا يدخل الخمر[1] فيه، ولا نسخ من الآية شيءٌ، وقال بعض الفرقة التي رأَت السَّكر الخَمْرَ: إِن هذه الآية منسوخة بتحريم الخمر، وفي هذه المقالة دركٌ؛ لأَن النسخ إِنما يكون في حكم مستقر مشروع، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «حُرمت الخمر لعينها، والسَّكَرُ من غيرها»[2]، هكذا روي، والرواية الصحيحة بفتح السِّين والكاف، أَي: جميع ما يُسْكر منه حُرِّم على حدِّ تحريم الخمر قليله وكثيره، ورواه العراقيون و«السُّكْر» بضم السين وسكون الكاف، وهو مبني على فقههم من أَن ما أَسكر كثيره من غير خمر العنب فقليله حلال، وباقي الآية بيِّنٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ الآية. الوحي في كلام العرب إِلقاءُ المعنى من الموحِي إِلى الموحَى إِليه في خفاءٍ، فمنه الوحي إِلى الأَنبياءِ برسالة الملك، ومنه وحْي الرُّؤيا، ومنه وحْيُ الإِلهام وهو الذي ها هنا باتفاق المتأَوِّلين، والوحْيُ أَيضاً بمعنى الأَمر، كما قال تعالىٰ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[3]، وقرأَ يحيى بن وثاب: [إلى النَّحَلِ] بفتح الحاءِ، و﴿أَنِ﴾ في قوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ مفسِّرة. وقد جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة: إِمَّا في الجبال وكُواها، وإِمَّا في متجوّف الأَشجار، وإِمَّا فيما يعرش ابن

---

(١) في بعض النسخ «ولا يدخل الخبر فيه»، والمعنى بها غير صحيح، ولا يستقيم.

(٢) الحديث الذي رواه مسلم هو: «كلُّ شرابٍ أَسْكَر فهو حرام»، وكذلك «كلُّ شراب مُسْكر حرام»، وكذلك «كلُّ مسكر حرام»، وهذا يؤيد فهم المؤلف لهذا الحديث على رواية فتح السين مشددة وفتح الكاف، ومثل هذا ما أخرجه النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما «حرَّم الله الخمر، وكل مسكر حرام»، وفي القرطبي وغيره من الكتب مناقشة طويلة للمراد بالخمر، وجلَّة العلماء ينتهون إلى تحريم الخمر وكل مسكر سواء من ذلك القليل والكثير.

(٣) الآية (٥) من سورة (الزَّلْزلة).



آدم من الأَجْبَاح[١] والحيطان ونحوها. «وعَرَشَ» معناه: هيَّأَ، وأَكثرُ ما يستعمل فيما يكون من اتفاق الأَغصان والخشب وترتيب ظلالها، ومنه العريش الذي صُنِعَ لرسول الله ﷺ يوم بدرومن هذا هي لفظة العَرْشِ، ويقال: عَرَشَ يَعرِشُ ويَعرُشُ بكسر الراءِ وضمها، وقرأَ ابن عامر بالضم، وسائرهم بالكسر، واختلف عن عاصم، وجمهور الناس على الكسر، وقرأَ بالضم أَبو عبد الرحمن، وعُبَيْد بن نضلة، وقال ابن زيد في قوله: (يَعْرِشُونَ) قال: الكروم، وقال الطبري: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني: ما يبنون من السقوف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا منهما تفسير غير مُتْقن.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الآية. المعنى: ثم أَلْهمها أَن كُلِي، بعطف (كُلِي) على (اتَّخِذِي)، و[مِنْ] للتبعيض، أَي: كُلي جزءاً أَو شيئاً من كل الثمرات، وذلك أَنها إِنما تأْكل النَّوَّار من الأَشجار. و«السُّبُل»: الطُّرق، وهي مسالكها في الطيران وغيره، وأَضافها إِلى الرَّبِّ من حيث هي مِلْكه وخَلْقه، أَي: التي يسَّر لكِ ربُّكِ. وقوله: (ذُلُلاً) يحتمل أَن يكون حالاً من (النَّحْلِ)، أي: مطيعة منقادة لما يُسِّرت له، قاله قتادة، وقال ابن زيد: فهُمْ يخرجون بالنحل ينتجعون، وهي تتبعهم، وقرأَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ إِلى قوله: ﴿يَأْكُلُونَ﴾[٢]، ويحتمل أَن يكون حالاً من «السُّبُل»، أَيْ: مُسَهَّلَةً مستقيمة، قال مجاهد: لا يتوعَّر عليها سبيل تسلكه.

ثم ذكر تبارك وتعالىٰ ـ على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة ـ أَمْرَ العسل في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾، وجمهور الناس على أَن العسل يخرج من أَفواه النحل، وورد عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تحقيره للدنيا: «أَشرف لباس ابن

---

(١) الجُبْحُ بالجيم المثلثة: حيث تُعَسِّل النحل إذا كان غير مصنوع، والجمع: أَجْبُحٌ وجِبَاحٌ وجُبُوحٌ، وفي التهذيب: وأَجباحٌ كثيرة، وقيل: هي مواضع النحل في الجبل وفيها تُعَسِّل، قال الطِّرِمَّاح يخاطب ابنه:

وإن كُنتَ عندي أنتَ أحلى مِنَ الجَنَى ... جَنَى النَّحلِ أضحَى واتِناً بيْنَ أَجْبُحِ

واتِناً: مُقيماً، وقيل: الأجباح: حجارة الجبل. (عن اللسان ـ جبح).

(٢) الآية (٧١) من سورة (يٰس).

آدم فيها لُعاب دودة، وأَشرف شرابه رجيع نحلة». فظاهر هذا أَنه من غير الفم، واختلاف الأَلوان في العسل بحسب اختلاف النحل والمراعي، وقد يختلف طعمه بحسب اختلاف المرعي، ومن هذا المعنى قول زينب رضي الله عنها للنبي ﷺ: «جَرسَتْ نَحلُهُ العُرْفُط»، حيث شبهت رائحته برائحة المغافير[1].

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، الضمير للعسل، قاله الجمهور، ولا يقتضي العموم في كُلِّ علَّة، وفي كُلِّ إِنسان، بل هو خبر عن أَنه يشفي كما يشفي غيره من الأَدوية في بعضٍ، وعلى حالٍ دون حال، ففي الآية إِخبارٌ منبِّه على أَنه دواءٌ لمَّا كثر الشفاءُ به وصار خليطاً ومعيناً للأَدوية والأَشربة والمعاجن، وقد رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنه كان لا يشكو شيئاً إِلاَّ تداوى بالعسل، حتى أَنه كان يدهن به الدمل والقرصة ويقرأُ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يقتضي أَنه يرى الشفاءَ به على العموم، وقال مجاهد: الضمير للقرآن، أَي: فيه شفاءٌ، وذهب قوم من أَهل الجهالة إِلى أَن هذه الآية إِنما يراد بها أَهل البيت من بني هاشم، وأَنهم النحل، وأَن الشراب القرآنُ والحكمة، وقد ذكر بعضهم هذا في مجلس المنصور أَبي جعفر العباسي، فقال له رجل ممن حضر: جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم، فأَضحك الحاضرين وأَبهَتَ الآخر، وظهرت سخافة قوله، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية: المعنى: أَكَلَتْ النَّحْلُ، والعُرْفط: شجر، وفي المعجم الوسيط: جَرَسَ النَّحْلُ نَوْرَ الشَّجرة: لَحَسَهُ للتَّعْسيل، والعُرْفط: نبات من العضاه من الفصيلة القرنية، والمغافير: جمع مِغْفار، وهو صمغ حلوٌ يسيل من شجر العُرْفط يؤكل، أو يوضع في ثوب ثم ينضح بالماء فيشرب، وحديث المغافير أو العسل رواه البخاري، ولفظه: «عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنة جحش ويمكث عندها، فواطأْتُ أنا وحفصة عن أَيَّتنا دخل عليها فلتقل له: أكلتَ مغافير، إني أجد منك ريح مغافير، قال: لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنة جحش، فلن أعود، وقد حلفتُ لا تُخبري بذلك أحداً».



أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

هذا تنبيه على الاعتبار في إيجادنا بعد العدم وإماتتنا بعد ذلك، ثم اعترض بمن ينكَّس من الناس لأنهم موضع عبرة[1]، و«أرذل العمر»: آخره الذي تفسد فيه الحواس ويختل النطق، وخصَّ ذلك بالرذيلة ـ وإن كانت حالة الطفولة كذلك ـ من حيث كانت هذه لا رجاءَ معها، والطفولة إنما هي بُداءَة والرجاءُ معها متمكن، وقال بعض الناس: أول أرذل العمر خمسٌ وسبعون سنة، رُوي ذلك عن عليٍّ رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا في الأغلب، وهو لا ينحصر إلى مدة معينة، وإنما هو بحسب إنسان وإنسان. والمعنى: ومنكم من يرتَدُّ إلى أرذل عمره، ورُبَّ من يكون ابن خمسين سنة وهو في أرذل عمره، ورُبَّ ابن مائة أو تسعين وليس في أرذل عمره، واللام في [لِكَيْلاَ] يشبه أن تكون لام صيرورة، وليس ببيِّن، والمعنى: ليصير أمره بعد العلم بالأشياءِ إلى ألاَّ يعلم شيئاً، وهذه عبارة عن قِلَّة علمه، لا أنه لا يعلم شيئاً البَتَّةَ، ولم تَحُل (لا) بين كي ومعمولها لتصرفها، وأنها قد تكون زائدة. ثم قرر تبارك وتعالىٰ علمه وقدرته التي لا تتبدَّل، ولا تحيلها الحوادث، ولا تتغير.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِۚ﴾ إخبارٌ يراد به العبرة، وإنما هي قاعدة بني المثل عليها، والمثل هو أن المفضَّلين لا يصح منهم أن يساهموا مماليكهم فيما أُعطُوا حتى تستوي أحوالهم، فإذا كان هذا في اليسير فكيف تنسبون أنتم أيها الكفرة إلى الله تعالىٰ أنه يسمح بأن يشرك في أُلوهيته الأوثان والأنصاب وهم خلقُه، وغير هذا مما عُبِد كالملائكة والأنبياءِ وهم عبيده وخلْقه؟ هذا تأويل الطبري، وحكاه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحُكي عنه أن الآية مشيرة إلى عيسى عليه السلام. قال المفسرون: هذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ﴾ الآية[2]، ثم وقفهم على جحدهم بنعمة الله في تنبيهه لهم على مثل هذا من مواضع النظر المؤدي إلى

---

(١) يقال: نكَّسَ اللهُ فلاناً في العمر: أطال عُمْرَه إلى أرذل العمر فعاد إلى حال كحال الطفولة في الضَّعف والعجز، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِۖ﴾.

(٢) من الآية (٢٨) من سورة (الروم).



الإيمان. وقرأ الجمهور، وحفص عن عاصم: [يَجْحَدُونَ] بالياءِ من تحت، وقرأها أبو بكر عن عاصم بالتاءِ، وهي قراءَة أَبي عبد الرحمن، والأعرج ـ بخلاف عنه ـ، وهي على معنى: قل لهم يا محمد، قال قتادة: لا يكون الجَحْدُ إلاَّ بعد معرفة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ الآية آية تعديد نِعَم، و«الأَزْوَاجُ»: الزوجات، ولا يترتب في هذه الآية الأنواع ولا غير ذلك، وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يحتمل أن يريد خَلْقَه حواءَ من نفس آدم وجسمه، فمن حيث كانا مبتدأ الجميع ساغ حمل أَمرهما على الجميع حتى صار الأمر كأَن النساءَ خُلقن من أَنفس الرجال، وهذا قول قتادة، والأَظهر عندي أَن يريد بقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أَي: من نوعكم وعلى خِلْقَتِكُم، كما قال ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ ظاهر في تعديد النعمة في الأَبناءِ، واختلف الناس في قوله: [وَحَفَدَةً] ـ قال ابن عباس: الحفدة: أَولاد البنين، وقال الحسن: هم بَنُوك وبنو بنيك، وقال ابن مسعود، وأَبو الضحى، وإِبراهيم، وسعيد بن جبير: الحفدة: الأَصهار، وهم قرابة الزوجة، وقال مجاهد: الحفدةُ: الأَنصار والأَعوان والخدم، وحكى الزجاج أَن الحفدة البنات في قول بعضهم، قال الزهراوي: لأَنهن خدم الأَبوين، ولأَن لفظة «البنين» لا تدل عليهن، أَلا ترى أَنهن لَسْنَ في قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2]، وإِنما الزينة في الذكور، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَيضاً: الحفدة: أَولاد زوجة الرجل من غيره، ولا خلاف أَن معنى «الحَفْدِ» هو الخدمة والبرُّ والمشي في الطاعة مسرعاً، ومنه في القنوت: «وإِليك نسعى ونحفد»، والحفَدَانُ: خَبَبٌ فوق المشي، ومنه قول الشاعر وهو جميل بن معمر:

حَفَدَ الْوَلاَئِدُ بَيْنَهُنَّ وَأُسْلِمَتْ ... بِأَكُفِّهِنَّ أَزِمَّةُ الأَجْمَالِ[3]

---

(١) من الآية (١٢٨) من سورة (التوبة).

(٢) من الآية (٤٦) من سورة (الكهف).

(٣) الرواية في (اللسان ـ حفد): «حَفَدَ الولائِدُ حَوْلَهُنَّ»، وكذلك استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن»، ونسبه أيضاً لجميل بن عبد الله بن معمر العذريّ، قال: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: أعواناً وخُدَّاماً، قال جميل: «حَفَدَ الولائد... إلخ) واحِدُهُم: حافِدٌ، خرج مخرج كامل، والجميع: كَمَلَة». وقال في اللسان: رُوي عن عُمَر أنه قرأ في قنوت الفجر: وإليك نسْعى ونَحْفد، أي: نُسرع في العمل والخدمة، قال أبو عبيد: أصْل الحَفْد «الخِدْمَةُ والعمل». والبيت يصور ما يقوم به الولائد من خدمة وسَعْي، ومن إمساك=

ومنه قول الآخر:

كَلَّفْتُ مجْهُولَهَا نُوقاً يَمَانِيَةً ... إِذَا الْحُدَاةُ عَلَى أَكْسَائِهَا حَفَدُوا[1]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الْفِرَق التي ذكرتُ أَقوالها إِنما بنت على أَن كل أَحد جُعل له من أَزواجه بنين وحفدة، وهذا إِنما هو في الغالب وعُظْم الناس، ويحتمل عندي أَن قوله: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ إِنما هو على العموم والاشتراك، أَي: إِن من أَزواج البشر جعل الله لهم البنين، ومنهم جعل الخدمة، فمن لم يكن له زوجة فقد جعل الله له حفدة وحصل تلك النعمة، وأُولئك الحفدة هم من الأَزواج، وهكذا تترتب النعمة التي تشمل جميع العالم، وتستقيم لفظة «الحَفَدة» على مجراها في اللغة، إِذ البشر بجملتهم لا يستغني أَحد منهم عن حفدة[2]. وقالت فرقة: الحَفَدَة هم البنون.

= بأزِمَّة الأجْمَال. وقد استشهد ابن عباس رضي الله عنهما بهذا البيت على أن معنى الحفدة: الخَدَم، قال للسائل: «من أعانك فقد حفَدَك، أما سمعت قوله:

حَفَدَ الْوَلائِدُ حَوْلَهُنَّ وأَسْمَعَتْ ... .

هكذا بلفظ «وأَسْمَعَتْ» بدلاً من: وأُسْلِمَتْ». و(الولائد): الخدم، والواحدة: وليدة، وقد نسب القرطبي البيت لِكُثَيِّر عزَّة، وهذا غير صحيح؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما قد استشهد به، وكُثَيِّر ولد بعد زمن ابن عباس.

(١) نسبه القرطبي للأعشى، ولم أجده في ديوانه (ط دار صادر. بيروت)، والحَدْو: سوق الإبل والغناءُ لها، يقال: حَدَا الإبلَ، وحَدَا بها يَحْدو حَدْواً وحُداءً بضم الحاءِ وبكسرها في الأخيرة. والأكساءُ: جمع كُسْيٍ (بضم الكاف وسكون السين)، وهو مؤخَّر العَجُز. والشاهد أن حَفَد في البيت بمعنى: خَدَمَ وأَسْرَعَ في العمل.

ومن الشواهد على هذا أيضاً قول جميل:

فَلَوْ أَنَّ نَفْسِي طَاوَعَتْنِي لأصْبَحَتْ ... لَهَا حَفَدٌ مِمَّا يُعَدُّ كَثِيرُ

ولَكِنَّهَا نَفْسٌ عَلَيَّ أَبِيَّةٌ ... عَيُوفٌ لأَصْحَابِ اللِّئَامِ قَذُورُ

(٢) يريد ابن عطية أن يبين سبب اختلاف العلماء في معنى قوله: [وَحَفَدَة]، وهو أنهم فهموا أنه لا بدَّ أن يكون لكل واحد من البشر بنين وحفدة، وهذا غير وارد؛ لأن المراد العموم والاشتراك بين أغلب الناس، لا أن كل واحد يجب أن يكون له البنين والحفدة، ورأيه في معنى [حفدة] يتفق مع المعروف في اللغة، وقد وضحه ابن العربي بقوله: «الأظهر عندي في قوله ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أن البنين أولادُ الرجل لصلبه، والحفدة أولاد أولاده، ويكون تقدير الآية على هذا: وجعل لكم من أزواجكم بنين، ومن البنين حفدة».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يستقيم على أن تكون الواو عاطفة صفة لهم، كما لو قال: جعلنا لهم بنين وأعواناً، أي: وهم لهم أعوان، فكأنه قال: وهم حفدة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ يريد: المُلِذَّ من الأشياءِ التي تطيب لمن يُرْزقها، ولا يقتصر هنا على الحلال؛ لأنهم كفار ولا يكتسبون بشرع، وفي هذه الآية ردٌّ على من قال من المعتزلة: «إن الرزق إنما يكون الحلال فقط»، ولهم تَعَلُّق في لفظة [مِنْ] إذ هي للتبعيض، فيقولون: ليس الرزق المعدد عليهم من جميع ما بأيديهم إلاَّ ما كان حلالاً.

وقرأ الجمهور: [يُؤْمِنُونَ]، وتجيءُ الآية ـ على هذه القراءَة ـ توقيفاً لمحمد عليه الصلاة والسلام على إيمانهم بالباطل وكفرهم بنعمة الله، وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاءِ من فوق، ورويت عن عاصم، على معنى: قل لهم يا محمد، ويجيءُ قوله[1] بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ﴾ إخباراً مجرداً عنهم، وحُكْماً عليهم لا توقيفاً، وقد يحتمل التوقيف أيضاً على قلة اطراد في القول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًاۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

هذه آية تقريع للكفار وتوبيخ، وإظهارٌ لفساد نظرهم، ووضع لهم من الأصنام في الجهة التي فيها سعي الناس وإليها مهمهم، وهي طلب الرزق، وهذه الأصنام لا تملك إنزال المطر ولا إنبات نعمة، مع أنها لا تملك ولا تستطيع أن تحاول ذلك من مُلْك الله تعالىٰ. وقوله: [رِزْقاً] مصدر، ونصبه على المفعول بـ[يُمْلِكُ].

وقوله: [شَيْئاً] ذهب كثير من النحويين إلى أنه منصوب على البدل من قوله: [رِزْقاً]، و[رِزْقاً] اسم، وذهب الكوفيون ـ وأبو علي معهم ـ إلى أنه منصوب بالمصدر

(١) في النسخ الأصلية: «ويجيءُ قولهم...»، إلا نسخة واحدة، وعليها اعتمدنا لأنها هي الصواب.



في قوله: [رزقاً]، ولا نقدره اسماً، وهو كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾[1]، ومنه قوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾[2]، فنصب ﴿يَتِيماً﴾ بـ ﴿إِطْعام﴾، ومنه قول الشاعر:

فَلَـوْلاَ رجـاءُ النَّصْـرِ مِنْـكَ ورَهْبَـةٌ عِقَابَكَ قَدْ صَارُوا لَنَا كالمَوَارِدِ[3]

والمصدر يعمل مضافاً باتفاق؛ لأنه في تقدير الانفصال، ولا يعمل إذا دخله الألف واللام؛ لأنه قد توغَّل في حال الأسماءِ، وبَعُد عن الفعلية، وتقدير الانفصال في الإضافة حسَّن عمله، وقد جاءَ عاملاً مع الألف واللام في قول الشاعر:

ضَعِيـفُ النِّكَـايَـةِ أَعْـدَاءَهُ . . . .[4]

وقوله:

. . . . عَنِ الضَّرْبِ مِسْمَعَا[5]

(١) الآيتان (٢٥) و(٢٦) من سورة (المرسلات).

(٢) الآيتان (١٤) و(١٥) من سورة (البلد).

(٣) البيت ذكره ابن يعيش ٦ـ٦١. والشاعر يقول: لولا رجاؤنا في نصرك إيَّانا عليهم، ورهبتنا لعقابك لنا إن انتقمنا منهم بأيدينا نحن لأذلَلْنَاهم ووطئناهم كما توطأ الموارد، وهي الطرق التي يرد الناس منها إلى الماءِ، وخصَّها الشاعر بالذكر لأنها تكون عادة أكثر الطرق استعمالاً، وأعمرها بالناس. والشاهد فيه أنه أعمل (رَهْبَةٌ) مع أنها مصدر مُنَوَّن.

(٤) البيت في خزانة الأدب ٣ـ٤٣٩، وشرح الشواهد للعيني، وابن يعيش، وكتاب سيبويه، وأكثر كتب النحو المعروفة، وهو من الأبيات الخمسين التي لم يعرف لها قائل، وهو بتمامه:

ضَعِيـفُ النِّكَـايَـةِ أَعْـدَاءَهُ يَخَـالُ الفِـرَارَ يُـرَاخِـي الأَجَـلْ

والنكاية: مصدر نكيْتُ العدوَّ، ونكيت فيه إذا أثَّرت، يتعدَّى ولا يتعدَّى، قال أبو النجم:

نَحْـنُ مَنَعْنَـا وَادِيَـيْ لِصَـافَـا نَنْكِـي العِـدَى ونُكْـرِمُ الأَضْيَـافَـا

ويُراخي الأجل: يُبْعدهُ ويُطيله، والشاعر يهجو رجلاً ويصفه بأنه ضعيف لا يستطيع أن يؤثر في أعدائه، وهو جبان لا يثبت في المعركة بل يَفِرُّ ظناً منه أن الفرار يطيل في عمره ويُبْعد أجله، والشاهد فيه إعمال المصدر المعرف بالألف واللام وهو (النكاية)؛ لأن اللام هنا معاقبة للتنوين، فهو يعمل عمل المنون.

(٥) هذا جزءٌ من بيت الشنتمري إلى المُرَّار الأسدي، ونسبه في الخزانة وابن يعيش إلى مالك بن زغبة الباهلي، وهو مذكور ومشروح أيضاً في شواهد العيني، والبيت بتمامه:

لَقَـدْ عَلِمَـتْ أُولَـى المُغِيـرةِ أَنَّنِـي لَحِقْتُ فَلَمْ أَنْكِلْ عن الضَّرْبِ مِسْمَعَا =



وقوله تعالىٰ: [يَمْلِكُ] على لفظ [ما]، وقوله: [يَسْتَطِيعُونَ] على معناها بحسب اعتقاد الكفار في الأَصنام أنَّها تعقل، ويحتمل أَن يكون الضمير في [يَسْتَطِيعُونَ] للذين يعبدون، والمعنى: لا يستطيعون ذلك ببرهان يُظهرونه وحُجَّة يُبَيِّنُونَهَا.

وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا﴾ أَي: لا تُمَثِّلوا لله الأَمثال، وهو مأْخوذ من قولك: «هذا ضريب هذا» أَي مثيله، والضَّرْب: النوع، تقول: الحيوان على ضروب، وهذا من ضَرْبٍ واحد، وباقي الآية بيِّن.

قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ الآية. الذي هو مثال في هذه الآية هو عبْدٌ بهذه الصفة مملوك، لا يقدر على شيءٍ من المال ولا من أَمر نفسه، وإِنما هو مُسخَّر بإِرادة سيِّده مدبَّر، ولا يلزم من الآية أَن العبيد كلَّهم بهذه الصفة كما انتزع بعض من ينتحل الفقه، وقد قال في المثل الثاني: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، فيلزم ـ على هذا الانتزاع ـ أَن يكون البُكْم لا شيءَ لهم، وَبِإِزاءِ العبد في المثال رجل مُوَسَّع عليه في المال فهو يتصرف فيه بإِرادته، ولا يلزم من نفس المثال أَن يكون مؤمناً ينفق بحسب الطاعة، أَما إِنه أَشرف أَن يكون مثالاً.

و«الرِّزق»: ما صحَّ الانتفاع به، وقال أَبو منصور في عقيدته[(١)]: «الرزق ما وقع الاغتذاءُ به»، وهذه الآية تردُّ على هذا التخصيص، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[(٢)]، و﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾[(٣)]، وغير ذلك من قول النبي ﷺ:

= والمُغيرة: الخيل التي تخرج للغارة، وأُولى المُغيرة: أول هذه الخيل، والمراد فرسانها، والنُّكُولُ: النُّكُوص والرجوع خوفاً وجُبناً ويقال: نَكَلَ عنه ينكل (كضرب ونصر وعلم) نكولاً، ومِسْمع (بكسر الميم) هو مِسْمع بن شيبان، من بني قيس بن ثعلبة، يقول: لقد علم أوائل المغيرين من الفرسان أني لقيتهم وهزمتهم ولحقت قائدهم وفارسهم فلم أتراجع عن ضربه بسيفي، وقد روي: (لقيت) بدلاً من (لحقت)، وروي أيضاً (كررت)، والشاهد فيه إعمال المصدر المقرون بالألف واللام وهو (الضَّرْب) في (مِسْمعاً) ـ والبيت يحتمل أن يكون من باب التنازع بإعمال (لحقت) في (مِسْمعاً)، وعلى هذا الاحتمال لا شاهد فيه.

(١) أبو منصور الماتُريدي هو محمد بن محمد بن محمود، مات بسمرقند سنة ٣٣٣هـ. «والعقيدة» اسمُ كتاب له ذكر فيه هذا الرأي في الرزق. راجع (كشف الظنون).

(٢) تكررت في الآيات: (٣) من سورة (البقرة)، و(٣) من سورة (الأنفال)، و(٣٥) من سورة (الحج)، و(٥٤) من سورة (القصص)، و(١٦) من سورة (السجدة)، و(٣٨) من سورة (الشورى).

(٣) من الآية (٢٥٤) من سورة (البقرة).



«وَجُعِلَ رزقي في ظِلِّ رُمْحِي»[١] وقوله: «أَرزاق أُمتي في سنابك خيلها وأَسِنَّة رماحها»[٢]، فالغنيمة كلها رزق. والصحيح أَن ما صح الانتفاع به هو الرزق، وهو مراتب: أَعلاها ما تُغُذِّي به، وقد حصر رسول الله ﷺ وجوه الانتفاع في قوله: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهلْ لك من مالك إِلاَّ ما أَكلْتَ فأَفنيتَ، أَو لبستَ فأَبليت، أَو تصدقت فأَمْضَيْت؟»[٣]. وفي معنى اللباس يدخل الركوب.

واختلف الناس في الذي له هذا المثل ـ فقال قتادة، وابن عباس: هو مثل الكافر والمؤمن، فكأَن الكافر مملوك مصروف عن الطاعة، فهو لا يقدر على شيءٍ لذلك، ويشبه العبد المذكور.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتمثيل ـ على هذا التأْويل ـ إِنما وقع في جهة الكافر فقط، جعل له مثلاً، ثم قرن بالمؤمن المرزوق، إِلاَّ أَن يكون المرزوق ليس بمؤمن، وإِنما هو مثال للمؤمن، فيقع التمثيل من جهتين. وقال مجاهد، والضحاك: هذا المثال، والمثال الآخر الذي بعده، إِنما هو لله تعالىٰ والأَصنام، فتلك هي كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيءٍ، والله تعالىٰ تتصرَّف قدرته دون معقِّب، وكذلك فسَّر الزجاج على نحو قول مجاهد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل أَصوب؛ لأَن الآية تكون من معنى ما قبلها وما بعدها في تبيين أَمر الله تبارك وتعالىٰ والرَّد على الأَصنام. وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، والإمام أحمد في مسنده (٢ـ٥٠، ٩٢)، ولفظه كما في المسند عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف حتى يُعبد الله لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم».

(٢) رواه الطبراني في الأوسط، وفيه صالح بن موسى الطلحي، وهو متروك. انظر: مجمع الزوائد ٥/٦١٩ وضعفه أيضاً الألباني في السلسلة الضعيفة برقم ١٦٩٤.

(٣) الحديث في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة، ولفظه فيه أن النبي ﷺ قال: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنىٰ، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس» (٢ـ٣٦٨). ورواه مسلم في كتاب الزهد عن مطرِّف عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝﴾، قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، قال: وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تَصَدَّقْتَ فأمضيتَ».
ومعنى (أمضيت): أكملت عطاءَك وأتممته.



نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان رضي الله عنه وعبْد كان له، ورُوي تعيين غير هذا لا يصح إسناده، والمثال لا يحتاج إلى تعيين أحد، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكر على بيان الأمر بهذا المثال، وعلى إذعان الخصم له، كما تقول لمن أذعن لك في حُجَّة وسلَّم ما ينبني عليه قولك: الله أكبر، وعلى هذا يكون كذا وكذا، فلما قال هنا: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ فكأن الخصم قال له: لا، فقال: الحمد لله، ظهرت الحجة، وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد: لا يعلمون أبداً ولا يداخلهم إيمان، ويتمكن على هذاقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأن الأقل من الكفار هو الذي يؤمن، وهو الذي آمن مِنْ أُولئك، ولو أراد بقوله: ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي الآن لكان قوله: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ بمعنى الاستيعاب؛ لأنه لم يكن أحد منهم يعلم قوله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

هذا مثل لله تعالى وللأصنام، فهي كالأبكم لا نطق له ولا يقدر على شيءٍ، وهو عيالٌ على من والاه من قريب أو صديق، و«الكَلُّ»: الثقل والمؤونة، وكل محمول فهو كَلٌّ وسُمِّي اليتيم كلاً، ومنه قول الشاعر:

أَكُــولٌ لِمَــالِ الكَــلِّ قَبْــلَ شَبَــابِــهِ ... إِذَا كَــانَ عَظْــمُ الكَـلِّ غيْـرَ شَـدِيـدِ(١)

كما أن الأصنام تحتاج إلى أن تنقل وتخدم ويُتَعَذَّب بها، ثم لا يأتي من جهتها خير البَتَّة، هذا قول قتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو مثل للكافر. وقرأ ابن

(١) البيت في (اللسان) غير منسوب، والكَلُّ هو اليتيم، سمّي بذلك لأنه ثقيل على من يكفله، يقول هاجياً: إنه يأكل مال اليتيم في صغره ووقت ضعفه عن حماية نفسه.



مسعود: [يُوَجِّهْ][(١)]، وقرأ علقمة: [يُوَجَّهْ][(٢)]، وقرأ الجمهور: ﴿يُوَجِّهْهُ﴾، وهي خطُّ المصحف، وقرأ يحيى بن وثَّاب: [تَوَجَّه]، وقرأ ابن مسعود أَيضاً: [تُوَجِّهْهُ] على الخطاب، وضعف أَبو حاتم قراءَة علقمة لأَن الجزم لازم[(٣)]، و«الذي يأمر بالعدل» هو الله تعالىٰ، وقال ابن عباس: هو المؤمن، «والصراط»: الطريق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، أَخبر تعالىٰ أَن الغيبَ له يملكه ويعلمه، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ إِخبارٌ بالقدرة، وحجة على الكفار، والمعنى على ما قال قتادة وغيرُه: «ما تكون الساعة وإِقامتها في قدرة الله تعالىٰ إِلاَّ أَن يقول لها: كن»، فلو اتفق أَن يقف على ذلك محصِّل من البشر لكانت من السرعة بحيث يقول: هل هي كلمح البصر أَو هي أَقرب من ذلك ؟ فـ [أَو] ـ على هذا ـ على بابها للشَّك، وقيل: هي للتخيير[(٤)]، و«لَمْحُ ٱلْبصر» هو وقوعه على المرئيِّ، وقوَّى هذا الإِخبار بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، يريد: على كل شيءٍ مقدور، ومَن قال: «﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أَي: وما إِتيانها ووقوعها بكم، على جهة التخويف من حصولها» ـ ففيه بُعْدٌ وتجوُّز كثير.

---

(١) بهاءٍ واحدة ساكنة مبنياً، والفاعل ضمير يعود على (مَوْلاه)، وضمير المفعول محذوف لدلالة المعنى عليه، والتقدير عند ابن جني: أينما يُوَجِّهْ وجْهَهُ، ويجوز أن يكون ضمير الفاعل عائداً على «الأبكم»، ويكون الفعل لازماً، لأن (وَجَّهَ) تأتي بمعنى (تَوَجَّه)، كأن المعنى: أينما يَتَوَجَّه. وهي قراءَة علقمة أيضاً، وابن وثاب، ومجاهد، وطلحة.

(٢) بهاءٍ واحدة ساكنة أيضاً، ولكن الفعل مبني للمفعول، وهي أيضاً قراءة ابن وثاب، وطلحة.

(٣) قال أبو حيَّان في البحر المحيط (٥ـ٥٢٠): تعليقاً على قراءة علقمة «والذي تُوَجَّه عليه هذه القراءة ـ إن صحَّتْ ـ أنَّ [أيْنَمَا] شرط حملت على (إذَا) لجامع ما اشتركا فيه من الشرطية، ثم حذفت الياءُ من [يَأْتِ] تخفيفاً، أو لجزمه على توهم أنه نطق بـ [أَيْنَمَا] المهملة معملةً كقراءة من قرأ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ في أحد الوجهين، ويكون معنى [يُوَجَّهْ] يَتَوَجَّه، فهو فعل لازم لا متعدٍّ».

(٤) قال أبو حيَّان تعقيباً على ذلك: «والشك والتخيير بعيدان؛ لأن هذا إخبار من الله تبارك وتعالىٰ عن أمر الساعة فالشَّك مستحيل عليه، ولأن التخيير إنما يكون في المحظورات، كقولهم: خُذ من مالي ديناراً أو درهماً، أو في التكليفات كآية الكفارات ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ و[أوْ] هنا للإبهام على المخاطب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ وهو تعالىٰ قد عَلم عددهم، ومتى يأتيها أمره كما علم أمر الساعة، ولكنه أوهم على المخاطب». وكون ﴿أَوْ﴾ في الآية للإبهام هو رأي الزجاج، وقد عارض فيه القاضي وقال: لا يصح، لأسباب طويلة.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

مِنْ قول النبي ﷺ: «بُعثت أنا والساعة كهاتين»[(١)]، ومِنْ ذِكْره ما ذكر من أشراط الساعة ومهلتها، ووجه التأويل أن القيامة لما كانت آتية ولا بُدَّ جُعلت من القرب كلمح البصر، كما يقال: ما السَّنَة إلا لحظة، إلا أن قوله: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ يردُّ أيضاً هذه المقالة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ الآية تعديد نعمة بيّنة لا ينكرها عاقل، وهي نعمة يقبح معها كفرها وتصريفها في الإشراك بالذي وهبها، فالله تعالىٰ أخبر أنه أخرج ابن آدم لا يعلم شيئاً، ثم جعل حواسَّه التي قد وهبها له في البطن سُلَّماً إلى إدراك المعارف ليشكر على ذلك ويؤمن بالمنعم عليه. و«أُمَّهات» أصله أُمَّات، وزيدت الهاءُ مبالغة وتأكيداً، كما زادوا الهاءَ في «أهرقت الماءَ»، قاله أبو إسحق. وفي هذا المثال نظر، وقيل غير هذا، وقرأ حمزة، والكسائي: [إِمَّهَاتكم] بكسر الهمزة، وقرأ الأعمش: [في بُطُونِ مِهَاتِكم] بحذف الهمزة وكسر الميم، وقرأ ابن أبي ليلة بحذف الهمزة وفتح الميم مُشَدَّدة، قال أبو حاتم: «حذف الهمزة رديءٌ، ولكن قراءَة ابن أبي ليلى أصوب»[(٢)]، والتَّرجِّي الذي في «لَعَلَّ» هو بحسبها، وهذه الآية تعديد نِعَمٍ وموضع اعتبار[(٣)].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ﴾ الآية، قرأ طلحة بن مصرف، والأعمش، وابن هرمز: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ﴾ بالتاءِ، وقرأ أهل مكة والمدينة: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ بالياءِ على الكناية عنهم، واختُلف عن الحسن، وعاصم، وأبو عمرو، وعيسى الثقفي. و«الْجَوّ»: مسافة ما بين السماءِ والأرض، وقيل: هو ما يلي الأرض منها، وما فوق ذلك هو اللوح، والآية عبرة بيّنة المعنى، تفسيرها تكلُّف بحت.

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وابن ماجه، والدارمي، والإمام أحمد في مسنده. ولفظه كما في البخاري: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه، أو قال: كهاتين، وقرن بين السبابة والوسطى».

(٢) لأن كسر الميم إنما كان لإتباعها حركة الهمزة، فإن كانت الهمزة محذوفة زال الإتباع. أما في قراءة ابن أبي ليلة فقد أبقى حركة الميم على حالها.

(٣) قال بعض العلماء: إن قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ يتضمن إثبات النطق؛ لأن من لم يسمع لا يتكلم، وإذا وجدت حاسة السمع وجدت حاسة النُطق.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

هذه آية تعديد نعمة الله على الناس في البيوت، فذكر أولاً بيوت التمدن وهي التي للإقامة الطويلة، وهي عُظْم بيوت الإنسان، وإن كان الوصف بالسَّكَنِ يعم جميع البيوت، و«السَّكَنُ» مصدر يوصف به الواحد، ومعناه: يسكن فيها وإليها، ثم ذكر تعالىٰ بيوت النقلة والرحلة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ يحتمل أن يعم به بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف؛ لأن هذه من الجلود لكَوْنها ثابتة فيها، نحا إلى ذلك ابن سلام، ويكون قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ ابتداءُ كلام، كأنه قال: «جعل أثاثاً»، يريد الملابس والوطاءَ وغير ذلك، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بيوت الأدم فقط، ويكون ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ عطفاً على قوله: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: جعل بيوتاً أيضاً، ويكون قوله: [أَثَاثاً] نصباً على الحال، و[تَسْتَخِفُّونَهَا] أي تجدونها خفافاً، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: [ظَعَنِكُم] بفتح العين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي بسكون العين، وهما لغتان وليس بتخفيف، و(ظَعَن) معناه رَحَل، والأصواف للغنم، والأوبار للإبل، والأشعار للمعز والبقر، ولم تكن بلادهم بلاد قطن وكتان، ولذلك اقتصر على هذا، ويحتمل أن تُرِك ذكرُ القطن والحرير والكتان إعراضاً عن السرف؛ إذْ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف، وأيضاً فقد أُشير إلى القطن والكتان في لفظة السرابيل. و«الأثاث»: متاع البيت، واحدها أثاثة، هذا قول أبي زيد الأنصاري، وقال غيره: الأثاث: جميع أنواع المال، ولا واحد له من لفظه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والاشتقاق يقوي هذا المعنى الأعم؛ لأن حال الإنسان تكون بالمال أثيثةً، كما تقول: «شعر أثيث، ونبات أثيث» إذا كثر والتف. وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد به وقتاً غير معين، وهو بحسب كل إنسان، إمَّا بموته، وإمَّا بفقد تلك الأشياءِ التي هي أثاث،

ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

أَهَاجَتْكَ الظَّعَائِنُ يَوْمَ بَانُوا بِذِي الزِّيِّ الْجَمِيلِ مِنَ الأَثَاثِ ؟[(١)]

قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا ﴾ الآية. نِعم عدَّدَها عليهم بحسب أَحوالهم وبلادهم، وأَنها الأَشياءُ المباشرة لهم؛ لأَن بلادهم من الحرارة وصهر الشمس بحيث للظل غنى عظيم ونفع ظاهر. وقوله: ﴿ مِّمَّا خَلَقَ ﴾ يعم جميع الأَشخاص المظلِّلة. و«الأَكنان»: جمع كِنٍّ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك. و«السَّرابيل»: جميع ما يلبس على البدن كالقميص والقَرْقَل والمجول والدِّرع والجَوْشَن والحفتان ونحوه[(٢)]. وذكر وقاية الحرِّ إِذ هو أَمَسُّ في تلك البلاد على ما ذكرنا، والبَرْدُ فيها معدوم في الأَكثر، وإِذا جاءَ في الشتوات فإِنما يُتَوَقَّى بما هو أَكثف من السربال من الأَثاث المتقدم الذكر، فبقي السرابيل لتوقي الحرِّ فقط، قاله الطبريُّ عن عطاءٍ الخراساني، أَلا ترى أَن الله تعالىٰ قد نبههم إِلى العبرة في البرد ولم يذكر لهم الثلج لأَنه ليس في بلادهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إِن الثَّلج شيءٌ أَبيض ينزل من السماءِ ما رأَيته قط، وأَيضاً فذِكر أَحدهما يدلُّ على الآخر، ومنه قول الشاعر:

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضاً أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي ؟[(٣)]

---

(١) البيت لمحمد بن نُمَيْر الثَّقَفيِّ، وله قصة مع الحجاجِ؛ لأنه كان يشبب بزينب أُخت الحجاج، فتوعده فهرب منه (ارجع إلى الكامل للمبرد)، ويروى: «أَشاقتك»... بدلاً من أهاجتك، و«بِذِي الرِّئْي»... بدلاً من «بِذِي الزِّيِّ»، قال في (اللسان ـ رأى): «هو ما رأته العين من حالٍ حسنة وكُسوة ظاهرة، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نُمَيْر الثَّقَفي:

أَشَاقَتْكَ الظَّعَائِنُ يَومَ بَانُوا بِذِي الرِّئْيِ الْجَمِيلِ مِنَ الأَثَاثِ ؟

والظَّعائنُ: جمع ظعينة، وهي الراحلة يرتحل عليها، أو الهودج، أو الزوجة. ولعله المراد هنا، وبانوا: سافروا وبعدوا».

(٢) القَرْقَل: ضرب من الثياب، قيل: هو ثوب بغير كُمَّيْن، وقيل: قميص من قُمُص النساء بلا لَبِنَة، وجمعه قَرَاقل، ونساءُ أهل العراق يقولون: قرقر، والجوشن: الدِّرع على الصدر، أو هو الصدر نفسه، والمراد هنا الدرع. والدرع: قميص المرأة، وثوب صغير تلبسه الجارية في البيت. ويغلب على الظن أن المجول والحفتان من أنواع الملابس التي تختلف أسماؤها باختلاف البلاد والزمان.

(٣) البيت لسُحَيْم بن وثيل الرِّيَاحي، وقد استشهد به الفراءُ في معاني القرآن، قال: وقوله: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ ﴾، ولم يقل: والبردَ، فترك لأن معناه معلوم، ثم ذكر البيت، ويروى ـ «يمَّمْتُ وجهاً»، يريد: أيُّ الخير والشَّر يليني؟ لأنه إذا أراد الخير فهو يتقي الشر، وقد وضَّح الشاعر ما يريد في البيت الذي بعده: =



وهذه التي ذكرناها هي بلاد الحجاز، وإلاَّ ففي بلاد العرب ما فيه بردٌ شديد، ومنه قول مُتَمِّم:

. . . . إِذَا القَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعْقَعَا[1]

وقول الآخر:

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ . . . .[2]

البيتين، وغير هذا، والسَّرابيل التي تقي البأسَ هي الدروع، ومنه قول كعب بن زهير:

شُمُّ الْعَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ مِنْ نَسْجِ داودَ في الْهَيْجَا سَرَابِيلُ[3]

= أَأَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمِ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي ؟

والبيتان من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكِ مَتِّعِينِي وَمَنْعُكِ مَا سَأَلْتِ كَأَنْ تَبِينِي

(١) مُتَمِّمُ بن نُوَيْرة هو شقيق مالك بن نُوَيْرة الذي قُتل في حرب الرِّدَّة، وتزوج خالد بن الوليد امرأته، وما ذكره ابن عطية هو عجز بيت، والبيت بتمامه:

وَلاَ بَرَماً تُهْدِي النِّسَاءُ لِعِرْسِهِ إذا القَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعْقَعَا

والبَرَم: الذي لا يدخل مع القوم في المَيْسر، والجمع: أَبْرَامٌ، وفي المثل: أَبَرَماً قَروناً ؟، أي: هو بَرَم ويأكل مع ذلك تمرتين تمرتين، وقيل: الأبْرام: اللئام، والعِرْسُ: الزوجة (هنا)، ويقال: هو عِرْسُهَا، وهي عِرْسه، وهما عِرْسان، والقَشْعُ: بيت من أدَم، وقيل: من جِلْدٍ، والجمع: قِشَعٌ. وتَقَعْقَعَ: أحدث صوتاً عند التحريك لأنه صار يابساً من البَرد الشديد.

(٢) هذا صدر بيت لِمُرَّةَ بن مَحْكان، والبيت بتمامه:

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذاتِ أَنْدِيَةٍ لاَ يُبْصِرُ الكَلْبُ مِنْ ظَلْمَائِهَا الطُّنُبَا

والأندية: جمع النَّدَى على غير قياس، والندى: ما يسقط بالليل. والطُّنُبُ (بضم النون وبسكونها): حبل يُشَدُّ به الخِباءُ والسُّرادق ونحوهما. يصف الليلة بشدة البرد وشدة الظلام. قال في اللسان بعد أن أورد البيت: «قال الجوهري: هو شاذٌّ؛ لأنه جمع ما كان ممدوداً مثل كِساءٍ وأكْسية، وقيل: جمع نَدىً على أَنداءٍ، وأَنْداءٍ على نِدَاءٍ، ونداءٍ على أندية، كرداءٍ وأرْدية».

(٣) العَرَانين: جمع عِرْنين، وهو أول الشيءِ والمراد هنا: أول الأنف، والشَّمَمُ: الارتفاع، والسَّرابيل: الدروع، وهي مصنوعة من الحديد، وهو المراد بقوله: «من نسج داود»، حيث أعطاه الله القدرة على استخدام الحديد في صناعة الدروع لتحمي قومه من بأس الحروب.

وقال أَوسُ بن حجر:

. . . . ولَنِعْـمَ حَشْـوُ الـدِّرْعِ والسِّـرْبَـالِ[1]

فهذا يراد به القميص:

و«الْبَأْسُ»: مسُّ الحديد في الحرب. وقرأ الجمهور: ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾، وقرأ ابن عباس: [تتم نعمته]، على أن النعمة هي التي تتم، ، رُوي عنه [تتم نعمه] على الجمع. وقرأ الجمهور: ﴿تُسْلِمُونَ﴾ من الإسلام، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [تَسْلَمُونَ] من السلامة، فتكون اللفظة مخصوصة في بأس الحر، وما في «لَعَلَّ» من التَّرَجِّي والتَّوَقُّع فهو في حيِّز البشر المخاطبين، أَي: لو نظر الناظر في هذه الحالة لترجَّى منها إسلامهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

هذه الآية فيها موادعة نسختها آية السيف، والمعنى: إن أَعرضوا فلستَ بقادر على خلق الإِيمان في قلوبهم، وإنما عليك أَن تبلِّغ أَمر الله ونهْيَه، ثم قرعهم ووبَّخهم بأَنهم يعرفون نعمة الله في هذه الأَشياءِ المذكورة، ويقولون إِنها من عنده ثم يكفرون به تعالىٰ، وذلك فعل المنكر للنعمة الجاحد لها. هذا قول مجاهد، فسماهم منكرين للنعمة تَجَوُّزاً؛ إِذْ كانت لهم أَفعال المنكرين من الكفر برَبِّ النعم، ولشركهم في النعم الأَوثان على جهة ما، وهو ما كانوا يعتقدون للأَوثان من الفعل في النفع والضر، وقال السُّدي: النعمة هنا: محمد عليه الصلاة والسلام. ووصفهم تبارك وتعالىٰ بأَنهم يعرفون

---

(١) هذا عجز بيت قاله أوس في قصيدة يرثي بها فضالة بن كلدة. وهو بتمامه:

فَلَنِعْـمَ رِفْـدُ الحَـيِّ يَنْتَظِـرُونَـهُ ولَنِعْـمَ حَشْـوُ الـدرع والسِّـرْبَـالِ

ورِفْدُ الحيِّ: مُعينهم ومُساعِدهم ومقدم العطاءِ لهم، ومعنى «لَنِعْمَ حشو الدِّرع والسِّربال» نعم الرجل فُضَالةُ في الفزع والأمن، فهو حشو الدرع في الفزع، وحشو السربال في الأمن، ويكون السربال هو القميص.



معجزاته وآيات نبوته وينكرون ذلك بالتكذيب، ورجَّحه الطبري، ثم حتم على أكثرهم بالكفر وهم أَهل مكة؛ لأَنه كان فيهم من قد داخله الإِسلام ومن أَسلم بعد ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ آية وعيد، التقدير: واذكر يوم نبعث شهيداً على كفرهم وإِيمانهم، فـ «شَهِيدٌ» بمعنى «شاهد»، وذكر الطبري أَن المعنى: ثم ينكرونها اليوم، ويوم نبعث، أَي: ينكرون كفرهم فيُكَذِّبهم الشهيد. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي في المعذرة، وهذا في موطن دون موطن؛ لأَن في القرآن ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[1]، ويترتب أَن تجيءَ كل نفس تجادل، فإِذا استقرت أَقوالهم بعث الله الشهود من الأُمم فتكذب الكفار فلا يؤذن للكاذبين بعْدُ في معذرة، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ بمعنى: يُعْتَبون، تقول: «عتَبْتُ الرجل» إِذا كفيتَهُ ما عتب فيه، كما تقول: «أَشْكَيْتُه ما شكا»، كأَنه قال: ولا هم يكفون ما يُعتبون فيه ويشق عليهم، والعرب تقول: استفعل بمعنى أَفعل، تقول: أَدْنَيْتُ الرجلَ واستدْنَيْتُه، وقال قوم: لا يسأَلون أَن يرجعوا عمَّا كانوا عليه في الدنيا[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا استعتاب معناه طلب عُتْبَاه، وقال الطبري: معناه: يطلبون الرجوع إِلى الدنيا فلا يعطون فيقع منهم توبة وعمل[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، أَخبر الله تعالىٰ في هذه الآية أَن هؤلاءِ الكفرة الظَّالمين في كفرهم إِذا أَراهم الله عذاب النار وشارفوها وتحققوا كُنْه شدتها فإِن ذلك الأَمر الهائل الذي نزل بهم لا يُخَفف بوجه ولا يُؤَخَّر عنهم، وإِنما مقصد الآية الفرق بين ما يحل بهم وبين رزايا الدنيا، فإِن الإِنسان لا يتوقع أَمراً من

---

(١) من الآية (١١١) من سورة (النحل).

(٢) جاءت هذه العبارة في بعض النسخ كالآتي: «لا يشكون أن يرجعوا كما كانوا عليه في الدنيا».

(٣) قال القرطبي: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يعني يسترضون، أي: لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون. اهـ. وقال المهدوي: أصل الكلمة من العَتْبِ وهي الموجدة، يقال: عَتَب عليه يُعْتِب إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ما عتب عليه فيه قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرَّتك فقد أعْتَبَ، والاسم: العُتْبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب» اهـ. وقال النابغة:

فَـإِنْ كُنْـتُ مظلـومـاً فَعَبْـداً ظَلَمْتَـهُ ... وإِنْ كُنْـتَ ذَا عُتْبـى فَمِثْلُـكَ يُعْتِـبُ

خطوب الدنيا إلاَّ وله طمع في أن يتأخر عنه، وأن يجيئه في أخف ما يتوهم برجائه، وكذلك متى حلَّ به كان طامعاً في أن يخف، وقد يقع ذلك في خطوب الدنيا كثيراً، فأخبر الله تعالىٰ أن عذاب الآخرة ـ إذا عاينه الكافر ـ لا طماعية فيه بتخفيف ولا تأخير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

أخبر سبحانه وتعالىٰ أنهم إذا رأوا يوم القيامة بأبصارهم الأوثان والأصنام وكلَّ معبود من دون الله ـ لأنها تُحشر معهم توبيخاً لهم على رؤوس الأشهاد ـ أشاروا إليهم وقالوا: هؤلاءِ كنا نعبدهم من دون الله، كأنهم أرادوا بذلك تذنيب المعبودين وإدخالهم في المعصية، وأضافوا الشركاءَ إلى أنفسهم من حيث هم جعلوهم شركاءَ، وهذا كما يصف رجلٌ آخرَ بأنه خَيِّر فتقول له أنتَ: ما فعل خيرُكَ؟ فأضفْتَهُ إليه من حيث وصَفَه هو بتلك الصفة، والضمير في «القول» عائد على الشركاءِ، فمن كان من المعبودين من البشر ألقى القول المعهود بلسانه، وما كان من الجمادات تكلمت بقدرة الله بتكذيب المشركين في وصفهم بأنهم آلهة وشركاءُ لله، ففي هذا وقع الكذب لا في العبادة. وقال الطبري: المعنى: إنكم لكاذبون، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأنهم كذبوهم في التذنيب لهم.

وقوله: ﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، الضمير في [أَلْقَوا] عائد على المشركين، والمعنى: ألْقوا إليه الاستسلام، وألقوا بأيديهم وذلُّوا لحكمه ولم تكن لهم حيلة ولا دفع، و[السَّلَم]: الاستسلام، وقرأ الجمهور: [ٱلسَّلَم] بفتح اللام، وروى يعقوب عن أبي عمرو سكون اللام، وقرأ مجاهد: [السُّلُم] بضم السين واللام.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية في ضِمْنِ قوله: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أنه



حلَّ بهم عذاب الله وباشروا نقمته، ثم فسَّره فأَخبر أَن الذين كفروا ومنعوا غيرهم من الدخول في الدين وسلوك سبيل الله زادهم عذاباً أَجلَّ من العذاب العام لجميع الكفار عقوبة على إِفسادهم، فيحتمل أَن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يَفْتَرُونَ﴾ و﴿زِدْنَاهُمْ﴾ فعل مستأنف إِخباره، ويحتمل أَن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ابتداءً وخبره ﴿زِدْنَاهُمْ﴾، وروي في ذلك أَن الله تعالىٰ سلَّط عليهم عقارب وحيَّاتٍ لها أَنياب كالنخل الطِّوال، قاله ابن مسعود، وقال عبيد بن عمير: حيَّات لها أَنياب كالنخل، وعقارب كالبغال الدُّلْم[1]، ونحو هذا، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أَن لجهنم سواحل فيها هذه الحيَّات وهذه العقارب، فيفر الكفار إِلى السواحل من النار فتتلقاهم هذه الحيَّات والعقارب، فيفرون منها إِلى النار، فتتبعهم حتى تجد حرّ النار فترجع، قال: وهي في أَسراب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ الآية، في ضمنها وعيد، والمعنى: واذكر يوم نبعث في كل أُمَّة شاهداً عليها، وهو رسولها الذي شاهد في الدنيا تكذيبها وكفرها وإِيمانها وهداها، ويجوز أَن يبعث الله شهيداً من الصالحين مع الرسل، وقد قال بعض الصحابة: إِذا رأَيت أَحداً على معصية فانْهَه، فإِن أَطاعك وإِلاَّ كنت شهيداً عليه يوم القيامة.

وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ بحسب أَن بعثة الرسل كذلك هي في الدنيا، وذلك أَن الرسول الذي مِنْ نفس الأُمَّة في اللسان والسِّيرة وفهم الأَغراض والإِشارات متمكن له إِفهامهم والردّ على معاندتهم، ولا يتمكن ذلك مِن غير مَنْ هو منَ الأُمَّة، فلذلك لم يبعث الله نبيًّا قطُّ إِلاَّ من الأُمة المبعوث إِليهم. وقوله: ﴿هَٰؤُلَآءِ﴾ إِشارة إِلى هذه الأُمة. و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن، وقوله: ﴿تِبْيَٰناً﴾ اسم وليس بمصدر، كالنقصان، والمصادر في مثل هذا التأْويل منها مفتوحة كالتَّرداد والتَّكرار[2]، ونصب ﴿تِبْيَٰناً﴾ على الحال[3]، وقوله: ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما نحتاج في الشرع ولا بُدَّ منه في المِلَّة، كالحلال والحرام والدعاءِ إِلى الله والتخويف من عذابه، وهذا حصر ما اقتضته عبارات المفسرين، وقال

---

(١) أي السَّوداءُ، يقال: دَلِمَ الشَّيْءُ دَلَماً: اشْتَدَّ سواده في مُلوسة، ويقال: دَلِم الرجل: اسْوَدَّ وطال.

(٢) ومثل (تِبْيان) في كسر الأول (تلقاء).

(٣) ويجوز أن تنصب على أنها مفعول لأجله.

ابن مسعود رضي الله عنه: «أُنزِلَ في القرآن كلُّ علم، وكلُّ شيءٍ وقد بُيِّن لنا في القرآن»، وتلا هذه الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أَجمعُ آية في كتاب الله آيةٌ في سورة النحل، وتلا هذه الآية، ورُوي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية قرأتُها على عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فعجب وقال: «يا آل غالب اتَّبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أَرسله إليكم ليأمر بمكارم الأخلاق»، وحكى النقاش قال: كان يقال: «زكاة العدل الإحسان، وزكاة القدرة العفو، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كتْبُ الرجل إلى إخوانه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

العدل هو فعل كل مفروض[1] من عقائد وشرائع، وسيرٌ مع الناس في أَداءِ الأَمانات وتركِ الظلم، والإنصافُ وإعطاءُ الحق، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه، فمن الأَشياءِ ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما فرض إلاَّ أَن أَحد الأَجزاءِ منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على حدّ الأَجزاءِ داخل في الإحسان، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما حكى الطبري: العدل: لا إِلـه إلاَّ الله، والإحسان: أَداءُ الفرائض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القسم الأَخير نظر؛ لأَن أَداءَ الفرائض هي الإسلام حسب ما فسَّره رسول الله ﷺ في حديث سؤال جبريل عليه السلام، وذلك هو العدل، وإنما الإحسانُ: التكميلاتُ والمندوبُ إليه حسب ما يقتضيه تفسير النبي ﷺ لسؤال جبريل عليه السلام بقوله: «أَن تعبد الله كأَنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2]، فإن صح هذا عن ابن

---

(١) في بعض النسخ: «هو فعل كل معروف»، وقوله في تحديد معنى الإحسان: «هو فعل كل مندوب» يؤدي أنه أراد هنا: كل مفروض. وكذلك تقسيمه الأشياء إلى مندوب ومفروض.

(٢) الحديث في الصحيحين، وفي رواية مسلم ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند=



عباس رضي الله عنهما فإنما أَراد أَداءَ الفرائض مُكَمَّلة.

﴿ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ لفظة تقتضي صلة الرحم، وتَعُمُّ جميع إسداءِ الخير إلى القرابة. وتركُهُ مبهماً أَبلغ؛ لأن كل من وصل في ذلك إلى غاية ـ وإن عَلَت ـ يرى أنه مقصِّر، وهذا المعنى المأمور به في جانب ذي القربى داخل تحت العدل والإحسان، لكنه تعالىٰ خصَّه بالذكر اهتماماً به وحثّاً عليه.

و[ٱلْفَحْشَاءِ]: الزِّنَى ـ قاله ابن عباس ـ وغيره من المعاصي التي شُنْعَتها ظاهرة، وفاعلها أَبداً مستتر بها، وكأنَّهم خصوها بمعاني الفروج [وَٱلْمُنكَرِ] أعم منه؛ لأنه يعم جميع المعاصي والرذائل والإدانات على اختلاف أَنواعها، [وَٱلْبَغْيِ] هو إنشاءُ ظلم الإنسان والسعاية فيه، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالىٰ خصَّه بالذكر اهتماماً لشدَّة ضرره بين الناس، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا ذنب أَسرع عقوبة من بغي»(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «الباغي مصروع»، وقد وعد الله من بُغِيَ عليه بالنصر، وفي بعض الكتب المنزلة: «لو بَغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكًّا».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتغيير المنكر فرضٌ على الولاة، إلا أَن المغيِّر لا يعِنُّ لمستور، ولا يُعمل ظنًّا، ولا يتَجَسَّس، ولا يُغَيِّر إلاَّ ما بدت صفحته، ويكون أَمرُهُ ونهيُهُ بمعروف، وهذا كلُّه

= رسول الله ﷺ ذات يوم إذْ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كَفَّيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إلَهَ إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتَحُجَّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويُصَدِّقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعْلَم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربَّتَها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعَاءَ الشاءِ يتطاولون في البنيان، قال: ثم انطلق، فلبثت مليّاً ثم قال لي: يا عُمر، أتدري من السائل ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

(١) أخرج مسلم في الزهد، وأبو داود في الأدب، والترمذي في القيامة، وأحمد في مسند ٥ـ٣٦، عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل بصاحبه العقوبة مع ما يؤخر له في الآخرة من بَغْي أو قطيعة رحم» واللفظ عن المسند.



لغير الولاة أَلزم، وفرض على المسلمين عامة، ما لم يَخَف المغيِّر إذاية أَو ذُلاً، ولا يغير المؤمن بيده ما وجد سلطاناً، فإنْ عدِمَه غيَّر بيده، إلاَّ أنه لا يصل إلى نصب القتال والمداراة وإعمال السلاح إلاَّ مع الرياسة والإمام المتَّبع، وينبغي للناس أَن يغيِّر المنكرَ كلُّ أَحد منهم، تقي وغير تقي، ولو لم يغير إلاَّ تقي لم يتغير منكر في الأَغلب، وقد ذَمَّ الله قوماً بأَنهم لم يتناهوا عنه[1]، وكل مُنكَر فيه مدخل للنظر فلا مدخل لغير حملة العلم فيه، فهذه نبذة من القول في تغيير المنكر تضمنت ثمانية شروط، وروي أَن جماعة من الصحابة[2] رفعت على عاملها إلى أَبي جعفر المنصور، فحاجَّها العامل وغلبها بأَنهم لم يُثبتوا عليه كبير ظلم ولا جَوْرَه في شيءٍ. فقام فتًى من القوم فقال: يا أَمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عَدَل ولم يُحْسن، قال: فعجب أَبو جعفر من إصابته وعزل العامل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ الآية. يتضمن قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ الآية التي قبلها: «افعلوا كذا وانتهوا عن كذا»، فعطف على ذلك التقدير قوله: [وَأَوْفُوا]، و«عَهْدُ اللهِ» لفظ لجميع ما يُعقد باللسان ويلزمه الإنسان، من بيع أَو صلة أَو مُوَاثقة في أَمر موافق للديانة، وقوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ خصَّ في هذه الآية الأَلفاظ المعهودة التي يُقرن بها أَيمانٌ تهَمُّماً بها وتنبيهاً عليها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله فيما كان الثبوت فيه على اليمين طاعة لله تعالىٰ، وما كان الانصراف عنه أَصوب في الحق فهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين فرأَى غيرها خيراً منها فليكفِّر عن يمينه وَلْيَأْتِ الذي هو خير»[3]، ويقال: توكيد وتأْكيد، ووكَّد

---

(١) يشير إلى قوله تعالىٰ في وصف اليهود: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، (٧٨، ٧٩ المائدة).

(٢) لا يصح قوله: «من الصحابة» مع كون الحادثة في زمن أبي جعفر المنصور، ولهذا أسقطتها بعض النسخ، وكذلك ذكرها القرطبي بدون قوله: «من الصحابة».

(٣) الحديث رواه الشيخان، ولفظه كما رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، عن عبد الرحمن بن سَمُرَة قال: قال النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ =

وأكّد، وهما لغتان، وقال الزجاج: الهمزة مبدلة من الواو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير بيّن؛ لأنه ليس في وجود تصريفه ما يدلُّ على ذلك.

و[كَفِيلاً] معناه: متكفِّلاً بوفائكم، وباقي الآية وعيد في ضمن خبر بِعِلْم الله تعالىٰ بأفعال عباده، وقالت فرقة: نزلت هذه الآية في الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، رواه أبو ليلى عن بريدة، وقال قتادة، ومجاهد، وابن زيد: نزلت فيما كان من تحالف الجاهلية في أمر بمعروف أو نهي عن منكر، فزادها الإسلام شدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كما قال ﷺ: «لاَ حِلْفَ في الإسلام وما كان من حِلْفٍ في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلاَّ شِدَّة»[1]، وهذا حديث معنى، وإن كان السبب بعْض هذه الأشياءِ فألفاظ الآية عامة على جهة مخاطبة العالمين أجمعين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

شبهت هذه الآية الذي يحلف أو يعاهد ويبرم عقده بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً، وشبه الذي ينقض عهده بعد الإحكام بتلك الغازلة إذا نقضت قويَّ ذلك الغزل

= إليها، وإن أُوتيتها من غير مسألة أُعِنْت عليها، وإذا حلفتَ على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكَفِّر عن يمينك، وائتِ الذي هو خَيْرٌ».

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، وأبو داود في الفرائض، والبخاري في الكفالة والأدب، والترمذي في السِّير، وكذلك الدارمي، والإمام أحمد في المسند في مواضع كثيرة، ولفظه كما في سنن الدارمي عن ابن عباس، قيل لشريك عن النبي ﷺ: قال: «نعم، لا حِلْف في الإسلام، والحلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شِدَّةً وجدَّة». وعلّق القرطبي عليه فقال: «يعني في نُصرة الحق والقيام به والمواساة، وهذا كنحو حلف الفضول،... قال العلماءُ: فهذا الحِلْف الذي كان في الجاهلية هو الذي شدَّه الإسلام، وخصَّه النبي ﷺ من عموم قوله: «لا حِلْف في الإسلام»؛ لأن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه».

فحلَّته بعد إبرامه، ويُروى أن امرأة حمقاءَ كانت بمكة تُسَمَّى رَيْطَة بنت سعد كانت تفعل ذلك، فَبِهَا وقع التشبيه، قاله عبد الله بن كثير، والسُّدِّي، ولم يُسَمِّيا المرأة، وقيل: كانت امرأة موسوسة تسمَّى خطية تغزل عند الحجر وتفعل ذلك، وقال مجاهد، وقتادة: ذلك ضرب مثل لا على امرأة معينة. و[أَنكَاثاً] نصب على الحال، والنكث: النَّقْض. و«القُوَّة» في اللغة واحدةُ قُوَى الغَزْل والحبل وغير ذلك مما يضفر، ومنه قول الأغلب الراجز:

. . . . حَبْـلَ عَجُـوزٍ فَتَلَـتْ سَبْـعُ قُـوى[1]

ويظهر لي أن المراد بالقوَّة في الآية الشدَّة التي تحدث من تركيب قُوى الغزل، ولو قدرناها واحدة القُوى لم يكن معها ما ينتقض أنكاثاً، والعرب تقول: انتكث الحبل إذا انتقضت قواه، أما إنَّ عرف الغزل أنه قوة واحدة ولكن لها أجزاءٌ كأنها قوى كثيرة له، قال مجاهد: المعنى: من بعد إمْرار قوة.

و«الدَّخل»: الدَّغل بعينه، وهي الذَّرائع إلى الخدع والغدر، وذلك أن المحلوف له مطمئن فيتمكن الحالف من ضرّه بما يريد.

وقوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾، قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أُخرى، ثم جاءَت إحداهما قبيلة كبيرة قوية فداخلتها غدرت الأُولى ونقضت معها ورجعت إلى هذه الكبرى، فقال الله تعالىٰ[2]: لا تنقضوا العهود من أَجل أَن تكون قبيلة أَزْيَد من قبيلة في العَدَد والعُدَّة، و«الرِّبَا»: الزيادة، ويحتمل أن

---

(١) الأغلب الراجز، هو الأغلب بن جُشَم العِجْلي، من سعد بن عِجْل، كان جاهلياً إسلامياً، عاش تسعين سنة، وقتل بنهاوند، وهو أول من شَبَّه الرَّجز بالقصيد وأطاله بعد أن كان قبله مجرد بيت أو بيتين يقولهما الراجز، وهذا عجز البيت، وهو كاملاً:

كَــأنَّ عِــرْقَ أَيْــرِهِ إذا وَدَى حَبْـلَ عَجُـوزٍ فَتَلَـتْ سَبْـعَ قُـوَى

وهو من أرجوزة في سجاح، قالها حين تزوجت من مسيلمة الكذاب، ويروى «ضَفَرَتْ» بدلاً من «فَتَلَتْ»، و«خَمس» بدلاً من «سبع»، ووَدَى: خرج منه الودي، وقوَى: جمع قُوَّة، وهي الخصلة الواحدة من قوى الحبل، أو الطاقة الواحدة من طاقات الحبل، وفي حديث ابن الدَّيْلَميِّ: «ينقض الإسلام عُروة عُروة كما ينقض الحبلُ قوَّة قوةً»، ويجمع قُوَة على قُوًى، كما جمعت صُوَّة على صُوًى، وهُوَّةٌ على هُوًى.

(٢) يريد: كأن الله تعالىٰ قال ما معناه كذا وكذا.



يكون القول معناه: لا تنقضوا الأَيْمَان من أَجل أَن تكونوا أَرْبى من غيركم، أَي: أَزيد خيراً، فمعناه: لا تطلبوا الزيادة بعضكم على بعض بنقض العهود. و[يَبْلُوكُم] معناه: يختبركم، والضمير في [بِهِ] يحتمل أَن يعود على الوفاءِ الذي أَمر الله به، ويحتمل أَن يعود على الرِّبا، أَي أَن الله ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه ممن يُتْبعها هواها، وباقي الآية وعيدٌ بيوم القيامة.

وقوله: ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾، موضع [أَربَى] عند البصريين رفع، وعند الكوفيين نصب و[هِيَ] عماد، ولا يجوز العماد هنا عند البصريِّين؛ لأَنه لا يكون مع النكرة، و[أُمَّةٌ] نكرة، وحجة الكوفيين أَن [أُمَّة] وما جرى مجراها من أَسماءِ الأَجناس تنكيرها قريب من التعريف، أَلا ترى أَن إِدخال الأَلف واللام عليها لا يخصصها كبير تخصيص؟ وفي هذا نظر.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآية. أَخبر الله تعالىٰ في هذه الآية أَنه يبتلي عباده بالأَوامر والنواهي ليذهب كل واحد إِلى ما يُسِّر له، وذلك منه تعالىٰ بحق المِلْك، ولا يُسأَل عما يفعل، ولو شاءَ لكان الناسُ كلهم في طريق واحد، إِمَّا في هدًى وإِمَّا في ضلالة، ولكنه تعالىٰ شاءَ أَن يفرق بينهم، ويخص قوماً بالسعادة وقوماً بالشقاوة. و[يُضِلُّ] [وَيَهْدِي] معناه: «يخلق ذلك في القلوب» خلافاً لقول المعتزلة، ثم توعَّد في آخر الآية بسؤال كل أَحد يوم القيامة عن عمله، وهذا سؤال توبيخ، وليس ثَمَّ سؤال تفهُّم، وذلك هو المنفي في آيات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

كرَّر النهي عن اتخاذ الأَيمان تَهَمُّماً بذلك، ومبالغة في النهي عنه لعظم موقعه من



الدين، وتردُّده في معاشرات الناس[1]، و«الدَّخل» ـ كما قلنا ـ الغوائل. وقوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ استعارة للمستقيم الحال يقع في شرٍّ عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلَّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرٍّ، ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر:

. . . . فَلَمَّـا تَـوَافَيْنَـا ثَبَـتُّ وَزَلَّـتِ[2]

أي: تنقلت من حال إلى حال، فاستعار لها الزلل، ومنه يقال لمن أخطأ في الشيء: زَلَّ فِيه. ثم توعَّد بعْدُ بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة. وقوله: ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يدل على أن الآية فيمن بايع رسول الله ﷺ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ الآية. هذه آية نهي عن الرشا وأخذ الأَموال على فعل ما يجب على الآخذ تركه، أَو ترك ما يجب عليه فعله، فإن هذه هي التي عهد الله إلى عباده فيها، فمن أَخذ على ذلك مالاً فقد أَعطى عهد الله وأَخذ قليلاً من الدنيا، ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ أَن ما عنده من نعيم الجنة ومواهب الآخرة خيرٌ لمن اتَّقى وعلم واهتدى، ثم بيّن الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأَن هذه تنفد وتنقضي عن الإنسان أَو ينقضي عنها، وأَن الآخرة باقية دائمة. وقرأ ابن كثير، وعاصم: [وَلَنَجْزِيَنَّ]

---

(١) وقيل: إنما كرِّر لاختلاف المعنيَيْن، لأن الأول فيه نهي عن الدخول في الحِلْف ونقض العهد بالقلة والكثرة، وهنا نهي عن الدَّخَل في الأيمان التي يراد بها اقتطاع حقوق، فكأنه قال: دخَلاً بينكم لتواصلوا بها إلى قطع أموال المسلمين.

ومن رأي أبي حيَّان الأندلسي أنه لم يتكرر النهي عن اتِّخاذ الأيمان دخَلاً، فَمَا سبق إخبارٌ بأنهم اتَّخذوا أيمانهم دخلا معللاً بشيءٍ خاص، وهو أن تكون أُمة هي أربى من أُمة، وجاء النهي هنا بقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ استئناف إنشاءٍ عن اتخاذ الأيمان دخلاً على العموم، فيشمل جميع الصور من الحلف في المبايعة وقطع الحقوق المالية وغير ذلك.

(٢) هذا عجز بيت قاله كثيِّر من قصيدة له قال عنها أبو عليِّ القالي: هي من منتخبات شعر كثيِّر، ومطلعها:

خَلِيلَـيَّ هـذا رَبْـعُ عَـزَّةَ فـاعْقِـلا ... قَلُـوصَيْكُمَـا ثُـمَّ ابكِيَـا حيْـثُ حَلَّـتِ

والبيت بتمامه:

وكُنَّـا سَلَكْنَـا فـي صَعُـودٍ مِـنَ الهَـوَى ... فَلَمَّـا تَـوَافَيْنَـا ثَبَـتُّ وَزَلَّـتِ

والقصيدة في الديوان، ومنها مختارات في الأمالي، وفي الشعر والشعراء، وفي الأغاني. والصَّعُود: العقبة الشاقة أو الطريق الصاعد، ويريد هنا أنه وصل مع عزة في الهوى إلى مرحلة بالغة الصعوبة والمشقة، ولم تستطع هي الثبات لما فيها من عناءٍ، أما هو فبقي على حبه صابراً ثابتاً على ما يلاقي من تعب ومشقة.



بنون، وقرأ الباقون: [وَلَيَجْزِيَنَّ] بالياءِ، ولم يختلفوا في قوله: [وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ] أنه بالنون، كذا قال أبو علي، وقال أبو حاتم: إن نافعاً رُوي عنه: [وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ] بالياءِ. و[صَبَرُوا] معناه: عن الشهوات وعلى مكاره الطاعة، وهذه إشارة إلى الصبر عن شهوة كسب المال بالوجوه المذكورة، وقوله: [بِأَحْسَنِ] أي: بقدر أحسن ما كانوا يعملون.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يعُمُّ جميع أعمال الطاعة، ثم قيَّده بالإيمان، واختلف الناس في الحياة الطيبة ـ فقال ابن عباس، والضحاك: هو الرزق الحلال، وقال الحسن، وعليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: هي القناعة، وهذا أطيب عيش الدنيا، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: هي السعادة، وقال الحسن البصريُّ أيضاً: الحياة الطيبة هي حياة الآخرة ونعيم الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هناك هو الطيب على الإطلاق، ولكن ظاهر هذا الوعد أنه في الدنيا، والذي أقول: إن طيب الحياة اللازم للصالحين إنما هو بنشاط نفوسهم ونُبلها وقوة رجائهم، والرجاءُ للنفس أمرٌ مُلِذٌ، فبهذا تطيب حياتهم، وبأنهم احتقروا الدنيا فزالت همومها عنهم، فإن انضاف إلى هذا مالٌ حلالٌ وصحةٌ أو قناعة فذلك كمالٌ، وإلاَّ فالطيب فيما ذكرناه راتب، وجاءَ قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ على لفظ [مَنْ]، وجاءَ قوله: [وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ] على معناها، وهذا وعْدٌ بنعيم الجنة، وباقي الآية بيِّن.

وحكى الطبري عن أبي صالح أنه قال: نزلت هذه الآية بسبب قوم من أهل المِلَل تفاخروا، وقال كل منهم: مِلَّتي أفضل، فعَرَّفهم الله في هذه أفضل المِلَل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

الفاءُ في [فَإِذَا] واصلة بين الكلامين، والعرب تستعملها في مثل هذا، وتقدير الآية:



فإذا أخذت في قراءة القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى﴾[1]، وكما تقول لرجل: إذا أكلت فقل بسم الله. والاستعاذة ندب عند الجميع، وحكى النقاش عن عطاءٍ أنَّ التعوُّذ واجب، ولفظ الاستعاذة هو على رتبة هذه الآية، وقد ذكرت الخلاف الذي قيل فيه في صدر هذا الكتاب. و[ٱلرَّجِيم]: المرجوم باللَّعنة، وهو إبليس.

ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ أَن إِبليس ليس له ملكة ولا رياسة، هذا ظاهر «السلطان» عندي في هذه الآية، وذلك أَن السلطان إِن جعلناه الحجة فليس لإِبليس حجة في الدنيا على أَحد، لا مؤمن ولا كافر، اللهم إلاَّ أَن يتأَوَّل متأَوِّل: «ليس له سلطان يوم القيامة»، فيستقيم أَن يكون بمعنى الحجة، لأَن إِبليس له حجة على الكافرين أَنه دعاهم بغير دليل فاستجابوا له من قِبَل أَنفسهم، وهؤلاءِ الذين لا سلطان ولا رياسة لإِبليس عليهم هم المؤمنون أَجمعون؛ لأَن الله تعالىٰ لم يجعل سلطانه إِلا على المشركين الذين يتولونه، والسلطان منفي ها هنا في الإِشراك؛ إِذْ له عليهم ملكة ما في المعاصي، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2]، وهم الذين قال فيهم إِبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3].

و[يَتَوَلَّوْنَهُ] معناه: يجعلونه وليًّا، والضمير في [بِهِ] يحتمل أَن يعود على اسم الله عزَّ وجلَّ، والظاهر أَنه يعود على اسم إِبليس، بمعنى: من أَجْله وبسببه، كما تقول لمعلمك: أَنا أَعلم بسببك، فكأَنه قال: والذين هم بسببه مشركون بالله، وهذه الأَخبار بأَن لا سلطان للشيطان على المؤمنين بعقب الأَمر بالاستعاذة تقتضي أَن الاستعاذة تَصْرف كيده كأَنها متضمنة للتوكل على الله والانقطاع إِليه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾، كان كفار مكة إِذا نسخ الله لفظ آية بلفظ أُخرى أَو معناها وإِن بقي لفظها ـ لأَن هذا كله يقع عليه التبديل ـ يقولون: لو كان من عند الله لم يتبدل، وإِنما هو من افتراءِ محمد، فهو يرجع من خطأٍ يبدو له إِلى صواب يراه بعْدُ، فأَخبر الله تعالىٰ أَنه أَعلم بما يصلح للعباد برهة من الدهر، ثم

---

(١) من الآية (٦) من سورة (المائدة).
(٢) من الآية (٤٢) من سورة (الحِجْر).
(٣) الآية (٤٠) من سورة (الحجْر).

ما يصلح لهم بعد ذلك، وأنهم لا يعلمون هذا. وقرأ الجمهور: [يُنَزِّلُ] بفتح النون وشد الزاي، وقرأ أبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي، وعبَّر بالأكثر مراعاة لما كان عند قليل منهم من موقف وقِلَّة مبالغة في التكذيب وظن، ويحتمل أن يكون هذا اللَّفظ قرَّر على قليل منهم أنهم يعلمون ويكفرون تَمَرُّداً وعناداً.

وأمر نبيَّه أن يخبر أن القرآن ناسخَه ومنسوخَه إنما نزَّله جبريل عليه السلام، وهو روح القدس، لا خلاف في ذلك، [والْقُدُس]: الموضع المطهر، فكأن جبريل أُضيف إلى الأمر المطهر بإطلاق، وسُمِّي روحاً إمَّا لأنه ذو روح من حملة روح الله الذي بثَّه في خلقه، وخُصَّ هو بهذا الاسم، وإما لأنه يجري من الهدايات والرسالات ومن الملائكة أيضاً مجرى الروح من الأجساد لِشَرفه ومكانته، وقرأ ابن كثير: [الْقُدْس] بسكون الدال، وقرأ الباقون بضمها، وقوله: [بِالْحَقِّ] أي: مع الحق في أوامره ونواهيه وأحكامه ومصالحه وأخباره، ويحتمل أن يكون قوله: [بِالْحَقِّ] بمعنى حقًّا، ويحتمل أن يريد: بالحقِّ في أن ينزل، أي أنه واجب لمعنى المصلحة أن ينزل، وعلى هذا الاحتمال اعتراضات عند أصحاب الكلام على أصول الدين، وباقي الآية بيِّن.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان في مكة غلام أعمى لبعض قريش يُقال له بلعام، فكان رسول الله ﷺ يكلمه ويعلمه الإسلام ويرومه عليه، فقالت قريش: هذا يعلم محمداً من جهة الأعاجم، فنزلت الآية بسببه، وقال عكرمة وسفيان: كان اسم الغلام يعيش، وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي: كان بمكة غلامان، أحدهما اسمه جَبْر، والثاني يسار، وكانا يقرآن بالرومية، وكان رسول الله ﷺ يجلس إليهما، فقالت قريش ذلك، ونزلت الآية، وقال ابن إسحق: الإشارة إلى جَبْر، وقال الضحاك: الإشارة إلى سلمان الفارسي، وهذا ضعيف، لأن سلمان إنما أسلم بعد الهجرة بمكة. وقرأت فرقة: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى﴾، وقرأ الحسن البصري: «اللِّسانُ الَّذي» بالتعريف وبغير تنوين في راءِ [بَشَر][1]. وقرأ نافع، وابن كثير: [يُلْحِدُونَ] بضم الياءِ، مِنْ «أَلْحَدَ» إذا مالَ، وهي قراءَة أبي عمرو، وعاصم،

---

(١) قال ابن جني: «ليس قوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ جملة في موضع الصفة لـ [بَشَر]، ألا تراها خالية من ضميره؟ ولأن المعنى أيضاً ليس على كونها صفة، وإنما الوقف على قوله: [بَشَر]، ثم استأنف الله تعالىٰ القول ردّاً عليهم».

وابن عامر، وأَبي جعفر بن القعقاع، وقرأ حمزة، والكسائي: [يَلْحَدُون] بفتح الياءِ والحاءِ، من «لَحَدَ»، وهي قراءَة عبد الله، وطلحة، وأَبي عبد الرحمن، والأَعمش، ومجاهد، وهما بمعنى، ومنه قول الشاعر:

قَـدْنِـيَ مِـنْ نَصْـر الخُبَيْبَيْـنِ قَـدِي ... لَيْسَ أَمِيـري بـالشَّحيح الْمُلْحِـدِ[1]

يريد: المائل عن الجود وحال الرياسة.

وقوله: [أَعْجَمِيّ] إِضافة إِلى «أَعْجَم» لا إِلى «الْعَجَم»؛ لأَنه كان يقول: «عَجَمِيّ»، والأَعجم: هو الذي لا يتكلم بعربيّة، وأَما العجميُّ فقد يتكلم بالعربية ونسبته قائمة[2].

وقوله: [وَهَٰذَا] إِشارة إِلى القرآن، والتقدير: وهذا سرْدُ لسان، أَو نُطْقُ لسان، فهو على حذف مضاف، وهذا على أَن نجعل اللسان هنا الجارحة، واللسان ـ في كلام العرب ـ: اللغة، ويحتمل أَن يراد في هذه، واللسان: الْخَبَر، ومنه قول الأَعشى:

إِنِّـي أَتَتْنـي لِسَـانٌ غَيْـرُ كَـاذِبَـةٍ ... .[3]

ومنه قول الآخر:

لِسَـانُ السُّـوءِ تُهْـدِيهَـا إِلَيْنَـا ... وحِنْـتَ ومـا حَسِبْتُـكَ أَنْ تَحِينَـا[4]

---

(١) هذا الرجزي لحُميد بن مالك الأرقط، وقيل: لأبي بحدله، وهو في الكتاب لسيبويه، والخزانة، وابن عقيل. وقدني: حَسْبي، والخُبَيْبَيْن: عبد الله بن الزبير وابنه خُبيب، أو هما عبد الله وأخوه مصعب، والأمير هو عبد الملك بن مروان، ويروى: «ليس الإمام»، والمعنى: يكفيني منهما ما نلت، ولن أطلب نصرتهما؛ فإن عبد الملك خير منهما، فهو ليس شحيحاً ولا ملحداً، وقيل: أراد بالإلحاد هنا الظلم، وقد سبق الاستشهاد بهذا الشعر قبل ذلك.

(٢) أَعْجَميّ من أَعْجَمَ بمنزلة أَحْمَريّ من أحمر، وأَشقريٌّ من أَشقر، وكلأَبيٌّ من كَلاَّب، قاله أبو عثمان بن جني في المحتسب، وقال: إن العجمي هو المنسوب للعجم وإن كان فصيحاً، ألا ترى أن سيبويه كان عجمياً وإن كان لسانه العربية.

(٣) هذا صدر بيت لأعشى باهلة، قال ذلك في (اللسان)، والبيت بتمامه على رواية اللسان:

إِنِّـي أَتَتْنـي لِسَـانٌ لا أُسَـرُّ بِهَـا ... مِـنْ عَلْـوَ لا عَجَـبٌ مِنْهَـا ولا سَخَـرُ

قال: قد يكنى باللسان عن الكلمة فيؤنث حينئذ، وقال ابن برّي: اللسان هنا: الرسالةُ والمقالة، ومثله:

أَتَتْنـي لِسَـانُ بَنِـي عَـامِـرٍ ... أَحَـادِيثُهَـا بَعْـدَ قَـوْلٍ نُكُـرْ

(٤) البيت في الطبريّ، ورواه في القرطبي: (وَخُنْتَ ومَا حَسِبْتُكَ أن تَخُونَا) بالخاء من الخيانة، أما هنا وفي الطبريّ فهو بالحاءِ المهملة، وهو من الحَيْن بمعنى الهلاك، يقالُ: حانَ يحين حيناً بمعنى: هَلَك. =

وحكى الطبري عن سعيد بن المسيَّب أَن الإِشارة بقولهم: [بَشَرٌ] إنما هي إِلى كاتب كان يكتب لرسول الله ﷺ، فيقول له رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في أَواخر الآيات: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فيكتب هو «عزيز حكيم» أَو نحو هذا، ثم يشتغل باستماع الوحي فيبدل هو بـ «غفور رحيم» أَو نحوه، فقال له عليه الصلاة والسلام في بعض الآيات: هو ما كتبت، فَفُتن وقال: أَنا أُعلم محمداً وارتد ولحق بمكة فنزلت الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا نصراني أَسلم وكتَب ثم ارتدَّ ومات فلفظته الأَرض، وإِلاَّ فهذا القول يضعف؛ لأَن الكاتب المشهور الذي ارتَدَّ لهذا السبب ولغيره من نحوه هو عبد الله بن أَبي سَرْح العامريّ، ولسانه ليس بأَعجمي، فتأَمَّل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

المعهود[1] من الوجود أَن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأَخَّرَ تَهَمُّماً بقبيح فعلهم والتشنيع بخطئهم، وذلك كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2]، والمراد ما ذكرناه، فكأَنه قال: إِنَّ الذين لم يؤمنوا لم يهدهم الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ بمعنى: إِنما يكذب، وهذه مقاومة للذين قالوا لمحمد ﷺ: «إِنما أَنتَ مُفْتَر»، و[إِنَّمَا] حاصرةٌ أَبداً، لكن حصرها يختلف باختلاف المعاني التي تقع فيها، فقد يربط المعنى أَن يكون حصرها حقيقياً، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[3]، وقد يقتضي المعنى أَن يكون حصرها تجوُّزاً ومبالغة، كقولك:

= والشاهد هنا أن اللسان بمعنى الخَبَر، لكنْ في القرطبي وفي الطبري أنه بمعنى القصيدة، لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لساناً، أو هذا لسان فلان: تريد قصيدته.

(١) في بعض النسخ: «المفهوم» بدلاً من «المعهود».
(٢) من الآية (٥) من سورة (الصَّفّ).
(٣) من الآية (١٧١) من سورة (النساء).

«إنما الشجاع عنترة»، وهكذا هي في هذه الآية، قال الزجاج: يفتري هذا الصنف لأنهم إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها، فهذا أفحشُ الكذب. وكرَّر المعنى في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ لفائدة إيقاع الصفة بالكذب عليهم، إذ الصفةُ بالشيءِ أَبلغ من الخبر به؛ لأَن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضيه الخبر، فبدأَ في هذه الآية بالخبر ثم أَكَّد بالصفة، وقد اعترض هذا النظر مكيٌّ، وليس اعتراضه بالقوي. و[مَنْ] في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بدل من قوله: [ٱلْكَاذِبُونَ]، ولم يُجز الزجاج غير هذا الوجه؛ لأنه رأَى أَن هذا الكلام إلى آخر الاستثناءِ غير تام، فعلَّقه بما قبله، والذي أَبى الزجاجُ سائغ على ما أُورده الآن إن شاءَ الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يتأَيد بما رُوي من أَن قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ يراد به عبد الله بن أَبي سَرْح، ومقبس بن صبابة وأَشباههما ممن كان آمن برسول الله ﷺ ثم ارتَدَّ، فلما بيَّن في هذه الآية أَمْر الكاذبين بأَنهم الذين كفروا بعد الإِيمان أَخرج من هذه الصفة القوم المؤمنين المعذَّبين بمكة وهم بلال وعمَّار وسُمَيَّة أُمُّه وخبَّاب وصُهَيْب وأَشباههم، وذلك أَن كفار مكة كانوا في صدر الإسلام يؤذون من أَسلم من هؤلاءِ لضعفه، ويُعذِّبونهم ليرتدُّوا، فربما سامحهم بعضهم بما أَرادوا من القول، رُوي أَنَّ عمَّار بن ياسر فعل ذلك فاستثناه الله في هذه الآية، وبقيت الرخصة عامَّة في الأَمر بعده. ثم ابتدأَ في الإِخبار بأَن ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ﴾، وهذا الضمير على معنى ﴿مَنْ﴾ لا على لفظها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا من الاعتراض أَن أَمر ابن أَبي سَرْح وأُولئك إنما كان ورسول الله ﷺ بالمدينة، والظاهر من هذه الآيات أَنها مكِّيَّة، وقالت فرقة: ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ ابتداءٌ، وقوله: ﴿مَّن شَرَحَ﴾ تخصيص منه، ودخل الاستثناءُ لما ذكرنا من إِخراج عمَّار وشبهه، وَدَنا من الاستثناءِ الأَول الاستدراكُ بلكن. وقوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ﴾ خبر عن ﴿مَنْ﴾ الأولى والثانية؛ إذ هو واحد بالمعنى؛ لأَن الإِخبَار في قوله إنما قصد به الصنف الشارح بالكفر[1]، فـ ﴿صَدۡرٗا﴾ نصب على التمييز، وقوله: ﴿شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ

(١) عقَّب أبو حيان على هذا بقوله: «وهذا وإن كان كما ذكر فهاتان جملتان شرطيتان وقد فُصل بينهما بأداة=



صَدْرًا﴾ معناه: انبسط للكفر باختياره، ويُرْوى أَن عَمَّار بن ياسر شَكَا إِلى رسول الله ﷺ ما صنع به من العذاب، وما سامح به من القول، فقال له: «كيف تجد قلبك؟» قال: أَجده مطمئناً بالإيمان، قال: «فَأَجِبْهُم بلسانك فإِنَّهُ لا يضرك، وإِن عادوا فَعُدْ»[1]، ويتعلق بهذه الآية شيءٌ من مسائل الإكراه، أَمَّا من عذَّبه كافر قادر عليه ليكفر بلسانه، وكان العذاب يؤَدي إِلى قتله فله الإجابة باللسان قولاً واحداً فيما أَحفظ، فإِن أَراد منه الإجابة بفعل كالسجود للصنم ونحو ذلك ففي هذا اختلاف ـ فقالت فرقة وهي الجمهور: يجيب بحسب التَّقية، وقالت فرقة: لا يجيب، ويسلم نفسه، وقالت فرقة: إِن كان الصنم نحو القبلة أَجاب واعتقد السجود لله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما أَحراه أَن يسجد لله حينئذ حيثما توجه، وهذا مباح في السفر لتعب النزول عن الدابة في التَّنقل، فكيف بهذا؟ واحتجت فرقة على التفريق في المنع بقول ابن مسعود: «ما من كلام يدرأُ عني سوطين من ذي سلطان إِلا كنتُ متكلماً به»، فقصر الرخصة على القول دون الفعل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس هذا بحجة، لأَنه يحتمل أَن جعل الكلام مثالاً وهو يريد أَن الفعل في حكمه،

= الاستدراك، فلا بد لكل واحدة منهما من جواب على انفراده لا يشتركان فيه، فتقدير الحذف أحرى على صناعة الإعراب، وقد ضعَّفوا مذهب أبي الحسن في ادعائه أن قوله: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وقوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ جواب لـ [أمّا] ولـ [إنْ]، هذا وهما أداتا شرط إحداهما تلي الأخرى».

(١) أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه: تفرقوا عني، فمن كانت به قوة فليتأخر إلى آخر الليل، ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا بي، فأصبح بلال المؤذن وخباب وعمَّار وجارية من قريش كانت أسلمت، فأصبحوا بمكة، فأخذهم المشركون وأبو جهل، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى، فجعلوا يصنعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه، فإذا ألبسوها إياه قال: أَحدٌ أَحدٌ، وأما خباب فجعلوا يجرونه في الشوك، وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تَقِيَّة، وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد، ثم مدَّها فأدخل الحربة في قُبُلها حتى قتلها، ثم خلُّوا عن بلال وخبّاب وعمّار، فلحقوا برسول الله ﷺ، فأخبروه بالذي كان من أمرهم، واشتد على عمار الذي كان تكلم به، فقال له رسول الله ﷺ: كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟ أكان منشرحاً بالذي قلت أم لا؟ قال: لا، قال: وأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.



وأَمَّا الإِكراه في البيع والطلاق والعتق والفطر في رمضان وشرب الخمر ونحو هذا من المعاصي التي بين العبد وبين الله تبارك وتعالىٰ فلا يلزم المكره شيءٌ من ذلك، قاله مطرّف، ورواه مالك، وقاله ابن عبد الحكم وأَصبغ، وروياه عن ابن القاسم عن مالك، وفرق ابن عباس رضي الله عنهما بين ما منها قول كالعتق والطلاق فجعل فيها التَّقية، وقال: لا تقيّة فيما كان فعلاً كشرب الخمر والفطر في رمضان، ولا يحل فعلهما لمكره، وأَما المظلوم فيضغط حتى يبيع متاعه، فذلك بيع لا يجوز عليه، وهو أَولى بمتاعه يأْخذه بلا ثمن، ويبيع المشتري بالثمن ذلك الظالم، فإِن فات المتاع رجع بثمنه أَو بقيمته ـ بالأَكثر من ذلك ـ على الظالم إِذا كان المشتري غير عالم بظلمه، قال مطرّف: ومن كان من المشترين يعلم حال المُكْره فإِنه ضامنٌ لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب، وأَما من لا يعلم فلا يضمن العروضَ والحيوان، وإِنما يضمن ما كان تلفه بسببه، مثل طعام أَكله، أَو ثَوْب لبسه، والغَلَّةُ ـ إِذا عَلِم أَو لم يَعْلَم ـ ليست له بحال، هُوَ لها ضامن كالغاصب، وقال أَصبغ وعبد الحكم: قال مطرف: وكل ما أَحدث المبتاع في ذلك من عِتْق أَو تدبير أَو تحبيس فلا يلزم المكرَه، وله أَخذ متاعه.

وأَما الإِكراه على قتل مسلم أَو جَلْدِه وأَخذ مالِه أَو بيع متاعه فلا عذر فيه، ولا استكراه في ركوب معصية تُنْتَهَك من أَحد كالزِّنى والقتل ونحوه، قال مطرّف، وأَصبغ، وابن عبد الحكم: لا يفعل أَحد ذلك وإِن قُتل إِنْ لم يفعله، فإِنْ فَعَله فهو آثم ويلزمه الحدُّ والقَود، وقال مالك: القيْد إِكراهٌ، والسِّجن إِكراهٌ، والوعيد المخوف إِكراهٌ وإِن لم يقع إِذا تحقق ظُلْمَ ذلك المُتَعَدِّي وإِنفاذَه لما يتوعَّد به، ويعتبر الإِكراه عندي بحسب هِمَّة المُكْرَه وقدره في الدين، وبحسب الشيءِ الذي يُكْرَهُ عليه، فقد يكون الضرب إِكراهاً في شيءٍ دون شيءٍ، فلهذه النوازل فقه الحال، وأَما يمين المُكْرَه كما قلنا فهي غير لازمة، قال ابن الماجشون: وسواءٌ حلف فيما هو لله تبارك وتعالىٰ طاعة أَو معصية إِذا أُكره على اليمين، قاله أَصبغ، وقال مطرف: إِن أُكْره على اليمين فيما هو لله تعالىٰ معصية أَو فيما ليس في فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة، وإِن أُكْرِه على اليمين فيما هو طاعة ـ مثل أَن يأْخذ الوالي رجلاً فاسقاً فَيُكْرِهه على أَن يحلف بالطلاق لا يشرب خمراً، أَو لا يفسق، أَو لا يغشُّ في عمله، أَو الوالد يحلف ولده في مثل هذا تأْديباً له ـ فإِن اليمين تلزم وإِن كان المُكْره قد أَخطأَ فيما تكلف من ذلك، وقال به ابن حبيب. وأَما إِن أُكْرِهَ

رجلٌ على أن يحلف وإلا أُخذ له مال ـ كأصحاب المَكْس[1]، وظَلَمة السعاة، وأهل الاعتداءِ ـ فقال مطرّف: لا تقية في ذلك، وإنما يدرأُ المرءُ بيمينه عن بدنه لا عن ماله، وقال ابن الماجشون: لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه. وقال ابن القاسم: بقول مطرّف، ورواه عن مالك رحمه الله، وقاله ابن عبد الحكم، وأصبغ، وابن حبيب. وقال مطرّف، وابن الماجشون: وإن يدرأ الحالف بيمينه للوالي الظالم قبل أن يسأله ليذُبَّ بها عما خاف عليه من بدنه وماله فحلف بها فإنها تلزمه، وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ، وقال أيضاً ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق البَتَّة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب، وإنما حلف خوفاً من ضربه وقتله أو أخذ ماله، فإن كان إنما يتبرع باليمين غلبة خوفٍ ورجاءَ النجاة من ظُلْمِه فقد دخل في الإكراه ولا شيءَ عليه، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث، وإذا اتَّهم الوالي أحداً بفعل أمر فقال له: لا بُدَّ من عقوبتك إلا أن تحلف لي، فإن كان ذلك الأمر مما لذلك المُكْرَه فعلُه ـ إمَّا أن يكون طاعة، وإمَّا أن يكون لا طاعة ولا معصية ـ فالتَّقية في هذا، وأما إن كان الأمر ممَّا لا يحلُّ له فِعْلُه ويكون حظر الوالي فيه صواباً فلا تقية في اليمين، وهو حانث، قاله مالك، وابن الماجشون، فهذه نُبْذة من مسائل الإكراه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

[ذَلِكَ] إشارة إلى الغضب والعذاب الذي توعَّد به قبل هذه الآية[2]، والضمير في [أَنَّهُمْ] لمن شرح بالكفر صدراً، ولما فعلوا فعل من استحبَّ أُلزموا ذلك وإن كانوا غير

---

(١) المَكْسُ: واحد المكوس، وهي الضرائب التي يأخذ المُكَّاسُ ممن يدخل البلد من التُّجار. (المعجم الوسيط).

(٢) وقيل: إن [ذَلِكَ] إشارة إلى الارتداد والإقدام على الكفر؛ لأجل أنهم رجَّحوا الدنيا على الآخرة، ولأنه تعالىٰ ما هداهم إلى الإيمان.



مصدقين بالآخرة، لكن الأمر في نفسه بيِّن، فمن حيث أَعرضوا عن النظر فيه كانوا كمن استحب غيره، وهذه الآية عُلِّق فيها العقاب بتكسبهم، وذلك أَن استحبابهم زينة الدنيا ولذَّات الكفر هو التكسُّب.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ إشارة إِلى اختراع الله الكفر في قلوبهم، ولا شكَّ أَن كفر الكافر الذي تعلَّق به العقاب إنما هو باختراع من الله وتكسُّب من الكافر، فجمعت الآية بين الأَمرين، وعلى هذا مرَّت عقيدة أَهل السُّنَّة[1]. وقوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ عموم على أَنه لا يهديهم من حيث هم كفار في نفس كفرهم، أَو عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي.

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، عبارة عن صرف الله لهم عن طريق الهدى، واختراع الكفر المظلم[2] في قلوبهم، وتغليب الإِعراض على نظرهم، فكأَنه سدَّ بذلك طرق هذه الحواس حتَّى لا تنفع في اعتبار وتأَمُّل، وقد تقدم القول وذِكْر الاختلاف في الطبع والختم في سورة البقرة، وهل هو حقيقة أَو مجاز[3]. و«السَّمْع»: اسم جنس، وهو مصدر في الأَصل، فلذلك وُحِّد، ونبَّه على تكسُّبهم الإِعراض عن النظر فوصفهم بالغفلة، وقد سبق شرح ﴿لَا جَرَمَ﴾ في هذه السورة[4].

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قوم من أَهل مكة أَسلموا، وكانوا يستخفون بالإِسلام، فأَخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأُصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أَصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[5] إِلى آخر الآية، قال: فكتب بها إِلى من بقي من المسلمين بمكة، وأَن لا عذر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأَعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إِلى آخر الآية[6]، فكتب المسلمون إِليهم بذلك، فخرجوا ويئسوا من

---

(١) في هذا الكلام ردٌّ واضح على ابن تيمية الذي اتهم ابن عطية بالاعتزال.
(٢) في بعض النسخ: «واختراع الكفر والظلم».
(٣) راجع المجلد الأول صفحة ١١٣.
(٤) عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾، الآية (٦٢).
(٥) من الآية (٩٧) من سورة (النساء).
(٦) من الآية (٨) من سورة (البقرة).

كل خير، ثم نزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً، فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقُتل من قُتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

جاءَت الرواية هكذا أنَّهم بعد نزول الآية خرجوا، فيجيءُ الجهاد الذي ذُكر في الآية جهادهم مع رسول الله ﷺ على الإسلام، وروت طائفة أنهم خرجوا واتَّبعوا وجاهدوا مُتَّبعيهم، فقتل من قُتل، ونجا من نجا، فنزلت الآية حينئذ، فمعنى الجهاد المذكور جهادهم لِمُتَّبِعِيهم.

وقال ابن إسحاق: نزلت هذه الآية في عمَّار بن ياسر، وعيَّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذِكْرُ عمَّار في هذا عندي غير قويم، فإنه أرفع من طبقة هؤلاءِ، وإنما هؤلاءِ مَنْ تاب مِمَّنْ شرح بالكفر صدراً[1]، فتح الله عليهم باب التوبة في آخر الآية.

وقال عِكْرمة، والحسن: نزلت هذه الآية في شأن عبد الله بن أبي سَرْح وأشباهه، فكأنه قال: من بعد ما فتنهم الشيطان. وهذه الآية مدنية، ولا أعلم في ذلك خلافاً، وإن وُجد فهو ضعيف.

وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ بضم الفاءِ وكسر التاءِ، وقرأ ابن عامر وحده بفتحهما، فإن كان الضمير للمعذَّبين فتجيءُ بمعنى: فَتَنُوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول، كما فعل عمَّار بن ياسر، وأما على قراءَة الجمهور فإن كان الضمير للمعذَّبين فهو بمعنى: من بعد ما فَتَنَهم المشركون، وإن كان الضمير للمشركين فهو بمعنى: من بعد ما فتنهم الشيطان. والضمير في [بَعْدِهَا] عائد على الفتنة، أو على الفعلة، أو الهجرة، أو التوبة، والكلام يعطيها وإنْ لم يجر لها ذكر صريح.

قوله تعالىٰ: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾، المعنى: لغفورٌ رحيمٌ يومَ، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: «كل ذي نفس». ثم أجرى الفعل على المضاف إليه المذكور فأنَّث

(١) جاءت هذه الجملة في بعض النسخ: «وإنما هؤلاء من باب: فمن شرح بالكفر صدراً».



العلامة، و﴿نَفْس﴾ الأُولى هي النفس المعروفة، والثانية هي بمعنى الذات، كما تقول: نفس الشيءِ وعينه، أَي ذاته. ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أَي: تُجَازى، كُلٌّ من أَحسن بإِحسانه، وكلٌّ من أَساءَ بإِساءَته.

وظاهر الآية أَن كلَّ نفس تجادل، مؤمنة كانت أَو كافرة، فإِذا جادل الكفار بكذبهم وجحدهم الكفر شهدت عليهم الجوارح والرسل وغير ذلك بحسب الطوائف، فحينئذ لا ينطقون، ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[1]، فتجتمع آيات القرآن باختلاف المواطن، وقالت فرقة: قول كل أَحد من الأَنبياءِ وغيرهم: نفسي نفسي، وهذا ليس بجدال ولا احتجاج، وإِنما هو مجرَّد رغبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وقتادة: القرية المضروب بها المثل مكَّةُ، كانت بهذه الصفة التي ذكر الله؛ لأَنها كانت لا تُغْزَى ولا يُغير عليها أَحد، وكانت الأَرزاق تجلب إِليها، وأَنعم الله عليها برسوله ﷺ، والمراد بهذه الضمائر كلها أَهل القرية فكفروا بأَنْعُم الله في ذلك وفي جملة الشرع والهداية، فأَصابتهم السنون والخوف وسائر سرايا رسول الله ﷺ وغزواته، هذا إِن كانت الآية مدنية، وإِن كانت مكِّيَّة فجوع السنين وخوف العذاب من الله بسبب الكفر والتكذيب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِذا كانت هي التي ضربت مثلاً فإِنما ضربت لغيرها مما يأْتي بعدها ليحذر أَن يقع فيما وقعت هي فيه، وحكي الطبري عن حفصة أُم المؤمنين رضي الله عنها أَنها كانت تسأَل في وقت حصر عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما صنع الناس؟ وهي صادرة من

(١) الآية (٣٦) من سورة (المرسلات).



الحج من مكة، فقيل لها: قتل، فقالت: والذي نفسي بيده إنها للقرية ـ تعني المدينة ـ التي قال الله فيها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فأدخل الطبري هذا على أن حفصة رضي الله عنها قالت: إن الآية نزلت في المدينة وإنها هي التي ضربت مثلاً، والأمر عندي ليس كذلك، وإنما أرادت أن المدينة قد حصلت في محذور المثل، وحلَّ بها ما حلَّ بالتي جعلت مثالاً، وكذلك يتوجه عندي في الآية أنها قُصد بها قرية غير معينة جعلت مثلاً، لكنه على معنى التحذير لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة.

و[رَغَداً] نصب على الحال، و[أَنْعُم] جمع نِعْمَة، كَشِدَّة وأَشُدّ، كما قال سيبويه، وقال قطرب: أَنْعُم: جمع نُعْم، وهو بمعنى النعيم، يقال: هذه أَيام نُعْم وطُعْم[(١)]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ استعاراتٌ، أَي: لما باشرهم ذلك صار كاللِّبَاس، وهذا كقول الأَعشى:

إِذَا مَـا الضَّجِيـعُ ثَنَـى جِيـدَهَـا ... تَثَنَّـتْ عَلَيْـهِ فَصَـارَتْ لِبَـاسَـا[(٢)]

ونحوه قوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[(٣)]، ومنه قول الشاعر:

---

(١) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: واحدها نُعْم «بضم النون وسكون العين»، ومعناها: نِعْمة، وهما واحد، قالوا: نادى منادي النبي ﷺ بمنى: «إنها أيام طُعْم ونُعْم فلا تصوموا»، وعلى هذا يكون معنى الآية: فكفرت بنعمة الله، أو بنعيمه، واستشهد القائلون بذلك على كلامهم بقول الشاعر:

وعِنْـدِي قُـروضُ الْخَيْـرِ والشَّـرِّ كُلِّـهِ ... فَبُـؤْسٌ لِـذِي بُـؤْسٍ ونُعْـم بـأَنْعُـمِ

(٢) البيت للنَّابغة الجعْدي وليس للأعشى، قال في (اللسان ـ لبس): «ولِبَاسُ الرجل: امرأته، وزوجها لباسُها، وقوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي: مثل اللباس، والعرب تسمِّي المرأة لباساً وإزاراً، قال الجعديُّ يصف امرأةً:

إذا مَــا الضَّجِيــعُ ثَنَـى عِطفَهَـا ... تَثَنَّـتْ عَلَيْـهِ فَكَـانَـتْ لِبَـاسـاً

ويقال: لبستُ امرأةً أي: تمتعت بها زماناً». ورواه في «الشِّعر والشعراءِ» للنابغة الجعدي أيضاً، وهو من قصيدته التي يقول فيها:

لَبِسْـتُ أُنَـاسـاً فَـأَفْنَيْتُهُـمْ ... وأَفْنَيْـتُ بَعْـدَ أُنَـاسٍ أُنَـاسَـا

(٣) من الآية (١٨٧) من سورة (البقرة).

لَقَدْ لَبِسَتْ بَعْدَ الزُّبَيْرِ مُجَاشِعٌ   ثياب الَّتي حاضَتْ وَلَمْ تَغْسِلِ الدَّمَا(١)

كأَن العار لما باشرهم وأُلصق بهم جعلهم لبسوه.

وقوله: ﴿أَذَاقَهَا﴾ نظير قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾(٢)، ونظير قول الشاعر:

دُونَكَ ما جَنَيْتَه فاحْسُ وذُقْ(٣)

وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾ عطفاً على ﴿ٱلْجُوعِ﴾، وقرأ أبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: ﴿وَٱلْخَوْفَ﴾ عطفاً على قوله: ﴿لِبَاسَ﴾(٤)، وفي مصحف أُبي بن كعب رضي الله عنه: [لباسَ الخوفِ والجوعِ]، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: [فأَذاقها اللهُ الخوفَ والجوعَ]، ولا يذكر «لباس»(٥).

---

(١) البيت لجرير يردُّ على البعيث، وهو في الديوان، ومجاشع: قبيلة الفرزدق والبعيث، وحاضت: نزل عليها الدم، يقال: حاضت تحيضُ حيْضاً ومَحيضاً فهي حائضة، أنشد الجوهري:

رأَيْـتُ حُيُـونَ العَـامِ والعَـامِ قَبْلَـهُ   كحَائضَـةٍ يُـزْنَـى بِهَـا غَيْـرَ طَاهِـرِ

وجمع الحائض: حوائض وحُيَّض، والشاهد فيه هو الاستعارة التي في (لبست)، كما وضحها ابن عطية.

(٢) الآية (٤٩) من سورة (الدخان).

(٣) دونَك الشيءَ، ودونَك به: أي خذه، ويقال في الإغراء بالشيء، والذَّوْقُ يستعمل أصلاً في الأجسام، ولكنه يستعمل مجازاً في المعاني.

(٤) قال صاحب اللوامح: ويجوز أن يكون نصبه بإضمار فعل، وقال الزمخشري: يجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وأصله: «ولباس الخوف».

(٥) يرى أبو حيَّان الأندلسي أن هذا تفسير للمعنى وليس قراءة؛ لأن المنقول عنه مستفيضاً مثلُ ما في سواد المصحف.

هذا وقد ذكر الزمخشري تعليلاً لطيفاً لإيقاع الإذاقة على اللباس مع أن الإذاقة مستعارة، واللباس أيضاً مستعار، قال: «لأنه لمَّا وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا طريقان: أحدهما أن ينظروا إلى المستعار له كما قال كُثيِّر:

غَمْـرُ الـرِّداءِ إذا تَبَسَّـمَ ضَـاحِكـاً   غَلِقَـتْ لِضَحْكَتِـهِ رِقَـابُ الْمَـالِ

فقد استعار الرداءَ للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه، ووصفه بالغَمْر الذي هو وصف المعروف والنوال لا صفة الرداءِ، وهكذا الأمر في الآية. والثاني أن ينظروا فيه إلى المستعار، كقول الشاعر: =



والضمير في ﴿جَاءَهُمْ﴾ لأهل مكة، والرسول محمد عليه الصلاة والسلام، و«العذاب»: الجوع وأَمْر بدرٍ ونحو ذلك إن كان التمثيل بمكة وكانت الآية مدنية، وإن كانت مكِّيَّة فهو الجوع فقط، وذكر الطبري أنه القتل ببدر، وهذا يقتضي أن الآية نزلت بالمدينة، وإن كان التمثيل بمدينة قديمة غير معينة فيحتمل أن يكون الضمير في ﴿جَاءَهُمْ﴾ لأهل تلك المدينة، ويكون هذا مما جرى كمدينة شعيب وغيره، ويحتمل أن يكون الضمير المذكور لأهل مكة، فتأمل.

قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، هذا ابتداءُ كلام آخر ومعنى حُكْم، والفاءُ في قوله: [فَكُلُوا] لصلة الكلام واتساق الجُمَل، خرج من ذكر الكافرين والمثل عليهم إلى أمر المؤمنين بشرع مَّا فوصل الكلام بالفاءِ، وليست المعاني موصلة. هذا قولٌ، والذي عندي أن الكلام متصل المعنى، أي: وأنتم أيُّها المؤمنون لستم كهذه القرية، فكلوا واشكروا الله على تباين حالكم من حال الكفرة، وهذه الآية بسبب أن الكفار كانوا قد سنُّوا في الأنعام سُنَناً، وأَحلُّوا بعضاً وحرَّموا بعضاً، فأمر الله المؤمنين بأكل جميع الأنعام التي رزقها عباده.

واختلف العلماءُ في قوله: ﴿طَيِّبًا﴾، والصحيح أنه «مُسْتَلَذٌّ» بعد قوله: ﴿حَلَالًا﴾، ووقع النَّصُّ في هذا على المُسْتَلَذِّ إذْ فيه ظهور النِّعمة، وهو عُظْم النِّعم، وإن الحلال قد يكون غير مُسْتَلَذٍّ، ويحتمل أن يكون الطيب بمعنى الحلال، كرَّره مبالغة وتوكيداً، وباقي الآية بيِّن.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إقامة للنفوس، كما تقول لرجل: إن كنتَ من الرجال فافعل كذا، على معنى إقامة نفسه، وروى الطبري أن بعض الناس قال: نزلت هذه خطاباً للكفَّار عن طعام كان رسول الله ﷺ بعثه إليهم في جوعهم، وأنحى الطبريُّ على هذا القول، وكذلك هو فاسد من غير وجه.

= يُنَـازِعُنـي رِدَائـي عَبْـدُ عَمْـرٍو ... رُوَيْـدَكَ يـا أخـا عمـرو بـن بَكْـرِ
لـيَ الشَّطْـرُ الـذي مَلَكَـتْ يَمِينـي ... ودونَـكَ فـاعْتَجِـزْ مِنْـهُ بِشَطْـرِ

أراد بردائه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر، فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نُظِر إليه في الآية الكريمة لقيل: فَكَسَاهُمْ لباسَ الجوع والخوف، ولو نظر إليه كُثَيِّر لقال: ضافي الرداءِ إذا تبسَّم ضاحكاً». اهـ. بتصرف.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

حصرت ﴿إِنَّمَا﴾ هذه المُحَرَّمات وقت نزول الآية، ثم نزلت المحرَّمات بعد ذلك.

وقرأ جمهور النَّاس: ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ مخففاً، وشددها أَبو جعفر بن القعقاع، وهو الأصل، والتخفيف طارئٌ عليه، والعامل في نصبها ﴿حَرَّمَ﴾، وقرأَت فرقة: [المَيْتَةُ] بالرفع على أَن تكون [مَا] بمعنى «الذي».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكون ﴿مَا﴾ متصلة بـ ﴿إِنَّ﴾ يضعف هذا ويحكم بأَنها حاصرة و﴿مَا﴾ كافة، وإِذا كانت بمعنى «الذي» فيجب أَن تكون منفصلة، وذلك خلاف خط المصحف. وقرأَ الجمهور: ﴿حَرَّمَ﴾ على معنى: حرَّم الله. وقرأَت فرقة: [حُرِّم] على ما لم يُسَمَّ فاعله، وهذا برفع [ٱلْمَيْتَة] ولا بُدَّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والميتة المحرمة هي ما مات من حيوان البَرِّ الذي له نفْسٌ سائِلة حتْفَ أَنفه، وأَما ما ليس له نفس سائِلة كالجراد والذباب والبراغيث ودود التين وحيوان الفول وما مات من الحوت حتف أَنفه وطفا على الماءِ ففيه قولان في المذهب، وما مات حتف أَنفه من الحيوان الذي يعيش في الماءِ وفي البَرِّ كالسلاحف ونحوها ففيه قولان، والمنْع هنا أَظهر، إِلاَّ أَن يكون الغالب عليه العيش في الماءِ.

والدّم المحرَّم هو المنسفح الذي يسيل إِن ترك مفرداً، وأَمَّا ما خالط اللحم وسكن فيه فحلال طبخ ذلك اللحم به، ولا يكلف أَحد تَتَبُّعه، ودم الحوت مختلف في تحليله وإِن كان ينسفح لو تُرِك.

ولحم الخنزير هو معظمُه والمقصودُ الأَظهر فيه، فلذلك خصَّه بالذكر، وأَجمعت الأُمة على تحريم شحمه وغضاريفه، ومن تخصيصه استدلت فرقة على جواز الانتفاع بجلده إِذا دُبِغ ولبسه، والأَولى تحريمه جملة، وأَما شَعْره فالانتفاع به مباحٌ، وقالت فرقة: ذلك غير جائز، والأَول أَرجح.



﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، يريد كل ما نوي بذبحه غير التقرب إلى الله والقرب إلى سواه، وسواءٌ تكلم بذلك على الذبيحة أو لم يتكلم، لكن خرجت العبارة عن ذلك بـ [أُهِلَّ]، ومعناه صحيح على عادة العرب، وقصد الغَضّ منها، وذلك أَنها كانت إذا ساقت ذبيحة إلى صنم جهرت باسْم ذلك الصنم وصاحت به.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾، قالت فرقة: معناه: أُكْرِه، وقال الجمهور: معناه: اضطرَّهُ جوع واحتياج، وقرأَت فرقة: [فَمَنُ] بضم النون [ٱضْطُرّ] بضم الطاءِ، وقرأَت فرقة: [فَمَنِ] بكسر النون [ٱضْطِرَّ] بكسر الطاءِ على أَن الأَصل: «ٱضْطُرِرَ»، فنقلت حركة الراءِ إِلى الطاءِ وأُدغمت الراءُ في الراءِ. [وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾][1] قالت فرقة: هو صاحب البغي على الإِمام، أَو في قطع الطريق، وبالجملة في سفر المعاصي، والعادي بمعناه في أَنه من ينوي المعصية، وقال الجمهور: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ معناه: غير مستعمل لهذه المحرمات مع وجود غيرها، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ معناه: لا يعدو حدود الله في هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أَرجح وأَعمُّ في الرخصة.

وقالت فرقة: باغٍ وعادٍ في الشِّبَع والتَّزوُّد، واختلف النَّاسُ في صورة الأَكل من الميتة ـ فقالت فرقة: الجائز من ذلك ما يُمسك الرَّمَق فقط، وقالت فرقة: بل يجوز الشبع التَّام، وقالت فرقة ـ منهم مالك رحمه الله ـ: يجوز الشِّبع والتَّزوُّد، وقال بعض النحويين في قوله: [عَادٍ]: إِنه مقلوب من عايِدٍ، فهو كشاكي السلاح، وكيوم راحٍ، وكقول الشاعر:

لَاثٍ بِهِ الأَشاءُ والعُبْرِيُّ[2]

---

(١) ما بين العلامتين [. . . . . .] زيادة يقتضيها سياق الكلام، وهو غير موجود بالأصل.

(٢) استشهد به صاحب اللسان في (لوث) وفي (عبر)، قال في (لوث): «ولاثَ الشجرُ والنباتُ فهو لائثٌ ولاثٌ ولاثٍ: لبس بعضه بعضاً وتَنَعَّم. . . ولاثٍ مقلوب عن لائثٍ، من لاثَ يلوثُ فهو لائثٌ، وزنه فاعِلٌ، قال: (لاثٍ به الأشاءُ والعُبري)، وهذا هو موضع الاستشهاد الذي قصده ابن عطية، والأشاءُ (بالفَتح والمدّ): صغار النَّخل، أَو النخل عامة، واحدته أشاءَةٌ، والعُبْري من السِّدْر: ما نبت على عِبْر النهر وعظم، منسوبٌ إليه، نادرٌ، وقيل: هو ما لا ساقَ له منه، وإنما يكون ذلك فيما قارب العبْر، وفي (اللسان ـ عبر): قال يعقوب: العُبْرِيُّ والعُمْري منه ما شرب الماء، وأنشد: (لاث به الأشاءُ والعُبْرِيّ)، وعلى هذا يكون المعنى: إن صغار النخل والسِّدر الذي نبت على شاطىء النهر قد التف بعضه على بعض».



وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقتضي منه الإِباحة للمضطر، وخرجت الإِباحة في هذه الألفاظ تحرجاً فيها وتَضْييقاً في أَمرها، ليدل الكلام على عظم الحظر في هذه المحرمات، فغاية هذا المرخَّص له غفرانُ الله له، وحطُّه عنه ما كان يلحقه من الإِثم لولا ضرورته، وهذا التخريج الذي ذكرناه يفهمه الفصحاءُ من اللفظ، وليس في المعنى منه شيءٌ، وإِنما هو إِيحاءٌ، وكذلك جعل غايته في موضع آخر أَن لا إِثم عليه[1]، وإِن كان «لاَ إِثْمَ عَلَيْهِ» وقوله: «هو له مباح» يرجعان إِلى معنى واحد فإِن في هيئة اللفظتين خلافاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

هذه مخاطبة للكفار الذين حرَّموا البحائر والسوائب وأَحلُّوا ما في بطون بعض الأنعام وإِن كان ميتة، يدل على ذلك قوله حكاية عنهم: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾[2]، والآية تقتضي كل ما كان لهم من تحليل وتحريم، فإِنه كلَّه افتراءٌ منهم، ومنه ما فعلوه في الشهور[3]. وقرأَت السبعةُ وجمهور النَّاس: [ٱلْكَذِبَ] بفتح الكاف والباءِ وكسر الذَّال، و﴿مَا﴾ مصدرية، فكأَنه قال: لوصف أَلسنتكم. وقرأَ الأَعرج، وطلحة، وأَبو معمر، والحسن: [ٱلْكَذِبِ] بخفض الباءِ على البدل من [مَا]. وقرأَ بعض أَهل الشام، ومعاذ بن جبل، وابن أَبي عبلة: [ٱلْكُذُبُ] بضم الكاف والذال والباءِ، على صفة الألسنة. وقرأَ مسلمة بن محارب: [ٱلْكُذُبَ] بفتح الباءِ على أَنه جمع كِذاب كَكُتُبٍ وكِتَاب.

---

(١) هذا الموضع هو قوله تعالىٰ في الآية (١٧٣) من سورة (البقرة): ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢) من الآية (١٣٩) من سورة (الأنعام).

(٣) ذكر الله تعالىٰ في الآية (٣٧) من سورة (التوبة) في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ الآية.

وقوله: ﴿ هَٰذَا حَلَٰلٌ ﴾ إشارة إلى ميتة بطون الأنعام وكل ما أَحَلُّوا، وقوله: ﴿ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ إشارة إلى البحائر والسَّوائب وكل ما حرَّموا، وقوله: ﴿ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ إشارة إلى قولهم في فواحشهم التي هي إحداها: ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾[(١)]، ويحتمل أن يريد أنه كان شرعهم لاتباعهم سُنَناً لا يرضاها الله افتراءً عليه، لأن من شرع أمراً فكأنه قال لأتباعه: هذا هو الحق، وهذا مرادُ الله. ثم أخبرهم الله أن الذين يفترون على الله الكذب لا يبلغون الأمل، والفلاحُ: بلوغ الأمل، فتارةً يكون في البقاءِ، كما قال الشاعر:

. . . . والمُمْسي والصُّبْحُ لا بَقَاءَ مَعَهْ[(٢)]

ويشبه أن هذه الآية من هذا المعنى، يُقَوِّي ذلك قوله: ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾، وقد يكون في نجح المساعي، ومنه قول عبيد:

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضْـ ... ـضَعْفِ وقَدْ يُخْدَعُ الأَرِيبُ[(٣)]

وقوله: ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ إشارةٌ إلى عيشتهم في الدنيا، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بعد ذلك في الآخرة.

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الأعراف).

(٢) هو للأضبط بن قُرَيْع السَّعديّ، ذكر ذلك صاحب اللسان، قال: المساءُ ضد الصباح، والمُمْسيُ من المساء كالصُّبْح من الصباح، . . . والاسم المُمْسيُ والصُّبح، قال الأضبط بن قُرَيْع السَّعْدِيُّ:

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الأُمورِ سَعَهْ
والمُمْسيُ والصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَهْ

وقد جاءَ في بعض النسخ «لا فلاح» كرواية اللسان بدلاً من «لا بقاءَ».

(٣) البيت من قصيدة لعبيد بن الأبرص يعدُّها ابن قتيبة أجود شعره، وواحدة من المعلقات السبع، وعدَّها التبريزي من القصائد العشر، ومطلعها:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ ... فَالْقُطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

ومعنى أَفْلح: عِشْ، من الفلاح وهو البقاءُ، وفي المنتهى: أفْلج، ويروى (يُدرك) بدلاً من (يُبلغ)، وفي اللسان (بالنَّوْك) بدلاً من (بالضَّعف)، وضبطها محقق الديوان بضم النون المشددة، يقول: عش كيف شئت، فقد يدرك الضعيف بضعفه ما لا يدركُ القويُّ، وقد يخدع الأريبُ العاقِلُ عن عقله، قيل: سأل سعيد بن العاصي الحطيئة: من أشعر الناس؟ قال: الذي يقول: أفلح بما شئت.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الآية، لما قصَّ الله تبارك وتعالىٰ على المؤمنين ما حرَّم أَعْلم أَيضاً بما حرَّم على اليهود؛ ليبين تبديلهم الشرع فيما استحلوا من ذلك وفيما حرَّموا من تلقاءِ أَنفسهم. وقوله: ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ إِشارةٌ إِلى ما في سورة الأَنعام من ذي الظُّفُر والشحوم[1]. وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أَي: لم نضع العقوبة عليهم بتحريم تلك الأَشياءِ عليهم في غير موضعها، بل هم طرقوا إِلى ذلك، وجاءَ من تَشَبُّثهم بالمعاصي ما أَوجب ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ الآية. هذه آية تأْنيس لجميع العالم، أَخبر الله تعالىٰ فيها أَنه يغفر للتائب، والآية إِشارة إِلى الكفار الذين افتروا على الله، وفعلوا الأَفاعيل المذكورة، فهم إِذا تابوا من كفرهم بالإِيمان، وأَصلحوا بأَعمال الإِسلام ـ غفر الله لهم، وتناولت هذه ـ بعد ذلك ـ كل واقع تحت لفظها من كافر وعاص، وقالت فرقة: الجهالة: العَمْد، والجهالة عندي في هذا الموضع ليست ضد العلم، بل هي تعدِّي الطور وركوب الرأْس، ومنه قول النبي ﷺ: «أَوْ أَجْهَل أَو يُجْهَل عَلَيّ»[2]، وهي التي في قول الشاعر:

أَلاَ لا يَجْهَلَــنْ أَحَــدٌ عَلَيْنَــا ... فَنَجْهَـلَ فَـوْقَ جَهْـلِ ٱلْجَـاهِلِينا[3]

ومنه لفظة الجاهلية، والجهالة التي هي ضد العلم تصحب هذه الأُخرى كثيراً، ولكن يخرج منها المتعمد، وهو الأَكثر، وقَلَّما يوجد في العُصاة من لم يتقدم له علم بحظر المعصية التي تُواقع. والضمير في [بَعْدِهَا] عائد على التوبة.

---

(١) في قوله تعالىٰ في الآية (١٤٦): ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الآية، وهذا يدل على أن سورة الأنعام نزلت قبل سورة النّحل.

(٢) هذا جزءٌ من حديث أخرجه ابن ماجه في الدعاءِ، وأبو داود في الأدب، والترمذي في الدعوات، والنسائي في الاستعاذة، والإمام أحمد في مسنده ٦ـ٣٠٦، ٨ـ٣، ٣٢٢، ولفظه كما في المسند ٦ـ٣٠٦: عن أُم سَلَمة أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: «بسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذُ بك من أن نزلَّ أو نَضلّ، أو نَظْلم أو نُظْلَم أو نَجهلَ أو يُجْهَلَ علينا».

(٣) البيت لعمرو بن كلثوم، من معلقته المشهورة، والجهل هو الطيش والغضب، أي: لا يغضب أحد علينا لئلا نثور فنقابلهم بأشد من غضبهم.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

لمَّا كَشَفَ الله فعل اليهود وتحكمهم في شرعهم بذكر ما حرَّم عليهم أَراد أَن يبيِّن بُعدهم عن شرع إِبراهيم والدعوى فيه، وأَن يصف حال إِبراهيم ليُبيِّن الفرق بين حاله وحالهم وحال قريش أَيضاً.

والأُمَّة في اللغة لفظة مشتركة تقع للخير، والعامة، والجمع الكثير من الناس، ثم يُشبَّه الرجلُ العالم أَو الملك أَو المنفرد بطريقة وحده بالناس الكثير فيُسَمَّى أُمَّة، وعلى هذا الوجه سُمِّي إِبراهيم عليه السلام أُمَّة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: الأمة: مُعَلِّم الخير، وقال في بعض أَوقاته: إِن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان أُمَّة قانتاً، فقال له: أَبو قُرَّة الكندي، أَو فروة بن نوفل: ليس كذلك، إِنما هو أَن إِبراهيم كان أُمَّةً قانتاً، فقال: أَتدري ما الأُمة؟ هو معَلِّم الخير، وكذلك كان معاذ يُعَلِّم الخير ويطيع الله ورسوله. وقال مجاهد: سُمِّي إِبراهيم أُمَّة لانفراده بالإِيمان في وقته مدة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي البخاري أَنه قال لسارة: ليس على الأَرض اليوم مؤمن غيري وغيرك، وقال بعض النحويين ـ أَظنه أَبا الحسن الأَخفش ـ: الأُمة فُعْله من أَمَّ يؤُم، فهو كالهُمزة والضُّحكَة، أَي: يُؤْتَمُّ به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

[أُمَّة] ـ على هذا ـ صفة، وعلى القول الأَول اسمٌ ليس بصفة. و«القَانِتُ»: المطيع الدائم على العبادة، و«الْحَنِيفُ»: المائل إِلى الخير والإِصلاح، وكانت العرب تقول لمن يَخْتَتِن ويَحُجُّ البيت: حنيفاً، وحذف النون من ﴿لَمْ يَكُ﴾ لكثرة الاستعمال، كحذفهم من: لا أُبالِ ولا أَدرِ، وهو أَيضاً لشبه النون في حال سكونها حروفَ العلة لُغَّنتها وخفَّتها وأَنها قد تكون علامة وغير ذلك، فكأَن (لَمْ) هنا دخلت على (يَكُنْ) في



حال جزم، ولا تحذف النون إذا لم تكن ساكنة في نحو قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[١]، ولا تحذف من مثل هذا إلا في الشِّعر فقد جاءَت محذوفة، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مُشيرٌ إلى حال تَبَرِّي إبراهيم عليه السلام من حال مشركي العرب ومشركي اليهود، إذْ كلُّهم ادَّعاه، ويلزم الإشراكُ اليهودَ من جهة تَجْسِيمهم.

و﴿شَاكِرًا﴾ صفةٌ لإبراهيم تابعة ما تقدم، و«الأنْعُم»: جمع نعمة، و﴿ٱجْتَبَاهُ﴾ معناه: تَخَيَّرَه. وباقي الآية بيِّن.

قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، الحَسَنَةُ: لسانُ الصدق وإمامَتُه لجميع الخلق، هذا قول جميع المفسرين، وذلك أَن كل أُمَّة متشرعة فهي مُقِرَّة أَن إيمانها إيمانُ إبراهيم، وأَنه قُدْوتها، وأَنه كان على الصواب. وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ بمعنى: المُنْعَم عليهم، أَي: من الصالحين في أَحوالهم ومراتبهم، أَو بمعنى أَنه في الآخرة ممَّن يُحْكم له بحكم الصالحين في الدنيا، وهذا على أَن الآية وصف حاليْهِ في الدَّارَيْن، ويحتمل أَن يكون المعنى: في أَعمال الآخرة، فعلى هذا وصف حالته في الأَعمال الدنيويَّة والأُخْرَوِيَّة.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية. الوحيُ إلى محمد ﷺ بهذا من جملة الحسنة التي أَتاها الله إبراهيم عليه السلام، قال ابن فُورك: وأَمَر الفاضلَ باتباع المفضول لما تقدم إلى قول الصواب والعمل به[٢]، و[أَنْ] في قوله: ﴿إِنِ ٱتَّبِعْ﴾ مفسِّرة، ويجوز أَن تكون مفعولة، و«المِلَّة»: الطريقة في عقائد الشرع، و[حَنِيفاً] حال، والعامل فيها الفِعْلِيَّة التي في قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ويجوز أَن تكون حالاً من الضمير المرفوع في ﴿ٱتَّبِعْ﴾، قال مكي: ولا يكون حالاً من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ لأنه مضاف إليه[٣]، وليس كما قال؛

(١) من الآية (١) من سورة (البيِّنَة).

(٢) نقل أبو حيان عبارة ابن فُورك بلفظ: «لمَّا كان سابقاً»، وهي أوضح في الدلالة على المراد، وعلَّل الزمخشري أمر محمد باتّباع ملَّة إبراهيم بقوله: «في [ثمَّ] هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، وإجلال محلِّه، والإيذان بأن أشرف ما أُوتي إبراهيم من الكرامة، وأجلَّ ما أُوتي من النعمة اتباعُ رسول الله ﷺ ملَّته، من قِبَل أنَّها دلَّت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها».

(٣) هذا التعليل ليس على إطلاقه، لأنه إذا كان المضاف إليه في محلّ رفع أو نصب جازت الحال منه، نحو: يُعجبني قيامُ زيد مسرعاً، وشرب السويق ملتوتاً، وقال بعض النحويين: يجوز أيضاً إذا كان =

لأن الحال قد تعمل فيها حروفُ الخفض إذا عملت في ذي الحال، كقولك: مررت بزيد قائماً[(١)].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾، أَي: لم يكن من ملَّة إبراهيم، وإنما جعله الله فرضاً عاقب به القوم المختلفين فيه، قاله ابن زيد، وذلك أَن موسى عليه السلام أَمر بني إسرائيل أَن يجعلوا من الجمعة يوماً مختصاً بالعبادة، وأَمرهم أَن يكون يوم الجمعة، فقال جمهورهم: بل يكون يوم السبت لأَن الله فرغ فيه من خلق مخلوقاته، وقال غيرهم: بل نقبل ما أَمر به موسى عليه السلام، فراجعهم الجمهور، فتابعهم الآخرون، فأَلزمهم الله يوم السبت إلزاماً قويًّا عقوبة منه لهم، فلم يكن منهم ثبوت، بل عصوا فيه وتعدوا فأَهلكهم.

وقرأَ الأَعمش: «إنما نزلنا السبت»، وهي قراءَة ابن مسعود، وقرأَ أَبو حيوة: [جَعَلَ] بفتح الجيم والعين، وورد في الحديث أَن اليهود والنصارى اختلفوا في اليوم الذي يختص من الجمعة، فأَخذ هؤلاءِ السبت، وهؤلاءِ الأَحد، فهدانا الله إلى يوم الجمعة، قال رسول الله ﷺ: «فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه»[(٢)]. فليس الاختلاف

= المضاف جزءاً من المضاف إليه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا﴾، أو كالجزء منه كقوله تعالىٰ: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

(١) علَّق أبو حيَّان على كلام ابن عطية هذا بقوله: «إنه بعيد عن قول أهل الصنعة؛ لأن الباءَ في (بزيدٍ) ليست هي العاملة في (قائماً)، وإنما العامل في الحال: (مَرَرْتُ)، والباءُ وإن عملت الجرَّ في (زيد) فإن زيداً في موضع نصب بـ (مررت)، وكذلك إذا حذف حرف الجر ـ حيث يجوز حذفه ـ نصب الفعل ذلك الاسم الذي كان مجروراً بالحرف». ومعنى كلام أبي حيان أن المثال الذي ذكره ابن عطية صحيح لأن المجرور في محلِّ نصب، فهو في حدود القاعدة التي ذكرناها في التعليق السابق تكميلاً لرأي ابن فورك.

(٢) أخرج الشافعي في الأم، والبخاري، ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا وأُوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يوم الجمعة فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تَبَع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد». (الدر المنثور) فقوله: «هذا يومهم الذي فرض عليهم» يؤيد قول من يقول: إن الله عيَّن يوم الجمعة لليهود فخالفوا ولم يختلفوا، ولكن رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا» ـ أخرجه أحمد ومسلم عن أبي هريرة وحذيفة ـ وهذا يؤيد قول من يقول: إن الله لم يُعَيِّنه لهم، بل أمرهم باختيار يوم فاختلفوا، وتأمل بعد ذلك قول المؤلف: «فليس الاختلاف في المذكور في الآية هو الاختلاف الذي في الحديث» ـ والله الموفق للصواب.



المذكور في الآية هو الاختلاف الذي في الحديث، وباقي الآية وعيدٌ وبيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنته للمشركين، أَمره الله تعالىٰ أَن يدعو إِلى دين الله وشرعه بتَلَطُّف، وهو أَن يُسمِع المدعو حكمة، وهو الكلام الصواب القريب الواقع في النفس أَجمل موقع، و«ٱلۡمَوۡعِظَةُ ٱلۡحَسَنَةُ»: التخويف والتوجيه والتَّلطُّف بالإِنسان، بأَن يُجِلَّه وَيُنَشِّطَهُ[1] ويجعله بصورة من يقبل الفضائل ونحو هذا، فهذه حالة من يُدعى، وحالة من يُجادل دون مخاشنة فتظهر عليه دون قتال، والكلام يعطي أَن جدَّك وهمَّك وتعبَك لا يغني؛ لأَن الله قد علم من يؤمن منهم ويهتدي، وعلم من يَضِل، فجملة المعنى: اسلك هذه السبيل ولا تلجأ للمخاشنة فإِنها غير مجدية، لأَن علم الله قد سبق بالمهتدي منهم والضال. وقالت فرقة: هذه الآية منسوخة بآية القتال، وقالت فرقة: هي مُحْكَمة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر لي أَن الاقتصار على هذه الحال، وأَلاَّ يتعدي مع الكفرة متى احتيج إِلى المخاشنة وهو منسوخ لا محالة. وأَما من أَمكنت معه هذه الأَحوال من الكفار، ويرجى إِيمانه بها دون قتال، فهي فيه محكمة إِلى يوم القيامة، وأَيضاً فهي محكمة في جهة العصاة، فهكذا ينبغي أَن يوعظ المسلمون إِلى يوم القيامة.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ ﴾ الآية، أَطبق أَهل التفسير أَن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه في يوم أُحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري، وفي كتاب السِّير، وذهب النحاس إِلى أَنها مكيَّة.

---

(١) في بعض النسخ: ويبْسُطه، والمعنى معها يصح، إذ يقال: بَسَطَ فلانٌ فلاناً: سرَّه، وفي حديث فاطمة: «يَبْسُطني ما يَبْسُطها».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالاً حسناً، لأنها تتدرَّجُ الرُّتَب من الذي يُدْعى ويوعظ، إلى الذي يجادل، إلى الذي يُجازَى على فعله، ولكن ما رَوَى الجمهور أثبت، وأيضاً فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ تعلَّق بمعنى الآية على ما روى الجمع أن كفار قريش لما مثَّلوا بحمزة رضي الله عنه وقع ذلك من نفس رسول الله ﷺ فقال: «لَئِن أَظْفَرَنِي الله بهم لأُمَثِّلَنَّ بثلاثين ـ وفي كتاب النحاس وغيره: بسبعين ـ منهم»، فقال الناسُ: إن ظفرنا لنفعلن ولنفعلن، فنزلت هذه الآية[1].

ثم عزم على رسول الله ﷺ في الصبر في الآية بعدها وسمَّى الإذايات في هذه الآية عقوبةً، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية، وإنَّما فعل ذلك ليستوي اللفظان وتتناسب ديباجة القول، وهذا بعكس قوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[2]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[3]، فإن الثاني هو المجازيّ، والأول هو الحقيقة. وقرأ ابن سيرين: «وَإِن عَقَّبْتُم فَعَقِّبُوا».

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآية فيمن أُصيب بظُلامة ألاَّ ينال من ظالميه إذا تمكَّن إلاَّ مثل ظلامته، لا يتعداه إلى غيره، واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مالٍ، ثم ائتمن الظالم والمظلوم على مالٍ، هل يجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه؟ ـ فقالت فرقة: «له ذلك»، ومنهم ابن سيرين، وإبراهيم النَّخَعي، وسفيان، ومجاهد، واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها، وقال مالك ـ رحمه الله ـ وفرقة معه: «لا يجوز له ذلك»، واحتَجُّوا بقول رسول الله ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك

---

(١) أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن عطاء بن يسار، قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة يوم أُحد حيث قتل حمزة ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: لئن ظهرنا عليهم لنُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنُمَثِّلَنَّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط، فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة. والأحاديث كثيرة في هذه القصة عن أبي هريرة، وعن ابن عباس، وعن أُبيّ بن كعب رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

(٢) من الآية (٥٤) من سورة (آل عمران).

(٣) من الآية (١٥) من سورة (البقرة).



ولا تخن من خانك»[١]، ووقع في مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنا بامرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر، فاستشار ذلك الرجل رسول الله ﷺ في الأمر، فقال له هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويَتَقَوَّى في أمر المال قولُ مالك رحمه الله؛ لأن الخيانة لاحقة في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاك عنها، ولا ينبغي للمرءِ أن يتأسَّى بغيره في الرذائل، وإنما ينبغي أن يتجنَّبها لنفسه، وأما الرجلُ يظلم في المال، ثمَّ يتمكن من الانتصاف دون أن يُؤتمن فيشبه أن ذلك جائز، يرى أن الله حكم له كما لو تمكن له بالحكم من الحاكم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، هذه عزيمة على رسول الله ﷺ في الصبر على المجازاة على التمثيل بالقتلى، وقال ابن زيد: هذه الآية منسوخة بالقتال، وجمهور الناس على أنها مُحكمة، ويروى أنه ﷺ قال لأصحابه: «أمَّا أنا فأصبر كما أُمرتُ، فماذا تصنعون؟»، قالوا: نصبر يا رسول الله كما ندبنا[٢]. وقوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بمعونة الله وتأييده لك على ذلك، والضمير في قوله: [عَلَيْهِمْ]، قيل: يعود على الكفار، أي: لا تتأسف على أن لم يُسلموا، وقالت فرقة: بل يعود على القتلى: حمزة وأصحابه رضوان الله عليهم الذين حزن عليهم رسول الله ﷺ، والأول أصوب؛ إذ يكون عود الضمائر على جهة واحدة.

وقرأ الجمهور: ﴿فِى ضَيْقٍ﴾ بفتح الضاد، وقرأ ابن كثير: [في ضِيقٍ] بكسرها،

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، وكذلك الترمذي، والدارمي، وأخرجه أحمد ٣ـ٤١٤، ولفظه كما في مسند أحمد: عن رجل من أهل مكة يقال له: يوسف، قال: كنت أنا ورجل من قريش نلي مال أيتام، قال: وكان رجل قد ذهب مني بألف درهم. قال: فوقعت له في يدي ألف درهم، قال: فقلت للقرشي: إنه قد ذهب لي بألف درهم، وقد أصبت له ألف درهم، قال: فقال القرشي: حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

(٢) في نفس المعنى ونفس الآية أخرج الإمام أحمد في مسنده (٥ـ١٣٥) عن أُبيٍّ بن كعب قال: لما كان يوم أحد قتل من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنربيَنَّ عليهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يُعرف: لا قريش بعد اليوم، فنادى منادي رسول الله ﷺ: أَمِنَ الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً ـ ناساً سماهم ـ فأنزل الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب».



ورويت عن نافع، وهو غَلَط ممن رواه، قال بعض اللغويين: الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر، وقال أَبو عبيدة: الضِّيقُ مصدر، والضَّيْق مخفف من ضَيِّق، كَمَيْتٍ ومَيِّت، وهَيْن وهَيِّن، وقال أَبو علي الفارسي: والصواب أَن يكون الضَّيْق لغة في المصدر؛ لأَنه إِن كان مخففاً من ضَيِّق لزم أَن تقام الصفة مقام الموصوف، وليس هذا موضع ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

إِنما تقوم الصفة مقام الموصوف إِذا تخصص الموصوف من نفس الصفة، كما تقول: «رأَيْتُ ضاحكاً»، فإِنها تخصص الإِنسان، ولو قلت: «رأَيْتُ بارداً» لم يَحْسُن، وبِبَارِدٍ مثَّل سيبويه رحمه الله، و«ضَيِّق» لا تخصص الموصوف. وقال ابن عباس، وابن زيد: إِن ما في هذه الآيات من الأَمر بالصبر منسوخ.

وقوله: ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ أَي: بالنصر والمعونة والتأْييد، و﴿ٱتَّقَوا﴾ يريد: المعاصي، و﴿مُّحْسِنُونَ﴾ معناه: يزيدون فيما نَدَب إِليه من فعل الخير.

نجز تفسير سورة النحل والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الإسراء[1]

هذه السورة مكيَّة إلاَّ ثلاث آيات[2]: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾، وقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾، نزلت حين جاء رسولَ الله ﷺ وفدُ ثقيف، وحين قالت اليهود: «لسيت هذه بأرض الأنبياء»، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ الآية، وقال ابن مسعود: في بني إسرائيل والكهف: «إنهن من العتاق الأول، وهنَّ في تلادي»[3]، يريد أنَّهنَّ من قديم كسبه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾.

لفظ الآية يقتضي أن الله عزَّ وجلَّ أسرى بعبده، وهو محمد ﷺ، قال المفسرون:

---

(١) الذي في الأصول: (تفسير سورة سبحان)، وقد آثرنا الاسم المألوف الذي سميت به في المصاحف المطبوعة. وتُسمى أيضاً سورة (بني إسرائيل)، وبه سمَّاها الطبري في تفسيره، وقد أخرج النحاسُ، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت سورة بني إسرائيل بمكة.

(٢) المذكور هنا أربع آيات لا ثلاث، ولعله اعتبر الآيتين الأولى والثانية بمثابة آية واحدة، والقرطبي والشوكاني في (فتح القدير) لم يذكرا الآية الأولى هنا، واكتفيا بذكر الثلاث الباقية، أما أبو حيان في (البحر الميحيط) فقد نقل كثيراً من الأقوال، نقل عن صاحب (الغنيان) الإجماع على أن السورة مكية، ونقل قولا بأن المدني فيها آيتان فقط، هما الأولى والثانية من المذكور هنا، ثم نقل قولاً ثالثاً بأن المدني أربع آيات هي التي ذكرها ابن عطية هنا، وأرقام الآيات المدنية المذكورة هنا هي على الترتيب الذي ذكره المؤلف: (٧٣، ٧٦، ٨٠، ١٠٧)، وقد قيل أيضاً: إن المدني فيها هو الآيات: (٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧)، وهذا مذكور في المصاحف المطبوعة.

(٣) أخرجه البخاري، وابن الضريس، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، واللفظ «الدُّر» يذكر ثلاث سور هي: بنو إسرائيل والكهف ومريم، وذكر ذلك الشوكاني في «فتح القدير»، وزاد محقق القرطبي أيضاً سورة «مريم».



معناه: سَرَى بعبده، ويظهر أن [أَسْرَى] مُعَدَّاة بالهمز إلى مفعول محذوف، تقديره: أسرى الملائكة بعبده، وذلك لأنه يقلق أن يُسْند [أَسْرى] ـ وهو بمعنى (سَرَى) ـ إلى الله عزَّ وجلَّ، إذْ هو فعل يُعطي النقلة كَمَشَى وجَرَى وأحضر وانتقل، فلا يحسن إسناد شيءٍ من هذا ونحن نجد مندوحة، فإذا صرحت الشريعة بشيءٍ من هذا النحو كقوله تعالى في الحديث: (أَتَيْتَه سعياً، وأَتَيْتُه هَرْوَلَةً)(١) حُمل ذلك بالتأويل على الوجه المخلِّص من نفي الحوادث، و[أَسْرى] ـ في هذه الآية ـ تخريج فصيحة كما ذكرنا، ولا تحتاج إلى تَجوُّز قَلق في هذا اللفظ، فإنه ألزم للنقلة من (أَتَيْتُهُ)(٢) و﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم﴾(٣).

ويحتمل أَنْ يكون [أَسْرَى] بمعنى: (سَرى) على حذف مضافٍ، كنحو قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾(٤). ووقع الإسراءُ في مُصنَّفات الحديث، ورُوي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام، فهو من المتواتر بهذا الوجه. وذكر النقاش ممَّن رواه عشرين صحابيّاً، فروى جمهور الصحابة، وتَلَقَّى جلُّ العلماء منهم أن الإسراءَ كان بشخصه ﷺ، وأنه ركب البراق من مكة ووصل إلى بيت المقدس وصلَّى فيه. وروى حذيفة وغيره أن رسول الله ﷺ لم ينزل من البراق في بيت المقدس ولا دخله، ـ قال حذيفة: ولو صلَّى فيه لكُتب عليكم الصلاةُ فيه ـ وأنه ركب البراق بمكة ولم ينزل عنه

---

(١) ورد هذا في حديث قدسي رواه البخاري في التوحيد، ومسلم في التوبة والذكر، والترمذي في الزهد والدعوات، وابن ماجه في الأدب، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه كما في مسلم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إلي ذراعاً تقرَّبت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتُهُ هرْوَلَةً».

(٢) يريد (أَتَيْتُه) التي في الحديث القدسي، وفيها مع الانتقال والحركة.

(٣) من الآية (٢٦) من سورة النحل، وقد نقل صاحب (البحر المحيط) كلام ابن عطية هذا عن (أَسْرَى)، ثم عقَّب عليه بقوله: «وإنما احتاج ابن عطية إلى هذه الدعوى اعتقاداً منه بأنه إذا كان (أَسْرَى) بمعنى (سَرَى) لزم من كون الباء للتعدية مشاركة الفاعل للمفعول، وهذا شيءٌ ذهب إليه المبرد، فإذا قلتَ: «قمتُ بزيد» لزم منه قيامك وقيام زيد عنده، وهذا ليس كذلك، والْتَبَسْتُ عنده باءُ التعدية بباءِ الحال، فباءُ الحال يلزم فيها المشاركة إذ المعنى: قمتُ مُلْتَبساً بزيد، وباءُ التَّعدية مرادفة للهمزة، فقولك: «قمتُ بزيد» والباءُ للتعدية مثل قولك: «أقمتُ زيداً»، ولا يلزم من إقامتك إياه أن تقوم أنت، اهـ بتصرف.

(٤) من الآية (١٧) من سورة البقرة. قال أبو حيان في البحر: «يعني أن يكون التقدير: سرت ملائكته بعبده، فحذف المضافُ وأُقيم المضاف إليه مقامه، وهذا مبني على أنه يلزم المشاركة والباءُ للتعدية».



حتى انصرف إلى بيته إلاَّ في صعوده إلى السماء. وقالت عائشة ومعاوية: إنما أُسري بنَفْس رسول الله ﷺ، ولم يفارق شخصُه مضجعه، وإنها كانت رؤْيا رأى فيها الحقائق من ربِّه عزَّ وجلَّ. وجوَّزه الحسن وابن إسحاق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والحديث مطوَّل في البخاري ومسلم وغيرهما فلذلك اختصرنا نصَّه في هذا الكتاب، وركوب البراق على قول هؤلاء يكون من جملة ما رُئي في النوم، قال ابن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن في كتاب الطبري: البراق هو دابة إبراهيم عليه السلام الذي كان يزور عليه البيت الحرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريدان: يجيءُ من يومه ويرجع، وذلك من مسكنه بالشام. والصحيح ما ذهبَ إليه الجمهور، ولو كانت منامية ما أمكن قريش أن تُشَنِّع، ولا فُضِّل أبو بكر رضي الله عنه بالتصديق، ولا قالت له أمُّ هانيءٍ: لا تحدث الناس بهذا فيكذبوك، إلى غير هذا من الدلائل.

واحتُجَّ لقول عائشة رضي الله عنها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يحتمل القول الآخر؛ لأنه يقال لرؤْية العين: رُؤْيا. واحتُجَّ أيضاً بأن في بعض الأحاديث: (فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام)، وهذا يحتمل أن يُرَدَّ من الإسراء إلى نوم. واعترض قول عائشة بأنها كانت صغيرة لم تشاهد ولا حدثت عن النبي ﷺ، وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت، غير مشاهد للحال، صغيراً، ولم يحدث عن النبي عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: [سُبْحَانَ] مصدر غير متمكن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ويجيءُ منه فعل، وسبَّح معناه: قال سبحان الله، فلم تستعمل سبَّح إلاَّ إشارة إلى سبحان، ولم يتصرف لأن في آخره زائدتين، وهو معرفة

---

(١) من الآية (٦٠) من هذه السورة (الإسراء).



بالعملية، وإضافته لا تزيده تعريفاً، هذا كله مذهب سيبويه فيه. وقالت فرقة: نصبه على النداءِ، كأنه قال: يا سبحان الذي أَسْرى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، ومعناه: تنزيهاً لله. وروى طلحة بن عبيد الله الفيَّاض أحد العشرة[(١)] أنه قال للنبي ﷺ: ما معنى (سبحان الله)؟ فقال: (تنْزيه الله من كُلِّ سُوءٍ)، والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعْلُ الذي هو من معناه لا من لفظه إذ لم يَجْرِ من لفظه فعل، وذلك مثل: «قَعدَ القُرْفُصاءَ واشْتَمَل الصَّمَّاءَ»[(٢)]، فالتقدير عنده: أُنَزِّه الله تنزيهاً، فوقع [سُبْحَانَ] مكان قولك: تنزيهاً.

وقال قوم من المفسرين: [أَسْرَى] فعلٌ غير مُتَعَدٍّ، عَدَّاه هنا بحرف الجَرِّ، تقول: أَسْرَى الرجل وَسَرَى إذا سارَ بالليل بمعنى. وقد ذكرتُ ما يظهر في اللفظة من جهة العقيدة. وقرأ حذيفة وابن مسعود: «أسرى بعبده من الليل من المسجد الحرام».

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. قال أنس بن مالك: أراد المسجد المحيط بالكعبة نفسها، ورجَّحه الطبري، وقال: هو الذي يُعرف إذا ذُكر هذا الاسم، وروى الحسن بن أبي الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: (بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان)[(٣)]، وذكر عبد بن حميد الكمشي في تفسيره، عن سفيان الثوري أنه قال:

---

(١) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القريش المدني، وهو أحد العشرة المُبَشَّرين بالجنة، وأحد السِّتَّة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، كان من دهاة قريش، وكان يقال له ولأبي بكر: القرينان، ويقال له: «طلحة الجود» و«طلحة الخير»، و«طلحة الفيَّاض»، وكل ذلك لقَّبه به النبي ﷺ في مناسبات مختلفة، ودعاه مرة: «الصبيح المليح الفصيح»، أُصيب في أُحُد بعد أن ثبت مع الرسول ﷺ بأربعة وعشرين جرحاً، قتل يوم الجمل وهو بجانب عائشة رضي الله عنهما، ودفن بالبصرة، له ٣٨ حديثاً.

(٢) القُرْفصاءُ: جلسة المحتبي بيديه، وهي أن يجلس على أليتيه ويلصق فخذيه ببطنه ويحتبي بيديه يضعهما على ساقيه. والصماءُ: ضرب من الاشتمال، واشتمالُ الصماءِ أن تُجَلِّل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيتهم، وهو أن يردَّ العربي الكساءَ من ناحية يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعاً.

(٣) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، قال في (الدرِّ المنثور): «عن الحسن بن الحسين رضي الله عنه»، والذي في تفسير ابن جرير: «عن الحسن بن أبي الحسن» ـ واللفظ فيهما: «بينا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهزني برجله فجلست». . . الخ.

أُسْري بالنبي ﷺ من شِعْب أبي طالب. وقالت فرقة: «المسجد الحرام» مكَّةُ كلها، واستندوا إلى قوله تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾[١]، وعُظم المقصد هنا إنما هو مكة. ورَوَى بعض هذه الفرقة عن أم هانىءٍ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ ليلة الإسراء في بيتي[٢]، ورويَ بعضُها عن النبي ﷺ أنه قال: (فُرج سقف بيتي)، وهذا يلتئم مع قول أم هانىء رضي الله عنها.

وكان الإسراءُ فيما قال مقاتل قبل الهجرة بعام، وقاله قتادة، وقيل: بعام ونصف، قاله عروة عن عائشة رضي الله عنها، وكان ذلك في رجب، وقيل: في ليلة سبع عشرة من ربيع الأول، والنبي ﷺ ابن إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، والمتحقق أن ذلك كان بعد شق الصحيفة[٣]، وقيل: بيعة العقبة، وقع في الصحيحين لِشُرَيْك بن أبي نمر وَهْمٌ في هذا المعنى، فإنه روى حديث الإسراء وقال فيه: «وذلك قبل أن يوحى إليه». ولا خلاف بين المحدِّثين أن هذا وهم من شريك[٤].

و«المسجدُ الأَقْصى» مسجد بيت المقدس، وسمَّاه «الأقصى» أي في ذلك الوقت، كان أقصى بيوت الله الفاضلة من الكعبة، ويحتمل أن يريد بـ[الأَقْصَى]: البعيد، دون مفاضلة بينه وبين سواه، ويكون المقصد إظهار العجب في الإسراء إلى هذا البُعْد في ليلة.

---

(١) من الآية (٢٧) من سورة (الفتح).

(٢) أخرجه الطبراني، وابن مردويه، عن أم هانىء رضي الله عنها، وأخرج نحوه أبو يعلى وابن عساكر، وأخرج أيضاً نحوه ابن إسحاق، وابن جرير (الدر المنثور).

(٣) روى ابن إسحاق أن قريشاً حين رأت أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وبعد إسلام عمر وحمزة، فاجتمعت قريش، وائتمرت على أن تكتب فيما بينها كتاباً تتعاقد فيه قبائلها على بني هاشم، وبني المطلب، على أن لايُنْكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، وكتبوا ذلك في صحيفة، وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة. وهذه الصحيفة كانت موضع نقد من أهل العقل في قريش، وانتهت إلى أن شقت ومزقت.

(٤) حديث شريك بن نمير هذا أخرجه البخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن مردويه، وقال فيه الحافظ عبد الحق رحمه الله في كتابه (الجمع بين الصحيحين): «هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبي نمر، عن أنس، وقد زاد فيه زيادة مجهولة، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة، وقد روى حديث الإسراء جماعة من الحفاظ المتقنين، والأئمة المشهورين، كابن شهاب، وثابت البناني، وقتادة ـ عن أنس ـ فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث». وقد انتقد رواية شريك هذه أيضاً سنداً ومتناً الشهابُ الخفاجي في كتاب (نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض).



والبَرَكَة حوله من جهتين: إحداهما النبوة والشرائع والرسل الذين كانوا في ذلك القطر وفي نواحيه ونواديه، والأخرى النِّعَمُ من الأشجار والمياه والأرض المفيدة التي خصَّ الله الشَّام بها، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله بارك فيما بين العريش والفرات، وخصَّ فلسطين بالتقديس).

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ يريد: لنري محمداً بعينيه آياتنا في السموات، والملائكة، والجنة، ، والسِّدرة، وغير ذلك مما رآه تلك الليلة من العجائب، ويحتمل أن يريد: لنري محمداً ﷺ للناس آية، أي: يكون النبي ﷺ آية في أن يصنع اللهُ لبشرٍ هذا الصُّنع، وتكون الرُّؤْية ـ على هذا ـ رؤْية قلب.

ولا خلاف أَن في هذا الإسراء فُرضت الصلواتُ الخمس على هذه الأمة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وعيدٌ من الله تبارك وتعالى للكفار على تكذيبهم محمداً ﷺ في أمر الإسراء، فهي إشارة لطيفة بليغة إلى ذلك، أي: هو السميع لما تقولون، البصير بأفعالكم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾.

عطف قوله تعالى: ﴿وآتَيْنَا﴾ على ما في قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ من تقدير الخبر، كأنه قال: أَسْرَيْنَا بعبدنا وأريناه آياتنا، و﴿الكتاب﴾: التوارة، والضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿الكتاب﴾، ويحتمل أن يعود على ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ يجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير: كراهية، وأن يكون في موضع خفض بتقدير: بألاَّ تتَّخذوا، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسِّرة بمعنى: أيْ، كما قال: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟﴾[1]، فهي في هذا مع أمرٍ، وهي في آيتنا هذه مع نَهْي، والمعنى في هذه التقديرات: جعلنا ذلك لئلا تتخذوا يا ذُرِّيَّةَ، ويحتمل أن تكون [ذُرِّيَّةَ] مفعولاً، ويحتمل أن تكون ﴿أَنْ﴾ زائدة، ويضمر في الكلام قول تقديره: قلنا لهم: لا تتخذوا،

(١) من الآية (٦) من سورة (ص).



وأمَّا أن يُضمر القول ولا تجعل [أنْ] زائدة فلا يتَّجه؛ لأن ما بعد القول إمَّا أن يكون جملة تُحْكَى، وإمَّا أن يكون ترجمة عن كلام لا هو بعينه، فيعمل القول في الترجمة، كما تقول ـ لمنْ قال لا إله إلا الله ـ: قلْت حقّاً، وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ ليس بواحد من هذين، قاله أبو علي. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ على المخاطبة، وقرأ أبو عمرو وحده: [أَلاّ يَتَّخِذوا] بالياء على لفظ الغائب، وهي قراءة ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعيسى، وأبي رجاء. و«الْوَكيلُ» فعيل من التوكل، أي: مُتَوَكَّلاً عليه في الأمور، فهو يؤلهه بهذا الوجه، قال مجاهد: [وَكيلاً]: شريكاً.

وقرأ جمهور الناس: (ذُرِّيَّةَ) بضم الذال، وقرأ عامر بفتحها، وقرأ زيد بن ثابت، وأبان بن عثمان، ومجاهد أيضاً بكسرها، وكل هذا بشد الراء والياء، ورُويت عن زيد بن ثابت بفتح الذال وتسهيل الراء وشدِّ الياء، على وزن فَعيلَة، و(ذُرِّيَّة) وزنها فعولة، أصلها (ذُرُورَة)، أُبدلت الراءُ الثانية ياءً وأُدغمت ثم كسرت الراءُ لتناسب الياء. وكل هؤلاء قرؤوا: [ذُرِّيَّةَ] بالنصب، وذلك مُتَّجه، إمَّا على المفعول بـ[تَتَّخذُوا]، ويكون المعنى: ألاَّ تتخذوا بشراً إلهاً من دون الله، وإمَّا على النداءِ، أي: يا ذُرِّيَّةَ، فهي مخاطبة للعالَم ـ قال قومٌ: وهذا لا يتَّجه إلاَّ على قراءة من قرأ: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ بالتاء من فوق، ولا يجوز على قراءة من قرأ بالياء من تحت؛ لأن الفعل لغَائبٍ والنداء لمخاطب، والخروج من الغيبة إلى الخطاب إنما يُسْتَسْهل مع دلالة الكلام على المراد، وفي النداء لا دلالة إلاَّ على غاية التكلف ـ، وإمَّا على النصب بإضمار أَعْني، وإمَّا على البدل من قوله: [وَكيلاً]، وهذا أيضاً فيه تكلُّف. وقرأَت فرقة: [ذُرِّيَّةٌ] بالرفع على البدل من الضمير المرفوع في [تَتَّخذُوا]، وهذا أيضاً يتوجه على القراءة بالياء، ولا يجوز على القراء بالتاء؛ لأنه لا يبدل من ضمير مخاطب، ولو قلت: «ضربتك زيداً» على البدل لم يجز. وقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ إنما عبَّر بهذه العبارة عن الناس الذين عناهم في الآية بحسب الخلاف المذكور، ولأن في هذه العبارة تعديد النعمة على الناس في الإنجاء المؤدِّي إلى وجودهم، ويقبح الكفر والعصيان مع هذه النعمة، والذي حُملوا مع نوح عليه السلام وأَنْسَلوا هم بنوه لصُلْبه؛ لأنه آدم الأصغر، وكل من على الأرض من نسله، هذا قول الجمهور، وذكره الطبري عن قتادة ومجاهد، وإن كان معه غيره فلم يُنْسل. قال النقاش: اسم نوح عبدُ الجبار، وقال ابن الكلبي: اسمُهُ فرج، ووصفه بالشكر لأنه كان يحمد الله في كل حالٍ، وعلى كل نعمة، على

المطعم والمشرب والملبس والبراز وغير ذلك، ﷺ. قاله سلمان الفارسي، وسعيد بن مسعود، وابن أبي مريم، وقتادة.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية، قال الطبري: معنى [قضينا]: فَرَغْنَا، وحكى عن غيره أنه قال: [قضَيْنَا] هنا بمعنى: أخبرنا، وحكى عن آخرين أنهم قالوا: [قَضَيْنَا] معناه: في أم الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما يُلْبِس في هذا المكان تعديةُ [قضَيْنَا] بـ[إلى]، وتلخيص الكلام عندي أن هذا الأمر هو مما قضاه الله تعالى في أم الكتاب على بني إسرائيل وألزمهم إيَّاه، ثم أخبرهم به في التوراة على لسان موسى، فلما أراد هنا الإعلام بالأمرين جميعاً في إيجاز جعل [قضينا] دالَّةً على النفوذ في أُم الكتاب، وقَرَن بها [إِلَى] دالة على إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل، والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ، ولهذا فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما مرَّةً بأن قال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معناه: أعلمناهم، وقال مرَّةً: معناه: قضينا عليهم و«الْكتَابُ» هنا التوارة؛ لأن القَسَم في قوله تبارك وتعالى: [لَتُفْسدُنَّ] غير متوجِّه مع أن يُجعل «الكتابُ» هو اللوح المحفوظ. وقرأ سعيد بن جبير، وأبو العالية الرياحي: [في الكُتُب] على الجمع، قال أبو حاتم: قراءة الناس على الإفراد. وقرأ الجمهور: (لَتُفْسِدُنَّ) بضم التاء وكسر السين، وقرأ عيسى الثَّقَفي [لَتَفْسُدُنَّ] بفتح التاء وضم السين والدال، وقرأ ابن عباس، ونصر بن عاصم، وجابر بن زيد: [لَتُفْسَدُنَّ] بضم التاء وفتح السين وضم الدال. وقوله تعالى: [وَلَتَعْلُنَّ] أي: لَتَتَكَبَّرُنَّ عن طاعة الآمرين بطاعة الله، وتطلبون في الأرض العلوَّ والفساد، وتظلمون من قدرتم على ظلمهم، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومقتضى هذه الآيات أن الله تعالى أعلم بني إسرائيل في التوارة أنه سيقع منهم عصيان وطغيان وكفر لنعم الله تعالى عندهم في الرُّسل والكتب وغير ذلك، وأنه سيرسل عليهم أُمَّةً تغلبهم وتقتلهم وتذلهم، ثم يرحمهم بعد ذلك ويجعل لهم الكرَّة ويردُّهم إلى حالهم الأولى من الظهور، فتقع منهم المعاصي وكُفْر النعم، والظلمُ والقتلُ، والكفرُ بالله من بعضهم، فيبعث الله عليهم أُمَّةً أخرى تخرب ديارهم وتقتلهم

وتجليهم جلاء مبرحاً[١]، وأعطى الوجود بعد ذلك هذا الأمر كله، وقيل: كان بين المرَّتَين: آخر الأولى وأول الثانية مائتا سنة وعشر سنين[٢] ملكاً مُؤيداً بأنبياءَ، وقيل: سبعون سنة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾.

الضمير في قوله تعالى: [أُولاَهُمَا] عائد على قوله: [مَرَّتَيْنِ]، وعبَّر عن الشَّرِّ بالوعد لأنه قد صرَّح بذكر المعاقبة، وإذا لم يجيء الوعد مطلقاً فجائز أن يقع في الشَّرِّ.

وقرأ علي بن أبي طالب، والحسن بن أبي الحسن: [عَبيداً]، واختلف الناس في العبيد المبعوثين وفي صورة الحال اختلافاً شديداً متباعداً. عُيُونه أن بني إسرائيل عَصَوا وقتلوا زكريا عليه السلام فغزاهم سَنْحاريب مَلك بابل[٣]، كذا قال ابن إسحاق، وابن جبير. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غزاهم جالوت من أهل الجزيرة، وروي عن عبد الله بن الزبير أنه قال في حديث طويل: غزاهم آخراً ملك اسمُه خردوش، وتولَّى قتلهم على دم يحيى بن زكريا قائدٌ لخردوش اسمه هورزادان، وكف عن بني إسرائيل وسكن برعاية دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، وقيل: غزاهم أولاً صخابين ملك رومة، وقيل: بختنصر، ورُوي أنه دخل قبلُ في جيش من الفرس وهو خامل يسير في مطبخ الملك، فاطلع من جور بني إسرائيل على ما لم تعلمه الفرس؛ لأنه كان يُداخلهم، فلما انصرف الجيش ذكر ذلك للملك الأعظم، فلما كان بعد مدة جعله رئيس الجيش وبعثه، فخرب بيت المقدس وقتلهم وجلاهم، ثم انصرف فوجد الملك قد مات فملك موضعه، واستمرت حاله حتى ملك الأرض بعد ذلك.

وقالت فرقة: إنما غزاهم بختنصر في المرة الأخيرة حين عصَوْا وقتلوا يحيى بن

---

(١) أي شاقاً قاسياً.

(٢) في إحدى النسخ: «وعشرين سنة»، وما في البحر المحيط يوافق ما أثبتناه.

(٣) ملك آشور، وهو سنحاريب بن سنجور وخليفته، حمل على بلاد الكلدانيين وأرمينية.



زكريا عليهما السلام، وصورة قتله أن الملك أراد أن يتزوج بنت امرأته، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك، فعزَّ ذلك على امرأته، فزينت بنتها وجعلتها تسقي الملك الخمر، وقالت لها: إذا راودكِ عن نفسك فتمنَّعي حتَّى يعطيك ما تَتَمَنَّيْ، فإذا قال لك: تمنَّيْ عليَّ ما أردت فقولي له: رأس يحيى بن زكريا، ففعلت الجارية ذلك، فردَّها الملك مرتين، وأجابها في الثالثة، فجيء بالرأس في طست ولسانه يتكلم ويقول: لا تحلُّ لك، وجرى دم يحيى عليه السلام فلم ينقطع، فجعل الملك عليه التراب حتى ساوى سور المدينة والدم ينبعث، فلما غزاهم الملك الذي بعث الله عليهم ـ بحسب الخلاف فيه ـ قتل منهم على الدَّم حتى سكن بعد قتل سبعين ألفاً. وهذا مقتضى هذا الخبر، وفي بعض رواياته زيادة أو نقص، فَرَوَتْ فرقة أن أشعياء النبي عليه السلام وعَظَهم وذكَّرهم الله ونِعَمَه في مقام طويل نصَّه الطبري، وذكر أشعياءُ في آخره محمداً ﷺ وبشَّر به، فابتدره بنو إسرائيل، فَفَرَّ منهم، فلقي شجرة فتفلَّقت له حتى دخلها فالتأَمَت عليه، فعرض الشيطان عليهم هُدْبَةً من ثوبه، فأخذوا منشاراً فنشروا الشجرة وقطعوه في وسطها فقتلوه، وحينئذ بعث الله عليهم في المرة الأخيرة.

وذكر الزهراوي عن قتادة قصصاً أن زكريا هو صاحب الشجرة، وأنهم لمَّا حملت مريم قالوا: ضيَّع بنت سيدنا حتى زنت، فطلبوه فهرب منهم حتى دخل في الشجرة فنشروه. وروت فرقة أن بختنصر كان حفيد سَنْحاريب الملك الأول، وروت فرقة أن الذي غزاهم آخراً هو سابور ذو الأكتاف[1]. وقال أيضاً ابن عباس رضي الله عنهما: سلَّط الله عليهم حين عادوا ثلاثة أملاك من فارس: سَنْدبَادان وشَهْرَيَازَانِ وآخر. وقال مجاهد: إنما جاءَهم في الأولى عسكر من فارس فجاسَ خلال الديار وتقلَّب، ولكن لم يكن قتال ولا قتل في بني إسرائيل، ثم انصرفت عنهم الجيوش، وظهروا وأُمدُّوا بالأموال والبنين حتى عَصَوْا وطغوا، فجاءَه في المرة الثانية من قتلهم وغلبهم على بيضتهم وأهلكهم آخر الدهر.

قوله تعالى: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، وهي المنازل والمساكن، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يردُّ على قول مجاهد: إنه لم يكن في المرة

---

(١) هذا لقبٌ لُقِّب به سابور لأنه أمر بفكِّ أكتاف الأسرى في الحرب، وقد حارب العرب لأنهم حالفوا الروم ضد فارس.



الأولى غلبة ولا قتال، وهل يدخل المسجد إلاَّ بعد غَلبة وقتال؟ وقد قال مؤرّخ: جاسوا خلال الأزقَّة وقد ذكر الطبري في هذه الآية قَصصاً طويلا، منه ما يخص الآيات، وأكثره لا يخص، وهذه المعاني ليست بالثابتة فلذلك اختصرتها.

وقوله تعالى: [بَعَثْنَا] يحتمل أن يكون الله تعالى بعث إلى ملك تلك الأمة رسولاً يأمره بغزو بني إسرائيل، فتكون البعثة بأمر، ويحتمل أن يكون عَبَّر بالبعث عمّاً أُلقى في نفس الملك الذي غزاهم. وقرأ الناس: (فَجَاسُوا) بالجيم، وقرأ أبو السَّمال: [فَحَاسُوا] بالحاء، وهما بمعنى الغلبة والدخول قَسْراً، منه الحَوْس، وقيل لأبي السَّمَّال: إنما القراءة (جَاسُوا) بالجيم، فقال: جاسوا وحاسُوا واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا يدل على تَخَيُّر لا على رواية، ولهذا لا تجوز الصلاة بقراءته وقراءة نظرائه[1].

وقرأ الجمهور: (خلال)، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [خَلَلَ]، ونصبه في الوجهين على الظرف.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية عبارةٌ عما قال الله تعالى لبني إسرائيل في التوارة، وجعل [رَدَدْنَا] في موضع (نَرُدُّ) إذْ وقت إخبارهم لَمْ يقع الأمر بعد، لكنه لما كان وعد الله في غاية الثقة أنه يقع عبَّر عن مستقبله بالماضي، وهذه الكَرَّة هي بعد الجلوة الأولى كما وصفنا، فغلبت بنو إسرائيل على بيت المقدس وملكوا فيه، وحسنت حالهم برهة من الدهر، وأعطاهم الله الأموال والأولاد وجعلهم إذا نفروا إلى أمر أكثر الناس، قال الطبري: وصيَّرناكم أكثر عدد نافر منهم. قال قتادة: كانوا أكثر نَفيراً في زمن داود عليه السلام. و[نفيراً] يحتمل أن يكون جمع نَفْر، كَكَلْب وكليب، وعبْد وعبيد، ويحتمل أن يكون فعيلاً بمعنى فاعل، أي: وجعلناكم أكثر نافراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعندي أنَّ النَّفير اسم للجمع الذي يَنْفرُ، سُمِّي بالمصدر، وقد قال تُبَّع الحمْيَري:

فَــأَكْــرِمْ بقَحْطَــانَ مــنْ وَالــدٍ ... وبــالْحِمْيَــرِيِّيــنَ أكْــرِمْ نَفِيــراً[2]

---

(١) القراءة سُنَّة مُتَّبعة، وهي كلها مأثورة عن النبي ﷺ، فإذا قامت قراءة القارىء على الاختيار لا الرواية فهي قراءة غير صحيحة.

(٢) تُبَّع الحِميَرْ هو حسَّان بن أسعد أبي كرب الحميري، من أعظم تبابعة اليمن، و(تُبَّع) لَقَب كان يلقب به=



وقالوا: «لاَ في العير ولا في النفير»[١]، يريدون جمع قريش الخارج من مكة إلى بدر.

فَلَمَّا قال الله تعالى لهم: إنِّي سأفعل بكم هكذا عقَّب ذلك بوصيتهم في قوله سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، والمعنى: إنكم بعملكم تؤخذون، ولا يكون ذلك ظلماً ولا تشرعاً إليكم، و﴿وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ معناه: من المرتين المذكورتين، وقوله تعالى: ﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾، اللام لام أمر، وقيل: المعنى: بعثناهم ليسؤوا، فهي لام (كَيْ) كلها، والضمير للعباد أولي البأس الشديد، وقرأ الجمهور: ﴿لِيَسُـُٔوا۟﴾ بالياء، جمع وهمزة بين واوين، وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ، وابن عامر: [لِيَسُوءَ] بالياء وهمزة مفتوحة على الإفراد[٢]، وقرأ الكسائي ـ وهي مروية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [لِنَسُوءَ] بنون العظمة، وقرأ أُبيُّ بنُ كعب: [لِنَسُوأَنْ] بنون خفيفة، وهي لام الأمر[٣]، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [لَيَسُوأَنَّ] بفتح اللام ـ وهي لام القَسَم ـ والفاعل الله عزَّ وجلَّ، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب: [لِيُسيءَ] بياءٍ مضمومة بغير واو، وفي مصحف أنس: [لِيَسُوءَ وجْهَكم] على

= الملك الأكبر من ملوك الدولة الحميرية الثانية في اليمن، والمظنون أنه كان في القرن العاشر قبل الهجرة، قيل: إنه هو الذي قضى على قبائل جديس باليمامة، وغزا كثيراً من البلاد، ووصل إلى سمرقند، ودمشق، ومرَّ بمكة، ونفر من عبادة الأصنام. وقد ثار عليه جماعة من قومه فقتلوه. وقحطان: أبو اليمن، وحِميْر: أبو قبيلة من اليمن، من نسل قحطان، ومنها كانت الملوك في الزمن القديم. وتُبَّع يمدح آباءَه وأجداده، والشاهد أن نفيراً اسم للجمع الذي ينْفِر.

(١) وأول من قال هذا المثل هو أبو سفيان بن حرب، وذلك أنه أقبل بالعير التي لقريش عائداً من الشام، فلما علم بخروج المسلمين له ضرب وجوه العير فساحَلَ بها وترك بدراً على يساره، وكانت قريش قد أقبلت من مكة لنجدته، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد نجا بالعير ويطلب منهم العودة، ولكن القرشيين أبوا الرجوع، ورجعت بنو زهرة فقط، وصادفت أبا سفيان في عودتها من طريق الساحل، فقال أبو سفيان: يا بني زهرة، لا في العير ولا في النفير، قال الأصمعي: يُضرب هذا للرجل يُحَطُّ أمره ويصغر قدره.

(٢) ومعنى هذا أن الفاعل مضمر، ويعود على الله تعالى، أو على الوعد، أو على البعث الدالّ عليه جملة الجزاء المحذوفة.

(٣) قال أبو الفتح بن جني: «كما تقول: إذا سألتني فالأعطكَ، كأنك تأمر نفسك، ومعناه: فَلأعطينك، واللامان بعده للأمر أيضاً: وهما: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾، ويقوِّي ذلك أنه لم يأت لإذا جواب فيما بعد، فدلَّ على أن تقديره: فلْنسوأَنْ وجوهكم».



الإفراد، وخصَّ بالذكر الوجوه لأنها المواضع الدالة على ما بالإنسان من خير أو شَرٍّ. و«المسجد»: مسجد بيت المقدس. و«تبَّر» معناه: أَفْسَد وأهلك بغشم، وقوله: ﴿مَا عَلَوْاْ﴾ أي: ما تغلبوا عليه من الأقطار وملكوه من البلاد[1]، وقيل: [ما] ظرفية، والمعنى: مُدَّةَ عُلُوِّهم وغلبتهم على البلاد. و«تبَّر» تحريره: ردَّ الشيءَ فُتاتاً كتِبْر الذهب والحرير ونحوه، وهو تفتيته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

يقول الله تعالى لبقية بني إسرائيل: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ إن أطعتم في أنفسكم واستقمتم ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾، و«عَسَى» ترجٍّ في حقهم، وهذه العِدَة ليست برجوع دولة، وإنما بأن يرحم المطيع منهم، وكان من الطاعة اتِّباعهم لعيسى عليه السلام، ولمحمد ﷺ، فلم يفعلوا، وعادوا إلى الكفر والمعصية، فعاد عقاب الله تعالى، فضرب عليهم الذلَّ وقتلهم، وأذلَّهم بيد كل أُمة، وهنا قال ابن عباس رضي الله عنهما: سلَّط عليهم ثلاثة ملوك.

و«الْحَصير» فَعيل من الحصر، فهي بمعنى السجن، أي: تَحْصُرُهم، وبنحو هذا فسَّر مجاهد وقتادة وغيرهما، ويقال: الحصير أيضاً من الحصْر للْمَلِك، ومنه قول لبيد:

وَمَقَـامَـةٍ غُلْـبِ الـرِّقَـابِ كَـأَنَّهُـمْ ... جِـنٌّ لَـدَى بـابِ الْحَصِيـر قِيـامُ[2]

---

(١) معنى هذا أن [ما] مفعول به في هذا التقدير، أما في التقدير التالي فهي ظرفية كما قال ابن عطية.

(٢) البيت من قصيدة قالها لبيد يفتخر، وهو في الديوان، وفي اللسان (حَصَرَ)، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، ورواية اللسان (وقَماقِم غلْبٍ). ورواية الديوان: (لَدَى طَرَف الحَصير). والمقامَةُ: أهل المجلس، وغُلْبُ الرقاب: غلاظُ الأعناق كالأسود، والحصيرُ: المَلِكُ، قيل له: حصيرٌ لأنه محجوبٌ عن الناس، وهذا موضع الاستشهاد هنا.

أما كلمة (قماقم) فمعناها العدد الكثير. وقد أشار في اللسان إلى الرواية الأخرى، قال: «الجوهري: ويُرْوَى (ومَقَامَةٍ غُلْبِ الرقاب) على أن يكون (غُلْب الرقاب) بدلاً من (مَقَامَةٍ)، كأنه قال: ورُبَّ غُلْبِ الرقاب».



ويقال لجَنْبَي الإنسان: حصيران لأنهما يحصرانه، ومنه قول الطِّرِمَّاح:

قَليـلاً تَتَلَّـى حـاجَـةً ثُـمَّ عُـولِيَـتْ ... عَلَى كُلِّ مَفْرُوشِ الْحَصِيرَيْنِ بادنِ[1]

وقال الحسن: «الْحَصيرُ» في الآية أراد به ما يُفْتَرَش ويُبْسَط كالحصير المعروف عند الناس[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك الحصير مأخوذ من الحصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ الآية. ﴿يَهْدي﴾ في هذه الآية بمعنى: يُرْشد، ويتوجه فيها أن تكون بمعنى: يدعو، و﴿الَّتي﴾ يريد بها الحالة والطريقة. وقالت فرقة: ﴿للتي هي أقوم﴾ هي لا إله إلا الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأول أعم، وكلمة الإخلاص وغيرها من الأقوال والأفعال داخلة في الحال التي هي أقوم من كل حال تجعل بإزائها، والاختصار على ﴿أَقْوم﴾ ولم يذكر: «من كذا» إيجازٌ، والمعنى مفهوم، أي: لِلَّتي هي أقوم من كل ما غايرها، فهي النهاية في القوام، وقيَّد المؤمنين بعمل الصالحات إذْ هو كمال الإيمان وإن لم يكن في نفسه، والمؤمن المفرد في العمل له بإيمانه حظٌ في عمل الصالحات، و«الأَجْرُ الكبيرُ»: الجنَّةُ، وكذلك حيث وقع في كتاب الله تعالى: «فَضْلٌ كبيرٌ وأَجْرٌ كبيرٌ» فهو الجنَّة.

---

(١) البيت للطِّرِمَّاح بن حكيم، ومعنى الطرِمَّاح: الطويل القامة، وهو من فحول الشعراءِ الإسلاميين، نشأ بالشام، وانتقل إلى الكوفة، واعتقد مذهب الأزارقة الشراة، وهم من الخوارج. والبيت في الديوان، وتَتَلَّى: تتَبَّع، يقال: تَلَّى الرَّجل صلاتَه: أتبع المكتوبة التَّطَوُّع، أو أتبع الصلاة الصلاة. وتَتَلَّى أيضاً: بقي بقية من دينه (ارجع اللسان)، وَعُلِيَت: ذهب بها إلى العالية. والحصيران: جَنْبا الإنسان، سُمِّيَا بذلك لأنهما يحصرانه، وهذا موضع استشهاد ابن عطية بالبيت، والبادِنُ: السمين، يقال للذكر والأنثى، وقد يقال للأنثى: بادنة، والجمع بُدْنٌ وبُدَّنٌ.

(٢) وهو الذي يُبْسَط في البيوت، وهو منْسُوجٌ من بَرْدِيٍّ وأَسَل، سُمِّي حصيراً لأنه حُصرت طاقتَهُ بعضها مع بعض، ولهذا أشار المؤلف في كلامه، وفي الحديث الشريف أنه ﷺ قال لأزواجه: (أفضل الجهاد وأكمله حجٌّ مبرور، ثم لزوم الحصير)، أي لزوم البيوت بعد أداء فريضة الحج. ويجمع الحصير على حُصُر. وعلى هذا المعنى في (الحصير) يكون معنى الآية أن جهنم صارت للكافرين فراشاً ومهاداً، قال الثعلبي: وهو وجْهٌ حسن.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ﴾ الأولى في موضع نصب بـ[يُبَشِّرُ]، و﴿أَنَّ﴾ الثانية عطف على الأولى، وهي داخلةٌ في جملة بشارة المؤمنين. بَشَّرهم القرآن بالجنة وبأن الكفار لهم عذاب أليم، وذلك أن علْم المؤمنين بهذا مسرَّة لهم، وفي هذه البشارة وعيدٌ للكفار بالمعنى، وهذا الذي تقتضيه ألفاظ الآية. وقرأ الجمهور: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين، وقرأ ابن مسعود، ويحيى بن وثاب، وطلحة: [وَيَبْشُرُ] بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين. و﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: أحضرنا وأعددنا، ومنه العتاد. و«الأليمُ»: الموجع.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾. سقطت الواو من ﴿يَدْعُ﴾ في خط المصحف لأنهم كتبوا المسموع. وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: هذه الآية نزلت ذامَّةً لما يفعله الناسُ من الدعاء على أموالهم وأولادهم في وقت الغضب والضجر، فأخبر الله تعالى أنهم يدعون بالشَّرِّ في ذلك الوقت كما يدعون بالخير في وقت التثبت، فلو أجاب الله دعاءهم لأهلكهم، ولكن الله تعالى يصفح ولا يجيب دعاء الضَّجِر المستعجل. ثم عذر بعض العذر في أن الإنسان له عجلة فطرية، و﴿الإِنْسَانُ﴾ هنا، قيل: يراد به الجنس بحسب ما في الخلق من ذلك. قاله مجاهد وغيره. وقال سلمان الفارسي، وابن عباس: إشارته إلى آدم عليه السلام في أنه لما نفخ الروح في رأسه عطس وأبصر، فلما مشى الروح في بدنه قبل ساقيه أعجبته نفسه فذهب يمشي مستعجلاً لذلك فلم يقدر، فأشارت ألفاظ الآية إلى ذلك. والمعنى: فأنتم ذوو عجلة موروثة من أبيكم، ويُروى أن رسول الله ﷺ جعل أسيراً في قيد في بيت سودة بنت زمعة، فسمعت سودةُ أنينَهُ فأَشفقت، فقالت له: ما بالك؟ فقال: أَلَمُ القيد، فقامت فأرخت من ربطه فسكت، ثم نامت، فَتحَيَّل في الانحلال وفرَّ، فطلبه النبيُّ ﷺ عند الصبح فأُخبر الخبر، فقال: (قطع الله يديها)، ففزعت سودة ورفعت يديها نحو السماء وهي تخاف الإجابة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد جعل دعائي في مثل هذا رحمة على المدعو له؛ لأنِّي بشر أغضب وأعجلُ، فَلْتَرُدَّ سودةُ يديها»[1].

---

(١) ذكر القرطبي هذا الخبر ثم قال: «ذكره القُشيري أبو نصر رحمه الله»، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنما محمد بشر، يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيما مؤمن آذيتُه أو سببتُه أو جلدتُه فاجعلها له كفارةً وقُرْبة تقربه بها إليك يوم القيامة».



وقال فرقة: هذه الآية نزلت في شأن قريش، قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية[1]، وكان الأولى أن يقولوا: «فاهدنا إليه وارحمنا به»، فذمَّهم الله تعالى في هذه الآية.

وقالت فرقة: معنى هذه الآية معاتبة الناس على أنهم إذا نالهم شرٌّ وضرٌّ دعوا ولجُّوا في الدعاء الذي كان يجب أن يدعوه في حالة الخير ويلزمه الكل، من ذكر الله تعالى وحمده والرغبة إليه، لكن الإنسان يقصر حينئذ، فإذا مسَّه الضُّرُّ ألَحَّ واستعجل الفرج، فالآية ـ على هذا ـ نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

«الآيةُ»: العلامة المنصوبة للنظر والعبرة. وقوله تعالى: ﴿فَمَحَونَا﴾، قالت فيه فرقة: سبب تعقيب الفاء أن الله تعالى خلق الشمس والقمر مضيئين، فَمَحَا بعد ذلك القمر، محاه جبريل عليه السلام بجناحه ثلاث مرات، فمن هنالك كَلَفُه وكونه منيراً فقط وقالت فرقة ـ وهو الظاهر ـ: إن قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا﴾ إنما يريد: في أصل خلقته، وهذا كما تقول: «بنيتُ داري فبدأت بالأُس[3] ثم تابعت»، فلا تريد بالفاء التعقيب، وظاهر لفظ الآية يقتضي أربع آيات، لا سيما لمن بنى على أن القمر هو المَمْحُوُّ، والشمس هي المبصرة، فَأَمَّا من قدَّر أن المَحْوَ في ظلام الليل والإبصَار في ضوء النهار أمكن أن تتضمن الآية آيتين فقط، على أن يكون فيها طرف من إضافة الشي إلى نفسه. وقوله تعالى: ﴿مُبْصِرَةً﴾ مثل قولك: «ليلٌ نائم وقائم»، أي: يُنَام ويُقام فيه، وكذلك: «آيةٌ مُبْصِرة» أي: يبصر فيها ومعها.

وحكى الطبري عن بعض الكوفيين أنه قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأنفال).

(٢) من الآية (١٢) من سورة (يونس).

(٣) الأَسُ، والأُسُّ، والإسُّ: الأساسُ، وهو قاعدة البناء التي يُقام عليها.

سَلُوا عما شئتم، فقال ابن الكواء: ما السواد الذي في القمر؟ فقال له علي: قاتلك الله، هلاَّ سألت عن أمر دينك وآخرتك؟ ذلك مَحْوُ الليل.

وجعل الله تعالى النهار مبصراً ليبتغي الناس الرزق وفضل الله، وجعل القمر مخالفاً لحال الشمس ليعلم به العدد من السنين والحساب للأشهر والأيام، ومعرفة ذلك في الشرع إنما هو من جهة القمر لا من جهة الشمس.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه الظاهر، تقديره: وفصلنا كل شيء تفصيلا، وقيل: [وَكُلَّ] عطف على [وَالْحِسَابَ]، فهو معمول [لِتَعْلَمُوا]، و«التَّفْصِيلُ»: البيانُ بأن تُذكر فصول ما بين الأشياء وتُزَال أَسْبَابُهَا حتى يتميز الصواب من الشبهة العارضة فيه.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ الآية. قوله: [كُلَّ] منصوب بفعل مقدر، وقرأ الحسن، وأبو رجاءٍ، وابن مجاهد (طيره في عنقه). قال ابن عباس رضي الله عنهما: «طَائِرَهُ»: ما قُدِّرَ عليه وله، وخاطب الله تبارك وتعالى العربَ في هذه الآية بما تعرف، وذلك أنه كان من عادتها التَّيَمُّن والتَّشاؤُم بالطير في كونها سانحة وبارحة[1]، وكثر ذلك حتى فعلته بالظباء وحيوان الفلوات، وسمَّت كل ذلك تطيراً، وكانت تعتقد أن تلك الطِّيَرَة قاضية بما يلقى الإنسانُ من خير وشر، فأخبرهم الله تعالى في هذه الآية في أوجز لفظ وأبلغ إشارة أن جميع ما يلقى الإنسان من خير أو شرٍّ قد سبق به القضاءُ، وأُلزم حظَّه وعمله وتكسبه في عنقه، وذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، فعبَّر عن الحظ والعمل ـ إذ هما متلازمان ـ بالطائر، قاله مجاهد وقتادة، بحسب معتقد العرب في التطَيُّر، وقولهم في الأُمور: «على الطَّائر الميمون»، و«بأَسْعَد طائر»، ومنه ما طار في المحاصة والسَّهْم[2]، كقول أمِّ العلاء الأنصارية: «فطار لنا من القادمين مع رسول الله ﷺ في الهجرة عثمان بن مظعون»[3]، أي: كان ذلك حظَّنَا،

---

(١) السَّانح: ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك من ذلك عن يسارك.

(٢) أي في الاقتسام والتخصيص، أو في الاختيار وفي حديث رُوَيْفع: إن كان أحدنا ليطير له النَّصْل وللآخر القِدْح، معناه أن الرجلين كانا يقتسمان السهم، فيقع لأحدهما نَصْله وللآخر قِدْحهُ.

(٣) حديث أم العلاء أخرجه البخاري في الجنائز والتعبير، وأحمد (٦/٤٣٦)، ففي البخاري، عن ابن شهاب، قال: أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ بايعت النبي ﷺ، أخبرته أنه اقْتُسِم المهاجرون قرعة، فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فَوَجِع وجعه الذي=

وأصل هذا كله من الطير التي تقضي عندهم بلقاء الخير والشر، وأبطل ذلك قولُ النبي ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة»[1].

وقوله تعالى: ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ جرى أيضاً على مقطع العرب في أن تنسب ما كان إلزاماً، وقلادة، وأمانةً، ونحو هذا ـ إلى العُنُق، كقولهم: «دَمي في عُنق فلان»، وكقول الأعشى:

قَلَّدْتُكَ الشِّعْرَ يَا سَلاَمَةَ ذا الـ ... تَّفْضَالِ، والشيءُ حَيْثُمَا جُعِلاَ[2]

وهذا كثير، ونحوهُ جَعْلُهم ما كان تكسُّباً وجنايةً وإثماً منسوباً إلى اليد؛ إذ هي الأصْلُ في التَّكَسُّب.

وقرأ أبو جعفر، ونافع، والناسُ: ﴿وَنُخْرِجُ﴾ بنون العظمة ﴿كِتَابًا﴾ بالنصب، وقرأ الحسن، ومجاهد، وابن محيصن: [يَخْرُجُ] بفتح الياء وضم الرَّاءِ على الفعل المستقبل ﴿كِتَابًا﴾، أي طائرهُ الذي كنَّى به عن عمله يَخْرُجُ له ذا كتاب. وقرأ الحسن ـ من هؤلاء: [كِتَابٌ] بالرفع، وقرأ أبو جعفر أيضاً: [وَيُخْرَجُ] بضم الياء وفتح الراء ـ على ما لم يُسَمَّ فاعله. ﴿كِتَابًا﴾، أي: طائرُهُ. وقرأ أيضاً: [كِتَابٌ]، وقرأت فرقة: [وَيُخْرِجُ] بضم الياء وكسر الراء، أي: يُخْرِجُ اللهُ، وفي مصحف أُبيِّ بن كعب: [في عنقه يقرأه

= تُوُفِّي فيه، فلما تُوفي وغُسِّل وكُفِّن في أثوابه دخل رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ فقلت: بأبي أنت رسول الله، فمن يكْرمه الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أمَّا هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعَل بي، قالت: فوالله لا أُزكّي أحداً بعده أبداً.

(١) أخرجه البخاري في الطب، ومسلم في السلام، وأبو داود في الطب، وابن ماجه في المقدمة والطب، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه كما في بعض روايات مسلم، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، قال: «لا عَدْوى ولا طِيَرةَ ويُعجبني الفألُ، قال: قيل: وما الفألُ؟ قال: الكلمة الطيبة»، وفي رواية: «وأحبُّ الفأل الصالح».

(٢) البيت من قصدة للأعشى يمدح سلامة ذا فائش، ومطلعها:

إنَّ مَحَلاً وَإنَّ مُرْتَحَلا ... وإنَّ في السَّفْرِ ما مَضَى مَهَلا

وقبله يقول:

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمَطِيَّ وَلا ... يَشْرَبُ كَأساً بِكَفِّ مَنْ بَخِلا

والتَّفْضَال: الإحسانُ، وأن يكون للإنسان فضل على غيره في القدر والمنزلة.

يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً]. وهذا الكتاب هو عمل الإنسان وخطيئاته[(١)].

وقرأ الجمهور: ﴿يَلْقَاهُ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وخفَّة القاف، وقرأ ابن عامر وحده[(٢)]: [يُلَقَّاهُ] بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، وهي قراءة الحسن ـ بخلاف ـ وأبي جعفر الجحدري.

وقوله: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ حُذِفَ من الكلام «يُقَالُ لَهُ» اختصاراً لدلالة الظاهر عليه. و«الحَسِيبُ»: الحاسِبُ، ونصبه على التمييز، وأسند الطبري، عن الحسن أنه قال: «يا بن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملَكَان كريمان، أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يحفظ سيآتك، فامْلِك ما شئت أَو أَقْلِلْ أَوْ أكثر، حتَّى إذا متَّ طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً، اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، قد عدل والله فيك مَنْ جَعَلَكَ حسيب نفسك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذه الألفاظ التي ذكر الحسن يكون الطائر ما يتحصل مع ابن آدم من عمله في قبره، فتأمَّل لفظه، وهذا هو قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقال قتاد في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾: إنه سيقرأُ يومئذ من لم يكن يقرأ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

معنى هذه الآية أن كل أحد إنما يحاسَبُ عن نفسه لا عن غيره، ورُوي أن سببها أن الوليد بن المغيرة المخزومي قال لأهل مكَّةَ: اكفروا بمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإثْمُكُم عليَّ، فنزلت هذه الآية، أي: إن الوليد لا يحمل آثامكم، وإنما إثم كلٍّ

(١) قال الطبري: «وأولى القراءات في ذلك بالصواب قراءةُ من قرأ: ﴿ونُخْرِجُ﴾ بالنون وضمها؛ لأن الخبر جرى قبل ذلك عن الله تعالى أنه الذي ألزم خَلقه ما ألزمه من ذلك، فالصواب أن يكون الذي يليه خبراً عنه، أنه هو الذي يخرج لهم يوم القيامة، أن يكن بالنون كما كان الخبر الذي قبله بالنون».

(٢) أي: قرأ وحده من السبعة، وإلا فقد قرأ بها غيره كالحسن، والجحدري.



أحد عليه. وقالت فرقة: نزلت الإشارة في الهدى إلى أبي سَلَمَة بن عبد الأسد[١]، والإشارة بالضلال إلى الوليد بن المغيرة.

و«وَزَرَ» معناه: حَمَل، و«الْوِزْرُ»: الثِّقل[٢]، ومنه: وَزير السلطان، أي: الذي يحمل ثقل دولته، وبهذه الآية نزعت عائشة أمُّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها في الردِّ على من قال: إن الميت يُعَذَّب ببكاء الحي عليه، ونكتة ذلك المعنى إنما هيَ أن التعذيب إنما يقع إذا كان البكاءُ من سنَّة الميت وتسبُّبه، كما كانت العربُ تفعل[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، قالت فرقة هي الجمهور: وهذا في حكم الدنيا، أي أن الله لا يُهلك أُمة بعذاب إلا من بعد الرسالة والإنذار، وقالت فرقة: هذا عام في الدنيا والآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتلخيص هذا المعنى أن مقصد الآية في هذا الموضع الإعلامُ بعبادة الله تعالى مع الأمُم في الدنيا، وبهذا يقرب الوعيد من كفار مكَّة. ويؤيد هذا ما يجيءُ بعْدُ من وصفه ما يكون عند إرادة الله إهلاك قرية، ومن إعلامه بكثرة ما أهلك من القرون، ومع هذا فالظاهر من كتاب الله تعالى في غير هذا الموضع، ومن النظر، أن الله تعالى لا يعذب

---

(١) هو أبو سلمة بن عبد الأسد، بن هلال، بن عبد الله بن عمر، بن مخزوم، المخزومي، أحد السابقين إلى الإسلام، اسمه عبد الله، وأُمه برَّة بنت عبد المطلب بن هاشم، كان ممن هاجر بامرأته أم سلمة بن أبي أمية إلى الحبشة، ثم شهد بدراً بعد أن هاجر الهجرتين، ومات من جرح جرحه يوم أحد، وتزوج رسول الله ﷺ امرأته أم سلمة رضي الله عنهما (الإصابة والاستيعاب).

(٢) في بعض النسخ: و«وَزَرَ» معناها: حَمَل الوِزرَ، أي: الثقل.

(٣) الذي قال: إن الميتَ يُعذَّب ببكاءِ أهله عليه هو ابن عمر رضي الله عنهما. قال العلماءُ: ولا وجه لإنكار السيدة عائشة رضي الله عنها؛ فإن الرواة لهذا المعنى كثير، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابنه، والمغيرة بن شعبة، وقيَلَة بنت مخرمة، وهم جازمون بالرواية فلا وجه لتخطئتهم، ولأنه لا معارضة بين الآية والحديث، فإن الحديث محمول على ما إذا كان البكاءُ من وصية الميت وسنته كما كانت العرب تفعل، وقد ذكر ابن عطية هذا، ومنه قول طرفة:

إذا مـتُّ فـانعيني بمـا أنـا أهْلُـهُ ... وشُقِّـي عَلَـيَّ الْجَيْـبَ يـا بنْـة مَعْبَـدِ

وقول غيره موصياً بأن يمتد البكاءُ عليه حولاً كاملاً:

إلـى الْحَـوْل ثُـمَّ اسْـمُ السَّـلام عَلَيْكُمـا ... ومـن يَبْـكِ حَـوْلاً كـاملا فقـد اعتَـذَرْ

وقد نحا إلى هذا الرأي الإمام البخاري.



في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[١]، وظاهر [كُلَّمَا] الحَصْر، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٢]، وأما من جهة النظر فإن بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد، وبعث المعتقدات في بنيه، ونصب الأدلة الدَّالَّة على الصانع، مع سلامة البصر، يوجب على كل أحدٍ من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدَّد ذلك من مدة نوح عليه السلام بعد غرق الكفار، وهذه الآية أيضاً يُعطي احتمال ألفاظها نحو هذا، ويجوز مع الفرض وجود قوم لم تصلهم رسالةٌ، ومنهم أهل الفترات الذين قد قدَّرَ وجودَهم بعضُ أهل العلم، وأما ما رُوي أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال، فحديثٌ لم يصح، ولا يقتضيه ما تقضيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ الآية. هي في مصحف أُبَيٍّ بن كعب: [بَعَثْنَا أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا]، و«الْقَرْيَةُ»: المدينة المجتمعة، مأخوذٌ من: قَرَيْت الماء في الحوض، إذا جمعته، وليست من (قرأ) الذي هو مهموز، وإن كان فيهما جميعاً معنى الجمع. وقرأ الجمهور: ﴿أَمَرْنَا﴾ على صيغة الماضي، من: أَمَر ضد نَهَى، وقرأ نافع، وابن كثير ـ في بعض ما رُوي عنهما ـ: [آمَرْنَا] بمدِّ الهمزة، بمعنى: كَثَّرْنَا، ورُويت عن الحسن، وهي قراءة علي بن أبي طالب، وابن عباس ـ بخلاف عنه ـ، عن الأعرج، وقرأ بها ابن أبي إسحاق، وتقول العربُ: «أَمِرَ الْقَوْمُ» إذا كثروا، وآمَرَهُمْ الله تعالى فيتعدى بالهمزة. وقرأ أبو عمرو ـ بخلاف ـ: [أَمَّرْنَا] بتشديد الميم، وهي قراءة أبي عثمان النهدي، وأبي العالية، وابن عباس رضي الله عنهما، ورويت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقال الطبري: القراءة الأولى معناها: أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، وهو قول ابن عباس، وابن جبير، والثانية معناها: كثَّرناهم، والثالثة هي من الإمارة، أي: ملَّكناهم على الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قال أبو عَليٍّ الفارسي: «الجيِّد في ﴿أَمَرْنَا﴾ أن تكون بمعنى: كَثَّرْنَا، يتعدى الفعل

---

(١) من الآيتين (٨ـ٩) من سورة الملك.

(٢) من الآية (٢٤) من سورة فاطر.

بلفظ غير متعدد، كما تقول: رَجَعَ وَرَجَعْتُه، وشَتِرَتْ عَيْنُه وشَتَرْتُهَا[١]، فتقول: أَمَرَ القومُ وأمرهم الله، أي كثَّرهم[٢]، وآمَرْنَا مبالغة في أَمَرْنَا بالهمزة، وأَمَّرْنَا مبالغة فيه بالتضعيف، ولا وجه لكون أَمَّرْنَا من الإمارة؛ لأن رياستهم لا تكون إلا واحداً بعد واحد، والإهلاكُ إنما يكون في مدة واحد منهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وينفصل عن هذا الذي قاله أبو علي بأن الأمر وإن كان يعُمُّ المترف وغيره، فخَصَّ المترف بالذكر إذْ فِسْقُهُ هو المؤثر في فساد القرية، وهم عُظم الضلالة وسواهم تبع لهم. وأمَّا أمَّرْنا من الإمارة فمتوجه على وجهين: أحدهما ألاَّ يريد إمارة المُلْك، بل كونهم يأمرون ويُؤْتمر لهم؛ فإنَّ العرب تقول لمن يأمر الإنسان ـ وإن لم يكن مِلكاً ـ: هو أمير، ومنه قول الأعشى:

إذا كــان هــادي الْفَتَــى فــي الْبــلا ... د صَــدْرَ الْقَنَــاةِ أَطَــاعَ الأميــرَا[٣]

ومنه قول معاوية لعمر رضي الله عنه حين أمره بالاستقادة من لطمة عمرو بن العاص: إنَّ عليَّ أميراً لا أقطع أمراً دونه، أراد معاوية أباه، وأراد الأعشى أنه إذا شاخ الإنسانُ وعَمي واهتدى بالعصى أطاعَ كلَّ من يأمره، ومنه قول الآخر:

والنَّــاسُ يَلْحَــوْنَ الأَميــرَ إِذَا هُــمُ ... خِطِئُوا الصَّوَابَ وَلاَ يُلاَمُ الْمُرْشِدُ[٤]

---

(١) شَتِرَتْ عينُه: انشقَّتْ، وشَتَرْتُها: شَقَقْتُهَا وجعلتها شَتْرَاءَ.

(٢) استدل أبو عبيدة على صحَّة هذه اللغة بما جاء في الحديث الشريف: (خيرُ المال مُهْرَةٌ مَأمورة، أوْ سكَّةٌ مأبورة)، أي: خير المال مُهْرَةٌ كثيرة النَّسْل، وسِكَّةٌ ـ أيْ طريقة مُصْطَفَّة من النخل ـ مأبُورةٌ، أيْ مُلْقَحَةٌ. وقد. أنكر بعض العلماء هذا، وقالوا: إنما قيل: (مأمورة)، على الإتباع، لمجيء (مأبورة) بعدها، كما جاء: (ارْجِعْنَ مأزوراتٍ غير مأجورات)، فقد همزت (مأزورات) لأن (مأجورات) جاءت بعدها مهموزة.

(٣) البيت من قصيدة للأعشى يمدح هَوْذة بن علي الحنفي، وفي مطلعها يقول:

غَشِيــتَ لِلَيْلَــى بلِيْــلٍ خُــدُورَا ... وطَــالَبْتَهَــا وَنَــذَرْتَ النُّــذُورَا

والهادي: المرشد، والقَنَاةُ هنا: العَصَى التي يحملها الأعمى ليَتَحَسَّس بها الطريق، يقول: إذا كبر الفتى وأصابه العَمَى، واعتمد على عصاه في سيره فإنه يطيع كلَّ من يأمُرُه أو ينصحه بأمرٍ في سَيْرِه، فقد جعل النصيحة هنا أمراً وجعل المرشد الناصح أميراً، لأنه يأمر فيطاع.

(٤) يَلْحَوْنَ: يَلُومُونَ ويشتمون أو ينازعون ويخاصمون، وفي الحديث: (نُهيت عن مُلاحاة الرجال)، أي: نهيت عن مخاصمتهم ومنازعتهم، وخَطِىءَ الرَّجلُ يَخْطَأُ خِطأً عَلى فِعْلَةٍ: أذنب. يقول: إن الناس =

وأيضاً فلو أراد إمارة المُلْك في الآية لحَسُنَ المعنى؛ لأن الأُمَّةَ إذا مَلَّكَ الله تعالى عليها مُتْرَفاً ففسق، ثم ولَّى مثله بعده، ثم كذلك، عَظُمَ الفَساد وتوالى الكُفْر واستحقوا العذاب فنزل بهم على رجل الأخير من ملوكهم[1]، وقرأ الحسن، ويحيى بن يَعْمَر: [أَمِرْنَا] بكسر الميم، وحكاها النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا أتحَقَّقُ وجهاً لهذه القراءَة؛ إلا إن كان (أَمِرَ القَوْمُ) يتعدى بلفظه، فإنَّ العرب تقول: «أَمِرَ بَنُو فلان» إذا كثروا، ومنه قول لبيد:

إنْ يُغْبَطُوا يُهْبَطُوا وإنْ أَمِرُوا ... يَوْماً يَصيرُوا للْقُلِّ والنَّفَدِ[2]

ومنه: (لَقد أَمِر أَمْرُ ابنُ أبي كَبْشَة)[3]، وردَّ الفراءُ هذه القراءة، وقد حكي (أَمِرَ) متعدياً عن أبي زيد الأنصاري، و«الْمُتْرفُ»: الغني من المال المتَنَعِّم، والتُّرْفَةُ: النَّعْمةُ، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب: «قرية بَعثْنَا أكَابر مُجْرميها فمكروا فيها». وقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي وعيد الله لها الذي قاله رسولهم. و«التَّدْميرُ»: الإهلاكُ مع طمس الآثار وهدم البناء، ومنه قول الفرزدق:

وكَانَ لَهُمْ كَبَكْرِ ثَمُود لمَّا ... رَغَا ظُهْراً فَدَمَّرَهم دَمارَا[4]

= يلومون الناصح الذي يرشدهم عندما يخطئون، وهذا عيب كبير فيهم فإن من العقل ألا يلام الناصح المرشد، فقد سمَّى الناصح أميراً.

(١) في صحيح الترمذي: (إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده)، وَرَوَى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذابُ من كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم)، فالعذاب يَعُمُّ، وهو للفاسقين نقمة، وللمؤمنين طُهْرة.

(٢) قال لبيد هذا البيت من قصيدة يرثى بها أربد بن قيس بن جزء، وكأن أخاً للبيد من الأم، وفد على رسول الله ﷺ مع عامر بن الطفيل، وجابر بن سلمى، وعرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام فلم يسلموا، وتوفي عامر بالطاعون، وأصابت أربد صاعقة فأحرقته. ويروى البيت: «يصيروا لِلْهُلْكِ والنَّكَد»، ويروى: «يوماً فهم للفناء والنفَد»، والغِبْطة: تمني مثل ما للإنسان من النعمة من غير أن يُراد زوالها عنه. ويُهْبَطوا: يموتوا، وأَمِرُوا: كثروا، والقُل: القِلَّةُ، والنَّفَد: الفناءُ. والشاهد أن أَمِرُوا بمعنى: كثروا.

(٣) كان المشركون يقولون للنبي ﷺ: «ابن أبي كبشة»، شبهوه بأبي كبشة، وهو رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، أو هي كُنْية وهْب بن عبد مناف جدِّه ﷺ لأمِّه؛ لأنه كان ينزع إليه في الشَّبَه، وقيل: هي كُنْية زوج حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ. والذي قال ذلك هو أبو سفيان بن حرب، قال: «لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة وارتفع شأنه».

(٤) البيت من قصيدة قالها يردُّ على جرير فيناقضه، وقبله يقول ـ وهو مطلع القصيدة: =



قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الآية، [كَمْ] في موضع نصب بـ[أَهْلَكْنَا]، وهذا الذكر لكثرة من أهلك الله من القرون مثالٌ لقريش ووعيد، أَي: لستُم ببعيد ممَّا حصلوا فيه من العذاب إذا أنتم كذبتم نبيكم، واختلف الناس في القرن ـ فقال ابن سيرين عن النبي ﷺ: أربعون، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وقال عبد الله بن أبي أوفى[١]: القَرْن مائة وعشرون سنة، وقالت طائفة: القرن مائة سنة، وهذا هو الأصح الذي يعضده الحديث في قوله ﷺ: (خير الناسِ قرني)[٢]. وروى محمد بن القاسم في ختنه عبد الله بن بُسْر قال: وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي وقال: (سيعيش هذا الغلام قرناً)، قلت: كم القرن؟ قال: (مائة سنة)، قال محمد بن القاسم: فما زلنا نعُدُّ له حتى أكمل مائة سنة، ثم مات رحمه الله[٣]، والباءُ في قوله تعالى: [بِرَبِّكَ] زائدة، والتقدير: كفى ربك، وهذه الباءُ إنما تجيءُ في الأغلب في مدح أو ذم، وكأَنها تعطي معنى: اكتف برَبِّك، أي: ما أكفاه في هذا، وقد تجيءُ (كفى) بدون باءٍ، كقول الشاعر:

= جَـرَّ المُخْـزِيَـاتِ عَلَـى كُلَيْـبٍ ... جَـرِيـرٌ ثـمَّ مـا مَنَـعَ الـذِّمَـارَا

والبَكْرُ: الفَتِيُّ من الإبل، ويريد به هنا الفصيل الذي خرج لثمود بعد أن عقروا أُمَّه الناقة التي جعلها الله هي وابنها آية لثمود، وجعل الماء قسمة بينهم وبين الناقة، فلما عقروها خرج عليهم الفصيل فرغا، وكانت النتيجة هي دمارهم عن آخرهم، يشبِّه جريراً في قومه كليب بهذا الفصيل في ثمود.

(١) عبد الله بن أبي أَوْفَى، اسمه علقمة بن خالد الحارث الأسلمي، صحابي، شهد الحديبية، وعمِّر بعد النبي ﷺ، مات سنة سبع وثمانين، وهو آخر من مات بالكوفة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات، وفضائل الصحابة، والرقاق، والإيمان، وأخرجه الترمذي في الفتن، والشهادات، والمناقب، وابن ماجه في الأحكام، والإمام أحمد في أكثر من موضع، ولفظه كما جاء فيه (١ـ٣٧٨)، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعد ذلك قومٌ تسبق شهاداتهم أيمانهم وأيمانهم شهاداتهم).

(٣) أخرج أحمد في مسنده، عن أبي عبد الله الحسن بن أيوب الحضرمي، قال: أراني عبد الله بن بُسْر شامة في قرنه، فوضعتُ إصبعي عليها، فقال: وضع رسول الله ﷺ إصبعه عليها ثم قال: «لتبلُغَنَّ قَرْناً»، قال عبد الله: وكان ذا جُمَّةٍ. وروى البخاري في التاريخ الصغير، عن عبد الله بن بُسْر، أن النبي ﷺ قال له: «يعيش هذا الغلام قَرْناً»، فعاش مائة سنة، وروى البخاري في الصحيح من طريق حريز بن عثمان: سألتُ عبد الله بن بُسْر: رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: كان في عنفقته شعراتٌ بيض. هذا والخَتَنُ: كلُّ من كان من قِبَل المرأة كأبيها وأخيها وكذلك زوج البيت، وزوج الأخت.

. . . . كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلاَمُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا(١)

وكقول الآخر:

وَيُخْبِرُني عَنْ غَائِبِ الْمَرْءِ هَدْيُهُ كَفَى الْهَدْيُ عَمَّا غَيَّبَ الْمَرْءُ مُخْبِرَا(٢)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

المعنى: من كان يريد الدنيا العاجلة، ولا يعتقد غير هذا، ولا يؤمن بآخرة، فهو يُفَرِّغ أمله ومعتقده للدنيا، فإن الله تعالى يعجل لمن يريد من هؤلاء ما يشاء هذا المريد، أو ما يَشاءُ الله تعالى ـ على قراءة من قرأ: [نَشَاءُ] بالنون ـ وقوله سبحانه: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ شرطٌ كاف على القراءتين، ثم يجعل الله تعالى جهنم لجميع من يريد العاجلة ـ على جهة الكفر ـ مَنْ أعطاه فيها ما يشاءُ ومَنْ حرمه. وقال أبو إسحق الفزاري: لمن نريد هلكته. وقرأ الجمهور: (نَشَاءُ) بالنون، وقرأ نافع أيضاً: [يَشَاءُ] بالياء. و«الْمَدْحُورُ»: المُهَانُ المُبْعَد المذلَّل المسخوط عليه.

---

(١) هذا عجز بيت قاله سُحَيم عبْد بني الحَسْحَاس، والبيت بتمامه:

عُمَيْـرَةَ وَدِّعْ إنْ تَجَهَّـزْتَ غَـادِيَـا كَفَـى الشَّيْبُ والإسْلامُ لِلْمَـرْءِ نَـاهِيـا

وهو في الديوان، وابن يعيش، وشرح شواهد المغني، والعيني. وعُمَيْرَةَ: تصغير عَمْرة وهي مؤنث عَمْر واحد عُمور الأسنان أي أصولها. وقيل: إن العَمْرَة هي الشَّذْرة من الخَرز يُفَصَّل بها النظم، وبها سميت المرأة عَمْرَة، وقيل: العَمْرةُ: خَرزَة الحُبِّ، وفي (طبقات ابن سلام) أن الشاعر أنشد عمر بن الخطاب بيته هذا، فقال له: لو قلتَ شعرَكَ مثل هذا أعطيتك عليه، فلما قال الأبيات التي بعده وفيها من الغزل الجنسي ما فيها قال له عمر رضي الله عنه: ويلك إنك مقتول. وروي عن الحسن أن رسول الله ﷺ تمثل بهذا الشعر فقال: «كَفَى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا»، فقال له أبو بكر: إنما قال الشاعر: كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا، فأعادها النبي ﷺ كالأول، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أشهد إنك لرسول الله ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

(٢) هذا البيت لزيادة بن زيد العَدَوِيِّ، والهَدْي: الطريقةُ والسِّيرةُ، يقال: فلانٌ حَسَن الهَدْي والهَدِيَّة، أي: الطريقة والسيرة، ويقول: إنَّ فِعْلَ الإنسان وسيرته في الحياة يرشداني عما يخبئه في سريرته، والشاهد أن (كَفَى) جاءت بدون الباء.



قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ الآية. المعنى: ومن أراد الآخرة إرادة يقين بها وبالله وبرسالته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك كلُّه مرتبط بتَلازُم.

ثم شرط في مُريد الآخرة أن يسعى لها سعيها، وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله على حكم الشرع وطرقه، فأُولئك يشكر الله سعيهم، ولا يشكر الله تعالى عملاً ولا سعياً إلاَّ إذا أثاب عليه وغفر بسببه، ومنه قول النبي ﷺ في حديث الرجل الذي سقى الكلب العاطش، فشكر اللهُ له، فغفر له[1].

قوله تعالى: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ﴾ الآية. نصب ﴿كُلاًّ﴾ بـ﴿نُمِدُّ﴾. وأَمْدَدْتُ الشيءَ إذا زدت فيه من غير نوعه، ومَدَدْتُ إذا زدتَ فيه من نوعه، وقيل: هما بمعنى واحد، يقال: مَدَّ وأَمَدَّ. و﴿هَؤُلاءِ﴾ بدلٌ من ﴿كُلاًّ﴾، فهو في موضع نصب. وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يريد: من الطاعات لمن يريد الآخرة، والمعاصي لمن يريد العاجلة، ورُوي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد بالعطاء رزْق الدنيا، وهذا هو تأويل الحسن بن أبي الحسن وقتادة، أي أن الله تبارك وتعالى يرزق في الدنيا مُريدي الآخرة المؤمنين، ومُريدي العاجلة الكافرين، ويُمدهم بعطائه منها، وإنما يقع التفاضل والتَّباين في الآخرة، ويتناسب هذا المعنى مع قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أي أنَّ رزقه في الدنيا لا يضيق عن مؤمن ولا كافر وقلَّما تصلح هذه العبارة لمن يُمد بالمعاصي التي تُوبقُه.

و«المَحْظُورُ»: الممنوع.

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آية تدلُّ دلالةً على أن العطاء في

---

(١) حديث الكلب أخرجه البخاري في الشرب والمظالم والأدب، ومسلم في السلام، وأبو داود في الجهاد، ومالك في موطئه في صفة النبي ﷺ، وأحمد في مسنده (٣ـ٣٧٥ـ٥١٧)، ولفظه كما في مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بَلغ هذا الكَلْبَ من العطش مِثْلُ الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خُفَّه ماءً ثم أمسك بفيه حتَّى رقي فسَقى الكلب، فشكر الله له فغفر له)، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في هذه البهائم لأجراً، فقال: (في كل كبد رطبة أجْرٌ).

الآية التي قبلها هو الرزق، وفي ذلك يترتب أن ينظر محمد ﷺ إلى تفضيل الله تبارك وتعالى لبعض على بعض في الرزق ونحوه من الصور والشرف والجاه والحظوظ، وبيّنٌ أن يكون التفضيل الذي ينظر إليه النبي ﷺ أن أعطى اللهُ قوماً الطاعة المؤدية إلى الجنَّة، وأعطى آخرين الكفر المؤدي إلى النار، وهذا قول الطبري، وهذا النظر في تفضيل فريق على فريق، وعلى التأويل الآخر فالنظر في تفضيل شخص على شخص من المؤمنين والكافرين كيفما قرنتهما. ثم أخبر عزَّ وجلَّ أن التفضيل الأكبر إنما يكون في الآخرة، وقوله: ﴿أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾ ليس في اللفظ: «من أي شيء»، لكنه في المعنى ـ ولا بد ـ أكبر درجات من كل ما يضاف بالوجود أو بالفَرْض إليه، وكذلك قوله تعالى: ﴿أكبر تفضيلاً﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورأى بعض العلماء أن هذه الدرجات والتفضيل إنما هو فيما بين المؤمنين، وأسند الطبري في ذلك حديثاً نصُّه: (إنَّ بين أعلى أهل الجنة درجة وأسفلهم كالنجم يُرى في مشارق الأرض ومغاربها)[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قيل: وقد رضَّى[٢] الله الجميع فما يغبط أحدٌ أحداً ولا يتمنى ذلك بدلاً.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية. الخطاب لمحمد ﷺ، والمراد: جميع الخلق، قاله الطبريُّ وغيره، و«الذَّم» هنا لا حق من الله تعالى ومن ذوي العقول في أن يكون الإنسان يجعل عُوداً أو حجراً أفضل من نفسه، ويخُصُّه بالكرامة، وينسب إليه الأُلوهية، ويشركه مع الله الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه. و«الخذلان» في هذا يكون بإسلام الله تعالى، وألا يكفل له النصر، و«المخذول»: الذي لا ينصره من يجب أن ينصره، و«الخاذلُ» من الظباءِ التي تترك ولدها، ومن هذه اللفظة قول الراعي:

قَتَلُوا ابْنَ عَفَّانَ الْخَلِيفَةَ مُحْرِماً ... وَدَعَا فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ مَخْذُولاً[٣]

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، وذكره في (الدر المنثور)، وفي ابن كثير ما يأتي: «وفي الصحيحين أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء».

(٢) رضَّى بمعنى: أرضى.

(٣) الرَّاعي اسمه: حصين بن معاوية، من بني نمير، وقيل له الرَّاعي لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره، =



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

[قَضَى] في هذه الآية بمعنى: أَمر وأَلزم وأوجب عليكم، وهكذا قال الناس. وأقول: المعنى: وقضى ربك أمره ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وليس في هذه الألفاظ إلا أمر بالاقتصار على عبادة الله، فذلك هو الْمَقْضِيُّ، لا نفس العبادة. و(قَضَى) في كلام العرب: أَتَمَّ الْمَقْضيَّ محكماً، والْمَقْضِيُّ هنا هو الأمر[1]، وفي مصحف ابن مسعود: «وَوَصَّى»، وهي قراءَة أصحابه وقراءة ابن عباس، والنَّخَعي، وسعيد بن جُبَيْر، وميمون بن مهران، وكذلك عند أُبيِّ بن كعب. وقال الضحاك: تصحَّف على قوم (وَصَّى) بـ(قَضَى) حين اختلطت الواو بالصاد وقت كتْب المصحف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وإنما القراءة مَرْوِيَّةٌ بسند وقد ذكر أبو حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما مثل قول الضحاك، وقال عن ميمون بن مهران: إنه قال: «إنَّ على قول ابن عباس رضي الله عنهما لنوراً، قال الله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ

= وولدهُ وأهل بيته بالبادية سادة أشراف، وقيل: اسمه عبيد بن حصين بن معاوية النميري، والبيت في اللسان (حَرَمَ)، والرواية فيه: (مقتولا) بدلا من (مَخذولاً) والحُرْمَة: الذمَّةَ، وأَحْرَمَ الرجلُ فهو مُحْرِم إذا كانت له ذمَّةٌ، وعلى هذا جاء بيت الراعي كما ذكر صاحب اللسان، فالمعنى أنهم قتلوه وهو صاحب ذِمَّةٍ، وقيل: قتلوه صائماً، والصيام إحرام، ويقال للصائم: محرم. وقال ابن برِّي: لَيس مُحْرِماً في بيت الراعي من الإحرام ولا من الدخول في الشهر الحرام، قال: وإنما هو مثل البيت الذي قبله، وإنما يريد أن عثمان في حرمة الإسلام وذمَّته لم يُحِلَّ من نفسه شيئاً يُوقعُ به، والمخذول: الذي لم يَنْصُرْهُ من يجب أن ينصره، ويقال للظبية إذا تخلفت عن صواحبها: خاذلٌ وخذولٌ قال طرفة:

خَــذُولٌ تُــرَاعِــي رُبْــرَبــاً بِخَمِيلَــةٍ   تنَــاوَلُ أَطْــرَافَ البَــرِيــرِ وتَــرْتَــدِي

(١) قال أبو حيان في البحر تعقيباً على كلام ابن عطية هذا: «كأنه رام أن يترك [قضى] على مشهور موضعها بمعنى: قَدَّر، فجعل مُتَعَلَّقه الأمر بالعبادة لا العبادة نفسها؛ لأنه لا يستقيم أن يقضي شيئاً بمعنى أن يُقَدِّر إلا ويقع، والذي فهم المفسرون غيره أن مُتَعلق [قَضَى] هو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ سواءٌ كانت [أَنْ] تفسيرية أم مصدرية». (البحر المحيط ٦ـ٢٥).

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[(١)]. ثم ضعَّف ابن حاتم أن يكون ابن عباس رضي الله عنهما قال ذلك، وقال: «لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا». والضمير في ﴿تَعْبُدُوا﴾ لجميع الخلق، وعلى هذا التأويل مضى السلف والجمهور، وسأل الحسنَ بن أبي الحسن رجلٌ فقال: إنه طلَّق امرأته ثلاثاً، فقال له الحسنُ: عصيت ربك وبانتْ منك امرأتك ثلاثاً، فقال له الرجل: قضى الله ذلك عليَّ، فقال له الحسن ـ وكان فصيحاً ـ: ما قَضَى اللهُ، أي: ما أمر الله، وقرأ هذه الآية، فقال الناسُ، تكلَّم الحسن في القدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن تكون ﴿قَضَى﴾ على مشهورها في الكلام، ويكون الضمير في ﴿تَعْبُدُوا﴾ للمؤمنين من الناس إلى يوم القيامة، لكن على التأويل الأول يكون قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ عطفاً على ﴿أن﴾ الأولى، أي: أمر الله ألاَّ تعبدوا إلاّ إياه وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً، وعلى هذا الاحتمال الذي ذكرناهُ يكون قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ مقطوعاً من الأول؛ فإنه أخبرهم بقضاء الله تبارك وتعالى، ثم أمرهم بالإحسان إلى الوالدين.

و﴿إِمَّا﴾ شَرْطِيَّةٌ، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾، ورُوي عن ابن ذكوان [يَبْلُغَنْ] بتحفيف النون، وقرأ حمزة، والكسائي: [يَبْلُغَانِّ]، وهي قراءة أبي عبد الرحمن، ويحيى، وطلحة، والأعمش، والجحدري، وهي النون الثقيلة دخلت مُؤَكِّدَة، وليست بنون تثنية، فعلى القراءتين الأُولَيَيْن يكون قوله: ﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعلاً، وقوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ معطوفاً عليه، وعلى هذه القراءة الثالثة يكون قوله: [أَحَدُهُمَا] بدلاً من الضمير في [يَبْلُغَانِّ]، وهو بدل مُقَسَّم كقول الشاعر:

وكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ: رِجْلٍ صَحِيحَة ... ورِجْلٍ رَمَى فيها الزَّمَانُ فَشَلَّتِ[(٢)]

---

(١) من الآية (١٣) من سورة الشورى.

(٢) البيت لِكُثَيِّر عزَّة، وهو في الديوان، والكتاب لسيبويه، وخزانة الأدب، وشرح شواهد العيني، وابن يعيش، وقبله يقول:

فَلَيْتَ قَلُوصِي عِنْدَ عَزَّةَ قُيِّدَتْ ... بحَبْلٍ ضَعِيفٍ عَزَّ مِنْهَا فَضَلَّتِ
وغُودِرَ في الحَيِّ المُقيمينَ رَحْلُهَا ... وكَانَ لَهَا باغٍ سِوَايَ فَبَلَّتِ

تمنَّى أن تشل إحدى رجليه وهو عندها، وأن تضل ناقته فلا يرحل عنها، فيكون قوله: (وكنتُ كذي=

ويجوز[1] أن يكون: [أَحَدُهُمَا] فاعلاً، وقوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عطف عليه، ويكون ذلك على لغة من قال: «أكلوني البراغيث»، وقد ذكر هذا في هذه الآية بعضُ النحويين، وسيبويه لا يرى لهذه اللغة مدخلاً في القرآن الكريم.

وقرأ أبو عمرو: [أُفِ] بكسر الفاء وترك التنوين، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ، وقرأ نافع، والحسن، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وعيسى: (أُفٍّ) بالكسر والتنوين، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: [أُفَّ] بفتح الفاءِ، وقرأ أبو السَّمَّال: [أُفُ] بضم الفاء[2]، وقرأ ابن عباس: [أُفَ] خفيفة، وهذا كله بناءٌ، إلاَّ أن قراءة نافع تعطي التنكير، كما تقول: «إيه». وفيها لغاتٌ لم يُقْرأْ بها: «أُفٌّ» بالرفع والتنوين، على أن هارون حكاها قراءة ـ و«أُفًّا» بالنصب والتنوين، و«أُفي» بياءٍ بعد الكسرة، حكاها الأخفش الكبير، و«أُفَا» بألف بعد الفتحة، و«أُفّ» بسكون الفاء المشددة، و«أُفْ» مثل رَبْ، ومن العرب من يُميل «أُفَا»، ومنهم من يزيد فيها هاءَ السَّكْت فيقول: «أُفَاهُ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى اللفظة أنها اسم فعل، كأن الذي يريد أن يقول: أَضْجَرُ، أو: أَتَقَذَّرُ[3]، أو:

= رجْلَيْنِ. . .) معطوفاً على قوله: (قُيِّدَت) ليدخل في التمنِّي. وقال ابن سيدة: لما خانت عزة العهد، وثبت هو عليه، صار كذي رجلين: رجل صحيحة وهي ثباتُه على العهد، ورجل مريضة وهي خيانتها وزَلَلُها عن العهد، وقال بعضهم: معنى البيت أنه بين الخوف والرجاء والقرب والتنائي. وقيل غير هذا في معنى البيت، وهذا البيت من شواهد النحويين، فيروى (رجْلٍ) بالجرِّ على أنه بدلٌ مع أُخرى مفصَّل من (رجْلَيْن)، ويجوز أن يكون الجرُّ على الصفة، ويروى بالرفع على القَطْع وأنَّهُ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هما رجلٌ صحيحة ورجلٌ أُخرى، أو إحداهما صحيحة والأخرى رجْلٌ. . . والبيت في هذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾، أي: إحداهما فئة تقاتل. . . إلخ.

هذا وقد علَّق أبو حيان الأندلسي على قول ابن عطية هنا: «وهو بدلٌ مقسَّم» بقوله: «هذا ليس من بدل التقسيم؛ لأن شرط ذلك العطف بالواو، وأيضاً فالبدل المقسم لا يصدق المبدل فيه على أحد قسميه، و[كِلَاهُمَا] يصدق عليه الضمير، وهو المبدل منه، فليس من المقسم».

(١) أي على هذه القراءة الثالثة.

(٢) قال في البحر المحيط: «بضم الفاءِ من غير تنوين».

(٣) يَتَقَذَّرُ منهما لما يجد في حال كبرهما من نزول لعاب، أو ظهور مُخاط، وفي حال مرضهما من بَوْلٍ ونحوه.

أَكْرَهُ، أو نحو هذا، يُعبِّر إيجازاً بهذه اللفظة فتعطي معنى الفعل المذكور، وجعل الله تعالى هذه اللفظة مثلاً لجميع ما يمكن أن يقابَل به الآباءُ مِمَّا يكرهون، فلم تُرَدْ هذه اللفظة في نفسها وإنما هي مثالُ الأعظم منها والأقل، فهذا هو مفهوم الخطاب المسكوت عنه حكمه حكم المذكور.

«الانتِهَارُ» إظهار الغضب في الصوت واللفظ. و«القولُ الكريم»: الجامعُ للمحاسن، من اللِّين وجودة المعنى وتَضَمُّن البر، وهذا كما تقول: ثوبٌ كريم، تريد أنه جَمٌّ المحاسن. و«الأفُّ»: وسَخ الأظفار، فقالت فرقة: إن هذه اللفظة التي في هذه الآية مأخوذة من ذلك، وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ولا تقل لهما أف﴾: معناه: إذا رأيت منهما في حال الشيخ[١] الغائط والبول الذي رأَياه منك في الصغر، فلا تَقْذرْهُمَا[٢]، ولا تقل: أُفٍّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والآية أعمُّ من هذا القول، وهو داخلٌ في جملة ما تقتضيه. قال أبو السَرَّاج التُّجيبي[٣]: قلت لسعيد بن المسيب: كلُّ ما في القرآن من برِّ الوالدين قد عرفته إلاَّ قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قولُ العبد المذنب للسيد الفَظِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ استعارة، أي: أقطعهما جانب الذل منك، ودَيِّثْ[٤] لهما نفسك وخُلُقك. وبُولغ بذكر الذُّلِّ هنا ولم يذكر في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]، وذلك بحسب عِظَم الحق هنا. وقرأ الجمهور: [الذُّلِّ] بضم الذال، وقرأ سعيد بن جبير، وابن عباس، وعروة بن الزبير: [الذِّلِّ] بكسر الذال، ورويت عن عاصم بن أبي النُّجود، و«الذِّل» في الدواب

---

(١) الشَّيْخ: الشَّيْخُوخةُ، وهما مصدر «شَاخَ» إذا أَسَنَّ وكبر.

(٢) أي: لا تَكْرَهْهُمَا ولا تجتنبهما لِقَذَرٍ أوْ وساخة.

(٣) في بعض النسخ: «أبو الهدَّاج»، وهو موافق لما في الطبري، والدرِّ المنثور، وفي القرطبي: أبو البَدَّاح.

(٤) أي: اجعل نفسك لينة سهلة، يقال: ديَّثَ الأمْرَ: ليَّنَهُ، وديَّثَ الطريقَ: وطَّأه، وفي كلام الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه: «وديُّثَ بالصَّغَار» أي: ذُلِّلَ. وقد نقلت الكلمة محرفة في (البحر) إلى: دمث.

(٥) سورة الشعراء: ٢١٥. ومثلها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

ضدُّ «الصُّعوبة»، ومنه: الجَمَلُ الذَّلُول[١]، والمعنى يتقارب. وينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفْسه مع أبويه في حيِّز ذلَّةٍ في أقواله وسَكَنَاتِهِ ونظره، ولا يُحِدُّ لهما بصره، فإن تلك هي نظرة الغاضب. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أبعده الله وأسحقه» قالوا: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يغفر له»[٢].

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾، ﴿مِنَ﴾ هنا لبيان الجنس، أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً، ويصح أن تكون لابتداء الغاية.

ثم أمر الله تعالى عباده بالتَّرَحُّم على آبائهم، وذكر مِنَنِهما على الإنسان في التربية؛ ليكون تذكُّر تلك الحالة مما يزيد الإنسان إشفاقاً لهما، وحناناً عليهما، وهذا كله في الأبوين المؤمنين، وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أُولِي قُرْبى، وذُكر عن ابن عباس هنا لفظ النسخ، وليس هذا موضع نَسْخ.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ أي: من اعتقاد الرحمة بهما والحُنُوِّ عليهما، أو من غير ذلك، ويجعلون ظاهر بِرِّهِمَا رياءً. ثم وَعَدَ سبحانه وتعالى في آخر الآية بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة إلى طاعة الله. واختلفت عبارة الناس في «الأوَّابين» ـ فقالت فرقة: هم المصحلون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم المسبِّحون، وقال أيضاً: هم المطيعون والمحسنون، وقال ابن المنكدر[٣]: هم الذين يصلون بين المغرب والعشاء، وذلك أن رسول الله ﷺ سئل عن الصلاة في ذلك الوقت فقال: «تلك صلاة الأوَّابين»[٤].

---

(١) ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ [البقرة: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

(٢) أخرجه أحمد، والبيهقي، عن أبي مالك رضي الله عنه، ولفظه كما في الدر المنثور: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار بعد ذلك فأبعده اللهُ وأَسْحَقَه»، والأحاديث الصحيحة في هذا كثيرة، ومنها المشهور المتداول بين الناس.

(٣) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهُدَيْر ـ بالتصغير ـ التيمي، المدني، ثقة حافظ، مات سنة ثلاثين أو بعدها. (تقريب التهذيب).

(٤) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، عن ابن المنكدر، وقال عنه: إنه يرفعه إلى النبي ﷺ، ولكن في صحيح مسلم، وفي مسند أحمد عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال: «إنَّ صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ الفصال»، قال النووي في شرح صحيح مسلم: «هو بفتح التاء والميم، يقال: رَمِضَ يَرْمَضُ =

وقيل غير ذلك من المستغفرين ونحوه. قال عَوْن العَقِيليّ[1]: هم الذين يصلون صلاة الضحى.. حقيقة اللفظة أنها من: آبَ يَؤُوبُ إذا رَجَع، وهؤلاء كلهم لهم رجوع إلى طاعة الله تبارك وتعالى، ولكنها لفظة لزم عرفها أهل الصلاح. قال ابن المسيب: هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وفسَّر الجمهور «الأَوَّابين» بالراجعين إلى الخير، وقال ابن جبير: أراد بقوله: «غَفُوراً للأَوَّابِين» الزَّلَّة والفَلْتَة تكون من الرجل لأحد أبويه، وهو لم يُصِرَّ عليها بقلبه، ولا علمها اللهُ من نفسه. وقالت فرقة: «خَفْضُ الجناح» هو ألاَّ يمتنع من شيءٍ يريدانه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

اختلف المتأولون في «ذي القُرْبَى» ـ فقال الجمهور: الآية وصيَّةٌ للناس كلهم بصلة قرابتهم، خوطب بذلك النبي ﷺ والمراد الأمة. و«الْحَقُّ» في هذه الآية ما يتعيَّن له من صلة الرَّحِم، وسَدِّ الخُلَّة، والمواساة عندالحاجة بالمال والمعونة بكل وجه. قال بنحو هذا: الحسنُ، وعكرمة، وابن عباس، وغيرهم. وقال عليُّ بن الحسين في هذه: هم قرابة النبي ﷺ، أُمر رسول الله ﷺ بإعطائهم حقوقهم من بيت المال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أبين، ويعضده العطف بالمسكين وابن السبيل. و«ابْنُ السَّبيل» هنا يعم الغني والفقير؛ إذْ لكل واحد منهما حق وإن اختلفا، و«ابنُ السبيل» في آية الصدقة أخصُّ.

و«التَّبْذِيرُ»: إنفاق المال في إفساد، أو في سرف في مباح، وهو من البذر، ويحتمل

= كعَلِم يَعْلَم، والرَّمضاءُ: الرمل الذي اشتدت حرارته بالشمس، والمعنى: حين تحترق أخفاف الفصال، وهي الصغار من أولاد الإبل، جمع فصيل».

(١) هو عَوْن بن أبي شداد العَقِيلِيُّ، وقيل: العبدي، أبو معمر البصري، مقبول، من الخامسة. (تقريب التهذيب).



قوله تعالى: (الْمُبَذِّرِينَ) أن يكون اسم جنس، ويحتمل أن يعني أهل مكة مُعَيَّنِين، وذكره النقاش. وقوله تعالى: ﴿إِخْوَانَ﴾ يعني: في حكمهم؛ إذ المبذر ساعٍ في فسادٍ، والشيطان أبداً ساعٍ في فسادٍ، والإخوان: جمع أخٍ من غير النسب، وقد يشذُّ، ومنه قوله تعالى في سورة النور: ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَانِهِنَّ﴾[1]، والإخْوَةُ: جمع أخٍ في النسب، وقد يشذُّ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]، وقرأ الحسن، والضحاك: [إِخْوَان الشَّيْطانِ] على الإفراد، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك. ثم ذكر تبارك وتعالى كُفْر الشيطان ليقع التحذير من التَّشَبُّه به في الإفساد مستوعباً بيِّناً.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ الآية. الضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾ عائد على من تقدم ذكره من المساكين وبني السبيل، فأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ في هذه الآية ـ إذا سأله منهم أحدٌ فلم يجد عنده ما يعطيه، فقابله رسولُ الله ﷺ بالإعراض تأدُّباً منه في أن يردَّه تصريحاً، وانتظاراً لرزق من الله تعالى يأتي فيُعطي منه ـ أن يكون يُؤنسه بالقول الميسور، و هو الذي فيه الترجية بفضل الله، والتأنيس بالميعاد الحسن، والدعاءُ في توسعة الله تعالى وعطائه. ورُوي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول بعد نزول هذه الآية ـ إذا لم يكن عنده ما يُعطي ـ: (يرزقنا الله وإياكم من فضله)[3]، فالرَّحْمة ـ على هذا التأويل ـ الرزقُ المنتظر، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقال ابن زيد: الرَّحمة: الأجر والثواب، وإنما نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم، لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد، فكان يعرض عنهم رغبة الأجر في منعهم، لئلا يعينهم على فسادهم، فأمره الله تبارك وتعالى بأن يقول لهم قولاً ميسوراً يتضمن الدعاء في الفتح لهم والإصلاح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال بعض أهل التأويل الأول: نزلت الآية في عمّار بن ياسر وصنفه، و«الْمَيْسُورُ» مفعولٌ من لفظة اليُسْرِ، تقول: يَسَّرْتُ لك كذا إذا أعددته.

---

(١) من الآية (٣١) من سورة النور.

(٢) من الآية (١٠) من سورة الحجرات.

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله: ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾، قال: «قولاً جميلا، رزقنا الله وإياكَ، بارك الله فيك»، هكذا ذكره السيوطي ولم يرفعه ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ الآية. رُوي عن قالون: [كل البصط] بالصاد، ورواه الأعمش عن أبي بكر، واستعير لليد المقبوضة جملةً عن الإنفاق المتَّصِفَةِ بالبخل الغلُّ إلى العنق، واستعير لليد التي تستنفد جميع ما عندها غاية البسط، ضد الغل، وكل هذا في إنفاق الخير، وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام.

وهذه الآية ينظر إليها قول النبي ﷺ: (مَثَل البخيل والمتصدق. . .) الحديث[١] بكماله. والملامة هنا لاحقة ممن يطلب من المستحقين فلا يجد ما يُعطى. . و«الْمَحْسُورُ»: المقعد الذي قد استُنْفِذت قُوَّتُه، تقول: حَسَرْتُ البعير إذا أَتْعَبْتَهُ حتَّى لم يبق له قوة، فهو حسير، ومنه قول الشاعر:

لَهُنَّ الْوَجَا لِمْ كُنَّ عَوْناً على السُّرَى ... ولا زَال مِنْهَا طَالِعٌ وَحَسِيرُ[٢]

ومنه: البصر الحسير، وهو الكالُّ. وقال ابن جريج وغيره في معنى هذه الآية: لا تُمسك عن النفقة فيما أمرتك به من الحق، ولا تبسطها كل البسط فيما نهيتك عنه. وقال قتادة: التبذيرُ: النَّفَقَةُ في معصية، وقال مجاهد: لو أنفق الإنسانُ ماله كلَّه في حق لم يكن تبذيراً، ولو أنفق مُدًّا في باطل كان تبذيراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا فيه نظر، ولا يُعطي البَسْط معنى لم يُبح فيما نهي عنه، ولا يقال في المعصية:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والزكاة والطلاق واللباس، ومسلم والنسائي في الزكاة، وأحمد في مسنده (٢ـ٣٨٩ـ٥٣٣)، ولفظه كما أخرجه مسلم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ، (مَثَل البخيل والمتصدق مثل رجلين عليهما جُبَّتَان من حديد، إذاهمَّ المتصدق بصدقة اتَّسعت عليه حتَّى تُعَفِّي أثره، وإذا همَّ البخيل بصدقة تقلَّصت عليه، وانضمت يداه إلى تراقيه، وانقبضت كل حلقة إلى صاحبتها)، قال: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «فَيَجْهَدُ أَنْ يُوَسِّعها فلا يستطيع». ومعنى (تُعَفِّي أَثَرَهُ): تمحو أثر مشيه على الأرض لطولها وسبوغها عليه. ومعنى (تَقَلَّصَت): ضاقت وانضمَّ بعضها إلى بعض وارتفعت.

(٢) لم أقف على قائله، والوَجَا: الحَفَا، وقيل: شِدَّة الحَفَا، وقيل: الوَجَا قَبْل الحَفَا، ثم الحَفَا ثم النقَبُ، والسُّرَى: سير الليل عامته أو كُلُّه، تذكره العرب وتؤنثه، والطالع من الإبل: أوَّلها، والحَسِير: الذي وصل إلى درجة الإعياء من التعب، يقال: دابةٌ حاسِرٌ وحَسِيرٌ وحاسِرَةٌ، الذَّكر والأنثى سواءٌ، والبيت شاهد على أن الحسير هو المُتعب الذي لم يبق له قوة، وفي الحديث الشريف (الحَسِيرُ لا يُعْقَر)، أي: لا يجوز للغازي الذي تعبت دابته أن يعقرها خوفاً من أن يأخذها العدوُّ، بل عليه أن يتركها سليمة دون عقر.



«وَلاَ تُبَذِّرْ»، وإنما يُقَال: «ولا تُنفق ولو باقتصاد وقوام»، ولله درُّ ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما فإنَّهما قَالا: «التبذير: الإنفاق في غير حق»، فهذه عبارة تَعُمُّ المعصية والسَّرف المباح، وإنما نبَّهَت هذه الآية على استفراغ الجهد[1] فيما يطرأُ أولاً من سؤال المؤمنين؛ لِئَلاَّ يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له، ولِئَلاَّ يُضَيِّع المنفقُ عيالاً، ونحوُه من كلام الحكمة: «ما رأَيتُ سرفاً قط إلاَّ ومعه حق مضيَّع»، وهذا من آيات فقه الحال، ولا يبين حكمها إلاَّ باعتبار شخص من الناس.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾، المعنى: كن أنت يا محمد على ما رسم لك من الاقتصاد وإنفاق القوام، ولا يهمنك فقر من تراه كذلك، فإنه بِمَرْأَى من الله وبِمَسْمَع، وبمشيئته. و[يَقْدِرُ] معناه: يُضَيِّق.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا﴾، ايْ: يعلم مصلحة قوم في الفقر، ويعلم مصلحة آخرين في الغنى. وقال بعض المفسرين ـ وحكاه الطبري ـ: إن الآية إشارة إلى حال العرب التي كانت يُصلحها الفقر، وكانت إذا شبعت طغت وقتلت غيرها وأَغارتْ، وإذا كان الجوع والقحط شغلهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

قرأ الأعمش، وابن وثاب: [ولا تُقَتِّلُوا] بتضعيف الفعل.

وهذه الآية نهيٌ عن الوَأْد الذي كانت العرب تفعله، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾[2]، ويقال: كان جهلهم يبلغ إلى أن يُعِزَّ واحدٌ منهم كلبه ويقتل ولده، و[خَشْيَةَ] منصوب على المفعول لأجله، و«الإِمْلاَقُ»: الفقر وعدم المال، أَمْلَقَ الرجلُ: لم يبق له إلاَّ المَلَقَاتُ، وهي الحجارة العظام المُلْس السُّودُ. وقرأ الجمهور: (خِطْئاً) بكسر الخاء وسكون الطاء، وبالهمز والقصر، وقرأ ابن عامر: [خَطَأً] بفتح

---

(١) في بعض النسخ «استفراغ الوَجْد»، والوَجد مثله الواو بمعنى: السَّعة واليسار.

(٢) الآية (٨) من سورة (التكوير).

الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهي قراءة أبي جعفر، وهاتان قراءتان مأخوذتان من: خَطِئَ إذا أتى الذنب على عمد، فهي: كحِذْر وحَذَر ومِثْل ومَثَل وشِبْه وشَبَه اسم مصدر، ومنه قول الشاعر:

الْخِطْءُ فَاحِشَةٌ والبِرُّ نَافِلَةٌ كَعَجْوَةٍ غُرِسَتْ في الأَرْضِ تُؤْتَبَرُ[1]

قال الزجاج: خَطِئَ الرجلُ يَخْطَأُ خِطْئاً، مثل: أَثِمَ يَأْثَمُ إثْماً، فهذا هو المصدر، وخَطَأٌ اسمٌ منه، وقال بعض العلماء: خَطِئَ معناه واقع الذنب مع التعمد، وأخطأ إذا واقعه من غير تعمد، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[2]، وقال أبو علي الفارسي: قد يقع هذا موضع هذا وهذاموضع هذا، فأخطأ بمعنى تعمَّد في قول الشاعر:

عِبَادُكَ يُخْطِئُونَ وَأَنْتَ رَبٌّ كَرِيمٌ لاَ يَلِيقُ بِكَ الذُّمُومُ[3]

وخطىء بمعنى لم يتعمد في قول الآخر:

والنَّاسُ يَلْحَوْنَ الأَمِيرَ إذا هُمُ خَطِئُوا الصَّوَابَ وَلاَ يُلاَمُ المُرْشِدُ[4]

---

(١) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن الخِطْء بكسر الخاء وسكون الطاء قد وردت في اللغة مثل الخَطَأ بفتح الخاء والطاء، وقال: إنهما في ذلك مثل: شِبْهٍ وشَبَهٍ، وحِذْرٍ وحَذَرٍ، ومِثْلٍ ومَثَلٍ. والفاحِشَةُ: القبيح الشنيع من قول أو فعل، والنافِلَةُ: ما زاد على النصيب أو الحقِّ، والعجوة: نوع جيِّد من تمر المدينة، وتُؤْتَبَر: تُلَقَّح، يقال: أَبَرَ النَّخل وأَبَّرَهُ: لَقَّحه. والبِرُّ هو الخير، وقد جعله الشاعر مقابلاً للخطأ، وجعل الخير مصدراً للمنفعة.

(٢) من الآية (٢٨٦) آخر آية في سورة (البقرة).

(٣) هذا شاهد يذكره ابن عطية نقلا عن الفارسي دليلاً على أن (أَخْطَأَ) قد تأتي إذا فعل الإنسان الذنب مع التعمد، أي: تأتي في موضع (خَطِئَ)، والبيت في اللسان، وقد ذكره شاهداً على أن (خَطِئَ) بمعنى: أَثِمَ، وضبط الفعل بفتح الياء والطاء (يَخْطَؤونَ) على أنها مضارع (خَطِئَ)، كذلك ذكره ابن جني في المحتَسَب، والرواية فيه «وأنت ربٌّ بكفِّيك المنايا والحتوم» وهي جمع حتْم، وهو القضاءُ وإيجابه، أما أبو علي الفارسي فيجعلها مضارع (أخطأ)، وتبعه ابن عطية، وعلى كلا الفهمين فإن الخطأ في البيت بمعنى الإثم، والذُّمُومُ: العيوب، وقد أنشد سيبويه لأمية بن أبي الصلت:

سَلاَمَكَ رَبَّنَا فِي كُلِّ فَجْرٍ بَرِيئاً مَا تَغَنَّثُكَ الذُّمُومُ

أي: ما تَنْسب إليك العيوب. ومعنى بَيْتِنَا هنا: إن عبادك يا رب يرتكبون الآثام وأنت ربٌّ رحيم كريم لا تلحق بك العيوب.

(٤) سبق الاستشهاد بهذا البيت في هذه السورة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟﴾=



وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: [خَطْأً] بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة، وقرأ ابن كثير: [خِطَاءً] بكسر الخاء وفتح الطاء ومدِّ الهمزة، وهي قراءة الأعرج ـ بخلاف ـ وطلحة، وشبل، والأعمش، وعيسى، وخالد بن إلياس، وقتادة، والحسن ـ بخلاف ـ، قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، وكذلك جعلها أبو حاتم غَلَطاً، قال أبو علي الفارسي: هي مصدر خاطأ يخاطىءُ، وإن كنَّا لم نجد خاطَأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مضارع خاطأ، فَدَلَّنا عليه، ومنه قول الشاعر:

تَخَطَّأَتِ النَّبْلُ أَحْشَاءَهُ ... وَأَخَّرَ يَوْمِي فَلَمْ أَعْجَلِ[1]

وقال الآخر في صفة كمأة:

تَخَاطَأَهُ الْقَنَّاصُ حَتَّى وَجَدْتُهُ ... وَخُرْطُومُهُ في مِنْقَعِ الْمَاءِ رَاسِبُ[2]

فكأن هؤلاء الذين يقتلون أولادهم يخاطئون الحق والعدل. وقرأ الحسن ـ فيما رُوي عنه ـ: [خَطَاءً] بفتح الخاء والطاء والمدِّ في الهمزة. قال أبو حاتم: لا يُعْرَفُ هذا

= فِيهَا﴾، وكان شاهداً على أن كلمة (الأمير) تأتي بمعنى المرشد والناصح، وهو هنا شاهد على أن (خَطِىءَ) قد تأتي بمعنى مواقعة الذنب دون تعمد على خلاف المشهور في اللغة.

(١) هذا بيت قاله أَوْفَى بن مَطَر المازني، قال ذلك في اللسان (خَطَأ)، وذكره مع بيت قبله، قال: «وتَخَاطَأَهُ وتَخَطَّأَهُ أي أخطَأَه»، قال أَوْفَى بن مَطَر المازني:

أَلاَ أَبْلِغَا خُلَّتِي جَابِراً ... بِأَنَّ خَلِيلَكَ لَمْ يُقْتَلِ
تَخَطَّأَتِ النَّبْلُ أَحْشَاءَهُ ... وَأَخَّرَ يَوْمِي فَلَمْ يَعْجَلِ

هكذا بلفظ (تَخَطَّأت)، وعلى هذا فلا شاهد فيه لأبي علي الفارسي، فقد ذكره شاهداً على أن (تَخَاطَأَ) مضارع (خاطأ) قد سُمع عن العرب، وأنه دليل لنا على أن (خَاطَأ) موجودة، ومصدرها (خِطَاءٌ) التي قرأ بها ابن كثير وغيره. أما كلمة (أخّر) فمعناها: تأخَّرَ، ويجوز ضبطها (أُخِّر) بضم الهمزة وكسر الخاء المشددة، ورواية اللسان (يَعْجل) يريد اليوم، ورواية ابن عطية (أعْجل) يريد نفسه، يبشر خليله بأن النبال قد أخطأته أو تَخَطَّته فلم تصبه، وأن يومه قد تأجل.

(٢) وهذا أيضاً شاهد على أن (تَخَاطَأ) موجودة، وهي مضارع (خَاطَأ)، وعلى هذا جاءت قراءة ابن كثير [خِطَاءً] التي هي مصدر خاطأ. والقَنَّاصُ: الصائد، والخُرْطوم: الأنف، أو طَرَفُه، وقيل: الوجه كله. ومِنقَع الماء: المكان الذي اجتمع فيه الماءُ وثَبَت. والرُّسوبُ: الذهابُ في الماء سُفْلاً. وقد ذكر ابن عطية هنا وأبو حيان في البحر أن البيت في صفة كمأة، وهي اسم للجمع من الكَمْءِ، وهو فُطْر من فصيلة أرضية تنتفخ في باطن الأرض، وتجمع وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع، وقال في القرطبي إن البيت وصف مهاة.

في اللغة، وهي غلط غير جائز، وليس كما قال أبو حاتم. قال أبو الفتح: الخَطَاءُ من «أَخْطَأْتُ» بمنزلة العَطَاءِ من «أعطيت»، هو اسمٌ بمعنى المصدر. وقرأ الحسن ـ بخلاف ـ: [خَطَأ] بفتح الخاء والطاءِ مُنَوَّنةً من غير همْز. وقرأ أبو رجاءٍ، والزهري: [خِطَأ] بكسر الخاءِ وفتح الطاءِ كالتي قبلها، وهاتان مخففتان من: خَطَأٍ وخِطَأٍ.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ تحريم، والزنى يُمَدُّ ويُقصر، فمِنْ قصْرِهِ الآية، وهي لغة جميع كتاب الله، ومِنْ مَدِّه قول الفرزدق:

أَبَا حَازِمٍ مَنْ يَزْنِ يُعْرَفْ زِنَاؤُهُ ... وَمَنْ يَشْرَبِ الْخُرْطُومَ يُصْبِحْ مُسَكَّرَا[1]

ويُرْوى: أبا خالد، و«الْفَاحشة»: ما يُستتر به من المعاصي لقبحه.

و[سَبِيلاً] نصب على التمييز، والتقدير: وسَاءَ سبيلُه سبيلا، أي لأنه يؤدي إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ ﴾ وما تقدم قبله من الأفعال جزم بالنهي.

وذهب الطبري إلى أنها عطف على قوله: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾، والأول أصوب وأبرع للمعنى.

والألف واللام التي في [ٱلنَّفْسَ] هي للجنس، و«الحَقّ» الذي تقتل به النفس هو ما فسَّره النبي ﷺ في قوله: «لايُحِلُّ دمَ المسلم إلاَّ إحدى ثلاث خصال: كفرٌ بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس أُخرى»[2].

---

(١) البيت في اللسان (سَكَرَ)، والرواية فيه: أبَا حاضرٍ، والخُرْطوم: الخمر السريعة الإسكار، وقيل: هو أوَّل ما يجري من العنب قبل أن يُداس، وفي «المُحْكَم»: وأنشد أبو حنيفة:

وكــــأنَّ ريقَتَهـــا إذا نَبَّهْتَهـــا ... بَعْدَ الـرُّقـادِ تُعَـلُّ بـالخُـرْطُـومِ

والمُسَكَّرُ: المخمور. والشاهد في البيت أن الزنى جاء ممدوداً في قوله: «يعرف زناؤه»، ومثله في ذلك قول النابغة الجعدي:

كـانَـتْ فَـرِيضَـةُ مـا تقُـولُ كَمَـا ... كَـانَ الـزِّنَـاءُ فَـرِيضَـةَ الـرَّجْـمِ

(٢) أخرجه البخاري في تفسير المائدة، وفي الديّات، وأخرجه مسلم وأبو داود في الحدود، والنسائي في التحريم، وابن ماجه في الحدود، وأحمد في مسنده (١ـ٦١)، ولفظه كما جاء في مسند أحمد، عن أبي أُمامة بن سهل قال: كنا مع عثمان رضي الله عنه وهو محصور في الدار، فدخل مدخلاً كان إذا دخله يسمع كلامه من على البلاط، قال: فدخل ذلك المدخل وخرج إلينا فقال: إنهم يتوعدونني بالقتل آنفاً، قال: قلنا يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين، قال: وبم يقتلونني؟ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يحل=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتتصل بها أشياءٌ هي راجعة إليها، فمنها قَطْعُ الطريق لأنه في معنى قتل النفس، وهي الحِرَابَة، ومن ذلك الزندقة، ومسألة ترك الصلاة لأنها في معنى الكفر بعد الإيمان، ومنه قَتْلُ أبي بكر رضي الله عنه مَنَعَةَ الزكاة، وقتل من امتنع في المدن من فروض الكفاية.

وقوله: [مَظْلُوماً] نصب على الحال، ومعناه: بغير هذه الوجوه المذكورة.

و«الْوَلِيُّ»: القائم بالدَّم وهو من وَلَدَ المَيِّتَ، أَوْ وَلَدَهُ الْمَيِّتُ، أَوْ جَمَعَهُ وإياه أبٌ، ولا مدخلَ للنساءِ في ولاية الدم عند جماعة من العلماء، ولهُنَّ ذلك عند آخرين. و«السُّلْطَانُ»: الحجة والملك الذي جعل الله إليه من التَّخيير في قبول الديَّة أو العفو، قاله ابن عباس والضحاك. وقال قتادة: السلطانُ: القود.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ بالياء، وهي قراءة الجمهور، أي الولي، لا يتعدى أمر الله، والتَّعَدِّي هو أن يقتل غير قاتل وَلِيِّه من سائر القبيلة، أو يقتل اثنين بواحد، وغير ذلك من وجوه التعدي، وهذا كله كانت العرب تفعله، فذلك وقع التحذير منه، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ من أَعْتَى الناس ثلاثة: رجل قتل غير قاتل وليّه، أو قتل بدخن الجاهلية، أو قتل في حَرَم الله»[1]. وقالت فرقة: المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ القاتلُ الذي يتضمنه الكلام، والمعنى: فلا يكن أحد من المسرفين بأن يقتل نفساً، فإنه يحصل في سياق هذا الحكم. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: [فلا تسرف] بالتاء من فوق، وهي قراءة حذيفة، ويحيى بن وثاب، ومجاهد ـ بخلاف ـ والأعمش، وجماعة. قال الطبريُّ: على معنى الخطاب للنبي ﷺ ولأمته بعده، أي: فلا تقتلوا غير القاتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصحُّ أن يراد به الوليُّ، أي: فلا تسرف أيها الوليُّ في قتل أحد متحصل في هذا

= دم امرىءٍ مسلم إلاَّ بإحدى ثلاث: رجلٍ كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً فيقتل بها)، فوالله ما أحببت أن لي بديني بدلاً منذ هداني الله، ولا زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط، ولا قتلت نفساً، فبم يقتلونني؟.

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، والدَّخَن: الفساد والاختلاف.

الحكم. وقرأ أبو مسلم السَّراج صاحب الدعوة العباسية[(١)]: ﴿فَلَا يُسْرِفُ﴾ بضم الفاء، على معنى الخبر لا على معنى النهي. والمراد ـ على هذا التأويل ـ الوليُّ فقط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي الاحتجاج بأبي مسلم في القراءة نظر. وفي قراءة أُبي بن كعب «فلا تُسرفوا في القتْل إنَّ وليَّ المقتول كان منصوراً»[(٢)]. والضمير في قوله تعالى: [إنَّهُ] عائد على الوليِّ، وقيل: على المقتول، وهو عندي أرجح الأقوال؛ لأنه المظلوم ولفظة النصر تقابل أبداً الظلم، كقوله عليه الصلاة والسلام: (وَنَصْرِ المظلوم وإبْرَار القَسم)[(٣)]، وكقوله ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)[(٤)]، إلى كثير من الأمثلة. وقيل: على القتل، وقال أبو عبدة: على القاتل؛ لأنه إذا قُتلَ في الدنيا وخلص بذلك من عذاب الآخرة فقد نُصر.

---

(١) هو أبو مسلم الخراساني، عبد الرحمن بن مسلم، اتصل في شبابه بإبراهيم ابن الإمام محمد (من بني العباس). فأرسله إلى خراسان داعية، فأقام فيها واستعمل أهلها، ثم وثب على والي نيسابور (علي بن الكرماني) فقتله واستولى على نيسابور، ثم سيَّر جيشاً لمقاتلة مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، فلما هزمت جيوش مروان فرَّ إلى مصر، وقتل هناك، وصفا الجو للسفاح العباسي، فلما مات خلفه أخوه المنصور الذي خاف من أبي مسلم فقتله، وكان أبو مسلم فصيحاً بالعربية والفارسية، وفارساً، داهية، حازماً، كان أسمر قصير القامة، رقيق البشرة، حلو المعشر، وهو صاحب الفضل في قيام الدولة العباسية. وفي هامش النسخة التونسية بالخط الكبير أمَامَ قوله: أبو مسلم السَّراج عنوان كبير يقول: أبو مسلم الخراساني، وقال الزمخشري: «أبو مسلم صاحب الدولة».

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط): «الأولى حمل قوله: (إن وليَّ المقتول) على التفسير لا على القراءة؛ لمخالفته السواد، ولأن المستفيض عنه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ٣٣﴾ كقراءة الجماعة.

(٣) أخرج هذا الحديث البخاري في الجنائز والنكاح والأشربة والأدب والاستئذان، وأخرجه مسلم في اللباس، والترمذي في الأدب، والنسائي في الإيمان، وأحمد في مسنده (٤ـ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩٩)، ولفظه كما في كتاب الجنائز في البخاري، عن البراء رضي الله عنه قال: أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع، أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، وردِّ السلام، وتشميت العاطس، ونهانا عن آنية الفضة، وخاتم الذهب، والحرير والديباج والقَسِّيّ والاستبرق (القَسِّي: نوع من الحرير).

(٤) ذكره السيوطي في الجامع الصغير بلفظ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قيل: كيف أنصره ظالماً؟ قال: تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره)، وقال: أخرجه أحمد، والبخاري، والترمذي، وهو عن أنس رضي الله عنه، ثم رمز له بالصحة، ثم ذكر رواية أخرى عن جابر رضي الله عنه، أخرجها الدارمي وابن عساكر، ورمز لها السيوطي بالحسن، ولفظها: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، إن يك ظالماً فاردده عن ظلمه، وإن يك مظلوماً فانصره).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف بعيد المقصد.

وقال الضحاك: هذه أول ما نزل من القرآن بشأن القتل، وهي مكِّيَّة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

الخطاب في هذه الآية للأوصياء الذين هم مُعَدُّونَ لقُرْبِ مال اليتيم، ثم هي لمن تَلَبَّسَ بشيءٍ من أمرهم من غير وصيٍّ، و«ٱلْيَتِيمُ»: الفَرْدُ من الأبناء، واليُتْمُ: الانفراد، يقال: يتَمَ الصبيُّ يَيْتَم إذا فقد أباه. وقال ابن السكيت: اليُتْمُ في البشر من قِبَلِ الأب، وفي البهائم من قِبَل الأُم. وفي كتاب الماوردي: إنَّ اليُتْمَ في البشر من قِبَل الأُم أيضاً، وجمع اليتيم أيتام، كشريف وأشراف، وشهيد وأشهاد، ويُجمع يَتَامَى كأسير وأَسَارَى، كأَنها في الأمور المكروهة التي تدخل على المرء غلبة. قال ابن سيدة: وحكى ابن الأعرابي (يَتْمَان) في (يتيم)، وأنشد في ذلك.

فَبِــتُّ أُشَــوِّي صِبْيَتِــي وَحَلِيلَتِــي ... طَرِيًّا وجرْوُ الذِّئْبِ يَتْمَانُ جَائِعُ[1]

ويجوز أن يكون (يَتَامَى) جمع (يتْمَان). وفي الحديث: (لا يُتْمَ بَعْدَ حُلُم)[2].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يريد: إلاَّ بأحسن الحالات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك في الوصيِّ الغنِيِّ، أن يُثَمِّر المال ويحوطه، ولا يحبس منه شيئاً على جهة الانتفاع به. هذا هو الورع، والأولى ألا يكون يشتغل في مال اليتيم ويشح عليه، فالفقه أن تفرض له أُجرة. وأمَّا الوصي الفقير الذي يشغله مال اليتيم عن معاشه، فاختلف

(١) البيت لأبي العارم الكلابي، وهو في اللسان (يَتَمَ)، وأُشَوِّي: أُطعم الشِّواء، والصبيُّ: الصغير الذي لم يُفطم، أو الصغير دون الغلام. وحليلةُ الرجل: زوجُهُ، والطرِيُّ: اللَّيِّن الغَضُّ، وجَرْوُ الذئب: صغيره، واليَتْمان: لغة في اليتيم، وهي موضع الشاهد في البيت.

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا، ولفظه فيه: (لا يُتْمَ بعد احتلام)، أي: بلوغ.



الناسُ في أكله منه بالمعروف، كيف هو؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يتسَلَّف منه، فإذا أَيْسَرَ ردَّ فيه، وقال ابن المسيِّب: لا يشرب الماء من مال اليتيم، قيل: فما معنى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾[1]؟ قال: إنما ذلك لخدمته وغسل ثوبه، وقال مجاهد: لا يَقْرَبُ إلا بتجارة ولا يستقرض منه، قال: قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ من مال نفسه. وقال أبو يوسف: لعلَّ قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ منسوخٌ بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[2]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يأكل منه الشَّرْبَة من اللَّبن، والطُّرْفة من الفاكهة، ونحو هذا مما يخدمه، ويَلُوط الحوض[3]، ويَجدُّ النَّخْل[4]، ويَنْشُد الضَّالَّة[5]، فيأكل غير مُضِرٍّ بنَسْل[6]، ولا ناهِك في الحلب[7]، وقال زيد بن أسلم: يأكل منه بأطراف أصابعه بُلْغَةً[8] من العيش بتَعَبِهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه استعارة للتَّقَلُّل[9]، وقال مالك رحمه الله، وغيره: يأخذ منه أجرة بقدر تعبه، فهذه كلها تدخل فيما هو أحْسَن. وكمال تفسير هذه المعاني في سورة النساء بحسب ألفاظ تلك الآيات[10]، وفي الخبر عن قتادة أن هذه الآية لما نزلت شَقَّت على المسلمين، وتجنبوا الأكل معهم في صحيفة، فنزلت ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾[11].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾ غاية الإمساك عن مال اليتيم، ثم بعد الغاية قد سنَّتْهُ

---

(١) من الآية (٦) من سورة (النساء).
(٢) من الآية (١٨٨) من سورة (البقرة).
(٣) لاط الحوض بالطِّين: طلاه وملَّسَه به.
(٤) جذَّ النخل جذّاً: قطع ثمره وجناه.
(٥) نَشَد الضَّالةَ: طلبها وبحث عنها.
(٦) النَّسْل: الولد والذُّرِّيَّة، وجمع أنْسَال، والمراد هنا: النتاج.
(٧) أي: غير مبالغ في الحلب بحيث يجهد الدابة المحلوبة، يقال: نَهَك الضرعَ إذا بالغ في حلبه حتى استوفى جميع ما فيه.
(٨) البُلْغَةُ: ما يكفي لِسَدِّ الحاجة ولا يفضُل عنها.
(٩) أي: لا يأخذ إلا أقل شيء.
(١٠) راجع المجلد الثاني صفحة ٤٧١ وما بعدها.
(١١) من الآية (٢٢٠) من سورة (البقرة).

آية أُخرى، وما بعد هذه الغايات أبداً موقوف حتى يقوم فيه دليل شرعي، أو يقتضي ذلك الإنصاف في النازلة، ومثل هذا قول عائشة رضي الله عنها: «أنا فَتَلْتُ قلائد هَدْيِ رسول الله ﷺ بيدي، وبعثت بها، فلم يحرم على رسول الله ﷺ شيءٌ أحلَّه اللهُ له حتَّى نحر الهدي».

و«الأشدّ»: جمع (شَدٍّ) عند سيبويه[1]، وقال أبو عبيدة: لا واحد له من لفظه، ومعناه: قُوَاهُ في العقل والتجربة والنظر لنفسه، وذلك لايكون إلاَّ مع البلوغ، فالأَشُدُّ في مذهب مالك إقران البلوغ بالاحتلام أو ما يقوم مقامه حسب الخِلاف في ذلك، والرُّشد في المال. واختلف، هل من شروط ذلك الرُّشد في الدِّين على قولين: فابن القاسم لا يراعيه إذا كان ضابطاً لماله، وراعاه غيره من أصحاب مالك، ومذهبُ أبي حنيفة أن الأشُد هو البلوغ فقط، فلا حجر عنده على بالغ إلاَّ أن يعرف منه السَّفَة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولستُ من هذا التقييد في قوله على ثقة.

وقال أبو إسحق الزَّجاج: الأشُدُّ في قول أن يأتي على الصبي ثماني عشرة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما أراد أنه بعض ما قيل في حدِّ البلوغ لمن لا يحتلم، وأمَّا أن يكون بالغاً رشيداً فلا يدفع إليه مالُه حتَّى يبلغ هذه المدَّة فَشَيْءٌ لا أحفظ من يقوله:

وقوله تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد﴾ لفظ عام لكل عهد وعقد بين الإنسان وبين ربه، أو بينه وبين المخلوقين في طاعة، وقوله: ﴿إن العهد كان مسؤلاً﴾ أي: مطلوباً ممن عُهِد إليه أو عوهد، هل وفَّى به أم لا؟

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ الآية. أمر الله تعالى في هذه الآية أهل التَّجر والوزن والكيل أن يعطوا الحق في كيلهم ووزنهم، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقف في السوق ويقول: يا معشر الموالي، إنكم وليتم أمرين بهما هلاك الناس قبلكم، هذا المكيال وهذا الميزان.

---

(١) في اللسان (شَدَدَ): «قال أبو عُبَيْد: واحدها شَدٌّ في القياس، قال: ولم أسمع لها بواحدة، وقال سيبويه: واحدتها شِدَّةٌ، كنِعْمَةٍ وأنْعُم، ابن جني: جاء على حذف التاء كما كان ذلك في نِعْمَة وأنعم»، تأمل هذا وتأمل قول ابن عطية عن سيبويه.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع؛ لأن المشتري لا يقال له: «أَوْف الكيل»، هذا هو ظاهر اللفظ والسابق منه، و«ٱلْقِسْطَاسُ»، قال الحسن: هو القَبَّان، ويقال فيه: القَفَّان، وهو القاسْطُون، ويقال القَرْطَسُون، وقيل: القِسْطَاسُ الميزان كان صغيراً أو كبيراً، وقال مجاهد: القِسْطاسُ: العَدْلُ، وكان يقول: هي لغة رومية، فكأَنَّ الناسَ قيل لهم: زنُوا بمعدلةٍ في وزنكم. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أبي بكر: [بالْقُسْطَاسِ] بضم القاف، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: [بِالْقِسْطَاسِ]، وهما لغتان، واللفظة منه للمبالغة من القِسْط[1]، والمراد بها في الآية جنس الموازين العذلة على أي صفة كانت.

قال أبو حاتم: «إنَّما قرأ بكسر القاف أهل الكوفة، وكلُّ قراءة لا تجاوز الكوفة إلى الحرمين والبصرة فاقرأ بغيرها». وقرأت فرقة: [بِالْقِصْطَاسِ] بالصاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان مذهب مجاهد في هذا، وفي ميزان القيامة، وكل ذلك، أنها استعاراتٌ للعدل، وقوله: «ميزان القيامة» مردودٌ، وعقيدة أهل السُّنَّة أنه ميزان له عمود وكفَّتان. وسمعت أبي رضي الله عنه يقول: رأيت الواعظ أبا الفضل بن الجوهري في جامع عمرو بن العاص يعظ الناسَ في الوزن، فقال في جملة كلامه: إنَّ في هيئة اليد بالميزان عظةً، وذلك أن الأصابع يجيءُ منها صورة المكتوبة: ألِفٌ ولامان وهاءٌ، فكأن الميزان يقول: الله الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وعظٌ جميلٌ.

و«التَّأْويلُ» في هذه الآية: المآلُ، قاله قتادة، ويحتمل أن يكون «التَّأْويلُ» مصدر تأوَّل، أي: يتأول عليكم الخير في جميع أموركم إذا أحسنتم في الكيل والوزن.

---

(١) علَّق أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) على ذلك فقال: «ولا يجوز أن يكون من القِسْطِ لاختلاف المادتين، لأن القِسْطَ مادته (قَ سَ طَ)، وذلك مادته (قَ سْ طَ سَ)؛ إلا إن اعتقد زيادة السين آخِراً (كسِين قَدْمُوس وضَغْبُوس) فيمكن، لكنه ليس من مواضع زيادة السِّين المقيسة».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والغرض من الكيل والوزن تحرِّي الحق، فإن غلب الإنسان بعد تَحَرِّيه لشيء يسير من تطفيف شاذٍّ، أو لم يقصده، فذلك نزرٌ موضوعٌ عنه إثْمُه، وذلك مالا يكون الانفكاك عنه في وُسْع.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ معناه: وَلاَ تَقُلْ ولا تَتَبعْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لكنها لفظة تستعمل في القذف والعظة، ومنه قول النبي ﷺ: «نحن بنو النضر لا نَقْفُو أُمَّنَا ولا ننتفي من أبينا»[١]، وتقول: فلان قِفْوتي، أي: موضع تُهْمَتي، وتقول: «رُبَّ سامع عِذْرَتي ولمْ يسْمَع قِفْوَتي»[٢] أي: ما رميت به، وهذا مثل للذي يُفْشي سرَّه ويعتذر من ذنب لم يسمعه المُعْتَذَرُ إليه. وقد قال ابن عباس أيضاً، ومجاهد: ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ معناه: لا تَرْمِ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

ومِثْلُ الدُّمَى شُمُّ العَرَانِينِ سَاكِنٌ ... بِهِـنَّ الْحَيَـاءُ لا يُشِعْـنَ التَّقَـافِيَـا[٣]

(١) أخرجه ابن ماجه في الحدود، وأحمد في مسنده (٥/٢٢١، ٢١٢)، ولفظه كما في المسند، عن الأشعث بن قيس قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفدٍ لا يَرَوْنَ أني أفضلهم، فقلت: يا رسول الله، إنَّا نزعُم أنكم منَّا، قال: (نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفُوا أُمَّنَا، ولا نَنْتَفي من أبينا، قال: فكان الأشعث يقول: لا أوتى برجل نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلاَّ جلدته الحدَّ. ومعنى (لا نَقْفُو أُمَّنَا): لا نسُبُّ أُمَّنا.

(٢) العِذْرة: المعذرة، والقَفْوَة: الذَّنب، يقال: قَفَوْتُ الرَّجُلَ إذا قذفته بفجور صريحاً، وفي الحديث الشريف: «لا حدَّ إلاَّ في القَفْو البيِّن». وهذا المثل يقوله الرجل يعتذر من أمر شتم به إلى الناس، ولو سكت لم يعلم به. ويروى هذا المثل: «رُبَّ سامع قَفْوتي ولم يسمع عِذْرتي»، قال الأصمعي: معناه: سمع ما أكره من أمري، ولم يسمع ما يغسله عني.

(٣) هذا البيت للنابغة الجعدي، وهو عبد الله بن قيس، أبو لَيْلَى، وقد استشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن على أن معنى التَّقَافي: التَّقاذف. وقد نقل صاحب اللسان عن أبي عبيد أن الأصل في القَفْو والتَّقَافي: البهتان يَرْمي به الرجلُ صاحِبَهُ. ويقال: قَفَا فلانٌ فلاناً: أتبعه أمراً كلاماً قبيحاً، وقال الفراءُ عن هذه الآية: أكثر القُرَّاءِ يجعلونها من قَفَوْتُ، والدُّمَى: جَمْعُ دُمْية، وهي التمثال من العاج أو المرمر ونحوهما. والعَرَانين: جمع عِرنين، وهو ما صلُب من عظم الأنف، أي القصبة، والشَّمَمُ في العرانين هو ارتفاعها، وهو من علامات الجمال، ويصفهن بالجمال فيشبههن بالدمى، وبجمال الأنوف المرتفعة، وبالحياء الذي يكسبهن الوقار والكمال، ثم يختم ذلك بأنهن لا يعرفن تَتَبُّع الأقاويل، ولا يبحثن عن عيوب الناسِ وأخبارهم.

وقال الكميت:

وَلا أَرِمْـي الْبَـرِيءَ بِغَيْـرِ ذنْـب   وَلاَ أَقْفُـو الحـواصِـنَ إنْ قُفِينَـا[١]

وأصل هذه اللفظة من اتِّباع الأثر، تقول: قَفَوْتُ الأثر، ويُشْبه أن هذا مأخوذ من «الْقَفَا»، ومنه قافية الشِّعر لأنها تقفو البيتَ، وتقول: «قُفْتُ الأثر»، ومن هذا: هو القائف، وتقول: «فُقْتُ الأثر» بتقديم الفاء على القاف، ويشبه أن يكون هذا من تلعُّب العرب في بعض الألفاظ، كما قالوا: «رَعَمْلِي» في «لَعَمْري»، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: قَفَا وقَافَ، مثل عَتَا وعاتَ، فمعنى الآية: ولا تتبع لسانك من القول مالا علم لك به، وذهب مُنْذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جَذَبَ وجَبَذَ، فهذه الاية بالجملة تنهى عن قول الزُّور والقذف وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة الرديئة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا نَقْفُ﴾، وقرأ بعض الناس ـ فيما حكى الكسائي ـ: [ولا تَقُفْ] بضم القاف وسكون الفاء.

وقرأ الجراح: [وَالْفَوَادَ] بفتح الفاء، وهي لغة، وأنكرها أبو حاتم وغيره[٢]، وعبَّر عن «السَّمع والبصر والفؤاد» بـ[أولئك] لأنها حواس لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسؤلة فهي حالة من يعقل، فلذلك عبَّر عنها بـ[أولَئِكَ]، وقد قال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾[٣]: إنه إنما قال: [رَأَيْتُهُمْ] في نجوم لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبَّر عنها بكناية من يعقل. وحكى الزجاج أن العرب تعبِّر عما يعقل وعما لا يعقل بالإدراك، وأنشد هو والطبري:

---

(١) هذا البيت شاهد أيضاً على أن القَفْو هو تتبع عورات الناس وعُيُوبهم. ورَمَى فلانٌ فلاناً بأمر قبيح: قذفه به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾، يقول: إنه لا يرمي بريئاً ولا يقذفه بأمر قبيح وهو لم يرتكب ذنباً، والحواصِنُ: جمع حاصِن من النساء، يقال: حَصُنت المرأة تَحْصن حِصْناً وحُصْناً إذا عفَّت عن الريبة، وقيل: الحواصِنُ من النساء: الحبالى: فهو أيضاً لا يَتَّهم المحصنات من النساء إذا تتبعهن غيرُه من الناس، وظاهرٌ من بيت الكميت أنه تأثر كثيراً بالقرآن الكريم، لفظاً ومعنى.

(٢) قال أبو الفتح بن جنِّي: «لم يذكر أبو حاتم هو ولا ابن مجاهد الهمز ولا تَرْكه، وقد يجوز ترك الهمز مع فتح الفاء، كأنه كان (الْفُؤَادَ) بضم الفاء وبالهمز، ثم خففت فخلصت في اللفظ واواً، وفتحت الفاءُ على ما في ذلك. فبقيت واواً»، ومعنى ذلك أنه يختار مع فتح الفاء تَرْكَ الهمز.

(٣) من الآية (٤) من سورة (يوسف).



ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى ... والْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَّامِ[1]

فأمَّا حكاية أبي اسحاق عن اللغة فأَمْرٌ يوقف عنده، وأمَّا البيت فالرواية «الأقوام». والضمير في [عَنْهُ] يعود على ما ليس للإنسان به علم، ويكون المعنى: إن الله تعالى يسأل سمع الإنسان وبصره وفؤاده عما قال مما لا علم له به، فيقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخِزْي. ويحتمل أن يعود الضمير في [عَنْهُ] على [كُلُّ] التي هي للسمع والبصر والفؤاد، والمعنى: إن الله تعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده، فكأنه قال: كل هذه كان الإنسان عنه مسؤولاً، أي عمَّا حصل لهؤلاء من الإدراكات، ووقع منها من الخطايا، فالتقدير «عن أعمالها مسؤولاً»، فهو على حذف مضاف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

قرأ الجمهور: (مَرَحاً) بفتح الراء، مصدرٌ من: مَرِحَ يَمْرَحُ إذَا تَبَخْتَر مسروراً بدنياه مقبلاً على راحته، فهذا هو ٱلْمَرَحُ، فَنُهِيَ الإنسانُ في هذه الآية أن يكون مشيه في الأرض على هذا الوجه، ثم قيل له: إنك لن تقطع الأرض وتمسحها بمشيك، ولن تبلغ أطوال الجبال فتنالها طولاً، فإذا كنت لا تستوي في الأرض بمشيك فقصرُكَ نفسك على ما يوجبه الحقُّ من المشي والتَّصرف أَوْلى وأحق. وخوطب النبي ﷺ بهذه الآية والمراد الناسُ كلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإقبال الإنسان على الصيد ونحوه تنزهاً دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية، وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه فيجمُّ فيها نفسه في التفرج والراحة

---

(١) هذا البيت لجرير، قاله من قصيدة يجيب بها الفرزدق، ومطلعها:

سَـرَتِ الْهُمُـومُ فَبِتْـنَ غَيْـرَ نِيـامِ ... وَأَخُـو الْهُمُـوم يَـرُومُ كُـلَّ مَـرَامِ

والشاهد فيه عند الزجاج والطبري هو الإشارة إلى الأيام بأولئك، وابن عطية يقول: إن الرواية هي الأقوام بدلا من الأيام، وعلى هذا فلا شاهد في البيت.

ليستعين بذلك على شغل من البرِّ كقراءة عِلْم أو صلاةٍ، فليس ذلك بداخل في هذه الآية.

وقرأ فرقة ـ فيما حكى يعقوب ـ: [مَرِحاً] بكسر الراء على بناء اسم الفاعل، وهذا المعنى يترتب على هذه القراءة، ولكن يحسُنُ معها معنى آخر ذكره الطبري مع القراءة الأُولى، وهو بهذه القراءة أَلْيَق، وهو أن قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ أراد بذلك: أيها المرح المختال الفخور، لا تخرق الأرض، ولا تطاول الجبال بفخرك وكبرك، وذهب بالألفاظ إلى هذا المعنى، ويحسن ذلك مع القراءة بكسر الراء من المرح؛ لأن الإنسان نُهِي حينئذ عن التَّخلُّق بالمرح في كل أوقاته؛ إذ المشي في الأرض يفارقه، فلم يُنْهَ إلاَّ عن أن يكون مرحاً، وعلى القراءة الأُخرى إنما نُهِيَ من ليس بمرح عن أن يمشي في بعض أوقاته مرَحاً، فيترتَّب في المرِح ـ بكسر الراء ـ أن يؤخذ بمعنى المتكبر المختال.

وخَرْقُ الأرض: قطعها، والخرق: الواسع من الأرض، ومنه قول الشاعر:

وخَـــرْقٍ تَجَـــاوَزْتُ مَجْهُـــولَـــهُ ... بِـوجْنَـاءَ خـرْقٍ تَشَكَّـى ٱلْكَـلالاَ[1]

ويقال لثقب الأرض: خَرْق، وليس هذا المعنى في الآية، ومنه قول رؤْبة بن العجاج:

وقَاتِمُ الأَعمَاقِ خَاوِي المُخْتَرقْ[2]

---

(١) الخَرْقُ: الأرض البعيدة، مستوية كانت أو غير مستوية، وقيل: هي الفلاة الواسعة، سميت بذلك لانخراق الريح فيها، وأراد هنا المكان من الأرض الذي تنطبق عليه هذه الصفات.

وتَجَاوَزَهُ: قَطَعَه ومَرَّ منه سالماً، وناقةٌ وجناءُ: تامة الخَلْق، غليظة لحم الوجنة صُلْبة شديدة، أو هي: العظيمة الوجنتين. والناقة الخرقاءُ: التي يقع منسمها بالأرض قبل خفها، أو لا تتعهد مواضع قوائمها. والكلال: التعب، يقول: إنه قطع هذا المكان الواسع من الأرض بهذه الناقة الوجناء التي تضرب في الأرض بسرعة وتشتكي التعب والكلال.

(٢) هذا مطلع قصيدة قالها رؤبة في وصف المفازة، وفيها يقول:

وقَـــاتِـــمِ الأَعْمَـــاقِ خَـــاوي المختَـــرَقْ ... مُشْتَبِـــه الأعْـــلامِ لَمَّـــاعِ الْخَنَـــقْ

وهي قصيدة طويلة محبوكة، وقد أكثر اللغويون من الاستشهاد بأبياتها. وقاتم الأعماق: واد مظلم الجوانب لما فيه من غبار كثيف ثائر يكاد يحجب الرؤية. والخاوي: الخالي، والمُخْتَرق: الممر والمقطع. وهذا هو موضع الشاهد، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) على ذلك، قال بعد أن=



وقرأ الجراحُ، والأعرابي: [لن تَخْرُقَ الأرض] بضم الراء، قال أبو حاتم: لا تُعرف هذه اللغة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، والأعرج: [سَيِّئَةً]، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والحسن، ومسروق: (سَيِّئُهُ) على إضافة (سَيِّء) إلى الضمير، والإشارة ـ على القراءة الأُولى إلى ما تقدم ذكره مما نهي عنه، كقول: أُفٍّ، وقَذْف الناس، والمرح، وغير ذلك، والإشارة ـ على القراءة الثانية ـ إلى جميع ما ذكر في هذه الآيات من بِرٍّ ومَعْصية، ثم اختصَّ ذكر السَّيِّء منه بأنه مكروه عند الله تعالى، فأمَّا من قرأ: [سَيِّئُهُ] بالإضافة إلى الضمير فإعرابُ قراءته بيِّنٌ، و[سَيِّءٌ] اسم [كَانَ]، و[مَكْرُوهاً] خبرُه، وأما من قرأ: [سَيِّئَةً] فهي الخبر لـ[كَانَ](1). واختلف الناس في إعراب [مَكْرُوهاً] ـ فقالت فرقة: هو خبرٌ ثان لـ[كَانَ] حمله على لفظ [كُلُّ]، و[سَيِّئَةً] محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبْلُ، وقال بعضهم: هو نعتٌ لـ[سَيِّئَةً]» لأنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جاز أن توصف بمذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وضعَّفه أبو علي الفارسي، وقال: إن المؤنث إذا ذكر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده وفْقه، وإنما التساهل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكَّر، ألا ترى أن قول الشاعر:

فَــلاَ مُــزْنَــةٌ وَدَقَــتْ وَدْقَهَــا ... وَلاَ أَرْضَ أَبْقَــلَ إِبْقَــالَهَــا(2)

= روى البيت: «أي: المقطع». والأعلام: العلامات التي يهتدي بها المسافرون في الصحراء الواسعة، يقول: إنها متشابهة لا تساعد المسافر على معرفة الطريق.

(1) قال الزمخشري: «السَّيِّئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب، ، والاسم زال عنه حُكْم الصفات، فلا اعتبار بتأنيثه، ولا فرق بين من قرأ: [سَيِّئَةً] ومن قرأ: [سَيِّئاً]، الا تراك تقول: الزِّنى سيئة، كما نقول: السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث»، وهذا تخريج جيد.

(2) البيت لعامر بن جُوَيْن الطائي، وهو في الخزانة، والكتاب، وابن يعيش، وهمع الهوامع، والعيني، والمغني، وابن الشجري، يصف أرضاً بالخصب لكثرة الغيث، والمُزْنة: واحدة المُزْن وهو السحاب يحمل الماءَ، والوَدْق: المطر، وأبْقَلَت: أخرجت البقل، وهو ما ليس بشجر من النبات، والبيت شاهد عند النحويين على حذف التاء من (أَبْقَلَتْ) لضرورة الشعر، ويُسوِّغ ذلك أن الأرض بمعنى المكان. وقد=



مُسْتَقْبَح عندهم؟ ولو قال قائل: أَبْقَلَ أَرْضٌ لم يكن قبيحاً. قال أبو عليٍّ: ولكن يجوز في قوله تعالى: [مَكْرُوهًا] أن يكون بدلاً قوله: [سَيِّئَةً]، قال: ويجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، ويكون قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في موضع الصفة لـ[سَيِّئَةً]. وقرأ عبد الله بن مسعود: [كَانَ سَيِّئَاتُهُ]، وروي «كان سَيِّئَاتُ» بغير هاءٍ، ورُوي عنه [كَانَ خَبِيثُهُ]. وذهب الطبري إلى أن هذه النواهي كلها معطوفة على قوله أولاً: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وليس ذلك بالبيِّن.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ الآية. الإشارة بـ[ذَٰلِكَ] إلى هذه الآداب التي تضمنتها هذه الآياتُ المتقدمة، أي: هذه من الأفعال المُحكمة التي تقتضيها حكمة الله تبارك وتعالى في عباده وخلقه لهم محاسن الأخلاق. و«الحكمة»: قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة، ثم عطف قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ على ما تقدم من النواهي. والخطاب للنبي ﷺ والمرادُ كلُّ من سمع الآية من البشر، و«الْمَدْحُورُ»: الْمُهَانُ الْمُبْعَد.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ الآية، خطاب للعرب التي كانت تقول: الملائكة بناتُ الله، فَقَرَّرَهم الله تعالى على هذه الحجة، أي: أنتم أيها البشر لكم الأعلى من النسل ولله البنات؟ فلما ظهر هذا التباعد الذي في قلوبهم عظّم الله عليهم فساد ما يقولونه وشُنعته، ومعناه: عظيماً في المنكر والوخامة. و[أَصْفَاكُمْ] معناه: جعلكم أصحاب الصفوة. وحكى الطبري عن قتادة عن بعض أهل العلم أنه قال: نزلت هذه الآية في اليهود لأنهم قالوا هذه المقالة، من أن الملائكة بنات الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأول هو الذي عليه جمهور المفسرين.

= يُعَبَّر عن ذلك بأنه تذكير الصفة للمؤنث حملا على المعنى للضرورة. وهو قبيح كما قال أبو علي. وهناك تخريجات كثيرة للبيت غير ما أشرنا إليه. وعامر بن جُوَيْن هذا واحد من الخُلَعَاءِ الفُتَّاك، وقد تبرأ قومه من جرائره، وقد نزل به امرؤ القيس. وقد قُتل حين غزت كلبٌ بني جَرْم فجعل بعض فرسانها يدفعونه، فقال لهم: لا يكن لعامر بن جُوَيْن الهوانُ، فقالوا: وإنك لَهُوَ؟ قال: نعم، فذبحوه ومضوا، وجاء ابنه واسمه الأسود بن عامر وتتبعهم وأخذ منهم ثمانية، وقتلهم واحداً واحداً أخذاً بثأر أبيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

قرأ الجمهور: (صرَّفْنَا) بتشديد الراء، على معنى: صرفنا فيه الحِكَم والمواعظ. وقرأ الحسن: [صَرَفْنَا] بتخفيف الراء، على معنى: صَرَفنا فيه الناس إلى الهدى بالدعاء إلى الله، وقال بعض من شَدَّد الراء: إن قوله: [في] زائد، والتقدير: صَرَّفْنَا هذا القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقرأ الجمهور: (لِيَذَّكَّرُوا)، وقرأ حمزة، والكسائي: [لِيَذْكُرُوا] بسكون الذَّال وضم الكاف، وهي قراءة طلحة، ويحيى، والأعمش. وما في ضمن الآية من ترجٍّ وطماعية فهو في حق البشر وبحسب ظنهم فيمن يفعل الله معه هذا.

و«النُّفُورُ» عبارة عن شِدَّة الإعراض، تشبيهاً بنفور الدَّابة، وهو في هذه الآية مصدرٌ لا غير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورُوي أن في الإنجيل في معنى هذه الآية: «يا بني إسرائيل، شوَّقناكم فلم تشتاقوا، ونُحْنَا لكم فلم تبكوا».

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ الآية، إخبار بالحجة. واختلف الناس في معنى قوله: ﴿لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ ـ فحكى الطبري وغيره من المفسرين أن معناه: لَطَلَبَ هؤلاء الآلهة الزُّلْفَى إلى ذي العرش، والقُرْبة إليه بطاعته، فيكون «السَّبِيلُ» ـ على هذا التأويل ـ بمعناها في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾[1]، وقال سعيد بن جُبَيْر، وأبو علي الفارسي، والنقاش ـ وقاله المتكلِّمون، أبو منصور وغيره ـ: إن معنى الكلام: لابْتَغَوْا إليه سبيلاً في إفساد مُلْكِهِ ومُضَاهاته في قدرته.

---

(١) تكررت في الآيتين (١٩) من سورة (المزمِّل)، و(٢٩) من سورة (الإنسان).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا التأويل تكون الآية بياناً للتمانع، وجاريةً مع قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(١)، وتَقْتَضِبُ شيئاً من الدليل على أنه لا يجوز أن يكون مع الله تبارك وتعالى غيره، وذلك على ما قال أبو المعالي وغيره: إنَّا لَوْ فَرَضْنَاهُ لَفَرَضْنَا أن يريد أحدهما تسكين جسم، والآخر تحريكه، ومستحيل أن تنفذ الإرادتان، ومستحيل ألاَّ تنفذا جميعاً، فيكون الجسم لا متحركاً ولا ساكناً، فإذا تمت إرادة أحدهما دون الآخر فإن الذي لم تتم إرادته ليس بإله، فإن قلنا بفرضهما لا يختلفان، قلنا: اختلافهما جائز غير ممتنع عقلاً، والجائز في حكم الواقع. ودليلٌ آخر، لو كان الاثنان لم يمتنع أن يكونوا ثلاثة، وكذلك إلى ما لا نهاية له، ودليل آخر: إن الجزء الذي لا يتجزَّأُ من المخترعات لا تتعلق به إلا قدرة واحدة لا يصح فيها اشتراك، والآخر كذلك، والآخر كذلك دأباً، فكل جزءٍ فيها اشتراك، والآخر كذلك، والآخر كذلك دأباً، فكل جزءٍ إنما يخترعه واحد، وهذه نُبْذَة شَرْحُهَا بحسب التقصي يطول.

وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الجمهور: [كما تقولون] بالتاء.

و﴿سُبْحَانَهُ﴾ مصدرٌ لفعل متروك إظهاره، فهو بمعنى التنزيه، فموضعها هنا موضع (تنَزَّه)، فلذلك عطف الفعل عليه في قوله: ﴿وَتَعَالَى﴾. و«التَّعَالي» تفاعلٌ، أما في المشاهد في الأجرام فهو من اثنين؛ لأن الإنسان إذا صعد في منزلة أو في جبل، فكأن ذلك يُعاليه وهو يُعالي ويرتقي، وأما في جهة الله عزَّ وجلَّ فالتعالي هو بالقدر لا بالإضافة إلى شيءٍ آخر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ بالياء، وقرأ حمزة، والكسائي: [عما تقولون] بالتاء من فوق. و﴿عُلُوًّا﴾ مصدرٌ على غير الفعل، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾(٢)، وهذا كثير.

قوله تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الآية. المعنى: يُنَزِّهه عن هذه المقالة التي لكم، والإشراك الذي أنتم بسبيله، السموات السبعُ والأرضُ، ثم أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل لمَّا أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح، وقوله:

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (الأنبياء).
(٢) الآية (١٧) من سورة (نوح).



﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمَّ بعد ذلك الأشياء كلَّها في قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾، أي: يُنَزِّهُ الله ويمجده.

واختلف أهل العلم في هذا التسبيح ـ فقالت فرقة: هو تجوُّز، ومعناه أن كل شيءٍ تبدو فيه صنعة الصانع الدَّالَّة عليه، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المُعْتَبِر، ومن حُجَّة هذا التأويل قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ ﴾[1].

وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ لفظ عموم ومعناه الخصوص في كل حيٍّ ونام، وليس ذلك في الجمادات البحتة، فمن ذلك قول عكرمة: الشجرة تُسَبِّح، والأسطوانة لا تُسَبِّح. وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان: أَيُسَبِّح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ قال: قد كان يُسبِّح مرة، يريد أن الشجرة في زمان نموها واعتدالها كانت تسبح، فمذ صارت خِواناً مدهوناً ونحوه صارت جماداً.

وقالت فرقة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيءٍ على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهونه، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنه أثر الصنعة لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفْقَهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وينفصل عن هذا الاعتراض بأن يريد بقوله سبحانه: ﴿لاَ تَفْقَهُونَ﴾ الكفار والغَفَلة، أي أنهم يُعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله تبارك وتعالى في الأشياء.

وقال الحسن: بلغني أن معنى هذه الآية في التوارة، ذكر فيه ألف شيءٍ مما يُسبح، سبحت له السموات، وسَبَّحَتْ له الأرض، سبَّح كذا، سبَّح كذا.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ وابن عامر: [يُسَبِّحُ له] بالياء، وقرأ أبو عمرو، وعاصم ـ في رواية حفص ـ وحمزة والكسائي، : ﴿تُسَبِّحُ له﴾ بالتاء. والقراءتان حسنتان. وقرأ عبد الله بن مسعود، وطلحة، والأعمش: [سَبَّحَتْ لَهُ السَّمَوات]. وقوله تعالى: ﴿إنه كان حليما غفورا﴾ فيه تنبيه على إملائه لهم، وصَفْحه عنهم في الدنيا، وإمهاله لهم، مع شنيع هذه المقالة، أي: تقولون قولاً يُنزِّهه عنه كل شيءٍ من المخلوقات، إنه كان حليماً غفوراً، فلذلك أمهلكم.

---

(١) من الآية (١٨) من سورة (ص).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

هذه الآية تحتمل معنيين: أحدهما أن الله تعالى أخبر نبيَّهُ ﷺ أنه يحميه من الكفرة؛ أهل مكة الذين كانوا يؤذونه في وقت قراءته القرآن وصلاته في المسجد، ويريدون مدَّ اليد إليه، وأحوالهم في هذا المعنى مروية مشهورة. والمعنى الآخر أنه تعالى أعلمه أنه يجعل بين الكفرة وبين فهم ما يقرؤه محمد ﷺ حجاباً، فالآية ـ على هذا التأويل ـ في معنى التي بعدها، وعلى التأويل الأول هما آيتان لمعنيَيْن.

وقوله: [مَسْتُوراً] أظهر ما فيه أن يكون نعتاً للحجاب، أي مستوراً عن أعين الخلق، فلا يدركه أحد برؤية كسائر الحُجُب، وإنما هو من قدرة الله وكفايته أو إضلاله بحسب التأويلين المذكورين، وقيل: التقدير: مستوراً به، على حذف العائد، وقال الأخفش: «مَسْتُور» بمعنى: ساتر، كَمَشْؤُم وميمون، بمعنى: شائم ويامن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ـ لغير داعية إليه ـ تكلُّف، وليس مثاله بمُسَلَّم. وقيل: هو على جهة المبالغة، كما قالوا: شعرٌ شاعرٌ، وهذا معترض بأن المبالغة أبداً إنما تكون باسم الفاعل ومن اللفظ الأول، فلو قال تعالى: «حجاباً حاجباً» لكان التنظير صحيحاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية. «الأَكِنَّةُ»: جمع كنان، وهو ما غطَّى الشيء، ومنه كنانة النبل، و«الوَقْرُ»: الثقل في الأذن المانع من السمع، فهو الصمم، وهذه كلها استعاراتٌ للإضلال الذي حفهم الله به، فعبَّر عن كثرة ذلك وعِظَمه بأنهم بمثابة من غُطِّي قلبه وصُمَّت أذنه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ﴾ الآية، يريد: إذا جاءت مواضع التوحيد في القرآن أثناء قراءتك فرَّ كفار مكة من سماع ذلك إنكاراً له واستبشاعاً؛ إذ فيه رفْضُ آلهتهم واطراحها. وقال بعض العلماء: إنَّ ملأ قريش دخلوا على أبي طالب يزورونه، فدخل عليهم رسول الله ﷺ، فقرأ ومرَّ بالتوحيد، قال: يا معشر قريش: قولوا: «لا إله

إلا الله» تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم، فَوَلَّوْا ونفروا، فنزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأن تكون الآية وصف حال الفارِّين عنه في وقت توحيده في قراءته أبْيَن وأجرى مع اللَّفظ.

وقوله تعالى: ﴿نُفُوراً﴾ يصحُّ أن يكون مصدراً في موضع الحال، ويصح أن يكون جمع نافر، كشاهد وشهود؛ لأن فُعولا من أبنية فاعل في الصفات، ونصبه على الحال، أي: نافرين. وقوله تعالى: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، ﴿أَنْ﴾ نصب على المفعول، أي: كراهة أن، أو منع أنْ، والضمير في [يَفْقَهُوهُ] عائد على القرآن. وحكى الطبريُّ عن فرقة أنها قالت: إنما عنى بقوله: ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ الشياطين، وأنهم يفرون من قراءة القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد أن المعنى يدل عليهم وإنْ لم يَجْر لهم ذكْرٌ في اللفظ، وهذا نظير قول النبي ﷺ: (إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطانُ له حُصاصٌ)[1].

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ الآية. هذا كما تقول: فلان يستمع بحرص وإقبال، أو بإعراضٍ وتغافل واستخفاف، فالضمير في ﴿بِهِ﴾ عائدٌ على ﴿ما﴾ وهي معنى (الذي)، والمراد بالذي ما ذكرناه من الاستخفاف والإعراض، فكأنه قال: نعم أعلم بالاستخفاف والاستهزاء الذي يستمعون به، أي هو ملازمهم، يفضح الله بهذه الآية سرَّهم، والعامل في ﴿إِذْ﴾ الأولى وفي المعطوف عليها ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ الأولى. وقوله تعالى: ﴿إذ هم نجوى﴾ وصفهم بالمصدر، كما قالوا: قوم رضى وعدْلٌ، وقيل:

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، والعمل في الصلاة والسهو، وبدء الخلق، وأخرجه مسلم في الصلاة، والمساجد، وأخرجه أبو داود، والدارمي في الصلاة، والنسائي في الأذان، والسهو، ومالك في النداء في موطئه، وأحمد في مسنده (٢ـ٣١٣، ٤٦٠، ٥، ٥٢٢)، واللفظ هنا لفظ مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحُصاصُ: شدة العَدْو، وقيل: هو الضراط، وإنما ضرط لثقل الأذان عليه، كمايضرط الحمار من ثقل الحمل، قاله ابن مالك. وفي رواية أخرى: (إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له ضُراط حتَّى لا يسمع التأذين، فإذا قُضي التأذين أقبل، حتى إذا ثُوِّب بالصلاة أدبر، حتَّى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول له: اذكر كذا، واذكر كذا، لما لم يكن يذكر من قبل، حتى يظلَّ الرجل ما يدري كم صلى)، (راجع مُسْلم في الصلاة).

المراد بقوله تعالى: ﴿إذ هم نجوى﴾ اجتماعهم في دار الندوة، ثم انتشرت عنهم.

وقوله تعالى: ﴿مَسْحُوراً﴾ الظاهر فيه أن يكون من السِّحْر، فشبهوا الخبال الذي عنده بزعمهم وأقواله الوخيمة برأيهم بما يكون من المَسْحور الذي قد خبل السِّحْر عقله، وأفسد كلامه. وتكون الآية ـ على هذا ـ شبيهة بقول بعضهم: «بِهِ جِنَّةٌ» ونحو هذا، وقال أبو عبيدة: ﴿مَسْحُوراً﴾ معناه: ذا سَحْر، وهي الرئة، يقال لها: «سَحْر وسُحْر» بضم السِّين، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «توفي رسول الله ﷺ بين سَحْري ونَحْري»[١]، ومنه قولهم للجبان «انْتُفخَ سحْرُه» لأن الجازع تنتفخ رئته، فكأن مقصد الكفار بهذا التشبيه على أنه بشر، أي: ذا رِئَةٍ، قال: ومن هذا يقال لكل من يأكل ويشرب من آدمي وغيره: «مَسْحور ومُسحَّر»، ومنه قول امرىء القيس:

. . . . ونُسْحَـر بـالطَّعَـام وبـالشَّـراب[٢]

وقول لبيد:

فَـإِنْ تَسْـأَلِينَـا فيـمَ نَحْـنُ فَـإِنَّنَـا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الأَنَامِ المُسَحَّرِ[٣]

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، ولفظه كما في مسند أحمد (٦ـ١٢١)، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: (قُبِضَ رسول الله ﷺ ورأسُه بين سحري ونحري، قالت: فلما خرجت نفسه لم أجد ريحاً أطيب منها).

(٢) هذا عجز بيت جعله امرؤ القيس مطلع أبيات يتعجب فيها من صروف الدهر ومن أحوال الزمن معه، والبيت بتمامه:

أرَانَـــا مُـــوضِعِيـــنَ لأمْـــرِ غَيْـــبٍ ونُسْحَـــرُ بـــالطَّعَـــامِ وبَـــالشَّـــرَابِ

وموضعين: مُسرعين، وأمر الغيب هو الموت، ونُسْحَر: نُغَذَّى، وهو الشاهد هنا، وقيل: نُسْحَرُ: نَلْهُو، ومن أبيات هذه القصيدة البيت المشهور:

وقَـــدْ طَـــوَّفْـــتُ بـــالآفَـــاقِ حَتَّـــى رَضِيـــتُ مِـــنَ الْغَنِيمَـــةِ بـــالإِيَـــابِ

والبيت في اللسان، ومجاز القرآن، والبيان والتبيين، والحيوان، وتفسير الطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وأمالي المرتضى. ويروى: (أرَانا مُرْصَدِينَ لأمر غيب).

يقول: إننا في هذه الدنيا نُسرع إلى شيء رهيب هو الموت، أو شيء مجهول لا ندري عنه شيئاً، ونحن نُعلَّل بالطعام وبالشراب عن هذا الشيء المجهول، أو نعلل باللهو عن الموت، فكأنه يقول: كيف يستمتع باللهو أو بالطعام والشراب من هو ماضٍ في سرعة نحو هذا المجهول المخيف؟.

(٣) البيت من قصيدة له يذكر فيها من فقد من قومه ومن سادات العرب، ويتأمل في سطوة الموت وضعف الإنسان أمامه ومطلعها:

=



ومنه: السَّحور، وهو إلى هذه اللَّفظة أقرب منه إلى السِّحْر، ويشبه أن يكون من السَّحَر كالصَّبُوح من الصباح، والآية التي بعد هذا تُقَوِّي أن اللفظة التي في الآية من السِّحْر بكسر السِّين؛ لأن (. . . . . . .)[1] حينئذ في قولهم ضَرْبُ مثل له، وأما على أنها من السَّحْر الذي هو الرِّئة، ومن التَّغذِّي، وأن تكون الإشارة إلى أنه بشر، فلم يُضرب له في ذلك مثل، بل هو صفة حقيقية له.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾.

ضَرْبُ المثل له هو قولهم: مسحور، ساحر، مجنون، متكهن؛ لأنه لم يكن عندهم مُتيَقَّناً بأحد هذه، فإنما كانت منهم على جهة التشبيه، ثم رأى الوليد بن المغيرة أن أقرب الأمور على تخيُّل الطارئين عليهم هو أنه ساحر، ثم حكم الله تبارك وتعالى عليهم بالضلال.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والنظر المُؤَدِّي إلى الإيمان، فتجري الآيةُ مجرى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾[2] ونحـو هـذا. والآخـر: لا يستطيعـون سبيـلاً إلـى إفسـاد أمـرك،

= أَعَـاذِلَ قُـومـي فـاعْـذُلـي الآنَ أوْ دَعِـي   فَلَسْـتُ وإنْ أقْصَـرْتِ عَنِّـي بِمُقْصِـرِ

وعصافير معناها: ضعاف لا حول لنا ولا قوة أمام الموت وجبروته، والمُسَحَّر: الذي يُعَلَّل بالطعام والشَّراب، والأنام: جميع ما على الأرض من الخلق. والبيت في فكرته كبيت امرىء القيس السابق، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ من هذا المعنى. والبيت كذلك في اللسان، ومجاز القرآن، والبيان والتبيين، والحيوان، والطبري والقرطبي، والبحر المحيط.

(١) في جميع الأصول يوجد بياض بين قوله: لأن، وقوله: حينئذ. وقد نقل أبو حيان في البحر المحيط هذه العبارة كاملة عن ابن عطية، وفيه أيضاً إشارة إلى هذا البياض في الأصول؛ والأقرب أن تكون الكلمة الساقطة من الجملة هي «مَسْحُوراً».

(٢) في الآية (٤٦) من هذه السورة، وهي قبل هذا بقليل.



وإطفاء نور الله بِضرْبهم الأمثال لك، واتباعهم كل حيلةٍ(١) في جهتك.

وحكى الطبري أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾. هذه الآية في إنكارهم البعث، وهذا منهم تعجُّبٌ وإنكارٌ واستبعادٌ. و«الرُّفَاتُ» من الأشياء: ما مرَّ عليه الزَّمن حتى بلغ به غاية البِلَى، وقرَّبه من حالة التراب، يقال: رُفِتَ رَفْتاً فهو مَرْفُوتٌ(٢)، وفُعَالٌ بناءُها لهذا المعنى، كالحُطَامِ والفُتات والرُّضاض والدُّقاق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿رُفَاتًا﴾: غباراً، وقال مجاهد: تراباً.

واتلف القراءُ في هذين الاستفهامين، فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [أئذا، أئنا] جميعا بالاستفهام، غير أن أبا عمرو يَمُدُّ الهمزة ثم يأتي بالياء ساكنة، وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مَدٍّ. وقرأ نافع في الأولى مثل أبي عمرو، واختلف عنه في المَدِّ، وقرأ الثانية: [إنَّا] مكسورة على الخبر، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأولى من الثاني، غير أنه كان يهمز بهمزتين، وقرأ عاصم، وحمزة: ﴿أئذا كنا﴾. ﴿أئنا﴾ بهمزتين فيهما، وقرأ ابن عامر: [إذا كنا] مكسورة الألف من غير استفهام [آئِنَّا] يهمز ثم يمد ثم يهمز، وروي عنه مثل قراءة حمزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي سورة الرعد توجيه هذه القراءات(٣).

و«جَدِيدٌ» صفة لما قرب حدوثه من الأشياء، وهكذا يوصف به المذكر والمؤنث، فيقال: ملحفة جديد، وقولهم: جديدة لغة ضعيفة، كذا قال سيبويه.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ الآية. المعنى: قل لهم يا محمد: كونوا إن استطعتم هذه الأشياء الصعبة الممتنعة التأتِّي لا بُدَّ من بعثكم. وقوله: ﴿كُونُوا﴾ هو الذي يُسَمِّيه المتكلمون التعجيز، من أنواع لفظة: افْعَل، وبهذه الآية مَثَّل بعضهم، وفي هذا عندي نظر، وإنما التعجيز حيث يقضي بالأمر فعلُ ما لا يقدر عليه المخاطَب،

---

(١) في بعض النسخ: «واتباعهم كلَّ خليقة».

(٢) في اللسان (رَفَتَ): «وَرَفَتَ العظمُ يَرْفِتُ رَفْتاً: صار رُفَاتاً، وفي حديث ابن الزبير لما أراد هدم الكعبة وبناءها بالورس، قيل له: إنَّ الوَرْسَ يتَفَتَّتُ ويَصيرُ رُفَاتاً».

(٣) راجع المجلد الخامس ص ١٧٦.



كقوله تعالى: ﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾[١] ونحوه، وأما هذه الآية فمعناها: كونوا بالتوهُّم والتقدير كذا وكذا، الذي فطركم كذلك هو يعيدكم. وقال مجاهد: أراد بالخلق الذي يكبر في الصدور السموات والأرض والجبال. وقال ابن عباس، وعبد الله بن عمر، والحسن وابن جبير، والضحاك: أراد الموتَ، وقال قتادة ومجاهد: بل أحال على فطرتهم عموماً، ورجَّحه الطبري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأصح؛ لأنه بدأ بشيء صلب، ثم تدرج القول إلى أقوى منه، ثم أحال على فِطْرَتهم إن شاء، وفي أَشَدَّ من الحديد فلا وجه للتخصيص بشيءٍ دون شيء. ثم احتجَّ عليهم عزَّ وجلَّ في الإعادة بالفطرة الأولى من حيث خلقهم واخترعهم من تراب، وكذلك يعيدهم إذا شاء، لا رَبَّ غيره. وقوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ معناه: يرفعون ويخفضون على جهة التكذيب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: والاستهزاء. قال الزجاج: تحريك من يُبطل الشيء ويستبطئه، ومنه قول الشاعر:

أَنْغَضَ نحوي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا ... كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئاً أَطْمَعَا[٢]

ويقال: نَغَضَت السِّنُّ إذا تحركت، وقال ذو الرُّمَّة:

ظَعَائِنُ لَمْ يَسْكُنَّ أَكْنَافَ قَرْيَةٍ ... بِسيفٍ ولَمْ تَنْغُضْ بِهِنَّ الْقَنَاطِرُ[٣]

وقال الطبري، وابن سلام: و﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، فالمعنى: وهو قَرِيب.

---

(١) من الآية (١٦٨) من سورة (آل عمران).

(٢) يستشهد ابن عطية بهذا الرجز على أن (أَنْغَضَ) بمعنى: حرَّك رأسه حركة من يُبطِل الشيء ويستَبْطِئُه، قال الفراء: «أَنْغَضَ رأسه إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل». وفي اللسان: الرأسُ ينغُض ويَنْغِضُ، لغتان، وأَقْنَعَا: رفع بصره ووجهه إلى ما حيال راسه من السماء مع شخوص البصر نحو الشيء لا يصرفه عنه، وفي التنزيل العزيز: ﴿مقنعي رؤوسهم﴾. يصفه في البيتين بأنه حرَّك رأسه حركة من لا يقبل الشيء، وشخص ببصره نحو السماء لا يصرفه كأنه رأى شيئاً طمع فيه.

(٣) الظعَّائن: جمع ظعينة، والظعينة في الأصل: الجمل يُظعن عليه، أو الهودج، ثم قيل للمرأة في الهودج: ظعينة، سُمِّيت بذلك على حَدِّ تسمية الشيء باسم الشيء لقربه منه. والأكناف: جمع كَنَف وهو ناحية الشيء، فأكناف القرية: نواحيها، والسِّيفُ: ساحل البحر، وقال ابن الأعرابي: الموضع النقيُّ من الماء، وفي حديث جابر: (فأتينا سيفَ البحر) أي: ساحله. وقد استشهد في اللسان (نَغَضَ) بالجزء الأخير من البيت، قال: «وكلُّ حركة في ارتجاف نَغْضٌ، يقال: نَغَض رحلُ البَعير وثَنِيَّةُ الغلام نَغْضاً ونَغَضاناً، قال ذو الرمة: ولم تنْغُض بِهِنَّ القَنَاطِرُ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه إنما هي من النبي ﷺ، ولكنها بأمر الله تعالى له، فيقربها ذلك من الوجوب، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: (بعثت أنا والساعة كهاتين)[١]، وفي ضمن اللفظة توعُّدٌ لهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿قَرِيباً﴾، ويظهر أن يكون المعنى: هو يوم، جواباً لقولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾، ويريد: يدعوكم من قبوركم بالنفخ في الصُّور لقيام الساعة. وقوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي: بالقيام والعودة والنهوض نحو الدعوة، وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾، حكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: معناه: بأمره، وكذلك قال ابن جريج، وقال قتادة: معناه: بطاعته ومعرفته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله تفسير لا يعطيه اللفظ، ولا شك أن جميع ذلك بأمر الله تعالى، وإنما معنى ﴿بحَمْده﴾: إمَّا أن جميع العالمين ـ كما قال ابن جبير ـ يقومون وهم يحمدون الله تعالى ويُمَجِّدونه لما يظهر لهم من قدرته، وإمَّا أن قوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ هو كما تقول لرجل إذا خاصمته أو حاورته في علم: قد أخطأت بحمد الله[٢]، وكأن النبي ﷺ يقول لهم في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري، ومسلم، والترمذي، عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه الإمام أحمد أيضاً في مسنده، والبخاري، ومسلم، عن سهل بن سعد، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في الجامع الصغير.

(٢) قال أبو حيان الأندلسي توضيحاً لهذا: «إن قولك: بحمد الله» ليس حالاً من فاعل «أخطأتُ»، بل المعنى: أخطأت والحمد لله، وهذا معنى مُتَكَلَّف نحا إليه الطبري، وكأن «بحمده» يكون اعتراضاً، إذ معناه: والحمد لله، ونظيره قول الشاعر:

فَــإنِّــي بِحَمْــدِ اللهِ لا ثَــوْبَ فَــاجِــرٍ ... لَبِسْــتُ، ولا مِــنْ غَــدْرَةٍ أَتَقَنَّــعُ



هذه الآيات: «عسَى أن الساعة قريبة يوم تُدعون فتقومون، بخلاف ما تعتقدون الآن، وذلك بحمد الله تعالى على صدق خبري»، نحا هذا النحو الطبري، ولم يُلَخِّصهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أنه أخبر أنهم لما رجعوا إلى حالة الحياة وتصرف الأجساد، وقع لهم ظن أنهم لم ينفصلوا عن حال الدنيا إلاَّ قليلاً، لمغيب علم مقدار الزمن عنهم؛ إذْ مَنْ في الآخرة لا يقدر زمن الدنيا؛ إذْ هم لا محالة أشدُّ مفارقة لها من النائمين، وعلى هذا التأويل عوَّل الطبري، واحتج بقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[(1)]. والمعنى الاخر أن يكون الظن بمعنى اليقين، فكأنه قال لهم: يومَ تُدعون فتستجيبون بحمد الله، وتَتَيَقَّنُونَ أنكم إنما لبثتم قليلاً، من حيث هو مُنْقَض مُنْحَسِر، وهذا كما يقال في الدنيا بأسْرِهَا: متاع قيل، فكأنه قلة قدر، على أن الظَنَّ بمعنى اليقين يقلق ها هنا؛ لأنه شيءٌ قد وقع. وإنما يجيءُ الظن بمعنى اليقين فيما لم يخرج بعد إلى الكون والوجود، وفي الكلام تقوية للبعث كأنه يقول: أيها المكذِّب بالحشر الذي تعتقد أنك لا تبعث أبداً لا بُدَّ لك أن تُدْعَى للبعث فتقوم وترى أنك إنما لبثت قليلاً مُنْقَضِياً منصرماً، وحكى الطبري عن قتادة أنهم لمَّا رأوا هول يوم القيامة احتقروا الدنيا فظنوا أنهم لبثوا فيها قليلاً.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. اختلف النحويون في قوله سبحانه: [يَقُولُوا]، فمذهب سيبويه أنها جواب شرط مقدر، تقديره: «وقل لعبادي، إنك إن تقل لهم يقولوا»، وهذا على أصله في أن الأمر لا يُجاب، وإنما يجاب معه شرط مقدر، ومذهب الأخفش أن الأمر يُجاب، وأن قوله تعالى ها هنا: [يَقُولُوا] إنما هو جواب [قُلْ].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا يصح المعنى على هذا بأن يجعل «قُلْ» مختصة بهذه الألفاظ، على معنى أن

= أي: فإنّي ـ والحمد لله ـ، فهذا اعتراض بين اسم إنَّ وخبرها، كما أن ـ بحمده ـ اعتراض بين المتعاطفين...

ثم اعترض على تعبير لابن عطية فقال: «ووقع في لفظ ابن عطية حين قرر هذا المعنى قوله: (عسى أن الساعة قريبة)، وهو تركيب لا يجوز، ولا تقول: عسى أن زيداً قائم، بخلاف: عسى أن يقوم زيد».

(1) من الآيتين (١١٢، ١١٣) من سورة (المؤمنون).



يقول لهم النبي ﷺ: «قُولوا التي هي أحسن»، وإنما يصحُّ بأن يكون ﴿قُل﴾ أمْراً بالمحاورة في هذا المعنى بما أمكن من ألفاظٍ، كأنه قال: «بيِّنْ لعبادي»، فيكون ثمرة ذلك القول والبيان قولُهم التي هي أحسن، وهذا المعنى يُجَوِّزُه مذهب سيبويه الذي قدمنا. ومذهب أبي العباس أنَّ ﴿يَقُولُوا﴾ جوابٌ لأمر محذوف، تقديره: «وقُل لعبادي قولوا التي هي أحسن يقولوا» فحذف وطُوي الكلامُ. ومذهب الزجاج أن ﴿يَقُولُوا﴾ جزم بالأمر، بتقدير: «قُلْ لعبادي يقولوا»، فحذفت اللام لتقدير الأمر، وحكى أبو علي في «الحليتان» في تضاعيف كلامه أن مذهب أبي عثمان المازني في ﴿يَقُولُوا﴾ أنه فعلٌ مبني؛ لأنه مضارعٌ حلَّ محل المبني الذي هو فعل الأمر؛ لأن المعنى: «قلْ لعبادي: قولوا»(١).

واختلف الناس في ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ـ فقالت فرقة: هي «لا إله إلاَّ الله»، ويلزم ـ على هذا ـ أن يكون قوله تعالى: ﴿لِعِبَادِي﴾ يريد به جميع الخلق؛ لأن جميعهم مدعُوٌّ إلى «لا إله إلاَّ الله»، ويجيءُ قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ غير مناسب للمعنى إلاَّ على تكرُّه، بأن يجعل ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بمعنى «خلالهم وأثناءهم»، ويُجعل «النَّزْغُ» بمعنى الوسوسة والإضلال. وقال الجمهور: التي هي أحسن هي المحاورة الحسنى، بحسب المعنى معنى، قال الحسن: «يقول: يغفر الله لك، يرحمك الله».

وقوله تعالى: ﴿لِعِبَادِي﴾ خاصٌّ بالمؤمنين، فكأن الآية بمعنى قوله ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً»(٢)، ثم اختلفوا ـ فقالت فرقة: أمر الله تعالى المؤمنين فيما بينهم بحسن الأدب، وخفْض الجناح، وإلانَةِ القول، واطِّراح نزغات الشيطان. وقالت فرقة: إنما أمر الله تبارك وتعالى في هذه الآية المؤمنين بإلانَةِ القول للمشركين بمكة أيام المهادنة.

وسبب الآية أن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه شتمه بعض الكفرة، فسبَّه عمر وهمَّ

---

(١) هذه الأقوال كلُّها جرت في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح والفرائض والأدب، ومسلم في البرّ، وأبو داود في الأدب، وابن ماجه في الأطعمة والدعاء، ومالك في موطئه في حسن الخلق، وأحمد في مسنده (١ـ٣، ٥، ٧ـ٢ـ١٥٦)، ولفظه في البخاري في الأدب، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إيَّاكُم والظنَّ فإن الظنَّ أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تناجشوا، ولاتحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عبادَ الله إخواناً). والتَّنَاجُش في البيع ونحوه هو التزايد في تقدير الأشياء إغراءً وتمويهاً.



بقتله، فكاد أن يثير فتنة، فنزلت الآية، وهي منسوخة بآية السيف[١].

وقرأ الجمهور: [يَنْزَغُ] بفتح الزاي، وقرأ طلحة بن مصرف: [يَنْزِغُ] بكسر الزاي، على الأصل، قال أبو حاتم: «لعلَّها لغةٌ، والقراءةُ بالفتح». ومعنى النَّزْغ حركة الشيطان بسرعة ليوجب فساداً، ومنه قول النبي ﷺ: (لا يُشِرْ أحدكم على أخيه بالسِّلاح لا ينزغ الشيطان في يده)[٢]، فهذا يخرج اللفظ عن الوسوسة، وعداوةُ الشيطان البيِّنةُ هي من قصته مع آدم عليه السلام فيما بعد.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية. هذه الآية تُقَوِّي أن التي قبلها هي ما بين العباد المؤمنين وكفار مكة، وذلك أن هذه المخطابة في قوله سبحانه ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ هي لكفار مكة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، فكأن الله عزَّ وجلَّ أمر المؤمنين ألا يخاشنوا الكفار في الدين، ثم قال للكفار: إنه أعلم بهم، ورَجَّاهم وخَوَّفهم. ومعنى ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوبة عليكم من الكفر، قاله ابن جريج وغيره. ثم قال للنبي ﷺ: فإنما عليك البلاغ، ولست بوكيل على إيمانهم ولا بد، فتتناسب الآيات بهذا التأويل.

ثم قال تبارك وتعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: ربُّكَ أعلم بمن في السموات والأرض، وهو الذي فضل بعض الأنبياء على بعض بحسب علمه فيهم، فهذه إشارة إلى محمد ﷺ، وإلى استبعاد قريش أن يكون الرسول بشراً، والمعنى: لا تُنكروا أمر محمد وأن أُوتي قرآناً، فقد فُضِّل النَّبِيُّون، وأُوتي داود زبوراً، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

وتفضيل بعض الرسل إمَّا بهذا الإخبار المجمل دون أن يُسَمَّى المفضول، وعلى هذا يتَّجه لنا أن نقول: محمد أفضل البشر، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن تَعْيِين أحد منهم في قصة موسى ويونس عليهما السلام، وإما أن يكون التفضيل مُقَسَّماً بينهم:

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول، وذكر سبباً آخر نقله عن الكلبي، ونقله أيضاً القرطبي، قال الكلبي: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالقول والفعل، فشكوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وفي القرطبي أن المسلمين قالوا: «إئذَنْ لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال إيذاؤُهم لنا»، فقال: (لم أُومر بعد بالقتال).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره في الدر المنثور: (قال رسول الله ﷺ: لا يُشيرَنَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعلَّ الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من نار).



أُعطي هذا التكليم، وأُعطي هذا الخُلَّة، ومحمدٌ الخَمْس، وعيسى الإحياء، فكلُّهم مفضولٌ في وجه، فاضل على الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. الباءُ متعلقة بفعل تقديره: «عَلِم بمن في السموات»، ذهب إلى هذا أبو عليٍّ؛ لأنه لو علَّقها بـ[أَعْلَمُ] لاقتضى أنه ليس بأعلم بغير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يلزم، ويصح تعلقها بـ[أَعْلَمُ]، ولا يلتفت إلى دليل الخطاب[١].

وقرأ الجمهور: (زَبُوراً) بفتح الزاي، وهو فَعُولٌ بمعنى مَفْعول، وهو قليل، لم تجيءْ إلاَّ في قَرُوع ورَكُوب وحَلُوب، وقرأ حمزة، ويحيى، والأعمش: [زُبُوراً] بضم الزاي، وله وجهان: أحدهما أن يكون جمع زَبور بحذف الزائد[٢]، كما قالوا في جمع طَريق: طُرُوق، والآخر أن يكون جمع زَبْر[٣]، كأن ما جاء به داود جُزِّىءَ أجزاءً، كلُّ جزءٍ منها زَبْرٌ، سُمِّي بمصدر زَبَرَ يَزْبُر، ثم جمع تلك الأجزاء على زُبُور، فكأنه قال: «آتينا داود كتاباً»، ويحتمل أن يكون جمع (زَبْر) الذي هو العَقْل وسَدَادُ النَّظَرِ[٤]، لأن داود أُوتي من المواعظ والوصايا كثيراً، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ في آخر كتاب مسلم: (وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له)[٥]، قال قتادة: زبور داود مواعظ وحِكَم ودعاءٌ، ليس به حلالٌ ولا حرام.

---

(١) أيّد أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) هذا الكلام، وقال: «وأيضاً فإن (عَلِم) لا يتعدى بالباء، إنما يتعدى لواحد بنفسه لا بوساطة حرف الجرّ»، ثم قال: «و[بِمَنْ] متعلق بـ[أَعْلَمُ] كما تعلق [بِكُمْ] قبله بـ[أَعْلَمُ]، ولا يدل تعلقه به على اختصاص أعْلَمِيَّته تعالى بما تعلَّق به، كقولك: «زيد أعْلَمُ بالنحو» إذ لا يَدلُّ هذا على أنه ليس أعلم بغير النحو من العلوم».

(٢) وهو الواو. قال ذلك أبو حيان.

(٣) وهذا مثل فَلْس وفُلُوس.

(٤) في اللسان (زَبَرَ): «ماله زَبْرٌ، أي: مَالَه رأيٌ، وقيل: ماله عقلٌ وتماسُك».

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه، ولفظ المسند هو، عن عياض بن حمار أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: (إن ربِّي عزَّ وجلَّ أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا، كلُّ مال نَحَلْتُه عبادي حلالٌ، وإني خلقتُ عبادي حُنَفَاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشياطين فأضَلَّتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحْلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهُمْ أن يُشْرِكوا بي ما لم أُنزِّل به سلطاناً، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عَجَمِيَّهُم وعَرَبِيَّهُم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك =

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

الذين أُمر رسول الله ﷺ أن يقول لهم في هذه الآية ليسوا عبدة الأصنام، وإنما هم عبدة من يعقل، واختلف في ذلك ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي في عبدة العُزَيْر والمسيح وأُمه ونحوهم، وقال ابن عباس أيضاً، وابن مسعود: هي في عبدة الأوثان والقمر والكواكب وعُزَيْر والمسيح وأُمه وأي ذلك كان. [وقال ابن عباس أيضاً، وابن مسعود: هي في عبدة الملائكة، وقال ابن مسعود أيضاً: هي في عبادة شياطين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، فأسلم أولئك الشياطين، وبقي عَبَدَتُهم يعبدونهم، فنزلت الآية في ذلك][(١)].

فمعنى الآية: قُل لهؤلاء الكفرة: ادعوا عند الشدائد والضر هؤلاء المعبودين فإنهم لا يملكون كشفه ولا تحويله عنكم، ثم أخبرهم ـ على قراءة ابن مسعود، وقتادة:

= لأبْتَلِيكَ وأبْتَلِيَ بك، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماءُ، تقرؤه نائماً ويقظاناً، ثم إن الله عزَّ وجلَّ أمرني أن أُحَرِّق قريشاً، فقلت: يا رب إذا يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خبزة، فقال: اسْتَخْرِجهم كما استخرجوك، فاغزُهم نُغْزِك، وأنفِق عليهم فَسَنُنْفِقْ عليك، وابعث جُنداً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسِط متصدِّق مُوَفَّق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قُرْبَى ومُسْلم، ورجلٌ فقيرٌ عفيفٌ متصدقٌ، وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تبعاً ـ أو تُبَعَاءَ، شك يحيى ـ لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى عليه طمع وإن دَقَّ إلاَّ خانه، ورجلٌ لا يصبح ولا يمسي إلاَّ وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكَرَ البُخْلَ والكذبَ والشِّنْظير الفاحش).

ومعنى (لا يغسله الماءُ): محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على ممر الزمان. وأما قوله: (تقرؤه نائماً ويقظاناً) فمعناه: يكون محفوظاً لك في حالتي النوم واليقظة، وقيل: تقرؤه في سهولة ويُسر، وفي رواية مسلم: (نائماً يقظان). ومعنى (يَثْلَغُوا): يَشْدَخُوا ويَشُجُوا. ونُغْزِك: نُعِينُك، ومعنى (لا زَبْرَ له): لا عقل له يَزْبُره ويمنعه مما لا ينبغي. وفي رواية مسلم: (والشِّنْظِيرَ الفَحَّاش). صدق رسول الله ﷺ.

(١) ما بين العلامتين [....] سقط في كثير من النسخ، وبخاصة النسخة التونسية.

[تَدْعُونَ] بالتاء ـ، أو أخبر النبي ﷺ ـ على قراءة الجمهور: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء من تحت ـ أن هؤلاء المعبودين يطلبون التقرُّب إلى الله والتَّزلُّف إليه، وأن هذه حقيقة حالهم، وقرأ ابن مسعود: [إلى رَبِّكَ]. والضمير في ﴿رَبِّهِمْ﴾ للمُتَّبِعين أو للجميع.

و«الْوَسِيلَةُ» هي القربةُ وسببُ الوصول إلى البُغية، وتوسَّل الرجلُ إذا طلب الدُّنُوَّ والنيل لأمر مَّا، وقال عنترة:

إنَّ الـرِّجَـالَ لَهُـمْ إلَيْـكِ وسِيلَـةٌ . . . .[1]

ومنه قول النبي ﷺ: (من سأل الله لي الوسيلة. . . الحديث)[2]. و﴿أَيُّهُمْ﴾ ابتداءٌ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، و﴿أُولَئِكَ﴾ يراد به المعبودون. وهو ابتداءٌ خبره ﴿يَبْتَغُونَ﴾، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ للكفار، وفي ﴿يَبْتَغُونَ﴾ للمعبودين، والتقدير: نظرهم وَوَكْدُهُمْ[3] أَيُّهم أقرب، وهذا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الرَّاية بخيبر: «فبات الناس يَدُوكُون أَيُّهم يُعطاها»[4]، أي: يتبارون في طلب القرب، وطفَّف الزجاج في هذا الموضع فتأمله.

---

(١) كان لعنترة امرأةٌ من بَجيلة لا تزال تذكر خَيْلَه وتلومه في فرس كان يحبه ويؤثره على خيله ويسقيه ألبان إبله، فقال أبياتاً ينهاها فيها عن لومه، وفي مطلعها يقول:

لا تـذْكُـري مُهْـري ومَـا أَطْعَمْتُـهُ ... فَيَكُـونَ جِلْـدُكِ مِثْـلَ جِلْـدِ الأجْـرَب

ثم يقول لها هذا البيت، وهو بتمامه وبعده بيت آخر:

إنَّ الـرِّجَـالَ لَهُـمْ إلَيْـكِ وَسِيلَـةٌ ... إنْ يَـاخُـذُوكِ تَكَحَّلِـي وتَخَضَّبِـي
ويكـونُ مَـرْكَبُـكِ القَعُـودُ ورَحْلُـهُ ... وابْـنُ النَّعـامَـةِ يَـوْمَ ذَلِـكَ مَـرْكَبِـي

القعود: ما اتَّخذه الراعي من الإبل للركوب، وابن النعامة: صدر القدم، يقول لها: لا تذكري مهري بسوء وإلاَّ نفرتُ منك كما ينفر الإنسان من الأجرب، إذا أسَرَك الرجال أركبوك على القعود، أمَّا أنا فإذا أسروني مشيتُ على الأقدام.

(٢) أخرجه مسلم، وأبو داود في الصلاة، والترمذي في المناقب، والنسائي في الأذان، وأحمد في مسنده (٢ـ١٦٨)، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنه من صلَّى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاَّ لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة). ومعنى (حلَّت): وجبت، وهي من الحلول بمعنى النزول، لا من الحلِّ، لأنها لم تكن محرَّمة حتى تَحِلَّ، والمراد: استحق شفاعتي مجازاة لدعائه.

(٣) الوُكْدُ ـ بضم الواو ـ: السَّعْيُ والجهد، والوَكْد ـ بضم الواو وفتحها ـ: القَصْد والمرادُ والهَمُّ.

(٤) أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم في فضائل الصحابة، وأخرجه أحمد في المسند (٥ـ٣٣٣). =



وقال ابن فُورك، وغيره: إن الكلام من قوله تبارك وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ راجع إلى النَّبِيِّين المتقدم ذكرهم، و﴿يَدْعُونَ﴾ ـ على هذا ـ من الدعاء بمعنى الطلبة إلى الله تعالى، والضمائر لهم في ﴿يَدْعُونَ﴾ وفي ﴿يَبْتَغُونَ﴾. وباقي الآية بَيِّنٌ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ الآية. أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ليس مدينة من المدن إلاّ هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناء، وهذا مع السلامة وأخذها جزءًا جزءًا، أو هي معذبة مأخوذة مرة واحدة، فهذا عموم في كل مدينة، و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس[(١)]، وقيل: المراد الخصوص، [والتقدير] وإن مِنْ قَرية ظالمة[(٢)]. وحكى النقاش أنه وُجد في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسير هذه الآية استقراءُ البلاد المعروفة اليوم، وذكر لهلاك كل قطر منها صفة، ثم ذكر نحو ذلك عن وهب بن منبه، فذكر فيه أن هلاك الأندلس وخرابها يكون بسنابك الخيل واختلاف الجيوش فيها، وتركْتُ سائرها لعدم الصحة في ذلك، والمعلوم أن كل قرية تهلك إما من جهة القحوط والخسف غرقاً، وإمَّا من جهة الفِتن، أو منهما، وصور كثيرة لا يعلمها إلاّ الله تعالى، فأمَّا ما هلك بالفتنة فمن ظُلْم ولا بُدَّ، إمَّا في كفرٍ أو معاص أو تقصير في دفاع، وأما القحط فيصيب الله به من يشاءُ وكذلك الخسف. وقوله تعالى: [مُهْلِكُوهَا] الضمير لها وفي ضمن ذلك الأهل. وقوله: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ هو على حذف مضاف، فإنه لا يعذب

= والحديث عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ اللهَ ورسوله ويحبه اللهُ ورسولهُ»، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها؟ قال: فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: (أين علي بن أبي طالب)؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فَبَرَأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية... الخ الحديث». وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه»، قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلاّ يومئذ... الخ الحديث.

(١) علّق أبو حيان على كلام ابن عطية هذا بقوله: «والّتي لبيان الجنس ـ على قول من يثبت لها هذا المعنى ـ هو أن يتقدم قبل ذلك ما يفهم منه إبهامٌ ما، فتأتي [مِنْ] لبيان الجنس، أي بيان ما أريد بذلك الذي فيه إبهامٌ ما، كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾. وهنا لم يتقدم شيء مبهم تكون [مِنْ] فيه بياناً له، ولعلّ قوله: «لبيانِ الجنْسِ» من الناسخ، ويكون ابن عطية قد قال: «لاستغراق الجنس»، ألا ترى أنه قال بعد ذلك: «وقيل المراد الخصوص»؟ اهـ بتصرف.

(٢) يُقَوّي ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

وما بين العلامتين [.....] زيادة لتوضيح المعنى وسلامة العبارة.

إلاَّ الأهل. وقوله سبحانه: ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريد: في سابق القضاء وما خطَّه القلم في اللوح المحفوظ. و«الْمَسْطُورُ»: المكتوب أسْطَاراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ الآية. هذه العبارة في [مَنَعَنَا] هي على ظاهر ما تفهم العرب، فسمَّى سَبْقَ قضائه بتكذيب من كذَّب وتعذيبه مَنْعاً. و[أَنْ] الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع، والتقدير: ما مَنَعَنَا الإرسالَ إلاَّ التّكذيبُ.

وسبب هذه الآية أن قريشاً اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصَّفَا ذهباً، واقترح بعضهم أن يُزيل عنهم الجبال حتى يزرعوا الأرض، فأوحى الله تعالى إلى محمد ﷺ: إن شئت أفعلُ ذلك لهم، فإن تأخروا عن الإيمان عاجلتهم العقوبة، وإن شئت استأنيت بهم عسى أن أجْتبي منهم مؤمنين، فقال رسول الله ﷺ: (بل تَسْتَأْني بهم يا رب)، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لم يمنعه من إرسال الآيات المُقْتَرَحة إلاَّ الاستيناءُ؛ إذْ أنه قد سلفت عادته بمعاجلة الأمم الذين جائتهم الآية المُقْتَرَحة فلم يُؤْمنوا. قال الزجاج: أخبر الله تعالى أن موعد كفار هذه الأمة الساعة، لقول سبحانه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾(١)، فهذه الآية تنظر إلى ذلك.

ثم ذكر الله تعالى أمر ثمود احتجاجاً إن قال منهم قائل: نحن كنا نؤمن لو جاءتنا آية اقترحناها ولا نكفر بوجه، فذكر الله تعالى ثمود، بمعنى: لا تأمنون أن تَظْلِمُوا بالآية كما ظلمت ثمود بالناقة. وقرأ الجمهور: (ثَمُودَ) بغير تنوين، قال هارون: أهل الكوفة يُنَوِّنون (ثَمُوداً) في كل وجه، قال أبو حاتم: لا تُنَوِّنُ العامة والعلماءُ بالقراءات (ثَمُودَ) في وجه من الوجوه، وفي أربعة مواطن أَلِفٌ مكتوبة، ونحن نقرؤُها بغير ألف.

وقوله تعالى: [مُبْصِرَةً] على جهة النسب، أي: معها إبصارٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾(٢)، أي: مَعَهَا إبصارٌ لمن ينظر، وهذه عبارة عن بيان أمرها ووضوح إعجازها. وقرأ قومٌ: [مُبْصَرَةً] بضم الميم وفتح الصاد، حكاه الزجاج، ومعناه: مُتَبَيِّنَةً. وقرأ قتادة: [مَبْصَرَةً] بفتح الميم والصاد، وهي مَفْعَلَةٌ من البصر، ومنه قوله عنترة:

---

(١) من الآية (٤٦) من سورة (القمر).
(٢) من الآية (١٢) من هذه السورة (الإسراء).



. . . . والكُفْـرُ مَخْبَثَـةٌ لِنَفْـسِ الْمُنْعِـمِ[(١)]

وقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾، أي: وضعوا الفعل غير موضعه، أي: بعَقْرها، وقيل: بالكفر في أمرها. ثم أخبر تعالى أنه إنما يرسل بالآيات غير المُقْتَرَحَة تخويفاً للعباد، وهي آيات معها إمْهالٌ لا معاجلة فمن ذلك الكسوف والرعد والزَّلزلة وقوس قُزَح وغير ذلك. قال الحسن: والموت الذريع[(٢)]، وروي أن الكوفة رجفت في مدة عبد الله بن مسعود فقال: أيها الناس، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، ومن هذا قول النبي ﷺ في الكسوف: (فافْزَعُوا إلى الصَّلاَةِ) الحديث[(٣)]، وآياتُ الله المُعْتَبر بها ثلاثة أقسام: فقسم عامٌّ في كل شيءٍ؛ إذ حيثما وضعت نظرك وجدت آية، وهنا فكرة العلماء، وقِسْم معتادٌ غِبًّا كالرعد والكسوف ونحوه، وهنا فكرة الجهلة فقط، وقسم خارق للعادة، وقد انقضى بانقضاء النبوة، وإنما يُعتبر به توهماً لما سلف منه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾.

قال الطبري: معنى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي: في منعك

---

(١) هذا عجز بيت من المعلَّقة، وهو في اللسان (خبث)، والبيت بتمامه:

نُبِّئْـتُ عَمْـراً غَيْـرَ شـاكِـرِ نِعْمَتـي والكُفْـرُ مَخْبَثَـةٌ لِنَفْـسِ الْمُنْعِـمِ

ونُبِّئْتُ: أُخبرتُ وأُعلِمتُ، وهي واحدة من أفعال سبعة تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل. والمفعول الأول هنا هو التَّاءُ في (نُبِّئْتُ) أقيم مقام الفاعل وأسند الفعل إليه، والثاني هو (عَمْراً)، والثالث هو (غَيْرَ شاكِرِ). يقول: لقد أُعلِمتُ أن عمراً لا يشكر نعمتي، وهذا نوع من الكفر يُغَيِّر نفس المنعم وينفرها ويمنعها من الإنعام في المستقبل. والشاهد هو (مَخْبَثَة) فقد جاءت بفتح الميم والباء، فهي صيغة مَفْعَلة، من الخَبْث، والمعنى: الكفر مَفْسَدَةٌ.

(٢) الموتُ الذريع: الموت الفاشي، لا يكاد الناس يتدافنون.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥ـ٤٢٨)، عن محمود بن لبيد، قال: كسفت الشمس يوم مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ، فقالوا: كسف الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عزَّ وجلَّ، ألا وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما كذلك فافزعوا إلى المساجد)، ثم قام فقرأ فيما نرى بعض «الـرّ كتابٌ»، ثم ركع، ثم اعتدل، ثم سجد سجدتين، ثم قام ففعل مثل ما فعل في الأولى، وأخرج الحديث مسلم في الكسوف، وفيه وصف لصلاة الرسول ﷺ عندما كسفت الشمس، وروايته عن ابن عباس رضي الله عنهما.

يا محمد وحياطتك وحفظك، فالآية إخبارٌ له بأنه محفوظ من الكفرة، آمِنٌ أن يُقتل أو يُنال بمكروه عظيم، أي: فَلْتُبلِّغ رسالة ربك ولا تتهيَّب أحداً من المخلوقين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأويلٌ بيِّنٌ جار مع اللفظ، وقد رُوي نحوه عن الحسن بن أبي الحسن، والسُّدي، إلاَّ أنه لا يناسب ما بعده مناسبةً شديدةً، ويحتمل أن يجعل الكلام مناسباً لما بعده، توطئةً له، فَأَقولُ: اختلف الناسُ في الرُّؤْيا ـ فقال الجمهور: هي رؤيا عينٍ ويقظةٍ، وهي ما رآه رسول الله ﷺ في ليلة الإسراء، قالوا: فلما أخبر رسول الله ﷺ صبيحة الإسراء بما رأى تلك الليلة من العجائب، قال الكفار: إنَّ هذا لعجيب، تخبُّ الحُداةُ إلى بيت المقدس شهرين إقبالاً وإدباراً، ويقول محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنه جاءه من ليلته وانصرف عنه، فافتتن بهذا التَّلْبيس قومٌ من ضعفة المسلمين فارتَدُّوا، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا يحسن أن يكون معنى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾، أي: في إضلالهم وهدايتهم، وأنَّ كلَّ واحد مُيَسَّر لما خلق له، أي: فلا تهتم أنت بِكُفْرِ من كَفر، ولا تحزن عليهم، فقد قيل لك: لا تحزن عليهم، إن الله محيطٌ بهم، مالِكٌ لأمرهم، وهو جعل هذه فتنةً ليكفر من سبق عليه الكفر. وسُمِّيت الرُّؤْية في هذا التأويل رُؤيا إذ هما مصدران من: رأى.

قال النقاش: جاء ذلك على اعتقاد من اعتقد أنها منامة وإن كانت الحقيقة غير ذلك.

وقالت عائشة رضي الله عنها: الرؤيا في الإسراء رؤيا منام، وهذا قولٌ الجمهورُ على خلافه، وهذه الآية تقتضي بفساده، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها، وقد ذُكر هذا مُسْتَوْعباً في صدر السورة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أن يدخل مكة، فعجَّل في سَنَة الحديبية، فَرُدَّ، فافتتن المسلمون لذلك، فنزلت الآيات.



وقال سهلُ بن سعد: إنما هذه الرؤيا أن رسول الله ﷺ كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاهتمَّ لذلك وما استجمع ضاحكاً من يؤمئذ حتى مات، فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم على المنابر، وإنما يجعلها الله فتنة للناس وامتحاناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويجيءُ قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، أي: بإقداره، وأن كل ما قدَّره نافذ، فلا تهتم بما يكون بعدك من ذلك. وقد قال الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرُّؤيا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولا عمر بن عبد العزيز، ولا معاوية.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ معطوفة على قوله سبحانه: [الرُّؤْيا]، أي: جعلنا الرؤية والشجرة فتنةً، و«الشَّجَرَةُ» هنا ـ في قول الجمهور ـ هي شجرة الزقوم، وذلك أن أمرها لما نزل في سورة الصَّافَّات قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تُنبتُ الشَّجر، وما نعرف الزَّقوم إلاَّ التمر بالزبد، ثم أمر أبو جهل جاريةً له فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه: تَزَقَّمُوا، فافْتتن أيضاً بهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ أنه إنما جعل الإسراء وذِكْرَ شجرة الزَّقوم اختباراً ليكفر من سبق عليه الكفر، ويُصدِّق من سبق له الإيمان، كما رُوي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له صبيحة الإسراء: إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة بيت المقدس وانصرف منه، فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق، فقيل له: أفتصدق قبل أن تسمع منه؟ فقال: أين عقولكم؟ أنا أصدقه بخبر السماء فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماءُ أبعد منها بكثير؟[2]

---

(١) الآية (١١١) من سورة (الأنبياء)، استشهد بها الحسن رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن إسحق من حديث طويل عن الإسراء، قال: «كان من الحديث ما بلغني عن مسراه ﷺ، عن عبد الله بن مسعود، وأبي سعيد الخدري، وعائشة، ومعاوية بن أبي سفيان، والحسن بن أبي الحسن، وابن شهاب الزهري، وقتادة، وغيرهم من أهل العلم، وأمُّ هانىء بنت أبي طالب، اجتمع في هذا=

وقال فرقة: الشجرة إشارةٌ إلى القوم المذكورين قبْلُ في الرُّؤْيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف مُحْدَث، وليس هذا عن سهل بن سعد ولا مثله. وقال الطبري ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ: إن الشجرة الملعونة: يعني: الملعون آكلها لأنها لم يجيء لها ذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصح أن يراد: الملعونة هنا: فأكَّد الأمر بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ﴾، وقالت فرقة: الملعونة: المُبْعَدَةُ المكروهةُ، وهذا أراد؛ لأنه لَعَنَها بلفظ اللَّعنة المتعارف، وهذا قريب في المعنى من الذي قبله. وأيضاً فما ينبتُ في أصل الجحيم فهو في نهاية البعد من رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾، يريد: إمَّا كُفَّارَ مكَّة، وإمَّا الملوك من بني أميَّة بعد الخلافة التي قال فيها النبي ﷺ: (الخلافةُ بعدي ثلاثون، ثم تكون ملكاً عضوداً)[1]، والأول منهما أصوب كما قلنا قبْلُ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ يريد كفرهم وانهماكهم فيه، كقول أبي جهل في الزقوم والتَّزقُّم، فقد قال النقاش: إن في ذلك نزلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي نحوه، وقرأ الأعمش: [وَيُخَوِّفُهُمْ] بالياء، وقرأ الجمهور: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بالنون.

= الحديث، كل يحدث عن بعض ما ذكر من أمره حين أُسري به ﷺ»، إلى أن قال: «قال الحسن في حديثه... وساق ما حدث من أبي بكر رضي الله عنه...».

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥ـ٢٢٠، ٢٢١)، عن سفينة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون بعد ذلك الملك)، قال سفينة: أمسك خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه سنتين، وخلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين، وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنى عشر سنة، وخلافة علي رضي الله عنه ست سنين، رضي الله عنهم.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

المعنى: واذكر إذ قلنا، وكذلك [إذْ] في الآية المتقدمة هي منصوبة بفعل مضمر، وقد تقدم في غير موضع ذكْرُ خلق آدم عليه السلام وأمْر السجود له. واختلف في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ ـ فقيل: هو استثناءٌ منقطع؛ لأن إبليس لم يكن من الملائكة، وقيل: هو متصل؛ لأن إبليس من الملائكة. وقوله: [طِيناً] يصحُّ أن يكون تمييزاً، ويصحُّ أن يكون حالاً. وقاسَ إبليس في هذه النازلة فأخطأ؛ وذلك أنه رأى الفضيلة لنفسه من حيث رأى أن النار أفضل من الطين، وجهل أن الفضائل في الأشياء إنما تكون حيث خصصها الله تبارك وتعالى، ولا يُنْظر إلى أصولها.

وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبليس هو الذي أمره الله تعالى، فأخذ من أديم الأرض طينة، فخلق آدم، والمشهور أنه مَلَك الموت. وكُفر إبليس في أن جهل صفة العدل من الله تعالى حين لحقته الأنفة والكبر، وكان أصل ذلك الحسَد ولذلك قيل: «أول ما عُصي اللهُ تعالى بالحسد»، وظهر ذلك من إبليس من قوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ﴾ و﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[1] حسبما ذكر الله تعالى في آية أُخرى، فهذا هو النَّصّ بأن فعلك غير مستقيم.

والكاف في قوله: [أَرَأَيْتَكَ] هي كاف خطاب ومبالغة في التَّنبيه، لا موضع لها من الإعراب؛ فهي زائدة. ومعنى «أَرَأَيْتَ»كأتَأمَّلْتَ، ونحوه: كأن المخاطِب بها يُنَبِّه المخاطَبَ ليستجمع لما يَنُصُّه عليه بعْدُ. وقال سيبويه: هي بمعنى: أخبرني، ومثَّل بقوله: أَرَأَيْتَك زيداً أَيُؤْمِنُ هو؟

---

(١) من الآية (٧٦) من سورة (ص).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقاله الزجاج في آيتنا، ولم يُمثِّل، وقول سيبويه صحيح حيث يكون بعدها استفهام كمثاله، وما في هذه فهي كما قلتُ، وليس الذي ذكره سيبويه رحمه الله[١].

وقرأ ابن كثير: [أَخَّرْتَني] بالياء في الوصل والوقف، وهذا هو الأصل، وليس هذا الموضع كالقافية التي يحسن فيها الحذف، كمثل قول الأعشى:

فَهَــلْ يَمْنَعَنِّــي ارْتِيَــادِي ٱلْبِــلاَ دَ مِنْ حَـذَرِ الْمَـوْتِ أَنْ يَـأْتِيَـنْ؟[٢]

وقرأ نافع، وأبو عمرو بالياء في الوصل وبحذفها في الوقف، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿أَخَّرْتَنِ﴾ بحذف الياء في الوصل والوقف، وهذا تشبيه بياء (قاضٍ) ونحوه، لكونها ياءً متطرفة قبلها كسرة، ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[٣].

وقوله: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ﴾ معناه: لأُمِيلَنَّ ولأَجُرَنَّ، وهو مأخوذ من تحنيك الدَّابَّة، وهو أن يُشَدَّ على حنكها بحبل أو غيره فتنقاد، والسَّنة تَحْتَنِكُ المال، أي: تجتره، ومنه قول الشاعر:

نَشْكُــو إِلَيْــكَ سَنَــةً قَــدْ أَجْحَفَــتْ جَهْــداً إِلَــى جَهْــدٍ بِنَــا فَــأَضْعَفَــتْ
واحْتَنَكَتْ أَمْوَالَنَا وجَنَّفَتْ[٤]

---

(١) يرى الحوفي أن ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ بمعنى: عَرِّفْني وأخبرني، و﴿هَذَا﴾ منصوب بـ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾، والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كرَّمته عليَّ، لم كرَّمتَه عليَّ وقد خلقتني من نارٍ وخلقته من طين؟ وحُذف هذا لما في الكلام من الدليل عليه. ويرى الزمخشري تقريباً نفس الرأي، وقد نقل أبو حيان الأندلسيُّ كلامهما وكلام ابن عطية، ثم قال: «وما ذهب إليه الحوفي والزمخشري هو الصحيح، ولذلك قُدِّر الاستفهام وهو: لِمَ كَرَّمْتَهُ عليَّ؟ فقد انعقد من قوله: «هذا الذي كرَّمته عليَّ، لِمَ كَرَّمْتَه عليَّ؟» جملة من مبتدأٍ وخبر، وصار مثله: زيداً أيؤمِنُ هُوَ؟، فالاستفهام مُقَدَّرٌ».

(٢) هذا البيت من قصيدة الأعشى التي يمدح بها قيس بن معديكرب الكندي، والتي يشكو فيها طول الزمن. ويقول: إن الدهر لا يترك بصروفه شيخاً كبيراً ولا شاباً يافعاً، وإن الحذر من الموت وطول التطواف في البلاد لا يحميني من الموت، والشاهد هو حذف النون من (يأتيني) لأنها قافية يحسن فيها الحذف.

(٣) من الآية (١٠٥) من سورة (هود) والشاهد حذف الياء من (يَأْتِي).

(٤) هذه ثلاثة أبيات من مشطور الرجز، والبيتان الأول والثاني مثبتان ضمن الأرجوزة السادسة في بقية ديوان الزفيان السعدي، (عطاء بن أسيد الراجز)، وقد استشهد أبو عبيدة في (مجاز القرآن) بهذه الأبيات، =



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن هذا الشعر قال الطبري في ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾: لأَسْتَأْصِلَنَّ، وعبَّر ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك بـ لأَسْتَوْلِيَنَّ، وقال ابن زيد: لأُضِلَّنَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بدل اللفظ لا تفسير.

وحكم إبليس بهذا الحكم على ذرية آدم عليه السلام من حيث رأى الخِلْقة مجوفة مختلفة الأجزاء، وما اقترن بها من الشهوات والعوارض كالغضب ونحوه، ثم استثنى القليل لعلمه أنه لا بدَّ أن يكون في ذريته من يصلب في طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ﴾ وما بعده من الأوامر هي صيغة افْعَلْ، بمعنى التهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[1] و﴿تَبِعَكَ﴾ معناه: في طريق الكفر الذي تدعو إليه. فالآية في الكفار وفيمن ينفذ عليه الوعيد من العصاة. وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً﴾ مصدر في موضع الحال، و«المَوْفورُ»: المكتمل.

و﴿ٱسْتَفْزِزْ﴾ معناه: استخفَّ واخدَعْ حتَّى يقع في إرادتك، تقول: اسْتَفَزَّني فلانٌ في كذا، إذا خدعك حتَّى تقع في أمرٍ أراده، ومن الخفة قيل لولد البقرة: فَزٌّ، ومنه قول زهير:

كَمَا اسْتَغَاثَ بِسَيْءٍ فَزُّ غَيْطَلَةٍ ... خَافَ الْعُيُونَ فَلَمْ يُنْظَرْ بِهِ الْحَشَكُ[2]

= قال: «يقال: احْتَنَكَ فلانٌ ما عند فلان أجمع من مالٍ أو علم أو حديث أو غيره: أخذه كلَّه واستقصاه، قال: نشكو إليك... الخ الأبيات»، واستشهد بها الطبري في تفسيره، وكذلك القرطبي، والبيتان المثبتان في بقية ديوان الزفيان السعدي يختلفان في الرواية عما هنا، وهما:

نَشْكُو إليكَ سَنَةً قَدْ جَلَّفَتْ ... أَمْوالَنَا مِنْ أَصْلِهَا وَجَرَّفَتْ

وَأَجْحَفَتْ: اشتدت في الإضرار بنا وبجهودنا، يقال: أَجْحَفَ بهم الدهر: استأصلهم، وأجحف بهم الفقر: أذهب أموالهم، واحتنكت: استأصلت أموالنا. والجنف: الميل والظُّلْم والجور. والشاهد هنا أن الاحتناك معناه: الاستئصال. وفي رواية: وجَلَّفَتْ بدلاً من جَنَّفت، ومعناها: قشرت الجلد مع شيءٍ من اللحم.

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فصلت).

(٢) البيت من قصيدة قالها زهير لمَّا أغار الحارث بن ورقاء الصيداوي ـ من بني أسد ـ على بني عبد الله بن غطفان، فغنم واستاق إبل زهيرٍ وراعيه يساراً، فقال زهير القصيدة يطالبه بردِّ يسارٍ ويهدده بالهجاء =

و«الصَّوْتُ» هنا قيل: هو الغناءُ والمزامير والملاهي؛ لأنها أصوات كلها مختصة بالمعاصي، فهي مضافة إلى الشيطان، قاله مجاهد، وقيل: معناه: بدعائك إياهم إلى طاعتك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صوته دعاءُ كل عاص إلى معصية الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصواب أن يكون «الصَّوْتُ» يعُمُّ جميع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ﴾ أي: هوِّل، والجَلَبَةُ: الصوت الكثير المختلط الهائل، وقرأ الحسن: [وَاَجْلُبْ] بوصل الألف وضمِّ اللام. وقوله سبحانه: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، قيل: هذا مجازٌ واستعارة بمعنى: اسْعَ سعيك وابلغ جهدك، وقيل: معناه أن له من الجن خيلاً ورجلا، قاله قتادة، وقيل: المرادُ فرسان الناس ورجالتهم المتصرفون في الباطل، فإنهم كلهم أعوان لإبليس على غيرهم، قاله مجاهد. وقرأ الجمهور: [وَرَجْلِكَ] بسكون الجيم، وهو جمع راجِلٍ، كتاجِرٍ وتَجْر، وصاحِبٍ وصَحْب، وشاربٍ وشَرْب، وقرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ بكسر الجيم، على وزن فَعِل، وكذلك قرأ الحسن، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ وهي صفةٌ، تقول: فلانٌ يمشي رَجِلاً، أي غير راكب، ومنه قول الشاعر:

أَمَا أُقَاتِلُ عَنْ دِينِي عَلَى فَرَسِي ... ولا كَـذَا رَجُـلاً إلاَّ بِـأَصْحَـابِ؟[1]

= القبيح الفاحش. والسَّيْءُ: ما يكون في الضَّرع من اللبن قبل نزول الدِّرَّة، والفَزُّ: ولد البقرة الوحشية، والغيطلة: البقرة. ويُنْظِر: ينتظر. والحَشَكُ: دف الدرة وامتلاؤها. وقيل: هو سرعة تجمع اللبن في الضرع. قال في اللسان (حَشَكَ): «الحَشَكَ: اسم للدِّرَّة المجتمعة، وقيل: إن الشاعر أراد الحشْكَ فحرَّك للضرورة، أي: لم تنتظر به أُمه حُشُوكَ الدِّرَّة». أي: أعجلته بالسَّيء ولم تنتظر امتلاء ضرعها باللبن.

(١) البيت في اللسان (رَجَلَ)، وقد ذكره مع بيت بعده، وأطال في توضيح المعنى نقلاً عن علماء اللغة، قال: «وقد يأتي رَجُلٌ بمعنى راجِلٍ، قال الزبرقانُ بن بدر:

آلَيْتُ للهِ حَجّاً حَافِياً رَجُلاً ... إنْ جَاوَزَ النَّخْلَ يَمْشِي وَهُوَ مُنْدَفِعُ

ومثله ليحيى بن وائل، وأدرك قطَريَّ بن الفُجَاءَةِ الخارجيَّ أحدُ بني مازن حارثي:

أَمَا أُقَاتِلُ عَنْ دينِي عَلَى فَرَسٍ ... وَلاَ كَـذَا رَجُلاً إلاَّ بِأَصْحَابِ؟
لَقَدْ لَقِيتُ إذاً شَـرّاً وَأَدْرَكَنِي ... مَا كُنْتُ أَرْغَمُ في جِسْمِي مِنَ العَابِ

قال أبو حاتم: (أمَا) مخفَّفُ الميم مفتوح الألف، وقوله: (رَجُلاً) أي: راجلاً، كما تقول العرب: =



وقرأ قتادة وعكرمة: [بخيلك ورجالك].

وقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ عامٌّ لكلِّ معصية يصنعها الناسُ بالمال، فإن ذلك المصرف في المعصية هو حظُّ إبليس، فمن ذلك السجائر وشبهها، ومن ذلك مهر البغيِّ وثمن الخمر وحلوان الكاهن والرِّبا وغير ذلك مما يوجَد في النَّاس دأباً، وقوله: ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ عامٌّ لكل ما يصنع في أمر الذرِّيَّة من المعاصي، فمن ذلك الإيلادُ بالزِّنَى، ومن ذلك تسميتهم عبد شمس، وعبد الحارث، وأبا الكويفر، وكل اسم مكروه، ومن ذلك الوأد الذي كانت العرب تفعله، ومن ذلك صبغهم في أديان الكفر، وغير هذا، وما أدخل النقاش من وطء الجن وأنه يحبل المرأة من الإنسان فضعيف كلُّه[١].

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أيْ: مَنِّهم بما لا يتم لهم، وبأنهم غير مبعوثين، فهذا مشاركة في النفوس، ثم أخبر الله تعالى أنه إنما يعدهم غروراً منه؛ لأنه لا يُغني عنهم شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قولٌ من الله تبارك وتعالى لإبليس، وقوله: [عِبَادِي] يريد المؤمنين في الكفر، والمُتَّقِين في المعاصي، وخَصَّهم بأنهم العباد، وإن كان اسْماً عامّاً لجميع الخلق من حيث قصد تشريفهم والتنويه بهم، كما يقول رجلٌ لأَحَدِ بَنِيهِ إذا رأى منه ما يحب: «هذا ابني»، على معنى التَّنْبيه والتشريف له، ومنه قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقَّاص: «هذا خالي، فَلْيُرِني امرؤٌ خاله»[٢]. و«السُّلْطَانُ»: الملكية والتغلُّب، وتفسيره هنا بالْحُجَّة قَلِقٌ. ثم قال تعالى لِنَبيِّه عليه الصلاة والسلام: وكفى بِرَبِّك يا محمد حافظاً للمؤمنين وقَيِّماً على هدايتهم.

= جاءنا فلانٌ حافياً رجُلاً، أي: راجلاً، كأنه قال: أما أُقَاتِلُ فارساً ولا راجلاً إلاَّ ومعي أصحابي، لقد لقيتُ إذاً شرّاً إن لم أُقاتل وحدي. وأبو زيد مِثْلُه، وزاد: ولا كذا أُقاتل راجلاً، فقال: إنه خرج يقاتل السلطان، فقيل له: أتخرج راجلاً تقاتل؟ فقال البيت، وقال ابن الأعرابي: قوله: (ولا كذا راجلاً) أي: ما ترى رجلاً كذا، وقال المُفَضَّل: (أمَا) خفيفة بمنزلة (ألا) و(ألا) تنبيه يكون بعدها أمرٌ أو نهيٌ أو إخبارٌ، فالذي بعد (أمَا) هنا إخبارٌ، كأنه قال: أما أُقاتل فارساً وراجلاً؟ وقال أبو علي في الحجة بعد أن نقل عن أبي زيد ما تقدم: فَرَجُلٌ ـ على ما حكاه أبو زيد ـ صفة، ومثله: نَدُسٌ وفَطُنٌ وحَذُرٌ وأحرف نحوها، ومعنى البيت: كأنه يقول: اعلموا أني أقاتل عن ديني وعن حسبي، وليس تحتي فرسٌ ولا معي أصحاب» اهـ. (اللسان ـ رَجَلَ).

(١) العلم الحديث لا يقر مسألة التزواج بين الإنس والجن.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾ ﴾.

«الإزْجَاءُ»: سوقُ الثَّقيل السَّيْرِ؛ إمَّا لضعفٍ أو ثِقَل حمل أو غيره، فالإبل الضعاف تُزْجَى، ومنه قول الفرزدق:

. . . . عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ[1]

والسَّحابُ تُزْجَى، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِى سَحَابٗا ﴾[2]، والبضاعة المُزْجَاةُ هي التي تحتاج لاختلالها أن تُساقَ بشفاعَةٍ وتُدْفع بمعاونٍ إلى الذي يقبضها، وإزجاءُ الفُلْك سوقُه بالريح اللَّيِّنة والمجاديف. و«الْفُلْكُ» هنا جمع. و«البَحْرُ»: الماءُ الكثير عذباً كان أو مِلْحاً، وقد غلب الاسم على هذا المشهور[3] والفلك تجري فيه، وقوله: ﴿ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ ﴾ لفظ يعم البحرَ وطلَب الأجر في حجٍّ أو غزوٍ أو نحوه، ولا خلاف في جواز ركوبه للحجِّ والجهاد والمعاش، واختُلف في وجوبه للحجِّ، أعني الكثير منه. واختُلف في كراهيته للثروة وتزيداً لمال، وقد أخبر رسول الله ﷺ بركوبه للغزو في حديث أم حرام، وقد رُوي عنه أنه قال: (البحر لا أركبه أبداً)، وهو حديث يحتمل أنه رأي رآه لنفسه، ويحتمل أنه أوحي إليه ذلك، وهذه الآية توقيف على آلاءِ الله تعالى وفضله على عباده.

---

(١) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك ويهجو يزيد بن المهلب، والبيت بتمامه:

عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَا عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

الرَّحْلُ: ما يوضع على ظهر البعير للركوب، وكلُّ شيء يُعَدُّ للرحيل من وعاءٍ لمتاع وغيره. والزواحف: النياق التي تعبت من السير فهي تسير ببطءٍ وكأنها تزحف، نُزْجِيهَا: نَسوقها وندفعها، وهي موضع الشاهد هنا ـ والمحاسير: جمع محسورٍ وهو الكليل الضعيف، صفةٌ أُخرى للنياق التي يركبونها.

(٢) من الآية (٤٣) من سورة (النور).

(٣) هكذا في الأصول، والمراد: غلب الاسم على الماء الكثير المالح.

و«الضُّرُّ» لفظ يعمُّ خوف الغرق، والإمساك عن المشي، وأهول حالاته اضطرابه وتموجه. وقوله تعالى: (ضَلَّ) معناه: تلف وفقد، وهي عبارة تحقير لمن يدعي إلهاً من دون الله تبارك وتعالى. والمعنى في هذه الآية أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلاً، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فَوَقَفَهُم الله من ذلك على حالة البحر، وقوله تعالى: (كَفُوراً) أي بالنِّعَم. و(ٱلإِنسَانُ) هنا للجنس، وكل واحد لا يكاد يؤدي شكر الله تعالى كما يجب. وقال الزجاج: (ٱلإِنسَانُ) يراد به الكفار.

قال القاضي: أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير بارع.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الآية.

المعنى: أفأمنتم أيها المعرضون النَّاسون الشِّدَّة حين صِرْتم إلى الرخاء أن يخسف الله بكم مكانكم من البر؛ إذْ أنتم في قبضة القدرة في البحر وفي البر.

و«الحاصِبُ»: العارضُ الرامي بالبَرَد والحجارة ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقُطْنِ مَنْثُورِ[1]

ومنه قول الأخطل:

تزمِي العِضَاهَ بِحَاصِبٍ مِنْ ثَلْجِهَا ... حَتَّى يَبِيتَ عَلَى العِضَاهِ جفالاً[2]

---

(١) هذا البيت من نفس القصيدة التي قالها الفرزدق في مدح يزيد بن عبد الملك، والتي أشرنا إليها في الحديث عن بيت الشعر السابق، بل هو البيت الذي قبل الشاهد السابق. والحاصِبُ: الريح الشديدة تحمل الحصباء وهذا هو الشاهد هنا، ومعنى تضربنا: تلطمنا بشدة، ونديف القطن: قطع القطن المتناثرة، يريد البَرَد، شبَّهَهُ بنديف القطن في اللون.

(٢) هذا بيت قاله الأخطل من قصيدة يهجو بها جريراً، ويفتخر على قيس، وقبله يقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ إذَا العِشَارُ تَرَوَّحَتْ ... هَدَجَ الرِّئَالِ تَكُبُّهُنَّ شَمَالاَ

والعشار: الإبل التي حَمَلَت ومَضَى على حملها عشرة أشهر، وتَرَوَّحَتْ: عادت إلى حظائرها في وقت الرواح والعودة من المرعى، والرِّئال: جمع رأل، وهو ولد النعامة، والهَدَج: عدْوٌ متقارب، وتكُبُّهُنَّ: تُسْقِطُهُنَّ على وجوههِنَّ، يريد أن الريح وهي تهبُّ شمالاً تدفعهن فتُسْقِطهُنَّ. والضمير في=

ومنه الحاصِبُ الذي أصاب قوم لوط. والحَصْبُ: الرَّمْيُ بالحصباءِ، وهي الحجارة الصغار.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَخْسِفَ﴾ بالياء، على معنى: يخسف اللهُ، وكذلك ﴿يُرْسِلَ﴾ و﴿يُعِيدَكُمْ﴾ و﴿فَيُرْسِلَ﴾ و﴿فَيُغْرِقَكُمْ﴾، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ذلك كلَّه بالنون، وقرأـ أبو جعفر، ومجاهد: [فَتُغْرِقَكُمْ] بالتاء، أي الريح. وقرأ حميد [فَنُغْرِقْكُمْ] بالنون خفيفة[(١)]، وأدغم القافَ في الكاف، ورويت عن أبي عمرو، وابن محيصن، وقرأ الحسن، وأبو رجاءٍ: [فَنُغَرِّقَكُمْ] بشدِّ الراء. و«الوَكِيلُ»: القائم بالأمور، و«القَاصِفُ»: الذي يكسر كلَّ ما يُلْقَى ويقْصِفُه. و﴿تَارَةً﴾ جمعُهَا تاراتٌ وتِيَرٌ، ومعناها: مرَّة أُخرى، وقرأ أبو جعفر: [من الرياح] بالجمع. و«التَّبِيعُ»: الذي يطلب ثأراً أو دَيْناً أو نحو هذا، ومنه قول الشاعر:

غَــدَوْا وَغَــدَتْ غِــزْلانُهُــمْ فَكَــأَنَّهَــا ... ضَــوَامِــنُ غُــرْمٍ لَــزَّهُــنَّ تَبِيــعُ[(٢)]

ومن هذه اللَّفظة قول النبي ﷺ: «إذا أُتْبِعَ أحدكم على مَلِيٍّ فلْيَتَّبع»[(٣)]، فالمعنى: لا تجدون من يتبع فعلنا بكم ويطلب نُصرتكم.

= (تزْمي) يرجع إلى ريح الشمال، والعِضَاهُ: كل شجر له شوكٌ، والواحدة: عِضَة، والحاصب: ما تناثر من الثلج الصغير والجفال: ما تراكم من الثلج بعضه فوق بعض، والشاهد في كلمة (حاصب) كالبيت السابق.

(١) أي: خفيفة الراء.

(٢) قال في اللسان (تبع): «التَّبيع: الذي يتبعك بحق يطالبك به، وهو الذي يتبع الغريم بما أحيل عليه»، ثم حكى عن الفراء أنه قال في معنى الآية: «أي ثائراً ولا طالباً بالثأر لإغراقنا إياكم»، وحكى عن الزجاج قوله: «معناه: لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم ولا يتبعنا بأن يصرفه عنكم». والغُرمُ: ما ينوب الإنسان في ماله من ضَرَر بغير جناية منه أو خيانة، والضامن: الكفي أو الملتزم أو الغارم الذي يلزمه مالا يجب عليه. ولزَّهن: لَزِمَهُنَّ والتصق بهنَّ ليجبرهن على ما يريد.

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، ومالك في الموطأ، وأحمد في مسنده، واللفظ برواية البخاري في الحوالات عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَطْلُ الغنيِّ ظُلْم، ومَن أُتبِعَ على مَلِيٍّ فَلْيَتَّبِع»، والمعنى: إذا أُحيل أحدكم على مليٍّ فليتحمل، وهو أمرٌ على الرفق والأدب والإباحة، وليس أمراً على الوجوب.



قوله عزّ وجلّ:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

[كَرَّمْنَا] تضعيف (كرم)، فالمعنى: جعلنا لهم كَرَماً، أي شرفاً وفضلاً، وهذا هو كرم نَفْيِ النقصان، لا كرم المال، وإنما هو كما تقول: «ثوبٌ كريمٌ»، أي: جَمَّةٌ محاسنُه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية عدَّدَ الله تعالى فيها على بني آدم ما خصَّهم به من دون سائر الحيوان. والجِنُّ هو الكثير المفضول، والملائكة منهم الخارجون عن الكثير المفضول. حَمْلُهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتَحَمَّل بإرادته وقصده وتدبيره في البرِّ والبحر جميعاً. والرِّزقُ من الطيبات لا ينتفع به حيوان انتفاع بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركبات من الأطعمة، ، غاية كل حيوان أن يأكل لحماً نَيِّئاً، أو طعاماً غير مركب. و«الرِّزْقُ»: كل ما صحَّ الانتفاع به، وحكى الطبري عن جماعة أنهم قالوا: التفضيل هو أن يأكل بيديه؛ وسائر الحيوان بالفم. وقال غيره: وأن ينظر من إشرافٍ أكثر من كل حيوان، ويمشي قائماً، ونحو هذا من التفضيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله غير محذق[1]، وذلك أن للحيوان من هذا النوع ما كان يفضل به ابن آدم، كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك، وإنما التكريم والتفضيل بالعقل الذي به يملك الحيوانَ كله، وبه يعرف الله تعالى، ويفهم

---

(١) يريد: غير قاطع في معناه، أو لا يدل على مهارة صاحبه وحِذْقِه.

كلامه ويوصل إلى نعيمه. وقالت فرقة: هذه الآية تقضي بفضل الملائكة على الإنس من حيث هم المستثنون، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[(١)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير لازم من الآية، بل التفضيل بين الإنس والجن لم تعن له الآية، بل يحتمل أن الملائكة أفضل، ويحتمل التساوي، وإنما صحَّ تفضيل الملائكة من مواضع أُخرى من الشرع.

قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ الآية. يحتمل قوله: ﴿يَوْمَ﴾ أن يكون منصوباً على الظرف، والعامل فيه فعل مضمر تقديره: اذْكر[(٢)]، أو فعل يدلُّ عليه قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾، تقديره: ولا يُظلمون يوم ندعو، ثم فسره ﴿يُظْلَمُونَ﴾ الآخر، ويجوز أن يعمل فيه ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾، وذلك أن فضل البشر على سائر الحيوان يوم القيامة بيِّن؛ لأنهم المُنَعَّمون المُكَلَّمُون المُحَاسبونَ الذين لهم القدر، إلاَّ أنَّ هذا يردُّه أن الكفار يؤمئذ أخسُّ من كل حيوان؛ إذ يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[(٣)]، ولا يعمل فيه ﴿نَدْعُو﴾ لأنه مضاف إليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ منصوباً على البناء لمَّا أُضيف إلى غير متمكن، ويكون موضعه رفعاً بالابتداء، والخبر في التقسيم الذي أتى بعْدُ في قوله: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن كَانَ﴾[(٤)].

---

(١) من الآية (١٧٢) من سورة (النساء).
(٢) قال أبو حيان الأندلسي: «على تقدير: اذكر، لا يكون ظرفاً بل هو مفعول به».
(٣) من الآية (٤٠) من سورة النبأ).
(٤) علّق أبو حيان الأندلسي على كلام ابن عطية هذا بعد أن نقله بقوله: «قوله: «منصوباً على البناء»، كان ينبغي أن يقول: «مبنياً على الفتح»، وقوله: «لمَّا أُضيف إلى غير متمكن» ليس بجيد؛ لأن الذي ينقسم إلى متمكن وغير متمكن هو الاسم لا الفعل، وهذا أُضيف إلى فعل مضارع، ومذهب البصريين أنه إذا أُضيف إلى فعل مضارع معرب لا يجوز بناؤه، وهذا الوجه الذي ذكره هو على رأي الكوفيين، وأما قوله: «والخبر في التقسيم» فالتقسيم عارٍ من رابط لهذه الجملة التقسيمية بالمبتدأ؛ إلاَّ إن قدر محذوفاً فقد يمكن، أي: مِمَّن أوتي كتابه فيه بيمينه، وهو بعد هذا التخريج تخريج مُتكلَّف». (البحر المحيط ٦ـ٦٢).



وقرأ الجمهور: ﴿نَدْعُو﴾ بنون العظمة، وقرأ مجاهد: [يَدْعُو] بالياء، على معنى: يدعو اللهُ، ورُويت عن عاصم، وقرأ الحسن: [يُدْعَوْ] بضم الياء وسكون الواو، وأصلها: يُدْعَى، ولكنها لغة لبعض العرب، يقلبون هذه الألف واواً فيقولون: أَفْعَوْ، وحُبْلَوْ(١).

ذكر هاتين أبو الفتح وأبو عليٍّ في ترجمة أعمى بعد. وقرأ الحسن: [كُلُّ] بالرفع، على معنى: يُدْعَوْ كلُّ. وذكر أبو عمرٍو الداني عن الحسن أنه قرأ: «يُدْعَى كُلُّ»، و«الأُناسُ» اسْمُ جمع لا واحد له من لفظه.

وقوله: [بِإِمَامِهِمْ] يحتمل أن يريد: باسم إمامهم، ويحتمل أن يريد: مع إمامهم، فعلى التأويل الأول يقال: يا أُمَّةَ محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويا أتباع فرعون، ونحو هذا، وعلى التأويل الثاني تجيءُ كلُّ أُمَّة معها إمامُها من هادٍ أو مُضِل، واختلف المفسرون في الإمام ـ فقال مجاهد، وقتادة: نَبِيُّهم، وقال أبو زيد: كتابهم الذي أُنزل عليهم، وقال ابن عباس، والحسن: كتابهم الذي فيه أعمالهم، وقالت فرقة: مُتَّبَعُهُم من هادٍ ومُضل. ولفظة «الإمام» تعمُّ هذا كله؛ لأن الإمام هو ما يُؤْتَمُّ به ويُهتدى به في القصد، ومنه قيل لخَيْط البَنَّاء: إمامٌ، وقال الشاعر يصف قدحاً:

وقَــوَّمْتُــهُ حَتَّــى إذَا تَــمَّ واسْتَــوَى ... كَمُخَّــةِ ســاقٍ أو كَمَتْــنِ إِمَــامِ(٢)

---

(١) في أفْعَى وحُبْلَى. قال أبو الفتح: «هذا على لغة من أبدل الألف في الوصل واواً، ذكر ذلك سيبويه، وأكثر هذا القلب إنما هو في الوقف؛ لأن الوقف من مواضع التغيير، وهو أيضاً في الوصل محكي عن حاله في الوقف».

وعلى قراءة الحسن التي ذكرها الداني وهي رفع [كُلّ]، تكون [كُلُّ] مرفوعة بالفعل، وتكون الواو ضميراً مفعولا لم يُسَمَّ فاعله، وأصله: يُدْعَوْنَ، فحذفت النون كما حذفت في قوله:

أبِيــتُ أَسْــرِي وتَبِيتِــي تَــدْلُكِــي ... وَجْهَــكِ بــالْعَنْبَـرِ والمِسْـكِ الـزَّكِـي

أي: وتبيتين تَدْلُكِينَ.

(٢) البيت في اللسان (أَمَمَ) غير منسوب، قال: «والإمامُ: الخيط الذي يُمَدُّ على البناء فَيُبْنى عليه ويُسَوَّى عليه سافُ البناء، وهو من ذلك، قال: وخَلَّقْتُهُ حَتَّى إذا... البيت، أي: كهذا الخيط الممدود على البناء في الأملاس والاستواء، يصف سهماً، يدلُّ على ذلك قوله:

قــرَنْــتُ بِحَقْــوَيْــهِ ثَــلاثــاً فَلَــمْ يَــزِغْ ... عَــنِ الْقَصْــدِ حَتَّــى بُصِّــرَتْ بِــدِمَــامِ

والحَقْوُ: الخَصْر، وحَقْوَا الثَّنِيَّةِ: جانباها. ولم يَزِغْ: لم يَحِدْ أو يَمِلْ عن القصد، أي الهدف =



ومنه قيل للطريق: إمامٌ؛ لأنه يُؤْتَمُّ به في المقاصد حتَّى ينتهي إلى المراد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ حقيقة في أن في القيامة صحائف تتطاير وتوضع في الأيْمَان لأهل الإيمان، وفي الشمائل لأهل الكفر، وتوضع في أيمان المذنبين الذين ينفذ هم الوعيد فيستفيدون منها أنهم غير مخلدين في النار. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟﴾، عبارة عن السرور بها، أي: يُرَدِّدُنها ويتناقلونها، وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، أي: ولا أقلَّ ولا أكثر، فهذا هو مفهوم الخطاب، حُكْم المسكوت عنه كحُكْم المذكور، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[1] وكقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[2]، وهذا كثير. ومعنى هذه الآية أنهم لا يبخسون من جزاء أعمالهم الصالحة شيئاً، و«الفَتِيلُ» هو الخيط الذي في شق نواة التمر، يُضرب به المثل في القلَّة وتفاهة القدر.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ الآية. قال محمد بن أبي موسى[3]: الإشارة بـ[هَـٰذِهِۦ] إشارة إلى النعم التي ذكرها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، أي: مَنْ عَمِيَ عن شكر هذه النعم والإيمان بِمُسْديها فهو في أمور الآخرة وشأنها أعمى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل [أَعْمَىٰ] الثاني أن يكون بمنزلة الأول، على أنه تشبيه بأعمى البصر، ويحتمل أن يكون صفة تفضيل، أي: أشد عمًى، و«العَمَى» في هذه الآية هو عَمَى القلب في الأول والثاني، وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الإشارة بـ[هَـٰذِهِۦ] إلى الدنيا، أي: من كان في هذه الدار أعمى عن النظر في آيات الله تبارك وتعالى وعِبَره والإيمان بآياته ﴿فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾، إمَّا أن يكون على حذف مضاف، أي: في شأن الآخرة، وإما أن يكون: فهو في يوم القيامة أعمى، على معنى أنه حيران لا يتوجه إليه صواب، ولا يلوح له نُجح. قال مجاهد: في الآخرة أعمى عن حجته.

= المقصود. والذِّمام: كل ما طُلِيَ به.

(١) من الآية (٢٣) من هذه السورة (الإسراء).

(٢) من الآية (٤٠) من سورة (النساء).

(٣) قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب: «مستورٌ، من الرابعة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أن الإشارة بـ[هَذِهِ] إلى الدنيا، أي: من كان في دنياه هذه ووقت إدراكه وفهمه أعمى عن النظر في آيات الله تعالى، فهو في الآخرة أشد حيرة وأعمى؛ لأنه قد باشر الخيبة، ورأى مخايل العذاب. وبهذا التأويل تكون معادلةً للَّتي قبلها مِنْ ذِكْرِ مَنْ يُؤْتَى كتابه بيمينه، وإذا جعلنا قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ بمعنى: «في شأن الأخرة» لم تطرد المعادلة بين الاثنين.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: (أَعْمَى) في الموضعين بغير إمالة، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم ـ بخلاف عنه ـ في الموضعيْن بإمالة، وقرأ أبو عمرو بإمالة الأول وفتح الثاني، وتأَوَّله بمعنى: «أشد عَمَى»، ولذلك لم يُمِلْه. قال أبو عمرو: لأن الإمالة إنما تحسُنُ في الأواخر، و[أَعْمَى] ليس كذلك؛ لأن تقديره: أعمى من كذا، فليس يتم إلاَّ في قولنا: «مِنْ كذا» على ما هو شبيه به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما جعله في الآخرة أضلَّ سبيلاً لأن الكافر في الدنيا ممكن أن يؤمن فينجو، وهو في الآخرة لا يمكنه ذلك، فهو أضلُّ سبيلاً، وأشدُّ حيرة، وأقرب إلى العذاب. وقول سيبويه: «لا يقال أعمى من كذا، كما لا يقال: ما أَيْدَاهُ»(١) إنما هو في عَمَى العين الذي لا تفاضل فيه، وأما في عمى القلب فيقال ذلك لأنه يقع فيه التفاضل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذكر مكي في هذه الآية أن العمى الأول هو عمى العين عن الهُدى. وهذا بيِّن الاختلال، والله المعين.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية. [إنْ] هذه عند سيبويه المخَفَّفَة من الثقيلة، واللام في قوله سبحانه: [لَيَفْتِنُونَكَ] لام تأكيد، و[إنْ] هذه عند الفراء بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إنما)، والضمير في قوله تعالى: [كَادُوا] قيل: هو لقريش، وقيل: لثقيف، فأمَّا لقريش فقال ابن جبير، ومجاهد: نزلت الآية لأنهم

(١) قال سيبويه: إن عمى العين خلقة بمنزلة اليد والرجل، فلا يقال: ما أعماه، كما لا يقال: ما أيداه، لأنه لا يقبل التفاضل.



قالوا لرسول الله ﷺ: لا ندعك تستلم الحجر الأسود حتَّى تمس أوثاننا، على جهة التشرع بذلك، قال الطبري وغيره: فهَمَّ رسول الله ﷺ أن يظهر لهم ذلك وقلْبُه له منكر، فنزلت الآية في ذلك، قال الزجاج: وقال رسول الله ﷺ في نفسه: وما عَلَّي أن أفعل لهم ذلك والله تعالى يعلم ما في نفسي؟ وقال ابن إسحق وغيره: إنهم اجتمعوا ليلة فعظَّموه وقالوا له: أنت سيدنا، ولكن: أَقْبِل على بعض أمرنا ونُقْبل على بعض أمرك، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهي في معنى قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[1]. وحكى الزجاج أن الآية قيل: إنما هي فيما أرادوه من طرد فقراء أصحابه.

وأمَّا لثقيفٍ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: لأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يؤخرهم بعد إسلامهم سنة يعبدون فيها اللاَّت، وقالوا: إنَّا نريد أن نأخذ ما يهدى لها، ولكن إن خفت أن تنكر ذلك عليك العربُ فقل: أوحى الله ذلك إليَّ، فنزلت الآية في ذلك. ويلزم قائل هذا القول أن يجعل الآية مدنية، وقد رُوي ذلك، ورَوَى قائلو الأقوال الأُخر أنَّه مكيَّة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجمع ما أُريد من النبي ﷺ بحسب هذا الاختلاف قد أوحى الله تعالى إليه خلافه، إمَّا في مُعْجز، وإمَّا في غير معجز، وفعله هو ـ إن لو وقع ـ افتراءٌ على الله، إذ أفعاله وأقواله إنما هي كلها شرع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ توقيف على ما نجَّاه الله تعالى منه من مخالفته الكفار والولاية لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ الآية... تعديد نِعَمِهِ على النبي ﷺ، ورُوي أن رسول الله ﷺ لمَّا نزلت هذه الآية قال: (اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِي إلى نفسي طرفة عين)[2].

---

(١) الآية (٩) من سورة (القلم).

(٢) أخرج أبو داود في الأدب، وأحمد في مسنده (٥ـ٤٢، ٥٠)، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قال لأبيه: يا أبت، إني أسمعك تدعو كل غداة: اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت، تعيدها ثلاثاً حين تصبح، وثلاثاً حين يُمسي، وتقول: اللهم إني أعوذ=

و«الرُّكُونُ»: شدّ الظهر إلى الأمر، أو الجزم على جهة السكون إليه، كما يفعل الإنسان بالركن من الجدران، ومنه قوله تعالى حكاية: ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]، وقرأ الجمهور: (تَرْكَنُ) بفتح الكاف، وقرأ ابن مصرف، وقتادة، وعبد الله بن أبي إسحق: [تَرْكُنُ] بضم الكاف، ورسول الله ﷺ لم يركن، ولكنه كاد بحسب همِّه بموافقتهم طمعاً منه في استئلافهم، وذهب ابن الأنباري إلى أن معناه: لقد كاد أن يخبروا عنك أنك ركنْتَ، ونحو هذا، ذهب في ذلك إلى نفي الهمِّ بذلك عن النبي ﷺ، فحمَّل اللفظ ما لم يحتمل. وقوله تعالى: ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ يبطل ذلك. وهذا الهمُّ من النبي ﷺ إنما كان خَطْرَةً مما لا يمكن دفعه، ولذلك قيل: ﴿كِدْتَ﴾، وهي تُعطي أنه لم يكن رُكُون[2]، ثم قيل: ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ إذ كانت المقاربة التي تتضمنها ﴿كِدْتَ﴾ قليلة، خَطْرَةً لم تتأكد في النفس، وهذا الهمُّ هو كهَمِّ يوسف عليه السلام، والقول فيهما واحد. وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ يبطل أيضاً ما ذهب إليه ابن الأنباري.

وقوله تعالى: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: يريد: ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

على معنى أن ما يستحقه هذا الذنب من عقوبتنا في الدنيا والآخرة كنَّا نضعِّفُه لك، وهذا التضعيف شائع مع النبي ﷺ في أجره وألمه وعقاب أزواجه[3]. وباقي الآية بيِّن.

= بك من الكفر والفقر، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت، تعيدها حين تصبح ثلاثاً، وثلاثاً حين تمسي، قال: نعم يا بني، إني سمعت النبي ﷺ يدعو بهن، فأُحب أن أَسْتَنَّ بسُنَّته، قال: وقال النبي ﷺ: (دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، أصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت). لكن هذه الرواية لا تثبت ما ذكره ابن عطية من أن النبي ﷺ قال ذلك عندما نزلت الآية الكريمة، إلا أنها أيضاً لا تنفي ذلك، فقد ذكر الراوي أنه سمع الرسول ﷺ يدعو بكذا، وأنه عليه الصلاة والسلام قال كذا، فتأمله. ورواية المؤلف عن قتادة. وقد أخرجها ابن جرير الطبري بسنده، عن محمد بن بشار، عن سليمان، عن أبي هلال، عن قتادة رضي الله عنه. وقد ذكرها أبو حيان في البحر المحيط نقلاً عن الطبري.

(١) من الآية (٨٠) من سورة (هود).

(٢) في بعض النسخ «ولم يقع ركون».

(٣) من المعروف أن جواب (لَوْلا) إذا كان مثبتاً يكون مُمْتَنِعَ الوقوع لوجود ما قبله، فمقاربةُ الركون لم تقعْ أَصْلاً والمانع من ذلك هو وجود تثبيت الله تعالى له، فالآية بهذا الفهم الواضح تنفي حتى مجرد قربه ﷺ =

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾.

قال حضرمي: الضمير في [كَادُوا] ليهود المدينة وناحيتها، كَحُيَيِّ بن أخطب وغيره، وذلك أنهم ذهبوا إلى المكر برسول الله ﷺ فقالوا: إن هذه الأرض ليست بأرض أنبياء، وإنما أرض الأنبياء الشامُ، ولكنك تخاف الرُّوم، فإن كنت نبيّاً فاخرج إليها فإن الله سيحميك كما حمى غيرك من الأنبياء، فنزلت الآية في ذلك، وأخبر الله تعالى أن رسوله لو خرج لم يُلْبِثْهُم بعده إلاَّ قليلاً.

وحكى النقاش أن رسول الله ﷺ خرج بسبب قولهم، وعسكر بذي الحليفة، وأقام ينتظر أصحابه، فنزلت الآية عليه فرجع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، لم يقع في سيرة ولا كتاب يعتمد عليه، وذو الحليفة ليس في طريق الشام.

وقالت فرقة: الضمير في [كَادُوا] هو لقريش، وحكى الزجاج أن استفزازهم هو ما كانوا أجمعوا عليه في دار الندوة من قتله، و[الأرض] ـ على هذا ـ عامة في الدنيا، كأنه قال: يخرجوك من الدنيا، وعلى سائر الأقوال هي أرض مخصوصة، إمَّا مكة وإمَّا المدينة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾[1]، وإما معناه: من الأرض التي بها تصرفهم وتمتعهم. وقال ابن عباس، وقتادة: استفزاز قريش هو ما كانوا ذهبوا إليه من إخراج رسول الله ﷺ من مكة، كما ذهبوا قبلُ إلى حصره في الشِّعب. ووقع استفزازهم هذا بعد نزول الآية، وضيقوا عليه حتى خرج واتبعوه إلى الغار وغير ذلك، ونفذ عليهم

= من الركون إليهم، ثم إن (كاد) فعل من أفعل المقاربة، وهي تعطي معنى (مقاربة) الشيء، ومقاربة الشيء غير الوقوع فيه، بل هي تؤكد عدم الوقوع في فعل الشيء، والآية الكريمة بهذا تنفي ركون النبي ﷺ إليهم، وتنفي أيضاً مقاربته للركون.

(١) من الآية (٣٣) من سورة (المائدة).



الوعيد في أن لم يلبثوا خلفه إلاَّ قليلاً يوم بدر. وقال مجاهد: ذهبت قريش إلى هذا ولكنه لم يقع منها؛ لأنه لمَّا أراد الله تعالى استبقاء قريش وألاَّ يسْتَأْصلها أذن لرسول الله ﷺ في الهجرة، فخرج من الأرض بإذن الله تعالى لا بقهر قريش، واستبقيت قريش يُسْلم منها ومن أعقابها من أسلم، قال: ولو أخرجته قريش لعُذِّبوا، فذهب مجاهد رحمه الله إلى أن الضمير في ﴿يَلْبَثُونَ﴾ عامٌّ في جميعهم. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [وَإذاً لاَ يَلْبَثُوا] بحذف النون وإعمال ﴿إذاً﴾، وسائر القراء أَلْغَوْهَا وأثبتوا النون. وقرأ عطاءُ بن أبي رباح: [يُلَبَّثُونَ] بضم الياء وشد الباء وفتح اللام، وروي مثله عن يعقوب إلاَّ أنه كسر الباء. وقرأ عطاءٌ: «بَعْدَكَ إلاَّ قَلِيلاً»[1]، وقرأ الجمهور: [خَلْفَكَ]، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿خِلاَفَكَ﴾، والمعنى واحد، ومنه قول الشاعر:

عَقَبَ الـرَّذَاذ خِـلاَفَهَـا فَكَـأَنَّمَـا بَسَـطَ الشَّـوَاطِبُ بَيْنَهُـنَّ حَصِيـرَا[2]

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾[3]، على بعض تأويلاته، أي: بعد خروج رسول الله ﷺ، وهذه اللفظة قد لزم فيها حذف المضاف؛ لأن التقدير في آيتنا: «خلاف خروجك»، وفي بيت الشاعر: «خلاف انبساط الشمس» أو نحوه.

قال أبو عليٍّ: أصابوا[4] هذه الظروف تضاف إلى الأسماء الأعيان التي ليست أحداثاً، فلم

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط: «الأحسن أن يُجعل تفسيراً لقوله تعالى: ﴿خِلاَفَكَ﴾ لا قراءة، لأنها تخالف سواد المصحف، فأراد أن يُبَيِّن أن ﴿خِلاَفَكَ﴾ هنا ليست ظرف مكان، إنما تُجُوِّز فيها فاستعملت ظرف زمان بمعنى بَعْدَك».

(٢) سبق الاستشهاد بهذا البيت في المجلد الرابع ص ٣٧٥، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾، وهو في اللسان، وقد نسبه للحارث بن خالد المخزومي، والرواية في سورة التوبة: (عَقَبَ الرَّبيع خلافهم)، و(نَشَطَ الشَّوَاطِبُ). والرواية في القرطبي وفي البحر المحيط: (عفَت الديارُ خلافهم)، وفي اللسان (عقب): (عَقَبَ الرَّذاذُ خلافهم). وفي مجاز القرآن لأبي عبيدة (عفت الديار)، وعلى كلٍّ فهو شاهد على أن (خلافك) بمعنى (بَعْدَك). والشَّوَاطِبُ من النساء: اللاتي يشْقُقْنَ الخوصَ ويَقْشُرْنَ العُسَبَ لِيَتَّخِذْنَ منه الحُصُر، ثم يُلْقين ما شَقَقْنَ إلى المنقِّيات، والمنَقِّية هي التي تأخذ كل شيءٍ على العسيب بِسِكيِّنِها حتى تتركه رقيقاً صالحاً لعمل الحصر منه.

(٣) من الآية (٨١) من سورة (التوبة).

(٤) أي وَجَد العلماءُ هذه الظروف. . . الخ.



يَسْتَحِبُّوا إضافتها إلى غير ما جرى عليه كلامهم، كما أنها لما جرت منصوبة في كلامهم تركوها على حالها إذا وقعت في موقع النصب، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله.

وقوله تعالى: (سُنَّةَ) نصب على المصدر، وقال الفراءُ: نصبه على حذف الخافض؛ لأن المعنى: «كَسُنَّةِ»، فحذف الكاف ونصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويلزمه على هذا ألا يقف على قوله: (قَلِيلاً).

ومعنى الآية الإخبارُ أنَّ سُنَّةَ الله تعالى في الأمم الخالية وعادَتَه أنها إذا أخرجت نَبِيَّها من بين أظهرها نالها العذاب، واستأصلها الهلاك، فلم تلبث بعده إلاَّ قليلاً.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ الآية. هذه بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة.

فقال ابن عمر، وابن عباس، وأبو بُرْدة، والحسن، والجمهور: «دُلوك الشمس»: زوالها، والإشارة إلى الظهر والعصر، و«غَسَق الليل» أُشير به إلى المغرب والعشاء، و«قرآن الفجر» أريد به صلاة الصبح، فالآية ـ على هذا ـ تعُمُّ جميع الصلوات» وروى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: (أتاني جبريلُ لدلوك الشمس حين زالت فصلَّى بي الظهر)(٣)، وروى جابر أن النبي ﷺ خرج من عنده وقد طعم وزالت الشمس، فقال: (اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس)(٤).

---

(١) من الآية (١١) من سورة (الجن).

(٢) من الآية (٣) من سورة (الممتحنة). يستشهد أبو علي الفارسي بهذه الآيات على ما يقوله في الظروف التي تضاف إلى الأعيان لا إلى الأحداث من الأسماء.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره، والذي في جميع الأصول هنا أن الراوي هو ابن مسعود رضي الله عنه، وأول ما يتبادر إلى الذهن أنه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، المعروف، وفي الدر المنثور أيضاً ما يؤيد ذلك، فقد قال: «أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه»، ولكن الثابت في ابن جرير الطبري أن الحديث عن أبي مسعود (عقبة بن عمرو)، والنَّص على أنه (عقبة بن عمرو) يقطع بأنه (أبو مسعود) وليس (ابن مسعود). ولهذا لزم التنويه.

(٤) رواه الطبري، عن جابر، من طريق ابن أبي لَيْلى، ورواه من طريق نُبَيْح العَنَزِيِّ، عن جابر أيضاً. قال=

وقال ابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن أسلم: «دُلوك الشمس»: غروبها، والإشارة بذلك إلى المغرب. و«غَسَق الليل»: اجتماع ظُلْمته، فالإشارة إلى العتمة، و«قرآن الفجر»: صلاة الصبح، ولم تقع إشارة ـ على التأويل ـ إلى الظهر والعصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أصوب لعمومه الصلوات، وهما من جهة اللغة حَسَنان، وذلك أن «الدُّلوك» هو المَيْل في اللغة، فأوَّل الدُّلوك هو الزوال، وآخره هو المغرب، ومن وقت الزوال إلى الغروب يُسَمَّى دُلُوكاً، لأنها في حالة ميل، فذكر الله الصلوات التي تكون في حالة الدُّلوك وعنده، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلة في «غسق اللَّيل»، ومن الدُّلوك الذي هو المَيْل قول الأعرابي للحسن بن أبي الحسن: أَيُدَالِكُ الرجلُ امرأته؟ يريد: أيميل بها إلى المَطْل في دَيْنَها؟ فقال له الحسن: نعم إذا كان ملحفاً، أي: عديماً[1]، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

مَصَابيحُ لَيْسَتْ باللَّوَاتي تَقُودُهَا ... نُجُومٌ وَلاَ بالآفلاَتِ الدَّوَالِكِ[2]

ومن ذلك قول الشاعر:

هَذَا مَكَانُ قَدَمَيْ رَبَاحِ ... غُدْوَةً حتَّى دَلَكَتْ بَرَاحِ[3]

= العلماءُ: ونُبَيْح هذا مجهول، وقد جاء في تفسير الطبري هذا اللفظ: (يقول جابر: دعوتُ رسولَ الله ﷺ من شاءَ من أصحابه، فَطَعِموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج رسول الله ﷺ، وقال: . . . الحديث).

(١) وقع في هذا الخبر تحريف في بعض ألفاظه، وهو في تفسير الطبري، وفي اللسان (دَلَكَ)، فكلمة (دَيْنَهَا) ذُكرت في بعض النسخ (دِيَتِهَا) لأن اللسان ذكر تفسير أبي عبيدة للكلام وهو: «قوله: يُدَالِكُ، يعني المَطْلَ بالمَهْر». واللفظة في الطبري: (بِحَقِّهَا). وكلمة (مُلْحِفاً) وردت في اللسان (مُلْفَجاً)، وذكرت في بعض الأصول (مليحاً). ومن معاني الإلحاف التي تلائم المعنى هنا أنه الإضرار لغيره، يقال: أَلْحَفَ به: أَضرَّ، أمَّا أَلْفَج فهي أكثر ملاءمة للمعنى، إذ من معانيها: أفْلَسَ وذهب ماله، فيكون المعنى المراد: أنه إذا أفلس وذهب ماله دَالَك امرأته، أي: ما طلها في حَقِّهَا، وهذا يناسب التفسير الذي في الخبر بعد ذلك وهو قوله: (أيْ: عديماً)، أمَّا (مليحاً) فلا نرى لها وجهاً هنا يلائم المعنى.

(٢) البيت في الديوان، وفي اللسان، والتاج، وفي تفسير القرطبي وتفسير البحر المحيط، وهو أيضاً في غريب القرآن، والبيت في وصف الإبل، يقول: إنها تصبح في مباركها، والآفلات: الغائبات، يقال: أفل النجم: غاب، والدَّوالك: التي غابت أو قاربت الغروب» قال في اللسان: إن هذا البيت يُقوِّي أن دُلُوك الشمس بمعنى الغروب؛ لأنه نفى عنها الأفول والدُّلُوك.

(٣) البيت في اللسان (دَلَكَ)، والرواية فيه: (هَذَا مَقَامُ) و(ذَبَّبَ بدلاً من (غُدْوَةً)، وهو أيضاً في (معاني=

ويروى (بِرَاح) بكسر الباء، قال أبو عبيدة، والأصمعي، وأبو عمر الشيباني: معناه: براحة الناظر يستكف بها أبداً لينظر كيف ميلها وما بقي لها، وهذا نحو قول العجاج:

والشَّمْسُ قَدْ كادَتْ تكُونُ دَنَفَا أَدْفعُها بالرَّاحِ كَيْ تَزَحْلفَا[1]

وذكر الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «دَلَكَتْ بِرَاح، يعني: بِرَاح مكاناً»، قال: فإن كان هذا من تفسير ابن مسعود فهو أعلم، وإن كان من كلام راوٍ فأهل الغريب أعلم بذلك[2].

ويُرْوَى البيت الأول: (غُدوةً حتَّى هَلَكَتْ بَرَاحِ) بفتح الباء، على وزن قَطَام وحَزَامِ، وهو اسم من أسماء الشمس.

و«غَسَقُ اللَّيْلِ»: اجتماعه وتكاثف ظلمته، قال الشاعر:

= القرآن) للفراء، والرواية فيه كرواية اللسان. وقد قال الفراءُ: «قال أبو زكريًا: ورأيتُ العرب تذهب بالدلوك إلى غياب الشمس، أنشدني بعضهم: (هذا مقام... البيت)، وفي اللسان: «دلَكَتْ بَرَاحِ وبِرَاحِ»، أي: قد مالت للزوال حتَّى كاد الناظر يحتاج إذا تَبَصَّرَهَا أن يكسر الشُّعاع عن بصره براحته، وبَرَاحِ، مثل قَطَام: اسمٌ للشمس، وقال ابن الأعرابي: دَلَكَتْ بَرَاحِ: استُريحَ منها». أما قوله: (ذَبَّبَ) فمعناه كما قال الفراءُ: السَّاقي ذَبَّبَ: طرد الناسَ. وقال أبو عبيدة في (مجاز القرآن): «دُلُوك الشمس: من عند زوالها إلى أن تغيب»، وروى البيت ثم قال: «ألا ترى أنها تدفع بالراح، يضع كفَّه على حاجبيه من شعاعها لينظر ما بقي من غيابها». هذه هي التفسيرات التي قالها علماءُ اللغة في معنى الدلوك، وفي البيت. قد اختصرنا بعضها، وأغفلنا بعضاً آخر قد ذكره ابن عطية أو أشار إليه.

(١) هذان بيتان من مشطور الرجز، قالهما العَجاج بن رؤبة، وهما في الديوان، واللسان، ومجاز القرآن، وغريب القرآن، والطبري، والقرطبي، وفي الجمهرة وتهذيب الألفاظ، قال في اللسان: «ويقال للشمس إذا مالت للمغيب، إذا زالت عن كبد السماء نصف النهار: قد تَزَحْلَفَتْ، قال العجاج: والشمس.. الخ البيتين». أما قوله: (دَنَفَا) فمعناه أنها صارت صفراءَ كالمريض، يقال: دَنِفَت الشمس وأدنفَت إذا دَنَتْ للمغيب واصفرت.

(٢) من المفيد أن ننقل لك هنا نصَّ كلام الطبري الذي لخَّصه ابن عطية هنا، فإن كلام الطبري أوضح، قال: «وقد ذكرتُ في الخبر الذي رويتُ عن عبد الله بن مسعود أنه قال حين غربت الشمس: دَلَكَت بِرَاح، يعني: بِرَاح مكاناً، ولستُ أدري هذا التفسيرُ، أعني قوله: «بِرَاح مكاناً» من كلام من هو مِمَّن في الإسناد؟ أو من كلام عبد الله؟ فإن يكن من كلام عبد الله، فلا شك أنه كان أعلم بذلك من أهل الغريب الذين ذكرتُ قولهم، وأن الصوابَ في ذلك قولُه دون قولهم. وإن لم يكن من كلام عبد الله، فإن أهل العربية كانوا أعلم بذلك منه».



آبَ هَـــــذَا اللَّيْـــــلُ إذْ غَسَقَـــــا . . . .[١]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غَسَقُ اللَّيْل: بدؤُه.

ونُصب قوله تعالى: ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ بفعل مضمر، تقديره: واقرأ قرآنَ، ويصحُّ أن يُنْصب عطفاً على [ٱلصَّلاةَ]، أي: وأقِمْ قرآنَ الفجر، وعبَّر عن صلاة الصبح خاصةً بالقرآن لأن القرآن هو عُظْمُهَا[٢]؛ إذْ قراءتُهَا طويلة مجهودٌ بها، ويَصِح أن ينصب قولُه: [قُرْآنَ] على الإغراء. وقوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ معناه: يشهده حفظة النهار وحفظة اللَّيل من الملائكة حسبما ورد في الحديث المشهور من قوله عليه الصلاة والسلام: (يَتَعَاقَبُونَ فيكم ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار، ويجتمعون في الصبح وصلاة العصر) الحديث بطوله من رواية أبي هريرة وغيره[٣]. وعلى القول بذلك مضى الجمهور.

وذكر الطبريُّ حديثاً عن ابن عَسْكَر، من طريق أبي الدرداء في قوله تعالى: ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾، قال محمد بن سهل بن عسكر: (يشهده الله وملائكته)، وذكر في ذلك الحديث أن الله تبارك وتعالى ينزل في آخر الليل، ونحو هذا مما ليس بقوي[٤].

---

(١) هذا صدر بيت لعبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات، والبيت بتمامه:

آبَ هَـــــذَا اللَّيْـــــلُ إذْ غَسَقَـــــا ... واشْتَكَيْـــــتُ الْهَـــــمَّ والأرَقَـــــا

وهو في (مجاز القرآن)، واللسان (غَسَقَ)، والقرطبي، والبحر المحيط، والطبري، والرواية في اللسان ومجاز القرآن والقرطبي: (إنَّ هذا اللَّيْلَ قَد غَسَقَا)، وهو شاهد على أن (غَسَقَ) بمعنى: أظلم وتكاثفت ظلمته. قال في اللسان: «وغَسَق الليلُ يَغْسِق غَسْقاً وغَسَقاً وغَسَقَاناً: انْصَب وأظْلَم، ومنه قول ابن قيس الرُّقَيَّات: (إن هذا الليلَ. . . البيت).

(٢) عُظْمُ الشَّيْءُ: مُعْظَمُه. اللسان (عظم).

(٣) أخرجه البخاري في المواقيت والتوحيد، ومسلم في المساجد، والنسائي في الصلاة، والموطأ في السفر، وأحمد (٢ـ٢٥٧) ولفظه كما في البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار؛ ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون).

(٤) الحديث في تفسير الطبري، وهو حديث طويل، رواه محمد بن سهل بن عسكر، عن أبي الدرداء، من طريق الليث بن سعد، وكذلك رواه محمد بن سهل، عن آدم، عن الليث بن سعد، وفي هذا الحديث ما اشار إليه ابن عطية من أن الله تعالى يفتح الذكْرَ في ثلاث ساعات يبقين من الليل. . . الخ، (مما ليس بقوي).



وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾، [مِنْ] للتبعيض، والتقدير: ووقتاً من الليل، أي: وأَقِمْ وقْتاً من الليل، والضمير في [بِهِ] عائد على هذا المقدر(١)، ويحتمل أن يعود على القرآن وإن كان لم يجر له ذكرٌ مطلق، كما هو الضمير مطلق، لكن جرى مضافاً إلى الفجر. و«تَهَجَّدْ» معناه: اطرح الهجود عنك، والهجودُ: النومُ، يقال: هَجَدَ يَهْجُدُ ـ بضم الجيم ـ هُجُوداً إذا نامَ، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ طَــرَقَتْنَــا والــرِّفَــاقُ هُجُــودُ فَبــاتَــتْ بِعَــلاَّتِ النَّــوَالِ تَجُــودُ(٢)

ومنه قول الحطيئة:

فَحَيَّــاكِ وُدٌّ مَــا هَـــدَاكِ لِفِتْيَـــةٍ وَخُوصٍ بِأَعْلَى ذِي طوالَةَ هُجَّدِ(٣)

وهذا الفعل جار مجرى: تحرَّب وتحرَّج وتأثَّمَ وتحَنَّث، ومثله ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾(٤)، فمعناه: تَنَدَّمون، أي تطرحون الفاكهة عن أنفسكم(٥)، وهي انبساط النفس وسرورها، يقال: رجلٌ فَكِهٌ إذا كان كثير السرور والضحك، فالمعنى: وَوَقْتاً من اللَّيل اسْهَرْ به في صلاةٍ وقراءة، وقال الأسود، وعلقمة، وعبد الرحمن بن الأسود: التَّهَجُّد بعد نومة، وقال الحجاج بن عمرو: إنما التَّهَجُّد بعد رقدة، وقال الحسن: التَّهَجُّد ما كان بعد العشاء الآخرة.

---

(١) المقدر هو (وقت)؛ إذ التقدير عند ابن عطية: وأقِمْ وَقْتاً من الليل.

(٢) البيت في تفسير الطبري، وتفسير القرطبي، وفي البحر المحيط. وفي اللسان (هَجَدَ) أنَّ (هَجَدَ وتَهَجَّدَ): نام وأنَّ (هَجَدَ وتَهَجَّدَ) أيضاً: سَهِرَ، وأنه من الأضداد، ولكن فيه أيضاً عن جمهرة كبيرة من اللغويِّين أنَّه يقال: هَجَدَ إذا نام بالليل، وهَجَّدَ إذا صلَّى بالليل، وعن الأزهري أن الهاجدَ هو النائم، وهَجَدَ هجوداً إذا نام، وأمَّا المتهجِّد فهو القائم إلى الصلاة من النوم، وكأنه قيل له مُتَهَجِّد لإلقائه الهجود وهو النوم عن نفسه، وهذا هو معنى قول ابن عطية: جارٍ مجرى تحرَّج وتأثَّم.. الخ، بمعنى: ألقى الحرج والإثم عن نفسه. فمعنى (هُجُود) في البيت: نائمونَ. والعَلاَّت هنا كالتَّعلَّة، وهي ما يُتَعَلَّلُ به، بقول: إنه تجود علينا بالأماني، وتعطينا من الأمل ما نَتَعَلَّلُ به ونَتَلَهَّى ولا تزورنا زيارة حقيقية بدلاً من هذه الأماني والتَّعلات.

(٣) البيت في اللسان (هَجَدَ)، قال: «والهاجدُ: النائم، والهاجدُ والهَجُودُ: المصلِّي بالليل، والجمع هُجودٌ وهُجَّدٌ، قال الحطيئة فحيَّاكِ... البيت»، وذكر أيضاً شاهداً آخر على هُجُود.

(٤) من الآية (٦٥) من سورة (الواقعة).

(٥) هكذا في كل الأصول، وفي العبارة قلق، والتَّنَدُّمُ في اللغة هو أن يَتَّبع الإنسان أمراً نَدَماً، وفي المثل «التَّقدم قبل التَّندم»، والندامى يطرحون الفاكهة بينهم لا عن أنفسهم.



وقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾، قال ابن عباس وغيره: معناه: زيادةً لك في الفرض، قالوا: وكان قيام الليل فرضاً على النبي ﷺ(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحتمل الآية أن يكون هذا على جهة الندب في التَّنفل، ويكون الخطاب للنبي ﷺ والمرادُ هو وأمته، كخطابه في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾. وقال مجاهد: إنما هي نافلة للنبي ﷺ؛ لأنه مغفور له، والناس يحطون بمثل هذا خطاياهم، وبيَّن أن النبي ﷺ منذ غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر عام الحديبية، فإنما كانت نوافله واستغفاره فضائل من العمل، وقُرَباً أشرف من نوافل أُمّته؛ لأن هذه إما أن تجيء بها فرائضهم، وإمَّا أن تحط بها خطيئاتهم، وقد يتصور من لا ذنب له يتنفَّل، فيكون تنفُّله فضلاً، كنصراني يسلم وصبي يحتلم، وضعَّفَ الطبري قول مجاهد(٢).

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ عِدَةٌ من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، وهو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياءُ حتى ينتهي إليه عليه الصلاة والسلام، والحديث بطوله في البخاري ومسلم فلذلك اختصرناه(٣)، ولأجل ذلك الاحتمال الذي له في مرضات جميع العالم مؤمنهم وكافرهم قال: (أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر)(٤). و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة، و﴿مَقَاماً﴾ نصب على الظرف.

---

(١) قال العلماء: في هذا التأويل بعدٌ لوجهين: أحدهما تسمية الفرض بالنفل، وذلك مجازٌ لا حقيقة، والثاني قوله ﷺ: (خمس صلوات فرضهن الله على العباد)، وفي الخبر أن الله تعالى قال: (هُنَّ خمس وهُنَّ خمسون، لا يُبَدَّل القولُ لدي)، وهذا نصٌّ. فكيف يقال إن الله افترض عليه صلاة زائدة على الخمس).

(٢) قال الطبري: أما ما ذُكر عن مجاهد في ذلك فقولٌ لا معنى له؛ لأن رسول الله ﷺ فيما ذُكر عنه أكثر ما كان استغفاراً لذنوبه بعد نزول قول الله عزَّ وجل عليه: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وذلك أن هذه السورة أنزلت عليه بعد منصرفه من الحديبية، وأنزل عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ عام قُبض، وقيل له: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فكان يُعَدُّ له ﷺ في المجلس الواحد استغفار مائة مرة، ومعلوم أن الله لم يأمره أن يستغفر إلا لما يغفر له باستغفاره ذلك، فَبَيِّنٌ إذاً وجه فساد ما قاله مجاهد».

(٣) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد والرقاق والأنبياء وتفسير سورة آل عمران، وأخرجه مسلم في الإيمان، والترمذي في تفسير سورة الإسراء، والقيامة، وابن ماجه في الزهد، والدارمي في المقدمة، والإمام أحمد في أماكن كثيرة من مسنده.

(٤) أخرجه أبو داود في السُّنَّة، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في المسند (١/ ٥، ٣ـ٢)، ولفظه كما في=



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن غريب حديث الشفاعة اقتضابه المعنى، وذلك أن صدر الحديث يقتضي أن النبي ﷺ يُستنهض للشفاعة أن يُحَاسَب الناس، وينطلقون من الموقف، فيذهب لذلك، وينص بأثر ذلك على أنه شفع في إخراج المذنبين من النار، فمعناه الاقتضاب والاختصار؛ لأن الشفاعة في المذنبين لم تكن إلا بعد الحساب والزوال من الموقف ودخول قوم الجنة ودخول قوم النار، وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياءُ، بل يشفعون ويشفع العلماءُ، وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي)[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وينبغي أن يُتأوَّل هذا على ما قلناه: لأمته وغيرها، أو يُقال: كل منهما مقامٌ محمود. وقال النقاش: لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكبائر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمشهور أنهما شفاعتان فقط. حكى الطبري عن فرقة منها مجاهد أنها قالت: المقام المحمود هو أن الله عزَّ وجلَّ يُجْلِس محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ معه على عرشه، وروت في ذلك حديثاً، وعضَّد الطبري جواز ذلك بِشَطَطٍ من القول، وهو لا يخرج إلاَّ على تَلَطُّف في المعنى، وفيه بُعْدٌ، ولا يُنْكر مع ذلك أن يُرْوى، والعلم يتأوله. وقد ذكر النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

من أنكر جوازه على تأويله.

= المسند، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع يوم القيامة ولا فخر).

(١) أخرجه أحمد، والترمذي وحسَّنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، ولفظه كما في الدر المنثور: في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، وسئل عنه قال: (هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

ظاهر هذه الآية والأحسن فيها أن تكون دعاءً في أن يُحَسِّن الله حالته في كل ما يتناول من الأُمور، ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتصر من تصرف المقادير في الموت والحياة، فهي على أتمِّ عموم، ومعناها: ربِّ أصلح لي وِرْدي في كل الأمور وصَدري[1]، وذهب المفسرون إلى أنها في غرض مخصوص، ثم اختلفوا في تعيينه ـ فقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: أراد: أدخلني المدينة وأخرجني من مكة، وتقدم في هذا التأويل المتأخِّرُ في الموضوع، فإنه متقدم في القول لأن الإخراج من مكة هو المتقدم، اللهم إنَّ مكان الدخول والفرار هو الأهم. وقال أبو صالح، ومجاهد: أدخلني في أمر تبليغ الشرع، وأخرجني منه بالإعداد التام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإدخال بالموت في القبر، والإخراج البعث. وما قدمت من العموم التام الذي يتناول هذا كله أصوب.

وقرأ الجمهور: (مُدْخَلَ) و(مُخْرَجَ) بضم الميم، فهو جرى على: أدخلني وأخرجني. وقرأ أبو حيوة، وقتادة، وحميد: [مَدْخَلَ] و[مَخْرَجَ] بفتح الميم، فهو غير جار على: أدخلني، ولكن التقدير: «أَدْخلني فأَدْخُل مَدْخَلَ» لأنه إنما يجري على دخلَ، و«الصدق» هنا صفة تقتضي رفع المذام واستيعاب المدح، كما تقول: «رجل صدق» أي: جامع للمحاسن.

وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾، قال مجاهد وغيره: حُجَّةً، يريد: تنصرني ببيانها على الكفار، وقال الحسن وقتادة: يريد: مَنَعَةً ورياسةً وسيفاً ينصر دين الله تعالى، فطلب رسول الله ﷺ ذلك بأمر الله إياه رغبةً في نصر الدين، فرُوي أن الله تعالى وعده بذلك، ثم أنجز له في حياته وتَمَّمه بعد وفاته.

---

(١) أي: في بداية الأمور ونهايتها، أو في إقبالي عليها وانصرافي عنها، والمراد: في جميع الأمور من أولها إلى آخرها.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الآية. قال قتادة: ﴿ٱلْحَقُّ﴾: القرآن، و﴿ٱلْبَاطِلُ﴾: الشيطان، وقالت فرقة: الحقُّ: الإيمان، والباطلُ: الكفر، وقال ابن جريج: الحق: الجهاد، والباطلُ: الشِّرْك، وقيل غير ذلك، والصواب تعميم اللَّفظ بالغاية الممكنة، فيكون التعبير: جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه، وزهق الكفر بجميع ما انطوى فيه، و«الباطلُ»: كلُّ ما لا ينال به غاية نافعة. وقوله سبحانه: ﴿كَانَ زَهُوقًا﴾، ليست ﴿كَانَ﴾ إشارة إلى زمن مضى، بل المعنى: كان وهو يكون، وهذا كقولك: كان الله عالماً قادراً، ونحو هذه.

وهذه الآية نزلت بمكة، ثم إن رسول الله ﷺ كان يستشهد بها يوم فتح مكة، وقت طعنه الأصنام، وسقوطها لطعنه إياها بمخصرة[1] حسبما في السيرة لابن هشام وغيرها. وقرأ الجمهور: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ بالنون، وقرأ مجاهد: [وَيُنْزِلُ] بالياء خفيفة، ورواها المروزي عن حفصٍ. وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، يصحُّ أن تكون ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، ويصحُّ أن تكون لبيان الجنس[2]، كأنه قال ونُنَزِّل ما فيه شفاءٌ من القرآن، وأنكر بعض المتأولين أن تكون ﴿مِنْ﴾ للتَّبْعيض، لأنه تحفَّظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاءَ فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مُبَعَّض، فكأنه قال: ونُنَزِّل من القرآن شيئاً شيئاً ما فيه كله شفاءٌ. واستعارته الشفاء للقرآن هو بحسب إزالته الريب، وكشفه غطاء القلب لفهم المعجزات والأمور الدَّالَّة على الله تعالى، المقرِّرة لشرعه. ويحتمل أن يراد بالشفاء نفعه من الأمراض والرُّقي

---

(١) المِخْصَرة: ما يُتَوَكَّأُ عليها كالعصا ونحوه، وقضيب يشار به في أثناء الخطابة، وكان يتخذه الملوك والخطباءُ. وقد روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ دخل مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)، أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، من طُرقٍ، عن سفيان بن عُيَيْنَة، عن بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) قال ذلك الأخفش وأبو البقاء أيضاً، وقال أبو حيان: «إنَّ [مِنْ] التي لبيان الجنس لا تتقدم على المبهم الذي تُبيِّنه، وإنما تكون متأخرة عنه».

والتعويذ ونحوه[(١)] وكونه رحمة ظاهرة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ بمعنى أنه عليهم عمًى؛ إذ هم معرضون بحالة من لا يفهم ولا يلقن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ الآية. «الإنسانُ» في هذه الآية لا يُرَادُ به العموم، وإنما يراد به بعضه وهم الكفرة، وهذا كما تقول عند غضب: «لا خير في الأصدقاء ولا أمانة في الناس»، فأنت تعمم مبالغة، ومرادك البعض، وهذا بحسب ذكر الظالمين والخسارة في الآية، قيل: فاتَّصل ذكر الكفرة، ويحتمل أن يكون «الإنسان» في هذه الآية عامًّا للجنس، على معنى: إن هذا الخُلُق الذميم في سجيته، فالكافر يبالغ في الإعراض، والعاصي يأخذ بحظه منه. وقد قال رسول الله ﷺ في مؤمن: (فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ الله عنه)[(٢)]. ومعنى ﴿أَعْرَضَ﴾ وَلاَّنا عُرْضَه[(٣)]، ﴿وَنَـَٔا﴾ أي: بَعُدَ وهذه، وهذا استعارة، وذلك أنه يفعل أفعال المُعْرِض النائي في تركه الإيمان بالله وشكر نعمه عليه. وقرأ ابن عامر وحده: [وَنَاءَ]، ومعناه: نهض متباعداً، هذا قول طائفة، وقال أخرى: هو قلب الهمزة بعد الألف في (نَأَى) بعينه، وهي لغةٌ كَرَأَى ورَاءَ، ونحو هذه اللفظة قول الشاعر في وصف رامٍ:

حَطـاً إذَا مـا الْتَـأَمَـتْ مَفَـاصِلُـهُ ... وَنَـاءَ فـي شِـقِّ الشِّمَـالِ كَـاهِلُـهُ[(٤)]

---

(١) الرُّقَى: جمع رُقْيَة، وهي العُوذَةُ التي يُرقَى بها المريض، والتَّعْويذ: الاعتصام بالرُّقْية من الشيطان، والمؤمن لا يَتَعَوَّذ إلا بالله تعالى.

(٢) أخرجه مسلم في السلام، وأحمد في المسند (٥ـ٢١٩)، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ، بينما هو جالسٌ في المسجد والناس معه إذ أقبل نفرٌ ثلاثة، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأمَّا أحدهما فرأى فُرْجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: (ألا أُخبركم عن النفر الثلاثة، أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعْرض الله عنه).

(٣) عُرْضُ الشيء: جانبه وناحيته، وعُرْضُ العُنُق والوجه: جانبه.

(٤) هذا البيت شاهد على أن (ناء) بمعنى: نَهَضَ مُتَوَكِّئاً على شِمَاله، فهو من النَّوْء، وهو النهوض والقيام. واللغويون يرون أن (نَاءَ) تأتي على القلب من (نأى) في اللفظ ولكن المعنى واحد وهو البعد، ويرى بعضهم أن (نَأى) بمعنى: بَعُد، و(نَاءَ) بمعنى: أعرض وتكبر مستغنياً ومعنى «التَأمَتْ مفاصله»: اجتمعت وتوافقت على وضع معين، وشِقُّ الشِّمَال: جانبه. والكاهِلُ: مُقَدَّم أعلى الظَّهر مما يلي العنق، وهو الثلث الأعلى من الظهر، وفيه سِتُّ فِقَر، وفي اللسان أن الكاهل هو الحارك، وهو فروع الكتفين. هذا وقد أنشد المبرد:
=



أي: نهض مُتَوَرِّكاً على شماله.

والذي عندي أن نَاءَ ونَأَى فعلان متباينان[١]. ﴿وَنَـَا بِجَانِبِهِۦ﴾ عبارة عن التَّحير[٢] والاستبداد، و(نَاءَ) عبارة عن البُعْد والفراق.

ثم وصف الله تعالى الكفرة بأنهم إذا مَسَّهم شرٌّ من مرض أو مصيبة في مال أو غير ذلك يَئِسُوا من حيث لا يؤمنون بالله، ولا يرجون تصرُّف أقداره.

ثم قال عزَّ وجلَّ: قُلْ يا محمد: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، أي: طريقته وبحسب نِيَّتِهِ ومذهبه الذي يشبهه. وهو شكل له، وهذه تدل دلالة على أن «الإنْسَان» أولاً لم يُرَدْ به العموم، أي أن الكفار بهذه الصفات، والمؤمنون بخلافها، وكلٌّ منهم يعمل على ما يليق به، والرَّبُّ تعالى أعلم بالمهتدي. وقال مجاهد: ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ معناه: على طبيعته، وقال أيضاً: معناه: على حِدَته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: على ناحيته، وقال قتادة: معناه: على حدته وعلى ما ينوي، وقال ابن زيد: معناه: على دينه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأرجح هذه العبارات قول ابن عباس وقتادة. وقوله تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ توعُّدٌ بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ

= أَعَـاذِلُ إنْ يُصْبِـح صَـدَايَ بِقَفْـرَةٍ ... بَعِيـداً نَـآنِـي زائـري وقَـرِيبِـي

وقال: (نآني) هنا فيه وجهان: أحدهما أنه بمعنى أبْعَدَني، والثاني أنه بمعنى نأى عني، قال أبو منصور، وهذا هو المعروف، تقول: نأيْتُ الدمع عن خدي بإصبعي ومنه:

إذا مـا الْتَقَيْنَـا سـالَ مِـنْ عَبَـرَاتِنَـا ... شَـآبِيبُ يُنْـأى سَيْلُهَـا بـالأصَـابِـع

(١) معنى هذا أن ابن عطية يرى أن (نَأى) بمعنى: بَعُد، وأنَّ (ناءَ) بمعنى: نَهَضَ، وكأنه يستشهد بالبيت الذي أنشده على ذلك.

(٢) هكذا في الأصول، ولعل الصواب: (التَّجبُّر).



عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

الضمير في [يَسْأَلُونَكَ] قيل: هو لليهود وأن الآية مدنية، ورُوي عن عبد الله بن مسعود أنه كان مع رسول الله ﷺ، فَمَرَّ على حرث بالمدينة ـ ويروى على خرب ـ وإذا فيه جماعة من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الرُّوح فإن أجاب فيه عرفتم أنه ليس بنبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك أنه كان عندهم في التوارة أن الرُّوح مما انفرد الله بعلمه، ولا يُطْلع عليه أحداً من عباده. قال ابن مسعود: وقال بعضهم: لا تسألوه لئلاً يأتي فيه بشيءٍ تكرهونه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يعني ـ والله أعلم ـ من أنه لا يفسره فتقوى الحجة عليهم في نبوته، قال: فسألوه، فوقف رسول الله ﷺ مُتَوَكِّئاً على عسيب، فظننت أنه يوحى إليه، ثم تلا عليهم الآية(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقيل: الآية مكيَّة، والضمير لقريش، وذلك أنهم قالوا: نسأل عن محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أهل الكتاب من اليهود، فأرسلوا إليهم إلى المدينة النَّضْر بن الحارث وعُقبة بن أبي مُعَيط، فقال اليهود: جربوا بثلاث مسائل، سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين وعن الرُّوح، فإن فسَّر الثلاثة فهو كذاب، وإن سكت عن الرُّوح فهو نبيٌّ، فسألته قريش عن الرُّوح، فيروى أن النبي ﷺ قال لهم: «غداً أخبركم به»، ولم يقل: «إن شاءَ الله»، فاستمسك الوحي عنه خمسة عشر يوماً معاتبةً على وعده لهم دون استثناء، ثم نزلت هذه الآية(٢).

---

(١) أخرج هذا الحديث أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل، عن ابن مسعود رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) أخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن حبان، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي، كلاهما في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه=



واختلف الناس في الرُّوح المسؤول عنه، أي روح هو؟ فقالت فرقة هي الجمهور: وقع السؤال عن الأرواح التي في الأشخاص الحيوانية، ما هي؟ فالروح اسمُ جنس على هذا، وهذا هو الصواب، وهو المشكل الذي لا تفسير له. وقال قتادة: الرُّوح المسؤول عنه جبريل عليه السلام، قال: وكان ابن عباسٍ يكتمه. وقالت فرقة: هو عيسى بن مريم عليهما السلام، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مَلَك له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله لسانُه بكل تلك اللُّغات، فيُخلق من كل تسبيحة مَلَك يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة، ذكره الطبري. وما أظن القول يصحُّ عن علي رضي الله عنه. وقالت فرقة: الرُّوح القرآن، وهذه كلها أقوال مفسِّرة، والأول أظهرها وأصوبها.

وقوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ يحتمل تأويلين: أحدهما أن يكون «الأَمْرُ» اسم جنس للأُمُور، أي: الرُّوح من جملة أُمور الله التي استأثر بعلمها، فهي إضافة خلْق إلى خالق، والثاني أن يكون مصدراً، من أمر يأمُرُ، أي: الرُّوح مِمَّا أَمَرَ الله تعالى أَمْراً بالكَوْن فكان. وقرأ ابن مسعود، والأعمش: [وما أوتوا]، ورواها ابن مسعود عن النبي ﷺ، وقرأ الجمهور: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾.

واختلف فيمن خوطب بذلك ـ فقالت فرقة: السائلون فقط، ترجم الطبري بذلك، ثم أدخل تحت الترجمة عن قتادة أنهم اليهود. وقالت فرقة: المراد اليهود بجملتهم، وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود. وقالت فرقة: العالم كله، وهذا هو الصحيح؛ لأن قول الله تعالى له: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ إنما هو أمر بالقول لجميع العالم؛ إذ كذلك هي أقواله كلها، وعلى ذلك تمَّت الآية من مخاطبة الكل. ويحتمل أيضاً أن تكون مخاطبة من الله تعالى للنبي ﷺ ولجميع الناس. ويتَّصف ما عند جميع الناس من العلم بالقِلَّة بإضافته إلى علم الله عزَّ وجلَّ الذي هو بهذه الأمور التي عندنا من عِلْمها طرف يسير جدّاً، كما قال الخَضْر عليه السلام لموسى عليه السلام: «ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله إلاَّ كما نقص هذا العصفور من البحر»، وأراد الخَضْر علم الله بهذه

= فنزلت ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيراً، فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾.



الموجودات التي عند البشر من علمها طرف يسير جداً نِسْبَةً إلى ما يخفى عنهم، نِسْبة النقطة إلى البحر، وأمَّا عِلْم الله تبارك وتعالى على الإطلاق فغير مُتَنَاهٍ، ويحتمل أن يكون التجوز في قول الخَضْر عليه السلام: «كما نقص هذا العصفور»، أي: إنَّا لا ينقص عِلْمنا شيئاً من علم الله تعالى على الإطلاق، ثم مثَّل بنقرة العصفور في عدم النقص؛ إذ نقصه غير محسوس فكأنه معدوم، فهذا احتمال، ولكن فيه نظر، وقد قالت اليهود لرسول الله ﷺ: كيف لم نُؤت من العلم إلاَّ قليلاً وقد أُوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فعارضهم رسول الله ﷺ بعلم الله فَغُلِبوا، وقد نصَّ رسول الله ﷺ في بعض الأحاديث بقوله: (كُلاًّ). يعني أنَّ المراد بـ[أُوتِيتُمْ] جميع العالم، وذلك أن يهود قالت له: أنَحْنُ عنيت أم قومك؟ فقال: (كُلاًّ)[١]، وفي هذا المعنى نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ﴾[٢]، حكى ذلك الطبري رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية، آيةٌ فيها شدَّة على النبي ﷺ، وهي عتابٌ على قوله: (غداً أُعْلِمُكُمْ)، فأُمر أن يقول: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، فَيُذْعِن بالتسليم لله في أنه يُعْلِمُ بما شاء، ويُمْسك عن عباده ما شاء، ثم قيل له: وَما أُوتيتم يا محمد وجميع الخلائق من العلم إلاَّ قليلاً، فالله تعالى يُعْلِمُ من عِلْمِهِ بما شاءَ، ويَدَعُ ما شاءَ، ولئن شاءَ لذهب بالوحي الذي آتاك، ثم لا ناصر لك منه، فليس بعظيم ألاَّ تجيءَ بتفسير في الرُّوح الذي أردتَ تفسيره للناس ووعدتهم بذلك. وروى ابن مسعود أنه ستخرج ريح حمراءُ مِن قِبَلِ الشَّام فتزيل القرآن من المصاحف ومن الصدور، وتذهب به، ثم يتلو هذه الآية[٣].

---

(١) حكى الطبري عن عطاء بن يسار، قال: نزلت بمكة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فلما هاجر رسول الله ﷺ أتاه أحبارُ يهود، فقالوا: يا محمد، ألم يبلغنا أنَّكَ تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أفَعَنَيْتَنَا أم قومك؟ قال: كُلاًّ قد عَنَيتُ، قالوا: فإنَّكَ تتلو أنَّا أُوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيءٍ، فقال رسول الله ﷺ: هي في علم الله قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به انتفعتم، فأنزل الله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾... إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (لقمان).

(٣) أخرج هذا الخبر عن ابن مسعود عددٌ كبير من الرواة، وقد اختلفت الألفاظ باختلافهم، فقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي، وابن مردويه في شعب الإيمان، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: إنَّ هذا=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أراد ابن مسعود بتلاوة الآية أن يُبْدي أن الأمر جائز الوقوع ليظهر مصداق خبره من كتاب الله عزَّ وجلَّ. و«الوكيل»: القائم بالأمر في الانتصار أو المخاصمة ونحو ذلك من وجوه النفع.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحۡمَةً﴾ استثناءٌ منقطع، أي: لكن رحمةً من ربك يمسك ذلك عليك، وهذا الاستثناءُ المَنقطع يُخَصِّص تخصيصاً مَّا، وليس كالمتصل؛ لأن المتصل يُخَصِّص من الجنس أو الجملة، والمنقطع يُخَصص أجنبياً من ذلك، ولا ينكر وقوع المنقطع في القرآن إلاَّ أعجمي، وقد حُكي ذلك عن ابن خويز مقداد. ثم عدَّد عليه عزَّ وجلَّ كِبَرَ فضله في اختصاصه بالنبوَّة، وحمايته من المشركين، إلى غير ذلك مما لا يُحصى.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ الآية.

سبب هذه الآية أن جماعةً من قريش قالت لرسول الله ﷺ: يا محمد، جئنا بآية

= القرآن سيرفع، قيل: كيف يرفع وقد أثبته الله في قلوبنا، وأثبتناه في المصاحف؟، قال: يُسْرَى عليه في ليلة واحدة فلا يترك منه آية في قلب ولا مصحف إلا رفعت، فتصبحون وليس فيكم منه شيءٌ، ثم قرأ: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾. وأخرج ابن أبي داود، عن ابن مسعود رضي الله عنه نحوه، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي الله عنه نحوه. وقد ذكر الإمام السيوطي كل هذه الروايات في (الدُّرِّ المنثور). وقد ردَّ أبو سليمان الدمشقي صحة هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً)، وهو حديث أخرجه البخاري ومسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال بعض العلماء: وحديث ابن مسعود مروي من طرق حسان، فيحتمل أن يكون النبي ﷺ قد أراد بالعلم في حديث عبد الله بن عمرو ما سِوَى القرآن، أي: ينقرض العلم حتى يرفع القرآن في آخر الأمر، ويؤيدون ذلك بحديث رواه ابن ماجه عن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتَّى لا يُدْرَى ما صيامٌ ولا صلاة ولا نُسُك ولا صدقة، فيُسْرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة «لا إله إلا الله»، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيامٌ ولا نُسُك ولا صدقة. قال له صِلَة (أحد رجال سند الحديث). ما تُغني عنهم «لا إله إلا الله» وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردَّدَها ثلاثاً، كل ذلك يُعْرَض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه حذيفة فقال: يا صلة، تُنَجِّيهم من النار ثلاثاً. ومثل هذا أيضاً ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دويٌّ كدوي النحل، فيقول الله: ما بالك، فيقول: يا رب منك خرجت وإليك أعود، أُتلى فلا يُعمل بي، أُتلى ولا يُعْمل بي. وأخرج مثله محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

غريبة غير هذا القرآن فإنَّا نقْدِر نحن على المجيء بمثل هذا، فنزلت هذه الآية المصرِّحة بالتعجيز، المُعْلِمة بأن جميع الخلائق إنساً وجِناً لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه.

والعجز عن معارضة القرآن إنما وقع في النظم والرصف لمعانيه، وعلّة ذلك الإحاطة التي لا يتَّصف بها إلاَّ الله تعالى، والبَشَر مقصِّر ضرورة بالجهل والنسيان والغفلة وأنواع النقص، فإن نظم كلمة خفي عنه ـ لِلْعِلَل التي ذكرنا ـ أليق الكلام بها في المعنى، وقد ذكرتُ هذه المسألة في صدر هذا الديوان.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ في موضع رفع، و[لاَ] مُلْتقيةٌ قَسَماً، واللام في قوله تعالى: [لَئِنْ] مؤذنة غير لازمة، قد تحذف أحياناً، وقد تجيءُ هذه اللام مؤكدة فقط ويجيءُ الفعل المنفي مجزوماً، وهذا اعتمادٌ على الشرط، ومنه قول الأعشى:

لَئِـنْ مُنِيـتَ بِنَـا عَـنْ غِـبِّ مَعْـرَكَـةٍ ... لاَ تُلْفِنَـا عـنْ دِمـاءِ الْقَـوْم نَنْتَفِـلُ[1]

و«الظَّهِيرُ»: المُعِينُ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾[2] الآية.

---

(١) هذا البيت من قصيدة الأعشى المشهورة التي قالها ليزيد بن مسهر أبي ثابت الشيباني، والتي يقول في مطلعها:

وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إنَّ الـرَّكْـبَ مُـرْتَحِـلُ ... وَهَـلْ تُطِيـقُ وَدَاعـاً أيُّهَـا الـرَّجُـلُ؟

والتي يخاطبه فيها قائلا في معنى هذا البيت: إنَّنا لا نَمل القتال ولا نركن إلى الراحة، ولو كان من قدرك أن تُبْتَلَى بنا في أعقاب معركة طاحنة خضناها فلن تجد منَّا وهناً ولا ضعفاً، بل وجدت فينا قوة على القتال وصبراً وجلداً. ومُنيت: أُصبتَ أو رُميتَ، وغِبّ: بَعْد أو عَقِب، نَنْتَفِلُ: نتبرأ، يقال: انتَفَل من القوم بمعنى: ابتعد عن نصرتهم ومعوتهم.

والبيت شاهد عند النحويِّين على أنه يجوز في الشِّعر ـ بِقِلةٍ ـ أن يكون الجواب للشرط إذا اجتمع مع القَسَم وتأخر عنه، فإن لام (لَئِن) هنا موطئة للقسم، وقول الشاعر: (لا تُلْفِنَا) هو جواب للشرط لا للقسم، بدليل الجزم، ولو كان جواباً للقسم لما جاء مجزوماً، وقد قال بعض النحويين: إن اللام في (لَئِن) زائدة، وابن عطية من هذا الرأي، وعليه أيضاً ابن هشام في المغني، قال: وهذا كقول الآخر:

لَئِـنْ كَـانَـتِ الـدُّنْيَـا عَلَـيَّ كَمَـا أرَى ... تَبَـارِيـحَ مِـنْ لَيْلَـى فَلَلْمَـوْتُ أرْوَحُ

فإن الشرط قد أُجيب بجملة مقرونة بالفاء، ولو كانت اللام موطئةً للقسم لم يُجب إلا القسم. والخلاف طويل، ولكلٍّ حجته، فليرجع إلى الموضوع في كتب النحو وشاهده، كالخزانة، والمغني، والأشموني وشروحه.

(٢) من الآية (٤) من سورة (التحريم).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفَهِمت العربُ بخلوص فَهْمها في مَيْز الكلام ودُرْبتها به مالا نفهمه نحن ولا كل من خالطته حضارة، ففهموا العجز عنه ضرورةً ومُشاهدةً، وعَلِمَه الناسُ بعدهم استدلالاً ونظراً، ولكلٍّ حصل علمٌ قطعي لكن ليس في مرتبة واحدة، وهذا كما علمت الصحابةُ شَرْعَ النبي عليه الصلاة والسلام وأعمالَه مشاهدةً عِلْمَ ضرورة، وعلمنا نحنُ المتواتِرَ من ذلك بنقل التَّواتر، فحصل للجميع القَطْعُ، لكن في مرتبتين، وفَهِم إعجازَ القرآن أربابُ الفصاحة الذين لهم غرائب في مَيْز الكلام. ألا ترى إلى فَهْم الفرزدق شعْرَ جرير في شعر ذل الرُّمَّة في قوله:

يَعُــدُّ النَّــاسِبُــون إلــى تَمِيــمٍ . . . .[1]

الأبيات كلها. وألا ترى قصة جرير في تواردِه مع الفرزدق في قول الفرزدق:

عَــلاَمَ تَلَفَّتِيــنَ. . . . .

(١) تروي كُتُب الأدب أن جرير بن عطية الشاعر المشهور مَرَّ ذات يوم على ذي الرُّمة، فقال له: يا غيلان، أنشدني ما قُلْتَ في المَرَئِيِّ (وهو شاعرٌ عرف بهذا الاسم)، فأنشده:

نَبَــتْ عَيْنَــاكَ عَــنْ طَلَــلٍ بِحُــزْوَى ... عَفَتْــهُ الــرِّيــحُ وامْتُنِــحَ الْقِطَــارَا

ومنها:

إذَا الْمَــرَئِــيُّ شَــبَّ لَــهُ بَنَــاتٌ ... عَقَــدْنَ بِــرَاسِــهِ إبَّــةً وَعَــارَا

فقال جرير: ألا أُعينُكَ؟ قالَ: بَلَى، بأبي وأُمِّي، فقال جرير:

يَعُــدُّ النــاسبــونَ إلــى تَمِيــمٍ ... بُيُــوتَ المَجْــدِ أَرْبَعَــةً كِبَــارَا
يَعُــدونَ الــرِّبَــابَ وآلَ سَعْــدٍ ... وعَمْــراً ثُــمَّ حَنْظَلَــةَ ٱلْخِيَــارَا
ويَهْلِــكَ وَسْطَهَــا الْمَــرَئِــيُّ لَغْــواً ... كَمَــا ٱلْغَيْــتَ فــي الــدِّيَــةِ ٱلْحُــوَارَا

قالوا: فَمَرَّ ذو الرُّمة بعد ذلك بالفرزدق، فقال له: أنشدني ما قلت في المَرَئِيِّ، فأنشده القصيدة، فلما انتهى إلى هذه الأبيات، قال الفرزدق: حَسٌّ، أعِدْ عَلَيَّ! فأعاد، فقال: «تالله لقد عَلَكَهُنَّ أشَدُّ لَحْيَيْنِ مِنْكَ».

وابن عطية يشير إلى هذه القصة، ويريد أن يقول: إن الفرزدق بغريزته وفطرته فهم أن هذه الأبيات ليست من شعر ذي الرُّمة، وإنما هي من شعر جرير، ولهذا قال له: لقد عَلَكَهُنَّ (أيْ: أدار هذه الكلمات في فمه)، والمعنى: لقد أنشأها من هُوَ أشَدُّ منك قدرة على قول الشعر، وهو جرير، وهذا هو الفهم بالفطرة، وهو معرفة أسرار البلاغة في الكلام عن ضرورة ومشاهدة.



وفي قوله:

تَلَفَّتُ أَنَّهَا تَحْتَ ابْنِ قَيْنِ . . . .(١)

وألا ترى قول الأعرابي: «عزَّ فحكم فقطع»؟ وألا ترى إلى الاستدلال الآخر على البعث بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾(٢)، فقال: إن الزيارة تقتضي الانصراف.

ومنه علم بشار بقول أبي عمرو بن العلاء في شعر الأعشى:

وأَنْكَرَتْني وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ . . . .(٣)

---

(١) يشير ابن عطية بهذا إلى أبيات من الشِّعر قالها كلٌّ من الفرزدق وجرير في خبر روته عنهما كتب الأدب، وفيه دليل على أن الفطرة هي التي هدتهم إلى معرفة أسرار البلاغة في الكلام، ولهذا عرفوها وفهموها ضرورة، وفهموا وعرفوا أن القرآن فوق مستواهم، وأن عجزهم عنه ضرورة وخبرة وإحساس، والخبر يقول:

خرج جرير والفرزدق مُرْتَدِفَيْنِ على ناقة إلى هشام بن عبد الملك، فنزل جرير يَبُول، فجعلت الناقة تحت الفرزدق تَتَلَفَّت، فضربها الفرزدق وقال:

عَلَامَ تَلَفَّتِينَ وَأَنْتِ تَحْتي ... وخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمُ أَمَامِي؟

مَتَى تَرِدِي الرُّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي ... مِنَ التَهْجِيرِ والدَّبَرِ الدَّوَامِي

ثم قال لنفسه: الآن يجيءُ جرير، فأنشدُه هذين البيتين، فَيَرُدُّ علي ويقول:

تَلَفَّتُ أنهَا تَحْتَ ابْنِ قَيْنِ ... إلى الكِيرَيْنِ والفَأْسِ الكَهَامِ

مَتَى تَرِدِ الرُّصَافَةَ تَخْزَ فِيهَا ... كَخِزْيِكَ في المَوَاسِمِ كُلَّ عَامِ

ثم جاء جرير والفرزدق يضحك، فقال له: ما يُضْحِكك يا أبا فراس؟، قال: لقد قلتُ بيتين، وأنشده ببيتين: (عَلامَ تَلَفَّتين. . .)، فقال جرير: وأنا أقول: (تَلَفَّتُ أنهَا. . .) كما قال الفرزدق سواءً، فقال الفرزدق: والله لقد قلتُ هذين البيتين قبلك، قال جرير: أما علمتَ أن شيطاننا واحد؟

(٢) من الآية (٢) من سورة (التكاثر)، وابن عطية يشير إلى قصة أعرابي سمع هذه الآية فقال: «بُعِثَ القومُ للقيامة وربِّ الكعبة، فإن الزائر منصرف لا مقيم»، وهذا مبني على تأويل ذكره بعض المفسرين، يقولون: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ معناه: حتى مُتُّم وجئتموها زائرين، ثم ستنصرفون عن هذه القبور إلى بيوتكم الدائمة، إما إلى الجنة، وإما إلى النار، والتعبير بالزيارة يُعطي معنى الانصراف عنها إلى المقر الدائم للإنسان.

(٣) هذا صدر بيت هو ثاني قصيدة قالها الأعشى يمدح هَوْذَةَ بن علي الحنفي، قال:

بَانَتْ سُعَادُ وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْقَطَعَا ... وَاحْتَلَّتِ الغَمْرَ فَالْجُدَّيْنِ فَالْفَرَعَا

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ الحَوَادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا

والبيت في اللسان (نكر)، قال: «أَنكرتُ الشيءَ وأنا أُنكِرُه إنكاراً، نكِرْتُه مِثْلُه. قال الأعشى: =

ومنه قول الأعرابي للأصمعي:

مَن أحْوَجَ الكريم إلى أن يقسم؟

ومن فهمهم أنهم ببدائههم يلقون بكلمة منثورة تفضُل المُنَقَّح من الشعر، وأمثلة ذلك محفوظة، ومن ذلك أجْوبتُهم المُسْكتة، إلى غير ذلك من براعتهم في الفصاحة وكونهم فيها النهاية، كما كان السِّحر في زمن موسى عليه السلام، والطب في زمن عيسى عليه السلام، فهم مع هذه الأفهام أقَرُّوا بالعجز، ولجأ المُحَادُّ[1] منهم إلى السيف، ورضي بالقتل والسباء وكشف الحُرَم، وهو كان يجد المندوحة عن ذلك بالمعارضة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكذلك التحدي بالعشر السُّور، والتحدي بالسُّورة، إنما وقع كله على حدٍّ واحد في النظم خاصة، وقيَّد العشر بالافتراء[2] لأنهم قالوا: إن القرآن مفترى، فدعاهم بعقب ذلك إلى الإتيان بعشر سُوَر مفتريات، ولم يذكر الافتراء في السُّورة لأنهم لم يجر عنهم

= وأنكرتني... البيت»، ومن نفس المعنى قوله تعالى: ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

ومما يروى عن بيت الأعشى أن الخليل بن أحمد خرج مع صديق له يكنى أبا المُعَلَّى، وكان شديد الصَّلَع، ثم مرت بهما امرأة ومعها بنات لها، فأراد أبو المعَلَّى أن يكلمها فنهاه الخليل فلم ينته، وقال لها: يا أمَةَ اللهِ، ألَكِ زوج؟ قالت: لا، ولا لواحدة منا، قال: فهل لكن في أزواج؟ قالت: وَدِدْنا والله، قال: فأنا أتزوجك، ويتزوج هذا إحدى بناتك، قالت له: لقد ابتلاك الله بأن قَرَعَ رأسك بمسحاة، وجعل لك عِقْصَةً بيضاءَ في قفاك، وبلغ من جهلك أنك خضبتها بحمرة، فلو كنت خَضَبْتَ بسواد لغطيت عوارك وأظنك من رهط الأعشى، الذي قال: وأنكرتني... البيت. وهكذا لم يَسْلَم هو والخليل من طول لسانها.

أما ما ذكره ابن عطية من فهم بشار وعلمه بقول أبي العلاء في شعر الأعشى فقد أورده الأصفهاني في الأغاني، قال: «حدثني أبو عبيدة: قال: سمعت بشاراً يقول وقد أُنشد في شعر الأعشى: (وأنكرتني وما كان الذي نكرت) البيت: هذا بيتٌ مصنوعٌ ما يُشْبه كلام الأعشى، فعجبت لذلك، فلما كان بعد هذا بعَشر سنين كنتُ جالساً عند يونس فقال: حدثني أبو عَمرو بن العلاء أنه صنع وأدخله في شعر الأعشى، فجعَلْتُ حينئذ أزدادُ عجباً من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر».

(١) المُحَادُّ: المخالف المعاند، من المُحَادَّة، وهي العِنَاد والمخالفة.

(٢) وذلك في قوله تعالى في الآية (١٣) من سورة (هود): ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾.

ذكر ذلك قَبْلُ، بل قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾(١)، على أنه قد جاء ذكر السُّورة مع ذكرهم الافتراء في سورة هود، وقد اختلف الناس في هذا الموضع ـ فقيل: دُعُوا إلى السورة المماثلة في النظم والغيوب وغير ذلك من الأوصاف، وكان ذلك من تكليف مالا يطاق، فلما عسر عليهم خُفِّفَ بالدعوة إلى المفتريات، وقيل غير هذا مما ينحلُّ عند تحصيله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾.

هذه آية تنبيه على فضل الله تعالى في القرآن على العالم، وتوبيخ للكفار منهم على قبيح فعلهم. و«تَصْرِيف القول» هو ترديد البيان عن المعنى. وقرأ الجمهور: [صَرَّفْنَا] بتشديد الراء، وقرأ الحسن: [صرَفْنَا] بفتح الراء خفيفة.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يجوز أن تكون [مِنْ] لابتداء الغاية، ويكون المفعول بـ[صَرَّفْنَا] مقدراً، تقديره: ولقد صرَّفنا في هذا القرآن التنبيه والعِبَرَ من كل مثل ضربناه، ويجوز أن تكون مؤكدة زائدة، والتقدير: ولقد صرَّفنا كلَّ مثل، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾(٢).

وقوله تعالى: [فَأَبَى] عبارة عن تكسُّب الكفار الكفر، وإعراضهم عن الإيمان، وفي العبارة بـ[أَبَى] تغليظ، والكفر بالخلق والاختراع هو من فعل الله تعالى، وبالتَّكَسُّب والدُّءُوب هو من الإنسان. و[كُفُوراً] مصدر كالخروج.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ الآية. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [حتى تُفَجِّرَ لنا](٣)، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ بفتح التاء

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (البقرة).

(٢) من الآية (١٢٥) من سورة (البقرة). وهي مثلها في أن [مِنْ] زائدة، والتقدير: واتخذوا مَقامَ إبراهيم مُصَلى.

(٣) بضم التاء وفتح الفاء وتشديد الجيم مع الكسرة. وهي تدلُّ على كثرة الانفجار من الينبوع، وقراءة التخفيف تتجه إلى أن الينبوع واحد.



وضم الجيم، وفي القرآن [فَانْفَجَرَتْ][١]، وانْفَجَرَ مطاوع فَجَرَ، فهذا ممَّا يقوي القراءة الثانية، وأمَّا الأولى فتقتضي المبالغة في التفجير. و«الينبوع»: الماءُ النابع، وهي صفة مبالغة إنما تقع للماء الكثير.

وطلبت قريش هذا من رسول الله ﷺ بمكَّة، وإيَّاها عنوا بـ[ٱلْأَرْضِ]، وإنما يراد بإطلاق لفظة الأرض هنا الأرضُ التي يكون فيها المعنى المتكلم فيه، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾[٢]، فإنما يُرادُ: من أرض تصرُّفهم وقطعهم السُّبل ومعاشهم، وكذلك أيضاً اقتراحهم بالجنَّة إنما هو بمكة لامتناع ذلك فيها، وإلاَّ ففي سائر البلاد كان ذلك يمكنه، وإنما طالبوه بأمر إلهي في ذلك الموضع الجدب. وقرأ الجمهور: (جَنَّةٌ). وقرىء: [حبة]، ذكره المهدوي. وقوله تعالى: [فَتُفَجِّرَ] تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية، كقوله سبحانه: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾[٣]، و[خِلَالَهَا] ظرف، ومعناه: أثناءَها وفي داخلها.

ورُوي في قول هذه المقالة لرسول الله ﷺ حديث طويل، مقتضاه أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وعَبْد الله بن أبي أُمية، والنضْر بن الحارث، وغيرهم من مشيخة قريش وساداتها اجتمعوا فعرضوا عليه أن يُمَلِّكوه ـ إن أراد ـ المُلْك، ويجمعوا له كثيراً من المال إن أراد الغنى، أو يُطبُّوه إن كان به داءٌ، ونحو هذا من الأقاويل، فدعاهم رسول الله ﷺ عند ذلك إلى الله، وقال: إنما جئتكم من عند الله بأمر فيه صلاح دينكم ودنياكم، فإن سمعتم وأطعتم فحسن، وإلاَّ صبرت لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم بما شاء، فقالوا له حينئذ: فإن كان ما تزعمه حقّاً فَفَجِّر ينبوعاً ونؤمن لك، ولتكن لك جنة، إلى غير ذلك مما كلفوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: هذا كله إلى الله، ولا يلزمني اقتراح هذا ولا غيره، وإنما أنا مستسلم لأمر الله تعالى[٤].

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٦٠) من سورة (البقرة): ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾.

(٢) من الآية (٣٣) من سورة (المائدة).

(٣) من الآية (٢٣) من سورة (يوسف).

(٤) الحديث طويل، وهو بنصه الطويل في تفسير الطبري، والقرطبي، وفي الدر المنثور، وتفسير ابن كثير، وقد أخرجه ابن جرير، وابن إسحق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي الألفاظ اختلاف باختلاف الروايات كما قال المؤلف رحمه الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا هو معنى الحديث، وفي الألفاظ اختلاف وروايات متشعبة يطول سَوْقُ جميعها، فاختصرتُ لذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ الآية. قرأ الجمهور: ﴿أَوْ تُسْقِطَ﴾ بضم التاء ﴿ٱلسَّمَاء﴾ بالنصب، وقرأ مجاهد: [أو تَسْقُطَ السماءُ] برفع «ٱلسَّمَاءِ» وإسناد الفعل إليها. وقوله: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ إشارة إلى ما تَلا عليهم قبل ذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1]. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [كِسْفاً] بسكون السين، إلاَّ في الرُّوم[2] فإنهم حرَّكوها، ومعناها: قطعاً واحداً، قال مجاهد: السماء جميعاً، وتقول العرب: «كَسَفْتُ الثَّوْبَ» ونحوه: قطعته، فالكِسَف ـ بفتح السين ـ المصدر، والكِسْف: الشيءُ المقطوع، قال الزجاج: المعنى: أَوْ تُسقط السماءَ علينا طبَقاً، واشتقاقه من: كَسَفْتُ الشيء إذا غَطَّيْتَهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس بمعروف في دواوين اللغة (كَسفَ) بمعنى (غَطَّى)، وإنما هو بمعنى (قَطعَ)، وكأن كسوف الشمس والقمر قطع منهما، وقرأ نافع، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ[3] [كِسَفاً] بفتح السِّين، أي: قطعاً، جمع (كِسْفَة).

وقوله: [قَبِيلاً] معناه: مقابلةً وعياناً، وقيل: معناه: ضامناً وزعيماً بتصديقك، ومنه القَبالة، وهي الضمان، والقَبيلُ: المُتَقَبِّلُ الضامن، وقيل: معناه: نوعاً وجنساً لا نظير له عندنا. وقرأ الأعرج: [قُبُلاً] وهو بمعنى المقابلة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ

---

(١) من الآية (٩) من سورة (سبأ).

(٢) في قوله تعالى في الآية (٤٨): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾.

(٣) وهي أيضاً قراءة عاصم في رواية حفص كما هو ثابت في المصحف، فلا مبرِّر لهذا التخصيص.

ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

قال المفسرون: «الزُّخْرُف»: الذهب في هذا الموضع، والزخرف: ما تُزَيِّن به، كان بذهب أو غيره، ومنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾[1]، وفي قراءة عبد الله بن مسعود«أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ». وقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: في الهواءِ عُلُوّاً، والعربُ تسمِّي الهواءَ علوّاً سماءً، لأنه في حيِّز السُّمُوِّ، ويحتمل أن يريد السماء المعروفة، وهو الظاهر؛ لأنه أعلمهم أنَّ إله الخَلْق فيها[2]، وأنه يأتيه خبرها. و[تَرْقَى] معناه: تصعد، والرُّقِيُّ: الصعود.

ويُرْوى أن قائل هذه المقالة هو عبد الله بن أبي أُمية، فإنه قال لرسول الله ﷺ: إنا لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب ـ أراد هنا كِتابَه[3] ـ فيه: من الله عزَّ وجلَّ إلى عبد الله بن أبي أُمية. ورُوي أن جماعتهم طلبت هذا النحو منه، فأمره الله تعالى أن يقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾، أي: تنزيهاً له من الإتيان إليكم مع الملائكة قبيلاً، ومن أن يخاطبكم بكتاب كما أردتم، ومن أن أقترح عليه هذه الآشياء، وهل أنا إلاَّ بشر منكم أُرسلتُ إليكم بالشريعة، فإنما عليَّ التبليغ فقط. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: [قال سبحان ربي]، على معنى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه سبَّح عند قولهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾. هذه الآية على معنى التوبيخ والتَّلَهُّف من النبي ﷺ، كأنه يقول متعجباً منهم: ما شاء الله كان، ما منع الناس أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهدى إلاَّ هذه العلَّةُ النزرة[4] واستبعاد الذي لا يستند إلى حجَّة، وبعثةُ الْبَشَر رُسُلاً غير بدع ولا غريب، فَبِهَا يقع الإفهامُ والتمكنُ من النظر، كما لو كان في الأرض ملائكةٌ يسكنونها [مطْمَئِنِّينَ] أي: وادعين فيها مُقيمين لكان الرسول إليهم من الملائكة، لِيقَع الإفهام، وأمَّا البَشَر فلو بُعث إليهم مَلَك لنفرت طبائعهم من رؤيته، ولم تحتمله أبصارهم، ولا تجلَّدت له قلوبهم، وإنما الله أجرى أحوالهم على معتادها.

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (يونس).

(٢) هكذا في الأصول، والله سبحانه وتعالى في كل مكان.

(٣) لأنهم في بعض الروايات طلبوا كتاباً لكل واحد باسمه، كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾.

(٤) التافهة.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾.

رُوي أن الملأ من قريش قالوا لرسول الله ﷺ المقالات التي تقدم ذكرها، من عرض المُلْك عليه والغنى وغير ذلك، وقالوا له في آخر قولهم: فَلْتَجِيْ معك طائفة من الملائكة تشهد لك بصدقك في نبوتك. قال المهدوي: رُوي أنهم قالوا له: فمن يشهد لك؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى أقوالهم إنما هو طلب شهادة دون أن يذكروها، ففي ذلك نزلت هذه الآية، أي: الله يشهد بيني وبينكم، الذي له الخبر والبصر بجميعنا، صادقنا وكاذِبنا. ثم ردَّ الأمر إلى خلق الله واختراعه الهدى والضلال في قلوب البشر، أي: ليس بيدي من أمركم أكثر من التبليغ، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ وعيدٌ.

ثم أخبر تعالى أنهم يحشرون على الوجوه عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً، وهذا قد اخْتُلِف فيه ـ فقيل: هي استعارات، إمَّا لأنهم من الحيرة والهَمِّ والذهول يشبهون أصحاب هذه الصفات، وإمَّا من حيث لا يرون ما يسرهم، ولا يسمعون، ولا ينطقون بحجَّة. وقيل: هي حقيقة كلها، وذلك عند قيامهم من قبورهم، ثم يردُّ الله تعالى إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم، فعند ردِّ ذلك إليهم يرون النار، ويسمعون زفيرها، ويتكلمون بكل ما حكي عنهم في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقال للمنصرف عن أمرٍ خائباً مهموماً: انْصَرَفَ على وجهه، ويقال لِلْبَعِير: كأنما يمشي على وجهه، ومَنْ قال ذَلِكَ في الآية حقيقةً قال: أقدرهم الله تعالى على النُّقلة على الوجوه كما أقدرهم في الدنيا على النقلة على الأقدام، وفي هذا المعنى حديثٌ، قيل: يا رسول الله، كيف يمشي الكافر على وجهه؟ قال: (أليس الذي أمشاه في الدنيا

على رجلين قادر أن يمشيه في الآخرة على وجهه)؟[١] قال قتادة: بلى وعزَّة ربنا.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي: كلما فرغت من إحراقهم، فيسكن اللهيب القائِمُ عليهم قدر ما يعادون ثم يثور، فتلك زيادة السعير، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالزيادة في حَيِّزهم، وأما جهنم فعلى حالها من الشِّدَّة لا يصيبها فتور. و«خَبَت النَّارُ» معناه: سكن اللهبُ والجمر على حاله، و«خَمَدَت» معناه: سكن الجمر وضعف، و«همدت» معناه: طفيت جملة، ومن هذه اللَّفظة قول الشاعر:

لِمَـــنْ نَـــارٌ قُبَيْـــلَ الصُّبْـ ـــحِ عِنْـدَ الْبَيْـتِ مـا تَخْبُـو
إذا مـــا أُخْمِـــدَتْ يُلْقَـــى عَلَيْهَــا الْمَنْــدَلُ الــرَّطْــبُ؟[٢]

ومنه قول عدِيِّ بن زيد:

وَسْطُـهُ كَـالْيَـرَاعِ أَوْ سُـرُجِ المِجْـ ـدَلِ حينـاً يَخْبُـو وحينـاً يُنِيـرُ[٣]

---

(١) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن أنس رضي الله عنه. ولفظه كما ذكره في الدر المنثور: قال: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناسُ على وجههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم. وأخرج ابن جرير مثله عن الحسن رضي الله عنه، وأخرج مثله أبو داود، والترمذي وحسَّنه، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي أوله زيادة على ما هنا جاء فيها: قال رسول الله ﷺ: (يحشر الناسُ يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم، قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجههم... الحديث).

(٢) البيتان في اللسان (ندل)، وقد نسبهما إلى عمر بن أبي ربيعة، وهما أيضاً بالديوان (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب) وقد صدرت سنة ١٩٧٨، واعتمدت على أكثر الطبعات السابقة، وأشارت في الهامش إلى أن البيتين من الشعر المنسوب إلى عمر. ورواية البيت الثاني في اللسان والديوان: (إذا ما أُوقِدَتْ). والشاهد هنا أن (أُخمدت) من لفظ: «خَمَدت النار» بمعنى: سكن الجمر وضعف. والمَنْدَل: العود الرَّطْبُ الذي يُتَبَخر به، وهو المَنْدَلِي، نُسب إلى بلد بالهند اسمُها مَنْدل، وقد استعملت هذه الكلمة في بيت كثير الذي يقول:

بِـأَطْيَـبَ مِـن أرْدَانِ عَـزَّةَ مَـوْهِنـاً وَقَدْ أُوقِـدَتْ بـالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نـارُهَـا

(٣) البيت لعديِّ بن زيد العابدي، وهو في تفسير الطبري، والبحر المحيط. قال محقق الطبري: «وهو مما كتب به إلى النعمان، وهو من غُرر قصائده». واليراعُ كما قال في اللسان (يرع): «اليراعُ كالبعوض=



ومنه قول القطامي:

. . . . فَيَخْبُـو سَـاعَـةً ويَهُـبُّ سَـاعَـا[١]

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾، الآية إشارة إلى الوعيد المتقدم بجهنم. وقوله: [بِآيَاتِنَا] يعُمُّ الدلائل والحُجَج التي جاء بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويَعُمُّ آيات القرآن الكريم وما تضمَّن من خبر وأمر ونهي. ثم عظم عليهم أمر إنكار البعث، وخصَّه بالذكر مع كونه في عموم الكفر بآيات القرآن الكريم، وَوَجْهُ تخصيصه التعظيم له، والتنبيه على خطارة[٢] الكفر في إنكاره، وقد تقدم اختلاف القراء في الاستفهامين في غير هذا الموضع.

و«الرُّفاتُ»: بقية الشيء التي قد أصارها البِلَى إلى حالة التراب، و«الْبَعْثُ»: تحريك الشيء الساكن، وهذا الاستفهام منهم على جهة الإنكار والاستبعاد لِلْمُحال بزعمهم.

= يغشى الوجهَ؛ واحدتُه يراعة. واليَرَاعُ: فراشةٌ إذا طارت في الليل لم يشك من لم يعرفها أنها شرارةٌ طارت عن نار، قال عمرو بن بحر: نارُ اليراعة قيل: هي نار حُبَاحِبٍ، وهي شبيهة بنار البرق. قال: واليراعة طائر صغير، إن طار بالنهار كان كبعض الطير، وإن طار بالليل كان كأنه شهاب قُذف أو مصباحٌ يطير». والمِجْدَل بكسر الميم وسكون الجيم: القَصْر المشرف، لوثاقة بنائه، قال في اللسان: «وجمعه مجادل»، وقال الأعشى:

فـي مِجْـدَلٍ شُـيِّدَ بُنْيَـانُـهُ ... يَـزِل عَنْـهُ ظُفُـرُ الطـائـرِ

والشاهد هنا هو استعمال الفعل (يَخْبُو) بمعنى: تَسْكُن ناره وتضعف.

(١) هذا عجز بيت، والبيت بتمامه:

وكُنـا كـالْحَـرِيـقِ أَصَـابَ غَـابَـا ... فَيَخْبُـو سَـاعَـةً ويَهُـبُّ سَـاعَـا

وهو في الديوان، وفي اللسان (سوع). قال: «الساعة جزءٌ من أجزاء الليل والنهار، والجمع ساعاتٌ وساعٌ، قال القطامي: وكنا كالحريق لَدَى كفاحٍ . . . البيت»، ثم نقل عن ابن بري أن المشهور في صدر البيت: «كنا كالحريق أصاب غابا». وقد استشهد في (مجاز القرآن) أيضاً بعَجُز هذا البيت، قال: «خَبَتْ: سكنت، ثم أنشد العَجُز» وقال: «ولم يذكر هاهنا جلودهم فيكون الخُبُوُّ لها». والقطامي بفتح القاف وضمها: لقب غلب على الشاعر، وهو اسم من أسماء الصَّقْر، معناه: المحدِّد البصر إلى الصيد. والاسم الأصلي للشاعر هو عُمَيْر بن شُيَيْم بن عمرو، وهو من بني تغلب، وخاله هو الأخطل التغلبي الشهير.

(٢) هكذا في الأصول.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

هذه الآية احتجاج عليهم فيما استبعدوه من البعث، وذلك أنهم قُرِّروا على خلق الله واختراعه لهذه الجملة التي البشر جزءٌ منها، فهم لا ينكرون ذلك، فكيف يصح لهم أن يُقرُّوا بخلقه للكل وإخراجه من خمول العدم وينكرون إعادته للبعض؟ فحصل الأمر في حيِّز الجواز. وأخبر الصادق الذي قامت دلائل معجزاته بوقوع ذلك الجائز. والرؤية في هذه الآية رؤيةالقلب، و«الأجلُ» هاهنا يحتمل أن يريد القيامة، ويحتمل أن يريد أجل الموت، والأَجلُ ـ على هذا التأويل ـ اسم جنس؛ لأنه وضعه موضع الآجال. ومقصد هذا الكلام بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ وملكه لخلقه، وبتقدير ذلك يقوى جواز بعثه لهم حين يشاء لا إله إلاَّ هو. وقوله تعالى: [فَأَبَىٰ] عبارة عن تكسُّبهم وجنوحهم، وقد مضى تفسير هذه الآية آنفاً.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ الآية. حكم (لَوْ) أن يليها الفعلُ، إمَّا مُظهراً وإمَّا مضمراً يفسره الظاهر بعد ذلك، فالتقدير هنا: قل لو تملكون أنتم تملكون خزائن، فـ[أَنتُمْ] رفع على تبع الضمير(١). و«الرَّحْمَةُ» في هذه الآية: المالُ والنعم التي تصرف في الأرزاق، ومن هذا سميت رحمة. و«الإنْفَاقُ» المعروف: إذهابُ المال. وهو مؤدٍّ إلى الفقر، فكأن المعنى: خشيةَ عاقبة الإنفاق. وقال بعض اللغويِّين: «أنفق الرجلُ» معناه: افتقر.

---

(١) يتفق ابن عطية في هذا مع الزمخشري، وأبي البقاء، والحوفي. لكن هذا يخالف مذهب البصريين، قال ابن عصفور: «لا يَلي (لو) إلا الفعل ظاهراً، ولا يليها مضمراً إلا في ضرورة أو نادِرِ كلام، مثل ما جاء في المثل من قولهم: (لَوْ ذاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْني». وقال ابن الصائغ: «البصريون يصرحون بامتناع (لو زيدٌ قام لأكرمته) على الفصيح، ويجيزونه شاذاً، كقولهم: (لوْ ذاتُ سوار لطمتني)، وهو عندهم على فعل مضمر، وهو من باب الاشتغال، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾. وخرَّجه أبو الحسن عليُّ بن فضال المجاشعي على إضمار (كان)، والتقدير: «قلْ لو كنتم أنتم تملكون»، على خلاف في حذف (كان) وحدها، أو حذفها مع الضمير (كنتم). ويميل أبو حيان إلى حذف (كان) وانفصال الضمير المرفوع، وقال: إن حذف (كان) بعد (لو) معهود في لسان العرب.



وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ معناه: مُمسكاً، يريد أن في طبعه ومُنتهىٰ نظره أن الأشياء تتناهى وتفنى، فهو لو مَلَكَ خزائن رحمة الله تعالى لأمسك خشية الفقر، وكذلك يظن أن قدرة الله تبارك وتعالى تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تتناهى، فهو يخترع من الخلق ما يشاءُ، ويختزن من الرحمة الأرزاق، فلا يخاف نفاذ خزائن رحمته، وبهذا النظر تلتبس هذه الآية بما قبلها، والله وليُّ التوفيق برحمته، ومن الإقتار قول أبي دُوَاد:

لا أَعُدُّ الإقْتَارَ عُدْماً وَلَكِنْ فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُه الإعْدَامُ[1]

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾. اتفق المتأولون والرواة أن الآيات الخمس التي في سورة الأعراف هي من بين هذه التِّسع، وهي: الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم. واختلفوا في الأربع ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي يَدُه، ولسانُه حين انحلَّت عقدتُه، وعصاه، والبحر. وقال محمد بن كعب القرظي: هي: البحر، والعصا، والطَّمْسة، والحجَر، وقال: سألني عن ذلك عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فأخبرته، فقال: وما الطَّمْسَةُ؟ فقلت: دعا موسى وأمَّن هارون عليهما السلام، فطمس الله أموالهم وردَّها حجارة. فقال عمر: وهل يكون الفقه إلاَّ هكذا؟ ثم دعا بخريطة فيها غرائب كانت لعبد العزيز بن مروان جمعها بمصر، فاستخرج منها الحوزة والبيضة والعدسة، وهي كلها أحجار كانت من بقايا أموال فرعون، وقال الضحاك: هي إلقاءُ العصاء مَرَّتين، واليد، وعُقدة لسانه. وقال عِكْرمة، ومطر الورَّاق، والشعبي: هي العصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات. وقال الحسن: هي العصا في كونها ثعباناً، واليد، والسنون، وتلقف العصا ما يأفكون. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي السنون في بواديهم، ونقص الثمرات في قراهم،

---

(١) أبو دُوَاد (بواوٍ غير مهموزة، بعدها ألف، وقد همزت في كثير من الكتب مثل الشعر والشعراء). واسمه جارية بن الحجاج، وقيل: حنظلة بن الشرقي، والأول أصح. والبيت من قصيدة مشهورة.، وهي الأصمعية (٦٥)، ومنها مختارات في الشعر والشعراء، والإقْتارُ: قلة المال وضيق العيش، وهو الشاهد هنا، والعُدْمُ والإعْدَامُ: الفَقْرُ. يقول: لا أعتبر قلة المال فقراً، إنما الفقر الحقيقي هو فقد الكرام من الرجال. قيل للحطيئة: من أشعر الناس؟ قال الذي يقول: (لا أعُدُّ الإقْتارَ عُدْماً... البيت). ثم يصف الشاعر هؤلاء الرجال بالشجاعة والسماحة ورجاحة العقول، إلى أن يقول:

فَعَلَى إثْرِهِمْ تَسَاقَطُ نَفْسِي حَسَرَاتٍ وَذِكْرُهُمْ لِي سَقَامُ



واليد، والعصا. وروى مصرف عن مالك أنها العصا، واليد، والجبل إذ نتق، والبحر. وروى ابن وهب عنه مكان البحر الحَجَر، والذي يلزم من الآية أن الله تعالى خصَّ من آيات موسى ـ إذْ هي كثيرة تنيف على أربع وعشرين ـ تسعاً بالذكْر، ووصفها بالبيان ولم يعيّنها، واختلف العلماءُ في تعيينها بحسب اجتهادهم في بيانها، أو رواياتهم التوقيفية في ذلك. وقالت فرقة: آياتُ موسى عليه السلام إنما أريد بها آياتُ التوراة التي هي أوامر ونواه، وروى في هذا صفوان بن عسَّال[1] أن يهودياً من يهود المدينة قال لآخر: سِرْ بنا إلى هذا النبي نسأله عن آيات موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ، فقال الآخر: لا تقل إنه نبيٌّ، فإنه لو سمعك صار له أربعة أعين، قال: فساروا إلى رسول الله ﷺ: فسألوه، فقال: هي ألاَّ تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق، ولا تمشوا ببريءٍ إلى سلطان ليقتله، ولا تسخروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تفِرُّوا يوم الزحف، وعليكم خاصة يهود: ولا تعدوا في السبت[2].

وقرأ الجمهور: ﴿فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وروي عن الكسائي: [فَسَلْ] على لغة من قال: «سَالَ يَسَالُ»[3]، وهذا كله على معنى الأمر لمحمد ﷺ، أي: اسأل معاصريك عمَّا أعلمناك به من غيب القصة، ثم قال: ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾، يريد: آباءهم، وأدخلهم في الضمير إذا هم منهم، ويحتمل أن يريد: فاسْأَل بني إسرائيل الأولين الَّذين جاءهم موسى عليه السلام، وتكون إحالته إياه على سؤالهم بطلب أخبارهم والنظر في أحوالهم وما في كتبهم، نحو قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[4]، وهذا كما تقول لمن تعظه: سَلِ الأُمم الخالية هل بقي منها مخلد؟ ونحو هذا مما يجعل النظر فيه

---

(١) هو صَفْوَانُ بن عَسَال (بِمُهْمَلَتَين)، المرادي، صحابي معروف، نزل الكوفة (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه الطيالسي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وأبو يعلى، والبيهقي معاً في الدلائل، عن صفوان بن عسَّال. ذَكَر ذلك في (الدر المنثور). وفي آخر الحديث زيادة على ما هنا (فقَبَّلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبيٌّ، قال: فما يمنعكما أن تُسْلِما؟ قالا: إن داود دعا الله ألاَّ يزال في ذُرِّيته نبيٌّ، وإنا نخاف ـ إن أسْلَمنا ـ أن تقتلنا اليهود).

(٣) نقل في اللسان (سأل) عن الأخفش قوله: «يقال: خرجنا نسأل عن فلانٍ وبفلانٍ، وقد يخفف فيقال: سَالَ يَسَالُ، والأمرُ منه سَلْ، قال الشاعر:

وَمُـرْهَـقٍ سَـالَ إمْتَـاعـاً بِـأُصْـدَتِـهِ ... لَـمْ يَسْتَعِـنْ وَحَـوَامِي الْمَـوْتِ تَغْشَـاهُ»

(٤) من الآية (٤٥) من سورة (الزخرف).



مكان السؤال. قال الحسن: سؤالك إيَّاهم نظرُك في القرآن.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [فَسَأَلَ بني إسرائيلَ]، أي: سأل موسى بني إسرائيل، أي طلبهم لينجيهم من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿مَسْحُوراً﴾، اختلف فيه المتأولون ـ فقالت فرقة: هو مفعول على بابه، أي: إنك قد سحرتَ فكلامك مختل وما تأتي به غير مستقيم. وقال الطبري: هو مفعول بمعنى فاعل، كما قال تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[1]، وكما قالوا: مَشْؤُومٌ وَمَيْمُون، وإنما هو: شائِمٌ ويامن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يتخرج إلاَّ على النَّسب، أي: ذا سِحْرٍ مَلَكْتَه وعَلِمْتَه، فأنتَ تَأْتي بهذه الغرائب لذلك. وهذه مخاطبةُ تَنَقُّصٍ، فيستقيم أن يكون [مَسْحُوراً] مفعولاً على ظاهره، وعلى أن يكون بمعنى: ساحر يعارضنا، (أمَّا)[2] ما حُكيَ عنهم أنهم قالوا له ـ على جهة المدح ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[3]، فإمَّا أن يكون القائلون هنالك ليس فيهم فرعون، وإمَّا أن يكون فيهم لكنه تنقل من تَنَقُّصه إلى تعظيمه. وفي هذا نظر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

رُوي عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وغيره، أنه قرأ: [عَلِمْتُ] بتاء المتكلم مضمومة، وقال: «وما علم عدوُّ الله قط، وإنما علم موسى».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتتقوى هذه القراءة لمن تأوَّل ﴿مَسْحُوراً﴾ على بابه، فلمَّا رماهُ فرعون بأنه قد سُحر

---

(١) من الآية (٤٥) من هذه السورة (الإسراء).

(٢) زيادة تقتضيها سلامة العبارة.

(٣) ورد هذا في الآية الكريمة رقم (٤٩) من سورة (الزخرف)، في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾.



فَفَسَد نظره وعقله وكلامه، ردَّ هو عليه بأنه يعلم آيات الله تعالى، وأنه ليس بمسحور، بل مُحَرِّر لما يأتي به. وهي قراءة الكسائي. وقرأ الجمهور: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ بتاء المخاطب مفتوحة، فكأن موسى عليه السلام رماهُ بأنه يكفر عناداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن قال بوقوع الكفر عناداً فَلَه تعلُّق بهذه الآية، وجعلها كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[١]، وقد حكى الطبري ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ونحا إليه الزَّجاج وهي، بعد معرضة للاحتمال على أن يكون قول موسى عليه السلام إبلاغاً على فرعون في التوبيخ، أي: أنت بحال من يعلم هذا، وهي من الوضوح بحيث تعلمها، ولم يكن ذلك على جهة الخبر عن علم فرعون.

وقوله تعالى: [بَصَائِرَ] جمع بصيرة، وهي الطريقة، أي طرائق يهتدي بها، وكذلك غلب على البصيرة أنها تستعمل في طريقة النفس في نظرها واعتقادها، ونصب [بَصَائِرَ] على الحال[٢].

و«المَثْبُورُ»: المُهْلَك، قاله مجاهد، وقال ابن عباس، والضحاك: هو المغلوب، وقال ابن زيد: هو المخبول، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسَّره بالملعون. وقال بعض العلماء: كان موسى عليه السلام في أول أمره يجزع، ويُؤمر بالقول اللَّيِّن، ويطلب الوزير، فلما تقوَّتْ نفسه بقوى النبوَّة وتجلَّد قابل فرعون بأكثر مما أُمر به، بحسب اجتهاده الجائز له. قال ابن زيد: اجترأ موسى أن يقول له فوق ما أمره الله به. وقالت فرقة: بل المثبور: المغلوب المُخرَّع[٣]، وما كان موسى عليه السلام ليكون لعَّاناً، ومن اللفظة قول عبد الله بن الزِّبَعْرى:

إذْ أُجـارى الشَّيطـانَ فـي سَنَـنِ الْـ ـغَـيِّ، وَمَـنْ مـالَ مَيْلَـهُ مَثْبـورُ[٤]

---

(١) من الآية (١٤) من سورة (النمل).

(٢) أي: حال من [هؤلاء]، قال أبو حيان الأندلسي: «وهذا لا يجوز إلا على مذهب الكسائي والأخفش»، والجمهور يؤولون ما ظاهره كذلك، فيقدرون فعلاً يدلُّ عليه ما قبله، فيقولون هنا: التقدير: «أنزلها بصائر».

(٣) أي: الضعيف اللَّين المُسْترخي.

(٤) قال ابن الزِّبَعْرى هذا البيت من أربعة أبيات قالها حين جاء معتذراً للنبي ﷺ عن هجائه السابق له، وقبله يقول:

=



وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. [يَسْتَفِزَّهُمْ] معناه: يَستخفَّهُم ويُقلقهم، إمَّا بقتل أو بإجلاءٍ، و[الأرْض] هي أرض مصر، وقد تقدم أنه متى ذكرت «الأرض» عموماً فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلَّم فيها، وقد يحسُن عمومها في بعض القصص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واقتضبت هذه الآية قصص بني إسرائيل مع فرعون، وإنما ذَكَرَتْ عُظْمَ الأمر وخطيره، وذلك طَرَفَاه: أراد فرعون غلَبتهم وقتْلهم، وهذا كان بدْءَ الأمر، فأغرقه الله تبارك وتعالى وأغرق جنوده، وهذا كان نهاية الأمر. ثم ذكر الله تعالى بني إسرائيل بعد إغراق فرعون بسُكْنى أرض الشَّام.

و﴿وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ هو يوم القيامة. و«اللَّفِيفُ»: الجمع المختلِط الذي قد لُفَّ بعضه ببعض، فليس ثَمَّ قبائل ولا انحياز. وقال بعض اللُّغويِّين: هو من أسماء الجموع، ولا واحد له من لفْظِهِ. وقال الطبريُّ: هو بمعنى المصدر كقول القائل: لَفَفْتُه لَفّاً ولفِيفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر فتأمله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾.

الضمير في قوله تعالى: [أَنْزَلْنَاهُ] عائد على القرآن المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[1]، ويجوز أن يكون الكلام آنفاً، وأشار

= يـا رَسُـولَ الْمَلِيـكِ إنَّ لِسَـانِـي ... راتِـقٌ مـا فَتَقْـتُ إذْ أنَـا بُـورُ

وأُجاري: أُباري وأُماشي، ويروى: أُباري، والسَّنَن: وسط الطريق، والغَيّ: الضلال والفساد، ومثبور: هالك، وهو الشاهد هنا. وفي اللسان عن مجاهد: (مَثْبُوراً) أي: هالكاً، وفيه أيضاً أن الثبور هو الهلاك والخسران والويل.

(١) سبق ذلك في الآية (٨٩) من هذه السورة.



بالضمير إلى القرآن على غير ذلك متقدمٍ لشهرته، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[1]، وهذا كثيرٌ.

قال الزهراوي: معناه: بالواجب الذي هو المصلحة والسَّداد للناس والحق في نفسه، وقوله سبحانه: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يريد: بالحق في أوامره ونواهيه وأخباره، فبهذا التأويل يكون تكرار اللَّفظ لمعنى غير الأول، وذهب الطبري إلى أنهما بمعنى واحد، أي: بأخباره وأوامره، وبذلك نزل.

وقوله تعالى: ﴿قُرْآناً﴾. مذهب سيبويه أن نصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر بعد، أي: وفرَقنا قرآناً، ويصح أن يكون معطوفاً على الكاف في ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، من حيث كان إرسال هذا وإنزال هذا لمعنى واحد.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بتخفيف الراء، ومعناه: بيَّنَّاه وأوضحناهُ وجعلناه فرقاناً. وقرأ ابن عباس، وقتادة، وأبو رجاء، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وأبيُّ بن كعب، والشعبي، والحسن ـ بخلاف ـ وحُمَيْد، وعمرو بن قائد: [فَرَّقْنَاهُ] بشدِّ الراء، إلاَّ أن في قراءة ابن مسعود، وأُبي بن كعب: [فَرَّقْنَاهُ عَلَيْكَ لِتَقْرَأَهُ]، أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء، لا جملةً واحدة، ويتناسق هذا المعنى مع قوله تعالى: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، وهذا كان بما أراد الله تعالى من نزوله بأسباب تقع في الأرض من أقوال وأفعال في أزمان محدودة معيَّنة.

واختلف أهلُ العلم، في كم نزل القرآن من المدة؟ فقيل: في خمس وعشرين سنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في ثلاث وعشرين، وقال قتادة: في عشرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بحسب الخلاف في سنِّ رسول الله ﷺ، وذلك أن الوحي جاء وهو ابن أربعين سنة، وتَمَّ بموته. وحكى الطبريُّ عن الحسن البصري أنه قال: نزل القرآن في ثماني عشرة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ مُخْتَلٌّ: لا يصح عن الحسن، والله أعلم.

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص).



وتأول فرقة قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، أي: على ترسُّلٍ في التلاوة وترتيل، هذا قول مجاهد، وابن عباس، وابن جريج، وابن زيد. والتأويل الآخر، أي: على مُكْثٍ وتطاول في المدة شيئاً بعد شيء. وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم ذكره في ألفاظ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأجمع القراءُ على ضمِّ الميم من [مُكْثٍ]، ويقال: مُكْثٌ ومَكْثٌ بضم الميم وبفتحها، ومِكْثٌ بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ الآية. هذه آية تحقير للكفار، وفي ضمنه ضربٌ من التوعُّد، والمعنى: إنكم لستم بحُجَّة، فسواءٌ علينا آمنتم أو كفرتم، وإنما ضررُ ذلك على أنفسكم، وإنما الحُجَّةُ أهلُ العلم من قبله، هم بالصفة المذكورة.

واختلف الناس في المراد بالذين أوتوا العلم من قبله ـ فقالت فرقة: هم مؤمنو أهل الكتاب. وقالت فرقة: هم ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، ومن جرى مجراهما، وقيل: إن جماعة من أهل الكتاب جلسوا وهم على دينهم فتذاكروا أمر النبي عليه الصلاة والسلام وما أنزل عليه، وقرىء عليهم منه شيءٌ فخشعوا وسبَّحوا الله وسجدوا له، وقالوا: هذا وقتُ نُبُوَّة المذكور في التوراة، وهذه صفته، ووعْدُ الله به واقع لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام هذا الجنوح، فنزلت الآية فيهم، وقالت فرقة: المراد بالذين أوتوا العلم من قبله محمد ﷺ، والضمير في [قَبْلِهِ] عائد على القرآن، حَسَب الضمير في [بِهِ]، ويُبيِّن ذلك قوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾. وقيل: الضميران لمحمد ﷺ، واستأنف ذكر القرآن في قوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾، أي: لِنَاحِيَتِها، وهذا كما تقول: ساقطٌ لليد والفم، أي: لِنَاحِيَتِهما وعليهما، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: لِلْوجوه، وقال الحسن: لِلِّحَى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأذقان أسافل الوجوه حيث يجتمع اللَّحيان، وهي أقرب ما في رأس الإنسان إلى الأرض لا سيَّما عند سجوده، وقال الشاعر:



فَخـرُّوا لأذقَـانِ الـوُجُـوهِ تنُـوشُهُـمْ ... سِبَاعٌ مِنَ الطَّيْرِ الْعَوَادِي وَتَنْتِفُ[1]

و[إنْ] في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ هي عند سيبويه المخففة من الثقيلة. واللام بعدها لام التأكيد، وهي عند الفراء النافية واللام بمعنى: إلاَّ. ويتوجَّه في هذه الآية معنى آخر، وهو أن يكون قوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ مخلصاً للوعيد دون التحقير. والمعنى: فَسَتَرَوْن ما تُجَازَوْن به، ثم ضرب لهم المثَلَ ـ على جهة التقريع ـ بمن تقدم من أهل الكتاب، أي: إن الناس لم يكونوا كما أنتم في الكفر، بل كان الذين أوتوا التوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزَّلة في الجملة إذا يُتْلى عليهم ما نزل عليهم خشعوا وآمنوا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩) قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا (١١١)﴾.

هذه مبالغة في صفتهم، ومدْحٌ لهم، وحضٌّ لكل من توسم بالعلم وحصَّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه الرُّتبة. وحكى الطبريُّ عن التَّيْمِيِّ[2] أنه قال: إن من أوتي من العلم ما لم يُبْكِه لخليق ألاَّ يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ إلى آخر الآيتين.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ الآية.

سبب نزول هذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعو: يا الله، يا رحمن، فقالوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد، وهو يدعو إلهين. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقال مكي: تهجّد رسول الله ﷺ ليلةً، فقال في دعائه: يا رحمن يا رحيم،

---

(١) هذا البيت شاهد على أنَّ (خرُّوا للأذقَان) معناها: سَقَطوا ووقعوا، ولم يذكره أحد من المفسرين إلا صاحب (البحر المحيط)، ولم نقف على نسبته فيما بين أيدينا من المراجع. وتَنُوشهم: تتناولهم وتأخذهم، وتَنْتفُ: تنزع لحومهم من على عظامهم، وقد كثر استعمال اللفظة في نزع الشعر ونحوه، والسِّباع جمع سبع، وهو كل ما له نابٌ أو مِخلب ويعدو على الناس والدواب. وسباع الطير: الجوارح من ذوات المخالب في الطير.

(٢) اسمه عبد الأعلى التَّيْمي.



فسمعه رجل من المشركين ـ وكان باليمامة رجلٌ يسمى الرحمان ـ فقال ذلك السامع: ما بال محمد يدعو رحمان اليمامة، فنزلت الآية مبينة أنها أسماءٌ لشيء واحد، فإن دعوتموه بالله فهو ذلك، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذلك.

وقرأ طلحة بن مصرف: «أَيّاً مَنْ تَدْعُو فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى»، أي: وله سائر الأسماء الحسنى، أي التي تقتضي أفضل الأوصاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهي بتوقيف، لا يصحُّ وضع اسم لله تعالى إلاَّ بتوقيف من القرآن والحديث. وقد رُوي: (إنَّ لله تسعةً وتسعين اسماً)... الحديث، ونصها كلها الترمذي وغيره بسندٍ صحيح[١]. وتقدير الآية: أيَّ الأسماء تدعو به فأنت مصيب، له الأسماءُ الحُسْنى.

ثم أمر رسول الله ﷺ ألاَّ يجهر بصلاته، وألا يخافِتَ بها، وهو الإِسْرَارُ الذي يسمعه المتكلم به، هذه هي حقيقته، ولكنه في الآية عبارة عن خفض الصوت وإن لم يَنْتَه إلى ما ذكرناه. واختلف المتأولون في «الصَّلاة»، ما هي؟ فقال ابن عباس، وعائشة رضي الله عنهما، وجماعة: هي الدعاءُ. وقال ابن عباس أيضاً: هي قراءة القرآن في الصلاة، فهذا على حذف مضاف، والتقدير: ولا تجهر بقراءة صلاتك، قال: والسبب أن رسول الله ﷺ جهر بالقراءة فسمعه المشركون فسبُّوا القرآن ومن أنزله، فأُمر رسول الله ﷺ بالوسط، لِيُسْمع أصحابه المصلين معه ويذهب عنه أذى المشركين[٢].

وقال ابن سيرين: كان الأعراب يجهرون بتشهُّدهم فنزلت الآية في ذلك، وكان أبو بكر رضي الله عنه يُسِرُّ قراءته، وكان عمر رضي الله عنه يجهر بها، فقيل لهما في ذلك، فقال

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري، والبخاري في التوحيد والشروط والدعوات، ومسلم في الذكر، والترمذي، وابن ماجه في الدعوات، ولفظه كما في الطبري: (إن لله تسعةً وتسعين اسماً كلُّهن في القرآن، من أحصاهن دخل الجنة).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والطبراني، والبيهقي في سُنَنِه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (نزلت ورسول الله ﷺ بمكة مُتَوارٍ، فكان إذا صلَّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون ذلك سبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ ـ أي بقراءتك ـ فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، يقول: بين الجهر والمخافتة). ذكر ذلك الإمام السيوطي في (الدر المنثور).

أبو بكر: إنما أناجي ربِّي وهو يعلم حاجتي، وقال عمر: أنا أطرح الشيطان وأوقظ الوسنان، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر رضي الله عنه: ارفع أنت قليلاً، وقيل لعمر رضي الله عنه: اخفض أنت قليلاً. وقالت عائشة أيضاً رضي الله عنها: الصلاة يُراد بها في هذه الآية التشهد، وقال ابن عباس، والحسن: المراد: لا تُحَسِّن صلاتك في الجهر، ولا تُسِئْها في السِّر، بل اتَّبع طريقاً وسطاً يكون دائماً في كل حالة. وقال ابن زيد: معنى الآية النهيُ عما يفعله أهل الإنجيل والتوارة من رفع الصوت أحياناً فيرفع الناس معه، ويخفض أحياناً فيسكت من خلفه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: إن معناها: ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة اللَّيل، وابتغ سبيلاً من امتثال الأمر كما رسم لك، ذكره يحيى بن سلام، والزهراوي. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لم يخافت من أسمع أذنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما رُوي من أنه قيل لأبي بكر رضي الله عنه: «ارفع أَنْتَ قليلاً» يردُّ هذا، ولكن هذا الذي قال ابن مسعود رضي الله عنه هو أصل اللُّغة، ويستعمل الخفوتُ بعد ذلك في أرفع من ذلك[١].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[٢]. هذه الآية رادَّةٌ على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: «عُزَيْر وعيسى والملائكة ذرِّيَّة الله»، سبحانه وتعالى عن أقوالهم. ورادَّةٌ على العرب في قولهم: «لولا أولياءُ الله لذلَّ»، وقيَّد لفظُ الآية نفي الولاية لله عزَّ وجلَّ بطريق الذل، وعلى جهة الانتصار؛ إذ ولايته موجودةٌ بتفَضُّله ورحمته لمن وَالى من صالح عباده. قال مجاهد: المعنى: لم يُحالف أحداً، ولا ابتغ نصر أحد.

وقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، ثم أكَّدها بالمصدر تحقيقاً لها، وإبلاغاً في معناها[٣].

---

(١) أي: في أعلى من ذلك.

(٢) أخرج الإمام أحمد، والطبراني، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (آيةُ العِزِّ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ (الآية كلها).

(٣) أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، من طريق عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب رضي الله عنه، قال: كان=



وروى مُطَرِّفٌ عن عبد الله بن كعب قال: «افتتحت التوراةُ بفاتحة سورة الأنعام، وختمت بخاتمة هذه السورة».

نجز تفسير سورة الإسراء ولله الحمد والمِنَّة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم

* * *

= الغلام إذا أفصح من بني عبد المطلب علَّمه النبي ﷺ هذه الآية سبع مرات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية، وأخرجه ابن السُّني في عمل اليوم الليلة، من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن إسماعيل بن أبي فديك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل عليه السلام: يا محمد؛ قل: توكلتُ على الحيِّ الذي لا يموت، والْحَمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولمْ يَكُنْ لَهُ شريكٌ في ٱلْمُلْكِ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الكهف

هذه السُّورة مكِّيَّة في قول جميع المفسرين، ورُوي عن فرقة أن أول السُّورة نزل بالمدينة، إلى قوله تعالى: [جُرُزاً]، والأول أصح.

وهي من أفضل سور القرآن، رُوي أن النبي ﷺ قال: (ألاَ أُخبركم بسورة (مَلأَ)[١] عِظَمُهَا ما بين السموات والأرض، ولمن جاء بها من الأجر مثل ذلك)؟ قالوا: أي سورة هي يا رسول الله؟ قال: (سورة الكهف، من قرأ بها يوم الجمعة غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة الأخرى ـ وزيادة ثلاثة أيام في رواية أنس ـ، ومن قرأ بها أُعطي نوراً بين السماء والأرض، وَوُقي بها فتنة القبر)[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

كان حفص عن عاصم يسكت عند قوله تعالى: (عِوَجَا) سكتةً خفيفةً، وعند (مَرْقَدِنَا) في يَس[٣]، وسبب هذه البُدَاءَةِ في هذه السورة أن رسول الله ﷺ لما سألته

---

(١) زيادة عن القرطبي وفتح القدير.

(٢) أخرجه ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها، وذكره إسحق بن عبد الله بن أبي فروة، كما ذكره الثعلبي والمهدوي بمعناه. وأخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، وابن الضريس، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي العالية، قال: قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابَّة، فجعلت تنفر، فينظر فإذا ضبابة أو سحابةٌ غشيته، فذكر للنبي ﷺ، قال اقرأ فلانُ فإنها السكينة نزلت للقرآن. وأخرج الطبراني أن هذا الرجل هو أُسَيْد بن حضير.

(٣) في قوله تعالى في الآية (٥٢): ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.



قريش عن المسائل الثلاث: الرُّوح والكهف وذي القرنين ـ حسبما أمرتهم به يهود ـ قال لهم رسول الله ﷺ: (غداً أُخبركم بجواب سؤالكم)، ولم يقل: «إن شاء الله»، فعاتبه الله تعالى بأن أمسك عنه الوحي خمسة عشر يوماً، فأرجف به كفار قريش، وقالوا: إن محمداً قد تركه رئيُّه الذي كان يأتيه من الجن، وقال بعضهم: قد عجز عن أكاذيبه، إلى غير ذلك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، وبلغ منه، فلما أن قضي الأمر الذي أراد الله تعالى عتاب محمد ـ ﷺ ـ عليه، جاء الوحي من الله تعالى بجواب الأسئلة وغير ذلك، فافتتح الوحي بحمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب، أي: بزعمكم أنتم يا قريش، كما تقول لرجل يحبُّ مساءَتَك فلا يرى إلاَّ نعمتك: الحمد لله الذي أنعم عليَّ وفعل بي كذا، على جهة النعمة عليه. و«الكتاب» هو القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ أي: لم يُزِلْه عن طريق الاستقامة، و«الْعِوَجُ» فقدُ الاستقامة، وهو بكسر العين في الأمور والطرق وما لا يحسُّ منتصباً شخصاً، و«الْعَوَجُ» بفتح العين في الأشخاص، كالعصا والحائط ونحوه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يجعله مخلوقاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ يعم هذا وجميع ما ذكر من أنه لا تناقض فيه، ومن أنه لا خَلَلَ ولا اختلاف فيه.

وقوله تعالى: (قَيِّماً) نصب على الحال من (ٱلْكِتَابَ)، فهو بمعنى التقديم مُؤَخَّر في اللفظ، أي: أنزل الكتاب قيِّماً، واعترض بين الحال وذي الحال قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾. ذكر الطبريُّ هذا التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويجوز أن يكون [مَنْصُوباً][1] بفعل مضمر تقديره: أنزله، أو جعله قيِّماً، وفي بعض مصاحف الصحابة: «وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا وَلَكِنْ جَعَلَهُ قَيِّماً»، قاله قتادة. ومعنى «قَيِّم»: مستقيم، هذا قول ابن عباس، والضحاك، وقيل: معناه أنه قَيِّمٌ على سائر الكتب بتصريفها. ذكره المهدوي.

(١) ما بين العلامتين زيادة لتوضيح المعنى.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا محتمل، وليس من الاستقامة. ويحتمل أن يكون معنى «قَيِّم» قيامُه بأمر الله تبارك وتعالى على العالم، وهذا المعنى يؤيده ما بعده من النِّذارة والبشارة اللَّذَيْنِ عَمَّا العالم. و«الْبَأْسُ الشَّدِيدُ»: عذابُ الآخرة، ويحتمل أن يندرج معه في النذارة عذاب الدنيا ببذْرٍ وغيرها، ونصبه على المفعول الثاني، والمعنى: لِيُنْذر العالَم، وقوله تعالى: (مِنْ لَدُنْهُ) أي: من عنده ومِنْ قِبَله، والضمير عائد على الله تعالى. وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ بضم الدال وسكون النون وضم الهاء، وقرأ عاصم من رواية أبي بكر: [مِنْ لَدْنِهِ] بسكون الدال وإشْمام الضم فيها وكسر النون والهاء. وفي (لدن) لغات، يقال: لَدُن مثل سَبُع، ولَدْن بسكون الدال، ولُدْن بضم اللام، ولَدَن بفتح اللام والدال، وهي لفظة مبنية على السكون، ويلحقها حذف النون مع الإضافة، وقرأ عبد الله، وطلحة: [وَيَبْشُرَ] بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين. وقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا﴾ تقديره: بأن لهم أجراً، و«الأجر الحسن»: نعيم الجنة، ويتقدمُه خير الدنيا. و(مَاكِثِينَ) حالٌ من الضمير في (لَهُمْ)، و(أَبَداً) ظرف؛ لأنه دالٌّ على زمن غير متناهٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد أشرنا في تفسير هذه الآية إلى أمر اليهود قريشاً بسؤال رسول الله ﷺ عن المسائل الثلاث، وينبغي أن نَنُصَّ كيف كان ذلك.

ذكر ابن إسحق عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند أنه قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلاهم عن محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وصِفَا لهم صفته، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، فقالت لهما أحبار اليهود: سَلُوهُ عن ثلاث، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل فَرَوْا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤُه؟ وسلوه عن الرُّوح، فأقبل النَّضْرُ وعُقْبة إلى مكة، وسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك[1]، وكان من الأمر ما ذكرناه.

---

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن جرير الطبري، وابن المنذر، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن=



وقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ الآية. أهل هذه المقالة هم بعض اليهود في عُزَير، والنصارى في المسيح، وبعض العرب في الملائكة. والضمير في [بِهِ] يحتمل أن يعود على القول الذي يتضمنه [قَالُوا] المتقدم، وتكون جملة قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ في موضع الحال، أي: قالوا جاهلين. ويحتمل أن يعود على «الولد»، أي: لا علم لهم بهذا الولد الذي ادَّعَوْه، فتكون الجملة صفةً لقوله: «وَلَداً»، قاله المهدوي، وهو معترض؛ لأنه لا يصفه إلاَّ القائل، وهم ليس في مقصدهم أن يصفوه. والصواب عندي أنه نفي مُؤْتَنف، أخبر الله تعالى به بجهلهم في ذلك، فلا موضع للجملة من الإعراب، ويحتمل أن يعود على الله تعالى، وهذا التأويل أذَمُّ لهم، وأقضى بالجهل التَّامِّ عليهم، وهو قول الطبري[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾، يريد الذين أخذ هؤلاء هذه المقالَة عنهم.

وقرأ الجمهور: (كَبُرَتْ كلمةً) بنصب [كَلِمَةً]، كما تقول: نعم رجلاً زيد، وفسَّر الكلمة وصْفُها بالخروج من أفواههم، وقال بعضهم: نصبها على التفسير، على حدِّ نصب قوله: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2]، وقالت فرقة: نصبها على الحال، ، التقدير: كبرت فِرْيَتُهم ـ أو نحو هذا ـ كلمةً، وسُمِّيت هذه الكلمات كلمةً من حيث هي مقالة واحدة، كما يقولون للقصيدة: كلمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه المقالة قائمة هي في التفسير معنىً واحداً فيَحْسُن أن تُسَمَّى كلمة. وقرأ الحسن، ويحيى بن يَعْمَر، وابن محيض، والقواس عن ابن كثير: [كَلِمَةٌ] بالرفع على أنها فاعلةٌ بـ[كَبُرَتْ]. وقوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، أي: ما يقولون إلاَّ كذباً، فهي النافية.

= عباس رضي الله عنهما. وقول المؤلف: «وسألوا» يعني قريشاً.

(١) ويحتمل أيضاً أن يعود الضمير في [بِهِ] على «الاتخاذ» المفهوم من قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، والمعنى: ما لهم بحكمة الاتخاذ من عِلْم.

(٢) من الآية (٢٩) من هذه السورة (الكهف).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾.

هذه آية تسلية للنبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ تقرير وتوقيف بمعنى الإنكار عليه، أي: لا يكن كذلك. و«الباخِعُ نفْسَهُ» هو مُهْلكها وَجْداً وحزناً على أمرٍ ما، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ أَيّهـذَا البـاخِـعُ الـوَجْـدُ نفْسـهُ ... لِشَـيْءٍ نحَتْـهُ عَـنْ يـدَيْـهِ الْمَقـادِرُ[1]

يريد: (نَحَّتْه) فخفف.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ استعارة فصيحة، من حيث لهم إدبارٌ وتباعد عن الإيمان، وإعراضٌ عن الشرع، فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو في آثارهم يحزن عليهم. وقوله سبحانه: ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، أي: بالقرآن الذي نحدثك به، و[أَسَفاً] نصب على المصدر، قال الزجاج: والأسف: المبالغة في حُزْن أو غضب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأسف ـ في هذا الموضع ـ الحزن؛ لأنه على من لا يملك ولا هو تحت يد الآسِفِ، ولو كان الأَسَفُ من مُقْتدرٍ على من هو في قبضته ومُلْكه لكان غضباً، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾[2]، أي: أغضبونا، وإذا تأملت هذا في كلام العرب اطَّرَد، وذكره منذر بن سعيد، وقال قتادة هنا: ﴿أَسَفاً﴾: غضباً، وقال مجاهد: ﴿أَسَفاً﴾: جَزَعاً، وقال قتادة أيضاً: حُزْناً، ومن هذه اللفظة قول الأعشى:

أَرَى رَجـلاً مِنكُـمْ أَسِيفـاً كَـأَنَّمـا ... يَضُـمُّ إِلَـى كَشْحَيْـهِ كَفّـاً مُخَضَّبـاً[3]

---

(١) قائل هذا البيت هو ذو الرُّمَّة، وهو في اللسان والتاج والأساس (بَخَ)، وفي مجاز القرآن، والطبري، والقرطبي، ، الراغب، والصحاح، وفتح الباري، والبحر المحيط، ونسبه فيه للفرزدق. والباخِعُ: المُهْلِكُ نفسَه. ونَحَّتْه: أبعدته وصرفته عن يديه، وهو بتشديد الحاء ولكن الشاعر خفف لضرورة الشعر.

(٢) من الآية (٥٥) من سورة (الزخرف).

(٣) البيت من قصيدة قالها الأعشى يهجو عمرو بن المنذر، ويعاتب بني سعد بن قيس، ويقول في مطلعها: =



يريد: حزيناً كأنه مقطوع اليد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ الآية بَسْطٌ في التَّسلية، أي: لا تهتم للدنيا وأهلها، فأمرها وأمرهم أقلُّ لفنائه وذهابه، فإنا إنما جعلناها على الأرض زينة أو امتحاناً وخبرة.

واختُلف في المراد بها ـ فقال ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أراد الرجال، وقاله مجاهد. وروي عن عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاءُ والعلماءُ والأمراءُ. وقالت فرقة: أراد النعم والملابس والثمار والخضرة والمياه ونحو هذا مما فيه زينة، ولم تدخل في هذا الجبال الصم وكل ما لا زيْن فيه كالحيَّات والعقارب. وقالت فرقة: أراد كل ما على الأرض، وليس شيءٌ إلا وفيه زينة من جهة خلقه وصنعته وإحكامه، وفي معنى الآية قول النبي ﷺ: (الدنيا حلوةٌ خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتَّقوا الدنيا، واتَّقوا النساء)(١). و[زينَةً] مفعول ثان، أو

= كَفَى بِالَّذي تُولِينَهُ لَوْ تَجَنَّبَا ... شِفَاءً لِسُقْمٍ بَعْدَ مَا عَادَ أَشْيَبَا

والأسيف: الحزين، والكَشْحان: مُثَنّى كَشْح، وهو ما بين الخاصرة والضلوع، والمُخَضَّب: المصبوغ بالدم، يصف الرجل بأنه حزين جدّاً كأنما قد تخضبت كفه بالدماء فهو يضمها إلى جنبه.

(١) أخرجه الترمذي في الفتن والزهد، وابن ماجه في الفتن، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده (٣ـ٧، ١٩، ٣٣، ٤٦، ٦١، ٧٤، ٦ـ٦٨). ولفظه كما في مسند أحمد (٣ـ١٩)، عن أبي سعيد الخدري، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بعد العصر إلى مُغَيْربان الشمس، حفظها منّا من حفظها، ونسيها منّا من نسي، فحمد الله ـ قال عفّان وقال حماد: وأكثر حفظي أنه قال: بما هو كائن إلى يوم القيامة ـ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الدنيا خَضِرَةٌ حُلْوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظِرٌ كيف تعملون، ألا فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، ألا إنَّ بني آدم خُلِقوا على طبقات شتَّى، منهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً، ألا إن الغضب جمرة توقَدُ في جوف ابن آدم، ألا تَرَوْن إلى حُمْرَة عينيه وانتفاخ أوْداجه؟ فإذا وجد أحدكم شيئاً من ذلك فالأرضَ الأرضَ، ألا إن خير الرجال من كان بطيءَ الغضب سريع الرِّضا، وشرَّ الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا، فإذا كان الرجل بطيء الغضب بطيء الفيْءِ وسريع الغضب وسريع الفيء فإنها بها. ألا إن خير التجار من كان حَسَن القضاء حَسَن الطلب، وشرَّ التجار من كان سَيِّءَ القضاء سَيِّءَ الطلب، فإذا كان الرجل حسن القضاء سَيِّءَ الطلب أو كان سَيِّءَ القضاء حسن الطلب فإنها بها، ألا إن لكلِّ غادرٍ لواءً يوم القيامة بقدر غدرته، ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامة. ألا لا يمنعن رجلاً مهابةُ الناس أن يتكلمَ بالحق إذا علمه، ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر. فلما كان عند مغيربان =



مفعول من أجلهَ بحسب معنى (جعلَ)[١].

وقوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ معناه: لنختبرهم، وفي هذا وعيدٌ مَّا. قال سفيان الثوري: أحسنهم عملاً: أزهدهم فيها، وقال أبو عصام العسقلاني: أحْسَنُ عَمَلاً: أتْركُ لها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان أبي رحمه الله يقول: أحْسَنُ العمل: أخْذٌ بحق، وإنفاق في حق مع الإيمان، وأداءُ الفرائض، واجتنابُ المحارم، والإكثارُ من المندوب إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾، أي: يرجع كلُّ ذلك تراباً غير مُتَزَيِّن بنباتٍ ونحوه، و«الْجُرُزُ»: الأرض التي لا شيء فيها من عمارة وزينة، وهي البلقع، وهي حالة الأرض العامرة بالزَّيْن، ولا بُدَّ لها من هذا الدنيا جزءاً جزءاً من الأرض، ثم يعمُّهَا ذلك بأجمعها عند القيامة، يقال: جرزت الأرض بقحط أو جرادٍ ونحوه إذا ذهب نباتها وبقيت لا شيء فيها ولا نفع. وأرضون أجراز. وقال الزجاج: الجُرُزُ: الأرض التي لا تُنْبِتُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما ينبغي أن يقول: التي لم تُنْبت. و«الصَّعيدُ»: وجه الأرض، وقيل: الصَّعيد: التراب خاصة، وقيل: الصعيد: الأرض الطيبة، وقيل: الصعيد: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ الآية. مذهب سيبويه في (أَمْ) إذا جاءت قبل أن تتقدمها ألف استفهام أنَّها بمعنى (بَلْ) و(أَلِف الاستفهام)، كأنه قال: بل أحَسِبْتَ؟ إضراباً عن الحديث الأول واستفهاماً عن الثاني. وقال بعض النحويين: هي بمنزلة ألف الاستفهام، وأما معنى الكلام فقال الطبريُّ: هو تقرير للنبي ﷺ على حسابه أن أصحاب الكهف أتَوْا عجباً، بمعنى إنكار ذلك عليه، أي: لا تُعَظِّم ذلك بحسب ما عظَّمه عليك السائلون من الكفرة، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشنع، وهو قول ابن

= الشمس قال: ألا إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه.

(١) تكون مفعولاً ثانياً إذا كانت (جَعَلَ) بمعنى: صَيَّر. وتكون مفعولاً من أجله إذا كانت (جَعَلَ) بمعنى: خَلَق وأوْجَد، ويجوز في هذه الحالة أيضاً أن تكون حالاً.



عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن إسحق. وذكر الزهراوي أن الآية تحتمل معنىً آخر، وهو أن تكون استفهاماً له، هل عَلِمَ أن أصحاب الكهف كانوا عجباً؟ بمعنى إثبات أنهم عجبٌ، وتكون فائدة تقريره جمع نفسه للأمر؛ لأن جوابه أن يقول: لم أحسب ذلك ولا علمته، فيقال له وَصْفُهُم عند ذلك، والتَّجوز في هذا التأويل هو في لفظة [حَسِبْتَ]، فتأمَّله.

و«الكَهْفُ»: الثُّقب المُتَّسع في الجبل، وما لم يتسع منها فهو غارٌ. وحكى النحاسُ عن أنس بن مالك أنه قال: الكهْفُ: الجبلُ، وهذا غير شهير في اللغة. واختلف الناس في «الرَّقيم» ـ فقال كعب: الرَّقيم: القرية التي كانت بإزاء الكهف، وقال ابن عباس، وقتادة: الرَّقيم: الوادي الذي كان بإزائه، وهو واد كان بين غضبان وأيلة[1] دون فلسطين. وقال ابن عباس أيضاً: هو الجبل الذي فيه الكهف. وقال السدي: الرَّقيم: الصخرة التي كانت على الكهف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرَّقيم: كتابٌ مرقوم كان عندهم، فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام، وقيل: من دين قبل عيسى عليه السلام، وقال ابن زيد: كتاب عمَّى الله تعالى علينا أمره ولم يشرح قصته. وقالت فرقة: الرَّقيم: كتاب في لوح من نحاس، وقال ابن عباس: في لوحين من رصاص كَتَب فيهما القومُ الكفارُ الذين فرَّ الفتية منهم قصَّتَهم، وجعلوها تاريخاً لهم، ذكروا وقت فقدهم، وكم كانوا، وبني من كانوا. وقال سعيد بن جبير: الرَّقيم: لوح من حجارة كتبوا فيها قصة أصحاب الكهف، ووضعوه على باب الكهف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرخين للحوادث، وذلك من قبل المملكة[2]، وهذا أمر مفيد، وهذه الأقوال مأخوذة من الرَّقْم، ومنه: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾[3]،

---

(١) الذي في الطبري: (بين عُسْفان وأَيْلَة)، والخبر في الدر المنثور بدون ذكر أيٍّ واحدة منهما، وكذلك في القرطبي. وأَيْلَة: مدينة صغيرة على ساحل بحر القُلْزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام. قاله في معجم البلدان، وهي معروفة الآن، وتقع في رأس خليج العقبة.

(٢) في بعض النسخ: (من نُبْل المملكة)، (أي مما يتصف به أهلها من النُّبْل)، فهم يدوِّنون التاريخ لمن بعدهم.

(٣) الآيتان (٩، ٢٠) من سورة (المطففين).

ومنه: «الأَرْقَمُ» لِتَخْطيطه[١]، ومنه: «رَقْمَةُ الْوَادي»، أي: مكان جَرْيِ الماء وانعطافه، يقال: عليك بالرقمة وخَلِّ الضِّفة[٢].

وقال النقاش عن قتادة: الرَّقيم: دراهِمُهُم، وقال أنس بن مالك، والشعبي: الرَّقيم: الكلب، وقال عكرمة: الرَّقيم: الدَّواة، وقالت فرقة: الرَّقيم كان لِفِتْيَة آخرين جرى لهم ما جرى لأهل الكهف. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما أدري ما الرَّقيم، أَكِتَابٌ أَمْ بُنْيَانٌ؟ وروي أنه قال: كلُّ القرآن أعلمه إلاَّ: الحَنَان، والأوَّاه، والرَّقيم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

[ٱلْفِتْيَةُ] فيما رُوي: قومٌ من أبناء أشراف مدينة دَقْيوس الملك الكافر، ويقال فيه: دَقْليوس، ويقال: دقينوس. ورُوي أنهم كانوا مُطَوَّقين مُسوَّرين بالذهب، وهم من الرُّوم، واتبعوا دين عيسى عليه السلام، وقيل: كانوا قبل عيسى، وأما أسماؤهم فهي أعجميّة والسَّند في معرفتها واهٍ، ولكن التي ذكر الطبريُّ هي هذه: مَكْسَيْلَمينا، وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومَجْسَيْلَمينيا، وتَمْلِيخا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو الذي مضى بالورق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم. ومَرْطوس، وكَشُوطُوقش، وبيْرُونس، ودِينَمُوس، ويُطُونِس[٣].

واختلف الرواة في قصص هؤلاءِ الفتية، وكيف كان اجتماعهم وخروجهم إلى

(١) في اللسان: الأرقم من الحيَّات: ما فيه سوادٌ وبياضٌ.

(٢) قال الطبري: «هذا بمعنى: عليك برَقْمة الوادي حيث الماءُ، وَدَع الضِّفة الجانبة، والضفتان: جانبا الوادي». وقد ضبطها محقق القرطبي بالصاد المهملة، والصواب ما ذكرناه. والضِّفة تكون بفتح الضاد المشددة وتكون بكسرها.

(٣) اختلفت النسخ الأصلية في ضبط هذه الأسماء، وفي حروفها، وقد تحرينا الصواب بقدر الإمكان، وقد أحسن المؤلف حين قال: «والسَّند في معرفتها واهٍ».



الكهف، وأكْثَرَ المؤرخون في ذلك، ولكن نختصر من حديثهم، ونذكر ما لا تستغني الآية عنه، ونذكر من الخلاف عيونه بحول الله.

روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هؤلاء الفتية كانوا في دين مِلك يعبد الأصنام، ويذبح لها، ويكفر بالله سبحانه وتعالى، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع لِلْفتية علم من بعض الحواريِّين ـ حسبما ذكره النقاش ـ أو من بعض مؤمني الأمم قبلهم ـ بحسب الخلاف الذي ذكرناه ـ، فآمنوا بالله، ورأوْا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله تعالى، فَرُفع أمرهم إلى الملك، وقيل له: إنهم فارقوا دينك، واستخَفُّوا بآلهتك وكفروا بها، واستحضرهم الملك في مجلسه، وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهته، وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل، فقالوا له ـ فيما روي ـ: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾.

ورُوي أنهم قالوا نحو هذا الكلام، وليس به، فقال لهم الملك: إنكم شباب أغمارٌ، لا عقول لكم، وأنا لا أعجل بكم بلْ أسْتأْني، فاذهبوا إلى منازلكم فدبِّرُوا أمركم وارجعوا إلى أمري، وضرب لهم في ذلك أجلاً، ثم إنه سافر خلال الأجل، فتشاور الفتية في الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدهم: إني أعرف كهفاً في جبل كذا كان أبي يدخل فيه غنمة، فلنذهب إليه فنختفي فيه حتى يفتح الله لنا، فخرجوا ـ فيما رُوي ـ يلعبون بالصولجان والكُرَة، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم، وقيل: إنهم كانوا مُثَقَّفين فحضر عيد خرجوا له فركبوا في جملة الناس، ثم أخذوا في اللعب بالصولجان حتى خلصوا بذلك.

وروت فرقة أن أمر أصحاب الكهف إنما كان أنهم كانوا من أبناء الأشراف، فحضر عيدٌ لأهل المدينة، فرأى الفتيانُ ما يمتثله الناس في ذلك العيد من الكفر وعبادة الأصنام والذبح لها، فوقع الإيمان في قلوبهم، وأجمعوا على مفارقة الناس لئلاً ينالهم العذاب معهم، فزايلوا الناس وذهبوا إلى الكهف.

وروى وهبُ بن منبه أن أمرهم إنما كان أن حوارياً لعيسى بن مريم عليه السلام جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها، فأجر نفسه من صاحب الحمَّام، فكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمَّام في أعماله بركة عظيمة، فألقى إليه بكل أمر، وعرف ذلك

الرجلَ فتيانٌ من أهل المدينة، فنشر فيهم الإيمان، وعرَّفهم الله تعالى، فآمنوا واتبعوه على دينه، واشتهرت خُلْطتهم به، فأتى يوماً إلى ذلك الحمَّام وَلَدُ الملك بامرأة بَغِيٍّ أراد الخلوة بها، فنهاه ذلك الحواري فانتهى، ثم جاءه مرَّة أخرى فنهاه وشتمه، فأمضى عزمه على دخول الحمَّام مع البغي، فدخل فماتا به جميعاً، فاتُّهم ذلك الحواري وأصحابه بقتله، ففروا جميعاً حتى دخلوا الكهف.

وقال عبيد بن عمير: إن أصحاب الكهف كانوا فتية من أبناء العظماء مطوَّقين مسوَّرين ذوي ذوائب، قد داخلهم الإيمان أفذاذاً[1]. وأزمع كل واحد منهم الفرار بدينه من بلد الكفر، فأخرجهم الله في يوم واحد أراد بهم، فخرج أحدهم فجلس في ظِلِّ شجرة على بعد من المدينة، فخرج ثانٍ، فلما رأى الجالس جلس إليه، ثم الثالث، ثم الباقون حتى كمل جمعهم في ظلِّ الشجرة، فألْقى الله في نفوسهم أن غرضهم واحد، فتساؤلوا، ففزع بعضهم من بعض وتكتموا، ثم تراضوا برجليْن منهم، وقالوا: انْفَرِدَا وتَوَاثَقَا ولْيُفْشِ كلٌّ واحد منكما سرَّه إلى صاحبه، فإن اتَّفَقْتُما كنَّا معكما، فنهضا بعيداً فأفصحا بالإيمان والهروب بالدين، فرجعا وفضحا الأمر، وتابعهما الآخرون، ونهضوا إلى الكهف.

وأما الكَلْبُ فرُوي أنه كان كلب صيد لبعضهم، ورُوي أنهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلبٌ، فاتَّبعهم الراعي على رأيهم، وذهب الكلب معهم، واسم الكلب حمران، وقيل: قطمير. فدخلوا الغار على جميع هذه الأقوال.

فروت فرقة أن الله تعالى ضرب على آذانهم عند ذلك لِمَا أراد من سترهم، وخفي على المملكة مكانهم، وعجب الناسُ من غرابة فقدهم فأرَّخوا ذلك ورقموه في لوحين من رصاص أو نحاس، وجعلوه على باب المدينة، فيه أسماؤُهم وأسماءُ آبائهم وذكر شرفهم، وأنهم فقدوا بصورة كذا في وقت كذا. وقيل: إن الذي كتب هذا وتهَمَّمَ به رجلان قاضيان مؤمنان يكتمان إيمانهما من أهل بيت المملكة، وتسَتَّرا بذلك ودفنا اللوحين عندهما، وقيل على هذه الرواية: إن الملك أتى باب الغار، وأنهما دفنا ذلك في بناء الملك على الغار.

وروت فرقة أن الملك لما ذهب الفتية أمر بقَصِّ آثارهم، فانتهى ذلك لمُتَّبِعِيهِم إلى

(١) أي: أفراداً.



باب الغار، فعرف الملك فركب في جنده حتى وقف عليه، فأمر بالدخول عليهم، فهاب الرجال ذلك، فقال له بعض وزرائه: أَلَسْتَ أيها الملك إنْ أخرجتهم قتلتهم؟ قال: نعم، قال: فأي قتلة أبلغ من الجوع والعطش، ابنِ عليهم باب الغار ودعهم يموتون فيه، فَفَعَل، وضرب الله تعالى على آذانهم قبل ذلك لما أراد من تأمينهم، وأرَّخ الناسُ أمرهم في اللوحين، أو أرخه الرجلان بحسب الخلاف، واسم أحد الرجلين ـ فيما ذكر الطبري ـ نيدروس، واسم الآخر روقاس.

ورُوي أن هذا الملك الذي فرَّ الفتية من دينه كان قد امتحن الله به المؤمنين حيث أحسَّ بهم، يقتلهم يُعَلِّقهم أشخاصاً ورؤوساً على أسوار مدينته، وكان يريد أن يذهب في ذلك ـ كما ذكر ـ دين عيسى عليه السلام، وكان هو وقومه من الرُّوم.

ثم أخبر الله تعالى عن الفتية أنهم لما آوَوْا إلى الكهف، أي: دخلوه وجعلوه مأوى لهم وموضع اعتصام، دعوا الله تعالى بأن يُؤْتيهم رحمةً من عنده، وهي الرِّزْق فيما ذكره المفسرون، وأن يُهَيِّىءَ لهم من أمرهم رشداً، أي: خلاصاً جميلاً، وقرأ الجمهور: ﴿رَشَدًا﴾ بفتح الراء والشين، وقرأ أبو رجاءٍ: [رُشْداً] بضم الراء وسكون الشين، والأول أرجح لشبهها بفواصل الآيات قبلُ وبعدُ. وهذا الدعاءُ منهم كان في أمر دنياهم، وألفاظه تقتضي ذلك، وقد كانوا على ثقة من رشد الآخرة ورحمتها.

وينبغي لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دنياه هذه الآية فقط، فإنها كافية. ويحتمل ذكر الرحمة أن يُراد بها أمْرُ الآخرة. وقد اختصرتُ هذا القَصَصَ، ولم أُغْفِل من مُهِمِّه شيئاً بحسب اجتهادي. والله المعين برحمته.

وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ الآية، عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، ويُعَبَّر عن هذا ونحوه بالضرب لِتَتَبَيَّن قوةُ المباشرة وشدةُ اللصوق في الأمر المتكلَّم فيه والإلزامُ. ومنه ضرْبُ الذل والمسكنة، ومنه ضرْبُ الجزية وضربُ البعث، ومنه قول الفرزدق:

ضَـرَبَـتْ عَلَيْـكَ العَنْكَبُـوتُ بِنَسْجِهَـا ... وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الكِتَابُ المُنْزَلُ[1]

---

(١) البيت من قصيدته المشهورة التي قالها في هجاء جرير وقومه، والتي بدأها قائلاً:

إنَّ الَّـذي سَمَـكَ السَّمـاء بَنَـى لَنَـا ... بَيْتـاً دَعَـائِمُـهُ أَعَـزُّ وَأَطْـوَلُ =



فهو يستعمل في اللزوم البليغ.

وأما تخصيص الآذان بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عُظْم فساد النوم، وقلَّما ينقطع نوم نائم إلاَّ من جهة أُذنه، ولا يستحكم النوم إلاَّ مع تعطُّل السَّمع، ومن ذِكْر الأُذن في النوم قوله ﷺ: (ذلك رجلٌ بال الشيطان في أُذنه)[1]، أشار عليه الصلاة والسلام إلى رجل طويل النوم، لا يقوم باللَّيْل.

وقوله تعالى: [عَدَداً] نعتٌ لِلسِّنين، والقصد به العبارة عن التكثير، أي: تحتاج إلى عدد، وهي ذاتُ عدد. قال الزجاج: ويجوز أن يكون نصب [عَدَداً] على المصدر.

و«البَعْثُ»: التحريك بعد سكون، وهذا مطردٌ مع لفظة البعث حيث وقعت، وقد يكون السكون في الشخص، أو عن الأمر المبعوث فيه وإن كان الشخص متحركاً. وقوله تعالى: (لِنَعْلَمَ) عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود، وهذا على نحو كلام العرب، أي: لنعلم ذلك موجوداً، وإلاَّ فقد كان الله تعالى عَلِمَ أيُّ الحزبَيْن أحصى الأمد. وقرأ الزهري: [لِيَعْلَمَ] بالياء. و«الْحِزْبانِ»: الفريقان، والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذا ظنوا لبثهم قليلاً، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم حتى كان عندهم التاريخ بأمر الفتية. وهذا قول الجمهور من المفسرين. وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين اختلفا في مدة أصحاب الكهف. وقالت فرقة: هما حزبان من المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يرتبط من ألفاظ الآية.

وأمَّا قوله تعالى: [أَحْصَى] فالظاهر الجيد فيه أنه فعل ماض، و(أَمَداً) منصوب به

= ثم يمضي بعد تمجيد قومه إلى بيت جرير فيصفه بأنه زريبة للبهائم، وأن العنكبوت قد ضربت عليه خيوطها، وأن الفقر والذلة والهوان أُمور قد قضى بها الكتاب المنزل، فلا يملك جرير وقومه الفرار منها. والشاهد أن (ضَرَبَ) هنا بمعنى: إلزامهم بالذلة والمسكنة.

(١) أخرجه البخاري في التهجد وبدء الخلق، ومسلم في المسافرين، والنسائي في قيام الليل، وابن ماجه في الإمامة، وأحمد (١ـ٣٧٥، ٤٢٧، ٢/ ٢٦٠، ٤٢٧)، ولفظه كما في البخاري، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: ذُكر عند النبي ﷺ رجلٌ، فقيل: ما زال نائماً حتى أصبح ما قام إلى الصلاة، فقال: (بالَ الشيطانُ في أُذنه).



على المفعول، و«الأَمَدُ»: الغاية، ويأتي عبارة عن المدة من حيث للمدة غاية هي أمدها على الحقيقة. وقال الزجاج: ﴿أَحْصَى﴾ هو أفعل، و﴿أَمَداً﴾ ـ على هذا ـ نصب على التفسير، ويلحق هذا القولَ من الاختلال أن (أَفْعَلَ) لا يكون من فعل رباعي إلاَّ في الشَّاذ، و﴿أَحصَى﴾ فعل رباعي. ويحتج لقول أبي إسحق بأن (أَفْعَل) من الرباعي مذكر، كقولك: ما أعطاه للمال وآتاه للخير، وقال النبي ﷺ في صفة جهنم: (هي أسود من القار)[1]، وقال في صفة حوضه عليه الصلاة والسلام: (أبيض من اللَّبن)[2]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فهو لما سواها أضْيع»، وهذه كلها (أَفْعَل) من الرباعي[3]، وقال مجاهد: ﴿أَمَداً﴾ معناه: غاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير بالمعنى، وعلى جهة التقريب، وقال الطبري: نصب ﴿أَمَداً﴾ بـ﴿لَبِثُوا﴾، وهذا غير مُتَّجه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾.

لما اقتضى قوله تعالى: ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ اختلافاً وقع في أمر الفتية عقَّب بالخَبر عن أنه عزَّ وجلَّ يعلم من أمرهم بالحق الذي وقع. وفي مجموع هذه الآيات جواب قريش عن سؤالهم الذي أمرتهم به بنوا إسرائيل. و«القَصُّ»: الإخبارُ بأمر

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، (جهنم) ـ (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، والترمذي في التفسير، وابن ماجه في الزهد. ولفظه كما رواه البخاري، عن عبد الله بن عمرو، قال النبي ﷺ: (حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأُ أبداً).

(٣) من المعروف أن (أبيض وأسود) ليسا مبنيين من الرباعي، وقد وضَّح أبو حيان آراء بعض العلماء في بناء أفعل للتعجب وللتفضيل، وطبقها على ﴿أَحْصَى﴾ في هذه الآية، ويمكن الرجوع إلى ذلك في (البحر المحيط ٦ـ١٠٤).

يُسرد، لا بكلام يُرْوَى شيئاً شيئاً، لأن تلك المخاطبة ليست بقصص. وقوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أي: يَسَّرْناهم للعمل الصالح، والانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا، وهذه زيادات على الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدَّة عزم وقوة صبر أعطاها الله لهم، ولما كان الفزع وخورَ النفس يشبه بالتناسب الانحلال، حَسُن في شِدَّة النفس وقُوَّة التَّصميم أن يشبه الرَّبْط، ومنه يقال: «فلانٌ رابط الجأش» إذا كان لا تفترق نفسه عند الجزع والحرب وغيرها، ومنه الرَّبط على قلب أُمِّ موسى. وقول تعالى: ﴿إذا قاموا فقالوا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر؛ فإنه مقام يحتاج إلى الرَّبط على القلب، حيث طُلِبوا عليه، وخالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته. والمعنى الثاني أن يُعَبَّر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس، كما تقول: «قام فلان إلى أمر كذا» إذا عزم عليه بغاية الجد، وبهذه الألفاظ التي هي: ﴿قَامُواْ فَقَالُواْ﴾ تعلَّقت الصوفية في القيام والقول[1]، وقرأ الأعمش: «إذْ قَامُوا قِيَاماً فقالوا».

وقولهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾، اي: لو دعونا من دون ربنا إلهاً، و«الشَّطَطُ»: الجَوْرُ وتعدِّي الحدِّ والغُلُوُّ بحسب أمرٍ أمْرٍ، ومنه: «اشْتَطَّ الرجل في السَّوْم» إذا طلب في سلعته فوق قيمتها، ومنه: شطوط النَّوى والبعد، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ يـا لَقَـوْمِـي قَـدْ أَشَطَّـتْ عَـوازلـي ... وَيَزْعُمْنَ أَنْ أَوْدَي بِحَقِّيَ بَاطِلِي[2]

---

(١) نقل القرطبي قول ابن عطية هذا، ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا تعلُّق غير صحيح، هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم، خائفين من قومهم، وهذه سنَّة الله في الرُّسل والأنبياء والفضلاء الأولياء، أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام؟ وخاصة في هذا الزمان عند سماع الأصوات الحسان من المُرْدِ والنسوان، هيهات، بينهما والله ما بين الأرض والسماء، ثم هذا حرام عند جماعة العلماء».

(٢) البيت للأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت الأنصاري، وهو في اللسان (شطط). قال: «وشاهد أشَطَّ بمعنى أبعد قول الأحوص: ألا يا لَقَوْمي.. البيت».

وهو أيضاً من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن)، ذكر الآية، وذكر البيت وبعده بيتاً آخر هو:

وَيَلْحَيْنَنَـــي فـــي اللَّهْـــوِ الاَّ أُحِبَّـــهُ ... وَلِلَّهْـوِ داعٍ دائـبٌ غَيْـرُ غَـافِـلِ

وللأحوص حديث في كتب الأدب يتناول نفيه إلى قرية باليمن لمجونه وفسقه، وأن بعض الناس =



وقوله تعالى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ﴾ مقالة يصلح أن تكون مما قالوه في مقامهم بين يدي الملك، ويصح أن تكون من قول بعضهم لبعض عند قيامهم للأمر الذي عزموا عليه. وقولهم: ﴿ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ ﴾ تَخضِيضٌ بمعنى التعجيز؛ لأنه تَخضِيضٌ على ما لا يمكن؛ وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يُلتفت إلى دعواهم. و«السُّلْطَان»: الحُجَّة، وقال قتادة: المعنى: بِعُذْرٍ بيِّن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة محلقة.

ثم عظَّم جُرْم الداعين مع الله آلهةً وظُلْمَهم بقوله ـ على جهة التقرير ـ: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ ﴾ الآية. إنْ كان «القيامُ» في قوله سبحانه: ﴿ إِذۡ قَامُواْ ﴾ عَزْماً ـ كما تضمن التأويل الواحد، وكان «القول» منهم فيما بينهم ـ فهذه المقالةُ يصح أن تكون من قولهم الذي قالوه عند قيامهم؛ وإن كان «القيام» المذكور مقامَهم بين يدي الملك فهذه المقالة لا تترتب أن تكون من «مقالهم» بين يدي الملك، بل يكون في الكلام حذف تقديره: وقال بعضهم لبعض.

وبهذا يترجَّح أن قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ ﴾ إنما المراد به: إذْ عزموا ونفذوا لأمرهم.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، إن فرضنا الكفار الذين فَرَّ أهل الكهف منهم لا يعرفون الله تعالى، ولا عِلْمَ لهم به، إنَّمَا يعتقدون الألُوهية في أصنامهم فقط، فهو استثناءٌ منقطع ليس من الأول، وإن فرضناهم يعرفون الله تعالى ويعظمونه كما كانت تفعل العرب، لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة، فالاستثناءُ متصل؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفَّار إلاَّ في جهة الله تعالى. وفي مصحف ابن مسعود: «وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ»، قال قتادة: هذا تفسيرها، قال هارون: وفي بعض مصاحفه: «وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِنَا».

= كلم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ليعيده فرفض مستشهداً بكثير من شعره في المجون، مع أنه من ذرية الصحابي الجليل عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه «حميِّ الدَّبْر»، أي الذي حمته النحل من أن يُمثل الكفار بجثته بعد قتله.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى ما قال قتادة تكون ﴿إِلَّا﴾ بمنزلة «غَيْر»، و﴿مَا﴾ من قوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ في موضع نصب عطفاً على الضمير في ﴿ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ وَمُضَمَّن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض: إذْ فارَقْنَا الكفار وانفردنا بالله تعالى فَلْنَجْعَل الكهف مَأْوى، ونتّكل على الله تعالى، فإنه يبسط لنا رحمته، وينشرها علينا، ويُهَيِّىءْ لنا من أمرنا مرفقاً، وهذا كله دعاءٌ بحسب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله تعالى في أمر آخرتهم.

وقرأ نافع، وابن عامر: [مَرْفِقاً] بفتح الميم وكسر الفاء، وهو مصدر كالرِّفْق فيما حكى أبو زيد، وهي قراءة أبي جعفر، والأعرج، وشيبة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرٍو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، والحسن، وطلحة، والأعمش، وابن أبي إسحق: ﴿مِرْفَقاً﴾ بكسر الميم وفتح الفاء، ويقالان جميعاً في الأمر وفي الجارحة، حكاه الزجاج، وذكر مكيٌّ عن الفراء أنه قال: لا أعرف في الأمر وفي اليد وفي كل شيءٍ إلاَّ كسر الميم، وأنكر الكسائي أن يكون «المَرْفِقِ» من الجارحة إلاَّ بفتح الميم وكسر الفاء، وخالفه أبو حاتم وقال: «المَرْفِق» بفتح الميم الموضعُ كالمسجد، وهما بعد لغتان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

بيْن هاتَيْن الآيَتيْن اقتضاب يُبَيِّنُه ما تقدم من الآيات، وتقديره: فَأَوَوْا وضَرَب الله على آذانهم، ومكثوا كذلك.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: [تَزَّاوَرُ] بتشديد الزاي وإدغام التاء، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿تَزَاوَرُ﴾ بتخفيفها، بتقدير: تَتَزَاوَرُ، فحذفت إحدى التاءين، وقرأ ابن عامر، وابن أبي إسحاق، وقتادة: [تَزْوَرُّ] على وزن تَحْمَرُّ، وقرأ الجحدري، وأبو رجاءٍ: [تَزْوَارُّ] بألف بعد الواو. ومعنى اللفظة على كل هذا التصريف: تَعْدِلُ وتزوغُ وتميل، وهذه عباراتُ المفسرين، أما إن الأخفش قال:

[تَزَوَرُّ] معناه: تَنْقَبِضُ، والزَّوَرُ: المَيْلُ[١]، والأَزْوَرُ في العين: المائل النظر إلى ناحية، ويستعمل في غير العين، كقول ابن أبي ربيعة:

. . . . وجَنْبِي خيفَةَ الْقَوْمِ أَزْوَرُ[٢]

ومن اللفظة قول عنترة:

فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ . . . .[٣]

ومنه قول بشر بن أبي خازم:

تَؤُمُّ بهَا الحُدَاةُ مِيَاهَ نَخْلٍ وفيهَا عَنْ أَبَانَيْنِ ازْوِرَارُ[٤]

---

(١) الزَّوَرُ ـ بفتح الواو ـ هو المَيْلُ والعِوَجُ، أمّا بسكون الواو فهو الجزءُ المعروف في أعلى الصدر، وقيل: هو نفس الصدر، أو وسط الصدر.

(٢) هذا جزءٌ من البيت، وهو من قصيدته المشهورة: (أَمِنْ آل نُعْمٍ أنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ)، والبيت بتمامه كما في الديوان:

وخُفِّضَ عَنِّي الصَّوْتُ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْـ حُبَابِ وشَخْصِي خَشْيَةَ الحَيِّ أَزْوَرُ

والحُبَابُ: الحية، وهو في أبيات قبل هذا يصف كيف تمنى أن يلقاها، وكيف دلَّه القلبُ على مكانها بعد أن عرف ريَّاهَا، قال:

فَلَمَّا فَقَدْتُ الصَّوْتَ مِنْهُمْ وأُطْفِئَتْ مصابيحُ شُبَّتْ بالعَشَاءِ وأَنْؤُرُ
وغَابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أرْجُو غِيَابَهُ وَرَوَّحَ رُعْيَانٌ ونَوَّمَ سُمَّرُ

(وأقبَلْتُ) في البيت هي جواب لمّا في البيت الأول هنا. والشاهد أن (أَزْور) بمعنى: مائل.

(٣) وهذا صدرُ بيت من المعلقة قاله عنترة يفتخر بشجاعته وفروسيته فقد ظلَّ يقاتل مع أن فرسه قد تعب واشتكى، والبيت بتمامه:

فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ وَشَكَا إِلَيَّ بِعِبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

واللَّبَانُ: الصَّدْرُ، والتَّحَمْحُم: مِن صهيل الفرس وهو ما كان فيه تقطع وحنين ليرقَّ له صاحبه. يقول: تعب فرسي ومال من شدة وقع الرماح في صدره، وشكا إليَّ بِعَبْرَته وصوته المتقطع لأرقَّ له وأرحمه مما أصابه.

(٤) البيت من قصيدة حماسية له، بدأها بحديث الغزل الذي يصف فيه رحلة الحبيبة، وهي رقم ٩٨ في المُفَضَّليات، والبيت هو الثاني من أبياتها. والحُداة: جمع الحادي وهو الذي يسوق الإبل بالغناء. ونَخْل: اسم موضع. وأبَانَيْن: مُثَنَّى أَبَان، وهما أبان وسَلْمى، جبلان، والتثنية هكذا جاءت على أساس التغليب، كما تقولُ العُمَرَيْن. وازوِرَارُ: انحرافٌ ومَيْلٌ وعُدُولٌ عنهما. فقد رحلت القافلة، وساق الحُداةُ الظعائن قاصدين مياه نَخْل، ومنحرفين عن جبي أبان وسَلْمى.



وفي حديث غزوة مُؤْتة أن النبي ﷺ رأى في سرير عبد الله بن رواحة ازْوِراراً عن سريري جعفر وزيد بن حارثة(١).

وقرأ الجمهور: (تَقْرِضُهُمْ) بالتاء، وقرأت فرقة: [يَقْرِضُهُمْ] بالياء، أي الكهف، كأنه من القَرْضِ وهو القطع، أي: يَقْتَطِعُهم الكهفُ بظلِّه من ضوء الشمس. وجمهور من قرأ بالتاء فالمعنى أنهم كانوا لا تصيبهم شمس البَتَّةَ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، فيتأولون (تَقْرِضُهُمْ) بمعنى: تتركهم، أي: كأنها عنده تقطع كل ما لا تناله عن نفسها، وفرقة ممن قرأ بالتاء تأولت أنها كانت بالعشيِّ تنالهم فكأنها تقرضهم، أي تقطعهم مما لا تناله، وقالوا: كان في مسِّها لهم بالعشيِّ صلاح لأجسامهم. وحكى الطبريُّ أن العرب تقول: قرضتُ موضع كذا، أي قطعتهُ، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضْنَ أَجْوَازَ مُشْرِفٍ ... شِمالاً وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْفَوَارِسُ(٢)

ومنه: أقرضني درهماً، أي: اقطعه لي من مالك. وهذ الصفة مع الشمس تقتضي أنه كان لهم حاجبٌ من جهة الجنوب، وحاجب من جهة الدَّبور، وهم في زاويته. وحكى الزجاج وغيره قال: كان باب الكهف ينظر إلى بنات نعش، وقال عبد الله بن مسلم، وهذا نحو ما قلناه، غير أن الكهف كان مستور الأعلى من المطر. وذهب الزجاج إلى أن فِعْل الشمس كان آية من الله تعالى دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ يحتمل أن يريد: ذات يمين الكهف، بأن تقدر باب الكهف بمثابة وجه إنسان، فإن الشمس تجيءُ منه أول النهار عن

---

(١) الحديث رواه ابن إسحق في السيرة، قال: ولَمَّا أُصيب القوم ـ يعني في غزوة مؤتة ـ قال رسول الله ﷺ، فيما بلغني: أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتَّى قُتل شهيداً، ثم أخذها جعفرٌ فقاتل بها حتَّى قُتل شهيداً، قال: ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثم قال: ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم قال: لقد رُفعوا إليَّ في الجنة، فيما يرى النائم، على سُرُرٍ من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحه ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلت: عمَّ هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بعض التردّد، ثم مضى.

(٢) البيت في الديوان، والطبري، ومجاز القرآن، و(إلى ظُعُنٍ) معناها: نظرتُ إلى ظُعُن، وهي جمع ظعينة، والظعينة هي المرأة في الهودج على جملها. ويَقْرِضْنَ: يَمِلْنَ عن أجواز مشرف، أو يقطعن هذه الأجواز، وهي موضع الشاهد هنا، والأجواز: جمع جَوْز، وهو وسط الشيء، ومُشرف والفوارس: موضعان بنجد، ذكر ذلك صاحب معجم ما استعجم، والبيت في وصف رحلة الظعائن.



يمين وآخره عن شمال، ويحتمل أن يريد: ذات يمين الشمس وذات شمالها، بأن تقدر الشعاع الممتد منها إلى الكهف بمثابة وجه الإنسان. والوجه الأول أوضح.

و«الْفَجْوَةُ»: المُتَّسَع، وجَمْعها فِجَاءٌ، قال قتادة: في فضاءٍ منه، ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ يَسِيرُ العَنَقَ، فإذا وجد فجوة نصّ[1]. وقال ابن جبير: ﴿فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: في مكان داخل.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى الأمر بجُمْلته، وعلى قول الزجاج «إن الشمس كانت تَزَّاور وتَقْرض دون حجاب» تكون الإشارة إلى هذا المعنى خاصة. ثم تابع بتعظيم الله عزَّ وجلَّ والتسليم له وما يقتضي صرف الآمال إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ الآية... صفةُ حالٍ قد انقضت، وجاءت أفعالها مستقبلة تَجَوُّزاً واتِّساعاً.

و[أَيْقَاظاً] جمع يَقُظ، كَعَضُدٍ وأعضاد، وهو المُنْتَبه. قال أهل التفسير: كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون، فلذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يحسب الرائي ذلك لشدة الحفظ الذي كان عليهم، وقِلَّة التَّغير، وذلك أن الغالب على النُّوَّام أن يكون لهم استرخاءٌ وهيئات تقتضي النوم، ورُبَّ نائم على أحوال لم تتغير على حالة اليقظة، فيحسبه الرائي يقظاناً وإن كان مسدود العين، ولو صحَّ فتح أعينهم بسند يقطع العذر كان أَبْيَن في أن يحسب عليهم التيقُّظ.

وقرأ الجمهور: (وَنُقَلِّبُهُمْ) بنون العظمة، وقرأ الحسن: [وَتَقَلُّبُهُم] بالتاء المفتوحة وضم اللام والباء، وهو مصدر مرتفع بالابتداء، قاله أبو حاتم. وحكى ابن جنِّي القراءة عن الحسن بفتح التَّاء وضم اللام وفتح الباء، وقال: هذا نصب بفعل مقدر، كأنه قال: وتَرَى، أو تُشاهد تَقَلُّبَهُم[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الحج والجهاد والمغازي، ومسلم في الحج، وأبو داود في المناسك، وكذلك النسائي وابن ماجه، وأحمد في مسنده (٥ـ٢٠٥، ٢١٠). ولفظه كما في مسند أحمد: سُئل أُسامة عن سير رسول الله ﷺ فقال: كان سيره العَنَق، فإذا وجد فَجْوَةً نَصَّ، والنَّصُّ فوق العَنَق، وأنا رديفه. اهـ. والعَنَق: ضربٌ من السَّيْر فسيحٌ سريعٌ منبسط، والنَّصُّ: التحريك حتَّى تستخرج من الناقة أقصى سيرها.


(٢) قال أبو الفتح: «فإن قيل: إن التَّقَلُّب حركة، والحركة غير مرئية، قيل: هذا غورٌ آخر ليس من القراءة=



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأبو حاتم أثبت.

ورأت فرقة أن التَّقَلُّب هو الذي من أجله كان الرائي يحسبهم أيقاظاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ـ وإن كان التَّقَلُّب لمن صادف رؤيته دليلاً على ذلك ـ فإن ألفاظ الآية لم تَسُقْه إلاَّ خبراً مُسْتَأْنفاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هذا التقلب مرتين في السنة، وقالت فرقة: كل سنة مرة، وقالت فرقة: كل سبع سنين مرة، وقالت فرقة: إنما قُلِّبُوا في التسع الأواخر، وأما الثلاثمائة فَلاَ. وذكر بعض المفسرين أن تَقَلُّبهم إنما كان حِفْظاً من الأرض، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لو مسَّتهم الشمس لأحرقتهم، ولولا التقلُّب لأكلتهم الأرضُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وآية الله تعالى في نومهم هذه المدة الطويلة وحياتهم دون تَغَذٍّ أذهبُ في الغرابة من حفظهم من مَسِّ الشمس ولزوم الأرض، ولكنها روايات تختلف وتُتَأَمَّل بعد[1]، وظاهر كلام المفسرين أن التَّقَلُّب كان بأمر الله تعالى وفِعْل ملائكته. ويحتمل أن يكون ذلك بإقدار الله إياهم على ذلك وهم في غمرة النوم وهم لا ينتبهون كما يعتري كثيراً من النوام؛ لأن القوم لم يكونوا موتى.

وقوله تعالى: [وَكَلْبُهُمْ]. أكثر المفسرين على أنه كلْبٌ حقيقة، كان لصيد أحدهم فيما رُوي، وقيل: كان لراعٍ مَرُّوا عليه فصحبهم وتَبِعَه الكلبُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحدَّثني أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ أبا الفضل بن الجوهر في جامع مصر يقول على مِنْبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إنَّ من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كلْبٌ أحبَّ أهل فضل وصَحِبَهم فذكره الله تعالى في محكم تنزيله. وقيل: كان أَنْمر[2]،

= في شيء إلا أنك تراهم يتقلبون، والمعنى مفهوم، وليس كل أحد يقول: إن الحركة لا تُرى».

(١) اختلفت النسخ الأصلية في إثبات هاتين الكلمتين: (تختلف وتتأمل)، واخترنا أقربها ملاءمة للمعنى.

(٢) النُّمْرَةُ: النكتة من أي لون كان، والأنْمَر: الذي فيه نُمْرَةٌ بيضاءُ وأخرى سوداءُ. والأنثى: نمراءُ، وسُمِّي=

وقيل: كان أحمر، وقالت فرقة: كان رجلاً طباخاً لهم، حكاه الطبري ولم يُسَمِّ قائله، وقالت فرقة: كان أحدهم، وكان قعد عند باب الغار طليعة لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فَسُمِّي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس، كما سُمِّي النجم التابع للجوزاء كلباً لأنه منها كالكلب من الإنسان، ويقال له: كلب الجبَّار. أما إن هذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها في العرف في صفة الكلب حقيقة، ومنه قول النبي ﷺ: (ولا يبسط أحدكم ذراعيه في السجود انبساط الكلب)[1]، وقد حكى أبو عُمَرَ المطَرِّزُ في كتاب اليواقيت أنه قرىء: «وَكَالِبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْه»، فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما رُوي؛ إذْ بَسْط الذراعين واللُّصوق بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الربيئة[2] المستخفي بنفسه، ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب. وقوله تعالى: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المُضِيِّ لأنها حكاية، ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب.

و«الْوَصِيدُ»: العتَبَةُ التي لباب الكهف، أو موضعها حيث ليست، وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير: الوصيدُ: الفِناءُ. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: الوصيد: الباب، وقال ابن جُبير أيضاً: الوصيدُ: الترابُ، والقول الأول أصحُّ، والبابُ الموصد هو المغْلق، أي: وقف على وصيده.

ثم ذكر الله تعالى ما حفَّهم من الرُّعب واكتنفهم من الهيبة، وقرأ: ﴿لو اطَّلَعْتَ﴾ بكسر الواو جمهورُ القراء، وقرأ الأعمش، وابن وثاب: [لَوُ اطَّلَعْتُ] بضمها، وقد ذُكر ذلك عن نافع، وشيبة، وأبي جعفر، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عباس رضي الله عنهما، وأهل مكة والمدينة: [لَمُلِّئْتَ] بشدِّ اللاَّم على تضعيف المبالغة، أي: مُلِئْتَ ثم

= النَّمِرُ بذلك لأن فيه نُمَراً. (عن اللسان).

(١) أخرجه البخاري في المواقيت والأذان، ومسلم والترمذي في الصلاة، والنسائي في الافتتاح، وابن ماجه في الإقامة، والدارمي في الصلاة، وأحمد في المسند (٣ـ١١٥، ١٧٧، ١٧٩ وأماكن أخرى)، ولفظه كما في مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (اعتدلوا في السجود، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب).

(٢) الرَّبيئَةُ والرَّبيءُ: الطليعة الذي يرقب العدوَّ من مكان عالٍ لئلا يدهم قومه، والجمع رَبَايَا. (المعجم الوسيط).



مُلِئْتَ، وقرأ الباقون: ﴿لَمُلِئْتَ﴾ بتخفيف اللام، والتخفيف أشهر في اللغة، وقد جاء التثقيل في قول المُخَبَّل السعدي:

وَإِذْ فَتَكَ النُّعْمَانُ بِالنَّاسِ مُحْرِماً ... فَمُلِّىءَ مِنْ كَعْبِ بن عَوْفٍ سَلاسِلُهْ[1]

وقالت فرقة: إنما حفَّهم هذا الرعب لطول شعورهم وأظفارهم، ذكره المهدوي والزجاج، وهذا قولٌ بعيد، ولو كانت حالهم هكذا لم يقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وإنما الصحيح في أمرهم أن الله عزَّ وجلَّ حفظ لهم الحالة التي قاموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيها آية، فلم يبل لهم ثوب، ولا تغيَّرت صفة، ولا أنكر الناهض إلى المدينة إلاَّ معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم، ولروي ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿رُعْباً﴾ بسكون العين، وقرأ [رُعُباً] بضمها أبو جعفر وعيسى، قال أبو حاتم: هما لغتان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الأمر الذي ذكره الله تعالى في جهتهم والعِبْرة التي جُعِلَت فيهم. و«الْبَعْثُ»: التحريك عن سكون، واللام في قوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا﴾ لام الصيرورة؛ لأن بعثهم لم يكن لنفس تساؤُلهم، وقول القائل: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ يقتضي أنه هجس بخاطره طول نومهم، واستشعر أن أمرهم خرج عن العادة بعض الخروج، وظاهر أمرهم أنهم انتبهوا في حال من الوقت والهواء الزمني لا تباين التي ناموا فيها، وأما أن يُحَدِّدَ الأمر جداً فذلك بعيد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾

---

(١) المخَبَّل: المجنون، وبه سُمِّي الشاعر، واسمه الأصلي ربيعة بن مالك، وهو شاعر مخضرم، يقال إنه مات في خلافة عثمان، والفَتْكُ: قَتْلُ الناسِ مجاهرة، أو غَدْراً، والمُحْرِم: الداخل في الشهر الحرام. والبيت شاهد على أن التثقيل واردٌ في (مُلِّىءَ)، ويفيد المبالغة في المعنى.



بكسر الراء، وقرأ أبو عمرٍو، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: [بِوَرْقِكُمْ] بسكون الراء، وهما لغتان، وحكى الزجاج قراءة [بِوِرْقِكُمْ] بكسر الواو وسكون الراء دون إدغام، ورُوي عن أبي عمرو الإدغام، وإنما هو إخفاءٌ؛ لأن الإدغام مع سكون الراء متعذر، وأدغم ابن محيصن القاف في الكاف، قال أبو حاتم: وذلك إنما يجوز مع تحريك الراء، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [بِوَارِقِكُمْ]، اسم جمع كالجائل والباقر، وقرأ أبو رجاءٍ: [بِوِرِقكمْ] بكسر الواو والراء والإدغام.

ويروى أنهم انتبهوا أحياناً، وأن المبعوث هو تَمْلِيخا، وروي أنهم صلوا كأنهم ناموا ليلة واحدة وبعثوا تَمْلِيخا في صبيحتها.

وروي أن باب الكهف انهدم بناءُ الكفار منه لطول السنين، وروي أن راعياً هدمه ليدخل فيه غنمه. فأخذ تَمْلِيخا ثياباً منكرة رثَّة ولبسها وخرج من الكهف فأنكر ذلك البناء المهدوم؛ إذ لم يعرفه بالأمس، ثم مشى فجعل يذكر الطريق والمعالم ويتحير، وهو في ذلك لا يشعر شعوراً تامّاً، بل يكذب ظنه فيما تغير عنده، حتى بلغ باب المدينة، فرأى على بابها أمارة الإسلام فزادت حيرته وقال: كيف هذا ببلدة دقنيوس وبالأمس كنا معه حيثما كنَّا؟ فنهض إلى باب آخر فرأى نحواً من ذلك حتى مشى الأبواب كلها، فزادت حيرته ولم يميز بشراً، وسمع الناس يقسمون باسم عيسى فاستراب بنفسه وظن أنه جُنَّ وانفسد عقله، فبقي حيران يدعو الله تعالى، ثم نهض إلى بائع الطعام الذي أراد شراءه، فقال: يا عبد لله بعني من طعامك بهذا الورق، فدفع إليه دراهم كأخفاف الرُّبَع[1] فيما يذكر، فعجب لها البياع ودفعها إلى آخر يُعَجِّبُه، وتعاطاها الناسُ وقالوا له: هذه دراهم عهد فلان الملك، من أين أنت؟ وكيف وجدت هذا الكنز؟ فجعل يبهت ويعجب، وقد كان بالبلدة مشهوراً هو وفتيته، فقال: ما أعرف غير أني وأصحابي خرجنا بالأمس من هذه المدينة، فقال الناس: هذا مجنون، اذهبوا به إلى الملك، ففزع عند ذلك، فذُهب به حتى جيء به إلى الملك، فلما لم ير دقنيوس الكافر تأنس، وكان ذلك الملك مؤمناً فاضلاً يُسمَّى تَيْرُوسيس، فقال له الملك: أين وجدت هذا الكنز؟ فقال له: إنما خرجت أنا وأصحابي أمس من هذه المدينة، فأوينا إلى

---

(١) الرُّبَع: الفصيل ينتج في الربيع، وهو أول النتاج ـ والفَصيل هو ولد الناقة أو البقرة بعد فطامه وفصله عن أُمّه.



الكهف الذي في جبل أنجلوس، فلما سمع الملك ذلك قال ـ في بعض ما روي ـ: لعل الله قد بعث لكم أيها الناسُ آية، فَلْنسر إلى الكهف معه حتى نرى أصحابه، فسار. ورُوي أنه أو بعض جلسائه قال: هؤلاء هم الفتية الذين أُرِّخ أمرهم على عهد دقنيوس الملك وكتب لوح النحاس بباب المدينة، فسار الملك إليهم وسار الناسُ معه، فلما انتهوا إلى الكهف قال تَمْليخا: أَدْخُل عليهم لئلا يرعبوا، فدخل عليهم وأعلمهم بالأمر وأن الأمة أُمَّة إسلام، فيروى أنهم سُرُّوا وخرجوا إلى الملك وعظموه وعظمهم، ثم رجعوا إلى كهفهم، وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدثهم تَمْلِيخا، فانتظرهم الناس، فلما أبطأ خروجهم دخل الناس إليهم، فرعب كل من دخل، ثم أقدموا فوجدوهم موتى، فتنازعوا بحسب ما يأتي في الآية التي بعد هذه.

وفي هذا القصص من اختلاف الروايات والألفاظ ما تضيق به الصحف، فاختصرته وذكرتُ المهم الذي تتفسَّر به ألفاظ هذه الآية، واعتمدتُ الأصح، والله المعين برحمته.

وفي هذه البعثة بالوَرِق الوكالةُ وَصِحَّتُها، وقد وكَّل علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخاه عقيلاً عند عثمان رضي الله عنهم[1].

وقرأ الجمهور: ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ بسكون لام الأمر، وقرأ الحسن: [فَلِيَنْظُر] بكسرها. و[أَزْكَى] معناه: أكثر، فيما ذكر عكرمة، وقال قتادة: معناه: خير، وقال مقاتل: المرادُ: أطيب، وقال ابن جُبَيْر: المراد: أَحَلُّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

من جهة ذبائح الكفرة وغير ذلك، فروي أنه أراد شراء زبيب، وقيل: بل شراء تمر.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، أي: في اختفائه وتَحَيُّله، وقرأ الحسن: [وَلِيَتَلَطَّف] بكسر اللام.

والضمير في [إِنَّهُمْ] عائد على الكفار آل دقينوس، و﴿إِن يَظْهَرُوا﴾ معناه:

---

(١) قال بعض العلماء: في هذه الآية جواز الشَّركة لأن الورق كان لهم جميعاً، وجواز الوكالة لأنهم بعثوا من وكلوه بالشراء، وجواز خلط الطعام وأكل الرفقاء، وإن كان بعضهم أكثر أكلاً من بعض، ومثله في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾.



يثقفوكم بعلومهم وغلبتهم. وقوله تعالى: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾، قال الزجاج: معناه: بالحجارة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو الأصح؛ لأنه كان عازماً على قتلهم لو ظفر بهم. والرجْم فيما سلف هي كانت ـ على ما ذُكر ـ قِتْلة مخالف دين الناس، إذْ هي أشفى لجملة ذلك في الدين، ولهم فيها مشاركة، وقال حجاج: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ معناه: بالقول. وباقي الآية بيّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

الإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إلى بعثهم ليتساءلوا، أي: كما بعثناهم أعثرنا عليهم.

و(أَعْثَرَ) تعْدية (عَثَرَ) بالهمزة، وأصل العثار في القوم، فلما كان العاثر في الشيء مُشْبِهاً له شُبِّه به، من شبه العلم بشيءٍ عنَّ له وثار بعد خفائه. والضمير في ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ يحتمل أن يعود على الأمة المسلمة الذين بعث أهل الكهف على عهدهم، وإلى هذا ذهب الطبري، وذلك أنهم ـ فيما روي ـ دخلتهم حينئذ فتنة في أمر الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه، وقالوا: إنما تحشر الأرواح، فشق ذلك على ملكهم، وبقي حيران لا يدري كيف يبيِّن مره لهم حتى لبس المسوح وقعد على الرماد، وتضرع إلى الله في حُجَّة وبيَان، فأعثر الله على أهل الكهف، فلما بعثهم الله تعالى وتبيَّن الناسُ أمرهم سُرَّ الملك، ورجع من كان شك في بعث الأجسام إلى اليقين به، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ على هذا التأويل. ويحتمل أن يعمل في ﴿إِذْ﴾ ـ على هذا التأويل ـ ﴿أَعْثَرْنَا﴾، ويحتمل أن يعمل فيه ﴿لِيَعْلَمُوا﴾.

والضمير في قوله: ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ يحتمل أن يعود على أصحاب الكهف، أي: يجعل الله تعالى أمرهم آية لهم دالَّة على بعث الأجساد من القبور. وقوله: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ـ على هذا التأويل ـ ابتداءُ خبر عن القوم الذين بُعثوا على عهدهم، والعامل

في [إذْ] فعل مضمر تقديره: واذكر، ويحتمل أن يعمل فيه: ﴿فَقَالُوا﴾، ويكون المعنى: فقالوا إذ يتنازعون: ابنوا عليهم، والتَّنازع ـ على هذا التأويل ـ إنما هو في أمر البناء والمسجد لا في أمر القيامة. و«الرَّيْبُ»: الشَّك، والمعنى: إنَّ الساعة في نفسها وحقيقتها لا شك فيها، وإن كان الشك وقع لِنَاسٍ فذلك لا يلحقها منه شيءٌ. وقد قيل: إن التنازع إنما هو في أن اطلعوا عليهم فقال بعضهم: أمواتٌ، وقال بعضهم: أحياءٌ، ورُوي أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيبين، فقالت الطائفة الغالبة على الأمر: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فاتَّخذوه، وقال قتادة: الذين غَلَبُوا هم الوُلاة. وقرأ الحسن، وعيسى الثقفي: [غُلِبُوا] بضم الغين وكسر اللام، والمعنى: إن الطائفة التي أرادت المسجد كانت أولاً تريد ألاَّ يبنى عليهم شيءٌ وألا يعرض لموضعهم. ورُوي أن طائفة أخرى مؤمنة أرادت ولا بُدَّ طمس الكهف، فلمَّا غُلِبت الأولى على أن يكون بنيان ولا بُدَّ قالت: يكون مسجداً، فكان. وروي أن الطَّائفة التي دعت إلى البنيان إنما كانت كافرة أرادت بناءَ بيعة أو مصنع لكفرهم، فمانعهم المؤمنون وقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. ورُوي عن عبيد بن عمير أن الله تعالى عَمَّى على الناس حينئذ أمرهم وحَجَبَهم عنهم، فذلك دعا إلى بناء البنيان ليكون معلماً لهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

الضمير في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ يراد به أهل التوارة من معاصري محمد ﷺ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص.

وقرأ الجمهور: ﴿ثلاثَةٌ﴾، وقرأ ابن محيصن: [ثلاثٌ] بإدغام التاء في الثاء، وقرأ شبل عن ابن كثير: [خَمَسَةٌ] بفتح الميم إتباعاً لِعَشَرة، وقرأ ابن محيصن: [خِمِسَةٌ] بكسر الخاء والميم.

وقوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ معناه: ظَنّاً، وهو مستعارٌ من الرجم، كأن الإنسان



يرمي الموضع المُشكل المجهول عنده بِظَنِّه المرَّة بعد المرَّةِ، يرجمه به عسى أن يصيب، ومن هذا: الترجمان، وتَرْجَمة الكتب، ومنه قول زهير:

وَمَا الْحَرْبُ إِلاَّ ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ[1]

والواو في قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ طريق النحويِّين فيها أنها واو عطف دخلت في آخر إخبار عن عددهم، لتفصل أمرهم، وتدل على أن هذا نهاية ما قيل، ولو سقطت لصح الكلام، [ولو كانت فيما قبل من قوله: ﴿رَابِعُهُمْ﴾ و﴿سَادِسُهُمْ﴾ لصَحَّ الكلام][2]، وتقول فرقة منها ابن خالويه: هي واو الثمانية، وذكر ذلك الثعلبي عن أبي بكر بن عياش، وأن قريشاً كانت تقول في عددها: ستة، سبعة، وثمانية، تسعة، فتدخل الواو في الثمانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تقدم شرحها[3]، وهي في القرآن في قوله تعالى: ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[4]، وقوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[5]، وأما قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾[6]، وقوله: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾[7] فتوهم في هذين الموضعين أنها واو الثمانية وليست بها، بل هي لازمةٌ لا يستغني الكلام عنها[8].

---

(١) البيت من المعلقة، والعِلْمُ والذَّوْقُ يكونان في الخبرة والتجربة، و(هُوَ) في قوله: (وما هو عنها) يعود على مفهوم من الكلام، والمعنى: وما الخبر عنها بحديث يُرَجَّم بالظن، والمُرَجَّم: الذي يُرمى فيه بالظن، وهو موضع الاستشهاد هنا، يقول: ما الحرب إلاَّ ما قد جرَّبتم وخَبَرْتم وذُقتم، فإياكم أن تعودوا إليها، وما الحديث عنها بحديث يرجَّم فيه بالظن، ولكن هو حديث التجربة المُرَّة والخبرة القاسية، فإياكم أن تغدروا وتعودُوا إلى الحرب.

(٢) ما بين العلامتين (ولو كانت. . .) سقط من جميع النسخ، ولم نجده إلاَّ في النسخة التونسية.

(٣) راجع المجلد الرابع صفحة ٤٢٠.

(٤) من الآية (١١٢) من سورة (التوبة).

(٥) من الآية (٧٣) من سورة (الزُّمَر).

(٦) من الآية (٥) من سورة (التحريم).

(٧) من الآية (٧) من سورة (الحاقة).

(٨) وقد سبق أن تحدثنا طويلاً عن واو الثمانية في سورة التوبة، المجلد الرابع صفحة ٤٢٠، ورجَّحنا قول القشيري الذي يرى أن كلام ابن خالويه في مناظرة جرت بينه وبين أبي علي الفارسي، وكلام أبي بكر بن عياش، هذا الكلام تحكم منهما، وقد نقض القرآن الكريم هذه القاعدة في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، حيث لم يذكر الاسم الثامن من أسماء الله عز وجل بالواو. وإنما ذكرت الواو هنا=

وقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ في هذه أن يَرُدَّ عِلْم عدَّتهم إليه عزَّ وجلَّ، ثم أخبر أن عالِم ذلك من البشر قليل، والمراد به قومٌ من أهل الكتاب، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «أنا من ذلك القليل، وكانوا سبعة وثامنهم كلبهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويُستدل على هذا من الآية، فإن القرآن لما حكى قول من قال ثلاثة وخمسة قَرَن بالقول أنه رُجْمٌ بالغيب، وقدح ذلك فيهما، ثم حكى هذه المقالة ولم يقدح فيها بشيءٍ، بل تركها مسجلة، وأيضاً فيَقْوَى ذلك على القول بأنها واو الثمانية لأنها إنما تكون حيث عدد الثمانية صحيح.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ معناه على بعض الأقوال، أي: بظاهر ما أوحينا إليك وهو ردُّ علم عِدَّتهم إلى الله تبارك وتعالى، وقيل: معنى الظاهر أن يقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا يحتج هو على أمْرٍ مقدَّرٍ في ذلك، فإن ذلك يكون مراءً في باطن من الأمر، وقال التبريزي: [ظَاهِراً] معناه: ذاهباً، وأنشد:

. . . . وَتِلْكَ شَكاةٌ ظَاهِرٌ عَنْك عَارُهَا[1]

ولم يُبِح له في هذه الآية أن يماري، ولكن قوله: ﴿إِلَّا مِرَآءً﴾ استعارة، من حيث يماريه أهل الكتاب سُمِّيت مراجعته لهم مراءً، ثم قُيِّد بأنه ظاهر ففارق المراءَ الحقيقي المذموم. و«المِرَاءُ» مشتق من المِرْية، وهي الشَّك، فكأنه المُشَاكَكَةُ. والضمير في قوله تعالى: [فِيهِمْ] عائد على أهل الكهف، وفي قوله سبحانه: [مِنْهُمْ] عائد على أهل الكتاب المعاصرين. وقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ يعني: في عِدَّتهم، وحُذِفَت العِدَّةُ لدلالة ظاهر القول عليها.

= كما قال ابن عطية لتُفَصِّل أمْرَهم، ولتدُلَّ على أن هذا نهاية ما قيل فيهم.

(١) هذا عجز بيت قاله أبو ذؤيب من قصيدة يرثي بها نُشَيْبَة بن مُحرِّث، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

أَبَى القَلْبُ إلاَّ أُمَّ عَمْرٍو وأصْبَحَتْ ... تُحَرِّقُ نَارِي بالشَّكَاةِ وَنَارَهَا
وَعَيَّرَهَا الوَاشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا ... وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكِ عَارُهَا

تُحَرِّق ناري: توقدها بالشكاة، يقول: أوقدتْ لي ناراً فاشتهرنا بها، وانتشر أمري وأمرها لَمَّا لم أُقلع عن حبها، وذلك التَّعبير ظاهر عنك، أي: لا يلحق بكِ عارُه، ولا يلصق بك، يقال: ظهر عن الشيء: تباعد وذهب. وهذا موضع الاستشهاد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ الآية. عاتب الله تعالى نبيَّه ﷺ على قوله للكفار: غَداً أُخبركم بجواب أسئلتكم، ولم يستثنِ في ذلك، فاحتبس عنه الوحيُ خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه، وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السُّورة مفرجة، وأمر في هذه الآية ألاَّ يقول في أمر من الأمور: إني أفعل غداً كذا وكذا إلاَّ وأن يُعلِّق ذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ. واللام في قوله تعالى: [لِشَيْءٍ] بمنزلة (في)، أو كأنه قال: لأجل شيءٍ. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويُحَسِّنه الإيجاز، تقديره: إلاَّ أن تقول «إلاَّ أن يشاءَ الله»، أو إلاَّ أن تقول «إن شاء الله». فالمعنى: إلاَّ أن تذكر مشيئة الله، فليس ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ من القول الذي نُهي عنه. وقالت فرقة: قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناءٌ من قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ حكاه الطبري ورُدَّ عليه، وهو من الفساد بحيث كان من الواجب ألاَّ يُحْكَى[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾، قال ابن عباس، والحسن: معناه والإشارة به إلى الاستثناء، أي: وَلْتَسْتَثْنِ بعد مُدَّة إذا نسيت الاستثناء أوَّلاً لتخرج من جملة من لم يعلِّق فعله بمشيئة الله، وقال عكرمة: المعنى: واذكر ربَّك إذا غضبت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتكلم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآية ليست في الأيمان، وإنما هي في سنة الاستثناء في غير اليمين، ولكن من حيث تكلم الناس فيها ينبغي أن نذكر شيئاً من ذلك.

---

(١) هذا نصُّ كلام الطبري: «وكان بعض أهل العربية يقول: جائز أن يكون معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناء من القول، لا من الفعل، كأن معناه عنده: لا تقولنَّ قولاً إلاَّ أنْ يَشَاء الله ذلك القول. وهذا وجه بعيد من المفهوم بالظاهر من التنزيل، مع خلافه تأويل أهل التأويل»، وممن قال ذلك الزمخشري، قال: «إن الاستثناء متعلق بالنهي لا بالفعل، وتعلقه به على وجهين: أحدهما ولا تقولنَّ ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله بأن ذلك فيه، والثاني لا تقولنَّه إلاَّ بأن يشاء الله، أي: إلاَّ بمشيئته، وهو في موضع الحال، أي: إلاَّ متلبساً بمشيئة الله قائلاً إن شاء الله»، أمَّا ما اختاره المؤلف فهو رأي الكسائي، والفراء، والأخفش.



أما مالك رحمه الله وجميع أصحابه ـ فيما علمت ـ وكثير من العلماء فيقولون: لا ينفع الاستثناءُ ويُسقط الكفارة إلاَّ أن يكون متصلاً باليمين. وقال عطاءٌ: له أن يستثني في قدر حَلَب النَّاقة الغزيرة.

وقال قتادة: إن استثنى قبل أن يقوم فَلَه ثُنْياه. وقال ابن حنبل: له الاستثناءُ ما دام في ذلك الأمر، وقاله ابن راهويه. وقال طاوس، والحسن: ينفع الاستثناءُ ما دام الحالف في مجلسه. وقال ابن جبير: ينفع الاستثناءُ بعد أربعة أشهر فقط، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ينفع الاستثناءُ ولو بعد سنة. وقال مجاهد: بعد سنتين، وقال أبو العالية: ينفع أبداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واختلف الناس في التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقال الطبري وغيره: إنما أراد ابن عباس أنه ينفع في أن يجعل الحالف في رتبة المستثنين بعد سنة من حلفه، وأما الكفارة فلا تسقط عنه، قال الطبري: ولا أعلم أحداً يقول (ينفع الاستثناءُ بعد مُدَّةٍ) يقول بسقوط الكفارة، قال: ويَرُدُّ ذلك قولُ النبي ﷺ: «من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيراً منها فَلْيُكَفِّر وَلْيَأْت الذي هو خير»[١]، فلو كان الاستثناءُ يسقط الكفارة لكان أخف على الأُمَّة، ولم يكن لذكر الكفارة فائدة.

وقال الزهراوي: إنما تكلَّم ابن عباس رضي الله عنهما في أن الاستثناء بعد سنة لمن قال: أنا أفعل كذا، لا الحالف أراد حلَّ يمينه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهبت فرقة من الفقهاء إلى أن مذهب ابن عباس رضي الله عنهما سقوط الكفارة، وألزموا كل من يقول (ينفع الاستثناءُ بعد مدة) إسقاط الكفارة، وردُّوا على القول بعدم إلزامه، وليس الاستثناءُ إلاَّ في اليمين بالله، لا يكون في طلاق ونحوه، ولا في مشي إلى مكة، وهذا قول مالك وجماعة.

وقال الشافعي رحمه الله، وأصحاب الرأي، وطاوس، وحماد: الاستثناءُ في ذلك

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ومسلم، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح.

جائز، وليس في اليمين الغموس(١) استثناءٌ ينفع، ولا يكون الاستثناءُ بالقلب، وإنما يكون قولاً ونطقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ الآية. قال محمد الكوفي المفسِّر: إنَّها بألفاظها مِمَّا أُمر أن يقولها كلُّ من لم يستثن، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاءٌ مأمورٌ به دون هذا التخصيص.

وقرأ الجمهور: [يَهْدِيَنِي] بإثبات الياء، وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو. وقرأ طلحة بن مصرف: (يَهْدِيَنِ) دون ياءٍ في الوصل، وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي.

والإشارة بـ[هَذَا] إلى الاستدراك الذي يقع من ناسي الاستثناء وقال الزجاج: المعنى: عسى أن يُيَسِّر الله من الأدلَّة على نبوتي أقرب من دليل أصحاب الكهف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما قدَّمته أصوب، أي: عسى أن يرشدني فيما أستقبل من أمري. وهذه الآية مخاطبة للنبي ﷺ، وهي بعد تَعُمُّ جميع أُمته، لأنه حكم يتردد في الناس بكثرة وقوعه، والله الموفق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

قال قتادة، ومطر الوراق، وغيرهما: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ الآية حكاية عن بني إسرائيل أنهم قالوا ذلك، واحتجَّا بأن في قراءة عبد الله بن مسعود وفي مصحفه: «وَقَالوا لَبِثُوا في كَهْفِهِمْ»، وذلك عند قتادة ـ على غير قراءة عبد الله ـ عطف على ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾، ذكره الزهراوي.

---

(١) اليمين الغَمُوسُ: الكاذبة، تغمس صاحبها في الإثم، وفي الحديث الشريف: (اليمين الغموس تذر الديار بلاقع)، وفي البخاري عن عبد الله بن عمرو قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: الإشراك بالله، قال: ثم ماذا؟ قال: عقوق الوالدين، قال: ثم ماذا؟ قال: اليمين الغَموس، قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: التي يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب.



ثم أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بأن يرُدَّ العلم إليه ردّاً على مقالتهم وتفنيداً لهم، قال الطبري: «وقال بعضهم: لو كان ذلك خبراً من الله لم يكن لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ وجه مفهوم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أين ذهب بهذا القائل؟ وما الوجه المفهوم البارع إلاَّ أن تكون الآية خبراً عن لبثهم، ثم قيل لمحمد ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ بخبره، هذا هو الحق من عالم الغيب، فليزل اختلافكم أيها المتخرصون.

وقال المحققون: بل قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾ الآية خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم، ثم اختلف في معنى قوله بعد الإخبار: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ ـ فقال الطبريُّ: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدة النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وأخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن هذه المدة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمره الله تعالى أن يرُدَّ علم ذلك إليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فقوله تعالى ـ على هذا التأويل ـ: [لَبِثُوا] الأول يريد: في نوم الكهف، و[لَبِثُوا] الثاني يريد: بعد الإعثار موتى إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبلى، على الاختلاف الذي سنذكره بعد. وقال بعضهم: إنه لمَّا قال: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ لم تَدرِ الناسُ أهي ساعاتٌ أم أيَّام أم جمع أم شهور أم أعوام، واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمره الله تعالى برَدِّ العلم إليه، يريد: في التسع، فهي ـ على هذا ـ مبهمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر كلام العرب والمفهوم عنه أنها أعوامٌ، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى عليه السلام بيسير، وقد بقيت من الحواريِّين بقية. وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأُمم، فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ﷺ ذكرت التِّسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين.



وقرأ الجمهور: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ بتنوين [مِائَةٍ] ونصب [سِنِينَ] على البدل من [ثَلاَثَمائة]، أو عطف البيان، وقيل: على التفسير والتمييز[1]، وقرأ حمزة، والكسائي، ويحيى، وطلحة، والأعمش بإضافة [مِائَةِ] إلى «السِّنين» وترْكِ التنوين، وكأنهم جعلوا [سِنِينَ] بمنزلة (سَنَة)؛ إذ المعنى بهما واحد. قال أبو علي: إذ هذه الأعداد التي تضاف في الشهور إلى الآحاد نحو ثلاثمائة رجل أو ثوب قد تضاف إلى الجموع، وانْحى أبو حاتم على هذه القراءة، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «ثلاثمائة سنةٍ»، وقرأ الضحاك: «ثَلاَثَمائةٍ سنون» بالواو. وقرأ أبو عمرو ـ بخلاف ـ: [تَسْعاً] بفتح التاء، وقرأ الجمهور: [تِسْعاً] بكسر التاء.

وقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾، أي: ما أبصره وأسمعه، قال قتادة: لا أحد أبصر من الله تعالى ولا أسمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عباراتٌ عن الإدراك، ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ أيْ: بوحيه وإرشاده، هداك وحججك والحق من الأمور، وأسمع به العَالَمَ، فيكونان أمْرَيْن لا على وجه التعجب. وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ يحتمل أن يعود الضمير في [لَهُمْ] على اصحاب الكهف، أي: هذه قُدرتُه وحده، لم يُوَالِهِم غيرُه بتلَطُّف لهم، ولا اشترك معه أحد في هذا الحكم. ويحتمل أن يعود الضمير في [لَهُمْ] على معاصري رسول الله ﷺ من الكفار ومُشَاقِّيه، وتكون الآية اعتراضاً بتهديد.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ بالياء من تحت، على معنى الخبر عن الله تبارك وتعالى، وقرأ ابن عامر، والحسن، وأبو رجاءٍ، وقتادة، والجحدري: [ولا تشرك] بالتاء من فوق، على جهة النهي للنبي ﷺ، ويكون قوله: [ولا تشرك] عطفاً على قوله سبحانه: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾. وقرأ مجاهد: ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ بالياء من

---

(١) وحكى أبو البقاء أن قوماً أجازوا أن يكون [سِنِينَ] بدلاً من [مَائَة]؛ لأن [مَائَة] في معنى (مِئات). وقال أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط): «فأما عطف البيان فلا يجوز على مذهب البصريين، وأما نصبه على التمييز فالمحفوظ من لسان العرب المشهور أن (مائة) لا يُفَسَّر إلا بمفرد مجرور، وأن ما سمع من قولهم: «إذا عاش الفتى مائتين عاماً» من الضرورات، ولا سيما وقد انضاف إلى ذلك كون [سِنِينَ] جمعاً».



تحت وبالجزم، قال يعقوب: لا أعرف وَجْهَهُ.

وحكى الطبري عن الضحاك بن مزاحم أنه قال: نزلت هذه الآية ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ فقط، قال الناس: أهِيَ أَشْهُرٌ أم أيَّامٌ أم أَعْوامٌ؟ فنزلت ﴿سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأما هل دام أهل الكهف وبقيت أشخاصهم محفوظة بعد الموت؟ فاختلفت الروايات في ذلك ـ فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مرَّ بالشام في بعض غزواته مع ناسٍ على موضع الكهف وجبله، فمشى الناس إليه فوجدوا عظاماً، فقالوا: هذه عظام أصحاب الكهف، فقال لهم ابن عباس رضي الله عنهما: لا، أولئك فنوا وعدموا منذ مدة طويلة، فسمعه راهب فقال: ما كنت أحسب أن أحداً من العرب يعرف هذا، فقيل له: هذا ابن عمِّ نبينا ﷺ. وقالت فرقة: إن رسول الله ﷺ قال: لَيَحُجَّن عيسى بن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجوا بعد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبالشَّام ـ على ما سمعتُ من ناس كثير ـ كهف كان فيه موتى يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف، وعليه مسجد وبناءٌ يُسَمَّى الرَّقيم، ومعهم كلب رمة، وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تُسَمَّى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة، وأكثرهم قد انجرد لحْمُه، وبعضهم متماسكٌ، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم إثارة، ويزعم ناسٌ أنهم أصحاب الكهف، دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناءٌ رومي يسمَّى الرَّقيم مما يلي القبلة، وآثار مدينة قديمة رومية يقال لها دقنيوس، وجدنا في آثارها غرائب في قبور ونحوها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما استسهلت ذكر هذا مع بُعْده لأنه عجب يتخلد ذكره ما شاء الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ الآية. من قرأ: [ولا تُشْرِكْ] بالنهي عطف قوله: ﴿وَٱتْلُ﴾ عليه، ومن قرأ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ جعل هذا أمراً بُدِىء به كلام آخر ليس من



الأول، وكأن هذه الآية في معنى العتاب للنبي ﷺ عقب العتاب الذي كان على تركه الاستثناء، كأنه يقول: هذه أجوبة الأسئلة، فاتْل وحْيَ الله إليك، أي: اتبع في أعمالك، وقيل: اسْرُد بتلاوتك ما أُوحي إليك من كتاب ربك، لا نقص في قوله، ولا مبدل لكلماته، وليس لك سواه جانب تميل إليه وتستند.

و«المُلْتَحَدُ»: الجانب الذي يمال إليه، ومنه اللَّحْدُ، كأنه الميْلُ في أحد شقَّي القبر، ومنه: الإلحادُ في الحق، هو الميل عن الحق، ولا يفسد قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أمر النسخ؛ لأن المعنى إمَّا أن يكون: لا مُبَدِّلَ سواهُ فتبقى الكلماتُ على الإطلاق، وإما أن يكون أراد من «الكلمات» الخَبَرَ ونحوه مما لا يدخله النسخ، والإجماع أن الذي لا يتبدل هو الكلام القائم بالذات الذي بِحَسبه يجري القدر، فأما الكتب المنزلة فمذهب ابن عباس رضي الله عنهما أنها لا تبدَّل إلاَّ بالتأويل، ومن العلماء من يقول: إن بني إسرائيل بدَّلوا ألفاظ التوراة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

سبب هذه الآية أن عظماء الكفار ـ قيل: من أهل مكة، وقيل عُيَيْنَة بن حصن وأصحابه، والأول أصوب لأن السورة مكية ـ قالوا لرسول الله ﷺ: لو أبعدتَ هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك، يريدون: عمَّار بن ياسر، وصهيب بن سنان، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم من الفقراء كبلال ونحوه، وقالوا: إن ريح جِبَابهم[1] تؤذينا، فنزلت الآية بسبب ذلك، وروي أن رسول الله ﷺ خرج إليهم، وجلس بينهم وقال: «**الحمد لله الذي جعل من أُمتي من أمرت أن أصبر نفسي معه**»[2]،

---

(١) الجِبَابُ: جمع جُبَّة، وهي ثوب سابغ، واسع الكُمَّيْن، مشقوق المُقَدَّم، يلبس فوق الثياب. ويجمع أيضاً «جُبَب».

(٢) أخرجه ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾، فخرج =

وروي أنه قال لهم: (مرحباً بالذين عاتبني فيهم ربي)، وروى سلمان أن المؤلفة قلوبهم، عُيَيْنَة بن حصن، والأقرع، وذويهم قالوا ما ذُكر فنزلت الآية[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالآية ـ على هذا ـ مدنية، ويُشبه أن تكون الآية مكية وفَعَل المؤلفةُ فعل قريش فردَّ عليهم بالآية.

و﴿ٱصْبِرْ﴾ معناه: احْبِس، ومنه المصبورة التي جاء فيها الحديث (نهى رسول الله ﷺ عن صبر الحيوان)[2]، أي: حبسه للرَّمي ونحوه.

وقرأ الجمهور: ﴿بِالْغَدَاةِ﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [بِالْغُدْوَةِ]، وهي قراءة نصر بن عاصم، ومالك بن دينار، وابي عبد الرحمن، والحسن، وهي في الخَطّ على القراءتين بالواو، فمن يقرأ ﴿بِالْغَدَوٰةِ﴾ فيكتبها كما تكتب «الصَّلوٰةُ والزَّكوٰةُ»، وفي قراءة من قرأ: [بِالْغُدْوة] ضعف؛ لأن (غُدْوة) اسم معرَّف فحقُّه ألا يدخل عليه الألف واللام، ووجه القراءة بذلك أنهم ألحقوها ضرباً من التنكير؛ إذ قالوا: «جئتُ غُدْوةً»، يريدون: من الغَدَوات، فَحَسُن دخول الألف واللام، كقولهم: الفَيْنَة، وفَيْنَةُ اسم مُعرَّف.

= يلتمسهم، فوجد قوماً يذكرون الله، فيهم ثائر الرأس، وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم).

(١) أخرجه ابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان، عن سلمان، ولفظه كما ذكره في الدر المنثور: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ، عُيَيْنة بن بدر [هكذا](☆) والأقرع بن حابس، فقالوا: يا رسول الله، لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم ـ يعنون سلمان، وأبا ذرٍّ وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جبابُ الصوف ـ جالسناك أو حادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا﴾، يهددهم بالنار.

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح، ومسلم في الصيد، وأبو داود في الأضاحي، والنسائي في الضحايا، وأحمد في مسنده (٢ـ٩٤ـ٣ـ١١٧)، ولفظه كما في مسلم، عن جابر بن عبد الله يقول: نهى رسول الله ﷺ أن يقتل شيءٌ من الدواب صبراً، وفي رواية لمسلم عن سعيد بن جبير قال: مرَّ ابن عمر بنفر قد نصبوا دجاجةً يترامَوْنها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: من فعل هذا؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا. وفي رواية عن أنس رضي الله عنه أخرجها ابن ماجه في الذبائح، وأحمد في المسند (٣ـ١٨٠)، قال: نهى رسول الله ﷺ عن صبر البهيمة.

(☆) هذه الرواية ذكرها الإمام السيوطي في الدر المنثور، ولكن في القرطبي: (عُيَيْنة بن حصن). وفي الطبري أشار المحقق إلى أنها في الأصل (ابن بدر) وقد صوبها إلى: (ابن حصن).



والإشارة لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ إلى الصلوات الخمس، قاله ابن عمر، ومجاهد، وإبراهيم. وقال قتادة: المراد صلاة الفجر وصلاة العصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويدخل في الآية من يدعو في غير صلاة، ومن يجتمع لمذاكرة علم. وقد روي عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: (لَذِكْر الله بالغداة والعشي أفضل من حطْم السيوف في سبيل الله، ومن إعطاء المال سحا)[١].

وقرأ أبو عبد الرحمن: [بِالْغُدُو] دون هاءٍ، وقرأ ابن أبي عبلة: «بالغَدَوَاتِ والعَشِيات» على الجمع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، أي: لا تتجاوز إلى أبناء الدنيا والملابس من الكفار. وقرأ الحسن: [ولا تُعَدِّ] بضم التاء وفتح العين وشدّ الدال المكسورة، أي: لا تُجاوزها أنت عنهم، ورُوي عنه: [ولا تُعْدِ] بضم التاء وسكون العين[٢]. وقوله: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا﴾، قيل: إنه أراد بذلك مُعَيَّناً وهو عُيَيْنَة بن حصن، والأقرع، قاله خبَّاب، وقيل: إنما أراد من هذه صفته، وإنما المراد أوّلاً كفار قريش لأن الآية مكية. وقرأ الجمهور: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ بنصب الباء، على معنى: جعلناه غافلاً، وقرأ عمرو بن فائد، وموسى الأسواري: [أَغْفَلَنا قلبُه][٣]، على معنى: أهمل ذكْرَنا وتركه، قال ابن جِنِّي: المعنى: من ظَنَّنَا غافلين عنه، وذكر أبو عمرو الداني: إنها قراءة عمرو بن عبيد.

و«الْفُرُط» يحتمل أن يكون بمعنى التفريط والتَّضْييع، أي أمره الذي يجب أن يلتزم، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف، أي أمْرهُ وهواه الذي هو بسبيله، وقد فسَّر المتأولون بالعبارتين، أعني التَّضْييع والإسراف، وعبَّر عنه خبَّاب بالهلاك، وداودُ بالندامة، وابن زيد بالخلاف للحق، وهذا كله تفسير بالمعنى.

---

(١) وروى البيهقي في (الدعوات الكبير) عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: (لكل شيءٍ صَقَالَةٌ ـ تَجْلية وتَصْفية ـ وصَقَالَةُ القلوب ذِكْرُ الله، وما من شيءٍ أنْجى من عذاب الله من ذِكْر الله)، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: (ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع).

(٢) قال أبو الفتح بن جني: «هذا منقول من: عَدَتْ عيناك، أي: جَاوَزَتَا، من قولهم: جاءَ القومُ عدا زيداً، أي: جاوز بعضهم زيداً، ثم نقل إلى: أَعْدَيْتُ عيني عن كذا، أي: صرفتُها عنه». (المحتسب ٢ـ٢٧).

(٣) أي: بفتح اللام من [أَغْفَلَنَا]، وبضم الباء في [قَلْبُهُ] ـ فقلبُه أغفَلَ ذِكْرَ الله تبارك وتعالى، هذا تحليلُ ابن جني وهو مذكور في المحتسب ٢/٢٨.



وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الآية. المعنى: وقل لهم يا محمد: هذا الحق من ربكم، أي: هذا القرآن، أو هذا الإعراض عنكم، وتَرْكُ الطاعة لكم، وصَبْرُ النفس مع المؤمنين. وقرأ قَعْنَب أبو السَّمَّال[1]: [وَقُلَ] بفتح اللام، قال أبو حاتم: وذلك رديءٌ في العربية. وقوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن﴾ الآية، تَوَعُّدٌ وتهديد، أي: فَلْيَختر كلُّ امرىءٍ لنفسه ما يجده غداً عند الله عزَّ وجلَّ. وتأولت فرقة: فمن شاء اللهُ إيمانَهُ فليؤمن، ومن شاء كفْرَهُ فَلْيَكْفُر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا متوجه، أي: فحقُّه الإيمان وحقُّه الكفر، ثم عبَّر عن ذلك بلغة الأمر إلزاماً وتحريضاً من حيث للإنسان في ذلك التَّكَسُّبُ الذي يتعلق به ثواب الإيمان وعقاب الكفر. وقرأ الحسن، وعيسى الثقفي: [فلِيؤمن.. ولِيكفر] بكسر اللامين.

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ مأخوذ من العتاد، وهو الشيءُ المُعَدُّ الحاضر.

و«السُّرَادِقُ» هو الجدار المحيط كالحجارة التي تدور وتحيط بالفسطاط، وقد تكون من نوع الفسطاط أديماً أو ثوباً أو نحوه، ومنه قول رؤْبة:

يَا حَكَمَ بْنَ الْمُنْذِرِ بنَ الْجَارُودْ ... سُرَادِقُ الْمَجْدِ عَلَيْكَ مَمْدُودْ[2]

---

(١) ضبطه في المغني بفتح القاف والنون وسكون العين، وهو أبو السَّمَّال العدوي.

(٢) هذان البيتان من أرجوزة قصيرة لرؤبة، وهي في ديوانه ضمن أبيات مفردات منسوبة إليه، والأرجوزة سبعة أبيات، والبيت الثاني في الديوان: (أنتَ الجوادُ ابن الجوادِ المحْمُودْ)، أما البيت الثاني هنا فهو هناك الخامس، و البيتان في الأشموني، والعيني، واللسان، والطبري، والقرطبي، والكتاب لسيبويه، وابن يعيش، وقال في العيني: «نسب الجوهري الأبيات إلى رؤبة، وليس بصحيح، بل هي لراجز من بني الحِرْمَاز، وكذلك نسب الكتاب البيت الأول لراجز بني الحِرْمَاز، والراجزُ يمدح أحد بني المنذر بن الجارود العبدي، واسمه (حَكَم)، وقد ولي البصرة هشام بن عبد الملك، وسُمِّي جدُّه الجارود لأنه أغار على قوم فاكتسح أموالهم، فأشبه السيل الذي يجرد ما يمر عليه. والنحويون يستشهدون بالبيت الأول على إتباع الموصوف للصفة؛ لأن النعتَ والمنعوت كاسمٍ ضمَّ إلى اسم، وعلى هذا تبع (حَكَم) (ابْنَ). أما الشاهد هنا فهو في كلمة (سرادق)، والسرادق: كلُّ ما أحاط بالشيء، نحو الشقة في المِضرَب (الخيمة)، أو الحائط المشتمل على الشيء، وكل بيت من كُرْسف فهو سُرَادق، والكُرسُف: القطن.



ومنه قول سلامة بن جندل:

هُوَ الْمُولِجُ النُّعْمَانَ بَيْتاً سَمَاؤُهُ صُدُورُ الْفُيُولِ بَعْدَ بَيْت مُسَرْدَقِ[(١)]

وقال الزجاج: السُّرادق: كلُّ ما أحاط بالشيء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي أخصُّ مما قال الزجاج.

واختُلف في سرادق النار ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: سرادقها حائط من نار، وقالت فرقة: سرادقها دخان محيط بالكفار، وهو قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾[(٢)]. وقالت فرقة: الإحاطة هي في الدنيا، والسرادق: البحر، ورُوي هذا المعنى من طريق يَعْلَى بن أُميَّة عن النبي ﷺ، فيجيءُ قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾، أي: بالبشر، ذكر الطبريُّ الحديث عن يَعْلَى، قال: قال رسول الله ﷺ: (البحر هو جهنم)، وتلا هذه الآية، ثم قال: (والله لا أدخله أبداً، أو ما دمْتُ حياً)[(٣)]، وروي عنه أيضاً عليه الصلاة والسلام من طريق أبي سعيد الخدري أنه قال: ﴿لِسُرادق النَّارِ أربعةُ جُدُرٍ كُثُف، عرض كل جدارٍ مسيرة أربعين سنة)[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا﴾ أي يكون لهم مقام الغوث، وهذا نحو قول الشاعر:

---

(١) البيت لسلامة بن جندل، الشاعر الجاهلي القديم، من قصيدة له اختارها الأصمعي في كتابه (الأصمعيات)، وعدد أبياتها أربعون بيتاً، وهي أيضاً في الديوان، والبيت في اللسان ـ والطبري، والقرطبي. وقد ذكر صاحب اللسان أن الجوهري نسب البيت للأعشى، وصحح هو نسبة البيت. والرواية في اللسان والأصمعيات: (هو المُدْخِل النعمانَ...)، والبيت المُسَرْدَقُ هو أن يكون أعلاهُ وأسفله مشدوداً كله، والشاعر هنا يشير إلى ما فعله كسرى أبرويز من إدخاله النُّعمانَ بيتاً فيه ثلاثة أفيال فَوَطِئَتْهُ حتى قتلته، وكما أخطأ الجوهري في نسبة البيت للأعشى أخطأ كذلك حين قال: إنَّ (ابْنَ وَبْر) قتل النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة، والصواب أنه (أبرويز).

(٢) الآية (٣٠) من سورة (المرسلات).

(٣) أخرجه أحمد، والبخاري في تاريخه، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن يعلى بن أُمية، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدرّ المنثور: قال رسول الله ﷺ: (إن البحر من جهنم) ثم تلا: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.

(٤) أخرجه أحمد، والترمذي، وابن أبي الدنيا في صفة النار، وابن جرير، وأبو يَعْلى، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (الدر المنثور)، والكُثُف: جمع كثيف، وهو الغليظ الثخين.

. . . . تَحِيَّـــةُ بَيْنِهِـــمْ ضَـــرْبٌ وَجِيـــعُ[(١)]

أي: القائم مقام التحية.

و[ٱلْمُهْلِ]، قال أبو سعيد عن النبي ﷺ: هو دُرْدي[(٢)] الزيت إذا انتهى حرُّه، وقالت فرقة: هو كل مائع سخن حتى انتهى حرُّه، وقال ابن مسعود وغيره: كل ما أُذيب من ذهب أو فضة أو رصاص أو نحو هذا من الفِلِزِّ حتى تَمَيَّع، وروي أن عبد الله بن مسعود أُهديت إليه سقاية من ذهب أو فضة فأمر بها فأُذيبت حتى تميَّعت وتلوَّنت ألواناً، ثم دعا مَنْ ببابه من أهل الكوفة فقال: ما رأيت في الدنيا شيئاً أدنى شبهاً بالمُهْل من هذا، يريد: أدنى شبهاً بشراب أهل النار. وقالت فرقة: المُهْلُ: الصديد والدم إذا اختلطا، ومنه قول أبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه في الكفن: «إنما هو للمهلة»، يريد: لما يسيل من الميت في قبره، ويقوي هذا بقوله تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ الآية[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ رُوي في معناه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (تُقَرَّبُ الشَّرْبَةُ من الكافر، فإذا دَنَت تَكَرَّهَها، فإذا دنت أكثر شوت وجهه وسقطت فيها فروة وجهه، وإذا شرب تقطَّعت أمعاؤُه)[(٤)]. و«المُرْتَفَقُ»: الشيء الذي يُرْتَفَق به،

---

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن معديكرب، وهو في الكتاب، ونوادر أبي زيد، والعمدة، وابن يعيش، والخزانة، والتصريح، والخصائص، والمرزوقي، والبيت بتمامه:

وَخَيْـــلٍ قَـــدْ دَلَفْـــتُ لَهَـــا بِخَيْـــلٍ تَحِيَّـــةُ بَيْنِهِـــمْ ضَـــرْبٌ وَجِيـــعُ

يريد بالخيل: الفرسان، ودَلَفَ: زحف، والوجيع: المُوجع، يقول: إذا تلاقوا في الحرب جعلوا الضرب الموجع بينهم بدلاً من التحية، والشاهد فيه أنه جعل الضرب الموجع تحية على الاتساع والمجاز، وسيبويه يجعل ذلك دليلاً على جواز البدل فيما لم يكن من جنس المبدل منه حقيقة. وابن عطية يستشهد بالبيت على أن الآية الكريمة يجوز فيها الاتساع، وجعل المُهْل الذي يشوي الوجوه قائماً مقام الغوث الذي يطلبه أهل النار.

(٢) الدُّرْدِي: ما رسب أسفل العَسَل والزيت ونحوهما من كل شيء مائع كالأشربة والأدهان. (المعجم الوسيط).

(٣) من الآية (١٦) من سورة (إبراهيم).

(٤) أخرج الترمذي عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ﴾، قال: (كَعَكَر الزيت فإذا قَرَّبه إلى وجهه سقطت فروة وجهه)، قال القرطبي: «قال أبو عيسى: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رِشْدِينَ بْن سعد، ورِشْدِين قد تُكُلِّم فيه من قِبَل حفظه، وخرَّج عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾، قال: (يُقَرَّبُ إلى فيه فيكرهه، فإذا أُدْنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا =



أي يطلب رفقه، والمُرْتَفَق الذي هو المُتَّكأُ أخصُّ من هذا الذي في الآية؛ لأنه في شيء واحد من معنى الرِّفق، على أن الطبريَّ فسَّر الآية به، والأظهر عندي أن يكون «المُرْتَفَق» بمعنى الشيء الذي يطلب رفقه بِاتِّكَاءٍ وغيره. وقال مجاهد: المرتفق: المجتمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنه ذهب بها إلى موضع الرِّفاقة، ومنه الرفقة، وهذا كلُّه راجع إلى الرِّفق، وأنكر الطبري أن يعرف لقول مجاهد معنى، والقول بيِّن الوجه، والله المعين[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ اعتراضٌ مُؤكِّد للمعنى، مذكِّر بأفضال الله تعالى، مُنبِّه على حُسْن جزائه، بيْن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ﴾، فقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، جملةٌ هي خبر [إنَّ] الأولى، ونحو هذا من الاعتراض قول الشاعر:

إِنَّ الْخَلِيفَـــــةَ ـ إِنَّ اللهَ أَلْبَسَـــــهُ   سِرْبَالَ مُلْكٍ ـ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ[٢]

= شربه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دُبُره، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾. قال حديث غريب».

(١) لم يقل الطبري رحمه الله: إنه لا يعرف لقول مجاهد معنى، وإنما قال بالنَّصِّ: «ولستُ أعرفُ الارتفاق بمعنى الاجتماع في كلام العرب، وإنما الارتفاق: افتعال، إما من المِرفق، وإما من الرِّفق». راجع الجزء ١٦ـ٢٤٢ من تفسير الطبري.

(٢) البيت من شواهد الفراء في (معاني القرآن ٢ـ١٤٠)، قال: «خبر ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾، وهو مثل قول الشاعر: (إنَّ الخليفةَ إنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ البيت)، كأنه في المعنى: إنَّا لا نُضيع أجر من عمل صالحاً، فتُرك الكلام الأول واعتمد على الثاني بِنِيَّةِ التكرار، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾، ثم قال: ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾، يريد: عن قتالٍ فيه بالتكرار، ويكون أن تجعل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في مذهب جزاء، كقولك: إن من عمل صالحاً فإنَّا لا نضيع أجره، فتضمر، فتضمَّن الفاءُ في قوله: [فَإِنَّا] وإلقاؤها جائز، وهي أحبُّ الوجوه إليَّ، وإن شئتَ جعلت خبرهم =

قال الزجاج: ويجوز أن يكون خبر [إنَّ] في قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾؛ لأن المحسنين هم المؤمنون، فكأن المعنى: لا نضيع أجرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومذهب سيبويه أن الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ على حذف العائد، وتقديره: من أحسن عملاً منهم.

و«العَدْنُ»: الإقامة، ومنه المَعْدِنُ؛ لأن حَجَرَهُ مقيمٌ فيه ثابت، وقوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ يريد: تحت غُرَفهم ومبانيهم. وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، وروى أبان عن عاصم: [مِنْ أَسْوِرَة] بغير ألف وبزيادة هاءٍ، وواحدة الأساور: إسوارٌ وحذفت الياءُ من الجمع؛ لأن الباب: أساوير، وهي ما كان في الذراع من الحلي، وقيل: أساور جمع أَسْوِرَةِ، وأَسْوِرَةٌ جمع سِوَار، وإنما الإِسْوَارُ بالفارسية القائد ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقالُ في حُلِيِّ الذراع: إِسْوَارٌ، ذكره أبو عبيدة معمر، ومنه قول الشاعر:

واللهِ لَـــوْلاَ فِتْيَـــةٌ صِغَـــارُ كَـــأَنَّمَـــا وُجُـــوهُهُـــمْ أَقْمَـــارُ
تَضُمُّهُـــمْ مِـــنَ الْعَتِيـــكِ دَارُ أَخَـــافُ أَنْ يُصِيبَهُـــمْ إِقْتَـــارُ
أَوْ لاطِـــمٌ لَيْـــسَ لَـــهُ إِسْـــوَارُ لَمَـــا رَآنِـــي مَلِـــكٌ جَبَّـــارُ
بِبَـــابِـــهِ مَـــا وَضَـــحَ النَّهَـــارُ(١)

= مُؤَخَّراً، كأنك قلتَ: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم جنات عدن». هذا، والسِّرْبال: الدِّرْعُ.

(١) يستشهد ابن عطية بهذه الآبيات على أن (إِسْوَار) تأتي بمعنى الحليِّ التي توضع في الذراع، على خلاف الأصل الذي هي فيه بمعنى القائد. وذلك لأنها جاءت في قول الشاعر: (أو لاطم ليس له إِسْوَارُ)، أي: لاطم من الرجال، لا يلبس أسورة في يده. والعَتيك: الأحمر من القِدَم، قاله في اللسان، والإِقْتَارُ: الفقر والحاجة، وقد ذكر ابن عطية أنه قرأ هذه الأبيات التي أنشدها ابن الأنباري في حاشية كتاب أبي عبيدة، على أن اللسان أورد كثيراً من الشواهد التي تدل على أن الإسْوَار لغة في السوار، ومنها قول المُرَّار بن سعيد الفَقْعَسي:

كَمَـا لاحَ تِبْـرٌ فـي يَـدٍ لَمَعَـتْ بِـهِ كعـابٌ بَـدَا إِسْـوَارُهَـا وخَضِيبُهَـا

وقول العَرَنْدَس الكلابي:

بَـلْ أَيُّهَـا الـرَّاكِـبُ الْمُفْنـي شَبِيبَتَـهُ يَبْكِـي عَلَـى ذاتِ خَلْخَـالٍ وإِسْـوَارِ =



أنشده أبو بكر بن الأنباري حاشية في كتاب أبي عبيدة.

و«السُّنْدُسُ»: رقيق الديباج، و«الإِسْتَبْرَقُ»: ما غلظ منه، وقال بعض المفسرين: هي لفظة أعجمية عربت، وأصلها: استبره، وقال بعضهم: هو الفعل العربي سُمِّي به، فهو إستبرق، من البريق، فعُبِّر حين سُمِّي به بقطع الألف، ويُقَوِّي هذا القول أن ابن محيصن قرأ: ﴿مِن سُندُسٍ وَاستَبْرَقٍ﴾، فجاء به موصول الهمزة حيث وقع، ولا يَجُرُّه بل يفتح القاف، ذكره الأسواري، وذكره أبو الفتح وقال: هذا سهْوٌ أو كالسَّهْو.

و«الأَرَائِك»: جمع أريكة، وهو السرير في الحجال، والضمير في قوله: [وَحَسُنَتْ] للجنات، وحكى النقاش عن أبي عمران الجوني أنه قال: الاستبرق: الحرير المنسوج بالذهب، وحكى مكي والزهراوي وغيرهما حديثاً مُضَمَّنه أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله تعالى عنهم، سأل أعرابي رسول الله ﷺ عن الآية، فقال النبي ﷺ للأعرابي: (أَعْلِمْ قومك أنها نزلت في هؤلاء الأربعة)[1] وهم حضور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾.

الضمير في [لَهُمْ] عائد على الطائفة المتحيرة التي أرادت من النبي ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وعلى أولئك الداعين أيضاً، فالمثل مضروب للطائفتين؛ إذ الرجل الكافر صاحب الجنَّتين هو بإزاء متجبِّري قريش، أو بني تميم، على الخلاف المذكور أولاً، والرجل المؤمن المقر بالربوبية هو بإزاء بلالٍ وعمَّارٍ وصُهَيْب وأقرانهم.

---

(١) رواه البراءُ بن عازب، قال: إن أعرابياً قام إلى رسول الله ﷺ في حَجَّة الوداع، والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء فقال: إني رجل مسلم، فأخبرني عن هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: (ما أنت منهم ببعيد، ولا هم ببعيد منك، هم هؤلاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فأَعْلِم قومك أن هذه الآية نزلت فيهم)، ذكره الماوردي، وأسنده النحاسُ في كتاب (معاني القرآن)، عن البراء بن عازب، وأسنده السهيلي في كتاب (الأعلام)، ورواه القرطبي وقال: «وقد روينا جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله».

و[حَفَفْنَاهُمَا] بمعنى: جعلنا ذلك لها من كل جهة، تقول: حفَّك الله بخير، أي: عمَّك به من جميع جهاتك، والحِفاف: الجانب من السرير ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر هذا المثل أنه بأمر وقع وكان موجوداً، وعلى هذا فسَّره أكثر أهل التأويل، ويحتمل أن يكون المثل مضروباً بمن هذه صفته وإن لم يقع ذلك في وجودٍ قط. والأول أظهر.

ورُوي في ذلك أنهما كانا أخويْن من بني إسرائيل ورثا أربعة آلاف دينار، فصنع أحدهما بماله ما ذكر، واشترى عبيداً وتزَوَّج وأثرى، وأنفق الآخر ماله في طاعة الله تعالى حتى افتقر، والتقيا ففخر الغني ووبَّخ المؤمن، فجرت بينهما هذه المحاورة، ورُوي أنهما كانا شريكين حدَّادين كسبا مالاً كثيراً وصنعا نحو ما رُوي في أمر الأخوين، فكان من أمرهما ما قصَّ الله في كتابه. وذكر إبراهيم ابن القاسم الكاتب في كتابه (في عجائب البلاد) أن بحيرة تِنِّيس[1] كانت ما بين الجنتين، وكانت للأخوين، فباع أحدهما نصيبه من الآخر، وأنفق في طاعة الله حتى عيَّره الآخر، فجرت بينهما هذه المحاورة، فغرَّقها اللهُ في ليلة، وإيَّاها عنى بهذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي بسط قصصهما طول فاختصرته واقتصرت على معناه لقلَّة صحته، ولأن في هذا ما يفي بفهم الآية.

وتأمل هذه الهيئة التي ذكر الله تعالى، فإن المرء لا يكاد يتخيل أجلَّ منها في مكاسب الناس: جنَّتا عنب أحاط بها نَخْلٌ بينهما فسحة هي مزدرعٌ لجميع الحبوب، والماءُ الغَيْلُ[2] يسقي جميع ذلك من النهر الذي جمَّل هذا المنظر، وعظَّم النفع، وقرَّب الكد، وأغنى عن النواضح وغيرها.

---

(١) ضبطها الحموي في (معجم البلدان) بكسر التاء والنون مع تشديد النون، وقال: هي جزيرة في بحر مصر قريبة من البرِّ، ما بين الفَرَما ودمياط، ثم وصف بحيرتها، وتكلم عن تاريخها وعلمائها وأطال في ذلك. فهل هي المقصودة هنا؟.

(٢) الغَيْل: الماءُ الجاري على وجه الأرض، وقد نقل أبو حيان في البحر كلام ابن عطية هنا، وجاءت العبارة فيه: «والماءُ المعين يسقي جميع ذلك».



وقرأ الجمهور: ﴿كِلْتَا﴾، وفي مصحف عبد الله: [كِلاَ]، والتاءُ في ﴿كِلْتا﴾ منقلبة عن واو عند سيبويه، وهو بالتَّاءِ أو بغير التَّاء اسم مفرد واقع على الشيء المُثَنَّى، وليس باسمٍ مُثَنَّى، ومعناه: كل واحدة منهما[١]، و«الأُكُلُ»: ثمرها الذي يُؤكل منها، قال الفراءُ: وفي قراءة ابن مسعود: «كلُّ الجَنَّتَيْن آتَى أُكله». وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾، أي: لم تنقص عن العرف، ومنه قول الشاعر:

تَظَلَّمَنِي مَالي كَذا وَلَوَى يَدِي ... لَوَى يَدَهُ اللهُ الَّذي هُو غَالِبُ[٢]

وقرأ الجمهور: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ بتشديد الجيم، وقرأ سلاَّم، ويعقوب، وعيسى بن عمر: [وَفَجَرْنَا] بفتح الجيم دون شدٍّ. وقرأ الجمهور: ﴿نَهَرًا﴾ بفتح الهاء، وقرأ أبو السَّمَّال، والفياض بن غزوان، وطلحة بن سليمان: [نَهْرًا] بسكون الهاء، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وابن عباس، ومجاهد، وجماعة قراء المدينة ومكة: [ثُمُرٌ] [وَأُحِيطَ بِثُمُره] بضم الثاء والميم، جمع ثمارٍ. وقرأ أبو عمرو، والأعمش، وأبو رجاء بسكون الميم فيهما تخفيفاً، وهي في المعنى كالأولى، ويتَّجه أن يكون جمع ثَمَرَة، كَبَدَنَةٍ وبُدْن، وقرأ عاصم ﴿ثَمَرٌ﴾ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بفتح الميم والثاء فيهما، وهي قراءة أبي جعفر، والحسن، وجابر بن زيد، والحجاج.

واختلف المتأولون في «الثُّمُرِ» بضم الثاء والميم، فقال ابن عباس، وقتادة: الثُّمُر:

---

(١) هذا هو مذهب البصريين، وقالوا: إن كِلا وكِلْتَا في توكيد الاثنين نظير «كُلٌّ» في المجموع. وقال الفراءُ «كِلاَ» مثنى، وهو مأخوذ من «كُلٌّ»، فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية، وكذلك «كِلتا» للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين، ولا يتكلم بواحد، ولو تُكُلِّم به لقيل: «كِلٌ» و«كِلْت»، واستدل على ذلك بشواهد من الشعر، وردَّ البصريون على ذلك بكلام تجده في كتب النحو، وقد ذكره بعض المفسرين وأطال فيه.

(٢) البيت واحد من تسعة أبيات قالها فُرْعان بن الأعرف في ابن له اسمه مُنازل، وهو في الحماسة، واللسان، ومجاز القرآن، والطبري، ورواية اللسان: (تظلَّم مالي هكذا. . .)، ورواية الحماسة: (تَغَمَّد حَقِّي ظالماً ولَوَى يدي. . .). و(تَظَلَّم مَالِي) بمعنى ظلمني مالِي، أي: أخذه ظلماً وبدون حق. ولوى يدي: فَتَلَهَا وأزالها عن حالها وغلبني. قال في اللسان: «وظَلَمَه حَقَّه وتَظَلَّمه إيَّاه» يعني أنهما بمعنى واحد. وفُرْعان بضم الفاء وسكون الراء بعدهما عين مهملة، وهو من بني مُرَّة بن عبيد رهط الأحنف بن قيس، وكان شاعراً لصّاً، يسرق إبل الناس، فسرق يوماً جملا لرجل، فجاء صاحب الجمل فأخذ بشعره فجذبه فنزل على ركبتيه، فقال له القوم: لقد كبرت يا فُرْعان، فقال: لا والله، ولكنه جَذَبني جَذْبة مُحِقٍّ.



جميع المال من الذهب والفضة وغير ذلك، ويستشهدون لهذا القول ببيت النَّابغة:

. . . . وَمَـا أُثَمِّـرُ مِـنْ مـالٍ ومِـنْ وَلَـدِ[1]

وقال مجاهد: يراد بها الذهب والفضة خاصة، وقال بن زيد: الثُّمُر هي الأصول التي فيها الثَّمَر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنها ثمارٌ وثُمُرٌ، ككتابٍ وكُتُب. وأما من قرأ بفتح الثاء والميم فلا إشكال في أن المعنى ما في رؤوس الأشجار من الأكل، ولكن فصاحة الكلام تقتضي أن يعبر إيجازاً عن هلاك الثَّمر والأصول بهلاك الثَّمر فقط، خصَّها بالذكر إذْ هي مقصد المستغل، وإذ هلاك الأصول إنما يسوءُ منه هلاك الثَّمر الذي كان يُرجى في المستقبل، وكما يقتضي قوله «إنَّ له ثمراً» أنَّ له أصولاً، كذلك يقتضي الإحاطة المطلقة بالثمرات والأصول قد هلكت. وفي مصحب أُبي: «وآتيناه ثمراً كثيراً». وقرأ أبو رجاءٍ [وكان له ثمرٌ] بفتح الثاء وسكون الميم. و«المُحَاوَرَةُ»: مراجعة القول، وهو من: حارَ يحور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واستدلَّ بعض الناس من قوله سبحانه: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ على أنه لم يكن أخاه. وقال المناقض: أراد بالنَّفَر العَبيدَ والخَوَلَ؛ إذْ هُمُ الذين ينفرون في رغائبه، وفي هذا الكلام من الكِبْر والزَّهْو والاغترار ما بيانه يغني عن القول فيه. وهذه المقالة بإزاء مقالة عُيَيْنة والأقرع للنبي ﷺ: نحن سادات العرب، وأهل الوَبَر والمَدَر، فَنَحِّ عنَّا سلمان وقرناءَه.

---

(١) هذا عجز بيت قاله النابغة من قصيدته المعروفة التي مدح بها النعمان بن المنذر، واعتذر إليه مما بلغه عنه في أمر المتجردة، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

أُنْبِئْـتُ أَنَّ أَبَـا قَـابـوسَ أَوْعَـدَنِـي ... وَلاَ قَـرَارَ عَلَـى زَأْرٍ مِـنَ الأَسَـدِ

مَهْـلاً فِـدَاءً لَـكَ الأَقْـوَامُ كُلُّهُـمُ ... وَمَـا أُثَمِّـرُ مِـنْ مَـالٍ ومِـنْ وَلَـدِ

وابن عطية يشير بهذا البيت إلى أن (الثُّمُر) بضم الثاء والميم هو الذهب والفضة وغير ذلك؛ إذ أن النابغة سحب التَّثْمير على المال والولد.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.

أفرد الجنة من حيث الوجود، كذلك إذ لا يدخلهما معاً في وقت واحد، وظُلْمُه لِنَفْسِهِ: كفرُهُ وعقائده الفاسدة في الشك في البعث، فقد نصَّ على ذلك قتادة، وابن زيد، وفي شكِّه في حدوث العالم وإن كانت إشارته بـ[هَٰذِهِ] إلى الهيئة في السموات والأرض وأنواع المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى جنته فقط فإنما في الكلام تساخف واغترارٌ وقلَّة تحصيل، كأنه من شدَّة العجب بها والسرور أَفْرط في وصفها بهذا القول، ثم قاس أيضاً الآخرة على الدنيا، وظنَّ أنه لم يُمْل[1] له في الدنيا إلا لكرامة يستوجبها في نفسه، قال: فإن كان ثم رجوعٌ كما تزعم فسيكون حالي كذا وكذا، وليست مقالة العاصي بن وائل لِخَباب على حدِّ هذه، بل قصد العاصي الاستخفاف على جهة التصميم على التكذيب.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وابن الزبير، وثبت في مصاحف المدينة [مِنْهُمَا] يريد الجنتين المذكورتين أولاً، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، والعامة، وكذلك هو في مصحف البصرة: [مِنْهَا]، يريد الجنة المدخولة.

وقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ حكاية أن المؤمن من الرجلين لمَّا سمع كلام الكافر وَقَفه ـ على جهة التوبيخ ـ على كفره بالله تعالى، وقرأ أُبيُّ بن كعب: «وهو يخاصمه»، وقرأ ثابت البناني: «وَيْلَكَ أَكَفَرْتَ»، ثم جعل يعظم الله تعالى عنده بأوصاف تضمنت النعم والدلائل على جواز البعث من القبور. وقوله: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ إشارة إلى آدم ﷺ. وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ كما تقول: سوَّاك شخصاً أو حيّاً أو نحو هذا من التأكيدات، وقد يحتمل أنَّه قصد تخصيص الرجولة على وجه تعديد النعمة في أن لم يكن أُنثى ولا خُنثى، وذكر الطبري نحو هذا.

---

(١) من الإملاء وهو الإمهال والتمتع بالحياة ونعيمها.

واختلفت القراءة في قوله: ﴿لَٰكِنَّا﴾، فقرأ ابن عامر، ونافع ـ في رواية الْمَسِيليِّ[(١)] ـ: ﴿لَٰكِنَّا﴾ في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، [لَٰكِنْ] في الوصل، و[لَٰكِنَّا] في الوقف، ورجَّحها الطبري، وهي رواية ورش، وقالون عن نافع. وقرأ ابن مسعود، وأُبيُّ بن كعب، والحسن: [لَٰكِنْ أَنَا هُوَ اللهُ رَبِّي]، وفي قراءة عيسى الثقفي، والأعمش ـ بخلاف ـ [لكِنْ هُوَ اللهُ رَبِّي]، فأما هذه الأخيرة فَبَيِّنٌ على الأمر والشأن، وأما الذي قبلها فعلى معنى: لكن إنما أقول. ومن هذه الفرقة من قرأ: [لَٰكِنَنَا] على حذف الهمزة وتخفيف التنوين، وفي هذا نظر، وأما من قرأ: ﴿لكِنَّا﴾ فأصله عنده «لكِنْ أَنَا» حذفت الهمزة على غير قياسٍ وأُدغمت النون في النون، وقال بعض النحويين: نُقلت حركة الهمزة إلى النون فجاءَ «لَكِنَنَا» ثم أُدغمت بعد ذلك فجاء «لكِنَّا»، فرأى بعض القُرَّاءِ أنَّ بالإدغام استُغني عن الألف الأخيرة، فمنهم من حذفها في الوصل، ومنهم من أثبتها في الوصل والوقف لتدلَّ على أصل الكلمة. ويتوجَّه في ﴿لَكِنَّا﴾ أن تكون «لَكِنْ» لحقتها نون الجماعة التي في «خَرَجْنَا وَضَرَبْنَا»، ووقع الإدغام لاجتماع المِثْلين، ووحَّد في ﴿رَبِّي﴾ على المعنى، ولو اتبع اللفظ لقال: «رَبُّنَا»، ذكره أبو علي. ويترجَّح بهذا التعليل قول من أثبت الألف في حالي الوصل والوقف. ويتوجه في ﴿لَكِنَّا﴾ أن تكون المشهورة من أخوات «إنَّ»، والمعنى: «لكنَّ قولي هو الله ربِّي»، إلاَّ أنِّي لا أعرف من يقرأ بها وصلاً ووقفاً، وذلك يلزم من يُوَجِّه هذا الوجه. وَرَوى هارون عن أبي عمرو [لَكِنَّهُ هو اللهُ رَبِّي] بضمير لَحِقَ «لَكِنْ». وباقي الآية بَيِّنٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ الآية. وصيةٌ من المؤمن للكافر، و﴿لَوْلَآ﴾ تحضيض بمعنى: هَلاَّ، و﴿ما﴾ يحتمل أن تكون بمعنى «الذي»، بتقدير: «الذي شاء الله كائن»، وفي [شاءَ] ضمير عائد، ويحتمل أن تكون شَرْطِيَّة بتقدير: «ما شاء الله كان»، ويحتمل أن تكون خبر ابتداء محذوف تقديره: «هو ما شاء الله، أو الأمر ما شاء الله». وقوله: ﴿لا قوة إلا بالله﴾ تسليمٌ وصدٌ لقول الكافر: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: (ألا أَدُلُّك على كلمة من كنز الجنة)؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: «لاَ قُوَّة إلاَّ بالله، إذا قالها العبد قال الله عزَّ وجلَّ: أسلم عبدي واستسلم»[(٢)].

---

(١) نسبة إلى بلدة بالجزائر تُسَمَّى مَسِيلة، على وزن سفينة، وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد.

(٢) تفرَّد به أحمد، قال ذلك الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير في تفسيره، وذكر ذلك أيضاً الإمام=



وفي حديث أبي موسى أن النبي ﷺ قال له: «يا عبد الله بن قيس: ألاَ أَدُلُّك على كنز من كنوز الجنة»؟ قال: افعل يا رسول الله، قال: «لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم»[1].

واختلفت القراءة في حذف الياء من ﴿تَرَنِ﴾ وإثباتها، فاثبتها ابن كثير وصلاً ووقفاً، وحذفها ابن عامر، وعاصم، وحمزة فيهما، وأثبتها نافع، وأبو عمرو في الوصل فقط. وقرأ الجمهور: ﴿أَقَلَّ﴾ بالنصب على المفعول الثاني، وقوله: [أَنَا] فاصلة مُلْغَاةٌ، وقرأ عيسى بن عمر: [أَقَلُّ] بالرفع على أن يكون [أَنَا] مبتدأ و[أَقَلُّ] خبره، والجملة في موضع المفعول الثاني، والرُّؤْية رؤْية قلب في هذه الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

هذا التَّرَجِّي بـ(عَسَى) يحتمل أن يريد به: في الدنيا، ويحتمل أن يريد: في الآخرة، وتمني ذلك في الآخرة أشرف مقطعاً، وأذهب مع الخير والصلاح، وأن يكون ذلك يراد به في الدنيا أذهبُ في نكاية هذا المخاطب، وأشد إيلاماً لنفسه.

و«الحُسْبَانُ»: العذاب كالبرد والصر ونحوه، واحِدُ الحُسْبَان: حُسْبَانة، وهي المرامي من هذه الأنواع المذكورة، وهي سهام تُرمى دفعة بآلة لذلك. و«الصَّعِيدُ»: وجهُ الأرض، و«الزَّلَقُ»: الذي لا يثبت فيه قدم، يعني أنه تذهب أشجاره ونباته، ويبقى أرضاً قد ذهبت منافعها حتى منفعة المشي، فهي وحْل لا تُنْبت ولا تَثْبُت فيها قدم.

= السيوطي في الدر المنثور، ولفظه كما في المسند: قال رسول الله ﷺ: (الا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قلت: نعم، قال: أن تقول: لا قوة إلا بالله)، قال عمرو بن ميمون: قلت لأبي هريرة رضي الله عنه: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال: لا، إنها في سورة الكهف ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

(١) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، وذكر ذلك القرطبي.

و«الْغَوْرُ» مصدر يوصف به الماءُ المفرد والمياه الكثيرة، كقولك: رجل عَدْل وامرأة عَدْل ونحوه، ومعناه: ذاهباً في الأرض لا يُستطاع تناوله، وقرأت فرقة: [غُوراً] بضم الغين، وقرأت فرقة: [غُؤُراً] بضم الغين وهمز الواو، و«غَوْرٌ» مثل «نَوْح» يوصف به الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، ومنه قول الشاعر:

تَظَــلُّ جِيَــادُهَــا نَــوْحــاً عَلَيْــهِ ... مُقَلَّــدَةً أَعِنَّتَهــا صُفُــونَــا[1]

وهذا كثير، وباقي الآية بيِّن.

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ الآية. هذا خبر من الله تعالى عن إحاطة العذاب بحال هذا المُمَثَّل به، وقد تقدم القول في الثَّمر، غير أن الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد. و﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ يريد: يضع بطن إحداهما على ظهر الأخرى، وكذلك فِعْل المتلِّهف المتأسِّف على فائتٍ او خسارة أو نحوهما، ومن عبَّر بـ«يُصَفِّق» فلم يُتقن. وقوله: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يريد أن السقوف وقعت، وهي العروش، ثم تهدَّمت الحيطان عليها فهي خاوية والحيطان على العروش. ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾، قال بعض المفسرين: هي حكاية عن قول الكافر هذه المقالة في الآخرة، ويحتمل أن يريد أنه قالها في الدنيا على جهة التوبة بعد حُلُول المصيبة، ويكون فيها زجرٌ للكفرة من قريش أو غيرهم؛ لئلا تجيء لهم حالٌ يؤمنون فيها بعد نِقَمٍ تحل بهم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو عمرو، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿وَلَمْ تَكُن﴾ بالتاء على لفظ الْفِئَة، وقرأ حمزة، والكسائي، ومجاهد، وابن وثاب: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ بالياء على المعنى. و«الْفِئَةُ»: الجماعة التي يلجأ إلى نصرها، وقال مجاهد: هي العشيرة.

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة، والرواية في شرح الأنباري والتبريزي والزوزني: (تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً...)، وكذلك أجمعت كل المصادر على رواية: (تَظَلُّ جِيَادُهُ) بخلاف ما هو ثابت هنا، والضمير يعود على السَّيِّد الذي قتلوه وأبَوْ الخضوع له في قوله قبل هذا البيت:

وَسَيِّــدِ مَعْشَــرٍ قَــدْ تَــوَّجُــوهُ ... بِتَــاجِ الْمُلْــكِ يَحْمِــي الْمُحْجَــرِينَــا

والصُّفُون: جمع صافِنٍ، يقال: صَفَن الفرسُ صُفُوناً: إذا قام على ثلاث، وثنى سنبكه الرابع، والشاهد أن (نَوْحاً) هنا جاءت وصْفاً للجمع، والمعنى: نائحات عليه، قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: «والعرب قد تصف الفاعل بمصدره، وكذلك الاثنين والجمع، على لفظ المصدر، قال عمرو بن كلثوم: تَظَلُّ جِيَادُهُ نَوْحاً عليه... البيت».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي من: فاءَ يفيءُ، وزنها فِعْلة «فِئَة» حذفت العين تخفيفاً[١]، وقد قال أبو علي وغيره: هي من فَأَوْتُ وليست من فاء، وهذا الذي قالوه أدخل في التصريف، والأول أحكم في المعنى. وقرأ ابن أبي عبلة: [فئة تنصره].

وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿مُنتَصِراً﴾، ويحتمل أن تكون ﴿ٱلْوَلَايَةُ﴾ مبتدأ و﴿هُنَالِكَ﴾ خبره، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب: [ٱلْوِلَايَةُ] بكسر الواو، وهي بمعنى الرياسة والزعامة ونحوه، وقرأ الباقون: ﴿ٱلْوَلَايَةُ﴾ بفتح الواو، وهي بمعنى الموالاة والصلة ونحوه. وحُكي عن أبي عمرو، والأصمعي أن كَسْرَ الواو هنا لحن؛ لأن (فِعَالَة) إنما تجيءُ فيما كان صنعة أو معنى متقلداً، وليس هنا تولي أمر.

وقرأ أبو عمرو، والكسائي: [ٱلْحَقُّ] بالرفع على جهة النعت لِـ﴿ٱلْوَلَايَةُ﴾، وقرأ الباقون: (ٱلْحَقِّ) بالخفض على النعت للهِ عزَّ وجلَّ، وقرأ أبو حيوة: [لله الحَقَّ] بالنصب. وقرأ الجمهور: [عُقُباً] بضم العين والقاف، وقرأ عاصم، وحمزة، والحسن: ﴿عُقْباً﴾ بضم العين وسكون القاف وتنوين الباء، وقرأ عاصم أيضاً: [عُقْبَى] بياءِ التأنيث[٢]. والعُقْبُ والعُقُبُ بمعنى المعاقبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يريد حياة الإنسان بما يتعلق بها من نعم وثروة، وقوله:

---

(١) في اللسان: «الفِئَةُ: الطائفة، والهاءُ عوض عن الياء التي نقصت من وسطه، أصله فِيْءٌ، مثال فِيْع؛ لأنه من فاءَ، ويُجْمع: فِئُونَ وفئات. وقال ابن بَرِّي: هذا الذي قاله الجوهريُّ سهوٌ، وأصله فِئْو مثلَ فِعْوٍ، فالهمزة عينٌ لا لام، والمحذوف لامها وهو الواو».

(٢) هذه من رواية أبي بكر عن عاصم، أما القراءة السابقة عن عاصم بضم العين وسكون القاف فهي من رواية حفص عنه.



﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يريد: هي كماءٍ، وقوله: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: فاختلط النَّباتُ بعضه ببعض بسبب الماء، فالباءُ في [بِهِ] باءُ السبب؛ فـ[أَصْبَحَ] عبارة عن صيرورته إلى ذلك، لا أنه[1] أراد اختصاصاً بوقت الصباح، وهذا كقول الرَّبيع بن ضَبُع:

أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا[2]

و«الْهَشِيمُ»: المُتفَتِّت من يابس العُشب، ومنه قوله تعالى: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[3]، ومنه: هشم الثريد، و[تَذْرُوهُ] بمعنى: تُفَرِّقُه، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «تُذْرِيهِ» والمعنى: تقلعه وترمي به. وقرأ الحسن: [تَذْرُوهُ الريح] بالإفراد، وهي قراءة طلحة، والنَّخعي، والأعمش.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ عبارة للإنسان عن أن الأمر قبل وجود الإنسان هكذا كان إذ كان، إذ نفسه حاكمة بذلك في حال غفلة، هذا قول سيبويه، وهو معنى صحيح. وقال الحسن: [كَانَ] إخبارٌ عن الحال قبل إيجاد الموجودات، أي أن القُدرة كانت، وهذا أيضاً حسَنٌ. وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد: من الأشياء المُقدَّرَة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لا المُحَالات وغيرها من الأشياء التي لا يوصف الله تبارك وتعالى بالقدرة عليها، ولا بالعجز عنها، وهذا على تسمية المحال شيئاً، من حيث هو معقول لا واقع، وقد جاء أن زلزلة الساعة شيءٌ.

---

(١) في أكثر الأصول: (لأنَّه)، وهو خطأ من النساخ.

(٢) الرَّبيعُ بن ضَبُع بن وهب الفزاري، من المعمرين، أدرك الإسلام ولم يسلم، وهذا البيت خامسُ سبعة أبيات قالها لما بلغ الأربعين بعد المائتين، وقد بدأ الأبيات بقوله:

أَصْبَحَ مِنِّي الشَّبَابُ قَدْ حَسَرَا إِنْ يَنْأَ عَنِّي فَقَدْ ثَوَى عُصُرَا

وختمها بقوله:

مِنْ بَعْدِ مَا قُوَّةٍ أُسَرُّ بِهَا أَصْبَحْتُ شَيْخاً أُعَالِجُ الْكِبَرَا

وقد استشهد المفسرون بقوله: (أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ... البيت) عند تفسير قوله تعالى في سورة (يس): ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾، عَلَى أن المِلْكَ بمعنى الضَّبْطِ والتسخير، لأن معنى (لا أَمْلِكُ البعير): لا أضبطُه ولا أتحكَّمُ فيه، كما استشهدوا به هنا دليلاً على أنَّ (أَصْبَحَ) بمعنى: (صار)، وليست مختصة بوقت الصباح.

(٣) من الآية (٣١) من سورة (القمر).



فمعنى هذا المثال تشبيه حال المرء في حياته وماله وعزته وزَهْوه وبَطَره بالنبات الذي له خُضرة ونُضرة عن المطر النَّازل، ثم يعود بعد ذلك هشيماً، ويصير إلى عدم، فمن كان له عمل صالح يبقى في الآخرة فهو الفائز، فكأن الحياة بمثابة الماء، والخضرة، والنضارة بمنزلة النعيم والعزة ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لفظه لفظ الخبر، لكن معه قرينة الضَّعَة للمال والبنين؛ لأنه في المثل قبْلُ حقَّر أمر الدنيا وبيَّنَهُ، فكأنه يقول في هذه: المالُ والبنون زينة هذه الحياة الدنيا المحقَّرة، فلا تُتبِعُوهَا أنفسكم. وقوله: [زِينَةُ] مصدرٌ، وقد أخبر به عن أشخاص، فإما أن يكون على تقدير محذوف، تقديره: مَقَر زينة الحياة، وإما أن يضع المال والبنين بمنزلة الغنى والكثرة.

واختلف الناسُ في «ٱلْبَاقِيَات ٱلصَّالِحَات» ـ فقال ابن عباس، وابن جبير، وأبو ميسرة، وعَمْرُو بن شُرَحْبيل: هي الصلوات الخمس.

وقال الجمهور: هي الكلماتُ المأْثور فضلها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العلِّي العظيم.

ورُوي في هذا حديث: (أكثروا من الباقيات الصالحات)(١). وقاله ابن عباس أيضاً، ورُوي عن رسول الله ﷺ من طريق أبي هريرة وغيره أن هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات(٢).

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: الباقيات الصالحات: كلُّ عمل صالح من

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو يَعْلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قالك(استكثروا من الباقيات الصالحات)، قيل: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: (التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله). (الدر المنثور).

(٢) أخرجه النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الصغير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (خذوا جُنَّتكم)، قيل: يا رسول الله، أمِنْ عدو قد حضر؟ قال: (لا، بل جُنَّتَكُمْ من النار: قول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات محسنات، وهن الباقياتُ الصالحاتُ). (الدر المنثور).



قولٍ أو فعل يبقى للآخرة، ورجحه الطبري[(١)]، وقول ابن عباس رضي الله عنهما لكل الأقوام دليل على قوله بالعموم.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، أي: صاحبها ينتظر الثواب وينبسط أَمَلُه على خير من حال ذي المال والبنين دون عمل صالح.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ الآية. التقدير: واذكر يوم، وهذا أفصح ما يُتَأَوَّل في هذا هنا. وقرأ نافع، والأعرج، وشيبة، وعاصم، وابن مصرف، وأبو عبد الرحمن: (نُسَيِّرُ) بنون العظمة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والحسن، وشبل، وقتادة، وعيسى: [تُسَيَّرُ] بالتاء وفتح الياء المشددة [ٱلْجِبَالُ] بالرَّفع. وقرأ الحسن: [يُسَيَّرُ] بياءٍ مضمومة والثانية مفتوحة مشددة [ٱلْجِبَالُ] رفعاً. وقرأ ابن محيصن: [تَسِيرُ] بتاءٍ مفتوحة وسين مكسورة، أسند الفعل إلى الجبال، وقرأ أُبَيُّ بن كعب: [وَيَوْمَ سُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ].

وقوله تعالى: (بَارِزَةً)، إمَّا أن يريد أن الأرض لذهاب الجبال والظراب والشجر برزت وانكشفت، وإما أن يريد بروز أهلهاوالمحشورين من سكان بطنها. (وَحَشَرْنَاهُمْ) أي أقمناهم من قبورهم وجمعناهم لعرضة القيامة. وقرأ الجمهور: (نُغَادِرْ) بنون العظمة، وقرأ قتادة: [تُغَادِرْ] على الإسناد إلى القدرة أو إلى الأرض. وروى أبان بن زيد عن عاصم: [يُغَادَرُ] بياءٍ مضمومة وفتح الدال [أَحَدٌ] بالرفع.

وقرأ الضحاك: [فَلَمْ نُغْدِرْ] بنون مضمومة وكسر الدال وسكون الغين.

والمغادرةُ: التَّرْكُ، ومنه: غدير الماء، وهو ما تركه السيل.

وقوله تعالى: (صَفًّا) إفرادٌ نُزِّلَ منزلة الجمع، أي: صفوفاً، وفي الحديث الصحيح: (يجمع اللهُ الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يُسْمِعُهُم الداعي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ) الحديث[(٢)]. وفي حديث آخر: (أهل الجنة يوم القيامة مائة وعشرون

---

(١) وكذلك اختاره القرطبي، قال: «وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يُقال له هذا».

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، وتفسير سورة الإسراء، ومسلم في الإيمان والبر، والترمذي في القيامة، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده، وهو حديث طويل، عن أبي هريرة، ولفظه كما في البخاري في تفسير سورة الإسراء، قال: (أُتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فنهس منها نهسةً ثم قال: أنا سيِّد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممَّ ذلك؟ يجمع الناس الأولين والآخرين في =



صفًّا، أنتم منها ثمانون صفًّا)[(١)]. وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ إلى آخر الآية، مقاولةٌ للكفار والمنكرين[(٢)] للبعث، ومُضَمَّنها التقريع والتوبيخ. والمؤمنون المعتقدون في الدنيا أنهم يبعثون يوم القيامة لا تكون هذه المخاطبة لهم بوجه، وفي الكلام حذف يقتضيه القول ويُحَسِّنه الإيجاز، تقديره: يقال للكفرة منهم. و﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يفسره قول النبي ﷺ: (إنكم تحشرون إلى الله حفاةً عراةً غُرْلاً)، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾[(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)﴾.

[الْكِتَابُ] اسم جنس يراد به كُتُب الناس التي أحصتها الحفظة لواحدٍ واحدٍ، ويحتمل أن يكون الموضوع كتاباً واحداً حاضراً، و«إِشْفَاقُ الْمُجْرِمِينَ»: فزعُهم من كشفه لهم وفَضْحه، فشكاية المجرمين إنما هي من الإحصاء، لا من ظلم ولا حيف.

= صعيد واحد، يُسْمِعُهُم الداعي، ويَنْفُذُهم البصرُ، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ . . .) وهو حديث طويل عن الشفاعة يوم القيامة.

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد، والترمذي في الجنة، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده (١/ ٤٥٣)، ولفظه كما جاء في المسند، عن ابن مسعود، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: (كيف أنتم وربع أهل الجنة، لكم ربعها ولسائر الناس ثلاثة أرباعها، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فكيف أنتم وثلثها؟ قالوا: فذاك أكثر، فقال: فكيف أنتم والشطر؟ قالوا: فذلك أكثر، فقال رسول الله ﷺ: أهل الجنة يوم القيامة عشرون ومائة صف، أنتم منها ثمانون صفاً).

(٢) في بعض النسخ: «مقاولة للكفار المنكرين».

(٣) أخرجه مسلم في الجنة، والبخاري في التفسير والأنبياء، والترمذي في القيامة والتفسير، والنسائي في الجنائز، وأحمد في مسنده (١ـ٢٢٣ـ٢٢٩)، ولفظه كما في مسلم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غُرْلاً)، قلت: يا رسول الله! الرجال والنساءُ ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: (يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)، ومعنى غُرْلاً: غير مختونين. وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ من الآية (١٠٤) من سورة (الأنبياء).

وقدَّم «الصغيرة» اهتماماً بها لِيُنَبِّه منها ويدلَّ أن الصغيرة إذا أُحصيت فالكبيرة أحرى بذلك، والعرب أبداً تقدم في الذكر الأقل من كل مقترنين، ونحو هذا قولهم: القمران والعمران[1]، سَمُّوا باسم الأَقَلِّ تنبيهاً منهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الصغيرة: الضحك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مثالٌ، وباقي الآية بيِّنٌ.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ الآية، هذه الآية مُضَمَّنها تقريع الكفرة وتوقيفهم على خطابهم في ولايتهم العدوَّ دون الذي أنعم بكل نعمة على العموم، صغيرها وكبيرها، وتقدير الكلام: واذكر إذْ قلنا، وتكررت هذه العبارة حيث تكررت هذه القصة إذ هي توطئة النازلة، فأما ذكر النازلة هنا فمقدمة للتوبيخ، وذكرها في البقرة إعلامٌ بمبادىء الأُمور.

واختلف المتأولون في السجود لآدم ـ فقالت فرقة: هو السجود المعروف ووضع الوجه بالأرض، جعله الله تعالى من الملائكة عبادةً له وتَكْرِمَةً لآدم، فهذا كالصلاة للكعبة. وقالت فرقة: بل كان إيماءاً منهم نحو الأرض، وذلك يُسَمَّى سجوداً؛ لأن السُّجود في كلام العرب عبارة عن غاية التواضع، ومنه قول الشاعر:

. . . . تَرَى ٱلأُكْمَ فيها سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ[2]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا جائز أن يكلفه الخالقُ للفاضل، وجائز أن يتكلفه الفاضل للفاضل، ومنه قول

---

(١) «القمران» تقال للشمس والقمر، و«العمران» تقال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويسمى هذا التغليب.

(٢) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل بن مهلهل. وهو في اللسان (سَجَدَ)، وفي الطبري، والبيت بتمامه:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَرَاتِهِ تَرَى الأُكْمَ فيها سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبَلَقُ: سوادٌ وبياض في اللون، والحَجَرَاتُ: الجوانب والنواحي، والأُكُمُ: جمع أَكَمَةَ (جمع الجمع). وهي التلُّ، أو المكان المرتفع، والسجودُ: الخضوعُ، وهو موضع الشاهد هنا. هذا وكان زيد الخيل قد اسلم وسمَّاه الرسول ﷺ «زيد الخير»، ثم مات عقب وفادته على النبي ﷺ.



النبي ﷺ: (قوموا إلى سيِّدكم)[١]، ومنه تقبيل أبي عبيدة بن الجراح يد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما حين تلقَّاه في سفر إلى الشام، ذكره سعيد بن منصور في مُصَنَّفه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾، قالت فرقة: هو استثناءٌ منقطع؛ لأن إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن وهم الشياطين المخلوقون من مارج من نار، وجميع الملائكة إنما خلقوا من نور، واختلفت هذه الفرقة ـ فقال بعضها: إبليس من الجن، وهو أولهم وبدأتهم، كآدم من الإنس، وقالت فرقة: بل كان إبليس وقبيله جنًّا، ولكن جميع الشياطين اليوم من ذريته، فهو كنوح في الإنس، واحتجوا بهذه الآية، وتعنيف إبليس على عصيانه يقتضي أنه أُمر مع الملائكة.

وقالت فرقة: بل الاستثناءُ متصل، وإبليس من قبيل من الملائكة خلقوا من نار، فإبليس من الملائكة، وعُبِّر عن الملائكة بالجن من حيث أنهم مستترون، فهي صفة تعم الملائكة والشياطين، وقال بعض هذه الفرقة: كان في الملائكة صنف يُسَمَّى الجن، وكانوا في السماء الدنيا وفي الأرض، وكان إبليس مدبِّر أمرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا خلاف أن إبليس كان من الملائكة في المعنى؛ إذ كان متصرفاً بالأمر والنهي مرسلاً، والمَلكُ مشتق من المَأْلُكَة وهي الرسالة[٢]، فهو في عداد الملائكة يتناوله قوله: [ٱسۡجُدُوا]، وفي سورة البقرة وسورة الأعراف استيعاب هذه الأمور.

وقوله تعالى: [فَفَسَقَ] معناه: فخرج وانتزح، وقال رؤْبة:

يَهْوِينَ في نَجْدٍ وغَوْرٍ غَائِرَا ... فَوَاسِقاً عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرَا[٣]

---

(١) أخرجه البخاري في العتق والاستئذان، وأبو داود في الأدب، وأحمد في مسنده (٣ـ٢٢)، ولفظه كما في المسند: عن أبي سعيد الخدري، قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، قال: فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فأتاه على حمار، قال: فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله ﷺ: (قوموا إلى سيدكم أو خيركم)، ثم قال: (إن هؤلاء نزلوا على حكمك)، قال: تُقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لقد قضيت بحكم الله»، وربما قال: (قضيت بحكم الملك).

(٢) قال أبو عبيدة: «هو من أَلَكَ إذا أرسل، والألوكة والمَألَكةُ والمألُكةُ: الرسالة. قال الشاعر ـ عدي بن زيد ـ:

أَبْلِـغ النُّعْمَـانَ عَنِّـي مَـأْلُكـاً ... إنَّنـي قَـدْ طَـالَ حَبْسِـي وانْتِظَـارِي

(٣) هذان بيتان من مشطور الرجز من الأبيات المتفرقة المنسوبة إلى رؤبة، وهما في آخر ديوانه، ومعهما=



ومنه يقال: «فَسَقَت الرُّطَبَةُ» إذا خرجت عن قشرتها، و«فَسَقت الفأرة» إذا خرجت من جحرها، وجميع هذا الخروج المستعمل في هذه الأمثلة إنما هو في فساد، وقول النبي ﷺ: (خمس فواسق يقتلن في الحِلِّ والحرم)[1] إنما هن مفسدات.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، يحتمل أن يريد: خرج عن أمر ربّه إيَّاه، أي فارقه، كما يفعل الخارج عن طريق واحد، أي: منه، ويحتمل أن يريد: فخرج عن الطاعة بعد أمر ربِّه بها، و(عَنْ) قد تجيءُ بمعنى (بَعْد) في مواضع كثيرة، كقولك: «أطعمته عن جوع»، ونحوه، فكأن المعنى: فسق بسبب أمر ربِّه بأن يطيع، ويحتمل أن يريد: فخرج بأمر ربِّه، أي مشيئته ذلك له، ويعبر عن المشيئة بالأمر؛ إذ هي أحد الأُمور، وهذا كما تقول: فعلت ذلك عن أمرك، أي بجدِّك وبحسب مرادك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قصص هذه الآية: كان إبليس من أشرف صنف، وكان له سلطان السماء وسلطان الأرض، فلما عصى صارت حاله إلى ما تسمعون. وقال بعض العلماء: إذا كانت خطيئة المرء من الخطإ فلْتَرْجُه كآدم، وإذا كانت من الكفر فلا تَرْجُه كإبليس.

ثم وقف عزَّ وجلَّ الكفرة ـ على جهة التوبيخ ـ بقوله: [أَفَتَتَّخِذُونَهُ]، يريد: أَفَتَتَّخِذُونَ إبليس، وقوله: [وَذُرِّيَّتَهُ] ظاهر اللَّفظة يقتضي المُوَسْوِسِينَ مِنَ الشياطين الذين يأمرون بالمنكر ويحملون على الباطل. وذكر الطبري أن مجاهداً قال: ذُرِّيَّةُ إبليس الشياطين، وكان يعدُّهم: «زَلَنْبُور» صاحب الأسواق، يضع رايته في كل سوق،

= بيت ثالث، نصُّه:

يَسْلُكْنَ في نَجْدٍ وَغَوْراً غَائِرَا

هكذا كالبيت الأول فيما عدا الكلمة الأولى، والنَّجد: الأرض المرتفعة، والغور: الأرض المنخفضة، والقَصْدُ: الهدف والغرض، وجار عن القصد: مال عنه وحاد وعدل. والفواسق: جمع فاسق، وهو الذي خرج عن قصده السليم، وهو موضع الشاهد هنا.

(١) أخرجه البخاري في الصيد وبدء الخلق، ومسلم والترمذي في الحج، والنسائي في المناسك، وأحمد في المسند (١/ ٢٥٧، ٦ـ١٦٤، ٢٥٩)، ولفظه كما في المسند، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: (خمس كلهن فاسقة، يقتلهن المحرم، ويقتلن في الحرم)، وفي رواية من طريق الليث عن طاوس حدد رسول الله ﷺ هذه الخمسة، وهي (الفأرة، والعقرب، والحيَّة، والكلب العقور، والغراب).



و«تُبُن»(١) صاحب المصائب، و«الأعورُ» صاحب الرِّياء، و«مِسْوَطٌ» صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس ولا يجدون لها أصلاً، و«دَاسِمٌ» الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلِّم ولم يذكر اسم الله بصَّره من المتاع ما لم يرفع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وما جانسه مما لم يأت به خبر صحيح فلذلك اختصرته. وقد طوَّل النقاش في هذا المعنى، وجلب حكايات تبعد من الصحة، فتركتها إيجازاً، ولم يمر بي في هذا صحيح إلاَّ ما في كتاب مسلم من أن للوضوء(٢) والوسوسة شيطاناً يُسَمَّى «خِنْزَب»، وذكر الترمذي أن للوضوء شيطاناً يسمى «الولهان»، والله أعلم بتفاصيل هذه الأمور، لا ربَّ غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداءٌ، فهو اسم الجنس.

وقوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، أي: بدل ولاية الله عزَّ وجلَّ بولاية إبليس وذريته، وذلك هو التعوض من الحق بالباطل، وهذا هو نفس الظلم لأنه وَضْع الشيء في غير موضعه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

الضمير في [أَشْهَدْتُهُمْ] عائد على الكافر وعلى الناس بالجملة، فَتَتضمَّن الآية الردَّ على طوائف المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كلِّ مُتَخَرِّصٍ في هذه الأشياء. وحدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ الفقيه أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدوي بالمهدية يقول: سمعت عبد الحق الصقلِّي يقول هذا القول، ويتأول هذا

---

(١) هكذا في الأصول، والذي وجدناه في الطبري والقرطبي هو «ثُبُر» بالراء، وعلى كل فجميع هذه الأسماء موضع تحريف، وما أصدق ابن عطية حين أعرض عن ذكر الكثير مما نراه عند غيره من المفسرين، وقال: «وهذا وما جانسه مما لم يأتِ به خبر صحيح».

(٢) في بعض النسخ: «من أن للصلاة».



التأويل في هذه الآية، وأنها رادَّة على هذه الطوائف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذكر هذا بعض الأصوليين. وقيل: الضمير في ﴿أَشْهَدْتُهُمْ﴾ عائد على ذُرِّيَّة إبليس، فهذه الآية ـ على هذا ـ تتضمن تحقيرهم. والقول الأول أعظم فائدة، وأقول: إن الغرض المقصود أولاً بالآية هم إبليس وذرِّيَّته، وبهذا الوجه يتَّجه الردُّ على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب المصدقين لهم والمعظِّمين للجن حين يقولون: أعوذ بعزيز هذا الوادي، إذ الجميع من هذه الفِرق متعلقون بإبليس وذرِّيَّته، وهم أضلوا الجميع، فهم المرادُ الأول بالمُضِلِّين، وتندرج هذه الطوائف في معناهم.

وقرأ الجمهور: (أَشْهَدْتُهُمْ)، وقرأ أبو جعفر وعوف العقيلي، وأيوب السختياني: [أَشْهَدْنَاهُم]، وقرأ الجمهور: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ وقرأ أبو جعفر الجحدري، والحسن ـ بخلاف ـ: [وَمَا كُنْتَ][(١)]. والصفة بـ﴿ٱلْمُضِلِّينَ﴾ تترتب في الطَّوائف المذكورة وفي ذرِّيَّة إبليس لعنه الله. و«العَضُد» استعارة للمعين والمُؤَازر، وهو تشبيه بعَضد الإنسان الذي يستعين به. وقرأ الجمهور: (عَضُداً) بفتح العين وضم الضاد، وقرأ أبو عمرو، والحسن بضمهما، وقرأ الضحاك بكسر العين وفتح الضاد، وقرأ عكرمة: [عُضْداً] بضم العين وسكون الضاد، وقرأ عيسى بن عمر: [عَضَداً] بفتح العين والضاد، وفيه لغات غير هذا لم يُقْرأ بها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾، الآية وعيدٌ، والمعنى: واذكر يومَ، وقرأ طلحة، ويحيى، والأعمش، وحمزة: [نَقُولُ] بنون العظمة، وقرأ الجمهور بالياء، أي: يقول الله تعالى للكفار الذين أشركوا به من الدنيا سواه: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ﴾ على وجه الاستغاثة بهم، وقوله: [شُرَكَائِيَ]، أي: على دعواكم أيها المشركون، وقد بيَّن هذا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾. وقرأ ابن كثير وأهل مكة: ﴿شُرَكَائِيَ﴾ بياءٍ مفتوحة، وقرأ الجمهور: [شُرَكَائِي] بهمزة، فمنهم من حقَّقها، ومنهم من خَفَّفَها، و«الزَّعْمُ» إنما هو مستعمل أبداً في غير اليقين، بل أغلبه في الكذب، ومنه هذه الآية، وأرفع مواضعه أن تستعمل «زعم» بمعنى «أخبر» حيث تلقي عهدة الخبر على المخبر، كما يقول سيبويه

(١) بفتح التاء، والخطاب للنبي ﷺ، والضبط عن كتب التفسير والقراءات.



رحمه الله: «زعم الخليل»، وقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ظاهره أن ذلك يقع حقيقة، ويحتمل أن يكون استعارة، كأن فكرة الكفار ونظرهم في أن تلك الجمادات لا تغني شيئاً ولا تنفع هي بمنزلة الدعاء وترك الإجابة، والأول أَبْيَن.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿مَوْبِقاً﴾ ـ قال عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، ومجاهد: هو واد في جهنم يجري بدم وصديد، قال أنس رضي الله عنه: يحجز بين أهل النار وبين المؤمنين، فقوله ـ على هذا ـ: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرفٌ. وقال الحسن: ﴿مَوْبِقاً﴾: عداوة، و﴿بَيْنَهُمْ﴾ ـ على هذا ـ ظرف. وبعض هذه الفرقة يرى أن الضمير في قوله تعالى: [بَيْنَهُمْ] يعود على المؤمنين والكافرين، ويحتمل أن يعود على المشركين ومعبوداتهم في الدنيا، وأما التأويل الأول فالضمير فيه عائد على المشركين ومعبوداتهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿مَوْبِقاً﴾ معناه: مهلكاً، بمنزلة: موضع، وهو من قولك: وَبَقَ الرجلُ وَأَوْبَقَهُ غَيْرُه إذا أهلكه، فقوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ـ على هذا التأويل ـ يصح أن يكون ظرفاً، والأظهر فيه أن يكون اسماً بمعنى: وجعلنا تواصهم أمراً مهلكاً لهم، ويكون ﴿بَيْنَهُمْ﴾ مفعولاً أولاً لـ﴿جَعَلْنَا﴾. وعبَّر بعضهم عن «المَوْبِق» بالوعيد، وهذا ضعيف.

ثم أخبر عزَّ وجلَّ عن رؤية المجرمين النار ومعاينتهم لها، ووقوع العِلْم لهم بأنهم مُبَاشِرُوها، وأطلق الناس أن «الظَّنَّ» هنا بمعنى اليقين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولو قال تعالى بدل «ظَنُّوا»: «أَيْقَنُوا» لكان الكلام مُتَّسقاً على مبالغة فيه، ولكن العبارة بالظَّن لا تجيءُ أبداً في موضع يقين تام قد ناله الحسُّ، بل أعظم درجاته أن يجيءَ في موضع عِلْم متحقق لكنه لم يقع ذلك المظنون، وإلاَّ فما يقع ويُحَسُّ لا يكاد يوجد في كلام العرب العبارة عنه بالظَّنِّ، وتأمل هذه الآية، وتأمل قول دُرَيْد:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجِ . . . .(١)

---

(١) هذا صدر بيت قاله دُرَيْدُ بن الصِّمَّة من قصيدة له يرثي بها أخاه عبد الله، وهي قصيدة مشهورة انتقاها القرشي صاحب الجمهرة، ومطلعها:

أَرَثَّ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ ... لِعَاقِبَةٍ أَمْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ؟ =



وقرأ الأعمش: [فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلاقُوهَا]، وكذلك في مصحف ابن مسعود[(١)]، وحكى أبو عمرو الداني عن علقمة أنه قرأ: [مُلاَفُّوهَا] بالفاء مشددة، من لفَّفت. وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (إن الكافر لَيَرَى جنهم ويظن أنها مواقعتُه من مسيرة أربعين سنة)[(٢)]. و«الْمَصْرِفُ»: الْمَعْدِلُ، ومنه قول أبي كبير الهذلي:

أَزُهَيْـرُ هَـلْ عَـنْ شَيْبَـةٍ مِـنْ مَصْـرِفِ ... أَمْ لاَ خُلُـودَ لِبَـاذِلٍ مُتَكَلِّـفِ؟[(٣)]

وهذا مأخوذ من الانصراف من شيءٍ إلى شيءٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ الآية. المعنى: ولقد خوَّفنا ورَجَّيْنا وبالغنا في البيان، وهذا كله بتمثيل وتقريب للأذهان. وقوله: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: من كلِّ مثل له نفعٌ في الغرض المقصود بهم وهو الهداية. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ خبرٌ مُقْتَضَب في ضمنه: فلم ينفع فيهم تصريف الأمثال، بل هم قوم منحرفون يجادلون بالباطل. وقوله تعالى: (ٱلْإِنْسَانُ) يريد به الجنس، ورُوي أن سبب الآية هو النضر بن الحارث، وقيل: ابن الزِّبَعْرى، ورُوي أن رسول الله ﷺ دخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد نام عن صلاة الليل فأيقظه وعاتبه، فقال له عليٌّ: إنما نفسي بيد الله، ونحو هذا، فخرج رسول الله ﷺ وهو يضرب فخذه بيده ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[(٤)]. فقد استعمل الآية على العموم في جميع الناس، و«الْجَدَلُ»:

= والبيت بتمامه:

فَقُلْـتُ لَهُـمْ ظُنُّـوا بِـأَلْفَـيْ مُـدَجَّـجٍ ... سَـرَاتُهُـمُ فـي الْفَـارِسِـيِّ الْمُسَـرَّدِ

وظُنُّوا بمعنى: أَيْقِنوا، وهو موضع الاستشهاد هنا، والمُدَجَّج: التَّامُّ السلاح، وسَرَاتهم: خِيَارُهُم، والفارسي المُسَرَّد: الدروع الفارسية المتقنة الصنع المتابعة الحلقات.

(١) قال أبو حيان: الأولى حمل ذلك على التفسير لمخالفته سواد المصحف.

(٢) أخرجه أحمد، وأبو يَعْلَى، وابن جرير، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه ـ كما ذكره السيوطي في الدرِّ المنثور ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ينصب الكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة كما لم يعمل في الدنيا، وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة والله أعلم).

(٣) البيت في ديوان الهذليين ٢ـ١٠٤، وهو مطلع قصيدة لأبي كبير، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، والمَصْرف: المَعْدِلُ، وهو الشاهد هنا.

(٤) أخرج البخاريُّ، ومسلم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عليٍّ رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ طرقه=

الخصام والمدافعة بالقول، فالإنسان أكثر جَدَلاً من كلِّ ما يجادِلُ من ملائكة وجِنٍّ وغير ذلك إن فُرِض. وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ تعليم تَفَجُّع مَّا على الناس، ويَتَبَيَّن فيما بعد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

هذه آية تأَسُّف عليهم، وتنبيهٌ على فساد حالهم؛ لأن هذا المنع لم يكن بِقَصْد منهم أن يمتنعوا لِيجيئَهم العذابُ، وإنما امتنعوا هم مع اعتقادهم أنهم مصيبون، لكن الأمر في نفسه يسوقهم إلى هذا، فكأن حالهم يقتضي التَّأَسُّف عليهم، و(ٱلنَّاسَ) يُرادُ به كفار عصر محمد رسول الله ﷺ الذين تَوَلَّوْا دفع الشريعة وتكذيبها[1] و(ٱلْهُدَىٰ) هو شرع الله تعالى، والبيانُ الذي جاء به محمد ﷺ، و«الاَسْتِغْفَارُ» هنا هو طلب المغفرة على فارط الذَّنب كُفْراً وغيره. و﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هي عذابُ الأمم المذكورة من الغَرَق والصيحة والظُّلَّة والريح وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾، أي: مقابلةً عياناً، والمعنى عذاب غير المعهود، فتظهر فائدة التقسيم، وكذلك صدق هذا الوعيد في بدر. وقال مجاهد: [قُبُلاً] معناه: فجأة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، ومجاهد، وعيسى بن عمر: [قِبَلاً] بكسر القاف وفتح الباء، وقرأ عاصم، والكسائي، وحمزة،

= وفاطمة ليلاً، فقال: ألا تُصَلِّيان؟ فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، إن شاء أن يبعثنا بعثنا، وانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليَّ شيئاً، ثم سمعته يضربُ فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾.

(١) قال الزمخشري: «[أَنْ] الأولى نصب، والثانية رفعٌ، وقبلها مضاف محذوف، تقديره: وما منع الناسَ الإيمانَ إلا الانتظارُ أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك، أو انتظار أن يأتيهم العذاب، يعني عذاب الآخرة». وقال أبو حيان بعد أن نقل هذا الكلام عن الزمخشري: «وهو مسترق من قول الزجاج».



والحسن، والأعرج: [قُبُلاً] بضم القاف والباء، ويحتمل مَعْنَيَيْن: أحدهما أن يكون بمعنى: (قِبَل)؛ لأن أبا عيسى حكاهما بمعنى واحد في المقابلة، والآخر أن يكون جمع (قَبِيل)، أي: يجيئهم العذاب أنواعاً وألواناً. وقرأ أبو رجاءٍ، والحسن أيضاً: [قُبْلاً] بضم القاف وسكون الباء(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآية. كأنه لمَّا تفجَّع عليهم وعلى ضلالهم ومصيرهم بآرائهم إلى الخسار ـ قال: وليس الأمر كما ظنُّوا، والرُّسُلُ لم نبعثهم لِيُجَادلُوا، ولا لِتُتَمَنَّى عليهم الاقتراحات، وإنما بعثناهم مبشرين مَنْ آمن بالجنَّة، ومُنذرين من كفر بالنار. و«يُدْحِضُوا» معناه: يزهقوا، والدَّحض: الطِّين الذي يُزْلَق فيه، ومنه قول الشاعر:

رَدِيتُ ونَجَّى الْيَشْكُرِيَّ حِذَارُهُ … وحَادَ كما حَاد الْبَعِيرُ عَنِ الدَّحْضِ(٢)

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى﴾ إلى آخر الآية توعُّد. و«الآيات» تجمع آيات القرآن والعلامات التي تظهر على لسان محمد ﷺ. وقوله: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ يريد: من عذاب الآخرة، والتقدير: وما أُنذروه، فحذف الضمير. و«الهُزْءُ»: السخر والاستخفاف، كقولهم: «أساطير الأولين»، وقولهم: «لو نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا».

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام بمعنى التقرير، وهذا من أفصح التقرير، أن يُوقف المرءُ على مالا جواب له فيه إلاَّ الذي يريد خَصْمُه، فالمعنى: لا أحد أظلم مِمَّن

---

(١) راجع المجلد الثالث صفحة ٤٤٢.

(٢) البيت منسوب لطرفة بن العبد، قال ذلك في اللسان (دَحَضَ)، وذكره الزمخشري في أساس البلاغة غير منسوب، وهو غير موجود في الديوان، ولكن توجد قصيدة ضادية مطلعها:

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُوراً صَحِيفَتِي … وَلم أُعْطِكُمْ بالطَّوْعِ ما لي ولا عِرْضي

وأبو منذر هو عمرو بن هند، ويمكن أن يكون هذا البيت منها، على أن محقق الديوان قال عن هذه القصيدة: إنها مما نُسب إلى طرفة، وأنه قالها وهو في السجن يخطب عَمْرو بن هند. والبيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن)، واستشهد به الطبري، والقرطبي، لكن القرطبي رواه بلفظ آخر، هو: (أبا مُنْذِرٍ رُمْتَ الْوَفَاءَ فَهِبْتَهُ... وَحِدْتَ... البيت). والرَّدَى: الهلاك، وحاد: مالَ وابتعد. والدَّحْضُ: مصدرٌ ويوصف به على لفظه، فيقال: مكان دحضٌ بمعنى: زَلِقٌ. وهو موضع الشاهد هنا. يقول مخاطباً الملك عمرو بن هند: إنه أخطأ فهلك، وكان مصيره السجن، أما اليشكرى فكان حذراً، ونجَّاه حَذَرُه كما ينجو البعير الذي يميل في طريقه عن المكان الزَّلق. واليَشْكُرِيُّ هو الحارث بن حِلِّزَةَ اليشكرى.



هذه صفتُه، أن يُعرض عن الآيات بعد الوقوف عليها بالتذكير، وينسى ويَطَّرح كبائره التي أسلفها، هذه غاية الإهمال. ونسب السيئات إلى اليَدَيْن من حيث كانت اليدان آلة التَّكَسُّب في الأُمور الجِزْمِيَّة[1]، فجعلت كذلك في المعاني استعارةً.

ثم أخبر الله تعالى عنهم وعن فعله بهم جزاءً عن اعتراضهم وتكسُّبهم القبيح بأن الله تعالى جعل على قلوبهم أكِنَّةً، وهي جمع كِنانٍ، وهو الغلاف الساتر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واختلف الناسُ في هذا وما أشبهه من الخَتْم والطَّبْع ونحوه، هل هو حقيقة أو مجاز؟ والحقيقة في هذا غير مستحيلة، والتَّجوُّز أيضاً فصيح، أي: لما كانت هذه المعاني مانعةً في الأجسام وحائلةً استُعيرت للقلوب التي قد أنساها الله تعالى وأقْصاها عن الخير. وأمَّا «الْوَقْرُ في الآذانِ» فاستعارة بيِّنةٌ لأن الكفرة يسمعون الدعاء إلى الشَّرع سماعاً تاماً، ولكن لمَّا كانوا لا يُؤَثِّر ذلك فيهم إلاّ كما يؤثِّر في الذي به وَقْر فلا يَسْمع، شُبِّهوا به، وكذلك العمى والصمم والبكم كلها استعارات، وإنما الخلاف في أوصاف القلب، هل هي حقيقة أو مجاز؟ و«الوَقْرُ»: الثِّقَل في السَّمع.

ثم أخبر الله تعالى عنهم أنَّهم وإن دُعُوا إلى الهدى فإنهم لا يهتدون أبداً، وهذا يُخَرَّجُ على أحد تأويلين: أحدهما أن يكون هذا اللفظ العام يراد به الخاصُّ ممَّن حتم الله عليه أنه لا يؤمن ولا يهتدي أبداً، ويَخْرُج عن العموم كل من قضى الله بهداه في ثاني حالٍ، والآخر أن يريد: وإن تَدْعُهُم إلى الهدى فلن يؤمنوا جميعاً أبداً، أي: أنهم ربما آمن منهم الأفراد، ويضطرنا إلى أحد هذين التأويلين أنَّا نجد المُخْبَر عنهم بهذا الخبر قد آمن منهم واهتدى كثيرٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾.

لمَّا أخبر الله تعالى عن القوم الذين حتم بكفرهم أنهم لا يهتدون أبداً، عقَّب ذلك

---

(١) الجِزم هو الجسد، يريد ما يقابل الأمور المعنوية.



بأنه للمؤمنين الغفور ذو الرَّحمة، ويتحصل للكفار من صفته تبارك وتعالى بالغفران والرَّحمة تَرْكُ المُعاجلة، ولو أُخِذوا بحسب ما يستحقُّونه لبادرهم بالعذاب المُيَسَّر لهم، ولكنه تعالى أخَّرهم إلى موعد لا يجدون منه منجى، قالت فرقة: هو أجل الموت، وقالت فرقة: هو عذاب الآخرة، وقال الطبري: هو يوم بدر والحشر، و«المَوْئِلُ»: المَنْجَى، يقال: وأَلَ الرَّجُلُ يَئِلُ إذا نَجَا[1]، ومنه قول الشاعر:

لا وَأَلَــتْ نَفْسُــكَ خَلَّيْتَهَــا لِلْعَــامِــرِيِّيْــن وَلَــمْ تُكْلَــمِ[2]

ومنه قول الأعشى:

فَقَــدْ أُخَــالِــسُ رَبَّ الْبَيْــتِ غَفْلَتَــهُ وَقَــدْ يُحَــاذِرُ مِنِّــي ثُــمَّ مــا يَئِــلُ[3]

ثم عقَّب تعالى توعُّدَهم بذكر الأمثلة من القرى التي نزل بها ما توعَّد هو لا بمثله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ حذف مضاف، تقديره: وتلك أهل القُرى، و[الْقُرَى]: المدن، وهذه الإشارة إلى عادٍ وثمودَ ومَدْين وغيرهم، و[تِلْكَ] ابتداءٌ،

---

(١) وأَلَ في الأصل بمعنى: لَجَأ طلباً للنجاة، ومنه: المَوْئِلُ بمعنى: المَلْجَأ، وفي اللسان: «وقد وأَلَ إليه يَئِل وَالاً وَوُءُولاً، على فعولٍ: لَجَأ، وَوَاءَلَ منه، على فاعَلَ: طلب النجاة».

(٢) البيت في التاج واللسان (وأل)، وفي الطبري، والرواية فيها (لا وَاءلَتْ نَفْسُك...)، وهو أيضاً في (معاني القرآن) للفراء، وفي القرطبي، والرواية فيهما (لا وَأَلَتْ نَفْسُك)، ولم ينسبه أحد، والذي أنشده هو الفراءُ، وعنه نقل الباقون، قال: «المَوْئِلُ: المَنْجَى، وهو الملجأ، والعرب تقول: إنه لَيُوَائِل إلى موضعه وحِرْزِه، وقال الشاعر: لا وأَلَتْ نَفْسُك... البيت، يريدون: لا نَجَتْ». وخَلَّى: تَرَكَ، والكَلْم: الجرح، والشاهد أنَّ (وَأَلَ) بمعنى لجأ ونَجَا.

(٣) البيت من لامية الأعشى المعروفة التي بدأها بقوله:

وَدِّعْ هُــرَيْــرَةَ إنَّ الــرَّكْــبَ مُــرْتَحِــلُ وَهَــلْ تُطِيــقُ وَدَاعــاً أَيُّهَــا الــرَّجُــلُ

وقبله يقول:

إمَّــا تَــرَيْنَــا حُفَــاةً لا نِعَــالَ لَنَــا إنَّــا كــذلــك، مــا نَحفَــى، وَنَنْتَعِــلُ

وأُخالِسُ: آخُذُ الشيء خلسةً وسرقةً، وما يَئِلُ: ما ينجو. يقول مخاطباً من يتغزل بها: إن هذا الذي ترينه حافياً فتنبو عنه عيناكِ قد أمتع نفسه بكثيرات من الغانيات، وإنه ليَسْتَبي العقيلة التي يخاف عليها زوجها ويحاذر فلا ينفعه الحذر.

والبيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن) في تفسير قوله تعالى: ﴿لن يجدوا من دونه مؤئلا﴾، وهو كالشاهد السابق دليل على أن (وَأَلَ يَئِل) بمعنى: نَجا ينجو.



و﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ صفة، و﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ خبر، ويصحّ أن تكون ﴿تِلْكَ﴾ منصوباً بفعل يدل عليه ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾.

وقرأ الجمهور: [لِمُهْلَكِهِمْ] بضم الميم وفتح اللام، وهو من: (أَهْلَكَ)، ومُفْعل في مثل هذا يكون لزمن الشيء، ومكانه، ويكون مصدراً، فالمصدر ـ على هذا ـ مضاف إلى المفعول. وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ: ﴿لِمَهْلَكِهِمْ﴾ بفتح الميم واللام، وقرأ ـ في رواية حفص ـ: ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ بفتح الميم وكسر اللام، وهذا مصدر من: «هَلَكَ»، وهو في مشهور اللُّغة غير مُتَعَدٍّ، فالمصدر ـ على هذا ـ مضاف إلى الفاعل، لأنه بمعنى: وجعلنا لأن هلكوا موعداً، وقالت فرقة: إن «هَلَكَ» يتعدى، تقول: أَهْلَكْتُ الرَّجلَ وَهَلَكْتُهُ بمعنى واحد، وأنشد أبو عليٍّ في ذلك:

وَمَهْمَهٍ هَالِكِ مَنْ تَعَرَّجَا[1]

فعل هذا يكون المصدر في كل وَجْه مضافاً إلى المفعول.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ الآية... ابتداءُ قصة ليست من الكلام الأول، والمعنى: واذكر أَوِ ٱتْلُ، و﴿مُوسَىٰ﴾ هو موسى بن عمران بمقتضى الأحاديث والتواريخ، وبظاهر القرآن؛ إذ ليس في القرآن موسى غير واحد، وهو ابن عمران، ولو كان في هذه الآية موسى غيره لَبَيَّنَهُ. وقالت فرقة منها نوف ٱلْبِكَالي: إنه ليس ابن عمران، وهو موسى بن مَنْشَى، ويقال: موسى بن مَنْشَى، وأمّا فتاه فعلى قول من قال هو موسى بن عمران فهو يوشع بن نون بن إفراييل بن يوسف بن يعقوب، وأما من قال هو موسى بن مشنى فليس الفتى بيوشع بن نون، ولكنه قول غير صحيح ردَّه ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. و«الفتى» في كلام العرب: الشَّاب، ولما كان الخَدَمة ـ أكثر ما يكون ـ فتياناً قيل للخادم: فتًى على جهة حسن الأدب، وإنْ أَسَنَّ، وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي ﷺ: (لا يَقُل أحدكم عبدي ولا أَمَتي، وليقل فتاي

---

(١) هذا البيت للعَجَّاج، وقد ذكره في اللسان (هَلَكَ) شاهداً عَلَى أن (هَلَكَ) يتعدى بنفسه، وأنه مثل أهْلَكَ وهَلَّك، وذكر بعده بيتاً آخر، وهو:

هَائِلَةٍ أَهْوَالُهُ مَنْ أَدْلَجَا

وقال: «وهي لغة تميم». وتعرّج: مال وانحرف عن الطريق المألوف، وأدلج: سار في الليل، وقيل: في أوّله، والمَهْمَه: المفازة البعيدة، والمعنى أن هذه المفازة البعيدة تُهْلِكُ من يتنكّب الطريق المألوف، وتهول بأهوالها من يسير فيها ليلاً.



وفتاتي)[١]، فهذا ندب إلى التواضع، و«الفتى» في الآية هو الخادم، ويوشع بن نون يقال: هو ابن أخت موسى عليه السلام.

وسبب هذه القصة فيما روي عن النبي ﷺ أن موسى جلس يوماً في مجلس لبني إسرائيل، وخطب فأبلغ، فقيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله تعالى إليه: بَلَى، عبدنا خضر[٢]، فقال: يا رب، دلَّني على السبيل إلى لُقِيِّه[٣]، فأوحى الله تعالى إليه أن يسير بطول سيف البحر حتى يبلغ مجمع البحرين، فإذا فقدت الحوت فإنه هنالك، وأُمر أن يتزود ويرتقب زواله عنه، ففعل موسى ذلك، وقال لفتاه على جهة إمضاء العزيمة: لا أَبْرَح السَّيْر، أي: لا أزال، وإنما قال هذه المقالة وهو سائر، ومن هذا قول الفرزدق:

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَهَادَتْ نِسَؤُهُم ... بِبَطْحَاءَ ذي قَارٍ عِيَابَ اللَّطَائِمِ[٤]

وذكر الطبريُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لمَّا ظهر موسى عليه السلام وقومه على مصر أنزل قومه بمصر، فلمَّا استقر الحال خطب يوماً فذكَّر بآلاء الله وأيامه عند بني إسرائيل، ثم ذكر نحو ما تقدَّم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وما مرَّ بي قطُّ أن موسى عليه السلام أنزل قومه بمصر إلاَّ في هذا الكلام، وما أُراه يصح، بل المتظاهر أن موسى عليه السلام مات بفحص التِّيه قبل فتح ديار الجبَّارين،

---

(١) أخرجه مسلم في الألفاظ، وأحمد في مسنده (٢ـ٤٤٤، ٤٩٦)، ولفظه كما في المسند، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يَقُل أحدكم لعبده: عبدي، ولكن ليقل: فتاي، ولا يَقُل العبد لسَيِّده: رَبِّي، ولكن ليَقُل: سيدي).

(٢) في بعض النسخ: «بل عبدنا خضر».

(٣) اللُّقِيُّ: مصدر لَقِيَ، يقال: لَقِيَه لقاءً، وتِلقاءً، ولُقِيّاً، ولُقْيَاناً، ولُقْيَة، بمعنى: استقبله وصادفه.

(٤) البيت من قصيدة للفرزدق يمدح بها عبد الله بن عبد الأعلى الشيباني، وهو في الديوان، ومطلعها:

إنِّـي وإنْ كَـانَـتْ تَمِيـمٌ عِمَـارَتِـي ... وكنْتُ إلى القُدْمُوسِ مِنْهَا القُمَاقِمُ

والبَطْحَاءُ: المكان المتَّسع يمرُّ به السيل فيترك فيه صغار الحصى والرمل. وذو قار: مكان معروف، والعياب: جمع عيْبَة وهي ما يجعل فيه الثياب وغيرها. واللطائم: جمع لَطيمة، وهي وعاءُ المِسْك، يقال: فاحت اللطيمة، وكأنَّ فاها لطيمة تاجر. والبيت هنا للاستشهاد على أن (لا أبرح) بمعنى: لا أزال.

وفي هذه القصة من الفِقْه الرحلةُ في طلب العلم، والتواضع للعالِم.

وقرأ الجمهور: [مَجْمَعَ] بفتح الميمين، وقرأ الضحاك: [مَجْمِعَ] بكسر الميم الثانية.

واختلف الناس في «مَجْمَع البَحْرَيْنِ»، أين هو؟ فقال مجاهد، وقتادة: هو مجمع بحر فارس وبحر الروم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين ممَّا يلي برَّ الشام، وهو مجمع البحرين على هذا القول، وقالت فرقة منهم محمد بن كعب: مجمع البحرين هو عند طنجة، وهو حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه السائر من دبور إلى صبا، وروي عن أُبيٍّ بن كعب أنه قال: مجمع البحرين بأفريقية، وهذا يقرب من الذي قبله. وقال بعض أهل العلم: هو بحر الأندلس من البحر المحيط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله واحد، حكاه النقاش، وهذا مما يُذكر كثيراً. ويذكر أن القرية التي أبت أن تضيفهما هي الجزيرة الخضراءُ، وقالت فرقة: مجمع البحرين، يريد بحراً ملحاًوبحراً عذباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا إنما كان الخضر عند موقع نهر عظيم في البحر. وقالت فرقة: البحران إنما هما كناية عن موسى عليه السلام والخضر؛ لأنهما بَحْرَا عِلْم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف، والأمر بيِّن من الأحاديث أنه إنما رُسِمَ له بحرٌ مَّا. وقوله: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ معناه: أوْ أمضي على وجهي زماناً، واختلف القراءُ ـ فقرأ الحسن، والأعمش، وعاصم: [حُقْباً] بسكون القاف[1]، وقرأ الجمهور: ﴿حُقُبا﴾ بضمِّه، وهو

---

(١) هذه قراءة عاصم في رواية أبي بكر، أما رواية حفص عنه فهي كقراءة الجمهور ﴿حُقُباً﴾ بضم الحاء والقاف كما هو ثابت في المصحف.

تثقيل (حُقْبٍ)، وجمْع الحُقْب أحقابٌ. واختلف في الحقب ـ فقال عبد الله بن عمرو: ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون سنة، وقال الفراءُ: الحُقب: سنةٌ واحدة، وقال ابن عباس وقتادة: الحقب أزمان غير محدودة، وقالت فرقة: الحُقب جمع حقبة وهي السنة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿بَيْنِهِمَا﴾ للبحرين، قاله مجاهد، وقيل: هو لموسى والخضر، والأول أصوب. وقرأ عبد الله بن مسلم: [مَجْمِعَ] بكسر الميم الثانية: وقال: ﴿نَسِيَا﴾ وإنما كان النسيان من الفتى وحده، نسي أن يعلم موسى عليه السلام بما رأى من حاله من حيث كان لهما زاداً، وكان بسبب منه، فنسب فعل الواحد فيه إليهما، وهذا كما يقال: فَعَل بنو فلان الأمر، وإنما فعله منهم بعض. ورُوي في الحديث أن يوشع رأى الحوت قد حشر من المِكْتَل[1] إلى البحر، فرآه قد اتَّخذ السرب، وكان موسى عليه السلام نائماً، فأشفق أن يوقظه، وقال: أُؤَخِّر حتَّى يستيقظ، فلما استيقظ نَسي يوشع أن يعلمه، ورحلا حتى جاوزا، و«السَّبيلُ»: المَسْلَك، و«السَّرْبُ»: المَسْلَك في جوف الأرض، فشبه به مسلك الحوت في الماء حين لم ينطبق الماءُ بعده كالطَّاقِ[2] وهذا الذي ورد في الحديث عن النبي ﷺ[3]، وقاله جمهور المفسرين، إن الحوت بقي موضع سلوكه ماءً جامداً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل صار موضع سلوكه

---

(١) المِكْتَلُ: زِنْبيل يعمل من الخوص، (المقطف).

(٢) الطَّاقُ: ما عُطِفَ عليه وجعل كالقَوْس من الأبنية.

(٣) الحديث الذي يشير إليه المؤلف حديث طويل، أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، من طريق سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، قال: حدثنا أُبيُّ بن كعب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن موسى قام خطيباً... الحديث)، وقد تكررت الإشارة إلى هذا الحديث في كلام المؤلف.



حجراً صلداً، وقال ابن زيد: إنما اتَّخذ سبيله سرباً في البرِّ حتى وصل إلى البحر ثم عام على العادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهؤلاء يتأولون ﴿سَرَبًا﴾ بمعنى: تصرفاً وجولاناً، من قولهم: فَحْلٌ ساربٌ أي مُهْمَل يرعى من حيث يشاءُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾[1]، أيْ متصرف. وقالت فرقة: اتَّخَذ سرباً في التُّراب من المكتل إلى البحر، وصادف في طريقه حجراً فنقبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر الأمر أن السَّرَب إنما كان في الماء، ومن غريب ما روي في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصص هذه الآية أن الحوتَ إنما حَيِيَ لأنه مسَّه ماءُ عَيْن هناك تدعى عين الحياة، ما مَسَّت شيئاً قط إلاَّ حَيي. ومن غريبه أيضاً أن بعض المفسرين ذكر أن موضع سلوك الحوت عاد حجراً طريقاً، وأن موسى عليه السلام مَشَى عليه تبعاً للحوت حتى أفضى به ذلك الطريق إلى جزيرة في البحر، وفيها وجد الخضر عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر الكتاب والروايات أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، وروي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أن موسى عليه السلام نزل عند شجرة عظيمة في ضفة البحر فنسي يوشع الحوت هنالك، ثم استيقظ موسى، ورحلا مرحلة بقية اللَّيل وصَدْر يومهما، فجاع موسى ولحقه تعب الطريق فاستدعى الغداء.

قال لي أبي رضي الله عنه: وسمعت أبا الفضل بن الجوهري يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام، ولمَّا مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم. و«النَّصَبُ»: التعب والمشقة. وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير: [نُصُباً] بضم النون والصاد، ويشبه أن يكون جمع (نَصْبٍ)، وهو تخفيف (نَصَبٍ).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ﴾ الآية. حكى الطبري عن فرقة أنها قالت: الصخرة هي بالشام عند نهر الذيب.

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (الرَّعد).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تقدم ذكر الخلاف في موضع هذه القصة.

وقوله تعالى: ﴿نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾، يريد: نسيت ذكر ما جرى فيه لك، وأمال الكسائي وحده [أَنْسَانِيهُ]. وقرأ ابن كثير في الوصل: [أَنْسَانِيهِي] بياءٍ بعد الهاء، وفي مصحف عبد الله: «وَمَا أَنْسَانِيهُ أَنْ أُذَكِّرَ لَهُ إلاَّ ٱلشَّيْطَانُ». وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْحُوتَ﴾، بدل اشتمال. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى عليه السلام، أي: اتَّخذ الحوت سبيله عجباً للناس، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ تمام الخبر، ثم استأنف التعجُّب فقال ـ من قِبَل نفسه ـ: ﴿عَجَباً﴾ لهذا الأمر، وموضع العجب أن يكون الحوت قد مات وأُكل شِقُّه الأيسر، ثم حيي بعد ذلك، قال أبو شجاع في كتاب الطبري: رأيته، أوتيت به فإذا هو شقة حوت وعين واحدة، وشقٌّ آخر ليس فيه شيءٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأنا رأيته، والشِّقُّ الذي ليس فيه شيءٌ عليه قشرة رقيقة يشفُّ تحتها شوكه وشقه الآخر[(١)].

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ إخباراً من الله تعالى، وذلك على وجهين: إما أن يُخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجباً، أي: تعجَّب منه، وإمَّا أن يخبر عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجباً للناس. وقرأ أبو حيوة: ﴿واتخاذ سبيله﴾، فهذا مصدر معطوف على الضمير في ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ الآية. المعنى: قال موسى لفتاه: أمر الحوت وفقده هو الذي كنَّا نطلب، فإن الرجل الذي جئنا له ثَمَّ، فرجعا يقُصَّان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما. وقرأ الجمهور: [نَبْغِي] بثبوت الياء، وقرأ عاصم وقومٌ: ﴿نَبْغِ﴾ دون ياءٍ، وكان الحسن يثبتها إذا وصل ويحذفها إذا وقف. و«قَصُّ الأَثَر»: اتِّباعه وتطلُّبه في موضع خفاية.

---

(١) اختلفت النسخ الأصلية في كتابة هذه العبارة، وكذلك اختلف ما نقله في البحر المحيط منها، ففيه: «والشق الذي فيه شيءٌ عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة».



والعَبْدُ هو الخضر في قول الجمهور بمقتضى الأحاديث، وخالف من لايعتد بقوله فقال: ليس صاحب موسى بالخضر، بل هو عالمٌ آخر، والخضر نبيٌّ عند الجمهور، وقيل: هو عبد صالح غير نبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والآية تشهد بنبوته؛ لأن بواطن أفعاله هل كانت إلاَّ بوحي إليه؟ ورُوي في الحديث أن موسى وجد الخضر عليهما السلام مُسَجًّى في ثوبه مستلقياً على الأرض، فقال له: السلام عليك، فرفع الخضر رأسه وقال: وَأَنَّى بأرضك السلام؟ ثم قال له: من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال له: ألم يكن لك في بني إسرائيل ما يشغلك عن السفر إلى هنا؟ قال: بلى، ولكني أحببتُ لقاءك وأن أتعلم منك، قال له: إنِّي على عِلْم من عِلْم الله علمنيه ولا تعلمه أنت، وأنت على عِلْم من عِلْم الله علَّمَكه الله لا أعلمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كان علم الخضر معرفة بواطن قد أُوحيت إليه لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علم موسى عليه السلام علم الأحكام والفُتْيَا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم. ورُوي أن موسى وجد الخضر قاعداً على ثبج البحر، وسُمِّي الخضر خضراً لأنه جلس على فروة يابسة فاهتزت تحته خضراء، رُوي ذلك عن النبي ﷺ[1]، و«الرَّحْمَةُ» ـ في هذه الآية ـ النُّبُوَّةُ. وقد ذكرنا الحديث المُضَمَّن أن سبب هذه القصة أن موسى عليه السلام قيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا. وحكى الطبري حديثاً آخر، مُضَمَّنَهُ أن مُوسى عليه السلام قال من قِبَل نفسه: أيْ رَبِّ، أيُّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة خير تهديه، قال: رب، فهل في الأرض أحدٌ؟ قال: نعم، فسأل السبيل إلى لُقِيِّه[2].

---

(١) أخرجه البخاري، وأحمد، والترمذي، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: (إنما سُمِّي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء). وأخرج مثله ابنُ عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما. والمراد بالفروة هنا: الحشيش اليابس.

(٢) الحديث في تفسير الطبري.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والحديث الأول في صحيح البخاري.

وقرأ الجمهور: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ بتشديد النون، وقرأ أبو عمرو: (من لدنا) بضم الدال وتخفيف النون، قال أبو حاتم: هما لغتان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

هذه مخاطبة المستنزل المبالغ في حُسْن الأدب. المعنى: هل يتَّفق لك ويخِفُّ عليك؟ وهذا كما في الحديث: هل تستطيع أن تُرِيَني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ[1]؟ وعلى بعض التأويلات يجيءُ كذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[2]؟

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم: ﴿رُشْداً﴾ بتخفيف الشين، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وقرأ ابن عامر: [رُشُداً]، وقرأ أبو عمرو: [رَشَداً] بفتح الراء والشين. ونصبه على وجهين: أحدهما أن يكون مفعولاً ثانياً بـ[تُعَلِّمَنِي]، والآخر أن يكون حالاً من الضمير في قوله: [أَتَّبِعُكَ].

ثم قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، أي: إنَّك يا موسى لا تُطيق أن تصبر على ما تراه من عملي؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه، أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد، وهو جَدُّ عمرو بن يحيى: أتستطيع أن تُرِيَني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بماءٍ فأفرغ على يديه فغسل مرَّتين، ثم مَضْمَض واسْتَنْثَر ثلاثاً. ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرَّتين مرتين إلى المِرْفقين، ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدْبَر، بدأ بمُقَدم رأسه حتى ذهب بهما إلى قفاه ثم ردَّهما إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه.

(٢) من الآية (١١٢) من سورة (المائدة).



ما تراه خطأً ولم تُخْبَر بوجه الحكمة فيه ولا وجه الصواب؟ فقرب له موسى الأمر بِوَعْده أنه سيجده صابراً، ثم استثنى حين حكم على نفسه بأمر، فقوى الخضر وصاته، وأمره بالإمساك عن السؤال والإكنان لما يراه حتى يبتدئه الخضر بشرح ما يجب شرحه.

وقرأ نافع: [فلا تَسْأَلَنِّيَ] بفتح اللام وتشديد النون وإثبات الياء. وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه حذف الياء فقال: [فلا تَسْأَلَنِّ]، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى﴾ بسكون اللام وثبوت الياء، وقرأ الجمهور: ﴿خُبْرًا﴾ بسكون الباء، وقرأ الأعرج: [خُبُراً] بضمها.

وقوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾، روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهما انطلقا ما شِيَيْن على سيف البحر حتَّى مرَّت بهما سفينة، فعُرف الخضر فَحُمِلاَ بغير نول إلى مقصد أُمة الخضر. وعُرِّفت السفينة بالألف واللام تعريف الجنس لا لِعَهْد عَيْنها. فلمَّا ركبا عمد الخضر إلى وتد فجعل يضرب به في جنب السفينة حتى بلغ به ـ فيما رُوي ـ لوحين من ألواحها، فذلك هو معنى ﴿خَرَقَهَا﴾، فلما رأى ذلك موسى عليه السلام غلبه ظاهر الأمر على الكلام حين رأى فعلاً يُؤَدِّي إلى غرق من في السفينة، فوقفه بقوله: ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾؟ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ بالتاء، وقرأ أبو رجاء: [لتغَرِّق أهلها] بشدِّ الراء وفتح الغين، وقرأ حمزة، والكسائي: [ليغْرَقَ أهلُها] برفع الأهل وإسناد الفعل إليهم.

و«الإِمْرُ»: الشَّنيعُ من الأمور كالداهية والإِدِّ ونحوه، ومنه: «أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة»[1]، ومنه: «أَمِرَ القَومُ» إذا كثروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و«الإِمْرُ أَخصُّ من «النُّكْرِ».

فقال الخضر مجاوباً لموسى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، فتنبَّه موسى لما أتى معه فاعتذر بالنسيان، وذلك أنه نسي العهد الذي كان بينهما، هذا قول الجمهور، وفي كتاب التفسير من صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: (كانت الأولى من

---

(١) هذا من حديث قاله أبو سفيان بن حرب، ويعني به النبي ﷺ، يريد: ارتفع شأنه بين الناس، وكان هذا قبل أن يسلم.



موسى نسياناً)[١]، وفيه عن مجاهد قال: كانت الأولى نسياناً، والثانية شرطاً، والثالثة عمداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الكلام معترض؛ لأن الجميع شرطٌ، ولأن العمد يبعد على موسى عليه السلام، وإنما هو التأويل إذا جنب صيغة السؤال والنسيان.

وروى الطبري عن أُبيٍّ بن كعب أنه قال: إن موسى عليه السلام لم يَنْس، ولكنها من معاريض الكلام[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا القول صحيح، والطبريُّ لم يُبيِّنه، ووجهه عندي أن موسى عليه السلام إنما رأى العهد في أن يسأل، ولم ير إنكار هذا الفعل الشنيع سؤالاً، بل رآه واجباً، فلما رأى الخضر قد أخذ العهد على أعمٍّ وجوهه فضمَّنه السؤال والمعارضة والإنكار وكلَّ اعتراضٍ ـ إذ السؤال أخف من هذه كلها ـ أخذ معه في باب المعاريض التي هي مندوحة عن الكذب، فقال له: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، ولم يقل: «إنِّي نسيت العهد»، بل قال لفظاً يعطي للمتأول أنه نسي العهد، ويستقيم أيضاً تأويله وطلبه مع أنه لم ينس العهد؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ كلام جيد طلبه، وليس فيه للعهد ذكر، هل نسيه أم لا، وفيه تعريض أنه نسي العهد، فجمع في هذا اللَّفظ بين العذر والصدق وما يخل بهذا القول إلاَّ أن الذي قاله وهو أُبيٌّ روى عن النبي ﷺ أنه قال: (كانت الأولى نسياناً).

و[تُرْهِقْنِي] معناه: تكلِّفني وتضيِّق عليَّ.

ومِمَّا قُصَّ من أمرهما أنهما لمَّا ركبا السفينة وجَرَتْ نَزَل عصفور على جنب السفينة، فنقر في الماء نَقْرة، فقال الخضر لموسى: ماذا ترى هذا العصفور نقص من ماء البحر؟ قال موسى: قليلاً، فقال: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلاَّ ما نقص هذا العصفور من ماء البحر.

---

(١) هذا جزءٌ من الحديث الطويل الشامل الذي رواه البخاري وغيره وأشرنا إليه من قبل في بداية قصة موسى والخضر عليهما السلام.

(٢) المعاريض جمع مِعْراض، وهو التورية وفحوى الكلام، وفي الحديث: (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فقيل: معنى هذا الكلام وضع العلم موضع المعلومات، وإلاَّ فَعِلْمُ الله تبارك وتعالى لا يُشَبَّهُ بمتناهٍ؛ إذ لا يتناهى، والبحرُ لو فرضت له عصافير على عدد نقطه لانْتَهى، وعندي أن الاعتراض يحتمل أن يريد: من علم الله الذي أعطاه العلماء قبلهما وبعدهما إلى يوم القيامة، فتجيءُ نسبة علمه إلى علم البشر نسبة تلك النقطة إلى البحر[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن لولا أن في بعض طرق الحديث: (ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلاَّ كنقرة هذا العصفور)، فلم يبق مع هذا إلاَّ أن يكون التشبيه بتجوُّز؛ إذ لا يوجد في المحسوسات أقوى في القلَّة من نقطة بالإضافة إلى البحر، فكأنَّها لا شيء؛ إذ لا توجد لها إلى البحر نسبة معلومة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.

انطلقا في موضع نزولهما من السفينة، فمرَّا بغلمان يلعبون، فعمد الخضر إلى غلام حسن الهيئة وضيءٍ فاقتلع رأسه، ويقال: رضَّها بحجر، ويقال: ذبحه، وقال بعض الناس: كان هذا الغلام لم يبلغ الحُلُم، ولذلك قال موسى: [زَكِيَّةً]، أي: لم تذنب، وقالت فرقة: بل كان غلاماً شاباً، والعرب تُبقي على الشاب اسم الغلام، ومنه قول ليلى الأخيلية:

. . . .   غُـلامٌ إِذا هَـزَّ الْقَنـاةَ سَقـاهـا[2]

---

(١) سقطت هذه الفقرة من النسخة التونسية.

(٢) هذا عجز بيت قالته ليلى الأخيلية من قصيدة مدحت بها الحجاج بن يوسف، والبيت بتمامه مع بيت قبله: =



وهذا في صفة الحَجَّاج. وفي الخبر أن هذا الغلام كان يفسد في الأرض ويقسم لأبويه ما فعل فيقسمان على قَسَمه ويحميانه ممن يطلبه، وقرأ ابن عباس، والأعرج، وأبو جعفر، ونافع، والجمهور: [زَاكِيَةً] وقرأ الحسن، وعاصم، والجحدري: ﴿زَكِيَّةً﴾، والمعنى واحد، وقد ذهب قوم إلى الفَرْق، وليس بِبيِّن[١]. وقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يقتضي أنه لو كان عن قتل نَفْس لم يكن به بأسٌ، وهذا يدل على كبر الغلام؛ وإلاَّ فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس ولا بغير نفس، وقرأ الجمهور: ﴿نُكْرًا﴾، وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وشيبة: [نُكُراً] بضم الكاف، واختلف عن نافع، ومعناه: شيءٌ يُنْكَر.

واختلف الناس أيُّهما أبلغ؟ قوله: ﴿إِمْرًا﴾ أو قوله: ﴿نُكْرًا﴾ ـ فقالت فرقة: هذا قتل بيِّنٌ وهنالك مُتَرَقَّب، و﴿نُكْرًا﴾ أبلغ، وقالت فرقة: هذا قتلُ واحدٍ وذلك قتلُ جماعةٍ، فـ﴿إِمْرًا﴾ أبلغ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعندي أنهما لِمَعْنَيَيْن: قوله: ﴿إِمْرًا﴾ أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم، و﴿نُكْرًا﴾ أبيَن في الفساد لأن مكروهه قد وقع.

[ونصف القرآن بعد الحرف «ن» أو ينتهي إلى النون من قوله: [نُكُراً].][٢].

وقوله: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ فيه زجْرٌ وإغلاظٌ ليس في قوله أوَّلاً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وقوله: ﴿بَعْدَهَا﴾ يريد: بعد هذه القصة، فأعاد الضمير عليها وإن كانت لم يتقدم لها ذكرٌ صريح من حيث كانت في ضمن القول.

= إذَا نَـزَلَ الحَجَّـاجُ أَرْضـاً مَـرِيضَـةً ... تَتَبَّـعَ أَقْصَـى دائِهَـا فَشَفَـاهَـا
شَفَـاهَـا مِـنَ الـدَّاءِ العُضَـالِ الَّـذِي بِهَـا ... غُـلامٌ إذا هَـزَّ القَنَـاةَ سَقَـاهَـا

والقناة: الرمح، وسقاها: بَلَّلَهَا من دم الأعداء.

(١) يعني أن قوماً من العلماء ذهبوا إلى أن بينهما فرقاً، فقد قال ثعلب: الزَّكِيَّةُ أبلغ، وقال أبو عمرو: الزَّاكِيَةُ التي لم تُذنب قط، والزَّكِيَّةُ التي أذنب ثم تابت، لكن ابن عطية يرى أن ما ذكراهُ غير بيِّن.

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية عن الفرق بين ﴿إمرا﴾ ﴿ونكرا﴾ لكنه ترك الجملة الأخيرة التي وضعناها بين العلامتين [. . . . .]، وهي في نفسها تحتاج إلى بيان، وصلتها بما قبلها أيضاً في حاجة إلى توضيح، والظاهر أن فيها نقصاً نتيجة سهو من النساخ خفي بسببه المعنى، على أنها سقطت من بعض النسخ.



وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾، ورواها أُبيّ عن النبي ﷺ، وقرأ عيسى، ويعقوب: (فلا تَصْحَبْني)، وقرأ عيسى أيضاً: [فلا تُصْحِبْني] بضم التاء وكسر الحاء، ورواها سهلٌ عن أبي عمرٍو، والمعنى: فلا تُصْحِبْني علمك، وقرأ الأعرج: [فلا تَصْحَبَنِّي] بفتح التاء والباء وشدِّ النون. وقوله: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾، أي: قد أَعْذَرْتَ إليَّ وبلغتَ إلى العُذْر من قِبَلي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويُشبه أن تكون هذه القصة أصلاً للآجال في الأحكام التي هي ثلاثة أيام، وأيام التلوُّم ثلاثة، فتأمله. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿مِن لَّدُنِّي﴾ بفتح اللام وضم الدال وشد النون، وهي (لَدُن) اتصلت بها نون الكناية التي في «ضربني» ونحوه[1]، فوقع الإدغام، وهي قراءة النبي ﷺ، وقرأ نافع، وعاصم: [من لدُنِي] كالأولى إلاَّ أن النون مُخَفَّفة، فهي (لَدُن) اتصلت بها ياءُ المتكلم التي في «غلامي» وكُسِر ما قبل الياء كما كُسِر في هذه[2]، وقرأ أبو بكر عن عاصم: [من لَدْني] بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون، وهي تخفيف [لَدُنِي] التي ذكرناها قبل هذه، ورُوي عن عاصم: [من لُدْني] بضم اللام وسكون الدال، قال مجاهد: وهي غلط، قال أبو عليٍّ: هذا التغليط يشبه أن يكون من جهة الرواية، فأما على قياس العربية فهي صحيحة. وقرأ الحسن: [من لَدْني] بفتح اللام وسكون الدال[3].

وقرأ الجمهور: ﴿عُذْراً﴾، وقرأ أبو عمرو، وعيسى: [عُذُراً] بضم الذال، وحكى الداني أن أُبيّاً روى عن النبي ﷺ: [عُذْرِي] بكسر الراء وياءٍ بعدها، وأسند الطبريُّ قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لأحدٍ بدأ بنفسه، فقال يوماً: (رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر على صاحبه لرأى العجب، ولكنه قال: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾[4].

---

(١) يريد نون الوقاية التي تسبق ياء المتكلم لتقي الفعل من الكسر.

(٢) قال أبو حيان في البحر المحيط: «وهو القياسُ؛ لأن أصل الأسماء إذا أُضيفت إلى ياء المتكلم لم تلحق بها نون الوقاية نحو غلامي وفرسي».

(٣) هي القراءة التي رواها أبو بكر عن عاصم، وكان الأفضل أن يذكرهما معاً.

(٤) ذكر السيوطي الحديث في الدرِّ المنثور، وقال: أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، =

وفي البخاري عن النبي ﷺ: (يرحم الله موسى، لوددنا أنه صبر حتَّى يقص علينا من أمرهما)[١]. ورُوي في تفسير هذه الآية أن الله تعالى جعل هذه الأمثلة التي وقعت لموسى مع الخضر حجة على موسى وعجباً له، وذلك أنه لما أنكر خَرْق السفينة نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التَّابوت مطروحاً في اليم؟ فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكزك للقبطيِّ وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار نودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر؟

وقوله: [فَانْطَلَقَا]، يريد: انطلق الخضر وموسى يمشيان لارتياد الخضر أمراً ينفذ فيه ما عنده من علم الله تعالى، فمرَّا بقرية فطلبا من أهلها أن يطعموهما فأبَوْا. وفي الحديث أنهما كان يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة مصرِّحة بهوان الدنيا على الله عزَّ وجلَّ.

واختلف الناس في القرية ـ فقال محمد بن سيرين: هي الأُبُلَّة، وهي أبخل قرية وأبعدها من السماء، وقالت فرقة: هي أَنْطَاكِيَة. وقالت فرقة: هي بَرقة، وقالت فرقة: هي بجزيرة الأندلس، روي ذلك عن أبي هريرة، ويذكر أنها الجزيرة الخضراءُ. وقالت فرقة: هي أبو جودان[٢]، وهي بناحية أذْرَبِيجان.

= والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه، ولفظه كما ذكره السيوطي أن النبي ﷺ قال: (رحمة الله علينا وعلى موسى ـ فبدأ بنفسه ـ، لو كان صبر لقَصَّ علينا من خبره، ولكن قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾.

(١) هذا جزءٌ من الحديث الذي رواه البخاري في تفسير سورة الكهف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنهم، وقد أشرنا إليه من قبل.

(٢) الذي في القرطبي: باجَرْوَان، وفي البحر المحيط: أبو حوران. والأبُلَّة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها، هكذا قال الحموي في (معجم البلدان)، وقال الزَّجَّاجيُّ: هي الِفدرة من التَّمْر، وهي على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة. أما أنطاكيَة فضبطها الحموي بالفتح ثم السكون والياءُ مخففة، وأمَّا بَرْقَة ـ بفتح الأول والقاف ـ فاسم صُقْع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وأفريقية، ثم ذكر الحموي مدينتين أُخريين بهذا الضبط، ثم ذكر مائة مكان كل منها يُسَمَّى بُرْقة بضم أوله مع فتح القاف وبالإضافة إلى اسم آخر. وضبط أذْرَبيجان بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء وسكون الياء، وذكر من المدن المجاورة لها بَاجَرْوان.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله بحسب الخلاف في أيِّ ناحية من الأرض كانت قصة موسى عليه السلام، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وقرأ الجمهور: (يُضَيِّفُوهُمَا) بفتح الضاد وشد الياء، وقرأ أبو رجاءٍ [يُضِيفُوهُمَا] بكسر الضاد وسكون الياء، وهي قراءة ابن محيصن، والزُّبير، وأبي رزين. و«الضَّيْفُ» مأخوذ من: ضاف إلى المكان إذا مال إليه، ومنه الإضافة وهي إمالة شيءٍ إلى شيءٍ. وقرأ الأعمش: «فَأَبَوْا أَنْ يُطْعِمُوهُمَا».

وقوله تعالى في الجدار: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ استعارة، وجميع الأفعال التي حقُّها أن تكون للحيِّ الناطق متى أُسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة، أي: لو كان الجماد إنسان لكان متمثِّلاً لذلك الفعل، فمن ذلك قول الأعشى:

هَلْ تَنْتَهُونَ؟ وَلاَ يَنْهَى ذَوي شَطَطٍ ... كالطَّعْنِ يَذْهَبُ فيهِ الزَّيْتُ والفُتُلُ(١)

فأسند النَّهي إلى الطَّعن، ومن ذلك قول الشاعر:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ ... وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عُقَيْلِ(٢)

---

(١) البيت من قصيدته المعروفة: (وَدِّع هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحل)، والشَّطَط: المبالغة ومجاوزة الحدِّ في الأمور، يقول: إن كل من يجاوز حدَّه، ويخرج عن الحق والصواب لا ينهاه عن ذلك إلا الطعن الشديد الذي يصيبه بجراح واسعة يغيب فيها الزيت والفُتل. والشاهد أنه أسند النَّهْيَ إلى الطعن على سبيل الاستعارة.

(٢) البيت في اللسان (رود) غير منسوب، قال: «وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾، أي أقامه الخضر، وقال: (يُريدُ) والإرادة إنما تكون من الحيوان، والجدار لا يُريد إرادة حقيقية؛ لأن تهيُّؤَه للسقوط قد ظهر كما تظهر أفعال المريدين، فوصف الجدار بالإرادة إذ كانت الصورتان واحدة، ومثل هذا كثيرٌ في الشعر واللغة، قال الرَّاعي:

فِي مَهْمَهٍ قَلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا ... قَلَقَ الفُؤُوسِ إذا أَرَدْنَ نُصولا

وقال آخر: يُريدُ الرمحُ صَدْرَ أبي بَراءٍ.... البيت» والبيت أيضاً من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن، وقد نسبه للحارثي، قال: «ليس للحائط إرادةٌ ولا للموت، ولكنه إذا كان في هذه الحال من رثة فهي إرادتُه، وهذا قول العرب في غيره قال الحارثي: يريد الرُّمْحُ... البيت». وما يقال عن إسناد الإرادة للرمح يقال عن إسناد الرغبة عن الشيء إليه أيضاً، والرغبة عن الشيء: تركه والزُّهْدُ فيه، أما الرغبة فيه فهي الحرص عليه والطمع فيه.



ومنه قول عنترة:

. . . . وَشَكَــا إِلَــيَّ بِعَبْــرَةٍ وتَحَمْحُــمِ

وفَسَّر هذا المعنى بقوله:

لَوْ كَانَ يَدْرِي ما الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى البيت. . . . . [(١)]

ومنه قول الناس: «داري تنظر إلى دار فلان»[(٢)]، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تَرَاءَى ناراهُمَا»[(٣)] وهذا كثير جداً.

وقرأ الجمهور: ﴿يَنْقَضَّ﴾، أي: يسقط. وقرأ النبي ﷺ ـ فيما روي عنه ـ [أن يُنْقَضَ] بضم الياء وتخفيف الضاد، وهي قراءة أُبيٍّ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعكرمة: [أن ينقاص] بالصاد غير منقوطة، بمعنى: ينشق طولاً، يقال: انْقَاصَ الجِدَارُ وَطَيُّ البِئرِ[(٤)]، وانقاصت السِّنُّ إذا انشقت طولاً، وقيل: إذا تصدعت كيف

---

(١) استشهد ابن عطية بعجز بيت من الشعر قاله عنترة بن شداد، ثم وضح كلامه بصدر البيت التالي، والبيتان كاملان معاً هما:

فَــازْوَرَّ مِــنْ وَقْــعِ الْقَنَــا بِلَبَــانِــهِ وَشَكَــا إِلَــيَّ بِعَبْــرَةٍ وَتَحَمْحُــمِ
لَــوْ كَــانَ يَــدْرِي مَــا الْمُحَــاوَرَةُ اشْتَكَــى وَلَكَــانَ لَــوْ عَلِــمَ الْكَــلاَمَ مُكَلِّمِــي

وهو يتحدث عن فرسه الذي شارك معه في الهجوم على الأعداء، وتلقى كثيراً من الهجمات والضربات. والإزورار: الْمَيْلُ، والقنا: جمع قناةٍ، وهي الرمح، واللَّبان: صدر الفرس، والتَّحَمْحُم: صوت الفرس المنخفض إذا كان فيه شجن الحنين لِيَرِقَّ له صاحبه، يقول: مال فرسي من رماح الأعداء التي أصابت صدره، ونظر إليَّ وحَمْحَمَ لأرِقَّ له وأرْحَمه من هذه الضربات، ولو كان يعلم لغة الخطاب والكلام لاشتكى إليَّ وعبَّر عن آلامه بحديث واضح مفهوم. وإسناد هذه الأفعال إلى الفرس تجوُّز.

(٢) أي تقع أمامها وتشاهدها، فقد أسند النظر إلى الدار وهي جماد على سبيل المجاز.

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه أبو داود في الجهاد، والنسائي في القسامة. والحديث كاملاً: (أنا بريءٌ من كل مسلم مَعَ مُشْرِكٍ، قيل: لِمَ يا رسول الله؟ قال: لا تَرَاءَى نارَاهُمَا)، قال ابن الأثير في شرح هذا الحديث: «أي: يلزم المُسْلِمَ ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك، ولا ينزل بالموضع الذي إذا أُوقدت فيه نارهُ تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها في منزله»، والتَّرائي: تَفَاعُلٌ من الرُّؤْية، يقال: تراءى القومُ إذا رأى بعضهم بعضاً، وإسناد الترائي إلى النار مجاز، يقول: ناراهما مختلفتان، هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان، فكيف يتَّفقان؟ والأصل في (تَرَاءَى) تَتَرَاءَى، فحذفت إحدى التَّاءَين تخفيفاً». اهـ. بتصرف.

(٤) يقال للبئر التي تُبنى بالحجارة: الطَّوِيُّ، وطَوَاهَا: أحاطها بالحجارة والآجُرِّ، فإذا قيل: انْقَاصَ طيُّ البئر، كان المعنى: انشق بناؤها وتَصدَّع.



كان، ومنه قول أبي ذُؤَيب:

فِـرَاقٌ كقَيْـصِ السِّـنِّ فـالصَّبْـرَ إنَّـهُ ... لِكُـلِّ أُنَـاسٍ عَثْـرةٌ وَجُبُـورُ(١)

ويروى البيت: عبرةٌ وحبور؛ بالباء والحاء. وقرأ ابن مسعود، والأعمش: [يُرِيدُ لِيَنْقَضَّ].

واختلف المفسرون في قوله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ ـ فقالت فرقة: هدمه وقعد يبنيه، ووقع هذا في مصحف ابن مسعود، ويؤيد هذا التأويل قول موسى عليه السلام: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ لأنه فعلٌ يستحق أجراً. وقال سعيد بن جبير: بلْ مَسَحَه بيده وأقامه فقام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وَرُوي في هذا حديث، وهو الأشبه بفعل الأنبياء عليهم السلام.

فقال موسى للخضر: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: طعاماً نأكله. وقرأ الجمهور: ﴿لَاتَّخَذْتَ﴾، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [لَتَخِذْتَ]، وهي قراءة ابن مسعود، والحسن، وقتادة، وأدْغَم بعض القراء الذَّال في التَّاء، ولم يدغمها بعضهم(٢)، ومن قولهم: (تَخِذَ) قول الشاعر:

وَقَدْ تَخِذَتْ رِجْلِي إلى جَنْبِ غَرْزِهَا ... نَسِيفاً كَأُفْحُوصِ ٱلْقَطاةِ ٱلْمُطَرَّقِ(٣)

---

(١) البيت من قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي يصور فيها عودته إلى ديار المحبوبة بعد غيبة طويلة، ويتحدث عن عتابها له حين رأته فقالت له: إنَّك صبَوْتَ بعدنا وتغيرتَ بعد أن كبِرتَ، وأنه أجابها بأن فَقْد الأحبة هو السبب، وأن هذا الفراق كان كانشقاق السِّنِّ ولا دواء لذلك إلاَّ الصبر، والناس دائماً يَعْثُرون ثم يُجْبرون. والشاهد أن قَيْص السِّن هو انشقاقها، أما قوله: فالصَّبْرَ، فإن معناه: علينا أن نصبر، وهو منصوب على الإغراء، والتقدير: الزمي الصبرَ، ورواية الأصمعي، فالصَّبْرُ، والمعنى عليها: فالصَّبْرُ دَوَاءٌ. وقد روى أبو عمرو البيت: فراقٌ كنَقْضِ السِّن، أي: تحرُّكها.

(٢) قال ابن خالويه: «الحُجَّةُ لمن قرأ بفتح التاء وكسر الخاء وإظهار الذال أنه أخذه من: تَخِذَ يَتْخَذُ، كما تقول: شَرِبَ يَشْرَبُ، فأتى بالكلام على اصله مُبَيَّناً غير مُدْغَم. والحُجَّة لمن قرأ بذلك وأدغم مقاربة الذَّال للتاء لأن مخرجهما من طرف اللسان وأطراف الثنايا العُلْيَا، والحجة لمن قرأ بألف الوصل أن وزنه افتعلت، من الأخذ، وأصله: إيتَخَذْتَ؛ لأن همزة الوصل تصير ياءً لانكسار ما قبلها ثم تُقلب تاءً وتُدغم في تاءِ افْتَعَلْتُ فتصيران تاءً شديدة». انتهى بتصرف وزيادة إيضاح.

(٣) البيت لِلْمُمَزِّق العبدي، واسمُهُ شأسُ بن نهار، من عبد القيس، وهو ابن أُخت المثَقّب العبدي ولُقِّب بالممزِّق لقوله:

فَـإِنْ كنْـتُ مَـأْكُـولاً فَكُـنْ خَيْـرَ آكِـلِ ... وَإِلاَّ فَـأَدْرِكْنِـي وَلَمَّـا أُمَـزَّقِ =



وفي حرف أُبَيٍّ: «لَوْ شِئْتَ لأَوتيتَ عليهِ أجراً».

ثم قال الخضر لموسى بحسب شرطهما: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، واشترط الخضر، وأعطاه موسى ألاَّ يقع سؤالٌ عن شيءٍ، والسؤالُ أقلُّ وجوه الاعتراضات، فالإنكار والتخطئة أعظم منه، وقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ـ وإنْ لم يكن سؤالاً ـ ففي ضمنه الإنكارُ لفعله والقولُ بتصويب أخذ الأجر، وفي ذلك تخطئة ترك الأجر، وأمَّا فصْله وتكريرُه ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ وعُدُولُه عن «بَيْنِنَا» فَلِمَعْنى التأكيد، والسِّينُ في قوله: [سَأُنَبِّئُكَ] مُفَرقة بين المحاورتيْن والصحبتيْن، ومُؤْذِنَةٌ بأن الأولى قد انقطعت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾.

قرأ الجمهور: (لِمَسَاكِينَ) بتخفيف السِّين، جمع مِسْكين، واختلف في صفتهم ـ فقالت فرقة: كانت لقوم تجار، ولكنهم من حيث هم مسافرون على قَلَتٍ[1] وفي لجة بحر وبِحَالٍ ضعف عن مدافعة غصب جائر، عَبَّر عنهم بـ[مَسَاكِينَ]؛ إذ هم في حالٍ يُشْفَق عليهم بسببها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كما تقول لرجل غنِيٍّ ـ إذا وقع في وَهْلَةٍ[2] أوْ خَطْبٍ ـ: مِسْكين. وقالت

= والممزَّق بفتح الزاي وكسرها، قال ذلك في اللسان. والبيت من القصيدة التي منها بيته الذي ذكرناه، وهو في اللسان، ومن شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن)، وتَخِذَ من باب فَرِحَ، يقال في المضارع يَتْخَذُ كَيَفْرَحُ، كما قال ابن خالويه في الهامش السابق. وهي موضع الاستشهاد، والغَرْزُ لِلْجَمل مثل الركاب للبغل، وهو ما يضع الراكب قدمه فيه عند الركوب، والنَّسِيف: أثر عضِّ الغَرْزِ في جنب الناقة من عَضَّة أو تساقط وَبَر، والقَطَاة: طائر صغير من نوع اليمام يُؤْثِر الحياة في الصحراء، ويتخذ أفحوصه في الأرض ويطير جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مُرَقَّطٌ، والأفحوصُ هو الحفرة التي يحفرها في الأرض ليضع بيضة فيها ويرقد عليه، وهي تناسب حجمه،، المُطرَّق: التي خرج منها نصف ولدها ثم نشب ـ غذا كانت امرأة ـ أو بيضها ـ إذا كانت طائراً، يصف القطاة بأنها كالمرأة المطرق، وقيل: تطريق القطاة أن تتخذ الأفحوص للبيض.

(١) على قَلَتٍ: على تَعَرُّضٍ للهلاك أو الخوف.

(٢) أي: في خوف وفزع.



فرقة: كانوا عشرة إخوة أهْلِ عاهات، خمسة منهم عاملون في السفينة، وخمسة لا قدرة بهم على العمل.

وقرأت فرقة: [لِمَسَّاكِينَ] بشدِّ السين، واختلف في تأويل ذلك ـ فقالت فرقة: أراد بالمَسَّاكين مَلاَّحي السفينة، وذلك أن المسَّاكَ هو الذي يُمسك رجل المركب، وكل الخدمة يصلح لإمساكه، فسُمي الجميع مسَّاكين، وقالت فرقة: أراد بالمسَّاكِين دَبَغَة المُسُوك وهي الجلود واحدها مَسْكٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأظهر في ذلك القراءة الأولى، وأنَّ معناها أنَّ السفينة لقوم ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم، واحتج الناس بهذه الآية في أن المسكين الذي له البُلغة من العيش، كالسفينة لهؤلاء، وأنه أصلح حالاً من الفقير، واحتج من يرى خلاف هذا بقول الشاعر:

أَمَّا الْفَقيرُ الَّذي كانَتْ حَلُوبَتُهُ ... وَفْقَ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ[1]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحرير هذا عندي أنهما لفظان يدلأَن على ضعف الحال جداً، ومع المسكنة انكشافٌ وذلٌّ بسؤال، ولذلك جعلهما الله تعالى صنفين في قسم الصدقات، فأمَّا حديث النبي ﷺ الذي هو: (ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف)[2] فجعل المساكين في اللغة أهل الحاجة الذين كشفوا وجوههم، وأما قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3] فجعل الفقراء الذين لم يكشفوا وجوههم. وقد تقدم القول في هذه المسألة بأوعبَ من هذا[4].

---

(١) البيت للراعي، وهو حُصَيْنُ بن معاوية النُّمَيْري، ولُقب بالراعي لأنه أكثر من وصف الإبل ورعاتها، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في المجلد الرابع صفحة ٣٤١، وهو من قصيدة قالها الشاعر يمدح عبد الملك بن مروان، والشاهد هنا أن الفقير هو من كان عنده شيءٌ لعياله.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة والتفسير، ومسلم في الزكاة، وكذلك كل من أبي داود، والنسائي، والدارمي، وخرجه مالك في موطئه في صفة النبي ﷺ، وأحمد في مسنده (١ـ٣٨٤)، ولفظه فيه: (قال رسول الله ﷺ: ليس المسكين بالطَّوَّاف، ولا بالذي تردُّه التَّمْرَةُ ولا التمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، ولكن المسكين المتعفِّف الذي لا يسأل الناسَ شيئاً ولا يُفْطَنُ له فيُتَصَدَّق عليه).

(٣) من الآية (٢٧٣) من سورة (البقرة).

(٤) راجع المجلد الرابع صفحة ٣٤١.



وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، قال قوم: معناه: أمامهم، وقالوا: «وراءُ» من الأضداد. وقال ابن جبير، وابن عباس: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه: «وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله: ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيءُ مراعى بها الزمن، وذلك أن الحادث المقدّم الوجود هو الأمام، وبين اليد لما يأتي بعده من الزمان، والذي يأتي بعد هو الوراءُ وهو ما خلف، وذلك بخلاف ما يظهر ببادىء الرأي، وتأمل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطرد، فهذه الآية معناها: إنَّ هؤلاء وعملهم وسعيهم يلي بعده في الزمن غَصْبٌ من الملك، ومن قرأ: «أَمَامَهُمْ» أراد: في المكان، أي أنهم كانوا يسيرون إلى بلده. وقوله تعالى في التوراة والإنجيل إنهما «بين يدي القرآن»[1] مطرد على ما قلنا في الزمان، وقوله سبحانه: و﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾[2] مطرد كما قلنا من مراعاة الزمان، وقول النبي ﷺ: (الصلاة أمامك)[3] يريد في المكان، وإلاَّ فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمن، فتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ. ووقع لقتادة في كتاب الطبري: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، قال قتادة: أمامهم، ألا ترى أنه يقول: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾[4] وهي بين أيديهم.

---

(١) ورد هذا في آيات كثيرة، كقوله تعالى في الآية (٣) من سورة (آل عمران): ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾، وكقوله تعالى في الآية (٩٧) من سورة (البقرة): ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

(٢) من الآية (١٠) من سورة (الجاثية).

(٣) الحديث في الجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة، وقد أخرجه البخاري في الحج، والنسائي في المواقيت، والدارمي في المناسك، وأحمد في المسند (٥ـ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢١٠)، ولفظه كما جاء في المسند أن كُرَيْبا سأل أُسامة بن زيد، قال: قلت أخبرني كيف صنعتم عشية ردفت رسول الله ﷺ، قال: جئنا الشِّعب الذي يُنيخ فيه الناسُ للمغرب، فأناخ رسول الله ﷺ ناقته، ثم بال، قال: اهراق الماء، ثم دعا بالوضوء فتوضأ وضوءاً ليس بالبالغ جداً، قال: قلت: يا رسول الله، الصلاة، قال: الصلاةُ أمامك، قال: فركب حتى قدم المزدلفة فأقام المغرب، ثم أناخ الناس في منازلهم ولم يحلوا حتى أقام العشاء، ثم حلَّ الناس، قال: فقلت: كيف فعلتم حين أصبحتم؟ قال: ردفه الفضل بن عباس، وانطلقت أنا في سباق قريش على رجلي.

(٤) من الآية (١٠) من سورة (الجاثية).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول غير مستقيم، وهذه هي العجمة التي كان الحسن بن أبي الحسن يضجُّ منها. قاله الزجاج[(١)]. ويجوز أن كان رجوعهم في طريقهم على الغاصب فكان وراءهم حقيقة. وقيل: اسم هذا الغاصب هُدَد بن بُدَد، وقيل: الجَلَنْدى، وهذا كله غير ثابت. وقوله تعالى: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ عموم معناه الخصوص في الجِيادِ منها الصحاحِ المارَّةِ به.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

تقدم القول في الغلام والخلاف في بلوغه أو صغره، وفي الحديث أن ذلك الغلام طبع يوم طبع كافراً، وهذا يؤيد ظاهره أنه كان غير بالغ، ويحتمل أن يكون خبراً عنه مع كونه بالغاً، وقيل: اسم الغلام جَيْسور بالراء، وقيل: جَيسون بالنون، وهذا أمر كلُّه غير ثابت. وقرأ أُبيُّ بن كعب: «فَكَانَ كَافِراً وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ»، وقرأ أبو سعيد الخدري: «فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَانِ»، فجعلها (كان) التي فيها الأمر والشأن[(٢)].

وقوله: [فَخَشِينَا] قيل: هو في جهة الخضر، فهذا متخلص، والضمير عندي للخضر وأصحابه الصالحين الذين أهمهم الأمر وتكلموا فيه، وقيل: هو في جهة الله تعالى وعبَّر عنه الخضر. قال الطبري: معناه: فَعَلِمْنَا، وقال غيره: فَكَرِهْنَا.

---

(١) نقل الإمام القرطبي كلام ابن عطية كلَّه من أول قوله: «وقوله: [وَرَاءَهُم] هو عندي على بابه»، ثم علَّق عليه بقوله: «وما اختاره هذا الإمام قد سبقه إليه في ذلك ابن عرفة»، ثم نقل كلام ابن عرفة وقال: «وأشار إلى هذا القول أيضاً القشيري».

(٢) قال أبو الفتح بن جنِّي: يجوز في الرفع هنا تقديران: أحدهما أن يكون اسم (كان) ضمير الغلام، أي: فكان هو أَبَوَاهُ مؤمنان، والجملة بعده خبر كان. والآخر أن يكون اسم (كان) مضمراً فيها، وهو ضمير الشأن والحديث، أي: فكان الشأنُ أو الحديث أَبَوَاهُ مؤمنان، والجملة بعده خبر (كان) على ما مضى، إلا أنه على هذا الوجه الثاني لا ضمير عائداً على اسم (كان)، لأن ضمير الشأن لا يحتاج إلى ضمير يعود عليه من الجملة بعده.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل ـ وإن كان اللَّفظ يدافعه ـ أنها استعارة، أي: على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حالَه لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود: «فَخَافَ رَبُّكَ»، وهذا بيِّن في الاستعارة، وهذا نظير ما يقع في القرآن في جهة الله تعالى من «لَعَلَّ وعَسَى»، فإن جميع ما في هذا كله من تَرَجٍّ وتَوَقُّع وخوف وخشية إنما هو بِحَسَبِكُم أيُّهَا المخاطبون. و﴿يُرْهِقَهُمَا﴾ معناه: يُجَشِّمُهُمَا ويُكلِّفهما بشدَّة، والمعنى أن يلقيهما حُبُّهما في اتِّباعه.

وقرأ الجمهور: [أن يُبَدِّلَهما] بفتح الباء وشدِّ الدال، وقرأ ابن محيصن، والحسن، وعاصم: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال. و«الزَّكَاةُ»: شرف الخُلُق والوقار والسكينة المنطوية على خير، و«الرُّحْمُ»: الرحمة، والمراد ـ عند فرقة ـ أيْ: يرحمهما، وقيل: أي: يرحمانه، ومنه قول رؤْبة بن العجاج:

يَـا مُنْـزِلَ الـرُّحْـمِ عَلَـى إِدْرِيسَـا ... وَمُنْـزِلَ اللَّعْـنِ عَلَـى إِبْلِيسَـا[1]

وقرأ ابن عامر: [رُحُماً] بضم الحاء، وقرأ الباقون: ﴿رُحْماً﴾ بسكونها، واختلف عن أبي عمرو. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «رَبُّهُمَا أَزْكَى مِنْهُ وَأَقْرَبَ رُحْماً»، وروي عن ابن جريج «أنهما بُدِّلا غلاماً مُسلماً»، وروي عن ابن جريج «أنهما بُدِّلا جارية»، وحكى النقاش أنها ولدت هي وذريتها سبعين نبيّاً، وذكره المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو بعيد، ولا تعرف كثرة الأنبياء إلاَّ في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم، وروي عن ابن جريج أن أُمَّ الغلام يوم قتل كانت حاملاً بغلام مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾. هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليُتْم، وقد قال النبي ﷺ: (لا يُتْم بَعْد بُلُوغ)[2]، هذا الظاهر، وقد يحتمل أن يبقى

---

(١) الذي في الديوان هو البيت الأول فقط، وهو في الأبيات المفردة الملحقة بالديوان، والرواية فيه: (عَلَى إِدْرِيس)، وكذلك استشهد به صاحب اللسان (رَحِمَ)، قال: «والرُّحْمُ بالضم: الرّحْمة، وما أقرب رُحْم فلان إذا كان ذا مرحمة وَبِرٍّ، أي: ما أرحمه وأبرَّه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾»، وبعد أن استشهد بأبيات من الشعر ذكر هذا البيت لرؤبة بنفس الرواية التي في الديوان.

(٢) أخرجه أبو داود، عن عليٍّ رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير: (لا يُتْم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل)، وقد رمز له السيوطي بأنه حديث حَسَن.



عليهما اليُتم بعد البلوغ، أي: كانا يتيمين، على معنى التشفيق عليهما. واختلف الناسُ في الكنز ـ فقال قتادة، وعكرمة: كان مالاً جسيماً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان علماً في صحف مدفونة، وقال عمر مولى غُفْرَة[١]: كان لوحاً من ذهب قد كتب فيه: «عجباً للموقن بالرزق يتعب، وعجباً للموقن بالحساب كيف يغفل، وعجباً للموقن بالموت كيف يفرح»، ورُوي نحو هذا مما هو في معناه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾، ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دنيَةً[٢]، وقيل: الأب السابع، وقيل: العاشر فحفظا فيه وإن لم يذكرا بصلاح، وفي الحديث: (إن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في ذريته)[٣].

وجاء في أنباء الخضر عليه السلام في أول قصة ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وفي الثانية ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾، وفي الثالثة ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ﴾، وإنما انفرد أوّلاً في الإرادة لأنها لفظة عَيْبٍ فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلاّ لنفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٤]، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند المرض إلى نفسه؛ إذْ هو معنى نقْص ومصيبة، وهذا المنزع يطرد في فصاحة القرآن كثيراً، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٥]، وتقديم فعل الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا﴾[٦]، وإنما قال الخضر في الثانية: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ لأنه أمل كان قد رَوَّاه[٧] هو وأصحابه الصالحون،

---

(١) هو عُمر بن عبد الله المدني، مولى غُفْرة بضم الغين وسكون الفاء، قال عنه صاحب تقريب التهذيب: «ضعيف، وكان كثير الإرسال، من الخامسة، مات سنة خمسٍ أو ستٍّ وأربعين».

(٢) دِنْيَةً: الأب الأقرب والأدنى.

(٣) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «إن الله يُصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده، ويحفظه في ذريتّه والدويرات حوله، فما يزالون في ستر من الله وعافية». وأخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم)، وأخرجه ابن المبارك، وابن أبي شيبة عن محمد بن المنكدر موقوفاً. (الدر المنثور).

(٤) الآية (٨٠) من سورة (الشعراء).

(٥) من الآية (٥) من سورة الصَّف).

(٦) من الآية (١١٨) من سورة (التوبة).

(٧) من قولهم: رَوَّى فلانٌ في الأمر بمعنى: نظر فيه وتفكَّر.

وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين وتمنى التبديل لهما، وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى لأنها في أمرٍ مستأنف في الزمن طويل غيب من الغيوب، فحسُن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد أيضاً ذلك الذي أعلمه الله تعالى أنه يريده، وهذا توجيه فصاحة هذه العبارة بحسب فهمنا المقصِّر، والله أعلم.

و«الأَشُدُّ»: كمالُ الخُلُق والعقل، واختلف الناسُ في قدر ذلك من السنين ـ فقيل: خمسة وثلاثون، وقيل: ستة وثلاثون، وقيل: أربعون، وقيل غير هذا مما فيه ضعف.

وقول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ يقتضي أن الخضر نبيٌّ، وقد اختلف الناسُ فيه ـ فقيل: هو نبيٌّ، وقيل: هو عبد صالحٌ وليس بنبيٍّ. وكذلك جمهور الناس على أن الخضر ماتَ، وتقول فرقة: إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة، وهو باقٍ في الأرض، وأنه يحج البيت وغير هذا، وقد أطنب النقاشُ في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، كلها لا تقوم على ساق، ولو كان الخضر عليه السلامُ حياً يحجُّ لكان له في ملَّة الإسلام ظهور، والله العليم بتفاصيل الأشياء لا ربَّ غيره. ومما يقضي بموت الخضر الآن قول النبي ﷺ: (أرأيتكم ليلتكم هذه، فإنه لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ)[1].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي مآلُ، وقرأت فرقة: [تَسْتَطِعْ]، وقرأ الجمهور: ﴿تَسْطِعْ﴾، قال أبو حاتم: كذا تُقرأ، نتبع المصحف.

وانتزع الطبري من اتصال هذه القصة بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أن هذه القصة إنما جُلبت على معنى المثل للنبي ﷺ في قومه، أي: لا تهتم بإملاء الله لهم، وإجراء النعم لهم على ظاهرها، فإن البواطن سائرة إلى الانتقام منهم، ونحو هذا مما هو محتمل لكن بتعسُّف مَّا، فتأمله.

---

(١) هذا الحديث خرَّجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر، قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته، فلمَّا سلَّم قام فقال: (أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد)، فَوَهَلَ الناسُ في مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، ـ وَهَل: غلط وذهب وَهْمُه إلى خلاف الصواب ـ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام: (لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد)، يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن. ورواه مسلم أيضاً من حديث جابر بن عبد الله، قال القرطبي: وعن أبي سعيد الخدري نحو هذا الحديث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾.

اختلف فيمن سأله عن هذه القصة ـ فقيل: سألته طائفة من أهل الكتاب، وروى في ذلك عقبةُ بن عامر حديثاً ذكره الطبري، وقيل: إنما سألتهُ قريش حين دلَّتها اليهود على سؤاله عن الرُّوح والرَّجُلِ الطَّوَّاف وفِتيَة ذهبوا في الدهر ليقع امتحانه بذلك[١].

وذو القرنين هو الإسكندر اليوناني المقدوني، وقد تُشَدَّد قافُه فيقال: المَقَّدوني، وذكر ابن إسحق في كتاب الطبري أنه يوناني، وقال وهب بن مُنبِّه: هو رومي، وذكر الطبري حديثاً عن النبي ﷺ أن ذا القرنين شاب من الروم، وهو حديث واهي السند، عن شيخين من تجيب[٢].

واختلف الناس في وجه تسميته بذي القرنين، فأَحْسَن الأقوال أنه كان ذا ضفيرتيْن من شعْرِهما قرناه، فَسُمِّي بهما، ذكره المهدوي وغيره، والضفائر قرون الرأس، ومنه قول الشاعر:

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَا ... شُرْبَ النَّزِيفِ لِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ[٣]

ومنه الحديث في غسل بنت النبي ﷺ، قالت أُمُّ عطية: «فضفَرْنَا رأسها ثلاثة

---

(١) أما الرُّوح فمعروفة، وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، وأما الرجُل الطواف فهو ذو القرنين، وأما الفِتْية الذين ذهبوا في الدهر فهم أصحاب الكهف، وفي هذه السورة كانت الإجابة عن الأخِيريْن.

(٢) هذا الحديث هو ما أشار إليه المؤلف قبل ذلك حين قال: «ورَوَى في ذلك عقبة ابن عامر حديثاً ذكره الطبري». راجع الطبري. وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبته إلى ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي.

(٣) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو من أبيات في ديوانه قيل: إنها منسوبة إليه، وآخذاً بقرونها: مُمْسِكاً بضفائرها، وقد استشهد أبو منصور ـ كما قال في اللسان ـ بالنصف الثاني من البيت على أن (النَّزِيف) هو الذي عطش حتى يبست عروقه. وقيل: إن النَّزِيف هو السكران لأن عقله نزف، والحشْرج: النُّقرة في الجبل يجتمع فيها الماءُ فيصفو. والشاهد هنا أن الضفائر تُسمَّى قروناً.



قُرون»(١)، وكثيراً تجيءُ تسمية النواصي قروناً.

ورُوي أنه كان في أول مُلْكه يرى في نومه أنه يتناول الشمس ويُمسك قرنين لها بيديه، فَقَص ذلك، فَفُسِّر أنه سيغلب على ما ذَرَّت عليه وسُمِّي ذا القرنين، وقالت فرقة: سُمِّي ذا القرنين لأنه بلغ المغرب والمشرق، فكأنه حاز قرني الدنيا، وقالت فرقة: إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قَرْنيها فَسُمِّي بذلك، أو قرني الشيطان بها، وقال وهب بن منبه: سُمِّي بذلك لأن جَنْبَتَيْ رأسه كانتا من نحاس، وقال وهب بن منبه أيضاً: كان له قرنان تحت عمامته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله بعيد، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنَّما سُمِّي ذا القرنين لأنه ضُرب على قرْن رأسه فمات، ثم حيي، ثم ضرب على قرن رأسه الآخر فمات، فسُمِّي بذلك لأنه جُرح على قرني رأسه جرحين عظيمين في يومين عظيمين من أيام حربه، فسُمِّي بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قريب.

والتَّمْكِينُ له في الأرض أنه ملَكَ الدنيا ودانت له الملوك كلُّها، فرُوي أن جميع ملوك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان سليمان بن داود عليه السلام، والإسكندر، والكافران نمروذ وبختنصر. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ معناه: علماً في كل أَمْرٍ، وأَقْيِسَةً يتوصل بها إلى معرفة الأشياء. وقوله﴿ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عموم معناه الخصوص في كل ما يمكن أن يعلمه ويحتاج إليه، وثَمَّ لا محالة أشياءُ لم يُؤْت منها سبباً يعلمها به.

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي في الجنائز، ولفظه كما جاء في مسلم، عن حَفْصة بنت سِيرِينَ، عن أُمّ عطية، قالت: لما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ قال لنا رسول الله ﷺ: (إغْسلنها وِتْراً، ثلاثاً أو خمساً، واجعلن في الخامسة كافوراً، أو شيئاً من كافور، فإذا غَسَلْتُنَّها فأَعْلِمْني)، قالت: فأعلمناهُ فأعطانا حِقْوَه وقال: (أَشْعِرْنَهَا إيَّاه). وفي رواية أخرى ذكرها مسلم من طريق هشام بن حَسَّان: وقال في الحديث: قالت: فَضَفَرْنَا شعرها ثلاثة أثلاثٍ، قَرْنيها ونَاصِيَتَهَا. وفي رواية البخاري أن أم عطية قالت: «وَمَشَطْنَاهَا ثلاثة قرون». والحِقْوُ هو الإزارُ. ومعنى قوله ﷺ: (أَشْعِرْنَهَا إيَّاهُ): اجْعَلْنَهُ شِعَاراً لها، أي غَطِّينَ جَسَدَهَا به.



واختلف في ذي القرنين، فقيل: هو نبيٌّ، وهذا ضعيف، وقيل: هو مَلَك ـ بفتح اللام ـ، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يدعو آخر: يا ذا القرنين، فقال: أما كفاكم أن تسمَّيتم بأسماء الأنبياء حتى تسَمَّيْتم بأسماء الملائكة؟ وروي عن النبي ﷺ أنه سُئل عنه فقال: (مَلَكَ مَسَحَ الأض من تحتها بالأسباب)(١)، وقيل: هو عبدٌ مَلِك ـ بكسر اللام ـ صالحٌ نصح اللهَ فأيَّده، قاله عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال: «فيكم اليوم مثله»، وعنى بذلك نفسه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ الآية. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: [فاتَّبَعَ سَبَبًا] بشد التاء، وقرأ عاصمٌ، وابن عامرٍ، وحمزة، والكسائي: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ بسكون التاء، على وزن أَفْعَل، قال بعض اللغويين: هما بمعنى واحد، وكذلك (تَبِعَ)، وقالت فرقة: (أَتْبَعَ) بقطع الألف عبارةٌ عن المُجِدِّ المُسْرِع الحثيث الطلب، و(اتَّبَعَ) إنما يتضمن معنى الاقتفاء دون هذه القرائن، قاله أبو زيد وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واستقراءُ هذا القائل هذه المقالة من القرآن، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾(٢)، وكقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾(٣)، وكقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾(٤)، وهذا قولٌ حكاه النقاش عن يونس بن حبيب، وإذا تأملت (اتَّبَعَ) بشد التَّاءِ لم يرتبط لك هذا المعنى ولا بُدَّ. و«السَّبَبُ» في هذه الآية: الطريقُ المسلوكة؛ لأنها سبب الوصول إلى المقصد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ على وزن فَعِلَة، أي: ذات حمأةٍ، وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ، والباقون: [في عين حامية]، أي حارَّة، وقد اختلف في قراءة ذلك معاوية وابن عباس، فقال ابن عباس رضي الله عنهما [حَمِئَةٍ]، وقال معاوية: [حَامِيَةٍ]، فبعث إلى كعب الأحبار ليخبرهم

---

(١) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن خالد بن معدان الكلاعي، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأحوص بن حكيم عن أبيه، أن النبي ﷺ سُئل عن ذي القرنين فقال: (هو مَلَك مسح الأرض بالإحسان).

(٢) من الآية (١٠) من سورة (الصَّافات).

(٣) من الآية (٩٠) من سورة (يونس).

(٤) من الآية (١٧٥) من سورة (الأعراف).

بالأمر كيف هو في التوراة، فقال لهما: أمَّا العربية فأنتما أعلم بها منِّي، ولكن أجد في التوراة أنها تغرب في عين ثأْطٍ، والثَّأْط: الطين، فلما انفصلا قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: لَوَدِدْتُ يا أبا العباس فكنتُ أُنجدك بشعر تُبَّع الذي يقول فيه في ذكر ذي القرنين:

قَدْ كَانَ ذو الْقَرْنَيْنِ جَدِّي مُسْلِماً ... مَلِكاً تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ وَتُحْشَدُ

بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي ... أَسْبَابَ أَمْرٍ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدِ

فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا ... في عَيْنِ ذي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حَرْمَدِ[1]

فالخُلُبُ: الطِّين، والثَّأْط: الحمأة، والحَرْمَد: الأَسْوَد. ومن قرأ: [حَامِيَةٍ] وجَّهها إلى الحرارة، وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ نظر إلى الشمس وهي تغيب فقال: (في نار اللهِ الحامية، لولا ما يَزَعُها من الله لأحرقت ما على الأرض)[2]. وروى أبو ذَرٍّ أن رسول الله ﷺ نظر إلى الشمس عند غروبها فقال: (أتدري أين تغرب يا أبا ذَرٍّ؟ قلت: لا، قال: إنها تغرب في عين حامية)[3]، فهذا يدل على أن العين هناك حارَّة، و[حَامِيَةٍ] هي قراءة طلحة بن عبد الله، وعمرو بن العاص، وابنه، وابن عمر، وذهب الطبري إلى الجمع بين الأمرين فقال: يحتمل أن تكون العين حارة ذات حمأة، فكلٌّ قراءةٍ وصف بصفة من أحوالها، وذهب بعض البغداديين إلى أن [في] بمنزلة (عند)، كأنها مسامته من الأرض فيما يرى الرائي لعَيْنٍ حمئة. وقال بعضهم: قوله: ﴿فِي عَيْنٍ﴾ إنما المراد أن ذا القرنين كان فيها، أي: هي آخر الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر هذه الأقوال محتمل، والله أعلم. قال أبو حاتم: وقد يمكن أن تكون [حَامِيَةٍ] مهموزة، بمعنى: ذات حمأةٍ، فتكون القراءتان بمعنى واحد. واستدل بعض

---

(١) الأبيات في الدر المنثور، والقرطبي، وآخرها في البحر المحيط. وتُروى: (قد كان ذو القرنين قبلي)، و(تدين له الملوك وتَسْجُدُ).

(٢) أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، وابن منيع، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن مردويه، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال: (في نار الله... الحديث).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن مردويه، والحاكم وصححه، عن أبي ذَرٍّ قال: كنت ردف رسول الله ﷺ وهو على حمار، فرأى الشمس حين غربت، فقال: (أتدري أين تغرب؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنها تغرب في عين حامية)، غير مهموزة.



الناس على أن ذا القرنين نبيٌّ بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، ومن قال إنه ليس بنبي قال: كانت له هذه المقالة من الله بإلهام.

وقوله: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ معناه: بالقتل على الكفر، ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالحمل على الإيمان واتباع الهدى، فكأنه قيل له: هذه لا تعطها إلاَّ إحدى خطتين: إمَّا أن تكفر فتعذبها، وإمَّا أن تؤمن فتحسن إليها. وذهب الطبري إلى أن «اتِّخاذ الْحُسْن» هو الأسْرُ مع كفرهم، فالمعنى ـ على هذا ـ أنهم كفروا ولا بُدَّ، فخيَّره الله تعالى بين قتلهم أو أسرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يكون «الاتِّخاذُ» ضربَ الجزية. ولكن تَقْسيم ذي القرنين بعد هذا الأمر إلى كفر أو إيمان يرُدُّ هذا القول بعض الرَّدِّ، فتأمله[1].

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

﴿ظَلَمَ﴾ في هذه الآية بمعنى: كفر، ثم توعَّد الكافرين بتعذيبه إياهم قبل عذاب الله، وعقَّب لهم بذكر عذاب الله لأن تعذيب ذي القرنين هو الأحق عندهم، المحبوس لهم، الأقرب نكاية. فلما جاء وعد المؤمنين قدَّم تنعيم الله تعالى الذي هو الأحق عند المؤمنين، والآخر بإزائه حقير، ثم عقَّب أخيراً بذكر إحسانه في قول اليُسْر، وجعله قولاً إذ الأفعال كلها خَلْق لله تعالى، فكأنه سلَّمها ولم يراع تكسُّبه.

وقرأت فرقة: (نُكُراً) بضم الكاف، وقرأت فرقة: [نُكْراً] بسكون الكاف، ومعناه: المنكر الذي تنكره الأوهام لِعِظَمِه وتستهويه. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿جَزَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بإضافة الجزاء إلى الحسنى، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أن يريد بـ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة، والجنة هي الجزاءُ، فأضاف

(١) تقسيم ذي القرنين للقوم جاء في الآية التالية وما بعدها، ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ الآية ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، الآية.



ذلك، كما قال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾[(١)] والآخرة هي الدار، والثاني أن يريد بـ﴿ٱلْحُسْنَى﴾ أعمالَهم الصَّالحة في إيمانهم، فوعدهم بجزاء الأعمال الصالحة. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفصٌ عن عاصم: ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بنصب «الجزاء» على المصدر[(٢)] في موضع الحال. و﴿ٱلْحُسْنَى﴾ ابتداءٌ، وخبره في المجرور، ويراد بها الجنة، وقرأ عبد الله بن أبي إسحق: [جَزَاءٌ] بالرفع والتنوين [ٱلْحُسْنَى]، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، ومسروق: [جَزَاءَ] بالنصب بغير تنوين [ٱلْحُسْنَى] بالإضافة. قال المهدوي: يجوز حذف النون لالتقاءِ الساكنين، ووعدهم بعد ذلك بأنه يُيَسِّر عليهم أمور دنياهم. وقرأ ابن القعقاع: [يُسُراً] بضم السين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطرق المؤدية إلى مقصده، فهي سبب الوصول، فكانَ ذو القرنين ـ على ما وقع في كتب التاريخ ـ يدوس الأرض بالجيوش الثقال، والسِّيرة الحميدة، والإعداد الموفَّى، والحزم المستيقظ المتَّقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عزَّ وجلَّ، فما لقي أُمَّةً ولا مَرَّ بمدينة إلاَّ دانت له ودخلت في طاعته، وكلُّ من عارضه وتوقَّف عن أمره جعله عظةً وآية لغيره، وله في هذا المعنى أخبار كثيرة، وغرائب كرهْتُ التطويل بها لأنها علْم تاريخ. وقرأ الجمهور (مَطْلِعَ) بكسر اللام، وقرأ الحسن ـ بخلاف ـ، وابن كثير، وأهل مكة: [مَطْلَعَ] بفتح اللام.

و«القوم»: الزِّنْج، قاله قتادة، وهم الهنود وما وراءهم[(٣)].

وقال الناس في قوله: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ معناه: إنهم ليس لهم بنيان؛ إذ لا تحتمل أرضهم البناء، وإنما يدخلون من حرِّ الشمس في أسراب، وقيل: يدخلون في ماء البحر، قاله الحسن، وقتادة، وابن جريج. وكثَّر النقاشُ وغيره في هذا المعنى، والظاهر من الألفاظ أنها عبارة بليغة عن قُرْب الشمس منهم، وفعلها بقدرة الله تبارك وتعالى فيهم، ونَيْلُها منهم، ولو كان لهم أسرابٌ تغني لكان سِتْراً كثيفاً، وإنما هم في

---

(١) من الآية (١٠٩) من سورة (يوسف)، وتكررت في الآية (٣٠) من سورة (النحل).

(٢) أي: مع التنوين.

(٣) الزِّنْج ـ بفتح الزاي المشددة وبكسرها ـ: جيل من السودان يتميز بالجلد الأسود، والشعر الجَعْد، والشَّفة الغليظة، والأنف الأفطس، وهذا الجيل يسكن حول خط الاستواء، وتمتد بلادهم من المغرب إلى الحبشة. وبهذا نعرف أن الهنود لا علاقة لهم بالزنوج، بل هم جنس آخر.

قبضة القدرة سواءٌ كان لهم أسراب أو دُورٌ أَوْ لم يكن، ألا ترى أن السِّتْر عندنا بحق إنما هو من السحاب والغمام وبَرْد الهواء، ولو سلَّط الله علينا الشمس لأحرقتنا، فسبحان المنفرد بالقدرة التامة.

وقوله: [كَذَٰلِكَ] معناه: فَعَل معهم كفِعْله مع الأولين أهل المغرب، فأوجز بقوله: [كَذَٰلِكَ]. ثم أخبر الله تعالى عن إحاطته بجميع ما لدى ذي القرنين، وما تصرف من أفعاله، ويحتمل أن يكون [كَذَٰلِكَ] استئناف قول، ولا يكون راجعاً على الطائفة الأولى، فتأمله، والأول أصوب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

قرأت فرقة: [أَتَّبَعَ] بشدِّ التاءِ، وقرأت فرقة بتخفيفها، وقد تقدم. وهذا يقتضي أنه لما بلغ مطلع الشمس اتَّبع بعد ذلك سبباً، أي: طريقاً آخر، فهو ـ والله أعلم ـ إمَّا يَمْنَة وإما يسْرَةَ من مطلع الشمس. و«السَّدَّان» ـ فيما ذكر أهل التفسير ـ: جبلان سدّاً مسالك تلك الناحية من الأرض، وبين طريقي الجبلين فَتْحٌ هو موضع الرُّوم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجبلان اللَّذان بينهما السَّدُّ أرمينية وأذربيجان. وقالت فرقة: هما من وراء بلاد الترك، ذكره المهدوي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله غير متحقق، وإنما هما في طرف الأرض مما يلي المشرق، ويظهر من ألفاظ التواريخ أنهما إلى ناحية الشمال، وأما تعيين موضع فضعيف.

وقرأ نافع، وعاصم[1]، وابن عامر: [ٱلسُّدَّيْن] بضم السين، وكذلك (سُداً) حيث وقع، وقرأ حفص عن عاصم بفتح ذلك كله في جميع القراءات، وهي قراءة مجاهد، وعكرمة، وإبراهيم النَّخعي، وقرأ ابن كثير: (ٱلسَّدَّيْن) بفتح السِّين، وضم [سُدّاً] في (يسن)[2].

---

(١) في قراءة أبي بكر عنه.

(٢) في قوله تعالى في الآية (٩): ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.



واختلف بعد ـ فقال الخليل وسيبويه: الضم هو الاسم، والفتح المصدر، وقال الكسائي: الضم والفتح لغتان بمعنى واحد، وقال عكرمة، وأبو عمرو بن العلاء، وأبو عبيدة: ما كان من خلقة الله تعالى لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضَّم، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويلزم أهل هذه المقالة أن نقرأ: [بَيْنَ السُّدَيْنِ] بالضم، وبعد ذلك ﴿سَدًّا﴾ بالفتح، وهي قراءة حمزة، والكسائي. وحكى أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكْسَ ما قال أبو عبيدة، وقال ابن إسحق: ما رأته عيناك فهو (سُدٌّ) بضم السين، وما لا يُرى فيه (سَدٌّ) بالفتح. والضمير في ﴿دُونِهِمَا﴾ عائد إلى الجبلين، أي: وجدهم في الناحية التي تأتي إلى المغرب. واختلف في «الْقَوْم» ـ فقيل: هم بشر، وقيل: جنٌّ، والأول أصح من وجوه. وقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ عبارة عن بعد لسانهم عن ألسنة الناس، لكنهم فقهوا أو فهموا بالترجمة ونحوها. وقرأ حمزة، والكسائي: [يُفْقِهُونَ] من أَفْقَهَ، وقرأ الباقون: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ من فَقِهَ.

والضمير في ﴿قَالُوا﴾ للقوم الذين من دون السَّدَّيْن، ويأجوج ومأجوج قبيلتان من بني آدم، لكنهم ينقسمون أنواعاً كثيرة اختُلف في عددها، فاختصرت ذكره لعدم الصحة، وفي خَلْقهم تشويه، منهم المفرط الطول، ومنهم المفرط القِصَر على قدر الشِّبْر وأَقَلّ وأكْثَر، ومنهم صنف عظيم الآذان، الأذن الواحدة وبرة والأُخرى زعراءُ، يصَيِّف في الواحدة ويشتو في الأُخرى وهي تعمُّه. واختلف القراءُ ـ فقرأ عاصم وحده: ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ بالهمز، وقرأ الباقون بغير همز، فأما من همز فاختلف فيه ـ فقالت فرقة: هو أعجمي، علَّته في منع الصرف التعريف والتأنيث، وأما من لم يهمز فإمَّا أن يراهما اسمين أعجَميَّيْن، وإما أن يُسَهِّل من الهمز، وقرأ رؤبة بن العجَّاج: [آجُوج وماجُوج] بهمزة بدل الياء.

واختلف الناس في إفسادهم الذي وصفوهم به ـ فقال سعيد بن عبد العزيز: إفسادهم أكل بني آدم، وقالت فرقة: إفسادهم إنما كان عندهم مُتَوَقَّعاً، أي: سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم، وقالت فرقة: إفسادهم هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وهو أظهر الأقوال؛ لأن الطائفة الشاكية إنما



شكت من ضُرٍّ قد نالهم. وقولهم ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ استفهامٌ على جهة حسن الأدب.

و«الْخَرْجُ»: المُجْبَى، وهو الخراج، وقال قوم: «الخَرْجُ»: المال يخرج مرة، و«الخَرَاجُ» المُجْبَى المتكرر، فعرضوا عليه أن يجمعوا له أموالاً يقيم بها أمر السد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (خَرْجاً): أجراً. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: [خَرْجاً]، وقرأ حمزة، والكسائي: [خَراجاً]، وهي قراءة طلحة ابن مصرف، والأعمش، والحسن ـ بخلاف عنه ـ، ورُوي في أمر يأجوج ومأجوج أن أرزاقهم من التنين يرزقونها ويمطرونها، ونحو هذا مما لا يصح، ورُوي أيضاً أن الذكر منهم لا يموت حتى يولد له ألف ولد، والأُنثى لا تموت حتى يخرج من بطنها ألف، فهم لذلك إذا بلغوا العدد ماتوا، ورُوي أيضاً أنهم يتناكحون في الطرق كالبهائم، وأخبارهم تضيق بها الصحف فاختصرتها لضعف صحتها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، المعنى: قال لهم ذو القرنين: ما بسط الله لي من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم، ولكن أعينوني بقوة الأبدان، وبعمل منكم بالأيدي. وقرأ ابن كثير وحده: [ما مكنني] بنونين، وقرأ الباقون ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ بإدغام النون الأولى في الثانية. وهذا: من تأييد الله تعالى لذي القرنين، فإنه تهدّى في هذه المحاورة إلى الأنفع والأنزه، فإنهم لو جمعوا له خراجاً ومالاً لم يُعِنْه منهم أحد وَلَوكَلُوهُ إلى البنيان، ومعونتهم له بالقوة أجمل به، وأمْرٌ يطاول مدة العمل، وربما أَرْبَى على الخرج.

و«الرَّدْمُ» أبلغ من «السَّدِّ»؛ إذ السَّدُّ كلُّ ما يُسَدُّ به، والرَّدْم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع، ومنه: رَدَّم ثوبَه إذا رَقَّعَهُ برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض، ومنه قول عنترة:

هَـلْ غَـادَرَ الشُّعَـرَاءُ مِـنْ مُتَـرَدَّمِ؟ . . . . (1)

أي: من قول يركب بعضه على بعض.

---

(1) هذا صدر بيت هو مطلع المعلقة، والبيت بتمامه:

هَـلْ غَـادَرَ الشُّعَـرَاءُ مِـنْ مُتَـرَدَّمِ؟ أمْ هَـلْ عَـرَفْـتَ الـدَّارَ بَعْـدَ تَـوَهُّـمِ؟

وَالمُتَرَدَّم: الموضع الذي يُرْدَم ويُستصلح ويُسْتَرْقع لما أصابه من الوهن، هذا هو الأصل، والمعنى المراد هنا: هل ترك الشعراء قولاً يُصْلَح ويُرَقَّع؟ أي: هل تركوا قولاً لقائل بعدهم، أو فناً لم يسلكوه في=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

قرأ عاصم(١)، وحمزة: [إيتُونِي] بمعنى: جيئوني، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: ﴿آتُونِي﴾ بمعنى: أعطوني، وهذا كله متقارب، إنما هواستدعاءُ المناولة لا استدعاءُ العطية والهِبة؛ لأنه قد ارتبط من قوله ألاَّ يأخذ منهم الخَرْجَ، فلم يبق إلا استدعاءُ المناولة وأعمال القوة، و[إيتُوني] أشبه بقوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾، ونصب «الزُّبَرَ» على نحو قول الشاعر:

أَمَــرْتُــكَ الْخَيْــرَ. . . . . (٢)

حذف الجار فنصب الفعل. وقرأ الجمهور: ﴿زُبَرَ﴾ بفتح الباء، وقرأ الحسن بضمها، وكل ذلك جمع (زُبْرَة)، وهي القطعة العظيمة منه. والمعنى: فَرَصَفَهُ وَبَنَاهُ حَتَّى إذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْن، فاختصر ذلك لدلالة الظاهر عليه. وقرأ الجمهور: ﴿سَاوَى﴾، وقرأ قتادة: [سَوَّى]، و«الصَّدَفان»: الجبلان المتناوحان(٣)، ولا يقال للواحد: صدف، وإنما يقال (صدفان) لاثنين أحدهما يصادف الآخر. وقرأ نافع، وحمزة،

= الشِّعر؟ أمَّا قوله: «أم هل عرفت الدار بعد توهم؟» فمعناه: لمْ أعرفها إلاَّ توهُّماً أنها هي الدار التي كنت أعهد لما أصابها من تغيرُّ. هذا والبيت في اللسان (ردم).

(١) أي: في رواية أبي بكر، أما قراءة حفص عن عاصم فهي: ﴿آتُوني﴾.

(٢) هذا جزءٌ في صدر بيت قاله عمرو بن معديكرب الزبيدي، والبيت بتمامه:

أمَـرْتُـكَ الخَيْـرَ فـافْعَـلْ مـا أُمِـرْتَ بِـهِ ... فَقَـدْ تَـرَكْتُـكَ ذا مـالٍ وذَا نَشَـبِ

وهذا، وقد قيل إن البيت للعباس بن مرداس، وقيل: لزرعة بن السائب، وقيل: لخفاف ابن ندبة، ورُوي في شعر لأعشى طرود. والنَّشَبُ: المالُ الثَّابتُ كالضياع ونحوها، والمالُ: الإبل والغَنَم، أو المالُ عامٌّ في كل ما يمتلك. والشاهد في (أمرتك الخير)، أصله أمرتك بالخير، فحذف حرف الجر وتعدى الفعل إلى المفعول الثاني، ومثله في ذلك قول الشاعر:

أَسْتَغْفِــرُ اللهَ ذَنْبــاً لسْــتُ مُحْصِيَــهُ ... رَبَّ العِبَــادِ إليــه الْــوَجْــهُ والْعَمَــلُ

(٣) أي: المتقابلان.



والكسائي: ﴿الصَّدَفَيْن﴾ بفتح الصَّاد وشدِّها، وهي قراءة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه[1]، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو: [ٱلصُّدُفَيْن] بضم الصاد والدال، وهي قراءة مجاهد، والحسن، وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ: [ٱلصُّدْفَيْن] بضم الصاد وسكون الدال، وهي قراءة أبي رجاءٍ، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي، وقرأ الماجشون بفتح الصاد وضم الدال، وقرأ قتادة: [بَيْنَ الصَدْفين] بفتح الصاد وسكون الدال. وكلٌّ ذلك بمعنى واحد، وهما الجانبان المتناوحان، وقيل: الصَّدفان: السطحان الأعليان من الجبلين، وهذا نحو من الأول.

وقوله: ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ الآية، معناه أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبَر والحجارة، ثم يوقد عليها حتى تحمى، ثم يُؤْتى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد ـ بحسب الخلاف في «الْقِطْر» ـ فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتد استأنف رصف طاقة أخرى إلى أن استوى العمل، وقرأ بعض الصحابة: «بِقطْرٍ أُفْرغْ عَلَيْه».

وقال أكثر المفسرين: «القِطْرُ»: النحاس المذاب، ويؤيد هذا ما رُوي عن رسول الله ﷺ، جاء رجلٌ فقال: يا رسول الله، إنِّي رأيتُ سدَّ يأجوج ومأجوج، قال: كيف رأيتَهُ؟ قال: رأيته كالبُرْد المُحَبَّر، طريقة صفراءُ، وطريقة حمراءُ، وطريقة سوداءُ، فقال رسول الله ﷺ: قد رأيته[2]. وقالت فرقة: «القِطْر»: الرصاص المذاب، وقالت فرقة «القِطْر: الحديد الذائب. وهو مشتق من قَطَر يَقْطر.

والضمير في قوله: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ ليأجوج ومأجوج. وقرأ فرقة: [فما اسطاعوا] بسكون السين وتخفيف الطَّاءِ، وقرأت فرقة بشَدِّ الطَّاء، وفيها تكلُّف للجمع بين السَّاكنين. و[يَظْهَرُوهُ] معناه: يَعْلُوه بصعود فيه، ومنه قوله في الموطأ: (والشَّمس في حُجْرتها قَبْلَ أَنْ تَظْهَر)[3]. ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لبُعد عرضه وقوته، ولا سبيل

---

(١) وبها قرأ عاصم في رواية حفص.

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن مردويه، عن أبي بكرة النسفي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في المواقيت، ومسلم في المساجد، وأبو داود في الصلاة وكذلك الترمذي، والنسائي في المواقيت، والدارمي في الصلاة، وهو كذلك في الموطأ في الصلاة، وهو في البخاري حديث طويل، ذكر فيه أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أَخَّر الصلاة يوماً فدخل عليه عروة بن الزبير وأخبره أن المغيرة بن شعبة أَخَّر الصلاة يوماً وهو بالعراق فدخل عليه ابن مسعود فقال: ما هذا يا مغيرة..... ثم قال عروة في آخر الحديث: ولقد حدثتني عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ كان يصلي =

سوى هذين، إمَّا ارتقاءٌ وإمَّا نَقْبٌ. وروي أن في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ وعرضه خمسون فرسخاً، ورُوي غير هذا مما لا ثبوت له فاختصرناه إذْ لا غاية للتخرص، وقوله في هذه الآية: [أَنفُخُوا] أي بالأكوار. وقوله: ﴿ٱسْطَاعُوا﴾ بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور، قيل: هي لغة بمعنى: استطاعوا، وقيل: استطاعوا بعينه كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقال: اسْطاع، وحذف بعضهم الطاء فقال: اسْتَاعَ يستيع، بمعنى استطاع يستطيع، وهي لغة مشهورة. وقرأ حمزة وحده: [فَمَا أسطّاعُوا] بتشديد الطاء، وهي قراءة ضعيفة الوجه. قال أبو علي: هي غير جائزة، وقرأ الأعمش: [فما اسْتَطاعوا أن يَظهَروه وَما اسْتَطاعوا لَه نَقْبا] بالتاء في الموضعين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ الآية. القائل هو ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم والقوة عليه والانتفاع به، وقرأ ابن أبي عبلة: [هذه رحمة]. و«الْوَعْدُ» يحتمل أن يريد به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد به وقت خروج يأجوج ومأجوج. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عمر: [دكًّا] مصدر دَكَّ يَدُكُّ إذا هدم ورضَّ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿دَكَّاءَ﴾ بالمدِّ، وهذا على التشبيه بالناقة الدكاء،، هي التي لا سنام لها، وفي الكلام حذف تقديره: جعله مثل دكَّاءَ، وأما النصب في [دكّاً] فيحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً بـ[جَعَلَ]، ويحتمل أن يكون ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى خَلَق وينصب [دكّاً] على الحال، وكذلك أيضاً النصب في قراءة من مَدَّ يحتمل الوجهين.

والضمير في ﴿تَرَكْنَا﴾ لله تعالى، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يحتمل أن يريد به القيامة لأنه قد تقدم ضميره، فالضمير في قوله: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ على ذلك ـ لجميع الناس، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم كمال السَّدِّ، فالضمير في قوله: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ ليأجوج ومأجوج، واستعارة «المَوْج» لهم عبارة عن الحَيْرَة وتَرَدُّد بعضهم في بعض كالوالهين من همٍّ وخوف، فشَبَّهَهُم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الآية. المعنى به يوم القيامة، فلا احتمال لغيره، فَمَنْ تأول الآية كلَّها في يوم القيامة اتَّسق تأويله، ومن تأول الآية إلى قوله: ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ في أمر يأجوج ومأجوج تأول القول: «وتركناهم يموجون» دأباً على مرِّ الدهر

= العصر والشمس في حُجْرتها قبل أن تظهر.



وتناسل القرون بينهم وقيامهم، ثم نفخ في الصُّور فيجتمعون. و«الصُّورُ» في قول الجمهور وظاهر الأحاديث الصحاح هو القرن الذي ينفخ فيه للقيامة، وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقط القرن وحنَى الجبهة وأصغى بالأُذن متى يؤمر)، فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقال: (قولوا: حسبنا الله، وعلى الله توكلنا، ولو اجتمع أهل منى ما أجلوا ذلك القرن)[1] وأما النفخات فأسند الطبري رحمه الله إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (الصُّور قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام﴾[2]، وقال بعض الناس: النفخات اثنتان: نفخة الفزع وهي نفخة الصعق، ثم الأخرى التي هي للقيام. ومَلَك الصُّور هو إسرافيل عليه السلام. وقالت فرقة: الصُّور جمع صورة، فكأنه أراد صور البشر والحيوان نفخ فيها الروح. والأول أَبْيَن وأكثر في الشريعة.

وقوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ معناه: أبرزناها لهم لتجمعهم وتحطمهم، ثم أكَّد بالمصدر عبارةً عن شدة الحال، وروى الطبري في هذا حديثاً مضمنه أن النار ترفع لليهود والنصارى كأنها السراب، فيقال لهم: هل لكم في الماء حاجة؟ فيقولون: نعم، ونحو هذا مما لا صحة له.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ

---

(١) أخرجه أحمد، والطبراني في الأوسط، والحاكم، والبيهقي في البعث، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقد سبق الاستشهاد بهذا الحديث عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام (٥ـ٢٥٠)، وينتهي الحديث كما ذكره في الدرِّ المنثور بقوله: و﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

(٢) الحديث في الطبري، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (لما فرغ الله من خلق السموات والأرض خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر)، قال أبو هريرة: يا رسول الله، مالصور؟ قال: (قَرْن)، قال: وكيف هو؟ قال: قَرْن عظيم يُنفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين). وفي حديث عن الدجال أخرجه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ ذكر أنه ينفخ في الصُّور المرة الأولى فيصعق من في السموات والأرض، ثم ينفخ فيه أخرى).



سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾ كناية عن البصائر؛ لأن عين الجارحة لا نسبة بينها وبين الذِّكْر، والمعنى: الذين فِكْرهم بينها وبين ذكْري والنَّظَرِ في شرعي حجابٌ وعليها غطاءٌ، ثم قال: إنهم كانوا لا يستطيعون سمعاً، يريد: لإعراضهم ونِفارهم عن دعوة الحق.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾ بكسر السين، بمعنى: أظَنُّوا، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن البصري، وابن يَعْمَر، ومجاهد، وابن كثير ـ بخلاف عنه ـ ﴿أَفَحَسْبُ ٱلَّذِينَ﴾ بسكون السين وضم الباء، بمعنى: أكافيهم ومنتهى غرضهم؟ وفي مصحف ابن مسعود: «أَفَظَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا»، وهذه حجَّة لقراءة الجمهور. وقال جمهور المفسرين: يريد كلَّ من عُبد من دون الله تبارك وتعالى، كالملائكة، وعُزَيْر، وعيسى، فيدخل في ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بعضُ العرب واليهودُ والنصارى، والمعنى: إن ذلك ليس كظنهم، بل ليس لهم من ولاية هؤلاء المذكورين شيءٌ، ولا يجدون عندهم منتفعاً.

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: يَسَّرْنَا، و«النُّزُلُ»: موضع النزول، و«النُّزُلُ» أيضاً: مَا يُقَدَّم للضيف والقادم من الطعام عند نزوله، ويحتمل أن يراد بالآية هذا المعنى، إن المُعَدَّ لهم بدل النُّزُل جهنم، كما قال الشاعر:

. . . . تحيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعُ[1]

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ الآية.

المعنى: قل لهؤلاء الكفرة ـ على جهة التوبيخ ـ: هَلْ نخبركم بالذين خسر عملُهم وضلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا، وهم ـ مع ذلك ـ يظنون أنهم يحسنون فيما يصنعونه؟ فإذا طلبوا ذلك فقل لهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾. وقرأ ابن وثاب: «قل سَنُنَبِّئُكُمْ»، وهذه صفة المخاطبين من كفار

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾ من هذه السورة ص ٦٠١ هامش ٤.



العرب المكذبين بالبعث، و[حَبِطَتْ] معناه: بطلت، و﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ يريد: ما كان لهم من عمل خير، وقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ يحتمل أنه لا حسنة لهم توزن في موازين القيامة، ومن لا حسنة له فهو في النار لا محالة، ويحتمل أن يريد المجاز والاستعارة كأنه يقول: لا قَدْر لهم عندنا يومئذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا معنى الآية عندي، وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: (يُؤْتى بالأكول الشروب الطويل فلا يزن جناح بعوضة، ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[1]، وقالت فرقة:

إن الاستفهام تَمَّ في قوله تعالى: ﴿أَعْمَالًا﴾، ثم قال: هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعاً، فقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: هم عُبَّاد اليهود والنصارى وأهل الصوامع والديارات، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هم الخوارج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا إن صحَّ عنه فهو على جهة مثال فيمن ضلَّ سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه محسن. ورُوي أن ابن الكواء سأله عن «الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً» فقال له: أنت وأصحابك، ويضعف هذا كلّه قوله تبارك وتعالى بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾، وليس من هذه الطوائف من يكفر بلقاء الله تعالى، وإنما هذه صفة مشركي عَبَدة الأوثان، فاتجه بهذا ما قلناه أوّلاً، وعليٌّ وسعدٌ رضي الله عنهما ذكرا قوماً أخذوا بحظهم من صدر الآية. وقوله: ﴿أَعْمَالًا﴾ نصب على التمييز، وقرأ الجمهور: ﴿فَحَبِطَتْ﴾ بكسر الباء، وقرأ ابن عباس، وأبو السَّمّالِ: [فَحَبَطَتْ] بفتح الباء، وقرأ كعب بن عُجْرَة[2]، والحسن، وأبو عمرو، ونافع، والناس: ﴿فَلَا نُقِيمُ﴾ بنون العظمة،

---

(١) أخرجه ابن عدي، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج البخاري، ومسلم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾. وقد ذكر الحافظ في (الفتح) هذا الحديث من رواية ابن مردويه.

(٢) هو كعب بن عُجرة الأنصاري، المدني، أبو محمد، صحابي مشهور، مات بعد الخمسين، وله نيف وسبعون حديثاً. (تقريب التهذيب).



وقرأ مجاهد: [فلا يقيم] بياء الغائب، يريد: فلا يقيم اللهِ عزَّ وجلَّ، وقرأ عبيد بن عمير: [فَلاَ يَقُومُ]، ويلزمه أن يقرأ: [وَزْنٌ]، وكذلك قرأ مجاهد: [فلا يقوم لهم يوم القيامة وزنٌ].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ترك إقامة الوزن، و﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ خبر الابتداء في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾، وقوله: ﴿جَهَنَّمُ﴾ بَدَلٌ منه، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ مصدرية. و«الهُزْءُ»: الاستخفاف والسخرية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾.

لما فرغ من ذكر الكفرة والأخسرين أعمالاً عقَّب بذكر حالة المؤمنين ليظهر التباين، وفي هذا بعث النفوس على اتِّباع الحَسَن القويم.

واختلف المفسرون في ﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ ـ فقال قتادة: إنه أعلى الجنة وربوتها، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إنه جبل تتفجر منه أنهار الجنة، وقال أبو أُمامة: إنه سُرَّة الجنة ووسطها، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه يتفجر منه أنهارُ الجنة، وقال عبد الله بن الحارث بن كعب: إنه جنات الكروم والأعناب خاصة من الثمار، وقاله كعب الأحبار، واستشهد قومٌ لذلك بقول أُمَيَّةَ بن أَبي الصَّلْت:

كــانَــتْ مَنَـازِلُهُـمْ إِذْ ذَاكَ ظَـاهِـرَةً ... فيها الْفَرَادِيسُ والْفُومَانُ والْبَصَلُ[1]

---

(١) البيت في اللسان (فوم)، قال: «وقال أُمَيَّةُ في جمع الفوم: (كانتْ لَهُمْ جنَّةٌ إِذْ ذاكَ ظَاهِرَةٌ. . . البيت)، ويروى: (الفراريس) ـ بالراء ـ، قال أبو الإصبع: الفراريس: البصل، وقال ابن دُرَيْد: الفُومةُ: السنبلة»، وقال في مكان آخر: «قال ابن جنِّي: ذهب بعض أهل التفسير في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا﴾ إلى أنه أراد الثُّوَمَ، فالفاءُ ـ على هذا ـ عنده بدلٌ من الثاء، والصواب عندنا أن الفوم: الحِنطة وما يُختبز من الحبوب. وجمعوا الجمع فقالوا: فُومان». وقال في (فَرْدَسَ): «الفِرْدوس: البستان، قال الفراءُ: هو عربي، وقال ابن سيدة: الفِرْدوس: الوادي الخصيب عند العرب كالبستان، والفِرْدوس: الروضة (عن السيرافي)، وقال الزجاج: حقيقته أنه البستان الذي يجمع ما يكون في البساتين».



وقال الزجاج: قيل: إن الفردوس سريانية، وقيل: رومية، ولم يسمع بالفردوس في كلام العرب إلاَّ في بيت حسَّان بن ثابت:

وإنَّ ثَــوَابَ اللهِ كُــلَّ مُــوَحِّــدٍ جِنَانٌ مِنَ الْفِرْدَوْسِ فِيهَا يُخَلَّدُ[1]

وروي أن النبي ﷺ قال: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[2]، وقالت فرقة: الفردوس: البستان بالرومية. وهذا اقتضابُ القول في [الْفِرْدَوْس] وعيونُ ما قيل فيه.

وقوله تعالى: ﴿نُزُلاً﴾ يحتمل الوجهين اللَّذيْن قدمناهما قَبْلُ. و«الحِوَلُ» بمعنى: التحول. وقال مجاهد: مُتَحَوَّلاً، ومنه قول الشاعر:

لِكُــلِّ دَوْلَــةٍ أَجَــلْ ثُــمَّ يُتَــاح لَهَــا حِــوَل[3]

وكأنه اسم جمع، وكأنَّ واحدة حِوَالَة، وفي هذا نظر. وقال الزجاج عن قوم: هو بمعنى الحِيلَةِ في الشغل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف متكلف.

وأما قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ الآية، فروي أن سبب الآية أن اليهود قالت للنبي ﷺ: كيف تزعم أنك نبيُّ الأمم كلِّها ومبعوث إليها، وأنك أُعطيت ما يحتاجه الناسُ من العلم، وأنت مُقَصِّرٌ قد سُئِلْتَ في الرُّوح ولم تجب فيه، ونحو هذا من القول، فنزلت الآية مُعْلمة باتساع معلومات الله عزَّ وجلَّ، وأنها غير متناهية، وأن

---

(١) وهذا البيت أيضاً في اللسان والتاج واستشهدا به على أن الفردوس عربية، ففي اللسان: «قال أبو بكر: ومما يدلُّ أن الفردوس بالعربية قول حسَّان: (وإن ثواب الله.... البيت)، وقال الزجاج، الفردوس أصله رومي ولكن عرِّب».

(٢) أخرج البخاري، ومسلم، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة). والحديث في تفسير الطبري، قال: «عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، أو أبي سعيد الخدري»، ثم ذكر الحديث مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٣) البيت شاهد على أن الحِوَل بمعنى: التحوُّل، قال في اللسان (حول): «والحِوَل»: يجري مجرى التحويل، يقال: حوَّلوا عنه تحويلاً وحِوَلاً، والتحويل مصدر حقيقي من حوَّلت، والحِوَل اسم يقوم مقام المصدر، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، أي تحويلاً، وقال الزجاج: لا يريدون عنها تَحَوُّلاً، يقال: قد حال من مكانه حِوَلاً، كما قالوا في المصادر: صَغُرَ صِغَراً، وعادني حبُّهَا عِوَداً».

الوقوف دونها ليس ببدع ولا نكرٍ، فعبَّر عن هذا بتمثيل ما يستكثرونه وهو قوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى ﴾. و«الْكَلِمَاتُ» هي المعاني القائمة بالنفس، وهي المعلومات، ومعلومات الله سبحانه وتعالى لا تتناهى، والبحر متناه ضرورةً.

وقرأ الجمهور: ﴿تَنفَدَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ عمرو بن عبيد: [يَنْفَدَ] بالياء، وقرأ عبد الله بن مسعود، وطلحة بن مصرف: «قَبْلَ أن تُقْضَى كلماتُ رَبِّي».

وقوله: ﴿مِدَاداً﴾ أي: زيادة، وقرأ الجمهور: (مِدَاداً)، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، والأعمش، ومجاهد، والأعرج: [مَدَداً]، فالمعنى: لو كان البحر مداداً تكتب به معلومات الله عزَّ وجلَّ لنفد قبل أن يستوفيها، وكذلك إلى ماشِئت من العدد؛ لأن مالا يتناهى أكثر منه، فليس بِبِدْعٍ أن أجهل شيئاً من معلوماته تعالى، وإنَّما أنا بشرٌ مثلكم لمْ أُعْطَ إلاَّ ما أُوحي إليَّ وكُشف لي. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: [يَنْفَدَ] بالياء من تحت، وقرأ الباقون بالتاء من فوق[1].

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ الآية. المعنى: إنما أنا بشر ينتهى علمي إلى حيث يُوحَى إليَّ، وَمُهِمُّ مَا يوحَى إلي أَنَّما إلهُكم إلهٌ واحد، وكان كفرهم بعبادة الأصنام فلذلك خصص هذا الفصل مما أوحي إليه، ثم أخذ في الموعظة والوصايا البيّنَةِ الرُّشد. و﴿يَرْجُو﴾ على بابها، وقالت فرقة: ﴿يَرْجُو﴾: يخاف، وقد تقدم القول في هذا إذ المقصد: ممَّنْ كان يؤمن بلقاء ربه، وكلُّ مؤمن بلقاء ربِّه فلا محالة أنه بحالتي خوف ورجاء، فلو عبَّر بالخوف كان المعنى تامّاً على جهة التخويف والتحذير، وإذا عبَّر بالرجاء فعلى جهة الإطماع وبَسْط النفوس إلى إحسان الله سبحانه وتعالى. أي: من كان يرجو النعيم المؤبد من ربِّه فليعمل عملاً صالحاً، وباقي الآية بيِّن في الشِّرك بالله تبارك وتعالى. وقال سعيد بن جبير في تفسيرها: لا يرائي في عمله، وقد رُوي حديث أنها نزلت في الرياء حين سئل رسول الله ﷺ عمَّن يجاهد ويحمده الناس[2]. وقال

---

(١) قد يسأل سائل: لماذا قال الله تبارك وتعالى في أول الآية: ﴿مِدَاداً﴾، وقال في آخرها: ﴿مَدَداً﴾، والمعنى واحد، والاشتقاق غير مختلف؟ أجاب ابن الأنباري عن ذلك فقال: أواخر الآيات السابقة على فُعُلٍ وفِعَل، كقوله: ﴿نُزُلاً﴾، ﴿هُزُواً﴾، ﴿حِوَلاً﴾، ولهذا فإن الأشبه بها هو ﴿مَدَداً﴾ لأنه يحقق اتفاق المقاطع، وتمام السجع مما يجعل الكلام أخف على الألسن، وأحلى في الأسماع.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي الدنيا في الإخلاص، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم عن طاوس قال: قال رجل: يا نبي الله، إني أقف مواقف أبتغي وجه الله وأحبُّ أن يرى موطني، فلم يردَّ عليه شيئاً=



معاوية بن أبي سفيان: هذه آخر آية نزلت من القرآن(١).

كمل تفسير سورة الكهف، والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

= حتى نزلت هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. قال في (الدر المنثور): «وأخرجه الحاكم وصححه، والبيهقي موصولاً، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما».

(١) أخرج هذا الخبر ابن جرير، وابن مردويه، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: «وهذا أثَرٌ مُشْكل، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكيّة. ولعلَّ معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغيّر حكمها، بل هي مُثْبَتة مُحْكَمَة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم».



فهرس الموضوعات





تفسير سورة الرعد



تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل

تفسير سورة الإسراء

تفسير سورة الكهف





* * *



المصارف الوقفية

انطلاقاً من النهضة الوقفية المعاصرة في العالم الإسلامي ورغبة في حسن توجيه العمل الخيري والوقفي سعت إدارة الأوقاف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر إلى توسيع نطاق الوقف وتعدد مصارفه من خلال إنشاء "**المصارف الوقفية**" المتضمنة للمصارف الستة حيث صدر القرار الوزاري رقم (٢٩) سنة ١٩٩٤ بشأن إنشاء أقسام في الوحدات الإدرابة وتعيين اختصاصاتها والذي تضمن إنشاء "**قسم تنمية الوقف ومصارفه**" الذي كان في حينه يحتضن "**المصارف الوقفية**" التي أصبحت قسماً مستقلاً في فترة لاحقة وذلك تحقيقاً لاختصاصاته وأهدافه حيث اشتملت المصارف على مختلف نواحي الحياة الثقافية والتربوية والصحية والاجتماعية ...الخ، وذلك تشجيعاً لأهل الخير وإرشاداً لهم لوقف أموالهم على المشاريع الخيرية التنموية وتنظيماً لقنوات الصرف والإنفاق المساهمة في بناء المجتمع الإسلامي الحضاري.

اختصاصات قسم المصارف الوقفية:

* إعداد الدراسات اللازمة للمشاريع الوقفية الخيرية وتصميمها بشكل يلبي احتياجات المجتمع ويحقق شروط الواقفين وفق الضوابط الشرعية.

* دراسة المشاريع الخيرية المقدمة من الجهات الأخرى وصياغتها بما يتناسب مع أهداف المصارف الوقفية.

* عرض المشاريع الوقفية الخيرية على الراغبين في الوقف أو التبرع واستقبالهم واتخاذ الوسائل الكفيلة بالتواصل معهم.

* التعريف بالوقف والعمل على رفع مستوى الوعي الوقفي لدى أفراد المجمع ومؤسساته.

* تنفيذ ومتابعة المشاريع الوقفية الخيرية والسعي لتطويرها.

وأما المصارف الستة فهي:

١- المصرف الوقفي لخدمة القرآن والسنة.

٢- المصرف الوقفي لرعاية المساجد.

٣- المصرف الوقفي لرعاية الأسرة والطفولة.

٤- المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية.

٥- المصرف الوقفي للرعاية الصحية.

٦- المصرف الوقفي للبر والتقوى.

